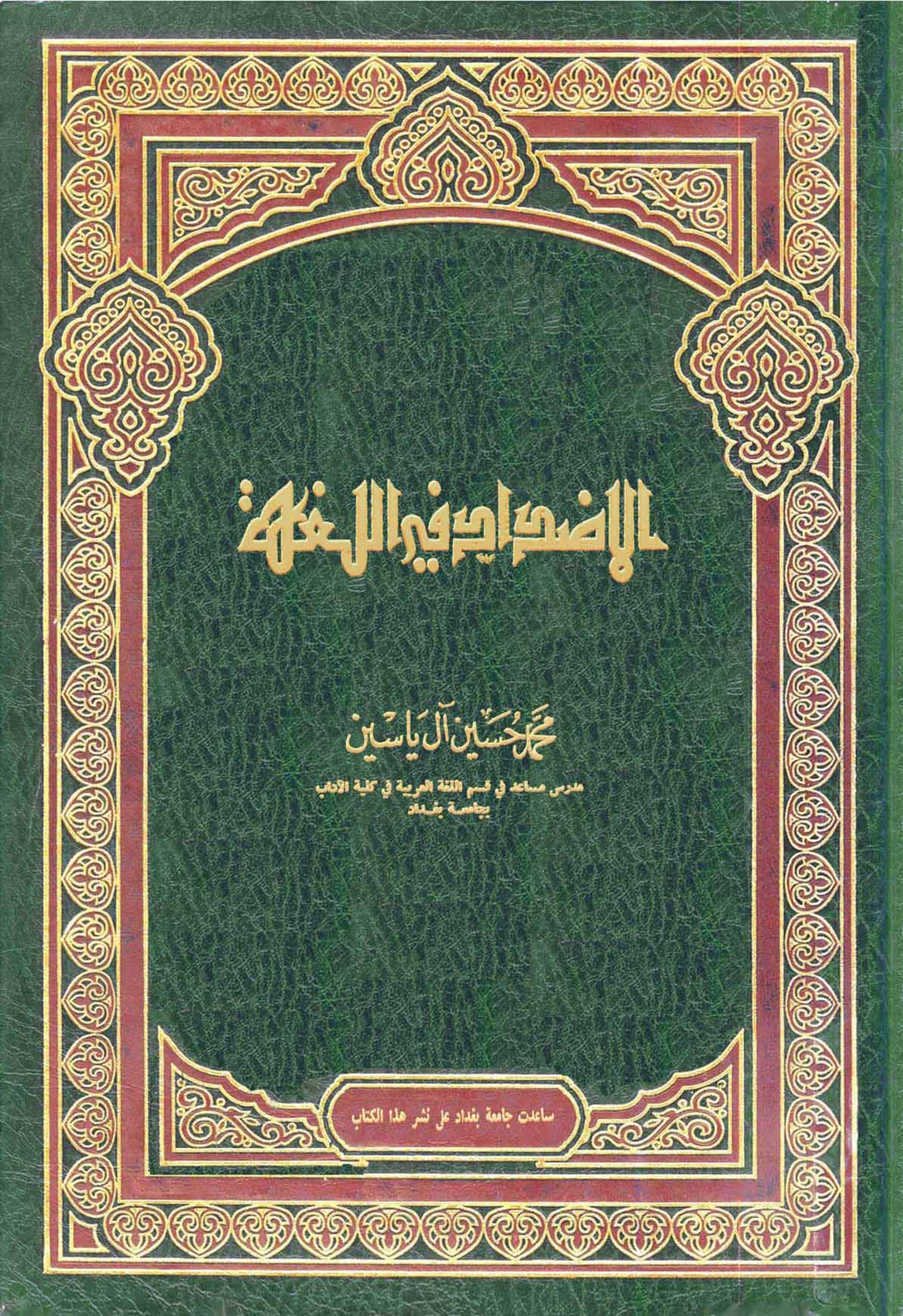

الأضداد في اللغة
محمد حسين آل ياسين
مدرس مساعد في قسم اللغة العربية في كلية الآداب
بجامعة بغداد
ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

- الطبعة الاولى
- ١٩٧٤م ـ ١٣٩٤هـ

- مطبعة المعارف ـ بغداد

الأضداد في اللغة

محمد حسين آل ياسين

مدرس مساعد في قسم اللغة العربية في كلية الآداب
بجامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

هذا الكتاب رسالة جامعية قُدّمت لنيل درجة ماجستير آداب في اللغة العربية ؛ وقد ناقشتها مناقشة علنية صباح يوم ٢١/٦/١٩٧٣ م لجنة مؤلفة برئاسة الدكتور ابراهيم السامرائي (المشرف) ، وعضوية الدكتور مهدي المخزومي ، والاستاذ كمال ابراهيم . وقد منحت بعدها الدرجة العلمية بتقدير (امتياز) في حقل فقه اللغة .

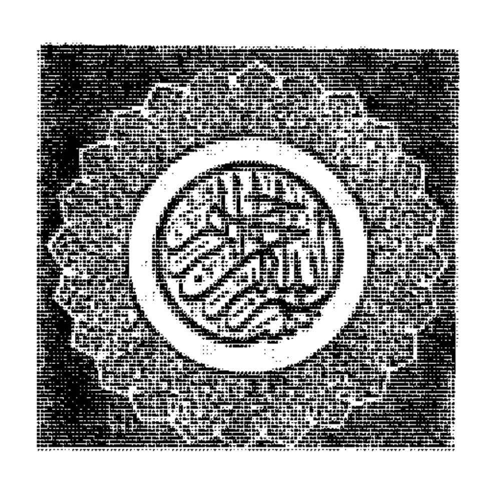


- الى استاذي الكبير الدكتور ابراهيم السامرائي الذي وجدت في اشرافه على اعداد هذه الرسالة كل ما كنت أرجوه من رعاية وتسديد وعلم وتوجيه .

- والى استاذي العلامة الدكتور مهدي المخزومي الذي كان لي من شرف مناقشته للرسالة وما أشار به عليَّ في أثنائها ما يضع قدمي على عتبة الدرب المنور الطويل .

- والى استاذي الباحث كمال ابراهيم الذي يحلو لي - كما حلا لغيري - ان اسميه (الشهيد الجامعي) لانه فارق الحياة ملتحقاً بربه وهو يتمتم بتقدير الدرجة لهذه الرسالة .

محمد حسين آل ياسين



المقدمة

كنت قد قدمت بحثا في السنة التحضيرية من دراسة الماجستير عن (الفعل في القرآن الكريم) ، أدرس فيه استعمالاته الخاصة وصيغه المختلفة وطريقة استخدامه في الجملة وازمنته المتغيرة ، في لغة الكتاب المقدس . فأوقفتني هذه الدراسة ـ في جملة ما أوقفتني عليه ـ على أختلاف القدماء في معاني طائفة من أفعال القرآن ، وتباين آرائهم في تحديد مؤداها في مصدر التشريع الأول ، حتى انهم لمسوا في هذه الأفعال شيئاً من التضاد في انصرافها الى معانيها ، فشوقني ذلك الى زيادة الاطلاع على ما عند القدماء من بحوث تتصل بدراسة هذه الناحية من دلالة الألفاظ . فاذا بـ (الأضداد) ظاهرة لغوية أكثرَ من الوقوف عندها العلماء ، وصنفوا فيها كتبهم ووضعوا لجمع ألفاظها معجماتهم ، ولم يقصروا جهودهم على تلمّس صورها في القرآن وحده بل تعدوا ذلك الى الحديث والشعر والامثال ولغة التخاطب ، مدفوعين الى ذلك بدافعين : استظراف هذه الألفاظ من جهة ، وخدمة لغة القرآن من جهة اخرى .

فكان ذلك حافزا دفعني الى بحث ظاهرة الأضداد في اللغة ، بعد أن وجدت ان ما تركه لنا القدماء من آثارهم في دراستها يصلح أن يكون مادة أولية غنية لمثل ما أقدمت عليه . وعمّق هذا الحافز في نفسي ما أحسست به من رغبة قديمة في ولوج هذا الميدان من الدراسة اللغوية، والخوض فيه لكشف اسرار اللغة وغوامضها وفقه أساليبها ومخلفاتها التاريخية . ثم تبلورت هذه الرغبة في دراسة الأضداد ، عندما ألفيت ان

الحاجة الى مثلها لدى الدارسين والمعنيين بالعربية قائمة حتى الآن بالرغم من تزايد مقالاتهم وتوالي بحوثهم المختصرة فيها . فهذا (فايل) مثلا يتكلم على الأضداد ويعرض لآراء المستشرقين ، مطلعا على أهم ما ألفه القدماء فيها وما فسروه منها ، ومع ذلك فهو يصرح بعدم كفاية كل ذلك في دراسة الأضداد ، ويسجل حاجة الدراسات العلمية الحديثة الى بحث جديد ، ويقول : « وان رسالة تجمع الأضداد وتتميز بالاستقلال في البحث ، مع العناية باللهجات المختلفة واللغات المتقاربة ، لتمدنا بمعلومات هامة ، تعيننا في فهم تاريخ الحضارة : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٥» .

* * * *

وحين توجهت الى الموضوع أرسم منهجه وأحدد جوانبه ، وجدته بطبيعته منقسما الى بابين كبيرين : الأول للاضداد وهي فكرة ، والثاني للاضداد وهي آثار . ولما كنا في هذه الدراسة بصدد ظاهرة لغوية تتعلق بتاريخ العربية القديم ، وهي ايضا من طرائق نمو العربية وتوسعها ، كان لا بد من الوقوف على تاريخ العربية العام ، وتاريخ نقوشها المكتشفة ولهجاتها البائدة والمشكلات الناجمة عن انقطاع اسباب العربية المنقرضة بالعربية الحاضرة، والتعرض من خلال ذلك الى الوسائل التي توسلتها اللغة في نموها وتوسعها وزيادتها ، فكانت هذه هي مفردات التمهيد الذي مهدت به لدراسة الأضداد .

وجعلت الباب الاول على ثلاثة فصول ، خصصت الأول منها لبحث الدلالة في اللفظ والصوت ، والعوامل التي تساعد على تطورها وتغير مجالها . وعرضت لنماذج مختلفة من آثار القدماء وتواليفهم في دلالة اللفظ ، ذلك ان دراسة الأضداد دراسة دلالية قبل كل شيء ، فلا بد من الوقوف على حقيقة الدلالة في اللغة وقوفا شاملا ليتم الفهم الدقيق لفكرة الضدية ، ويسير البحث فيها على هدى هذا الفهم فكان الفصل

الثاني مبنيا على هذه الصلة ، اذ توسعت فيه لبيان تحديدات القدماء لفكرة التضاد وتقسيماتهم لألفاظ اللغة ، وفهمهم للرابطة التي تربط الاشتراك بالتضاد ، والاختلاف القائم من هذه الناحيــة بـين اللغويين أنفسهم مــن جهة ، وبينهم وبين المناطقة والمتكلمين من جهة اخرى ، مسجلا خــلال ذلك رأيي الخاص فيما أعرض لـه من أفكار ، ثم تكلمت على ظـروف نشأة الأضداد بشيء من التفصيل في العرض والافاضة بالأمثلة ، للوصول الى الحقيقة التي تمسكت بها والتي تقضي بعدم اصالـة الضدية في هذه الألفاظ • على ان القدماء كانت لهم مواقف متباينة من الأضداد ، فجردت الفصل الثالث لعرض مواقفهم منها وبيان مناهجهم في درسهـا ، وتكلمت على أدلة المدافعين عن الأضداد وأدلة المنكرين ، جاعلا كل جماعة منهما طوائف عدة ناظرا في ذلك الى اختــلاف المنهج وتغير الأدلـة وخلوص النية • ثم عرجت على المحدثين من المستشرقين والعرب أعرض لآرائهم وتوصلاتهم في بحوثهم عنالاضداد ، وذلك لاكسب البحث صفة الأمانة والوفاء لمن سبق الى دراسة شيء يتصل بأحد جوانب الرسالة •

أما الباب الثاني فقد جعلته على ثلاثة فصول كالباب الاول ، تكلمت في الفصل الاول على تدوين اللغة وتاريخه ومكان تدوين الاضداد منه ، وقدمت مســردا بأسماء مؤلفي كتب الاضــداد الذين استطعت أن أقف عليهم في المصادر والفهارس القديمة والحديثة ، مرتبا اياهم حسب تواريخ وفياتهم ، ناصا على المظان التي ذكرت كلا منهم ، مشيرا الى ما كان ذكــره نتيجة وهم أو خطأ • ثم درست روايــة الاضداد : متى بدأت ، وكيف تطورت واتسعت ، ومن هم أوائل الرواة ، وعمّن أخذ الاضداديون ، وما أشبه ذلك مما يتصل بالرّواية ، خاتماً ذلك بتخطيط شجرة للروايــة البصرية للاضداد واخرى للرواية الكوفية وثالثة عامة ، توضح ما تكلمت عليه • وجعلت الفصل الثاني الذي يليه خاصا بدراســة كتب الاضداد ،

أدرس في كل منها منهج المؤلف ومصادره وأثـر المدرسة اللغويـة التي ينتمي اليها وطبيعة المواد التي يبحثها ، وتأثره بمن سبقه وتأثيره في مـن جاء بعده ، جامعا آراء من لم يصل كتابه في الاضداد ، مكونا منها صورة قريبة من كتابه المفقود نستطيع دراستها وتبين منهجها كما فعلنـا ذلك في الكتب الاخرى • ولما كان اعتمـاد هذه الكتب فيما تورده من الأضـداد على الشاهد ، كان الفصل الثالث امتدادا للفصل السابق ، حيث نـاقشت فيه هذه الشواهد ـ شعريـة وقرآنيـة ـ وحاكمت ظروفهـا التي قيلت فيها ، مبينا ما تحتمله من تغير المناسبة واختلاف البيئة والتطور في الاستعمال ودخول التصحيف والوضع ، وما ينشأ عنه الاختلاف في تفسير الآية مقيسة على الشعر • ثم انتقلت الى كلام على المعجمات اللغوية يتصل بالكـلام على الشواهد ، من حيث ان هذه المعجمات مصادر تاريخيـة عن اللغـة قبل ان تكون كتبا جامعة لموادها ، يجب الوقوف عندها وتملّي حقائقهـا الى جانب النصوص الشعرية والنثرية القديمة •

وانهيت الرسالة بخاتمة قدمت فيها خلاصة البحث ونتائجه العامة والخاصة التي توصلت اليها خلالـه ، والجديد الذي أضافتـه هـذه الرسالـة الى الدراسات اللغوية بشكل عام ودراسات الاضداد بشكل خاص •

* * * *

أما المصادر التي اعتمدتها في هذه الرسالـة فهي ـ مـا كان منهـا مطبوعاً أو مخطوطا ـ تنتظم عدة طوائف ، هي :

١ ـ كتب الأضداد ، وهي مادة البحث الأولية ، وقد رجعنا في الهامش الى اسم المؤلف في كل منهـا ، وذكرنـا رقم الصفحـة التي عليها المجموع الذي يضم الكتاب ، أو المجلـة التي نشر فيهـا ، توخيـا للسهولة في الرجوع اليـه •

٢ ـ المؤلفـات الأخرى للاضداديين ، سواء منهم من وصـل كتابـه في

الاضداد ومن لم يصل ، لمعرفة ما اذا كان للاول رأي يخالف ما دونه في كتابه . والوقوف على رأي الثاني في الاضداد في مؤلفاته الاخرى .

٣ ـ كتب القرآن التي تبحث غريبه ومجازه ومعانيه ومشكله وتفسيره وقراءاته .

٤ ـ كتب فقه اللغة والنحو والبلاغة والمعجمات اللغوية .

٥ ـ النوادر والامالي ومعاني الشعر والأمثال .

٦ ـ كتب الطبقات والسير والتراجم والانساب .

٧ ـ دواوين الشعر .

٨ ـ فهارس الألفاظ والكتب والمراجع والمعلمات .

٩ ـ كتب المنطق والوضع والفلسفة .

١٠ـ الدراسات المعاصرة في فقه اللغة وأصواتها وابنيتها ، وبحوث تاريخ الادب ونقده .

١١ـ الاطالس والخرائط الجغرافية .

١٢ـ المجلات .

والرجوع الى الامهات من هذه المصادر لا يخلو من مخاطر ومشكلات ، ذلك أن القدماء كانوا شديدي التعصب لمذاهبهم العلمية والدينية ، يرون أن كل ما يخالف آراءهم ومواقفهم مما يجب أن يهمل ويطرح ، أو يردّ ويناقش على أحسن الفروض ولكن بروح منحازة . ونحن كثيرا ما نضطر الى أن نستقي آراء كثير من الدارسين الذين لم تصل الينا مؤلفاتهم في الاضداد ـ وكان لهم منها موقف خاص ـ من الكتب التي تتوفر بين أيدينا ، وفيها هذا الموقف المغاير والروح المنحازة وهي في معرض الردّ على تلك الآراء ، فما مقدار الامانة في نقل الرأي المخالف ؟

كما ان بقاء كثير من مؤلفات الأضداديين ـ الذين لم تصل مؤلفاتهم ـ

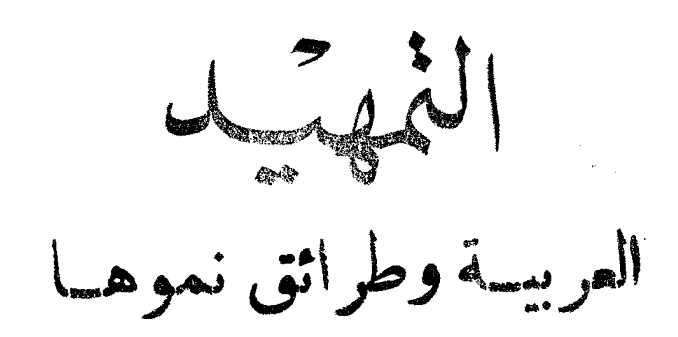
ضائعا ، يلزمنا بعدم القطع بأن آراءهم التي أحصيناها لهم في الأضداد هي كل ما سجّلوه وقالوا به ، غير اننا نعذر أنفسنا من هذه الناحية ، لأن ضياع الكتاب لا يد لنا فيه ، واننا استوعبنا ما يجب استيعابه من مؤلفاتهم ومن كتب الاضداد الاخرى . على اننا من جانب آخر نقول : ليس من الضروري أن يكون المؤلف الذي ضاع كتابه في الأضداد قد ضمَّن هذا الكتاب كل آرائه فيها ، بل سنجد أنَّ من الأضداديين الذين وصلت الينا كتبهم من لم يضمّن كتابه كل آرائه في الأضداد ، كالصغاني الذي دخر لمعجمه (التكملة والذيل والصلة) أشياء لم يدوّنها في كتابه .

والمصادر كثيرا ما تحجب عنا حقائق مهمّة ، جهلا بها مرّة وتجاهلا مرات ، ولو كانت قد عنيت بذكرها والاهتمام بها لتذللت أمامنا صعاب وتوضّحت غوامض ، أهمها انها لا تنص على اختلاف الناطقين وتباين بيئاتهم اللغوية في أغلب ما تتعرض له من الخلافات الدقيقة في الاستعمال . كما لا تقيد ما تنقله من رأي ومادة بمصدره الذي استقت ذلك منه في أحايين كثيرة . مهملة ذكر الراوي أو مكتفية بكنيته التي تتحد مع كنية راو آخر ، ومعرضة عن نسبة الشاهد الشعري الى قائله تارة ، وناسبة اياه في موضعين مختلفين الى قائلين اثنين ، مما يتسبب عن ذلك كله ضياع معلومات مهمّة في سبيل البحث ، وبالتالي بذل الجهود المضاعفة من قبل الدارس لاعادة الاشياء الى نصابها الصحيح .

* * * *

وأخيرا ، فاني أجد لزاما عليّ أن أقدم للاستاذ المشرف الدكتور ابراهيم السامرائي أعمق الشكر على حسن رعايته وتوجيهه . فقد كان لملاحظاته المنهجية السديدة التي أخذت بها في هذه الرسالة الدور الكبير في أن تظهر على الشكل الذي ظهرت به . ومن الوفاء أيضا ان اقدم شكري الى جميع الأصدقاء الباحثين الذين أمدّوني بالعون والمساعدة خلال قيامي بكتابة هذه الرسالة . آملا أن يكون الجهد الذي بذلته ، والذي لم أدخر منه شيئاً ، قد آتى أُكُلَه الطيّب . اذ لم أبخل على كل ما في هذه الرسالة باعادة النظر والتدقيق والتثبّت .

والله من وراء القصد ، وهو ولي التوفيق .



التمهيد

العربية وطرائق نموها



ربّما كانت العربية بدعا من بين اللغات الساميّة ، وذلك لأننا لا نعرف عن تاريخها القديم مثلما نعرف عن اللغات الساميّة الأخرى ، حيث ان نقش النمّارة الذي يرجع تاريخه الى سنة ٢٢٨ بعد الميلاد لا يمكن أن يكون مادّة مفيدة تفصح عن تاريخ العربيّة • ثم ان العربيّة التي اكتشفت نصوصها في نقوش اليمن لا يمكن أن تكون بداية للعربية المعروفة وذلك للبون الواسع الذي يفصل العربيّة المعروفة في الشعر الجاهلي عن هذه العربية الموجودة في نقوش اليمن • ولذلك فان لغات اليمن وان كانت قريبة من اللغات العربية ، فهي شيء قائم بذاته يدرس على أنه لغات يمنيّة خاصة • ولذلك ايضا لابد من الرجوع الى العربية كما ورثناها في نصوص الشعر الجاهلي • وفي هذه النصوص نلمس مستوى عاليا لهذه اللغة المتطوّرة الآخذة من الحضارة بقسط كبير وذلك أنها من حيث بناؤها الخارجي اتسّعت للفكر العالي ، فهي تفصح عن الحكمة والاخلاق كما نجد ذلك في معلقتي زهير ولبيد وهي تتسع للكثير من دقائق الأفكار ، وعلى هذا فلا يمكن أن تكون النصوص مفصحة عن مراحل العربية الأولى أو قل عن اللغة البدائية ، وعلى هذا أيضا فلا بدّ أن تلتمس خصائص العربية في مراحلها الأولى في غير هذه النصوص أو أننا نتبع طرائق خاصة في الكشف عن العناصر اللغوية التي تتميز بها اللغة القديمة •

والذي يظهر من الدراسات أن هنالك عربيتين احداهما بائدة وهي التي تسمّى عربية النقوش التي بادت لهجاتها قبل عربيتنا المعروفة بمدة غير قصيرة ، وكان الخط والطابع الآرامي طاغيين عليها ، ذلك لتطرفها عن الموطن الأصيل للعربية في الحجاز ونجد ، ومن هذه اللهجات البائدة : الثمودية وتاريخ نقوشها يعود الى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وبها أصوات هجائية قريبة من السبئية ، وهي قريبة في تاريخها نسبيًا الى تاريخ

العربية المعروفة ، واذ تكون نقوش هذه اللهجة في وسط الجزيرة يرجح القول بأنها تتبع العرب الذين هاجروا من أقصى الجنوب • ومن هـــذه اللهجات ايضا : الصفوية وهي التي عثر على نقوشها في منطقة الصفـــا الصخرية البرية ، وعلى الأخص قرب الحرة المجاورة لجبل الدروز غير بعيد من دمشق ، وتاريخ هذه النقوش يعود الى ما بين القرنين الثـالث والسادس الميلاديين ، واذا صح أن بعضها يعـود الى القـرن السادس الميلادي فانه تاريخ ملتصق بأول عربيتنا الجاهلية • ومن هذه اللهجات : اللحيانية وكانت قبائل لحيان الناطقة بهذه اللحيانية تسكن منطقة العـلا شمالي الحجاز قبل الميلاد ، والراجح أن تاريخ نقوشها يعود الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ قبل الميلاد أي أنها تعود الى العصر الهليني ، حيث شاع الخط الآرامي الذي كتب به النبط في منطقة هذه النقوش وتاريخها بالنسبة للعربية الباقية بعيد جدا[١] •

أما النقش المدون على قبر القيض بنت عبد مناة والذي بناه كعب بن حارثة ، والمؤرخ سنة ٢٦٢ بعد دمار مملكة النبط أي سنة ٣٦٨ ميلادية ، ونقش النمارة الذي أشرنا اليه في صدر هذا الموضوع[٢] ، والذي يرجع تاريخه الى سنة ٢٢٨ ميلادية في مدفن امـرىء القيس بن عمـرو ملك العرب • أقول : هذان النقشان هما أقرب النقوش لغة الى العربية الباقية ، وان كان بعد العهد يضعف هذا القرب ، الا أن العلماء استأنسوا بهما على وجود سبب بين العربية البائدة والعربية الباقية ، محاولة منهم للوصل بين

---

(١) انظر اللغات السامية (نولدكه) ٦٩ ، ودراسات في فقه اللغة ٥٥ ، وفقه اللغة (وافي) ٩٢ـ٩٣ • وفي اللهجات العربية ٣٣ـ٤٥ وتاريخ اللغات السامية (ولفنسون) ص ١٧٥ وما بعدها •

(٢) النمارة : قصر صغير للروم في الحرة الشرقية من جبال الدروز ، انظر : دراسات في فقه اللغـة ٥٥ وتاريخ اللغـات السامية ١٧٨ ، ١٩٠ •

العربية المعروفة الباقية وبين شيء من تاريخ ، على أن علماء الافرنج ـ كما يقول ولفنسون ـ يرجحون أن الخط العربي نشأ ونما بين عهد نقش النمارة وبين عهد نقش زَبَد ، أي في القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد[٣] .

ومهما يكن من أمر فان عربية الشعر والنثر الجاهليين هي غير تلك من وجوه كثيرة ولا يمكن أن تمتد ـ بما يتوفر لدينا من نصوص ـ الى أبعد من أوائل القرن السادس الميلادي ، أو الى ما تحدده روايات مصادرنا العربية باسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام[٤] . وبالرغم من أن كثيرا من هذه الروايات دخلتها الاسطورة ولعب شغف الاوائل بعربيتهم وحبهم لها دوره الكبير فيها ، وكانت رغبتهم في أن تكون العربية قديمة قدم آدم وجليلة جلالة الانبياء ومقدسة قداسة الجنة مما دفعهم الى أن تكون كذلك[٥] . ومن يطالع هذه الاخبار يجدها ـ وهي غير مؤيدة بالبرهان التاريخي أو العلمي ـ متناقضة فيما بينها مختلفة فيما تنقله ، فمرة يكون اسماعيل أول من تكلم بالعربية ومرة يكون آدم هو أول من تكلم بها . واذا كانت هذه الاخبار تشير الى شيء فلعلها تشير الى أن واضعيها لمسوا المشكلة وتحسسوها ، أعني مشكلة بدء العربية وتاريخ هذا البدء ومكان انبثاقها والأقوام الاولى التي تكلمت بها وجذورها اللغوية القديمة وما الى ذلك مما هو موضع درس الباحثين والعلماء والمنقبين الى اليوم .

وعلى كل فاللغة العربية كما نعرفها اليوم ، سيطرت على الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي ـ كما أشرنا قبل قليل ـ بشكل واسع ، وعلى مستوى الانشاء الفني المتمثل بالشعر الذي ازدهر حينذاك مستخدما

---

(٣) تاريخ اللغات السامية ٢٠١ .
(٤) المزهر ١/٣٢ـ٣٣ .
(٥) المزهر ١/٣٠ .

لغة موحدة راقية الى حد بعيد ، وقد انتشرت هذه العربية في أغلب المناطق التي كانت تشغلها من قبل اللغات السامية والحاميّة ، أي في كـل وسط الجزيرة العربية وشماليّها حتى أسفل الفرات وما وراء ذلك • أمّا كيف احتلت العربية ما كانت تحتله اللغات المذكورة من أقاليم واصقاع ، فقد حدث ذلك عن طريق الصراع اللغوي الطبيعي الذي يحدث تلقائيا بين كل لغتين متجاورتين بفعل الاحتكاك المستمر بينهما ، وتلعب عوامل مختلفة دورها في ترجيح الكفة لاحدى اللغتين فيكون لها النصر والاستتباب كما حدث لهذه العربية التي نتحدث عنها ، أما هذه العوامل فكثيرة منها العامل السياسي والعامل النفسي أو الاجتماعي الذي يشمـل النظـم والعـادات والتقاليد ، والعامل الجغرافي وغير ذلك من عوامل مساعدة ، وقد عرض لهذا الموضوع ـ موضوع عوامل انتشار اللغة وصراعها ـ جملة باحثين قدماء ومحدثين في مؤلفاتهم ومصنفاتهم (٦) •

المهم أن العربية استتب لها الأمر في الجزيـرة بشكل نستطيـع ان نسميّه لغة موحّدة بالرغم من وجـود الخـلافات الصغيرة المتعددة التي نلمحها بين لهجات مختلف القبائل ولدى شعرائها • وبالرغم من علمنا أن كثيرا من الشعراء الذين كانوا يطوفون في أرجاء الجزيرة وبين قبائلها قد طمسوا ـ اذا صح التعبير ـ شيئا مهمّا من هذه الفـروق الدقيقـة بـين اللهجات ، وقد ساعد على هذا الطمس التدوين المتأخر لأشعار الجاهليين « غير أن الصرامة المطلقة لبحور الشعر وقوافيه • تضمن لنا صلاحيـة القوانين اللغوية في مجموعها لهذه الاشعار • ويمكن للمرء أن يظن أن لغة الشعر كانت ـ على الأقل ـ بالنسبة لمعظم العرب ، لغة فنيّة مصنوعة ،

---

(٦) انظر مثلا : مقدمة ابن خلدون ٣١٨ ، والتطور اللغوي التاريخي ٢١ وما بعدها ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٥٠ـ٥١ ، ودروس اللغة العبرية ٥ـ١٤ •

وأن بعض القبائل اتخذت لغة القبائل الأخرى لغة للشعر ، وان ذلك كان يناسب الشعراء الرحّالة الذين يتكسّبون بالفن مثل النابغة والأعشى »[٧].
يضاف الى ذلك أنه لو كانت هنالك بين اللهجات لهجة شديدة الانحراف عن هذه العربية المستقرة في نصوص الشعر الجاهلي لتعصّت على الخضوع لبحور الشعر المعروفة التي ما كان يمكن لمثل هذه اللهجات أن تفلت من قواعد هذه البحور وصرامة تفعيلاتها .

والعربية بعد ـ شأنها شأن كل اللغات المتّسعة والممتدة خارج حدود رقعتها الأصلية ـ لم تسلم من الانقسام والتطوّر والتغيّر ، ويرجع الباحثون سبب هذه التطوّر الى : « تأثير اللغات الأجنبية ، التي يمكن أن تكون قد احتكّت بها اللغة العربيّة . ولكن هذا التأثير لا يمكنه أن يشترك في ذلك الاّ بقدر ضئيل جدا . ولو فرض أن الأمر ليس كذلك ، لتحتّم ألاّ تتغيّر اللغة العربية في داخل الجزيرة العربية مطلقا . غير أن المرء يتكلّم الآن هناك أيضا لغة تختلف تماما عن قبل ألف سنة مضت »[٨] فالمسألة ليست مسألة احتكاك بلغات أجنبية ، وانما هو عامل الزمن والبيئة وتطور الحياة والحضارة والميل الفطري المستمر الى سهولة النطق وتطور العقلية وميلها الى الكناية والاشارة والتلميح والتجريد وغير ذلك مما يؤثر تأثيره الايجابي في تغيّر اللغة وتطورها . على أن العربية كانت وما تزال صالحة لمعالجة الاشياء المجرّدة ، وطواعيتها لأن تكون أداة طبيعية لفلسفة علم الكلام ، حيث « يوجد في اللغة البدوية القديمة ميل نحو استعمال المصادر الصريحة بعكس اللغة اللاتينية فمثلا يفضل المرء أن يقول (ضروريّ جلوسك) على أن يقول (ضروري أن تجلس) وأن يقول (في قتلك برء لنا) على

(٧) اللغات السامية ص ٧٤ .
(٨) اللغات السامية ٧٥ ، والى مثل هذا الرأي كان قد ذهب ابن خلدون في مقدمته ٤٨٩ .

أن يقول (برء لنا أن تقتل) وقد كان هذا الميل خاصيّة كبرى للتعابير الفلسفية »[٩] . وهي خصيصة من خصائص العربية مهمة تدلّ على سعة المدرك وتقبّله للأمور المعنوية غير الملموسة . وهناك خصيصة أخرى لغوية هي على جانب كبير من الاهمية ألا وهي دلالة غير الكلمات في العربية على كثير من المعاني « مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف . ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال الى الذّوات من غير تكلّف ألفاظ أخرى . وليس يوجد ذلك الاّ في لغة العرب ، وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابدّ له من ألفاظ تخصّه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب »[١٠].

وللعربية غير هذا خصائص عامّة امتازت بها ربمّا كانت تعبّر عن مفاهيم العرب وتقاليدهم الاجتماعية منها : انتماء مجموعة من الالفاظ الى أصل واحد في المعنى وأن ذلك جار في جميع مشتقات هذا الأصل مهما اختلف الزمان والمكان قد يقابله عندهم توارثهم لمكارم الأخلاق وان هذه الروابط الاشتقاقية بين الالفاظ تعبّر عن روابط الجماعة وتضامنها فيما بينها عن طريق اللغة . وان هذا الاضطراد في الاشتقاق ووضوح وسائله وثباته مكّن العرب من تمييز الدخيل الملحق الذي لا صلة معنوية له بالمادة الاشتقاقية . وان الكلمة فيها عنصران ثابتان في اللغة : عنصر مادي هو الحروف وعنصر معنوي هو معناها العام الذي تنصرف اليه هذه الكلمة . وان كثيرا من ألفاظ العربية تهدينا الى مفاهيم العرب وعاداتهم القديمة بشكل صريح وواضح ، وذلك بتوسل المجاز والاشتقاق في معرفة هذه الالفاظ . فالمسكن مكان السكينة ، والعقل يعقل صاحبه عن الشر وليس الادراك والنضج فقط . والشريف هو المرتفع بأخلاقه لأن الشرف

(٩) اللغات السامية ص ٧٥ .

(١٠) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٢ .

هو الارتفاع . والجار هو من تمنع عنه الجور . والمرء والمرأة من أصل واحد ومنهما المروءة[11] . الى غير ذلك من الصور اللغوية التي تدلنا بوضوح على فكر القوم ونمط معيشتهم .

هذه الأمور بمجموعها هي من الخصائص الكثيرة التي امتازت بها هذه اللغة وعبرت عنها منذ أن وجدت وتكلم بها المتكلمون . والعربية على هذا تعتبر في بعض التقسيمات من (اللغات المرتقية) التي تمتاز « بسعة نطاقها واحتوائها على أكثر ما يحتاج اليه الانسان من أنواع التعبير ، ومنها لغات العالم المتمدّن »[12] ، وهي كذلك من اللغات (المتصرفة) في تقسيم اللغات الى : متصرفة وغير متصرّفة[13] . وقد حفلت هذه العربية بثروة ضخمة جدا من الألفاظ التي لو جمعنا ما دونت المعجمات اللغوية منها مضيفين اليها ما فات هذه المعجمات لكان بين أيدينا كميّة كبيرة قد لا نجد مثلها في لغة قريبة أخرى ، حيث ان العربية ظلت طوال عصورها المديدة تزيد هذه الثروة وتوسّعها وتضيف اليها أشياء جديدة لا قبل لها في العصور الأولى بمثل هذه المستحدثات . وقد توسلت العربية لهذا التنامي بوسائل كثيرة نعرض لها الآن واحدا واحدا .

القلب

هو عبارة عن تقديم بعض اصوات الكلمة على بعض لصعوبة تتابعها الاصلي على الذوق اللغوي[14] ، مثل يئس وأيس ، وجبذ وجذب وبكل ولبك . . الخ ، ولهذه الظاهرة امثلة لا تحصى كثرة في العربية الفصيحة ، وتعليل ذلك هو ميل الناطق الى السهولة واليسر في كلامه .

---

(11) فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٧٠ وما بعدها .
(12) الفلسفة اللغوية ٢١ .
(13) الفلسفة اللغوية ٢١ .
(14) انظر : نشوء اللغة العربية ونموها ١٦ـ١٨ ، ومقدمة لدرس لغة العرب ٢١٤ ، وتاريخ اللغات السامية ١٦٥ .

ويلاحظ أن بعض الكلمات المقلوبة ، بعد أن تشيع على الالسنة ، تأخذ مجراها الطبيعي في اللغة باستعمال باقي المشتقات منها ، ولما لم يدرك اللغويون العرب ذلك حكموا باصالة بعض المقلوبات ، والظاهر أن النحاة واللغويين كانوا في خلاف فيما بينهم في هذا التفسير[١٥] ، وقد عدّ ابن فارس القلب من سنن العرب وجعله على شكلين : قلب في الكلمة كجبذ وجذب، وقلب في القصة كقولهم : كان الزناء فريضة الرجم[١٦] . ونفى ابن فارس ان يكون في القرآن شيء من المقلوب ، ونستشعر من هذا النفي انه ادرك ان كثيرا مما أسموه بالمقلوب من الألفاظ غير فصيح . وقد ضمّت كتب اللغة طائفة من هذه الألفاظ المقلوبة دون ان تنص أنها مقلوبة ، من ذلك : فجر و فرج ، وسلط وسطل وجمر ورجم وغير هذا[١٧] . والظاهر ان القلب يحدث في الغالب اعتباطا أي دون قاعدة محددة يسير عليها سوى الميل لتخفيف اللفظ أو للتفنن فيه ، وهو أقل من الابدال عددا وأندر وقوعا في العربية[١٨] ، على أننا لا نعدم ان نجد له آثارا في بعض اللغات السامية ، ففي العبرية مثلا نقول :

[illegible]

وغير ذلك[١٩] .

وقد عد كثير من علماء العربيّة القلب لهجتين مختلفتين ، فكل من صورتيه لهجة قبيلة . وأول من أشار الى ذلك الخليل بن احمد[٢٠]،

---

(١٥) المزهر ١/٤٨١ ؛ ونقل السيوطي عن ابن دريد هذا المعنى من الخلاف: المزهر ١/٤٧٦ .

(١٦) الصاحبي ١٧٢ وعنه في المزهر ١/٤٧٦ ومثله في فقه اللغة للثعالبي ٥٦٥ .

(١٧) التطور اللغوي التاريخي ١١٦ .

(١٨) الفلسفة اللغوية ٥٩ وفقه اللغة وخصائص العربية ٦٨ .

(١٩) تاريخ اللغات السامية ١٦٥ .

(٢٠) العين المطبوع ص ٣٢٩ مثلا .

الذي كان في منأى عما أحدث البصريون بعده من خلط بين القلب اللغوي والقلب النحوي حين لم يفرقوا بين القلب في : (جذب وجبذ) وبينه في : (هارٍ وهاير)[٢١] • ومن الغريب حقا أن يكون القلب خالقا للتضاد أحيانا ، فقد نقل عن : « ثعلب عن ابن الاعرابي : الرّوش الاكل الكثير ، والوَرش الاكل القليل» [٢٢] ، وليس من الضروري لتفسير ذلك ان نذهب الى أن كل واحدة منها هي لغة قبيلة ، لان صورة اللفظين مختلفة ، ويستطيع ابن القبيلة الواحدة استعمال اللفظين في المعنيين دون أن يكون ذلك مشكلة دلالية كما لو كان التضاد في لفظ واحد ، ولكن المسترعي للنظر ان يكون هذان المدلولان المتضادان هما نتيجة القلب اللغوى الذى لحق أصوات اللفظ •

وقد ألف في القلب جماعة من اللغويين القدماء كما ألف بعضهم في ابطاله كابن درستويه ، فقد ألف كتابه (ابطال القلب) منكرا فيه وجود هذه الظاهرة في اللغة [٢٣] ، والراجح ـ والكتاب مفقود ـ ان ابن درستويه ذهب في ابطاله مذهب النحاة الذين لم يعدّوا من القلب ما كان لكل صورة أصل اشتقت منه ، وان هذا الاصل هو لغة قوم والاصل الثاني لغة آخرين مشغولة أذهانهم بالقلب النحوى • ومهما يكن من أمر فان مادة القلب ـ وهي تؤلف جانبا كبيرا من المعجم القديم ـ كانت من الوسائل التي توسلتها العربية لتكثير ألفاظها ومعانيها ، أو قل لتكثير ثروتها اللغوية •

الابـدال

ويقصد به ابدال حرف من كلمة ما بحرف يقرب منه لفظا ، ويحصل غالبا بين الحروف التي هي من حيّز واحد او مخارج متقاربة ، وقد يقع

---

(٢١) انظر : تاريخ آداب العرب ١/١٨٦ـ١٨٧ •
(٢٢) لسان العرب (روش) ٦/٣٠٨ •
(٢٣) المزهر ١/٤٨١ •

الابدال بين الاحرف المتقاربة في حكاية أصواتها ، ولو كانت من مخارج متباينة[٢٤] ، وعد ابن فارس الابدال أيضا من سُنَن العرب[٢٥] ، مشعرا ان العرب تقصدوا وتعمدوا اقامة حرف مكان آخر فصار من سننهم ، وهو أمر بعيد لأن اللغة فطرة وبداهة ، والعربي في كل مكان مطبوع على هذه الفطرة ، فهو حين يقول مدحه لايمكن أن يقول في وقت آخر مدهه ، اذ ليس من المستساغ أن يستعير هذا الناطق شيئا غريبا عن لغته وقد ذهب هذا المذهب ابن السكيت من الاقدمين أي الى جواز حصول الابدال في لغة القبيلة الواحدة[٢٦] ومثله ابن سيده[٢٧] ، الا أن ابا الطيب اللغوى تنبه الى ذلك ووضحه فقال : « ليس المراد بالابدال ان العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وانما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان لغتين لمعنى واحد ، حتى لايختلفا الا في حرف واحد » [٢٨] . ولكن ابن فارس عاد فخرّج ما جاء في قوله تعالى (فانفلق فكان كل فرق) بقوله : « اللام والراء يتعاقبان كما تقول العرب (فلق الصبح وفرقه) وذكر عن الخليل ولم أسمعه سمعا انه قال في قوله جل ثناؤه (فجاسوا) انما أراد (فحاسوا) فقامت الجيم مقام الحاء . وما أحسب الخليل قال هذا ولا أحقه عنه »[٢٩] . فابن فارس في الوقت الذى لايمنع ان يكون في القرآن مثل فلق وفرق ابدالا ، يستبعد أن يكون الخليل قد أشار

---

(٢٤) انظر : الفلسفة اللغوية ٦٠ ومقدمة التنوخي لكتاب الابدال ١/٩ وفقه اللغة وخصائص العربية ٦٦ والتطور اللغوى التاريخي ١٠٦ ونشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ١٨ـ٢٠ ومقدمة لدرس لغة العرب ٢٣٩ .

(٢٥) الصاحبي ١٧٣ ومثله في فقه اللغة للثعالبي ٥٦٤ .

(٢٦) التطور اللغوى التاريخي ١٠٨ .

(٢٧) المخصص ١٤/١٩ .

(٢٨) المزهر ١/٤٦٠ .

(٢٩) الصاحبي ١٧٣ .

الى ذلك • ولعل الفارق بين الاثنين هو ان الآية صريحة في احتوائها على المبدل في حين كان المبدل في الثانية من نظر الخليل ، وكأن ابن فارس لم يشأ أن يغير ماورد بنص القرآن ، وذلك بدافع تقديس هذا النص واحترامه • وعبارته أعلمتنا عرضا ان الخليل هو اول لغويي العرب اشارة الى امكان وقوع الابدال في اللغة ، واذا رجعنا الى (العين) وجدنا من اشارات الخليل المبثوثة فيه ما يؤيد ذلك[٣٠] الا ان الخليل مع ذلك حار في الذعاق والزعاق فلا يدرى أهي لغة أم لثغة [٣١] ، وهو تلميح قديم الى أن في الأمر فوضى أضاعت بعض الحقائق حتى على الخليل ابن أحمد •

وعلى هذا يكون الابدال من حيث حقيقته اللغوية نوعين : الأول هو ماكان لغات مختلفة والمعنى واحد مثل : لعلني ولألني ، وان فعل وهن فعل ، فلا تتعمد القبيلة الواحدة النطق بالصورتين مبدلة حرفا من حرف ، وانما تكون احدى الصورتين لقبيلة والصورة الثانية لقبيلة اخرى •والثاني هو ماكانت الصورتان في لغة القبيلة الواحدة ، وفي هذه الحالة يكون لكل صورة من صور الابدال دلالة تختلف شيئا عن دلالة الصورة الاخرى مثل لطمه ولدمه فالأولى للضرب بالكف وهي مفتوحة والثانية للضرب بشيء ثقيل يسمع صوته ، ومثل لثم أنفه ورثمه ، فالأولى بمعنى لكمه والثانية بمعنى كسره [٣٢] والى هذه النقطة الاخيرة ذهب أحمد فارس الشدياق فقال : « واكثر مايكون القلب والابدال في الألفاظ الدالة على القطع والكسر والخرق والهدم والشق والعزق والتبديد لأنها كلّها من جنس واحد وجملتها مأخوذة من حكاية صوت • نحو : قتّ وقدّ • وقضّ

---

(٣٠) العين (الجزء المطبوع) ٩٥ ، ١٦٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ •
(٣١) العين ١٦٨ •
(٣٢) انظر : تاريخ آداب العرب ١/١٨٥ ، ومن اسرار اللغة ص ٥٧ •

وقط • وجدّ وجّث وجذّ وجزّ • » [٣٣] والخليل نفسه أشار الى ذلك في مقدمة العين وقرّر انه اذا اتفقت الكلمتان في أصلين من أصولها الثلاثة فلابد أن يكون الاصل الثالث مبدلا ولابد ان تكون الكلمتان من أصل واحد ، الا أن ابن جني لايذهب مذهب الخليل في الجزم بأن أحد الحرفين مبدل من الآخر لمجرد ورود صورتين للّفظ الواحد واتفاقهما في الاصلين الآخرين ، وانما يشترط ان يقوم دليل يدل على ابدال الحرف من الآخر [٣٤] •

وكثيرا ماتشترك اللغات السامية في الاتفاق على أصلين من أصول الكلمة الصوتية وتبدل الأصل الثالث نتيجة القوانين الصوتية التي سارت عليها كل لغة من هذه المجموعة ، فكثيرا ماتبدل الباء الآرامية ميما في العربية ، والجيم السريانية ضادا في العربية ، وصادا أو سينا في العبرانية ، والذال العربية زايا في العبرانية وما الى ذلك [٣٥] ، ومن الامثلة العملية على هذا : ضوى يضوى فهو ضاو في العربية وصوى يصوى بالصاد في اللغات اليمنية القديمة • لذا كانت مادة الابدال صورة من صور تطور اللغة التاريخي وكاشفا عن أصول كثير من الكلمات وعما يمكن أن يكون بينها من روابط قديمة •

ولانذهب الى ماذهب اليه محقق ابدال ابي الطيب من تفسير بعض المبدلات بأنها مترادفات ، مستندا الى عدم ترابط صوتي بين الحرفين المبدلين كالدال واللام في (هدب العين هلبها) التي ذكرها ابو الطيب في ابداله بل سائر ما ذكره ابو الطيب في باب الدال واللام ، وذلك أن الدال نطعيَّة

---

(٣٣) سر الليال في القلب والابدال ص ٥ • وانظر تاريخ آداب العرب ١٨٤/١ •

(٣٤) سر صناعة الاعراب ٢١٩ •

(٣٥) انظر : مقدمة في الاصول اللغوية المشتركة بين العربية والعبرية ص ٣ ــ ٥ •

واللام ذلقية وتمتاز الدال بالاصمات والقلقلة لذا فهو يرجح أنهما أصلان مستقلان وأنما بالترادف أشبه منهما بالتعاقب [٣٦]. ولا حق له في ذلك لأن ابا الطيب نفسه لم يشترط في الابدال تقارب المخارج كما اشترطها ابن السكيت مثلا ، والعلماء في ذلك على خلاف • كما اختلف اللغويون والنحويون في الابدال نفسه فالابدال عند اللغويين هو غيره عند النحويين اذ هو عند الاخيرين مسائل قياسية مطردة ليست من بحثنا اللغوى هذا [٣٧] • وليس الاصمعي هو أول من اطلق اسم (الابدال) على هذه الظاهرة اللغوية كما ذهب الى ذلك احد الباحثين [٣٨] • فنحن نجد اشارات واضحة لهذه التسمية عند علماء سبقوه كالفراء مثلا [٣٩] • وكذلك ابن السكيت وهو من معاصرى الاصمعي وتلاميذه سمى كتابه في الابدال (القلب والابدال) وكأن القلب من صور الابدال فلم يعن بالأول ولم يلتفت اليه ، ومن يتصفح الكتاب لايعثر الا على : السدول والسدون ، ولوبة ونوبة ، ومخجت بالدلو ونخجتها ، وعباديد وعبابيد ، والمغطمطة والمغطغطة [٤٠] • وجعل ابن قتيبة نوعا من الابدال سماه (الابدال من المشدد) مثل تكمكم من تكمّم ، وتململ من تملّل [٤١] ، مما لم نجده عند غيره ممن عرضوا للابدال • والحقيقة ان هذا الحرف (المشدد) كما سماه ليس مبدلا من حرف آخر وانما هو تكرار اقتضته السهولة المتوخاة من فك التضعيف ، والعرب كثيرا مايفكون التضعيف طلبا لهذه السهولة في النطق •

---

(٣٦) التنوخي : ابدال أبي الطيب ٣٧/١ • والى مثله ذهب ابراهيم أنيس (من أسرار اللغة) ص ٦٥ •

(٣٧) انظر : امالي القالي ١٨٦/٢ والمزهر ٤٦٠/١ •

(٣٨) التنوخي : مقدمة ابدال ابي الطيب ٦/١ •

(٣٩) معاني القرآن ٤١/١ ، ٤٨٠/١ ، ٣٨٤/٢ •

(٤٠) القلب والابدال ٤ ، ٥ ، ١٩ ، ٦٣ ، ٦٥ •

(٤١) ادب الكاتب ٣٦٨ •

وذهب المحدثون الى ان الابدال قد ينشأ نتيجة الخطأ في السمع ، « مثل : عميق التي تبدل غميق ومنها غامق ، أو تسمع (جدث) فتصبح (جدف) وهي موجودة في القرآن»[٤٢] كما ذهبوا الى أنه قد ينشأ نتيجة التصحيف والتحريف [٤٣] ، ومن أمثلة ذلك : أعللت الابل وأغللتها ، وهي تصحيف بنص الازهري [٤٤] . وعد المحدثون الابدال من مظاهر التطور الصوتي ، وهو تطور طبيعي وسنة من سنن اللغة يفرضها الزمن كما يفرض كثيرا من سننه عليها فتتغير وتتطور ، وفسروا كثيرا من الفاظ الابدال على هذا الاساس ، وذلك في الصور التي لم ينص على انها لغات مختلفة ، ومن هنا كان للعلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه دور كبير في تبّين سير هذا التطور الذي كان من وسائل العربية في النمو والثراء .

الاشــــتقاق

وهو عبارة عن توليد بعض الألفاظ من بعض ، وذلك بأن ترجــع جميع الالفاظ المشتقة الى أصل واحد يحدد معناها المشترك الأول ، ويشير الى المعنى الخاص الجديد [٤٥] . وقد عرفه القدماء بأنه : « أَخذ صيغة من اخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة ، لأجلها اختلفا حروفا او هيئة ، كضارب مــن ضَرَب ، وحـذِر من حذرَ » [٤٦] وقد جعلـه ابن فارس قياســاً مطّــرداً في اللغـــة [٤٧] . وحـــاول أن يربـط بـــين هـذا الـذي قاله وبين أخذه بنظرية توقيف اللغة اذ يقول : « وليس لنا اليوم أن نخترع

(٤٢) محاضرات الدكتور السامرائي (مدونتي) ٣٢ .
(٤٣) من اسرار اللغة ٦٥ .
(٤٤) لسان العرب ١١/٤٦٨ .
(٤٥) انظر : طرق تنمية الالفاظ في اللغة ٤١ـ٤٤ ومقدمة لدرس لغـــة العرب ٥-٢ .
(٤٦) المزهـر ١/٣٤٦
(٤٧) الصاحبي ٣٣ .

ولا أن نقول غير ماقالوه ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها » [٤٨] • فهو قد سد الطريق على المشتقين أن يشتقوا غير ما سمع من الاوائل ، وهو بذلك ينكر مستحدثات اللغة التي دفعت اليها حاجات المجتمع الجديد ، يريد من ذلك المحافظة على اللغة الموقوفة ، وهي محاولة بعيدة التحقق لأن ماحدث في اللغة كان غير الذى أراده ابن فارس •

والاشتقاق نوعان : أصغر وأكبر ، فالأصغر هو الذى يقصد به رجوع جميع المشتقات المتفرّعة عن الأصل الى معنى هذا الأصل ، الذي يكون جامعا مشتركا بينها في اغلب الاحوال الاّ ماندر حين نجد أن بعضها يرد الى اكثر من أصل معنوى ، مثل مشتقات الفعل (عرف) التي تفيد جميعها معنى الانكشاف والظهور ، الاّ أن ابن فارس يرى مثلا : « ان العين والراء أصلان صحيحان يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض والآخر على السكون والطمأنينة » [٤٩] • وعرض السيوطي لهذا النوع من الاشتقاق فقال : « وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة ، حتى يرجع منها الى صيغة هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروفا غالبا • كضرب فانه دال على مطلق الضرب فقط ، أما ضارب ومضروب ويضرب واضرب فكلها اكثر دلالة واكثر حروفا ، وضرب الماضي مساو حروفا واكثر دلالة ، وكلها مشتركة في (ض ر ب) وفي هيئة تركيبها ، وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به » [٥٠] • وبالرغم من اطراد الاشتقاق الاصغر في اللغة واجماع العلماء على أنه وسيلة ثرّة من وسائل تكثير الالفاظ والمعاني ، فهناك من القدماء من أنكر وقوعه اصلا بزعم أن الالفاظ كلها أصل [٥١] ، وهذا الانكار

---

(٤٨) الصاحبي ٣٣ •

(٤٩) مقاييس اللغة (عرف) ٤/٢٨١ •

(٥٠) المزهر ١/٣٤٦ •

(٥١) انظر : دراسات في فقه اللغة ١٧٥ •

لايمت لحقيقة المسألة بصلة ، كما أن الايغال في اعتبار كل الالفاظ مشتقة هو الآخر بعيد عن الحقيقة ، ذلك أن الاشتقاق الذى اسميناه بـ (الاصغر) ماهو الا توليد ألفاظ من أصل معروف هو الجامع المشترك لمعانيها جميعا ، وكل مشتق من هذا الأصل يحتفظ بجزء من ذلك المعنى الاصيل مخصصا له .

اما الاشتقاق الأكبر فهو عبارة عن تقليب المادة الثلاثية الاصلية الى مجموعات صوتية ثلاثية تنصرف كل واحدة منها الى مدلول يشترك مع المدلولات الخمس الاخرى التي ينبثق عنها هذا التقليب بشيء من نسب ، يقول السيوطي : « وأما الاكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة ، فيجعل (ق و ل) و (و ق ل) و (ل ق و) وتقاليبها الستة بمعنى الخفة والسرعة . وهذا مما ابتدعه الامام ابو الفتح ابن جني ، وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به يسيرا ، وليس معتمدا في اللغة ، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب »[٥٢] . اقول : ليس هذا مما ابتدعه ابن جني كما ذهب السيوطي ، وانما اذهب مع من ذهب الى القول بأن أصحاب الاشتقاق الكبير اقتبسوا فكرة تقليب الاصول من معجم (العين) للخليل[٥٣] ، فالفكرة نفسها هناك مطبقة أروع تطبيق ، وعلى منهج الخليل سارت معجمات كثيرة بعده كالتهذيب والمحيط والبارع وغيرها . ولايشترط في هذا الاشتقاق ان تكون جميع تقليباته مستعملة ، فقد يكون بين مشتقاته ماهو مهمل غير مستعمل كما ينص الخليل على ذلك في العين .

النحت

هو عبارة عن تكوين كلمة من كلمتين أو اكثر لتدل على معنى جامع

---

(٥٢) المزهر ١/٣٤٦ وانظر : الخصائص ١/٥٢٧ ــ ٥٢٨ .
(٥٣) المخزومي : عبقرى من البصرة ٦٠ ومابعدها ، والصالح : دراسات في فقه اللغة ١٨٩ .

لمعاني الاصول التي نحتت منها • وهو قليل الورود في العربية لو قرن بما ورد فيها من اشتقاق أو ابدال او مترادف مثلا ، ذلك أن العرب لم يروا حاجة اليه كحاجتهم للاشتقاق ، فقد استغنوا بغيره عنه ، فلم يخلّفوا من امثلته الاّ القليل •

والنحت على أنواع منها : نحت من جملة كقولنا : بسمل وحمدل وحوقل فهي منحوته من بسم الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الاّ بالله ، وهذا النوع هو مما استحدث بعد الاسلام فلاشواهد قبل الاسلام عليه • ومنها : نحت من مركب اضافي واكثر مايكون في اعلام الاشخاص والقبائل التي ركبت تركيبا اضافيا مثل : عبشمي وعبدرّى وعبقسي فهي من : عبد شمس وعبدالدار وعبدالقيس ، ومثلها تعبشم وتعبدر وتعبقس ، وهذا النوع مرهون بما سمع فيه من شواهد معدودة قليلة [٥٤] ومنها : نحت من أصلين مستقلين أو اكثر للدّلالة على معنى مشترك بين هذه الأصول ، وهذا النوع نادر في العربيّة بل في كل لغا تالمجموعة الساميّة ، شائع في لغات المجموعة الهندية الأوربية شيوعا لافتاً للنظر ، وهو في العربيّة لايتجاوز بضع عشرات من الكلمات قيل انـّها منحوتة من أصلين مستقلين[٥٥] وذلك مثل (بزمخ) التي رأى ابن فارس انها : « منحوتة من زمخ وبزخ ، يقال : بزمخ الرجل : اذا تكبّر [٥٦] ، كما أشار الى غيرها في (مقاييس اللغة) وعدّ ابن فارس النحت جنسا من الاختصار فقال : « العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار وذلك (رجل عبشميّ) منسوب الى اسمين ••• وهذا مذهبنا في ان الاشياء الزائدة على ثلاثة أحرف

---

(٥٤) المزهر ١/٤٨٥ •

(٥٥) فقه اللغة (وافي) ص ١٨٠ ــ ١٨٣ ، وفقه اللغة وخصائص العربية ص ١٤٨ •

(٥٦) مقاييس اللغة ١/٣٣١ •

فأكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد (ضِبَطْر) من ضبط وضبر . وفي قولهم (صَهْصَلِق) انه من صهل وصلق وفي الصّلدم انه من الصّلد والصّدم »[٥٧] .

وأوّل من بحث ظاهرة النحت من اللغويين العرب القدماء هو الخليل ابن احمد فقال : « فأخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة واشتقوا فعلا ، قال :

وتضحك مني شيخة عبشميّة كأن لم تري قبلي أسيرا يمانيا

نسبها الى عبد شمس ، فأخذ العين والباء من (عبد) وأخذ الشين والميم من (شمس) واسقط الدال والسين ، فبنى من الكلمتين كلمة ، فهذا من النحت وهو من الحجة ، وما وجد من ذلك فهذا بابه ، والاّ فان العين مع هذه الحروف : الغين والهاء والخاء مهملات »[٥٨] . فالخليل هنا قرر مايكون قاعدة لغوية نستطيع بوساطتها أن نكشف النحت في الالفاظ ، وذلك باجتماع حرفين من الحروف التي نص عليها ، في لفظ واحد . كما أشار الى النحت تلميذه سيبويه[٥٩]، وعرض له جمهرة من العلماء[٦٠] اكثرهم توسعا فيه ابن فارس ، غير ان منهم من أغرب في تلمس هذه الظاهرة في الحروف والادوات فذكر أن (لن) و (لما) و (لولا) واشباهها هي من المنحوتات من أصلين مختلفين[٦١] .

واذا كان النحت وثيق الصلة بالاشتقاق وهو ـ بشيء من التشابه ـ نوع منه ، وكلاهما توليد شيء من شيء ، وفي كل منهما فرع وأصل[٦٢]،

---

(٥٧) الصاحبي ٢٢٧ ، وعنه في المزهر ١/٤٨٢ ، وفقه اللغة (الثعالبي) ص ٥٧٨ .
(٥٨) العين ٦٨ـ ٦٩ .
(٥٩) كتاب سيبويه ٢/٨٨ .
(٦٠) المزهر ١/٤٨٢ .
(٦١) سر صناعة الاعراب ٣٠٤ .
(٦٢) دراسات في فقه اللغة ٢٤٣ .

فانهما يفترقان في ان الاشتقاق في اغلب صوره عملية اطالة لبنية الكلمات ، في حين ان النحت اختزال واختصار في الكلمات والعبارات [٦٣] . وان الاشتقاق يشبه في طريقة توالده توالد الاحياء في زيادتها ونموها ، بخلاف النحت فطريقتة أشبه بطريقة الجوامد في زيادتها ونموها عن طريق اللصق والاضافة [٦٤] . هذا عدا اختلافهما في الاسلوب ، ففي الاشتقاق استخراج كلمة من كلمة ، وفي النحت استخراجها من كلمتين أو جملة . الا أن بعض دارسي اللغة المحدثين ذهب الى ان النحت يقع في الثلاثي ايضا ومثل له بقولهم : نبض الماء اذا سال ، فانه يصح أن يكون من (نّض) و (بّض) وكلاهما بمعنى نبض [٦٥] . وذلك وهم لاننا رأينا ابن فارس قد اشترط أن يكون النحت فيما كان أكثر من الثلاثي أى في الرباعي والخماسي [٦٦]، ومثل لذلك بـ (ضِبَطْر) و (صَهصَلِق) وغيرهما . ويمكن أن يفسر المذهب الاول بالثنائية واختلاف الاصلين مما سنعرض له في تفسير الأضداد . وهناك من ذهب الى ان الحروف في العربية منحوتة هي الاخرى وانها بقايا كلمات، ونصوا على أحرف المضارعة ، فالهمزة من(أنا) والنون من(نحن) والتاء من (انت) وهكذا ، بل راحوا يتلمّسون ذلك في اللغات السامية أيضا مقارنين بينها وبين العربية [٦٧] .

واصطلح المحدثون على ظاهرة حذف بعض الاصوات من الكلمة اختصارا لها وتسهيلا للنطق بها (هابلولوجي) واعتبروا ذلك ميلا عاما في تطور بنية الكلمات ودليلُهم ان لغات الامم البدائية تكون أكثر كلماتها متعددة المقاطع ، وهي تمثل المرحلة السابقة لمرحلة الاختصار والحذف ،

---

(٦٣) من اسرار اللغة ٧١ .
(٦٤) فقه اللغة وخصائص العربية ١٤٩ .
(٦٥) تاريخ آداب العرب ١/١٨٨ .
(٦٦) الصاحبي ٢٢٧ .
(٦٧) تاريخ آداب العرب ١/١٨٩ .

وان ذلك ـ عندهم ـ ميل ما يزال سائدا في اللغات الحديثة ، والنحت هو الاختزال والاختصار الذي يقصدون اليه • وتدل الامثلة التي رويت عن النحت ان لغتنا العربية قد قطعت شوطا بعيدا في التطور اللغوى في هـــذه الناحية[٦٨] • ومهما تكن الآراء المطروحة في النحت فهو عامل من عوامل نمو العربية ، وان كانت نسبته أقل من نسبة العوامل الاخرى •

الاتبـاع

عرفه ابن فارس فقال : « وهو ان تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويّها اشباعا وتأكيدا » ثم قال « وروى ان بعض العرب سئل عن ذلـك فقال : هو شيء نتدُبه كلامنا • وذلك قولهم : ساغب لاغب • وهو خبّ ضبّ • وخراب يباب • وقد شاركت العجم العرب في هذا الباب » [٦٩]•

والاتباع انواع بينها ابن فارس في كتابه الذى وضعه لهذا الفـن فقال : « الاتباع على وجهين : أحدهما أن تكون كلمتان متواليتان على روى واحد • والوجه الآخر أن يختلف الرويّان » [٧٠] ، هذا من الناحية الشكليـــة التي تتصل بالروّى ، أما من ناحية المعنى والدلالة فالمسألة ايضا : « على وجهين : أحدهما ان تكون الكلمة الثانية ذات معنى • والثاني ان تكون الثانية غير واضحة المعنى ولا بيّنة الاشتقاق الاّ انها كالاتباع لما قبلها »[٧١]، وهذا التقسيم الأخير هو الذى ذكره القالي في أماليه •

ومن هنا كـان الاتباع من طرق تنامي اللغة واتساعها ، ففي الاتباع تأكيد لمدلول الكلمة المتبعة بالكلمة الاخرى ، فاذا كانت الثانية مما تعرف العرب مدلولها فبها والاّ فهي تمتص من الأولى دلالتها شيئا فشيئا ، حتى

(٦٨) انظر : من أسرار اللغة ٧٩ ومقدمة لدرس لغة العرب ٢٣٦ •
(٦٩) الصاحبي ٢٢٦ وعنه في فقه اللغة للثعالبي ٥٦٦ والمزهر ١/٤١٤ •
(٧٠) الاتباع والمزاوجة ٢٨ •
(٧١) الاتباع والمزاوجة ٢٨ •

تكتمل لها الدلالة كما هي في الكلمة الاولى ، وحينئذ تكون في صف الكلمات التي اتبعت ولها معنى معروف كما يسميها اللغويون ، وهكذا بالنسبة للباقيات من الكلمات ، واللغة خلال هذا تستحدث الكلمات الثانية التي ليس لها معنى معروف باستمرار ، حتى تزخر بألفاظ جديدة ومعان جديدة [٧٢] ، وقد ألف في الاتباع جماعة منهم ابن فارس – وقد اشرنا الى تأليفه – وابو الطيب اللغوي[٧٣] ، والسيوطي[٧٤] ، وغيرهم •

المجاز أو الاستعارة

هو عبارة عن نقل كلمة الى غير ماوضعت له اصلا في المعنى لسبب بين الموضعين هو وجه الشبه • وعد ابن فارس الاستعارة من سنن العرب وضرب لها الامثلة[٧٥] • ومن طريق المجاز اتسعت المعاني في العربية ، لان الكلمة أو العبارة التي تنقل من موضعها الى موضع ثان تختلف دلالتها لاختلاف القصد الجديد الذى تطلق للدلالة عليه ، وقد استكثر العرب من المجاز حتى اننا نستطيع أن نقول ان المجاز هو العامل الأكبر الذى بوساطته رأينا هذه الكثرة من المعاني في العربية « وعمدتنا في ذلك النقل المتواتر عن العرب لانهم يقولون : استوى فلان على متن الطريق ولا متن لها • وفلان على جناح السفر ولا جناح للسفر • وشابت لمة الليل ، وقامت الحرب على ساق • وهذه كلها مجازات ومنكر المجاز في اللغة جاحد للضرورة ، ومبطل محاسن لغة العرب » [٧٦] •

---

(٧٢) مقدمة لدرس لغة العرب ٢١٧ •

(٧٣) كتاب الاتباع : حققه عزالدين التنوخي وطبعه المجمع في دمشق ١٩٧١ م •

(٧٤) كتاب الالماع في الاتباع : ذكره في المزهر ١/٤١٤ وهو اختصار لكتاب ابن فارس (الاتباع والمزاوجة) واستدراك عليه •

(٧٥) الصاحبي ١٧٣ •

(٧٦) المزهر ١/٣٦٥ •

والواقع ان المجاز جار في كل اللغات الانسانية دون استثناء ، وهو يعبّر عن تطور العقلية التي تستخدمه في كلامها ، واللغة مدفوعة بدافع الحاجة لهذا المجاز وذلك أن كثيرا من الامور التي يتحرج الناطق من التلفّظ بها حياءا تارة وخوفا تارة اخرى ولاسباب متعددة تلجىء المتكلم الى أن يستعير لها شيئا يقوم مقام اللفظ الحقيقي ، وهذا المستعار هو المعنى المجازى ، ويدخل فيه ماخالف ظاهر اللفظ معناه لأن : « من سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، كقولهم عند المدح : قاتله الله ما أشعره . فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه[٧٧] » . وعلى هذا تكون اللغة مشتملة على الحقيقة والمجاز معا ، ولا قيمة لقول ابي اسحاق الاسفرائيني : ان لا مجاز في لغة العرب [٧٨] . ذاهبا الى أن كل الفاظ العرب ومعانيهم حقيقية لا مجاز فيها ولا انتقال ، ولعله كان يرى هذا بوحي من فكرة التوقيف لأن في المجاز استحداثاً وتجديداً قد ينقضان عليه هذه الفكرة . واننا يجب ان لايغيب عن بالنا أن قدم العهد في المستعار يجعله في عداد الالفاظ والمعاني الحقيقية لانتشاره على ألسن الناس انتشار الحقيقي من كلامهم ، فيحتاج فيه الى مجاز آخر يكنى به عن هذا المعنى . وهكذا نجد في المعنى الواحد الفاظا كثيرة قد تصل الى عشرات أو مئات كالالفاظ الدالّة على الجنس وما يتصل به ، فقد حفلت المعجمات بشيء عجيب من ذلك ، وكله في الاصل مجاز يشيع فيكون حقيقة يحتاج معها الى مجاز آخر وهكذا ، وذلك لأن معاني هذا الباب مما يستحب فيه الكناية والتلميح ويستقبح التلفظ بها . « ومن هذا يعرف أن الحقيقة قد تصير مجازا وبالعكس فالحقيقة متى قلّ استعماله صارت مجازا عرفا ، والمجاز متى كثر استعماله صار حقيقة عرفا » [٧٩] وهناك حقيقة أساسية أخرى اشار اليها السيوطي في هذا

---

(٧٧) الصاحبي ١٦٩ .
(٧٨) المزهر ١/٣٦٢ .
(٧٩) المزهر ١/٣٦٨ .

الصدد وهي أنه « قد يجتمع الوصفان في لفظ واحد ، فيكون حقيقة ومجازا أما بالنسبة الى معنيين وهو ظاهر ، واما بالنسبة الى معنى واحد ، وذلك من وضعين كاللفظ الموضوع في اللغة لمعنى ، وفي الشرع او العرف لمعنى آخر فيكون استعماله في أحد المعنيين حقيقة بالنسبة الى ذلك الوضع • مجازا بالنسبة الى الوضع الآخر »(٨٠) • وهي ملاحظة دقيقة تشير الى تلك الالفاظ التي مثل : كافر وفاسق والحج والصلاة وغيرها مما استجد بعد الاسلام استخدامها في غير ما وضعت له في الاصل ، فلهذه الالفاظ وأضرابها مدلولات في معجمات اللغة هي غير ما عرفت به من مصطلحات نص الشرع على مدلولاتها ، وانتقال هذه الالفاظ من معانيها الحقيقية الى معانيها الاصطلاحية بوساطة الاستعارة هو من صور التطور اللغوى في دلالة الالفاظ بحيث تبقى الصلة بالمعنى الاصلي محفوظة في شكل من الأشكال • وسنجد ان المجاز بهذه الطريقة كان عاملا مهماً من عوامل نشأة الاضداد •

المعرّب والدخيل

المقصود بهما مااستقر في العربية من مفردات اقتبستها من لغات أجنبية على مر عصورها وأصبحت جزءً من اللغة ، بعد أن تخضع لاسلوب العربية في النطق • والعربية شأنها في ذلك شأن جميع اللغات تتأثر وتؤثر في اللغات المجاورة بحيث يستدعي هذا التجاور الطويل أن تقترض وتقرض كثيرا من المفردات ، يشجع على ذلك فرص الاحتكاك المادى والثقافي والسياسي بشعوب تلك اللغات • ومثلما صدق هذا التأثر والتأثير بين لهجات العربية نفسها ، يصدق فيما بينها وبين غيرها من اللغات (٨١) •

وان كثيرا من هذه الألفاظ الدخيلة المعربة كان لها ما يقابلها في

---

(٨٠) المزهر ١/٣٦٧ •

(٨١) انظر : فقه اللغة لوافي ١٩٣ ومابعدها ودراسات في فقه اللغة ٣١٤ـ٣١٥ ونشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ٣٥ـ٥٠ •

العربية ، الاّ أنها استطاعت ببساطة أصواتها وسهولة نطقها فيما لو قورنت بمرادفاتها العربية أن تشق طريقها الى العربية وتقضي على هذه المرادفات في الاستعمال وشواهد ذلك كثيرة في اللغة • يؤيد هذا ما نجده في المسألة معكوسة ، أعني أنه لو كانت المفردات العربية مما يستسهل العربي نطقها مقارنة بالمفردا تالدخيلة التى تفتقر لهذه البساطة والخفة ، لوجدنا العربي ملتزما بمفرداته في الاستعمال مهملا تلك الالفاظ المعربة(٨٢) • اذ لاشك في أن انتشار المفردات المعربة يتوقف على مدى خضوعها للاساليب الصوتية المتبعة في العربية ، لذا نجد كثيرا من هذه الألفاظ ما يبتعد عن صورته الأولى من ناحية أصواته ووزنه وطريقة نطقه ، حتى يصير بالشكل الذى « تتفوّه به العرب على منهاجها » كما يقول الاقدمون(٨٣) •

وأول من أشار الى المعرب في اللغة هو الخليل ، فقد نص على الالفاظ المعربة في العين ، مثل قوله « عمصت العامص وأمصت الآمص : أي الخاميز ، معرّبة »(٨٤) • وهي أول اشارة في معجم فتحت الطريق لوضّاع المعجمات بعده أن ينصوا على الالفاظ المعربة في اللغة كالجوهري في الصحاح وابن دريد في الجمهرة وغيرهما • واشارة الخليل في العين تدل على أن الدخيل قديم في العربية ، ولعلنا لانغالي اذا قلنا ان العربية آوت الدخيل منذ جاور العرب الشعوب الاعجمية في أطراف الجزيرة واتصلوا بها عن طريق تجارة او غيرها •

وانبرى اللغويون للمعرب والدخيل من الالفاظ يؤلفون فيها كتبهم ، ولكن الملاحظ على هؤلاء انهم كثيرا ما نفوا أعجمية لفظ لأن القرآن نزل به، وليس في القرآن عندهم دخيل ، ولعلهم كانوا مدفوعين لذلك بدافع تنزيه

---

(٨٢) انظر : فقه اللغة لوافي ١٩٦ للوقوف على الامثلة •
(٨٣) المزهر ١/٢٦٨ •
(٨٤) العين (الجزء المطبوع) ٣٦٩ •

القرآن وتنقيته مما قد يكون مأخذا عليه ، من حيث أنه خالف دعواه بأنه قرآن عربي على حد قوله ، بهذه الألفاظ الأعجمية الدخيلة[٨٥] .

ويدخل في باب المعرب والدخيل ما أسماه اللغويون بالمولّد « وهو ما أحدثه المولّدون الذين لا يحتج بألفاظهم . والفرق بينه وبين المصنوع ان المصنوع يورده صاحبه على انه عربي فصيح وهذا بخلافه »[٨٦] . وقد نصوا على الألفاظ المولدة في المعجمات اللغوية وكتب اللغة ، فقد ذكروا أن الاصمعي كان يقول : « النحرير ليس من كلام العرب وهي كلمة مولدة »[٨٧] . وان ابن دريد كان يقول « تسميتهم الأُنثى من القرود مُنّة ، مولّد »[٨٨] . وحاولوا أن يحدّدوا عصر توليده في اللغة في مثل قولهم : « أيام العجوز ليس من كلام العرب في الجاهلية ، وانما ولد في الاسلام »[٨٩] . وقد عرض للمولد وجمع الفاظه ودرس أساليبه جمهرة من اللغويين في مصنفاتهم ، وعلى رأسهم مؤلفوا لحن العامة ، فهم قد حفظوا لنا بذلك جانبا مهما من جوانب التطور التاريخي للغة ، اذ لولا هذا الاهتمام بتسجيل المولد والنص على ألفاظه لضاع تحديد معالم هذا التطور في خضم المفردات اللغوية الكثيرة ، ولأصبحت هذه المولدات جزء من اللغة القديمة وخسر الباحث في التطور اللغوي معالم مهمة في هذا الميدان ، وواضح ان العربية اغتنت كثيرا بفتحها باب التعريب والتوليد ونمت بهما نموا كبيرا واتسعت على صعيد الدلالة اتساعا ملحوظا . ولايفوتنا أن نذكر ان بعض الباحثين المحدثين ذهب الى ان التصحيف والتحريف من مولدات المعاني ، وانهما ساعدا على انتشار المولد ، فكانا من وسائل تكثير العربية[٩٠] .

---

(٨٥) دراسات في فقه اللغة ٣١٨ .
(٨٦) المزهر ١/٣٠٤ .
(٨٧) المزهر ١/٣٠٤
(٨٨) المزهر ١/٣٠٤ .
(٨٩) المزهر ١/٣٠٤ .
(٩٠) الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموها ٢١–٣٥ .

المتـــرادف

الترادف في المصطلح اللغوى عبارة عن انصراف عدة ألفاظ الى المعنى الواحد أو المسمّى الواحد ، مثال ذلك اسماء الخمر ، فمنها العقار والصهباء والمدامة والسلافة والنشوة وما الى ذلك من أسماء تنصرف جميعها للدلالة على الخمر وحدها • وقد ذهب بعضهم الى تعريفه تعريفات منطقية تعتمد التفريع والتقسيم الفلسفي مما ليس مكانه البحث اللغوى الوصفي (٩١) •

عرض له ابن جني وبحثه بشيء من التفصيل ضاربا له الامثلة (٩٢) ، ومثله ابن فارس الذي عقد حوارا مصطنعا بينه وبين القائلين بأن المترادفات متحدة المعنى تماما ، وهو يرى ان الاسم منها واحد وهو الدال على ذلك المعنى دون غيره ، والبواقي صفات وفي كل واحدة من هذه الصفات معنى ليس موجودا في الاخرى ، ودلل على ذلك بالفرق المعنوى بين قَعَد وجَلَس (٩٣) • وهذا هو مذهب شيخه ثعلب كما نص هو على ذلك • والى مثله ذهب مجد الدين ابن الاثير من ان السيف هو اسم للذات لا لمعنى فيها ، والصارم هو اسم لصفة الحدة في السيّف (٩٤) • وانكار الترادف على هذه الشاكلة ربّما كان ملقنه الاول هو ابن الاعرابي استاذ ثعلب ، فقد روى عنه انه كان يقول : « ان كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، ففي كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه »(٩٥) • فالمترادفات عند هؤلاء من المتباينات في صفاتها كما في الانسان والبشر (٩٦) ، وهذا صحيح فقد يسمّى المسمى الواحد بأكثر من صفة من صفاته وبأكثر من وجه من وجوهه

---

(٩١) المزهر ١/٤٠٢ •
(٩٢) الخصائص ٢/١١٣ •
(٩٣) الصاحبي ٦٥ـ٦٦ •
(٩٤) المرّصع ٣٥٢ •
(٩٥) تاريخ آداب العرب ١/١٨٩ •
(٩٦) المزهر ١/٤٠٣ •

ومثال ذلك: « تسمية الدار دارا ومنزلا ومسكنا وبيتا ، باعتبار كونها مستديرة في الأصل أو كونها مكان النزول بالنسبة لأهل البادية أو المسافر ، أو كونها موضعا للسكينة والاطمئنان أو كونها مكانا للبيتوتة »(٩٧) . ومسألة ابي علي الفارسي لابن خالويه عن أسماء السيف في مجلس سيف الدولة معروفة (٩٨) .

وارتأوا أن يسمّى هذا النوع من الالفاظ المترادفة التي تدل على تعدد الصفات بـ (المتكافئة) ، ومنها اسماء الله تعالى وأسماء النبي (٩٩) . وعلى مثل هذه الفكرة تقريبا سارت معجمات كثيرة كالمخصص وفقه اللغة . فان صوت الماء اذا جرى خرير ، واذا كان تحت ورق أو قماش قسيب ، واذا دخل في مضيق فقيق ، واذا تردد في الجرة او الكوز بقبقة ، واذا استخرج شرابا من الآنية قرقرة (١٠٠) .

الا ان ورود كثرة مدهشة من الاسماء للمسمى الواحد ، كورود خمسمائة اسم للاسد مثلا ، هو الذى أوقف الباحثين حيال مفردات العربية موقف الشك . فقد أشار الدكتور طه حسين : « الى ان هذا غير طبيعي أو أنه على الأقل اسراف . وهو يرجّح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست الا أثرا من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى انها ترجع الى السياحات العديدة التي كان يرمي بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لايتحرجون من أن يقولوا ان العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحية مائتين »(١٠١) ، ومن

(٩٧) فقه اللغة وخصائص العربية ١٩٩ وانظر : فقه اللغة لوافي ١٦٨ .
(٩٨) المزهر ١/٤٠٥ .
(٩٩) المزهر ١/٤٠٥ .
(١٠٠) فقه اللغة للثعالبي ٣٢١ .
(١٠١) النثر الفني في القرن الرابع ٢/٤٦ـ٤٧ .

القدماء من كان يعدّ هذه المترادفات من دلائل فضل العربية تفخر بها على غيرها ، كما ذهب الى ذلك الباقلاني [(١٠٢)] ، في حين كان هناك من ينظر الى المسألة من الناحية الثانية وهي ناحية ثلب العربية على هذه الكثرة من المترادفات ، ومن امثلة هؤلاء المسيو مرسيه في تقريره المطول الذي وصم العربية فيه بأنها لغة (مائعة) لاتعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات [(١٠٣)] . حتى دعا بعضهم الى « اطراح كثير من المترادفات من المعجمات العربية ، فنحن لانحتاج في نظرهم الى أن يكون لكل من السيف والاسد والجمل والفرس والعسل والمصيبة وغيرها عشرات أو مئات من الاسماء المترادفة »[(١٠٤)] ، واذا كان لهؤلاء بعض الحق فلأن كثيرا من هذه المترادفات كان مشكوكا في صحته وفي وروده عن العرب ، ذلك أن بعض شواهده المعتمدة في هذا الموضوع مما ثبت أنها موضوعة ومنتحلة ، وأن التصحيف والتحريف لعبا دورا بارزا في مدّونات العلماء بسبب أخذ كثير منهم عن الكتب والصحف ، في وقت كان الاعجام في الكلمات لم يأخذ طريقه بعد الى هذه المدونات ، فتقرأ الكلمة على هذا بعدة وجوه [(١٠٥)] ، فنشأ في اللغة من جراء ذلك مترادف كثير . يضاف الى ذلك ميل النّاس الفطري الى محو كثير من فروق الدلالة الجزئية بين الكلمات فتقترب اللفظتان من بعضهما في الدلالة حتى تتحدا وتكونا شيئا واحدا ، ولايبعد ان كانت أذهان المتكلمين تفرق بين قعد وجلس ، ولا تستعمل كلا منهما مكان الآخر ، فتقول قعد اذا كان بعد قيام وتقول جلس اذا كان بعد اضطجاع ، الا أنهم بدأوا يقربون في الاستعمال بين الدلالتين حتى صارتا شيئا واحداً وترادفت اللفظتان[(١٠٦)] ، وقد تنبه الى هذه الناحية

---

(١٠٢) اعجاز القرآن ٣٤ .

(١٠٣) النثر الفني ٢/٦٤ .

(١٠٤) مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٣٩ ج ٤ ص ٥٢٩ وما بعدها (مشكلات العربية واقتراح المرحوم أحمد أمين) .

(١٠٥) فقه اللغة (وافي) ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(١٠٦) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٢١٧ وفقه اللغة لوافي ١٦٨ .

ابن درستويه ونعى على العلماء جهلهم بحقيقة المسألة وتأولهم على العرب من ذات أنفسهم بوحدة دلالة المترادفين وعدم معرفة الفروق الدقيقة بينهما [١٠٧] . وهي اشارة قديمة الى هذه الفوضى في تدوين اللغة الذى لا يعتمد المشافهة والنقل المباشر عن العرب بقدر ما يعتمد الاصطناع والافتعال وبالتالي المفاخرة والمكاثرة .

وفسر المترادف بكونه لغات مختلفة [١٠٨] ، وبذلك فسّر ماورد منه في القرآن مثل : أقسم وحلف ، بعث وأرسل ، فضل وآثر ، الواردة جميعها في آياته الكريمات ، والى هذا التفسير ذهب ابن جني [١٠٩] . ويصح تفسير المترادف بهذا في المترادفات القليلة للمعنى أو المسمى الواحد أما في تلك التي تصل الى الالوف من الاسماء فلا يصح هذا التفسير بحال ، لأنها أكثر من عدد القبائل وبطونها وافخاذها أضعاف المرات من جهة ، وواضح فيها انها صفات للمسمى الواحد وانها تختلف في الدلالة الجزئية من جهة اخرى . أضف الى هذا ان بعض المترادفات هي من لغات اخرى غير العربية كاللغات السامية مثلا ، انتقلت مفرداتها الى العربية فدونت مع نظائرها في المعنى فكانت من مترادفاتها ، مثل (عنبسة) التي جعلوها من اسماء الأسد ، وهي اسمه في الحبشية [١١٠] .

وفسر ايضا بالمجاز ، ذلك ان كثيرا من الالفاظ المترادفة هي في حقيقتها ليست اسما اصيلا للشيء وانما استخدمت فيه استخداما مجازيا وعلى سبيل الاستعارة ، وأكثر ما يكون ذلك في أسماء الحيوانات حين يستعيرون الفاظاً مختلفة لحيوان معين قاصدين بذلك الكناية عن بعض طبائعه وصفاته [١١١] .

---

(١٠٧) تاريخ آداب العرب ١/١٩١ .
(١٠٨) المزهر ١/٤٠٥ .
(١٠٩) الخصائص ١/٣٧٤ .
(١١٠) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٤٥ .
(١١١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٤٥ .

وهو شائع كذلك في ألفاظ الميل الجنسي ـ كما مر في الحديث عن المجاز ـ وقد عللنا ذلك أن موضوع الجنس من المواضيع التي يقتضي فيها الحياء ، فلا بد من استعارة تلمح للشيء ولاتصرح به ٠

وعدوا من اسباب ورود المترادف ان تكثر طرق الاخبار عما في النفس ، فقد ينسى أحد اللفظين ، أو يصعب لفظه ، فيلجأ الى الآخر تسهيلا وتخفيفا [١١٢] ٠ وقد يكون السبب هو التوسع في طرق الفصاحة والبلاغة، والاستعانة به على السجع والقافية والتجنيس والترصيع ، اذ لايمكن أن يتأتى كثير من ذلك لولا المترادفات [١١٣] ٠ وقد يكون سبب المترادف هو الحاجة الى شرح الخفّي بمعنى أنه يمكن شرح أحد المترادفين بالآخر وهذه المسألة نسبية في الناس فقد يكون الشارح مشروحا عند جماعة غير الجماعة التي تشرح اللفظ الاول بالثاني [١١٤] ٠ وهكذا نجد ان هذه الافتراضات المعتبرة في فوائد وضع المترادف ليست مما يحفل به لأن الأساس الذي بنيت عليه هار ، فلا يعقل أن يضع واضع واحد أو قبيلة واحدة كل هذا الترادف لأسباب من هذا النوع ٠

وقد عرض لظاهرة الترادف في اللغة الاصوليون والمناطقة ، لان الترادف يدخل عند هؤلاء في مباحث الالفاظ التي تناولوها في كتبهم ٠ وكان لهم في ذلك آراء وتعليقات كثيرة ، حيث قسموا الالفاظ تقسيمات تختلف عن تقسيمات اللغويين ، وأطلقوا على تقسيماتهم هذه مصطلحات لا نجد نظيرها عند اللغويين كمصطلح (المتوارد) الذي يقصدون منه الى (المترادف) عند اللغويين ، ومصطلح (المترادف) الذي يعنون به (المجاز والاستعارة) عند غيرهم [١١٥] ٠ على اننا نجد احيانا مصطلح الترادف في كتبهم يعنون به ما

---

(١١٢) المزهر ١/٤٠٥ ٠
(١١٣) المزهر ١/٤٠٥ ٠
(١١٤) المزهر ١/٤٠٥ ٠
(١١٥) المزهر ١/٤٠٥ ٠

يعني اللغويون الا ان يقابل (التباين) في الألفاظ عندهم[116]؛ أما اللغويون فقد درسوا الترادف دراسات كثيرة معظمها على شكل معجمات لألفاظ الترادف ، والقليل منها ما كان يحوي تحليلا وتفسيرا .

وقد ذهب احد الباحثين الى ان وضع العرب المبكرين لهذا النوع من المصنفات الخاصة في المترادف كان من أثر دراسات لغويى الهنود في هذا المجال من البحث [117] ، وهي دعوى لايسندها دليل ولاتقوم على ساق ، ذلك ان هذه الكتب والدراسات العربية بحثت في ظواهر لغوية شائعة في العربية ، لفتت انتباه اللغويين العرب وشغلت أذهانهم ، وكانوا قد تحسسوا مشكلاتها ، فاندفعوا يسجلون ويبحثون بدافع الغيرة على اللغة مرة وبدافع المفاخرة بالبضاعة مرة اخرى، ولكن الاساس هو هو ، ولا يمكن أن يكونوا في هذا كله متأثرين بما فعل الهنود أو مدفوعين بدافع التقليد والمحاكاة .

أما المعاصرون فقد عرضوا للمترادف بشكل أكثر عمقا واوسع دراسة، ومادتهم الاولية هي تلك المصنفات التي وضعها القدماء في ألفاظ الترادف ، وطبيعي أن تكون دراساتهم أدق وأشمل بسبب تطوّر أسباب البحث اللغوى وانكشاف كثير من الحقائق التي كانت خافية على اولئك الاوائل ونمو علم الدلالة والأصوات واللهجات ، فكان صدى ذلك انهم اشترطوا في المترادف الاتفاق بين الكلمتين اتفاقا تاما ، والاتحاد في البيئة اللغوية والاتحاد في العصر، وألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للّفظ الآخر[118] ، والاّ فالكلمتان ليستا من الترادف في شيء . ولا يخفى بعد هذا ما للترادف من أثر واضح في نمو اللغة واتساع ألفاظها وكثرة مفرداتها بشكل يندر معه أن تتسع لغة اخرى سعة العربية في هذا السبيل .

---

(١١٦) المنطق للمظفر ١/٤٨ .
(١١٧) أحمد مختار عمر : البحث اللغوي عند الهنود ١٣٣ .
(١١٨) انظر : في اللهجات العربية ١٧٨ ومابعدها .

المشترك

يقصد به انصراف اللفظة الواحدة الى معنيين أو أكثر بدلالة متساوية على المعاني [119] ، والى مثل هذا الحد ذهب أهل الاصول [120] والمناطقة في تقسيماتهم للألفاظ الدالة على المعاني المتعددة بشرط ألاّ يسبق وضعه لمعنى من هذه المعاني على وضعه للمعنى الآخر [121] ، وهو عندهم قسيم (المختص) و (المنقول) و (المرتجل) و (الحقيقة والمجاز) ، فلكل من هذه المصطلحات دلالة خاصة فيما تنصرف اليه الفاظها من معان متعددة .

ومن أشيع الامثلة المضروبة للمشترك لفظ (العين) فهي تنصرف في العربية الى معانٍ كثيرة [122] ، يمكن ان ترجع جميعها الى معنى النفاسة والحرص ، كالذهب والنبع وخيار الشيء والشمس وعضو البصر والنقد وما اشبه ذلك . الاّ ان كثرة ورود المشترك في العربية بحيث يكون لبعض الالفاظ خمسون أو ستون معنى هي التي قسمت العلماء الى منكر للمشترك ومثبت له ، ولكل من الفريقين حججه وأقواله في هذا الشأن وعند أكثر هؤلاء : « أنه واقع ، لنقل اهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ ، ومن الناس من أوجب وقوعه، قال: لأن المعاني غيرمتناهية والالفاظ متناهية فاذا وزع لزم الاشتراك . وذهب بعضهم الى أن الاشتراك اغلب، قال : لانالحروف بأسرها مشتركة بشهادة النحاة ، والافعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء ، والمضارع كذلك وهو ايضا مشترك بين الحال والاستقبال ، والاسماء كثير فيها الاشتراك ، فاذا ضممناها الى قسمي الحروف والافعال كان الاشتراك اغلب » [123] . وعلى رأس من اثبت المشترك وتوسع فيه الخليل وسيبويه وأبو عبيدة والاصمعي مستندين الى الشواهد العربية التي لاسبيل الى الشك

---

(١١٩) انظر : في اللهجات العربية ١٩٥ ــ ١٩٧ .

(١٢٠) المزهر ١/٣٦٩ .

(١٢١) المنطق للمظفر ١/٤٤ .

(١٢٢) انظر : فقه اللغة للثعالبي ٥٦٢ والمزهر ١/٣٧٣ــ٣٧٤ .

(١٢٣) المزهر ١/٣٧٠ .

فيها[١٢٤] • وكان سيبويه قد نص على أن من كلام العرب : اتفاق اللفظين واختلاف العنيين مشيرا الى المشترك ؛[١٢٥] الا ّ أن منكري المشترك وعلى رأسهم ابن درستويه قد رد ّوا ذلك ورفضوه[١٢٦] •

وتفسير المشترك باللهجات أوسع المذاهب التي أخذ بها القدماء والمحدثون وذلك « بأن يضع أحدهما لفظا لمعنى ثم يضعه الآخر لمعنى آخر ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في افادته المعنيين »[١٢٧]• وابن درستويه نفسه الذي أنكر الاشتراك اعترف بمجيء النادر منه وعلله بـ : «انه انما يجيء ذلك في لغتين متباينتين »[١٢٨] • ومثله ابو علي الفارسي الذي رجعه الى تداخل اللغات[١٢٩] ، ذلك ان تداخل اللغات لعب دورا خطيرا في استعمال الألفاظ المشتركة ، لان واضعي المعجمات ضموا لهجة هؤلاء الى لهجة هؤلاء دون أن يعنوا في كثير من الأحوال بنسبة كل معنى الى القبيلة التي كانت تستخدمه ، فكثير من المعاني اختلف باختلاف القبائل قبل ان تتوحد اللغة ، ولكنها ضاعت بعد توحدها عندما أصبحت اللفظة تطلق على جميع هذه المعاني المختلفة ، كما سيأتي تفصيل ذلك في قابل الدراسة ، ذلك ان تفسير المشترك باللّغات مذهب علمي ، لانه لا يعقل ان الرجل في بيئته اللغوية كان له من الحرية والاختيار بحيث يطلق الكلمة المشتركة على هواه وهو يقصد معنى واحدا من معانيها المتعددة ، لان شرط اللهجة في البيئة الواحدة الاطراد والانسجام بين جميع الأفراد في كلامهم ونطقهم •

وفسر المشترك بأن معانيه مجازية في الأصل استخدمت اللفظة فيها

---

(١٢٤) مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ٢/٢٣٣ ــ القاهرة ١٩٣٥ م •
(١٢٥) كتاب سيبويه ١/٧ •
(١٢٦) المزهر ١/٣٨٤ •
(١٢٧) المزهر ١/٣٦٩ •
(١٢٨) المزهر ١/٣٨٥ •
(١٢٩) المخصص ١٣/٢٥٩ •

حتى صار انصرافها اليهن اصيلا ، مثل لفظة (الهلال) التي اطلقت على عدد من المعاني والمسميات تشترك جميعا في وجه شبه مجازى في صورة الهلال أو ضآلته [١٣٠] ، ثم لما شاع هذا الانصراف المجازى ورسخ في الاستعمال صار من قبيل الحقيقة فاشتركت هذه المعاني في اللفظ . ومثل هذا استعارة اسماء بعض الحيوانات لاجزاء حيوان آخر لوجود شبه بين الاثنين في الشكل كنقل أسماء الطير لأجزاء الفرس [١٣١] . وهذا هو الذى أشار اليه ابو علي الفارسي في تعليله اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين بقوله : « أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنى ثم تستعار لشيء فتكثر وتصير بمنزلة الأصل » [١٣٢] . وقريب من ذلك ما علله ابن درستويه في المشترك الذى أقر بأنه قد يجيء « لحذف واختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك على السامع وتأول فيه الخطأ » [١٣٣] ، وقد يكون استعمال المشترك في المجاز « لغرض الابهام على السامع حيث يكون التصريح سببا للمفسدة » [١٣٤] . وحينما يتداول هذا المعنى الذى ابهم به عن المعنى الحقيقي ويشيع ، يصبح من المعاني التي تنصرف اليها الكلمة انصرافا حقيقيا ، وتصبح الكلمة على هذا من المشترك ، حتى كانت الالفاظ المشتركة مادة صالحة للتورية والتجنيس والتعمية عند المشغوفين بالمحسنات اللفظية والبديعية .

وقد ذهب المحدثون من دارسي اللغة مذاهب اخرى في تفسير ظاهرة الاشتراك اللغوي ، تختلف عما ذهب اليه الأقدمون . فقد رأوا أن كثيرا من الالفاظ المشتركة انما كانت بسبب التطور الصوتي الذى طرأ عليها ، وذلك بأن تمر لفظة من الألفاظ في أطوار صوتية خاصة يترتب عليها ان

---

(١٣٠) انظر : فقه اللغة لوافي ١٨٤ .
(١٣١) تاريخ آداب العرب ١/١٩٤ .
(١٣٢) المخصص ١٣/٢٥٩ .
(١٣٣) المزهر ١/٣٨٥ .
(١٣٤) المزهر ١/٣٦٩ .

تصادف الاشتراك بينها وبين غيرها من الالفاظ متحدة معها لفظا ومختلفة عنها مدلولا ، واكثر مايكون ذلك في الالفاظ التي لايوجد بين معانيها المتعددة أي رابط معنوي قريب ولا بعيد (١٣٥) . واذا صحّ هذا التفسير فانه يصدق على كثير من ألفاظ المشترك اللغوي التي لانلمح صلة مابين معانيها المختلفة ، وان هذا التطور الصوتي قد شمل كلمات كثيرة أكسبها هذا الاشتراك الصوتي مع كلمات أخرى بعيدة عنها في المدلول . وأصحاب هذا المذهب لايعدّون مثل هذا من المشترك ، بل لايعدّون من المشترك كل لفظة لاتوجد علاقة واضحة بين معانيها ، كلفظة (الليّث) مثلا ، فقد ذكر أنها تأتي بمعنى الأسد وضرب من العنكبوت واللسن البليغ ، ولمّا كانت هذه المعاني مفترقة افتراقا كبيرا فلابد من أنه كا ناضطراب في روايتها عند القدماء فقرروا أنه : « من التعسف حينئذ أن نعدّ مثل هذا من المشترك اللفظي الذى يشترط فيه وضوح العلاقة بين المعنيين كالانتقال من الحقيقة الى المجاز أو التطوّر المعقول المقبول في المعنى ، وغير ذلك من عوامل المشترك اللفظي » (١٣٦) ، والظاهر أن أصحاب هذا الرأي فاتهم أن يلحظوا شيئاً مهماً وهو «أن الروابط المشتركة بين هذه المسمّيات يمكن أن تلمح باحدى طريقتين سلبيّة أو ايجابيّة فاذا كان في الليث معنى القوة الحسيّة ففي اللّسن البليغ معنى القوة البيانيّة وفي العنكبوت معنى الضدّ المقابل ، فكان الرابط منها سلبيا عكسيا » (١٣٧) .

والواقع أننا يجب ان نذهب الى ماذهب اليه المستشرق (لروا) في موقفه من هذه الالفاظ ، فهو يرى : « أننا حينما نقول ان لاحدى الكلمات اكثر من معنى واحد في وقت واحد انما نكون ضحايا الانخداع الى حدّ

(١٣٥) من اسرار اللغة ص ٤١ ، وفقه اللغة (وافي) ص ١٨٦ ، وفي اللهجات العربية ص ١٩٥ ومابعدها .
(١٣٦) من اسرار اللغة ٤١ .
(١٣٧) دراسات في فقه اللغة ٣٠٧ .

غير قليل ، اذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها احدى الكلمات الا المعنى الذى يعيّنه سياق النص »[138] وبهذا نستطيع أن نفسّر المشترك في البيئة اللغوية الواحدة واستعماله في لغة التخاطب دون أن يورث لبسا أو ارتباكا ، فالسّياق هو الذي يعين أحد المعاني المشتركة للفظ الواحد ، لأن السياق لايقوم على كلمة تنفرد وحدها في الذهن ، وانما يقوم على تركيب يوجد الارتباط بين اجزاء الجملة ، فيخلع على اللفظ المعنى المناسب • وهذا المذهب كان قد أخذ به ابن الانبارى من القدماء ودافع به عن الاضداد كما سيأتي بحثه •

وقد ألف في المشترك جملة من العلماء وضعوا مصنفاتهم على شكل معجمات لغوية أحصوا فيها الفاظ الاشتراك اللغوى كالاصمعي وابي عبيد وابي العميثل وكراع وغيرهم • كما عرض كثير من القدماء لهذه الظاهرة في كتبهم على شكل فصول أو آراء متناثرة • ومن الظلم اتهام هؤلاء جميعا بمحاكاة الهنود فيما صنفوا وفيما بحثوا لرصد هذه الظاهرة وتفسيرها في اللغة ، كما يذهب الى هذا بعض الدارسين[139] • ونحن نقول هنا ماقلناه في ردّ الشبهة نفسها في المترادف ، من أن هؤلاء العرب لم يطلعوا على مصنفات الهنود من جهة ، وانهم صدروا الى وضع آثارهم في ذلك من ملاحظتهم لظاهرة الاشتراك في اللغة ومحاولة درسها وتدوين مفرداتها ، حرصا على لغة التنزيل من جهة اخرى •

ومهما يكن من أمر المشترك فان فيه تنوعا في المعاني بسبب تنوع الاستعمال وان في اشتمال العربية على هذا القدر الكبير من الألفاظ التي تتنوع معانيها بتنوع السيا ق، لدليلا على سعتها في التعبير عن طريق الاشتراك

---

(١٣٨) دراسات في فقه اللغة ٣٠٦ •

(١٣٩) احمد مختار عمر : البحث اللغوى عند الهنود ١٣٣ •

كسعتها فيه عن طريق الترادف . وقد نمت بهما نمواً كبيراً على صعيدي الألفاظ والدلالة .

نخلص من كل هذا الى أن العربية قد توسّلت بهذه الوسائل التسع لنموها وتكثير الفاظها ومعانيها ، وقد رأينا كيف ساهم كل سبيل من هذه السبل في الوصول الى هذه النتيجة ألا وهي التنامي والزيادة ، وكأنها جميعا روافد تصب في مصب كبير يزداد خصبه وثراؤه كلما استمرت هذه الروافد في العطاء . وبالرغم من كونها تتفاوت في نسبة عطائها وما يمكن أن تغدق به على اللغة ، كالنسبة مثلا بين الاشتقاق والنحت أو بين المجاز والدخيل ، الا أنها جميعا تساهم في النماء والزيادة . غير أن هناك وسيلة أخرى من وسائل نمو اللغة لعلها من أهم هذه الوسائل ان لم تكن أهمها جميعا ، لم نعرض لها بين ماعرضنا له من وسائل ، ألا وهي (الاضداد) التي نعقد لها صلب الرّسالة ، لدراسة مشكلتها في اللغة ، ذلك أن وجود الأضداد يختلف عن وجود غيرها من ظواهر اللغة لأن التّضاد في دلالة اللفظة ليس ـ كما يبدو ـ طبيعيّ الورود .

الباب الأول

الفصل الأول

الدلالة وتطورها في اللفظ والصوت

الدلالة

الدلالة هي علاقة اللفظ بالمعنى ، ودلالة اى لفظ هي ماينصرف اليه هذا اللفظ في الذهن من معنى مدرك أو محسوس . والتلازم الضروري بين الكلمة ودلالتها أمر لابد منه في اللغة ، وهو مايعتمده المتحدث والسامع للوصول الى الغرض من الكلام . والبحث في الدلالة علم خاص من علوم اللغة تطور الدرس فيه على أيدي المحدثين من علماء هذا الفن ، ووضعت فيه الآراء والنظريات العديدة وألفت فيه الكتب والمعجمات ، صحيح أنه لم يعن به القدماء كما عنوا ببحثى الاشتقاق والأبنية المتعلقين بشكل الكلمة ومادتها ، ذلك ان علم المفردات كان علامة القوة والسحر والمغيبات [١] ، الا أنهم مع ذلك عالجوا كثيرا من المسائل المتعلقة بمعاني الألفاظ وان أول ما ألف في العربية من باب اللغة تلك الرسائل التي جمع فيها رواة اللغة الألفاظ التي ترجع الى موضوع واحد كالابل والخيل والشجر والنبات والأنواء - وسيأتي فيما بعد تفصيل ذلك - وليس هذا العمل الا تصنيفا للغة بحسب الموضوعات والمعاني وكان ذلك بداية انتهت الى المعجمات الكبرى الجامعة التي رتبت على أساس معاني الالفاظ لا على أساس الأصول والمواد كالمخصّص لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبي وغيرهما[٢] . وعلم الدلالة العام طريق الى معرفة قوانين اللغات ، من تطور معاني الالفاظ ، وأسباب تبدلها ، والصلة بين اللفظ ومدلوله ، وصلة اللغة بأصحابها بوجه عام ، وعلم الدلالة في لغة من اللغات طريق الى معرفة أسرار تلك اللغة وطرائقها الخاصة في تسمية الأشياء وتطور ألفاظها ومعانيها ، ووسيلة لمعرفة عقلية الشعب الذي يتكلم بها وبيئته وعاداته ومراحل تفكيره كما في العربية

---

(١) انظر : دلالة الالفاظ العربية وتطورها لمراد كامل ٥ .
(٢) انظر : المرجع السابق ١٧ وفقه اللغة وخصائص العربية ١٥٤ .

مثلا ، وسنرى مصداق ذلك في العوامل النفسية والاجتماعيـــة لنشـأة الاضـداد •

دلالـة اللفـظ

اللغة مؤلفة من الألفاظ ، والألفاظ تقسم باعتبار الدلالة الى ذات دلالة (مطلقة) ، وهي التي تصح الدلالة بواحدة منها على أيّ موجود حسيا كان أم معنويا ، وتشمل : الضمائر واسماء الاشارة والاسم الموصول وما شاكل ذلك • والى ذا تدلالة (مانعة) أى لايمكن الدلالة بأحدها الاّ على قسم من الموجودات أو على نوع واحد من المعنى • والألفاظ المانعـــة تقسم الى (دالة على معنى في نفسها) وتنحصر في الفعل والاسم ومشتقاتهما ، و (دالّة على معنى في غيرها) وهي الحروف وماشابهها [٣] •

والحق أن اللغة الانسانية لايمكن أن تحصى مفرداتها احصاءا رياضيا ، اذ لاقيمة للفظ لم يجربه الاستعمال ، ولا مدلول للفظ شاع باستعمال معين اذا قسر على ايحاء غير معناه الشائع الجارى ، انما اللفظ الذى تلتمس دلالته، ويستشعر مابينه وبين دلالته من التناسب الطبيعي ، هو اللفظ الذى جرى به الاستعمال حتى شاع فيه ، وأطلق عليه وعرف به • وان علينا حين نفهم دلالة الألفاظ على هذه الصورة أن نفرّق بوضوح بين القيمة التعبيرية الذاتيـــة وبين القيمة المكتسبة • وأفضل طريقة لمعرفة ذلك تتمثل في تقصّي الخطوات المنسيّة التي مرّ بها هذا اللفظ حتى شاع بمعنى خاص ودلالـة معبرة • وهذه الخطوات المنسيّة على صعوبة الجزم بنوع المراحل التي مرّت بها طولا وقصرا واتساعـا وضيقـا وتصريحـا ورمزا لاتلقي على اللفظ من الأضواء ما يكفي لتحديد اللحظـة التي ولد فيهـا ، ولا لتعيـين المدلول الذاتي الذي يناسبه بعد أن تمّ ميلاده ، ولا لتبيـان القرائن التي حملت الناطقـين به على نقله من مفهـوم الى آخر ، أو على توليد معنى جديد من معناه الأصلي القديم [٤] •

---

(٣) الفلسفة اللغوية ص ٥٥ •

(٤) دراسات في فقه اللغة ص ١٦٨ •

وهناك ناحية أخرى مهمة هي أن الكلمة توجد في كل مرّة تستعمل فيها في جوّ يحدد معناها تحديدا مؤقتا • والسياق هو الذى يفرض دلالة واحدة بعينها على الكلمة بالرّغم من المعاني المتنوّعة التي يمكن أن تدل عليها • ويخلّص السّياق الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، ويخلق لها دلالة حضوريّة • والكلمة بكل معانيها الكامنة توجد في الذّهن مستقلّة عن استعمالاتها المختلفة التي تتشكّل بحسب الظروف الداعية لخروجها •

والاستعمالات التي تصلح لها الكلمة لاتخلع عليها دلالة عامة • فانه لايوجد بين الدلالات المختلفة التي تصلح لها الكلمة دلالة وسطى الاّ في النادر الشاذ ، بل كل واحدة منها موجودة لحالها • وليس في الذّهن كلمة واحدة منعزلة ، فالذّهن يميل الى جمع الكلمات ، والى اكتشاف صلات جديدة تجمع بينها • والكلمة الجديدة لاتطرد القديمة عادة ، لأن الذهن يروّض نفسه على وجود المترادفات والمتماثلات ويوزعها على استعمالات مختلفة • والحياة تشجّع على تغيّر المفردات لأنها تهيء الاسباب التي تؤثر في الكلمات (٥) •

فالكلمة لاتحدّد فقط بالتعريف التجريدى الذى تحددها به المعجمات • اذ يحيط المعنى المنطقي لكل كلمة جوّ عاطفي ، ينفذ فيها ويعطيها ألوانا مؤقتة على حسب استعمالاتها التي تكوّن قيمتها التعبيرية • والكلمة التي تطفو في الشعور لا تكون كلمة منعزلة ، فانها متى مثلت أمامنا ، ولو في صفة واحدة منعزلة من صفاتها مع بقاء صفاتها الاخرى في الظلام ، جرّت وراءها جحفلا من المعاني والعواطف التى ترتبط بها بعرى دقيقة على استعداد دائم للكشف عن نفسها • كما أنه لايوجد منطق داخلي يحكم التغيرات المعنوية

(٥) دلالة الالفاظ العربية وتطورها ص ٢٣ •

للكلمة . وتتأثر الكلمة بالالفاظ من نفس الأسرة اللغوّية ، فان هذا الأثر يحدثه في الذهن عمل غير شعورى يثبّت الكلمة في بعض المعاني ، ويعدّها للاستعمالات التي توّجه اليها .

وفي الاستعمال تتعرض الكلمة الى تغيرات اخرى في المعنى ، بعد ان تزود في لحظة استعمالها تزويدا تاما بدلالة وقتية تبعد عنها جميع الدلالات الناتجة من الاستعمالات الاخرى التي تصلح لها الكلمة وتؤثر على دلالتها . اذ ان الذّهن يسعى الى تحديد معنى الكلمة بجميع الوسائل التي في متناوله ولكنّه يخدع أحيانا اذا وجهته بعض الظروف وجهة غير مستقيمة. ومع ذلك نلاحظ انمعنى الكلمة يزيدتعرضا للتغيّر، كلمازاد استعمالها وكثرورودها في نصوص مختلفة ، لأن الذّهن يوجه كل مرة في اتجاه جديد ، وذلـــك يوحي اليه بخلق معنى جديد . وقد تتعدد استعمالات الكلمة وتتنوع ، ولكن يطغى أحدها غالباً على ما عداه ، وهو الذى يعيّن معنى الكلمة الأساس ، على النحو الذي يسجل عليه في المعجم . فاذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان لكلمة واحدة ، ولايمكن أن يتداخلا ، فمعنى ذلك أننا أمام كلمتـــين مختلفتين . والمعنى الغالب لايستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقا ، فان المعاني الثانوية التي تحيط به تتحفز للظور عليه واحتلال مكانه ، وينمو المعنـــى الجديد تدريجا ، ويحل محل القديم (٦) .

ومن المعلوم أن قسما عظيما من ألفاظها ولا سيمـا الأفعـال ، ممـا يستعمل للدلالة الحسية والمعنويّة على السواء .« فلا يخلو أن تكون احدى هاتين الدلالتين أصلية حقيقية والأُخرى فرعية مجازية. وعندي أنالدلالة الحسية هي الاصل والمعنوية الفرع حملت مجازا لتشابه فيالصور الذهنية، لان المحسوسات أول ما لفت انتباه الانسـان » (٧) . وعندما تخسر بعض

---

(٦) يراجع تفصيل ذلك في : دلالة الالفاظ العربية وتطوّرها ص ٢٤ .
(٧) الفلسفة اللغوية ص ١٢٦ .

الألفاظ دلالتها الحسيّة تكون قد تطورت فيها الى المعنوية مثل (قضى) بمعنى حكم والأصل فيها القطع الحسّي ، وهو من مادة (قض) • ومن الألفاظ ما لم يستعمل لكلتا الدلالتين نحو (عقل) بمعنى (فهم) مأخوذة من عقل الناقة أي ربطها •

والمعجمات على أنها مجموعات ضخمة لألفاظ العربية فهي تعكس لونا من ألوان التطور في استخدام الالفاظ غير أننا نجهل في كثير من الاحيان الظروف التي تسببّت في اطلاق أقوال كتب لها الشيوع ودعت الى استعمالها استعمالا واسعا ، وربما اجتهدنا الاجتهاد الدقيق في استعادة شيء من معرفة تلك الظروف ، ومن أمثلة ذلك (أنفه راغم) أو (على الرغم من) اذ أن النظر في المعجم العربي القديم لا يبصّر بهذه العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذي انتهت اليه المادة وخلصت له • وعلى هذا فان المعنى الحقيقي صار من قبيل المواد المهجورة لعدم الحاجة الى استعماله [٨] •

ومما يزيد في صعوبة هذا الكشف « أن اللغويين الأقدمين تنكّروا للاستعمالات العربية في العصور التي تلت الصدر الاول للدولة الاسلامية ، وقصروا اهتمامهم بلغة الشعر الجاهلي كثيرا ولغة القرآن وطائفة من شعراء الصدر الاول الاسلامي • والأخذ بهذا النظر يعني انكارا للحقيقة اللغوّية وهي المذهب الاجتماعي الذي يفصح عن ان اللغة من صنع الهيئة الاجتماعية ، واذا اعتقدنا بهذه النظرة العلمية الحديثة ، اعتقدنا أيضا أن هذه اللغة لابد أن تتطوّر فتساير الزمان والمكان » [٩] •

وقد عرض لمسألة الدلالة وانواعها وارتباطها باللفظ جماعة من الفلاسفة والمناطقة والاصوليين في مختلف اللغات ، فقد اسهب في بحثها

---

(٨) التطوّر اللغوى التاريخي ص ٣٦ •
(٩) التطور اللغوى التاريخي ٣٧ •

فلاسفة اليونان والرومان وساءلوا أنفسهم عن العلاقة بين أصوات الكلمات ومدلولاتها وبين الكلمات نفسها ومدلولاتها ، وعما اذا كانت هذه العلاقة رمزية أو أنها مجرد مصادفة [١٠] ، مما سنعرض لـه عند الحديث عن دلالة الصوت ، كما خاض فلاسفـة الهنود هـذا الموضوع وتحدثوا عن (الكلمة) و (الادراك) و (المحتوى) وانقسموا في نظرتهم الى العلاقة بين اللفظ والمعنى فمنهم من رفضها ومنهم من قال بها [١١] . وأدلى أصوليو العرب ومناطقتهم دلوهم في هذا الموضوع ، فنقل عن فخر الدين الرازى انه قال : « لايجب أن يكون لكل معنى لفظ ، لان المعاني التي يمكن ان تعقل لاتتناهى ، والالفاظ متناهية ، لانها مركبة من الحروف ، والحروف متناهية والمركب من المتناهي متناهٍ »[١٢] . وقد رد هذا الرأي من قبل جماعة : « استدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن » [١٣] ، وأجاب صاحب التحصيل عن هـذا بأنه « انما دار مـع المعاني الذهنيـة لاعتقادانها في الخارج كذلك ، لا لمجرد اختلافها في الذهن » [١٤] .

وذهب الاصوليون في ابحاثهم في الوضع الى ضرورة وجود المناسبـة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، فقد « نقل أهل أصول الفقه عن عباد بـن سليمان الصميري من المعتزلة انه ذهب الى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال : والاّ لكان تخصيص الاسم المعين بالمسّمى المعين ترجيحا من غير مرجح »[١٥] . وهذا المذهب كان جماعـة

---

(١٠) من أسرار اللغة ١٢٥ ودلالة الالفاظ ٦٢ .
(١١) البحث اللغوى عند الهنود ١٠١ ـ ١٠٤ ، ١١٠ ـ ١١١ .
(١٢) المزهر ١/٤١ .
(١٣) المزهر ١/٤٢ .
(١٤) المزهر ١/٤٢ .
(١٥) المزهر ١/٤٧ .

من اللغويين قد أخذوا به وتوسعوا فيه كابن جني الذى عقد له بابا في مصنفه الكبير (الخصائص) بعنوان (مناسبة الألفاظ للمعاني) .

الا" أن جمهورا من الاصوليين أنكر مقالة عباد بن سليمان الصيمرى بحجة أنه « لو ثبت ما قاله لاهتدى كل انسان الى كل لغة ولما صح وضع اللفظ للضدين كالقرء للحيض والطهر ، والجون للأبيض والأسود .. وأما أهل العربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عبّاد أن عبادا يراها ذاتية موجبة بخلافهم » (١٦) . ومع ذلك ـ أى مع انها ليست موجبة عند أهل اللغة ـ فان الاصوليين المعاصرين مصرون على انكار هذه الدعوى اللغوية التي لاتدعو اليها أية ضرورة عقلية أو تأريخية على حد قولهم ، وانها لايجب أن تكون قائمة بين طبيعيّ اللفظ والمعنى بل يكفي فيها أن توجد « ولهذا لانجد أية ضرورة لالتماس التمحلات في ايجاد المناسبة كما حاول ذلك امثال ابن جني من اعلام اللغويين » (١٧) .

وللمناطقة بدورهم باع طويل في مسألة الدلالة اللفظية ، فقد بحثوا هذا الموضوع في كتبهم ومصنفاتهم وقسموا الدلالة الى ثلاثة اوجه متباينة : « الاول (المطابقة) وهي ان يدل اللفظ على تمام معناه الموضوع له ويطابقه ، والثاني (التضمين) وهو أن يدل" اللفظ على جزء معناه الموضوع له ، الداخل ذلك الجزء في ضمنه ، والثالث (الالتزام) وهو أن يدل اللفظ على معنى خارج عن معناه الموضوع له يستتبعه استتباع الرفيق اللازم الخارج عن ذاته » (١٨) . وسنرى ان هذه الاقسام تنطبق على أنواع الدلالة في الأضداد فيما بعد .

---

(١٦) المزهر ١/٤٧ .
(١٧) الوضع للحكيم ١٠ .
(١٨) المنطق للمظفر ١/٣٩ .

أما اللغويون القدامى من المسلمين فقد عرضوا لمسألة الدلالة بشكل مختلف عما عرض له هؤلاء جميعا ، فقد كان لهم من خبرتهم في الدرس اللغوى واستيعاب الأساليب العربية ماعصمهم من التوغل في مثل هذه المتاهات العقلية البعيدة عن طبيعة الموضوع ، ومن أوائل هؤلاء اللغويين سيبويه الذى عقد للدلالة فصلا في مصنفه الكبير قسم فيه ألفاظ العربية حسب انصرافها الى دلالاتها معنونا اياه (باب اللفظ للمعاني) يقول فيه : « اعلم ان من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين . واختلاف اللفظين والمعنى واحد . واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو جلس وذهب . واختلاف اللفظين والمعنى واحد هو نحو ذهب وانطلق واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك : وجدت عليه من الموجدة ووجدت اذا اردت وجدان الضالة ، وأشباه هذا كثير »[19] . ومثل هذا التقسيم نجده في جملة كتب ومصنفات اخرى كالذي فعله المبرد بشيء من التفصيل في ضرب الأمثلة[20] ، كما أفادت منه كتب الأضداد محاولة تحديد نوع الدلالة في الاضداد كما سيأتي بيانه فيما بعد ، والظاهر انها نقلت من (الكتاب) المادة الاولية للموضوع ، ولعل سيبويه نفسه قد نقل هذا التقسيم عن استاذه الخليل ، وان لم ينص على ذلك .

ويبدو أن سيبويه في هذا قد فتح الطريق امام الدارسين للوقوف امام هذه الظواهر اللغوية متعمقين في بحثها مستزيدين من صورها وأسرارها ، حتى ان المثل الذى ساقه لاتفاق اللفظين والمعنى مختلف وهو الفعل (وجد) قد أثار انتباه ابن قتيبة لينكشف له ان الاتفاق بين اللفظين لم يحصل بشكل

---

(١٩) كتاب سيبويه ١/٧ ـ ٨ .

(٢٠) ما اتفق لفظه واختلف معناه ، فصل (اقسام الاتفاق والاختلاف) ص ٢ـ٣ .

تام وانما أوهم بذلك الفعل ، لان المصادر ماتزال مختلفة في ألفاظها اختلاف المعاني ، فوضع فصلا سماه (اختلاف المصادر واتحاد الفعل)(٢٢) يدرس فيه هذه المسألة ويضرب الامثلة ، فجمع منها الشيء الكثير •

وهذا التغيير في المعنى الذى كان سببه تغير صيغ المصادر دفع الدارسين بدوره الى دراسة تغير المعنى في الالفاظ لأسباب اخرى غير تغير صيغ المصادر، معتمدين الشواهد الشعرية والآيات القرآنية ولغة العرب ، فوجدوا أن بين (فعل وأفعل) فرقا في الدلالة ولدته الهمزة ، فالعرب يقولون : « ابغني خادما فارها ، يريدون ابتغه لي ، فاذا أرادو : آبتغ معي وأعنّي على طلبه قالوا: أبغني ففتحوا الألف الأولى من بغيت ، والثانية من أبغيت»(٢٣). ووجدوا أن تكرير اللفظ لتكرير المعنى قالوا : والكبكبة تكرير الكب جعلوا التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كما قد تغيّر حركة الصيغة اسما أو فعلا اشعارا بتغيير المعنى كما في (دَرُسَ) و (دَرَسَ) فدُرِسَتْ بضم الراء مبالغة في دَرَسَتْ اشتد دروسها وقد يزاد في الصيغة للتفريق بين معنى ومعنى أو لاعطاء زيادة في المعنى كما في (حائض وحائضة وطامث وطامثة) • وانما يكون ذلك ـ اى حائض وطامث ـ في الصفة الثابتة ، فأما الحادثة فلابد لها من علامة التأنيث تقول حائضة وطالقة الآن أو غدا (٢٤) •

وفي الفعل وجدوا أن العدول فيه من صيغة الى أخرى انما يكون لمعنى لغوى كما يعدل من المضارع الى الماضي للدلالة على أن المستقبل بمنزلة الواقع الكائن ، والعكس موجود أيضا أى انه يعدل من الماضي الى المضارع لحكاية الحال • ويعدل من الفعل الى الاسم للدلالة على الثبوت

---

(٢٢) أدب الكاتب ٢٤٤ ـ ٢٤٧ •

(٢٣) معاني القرآن للفراء ١/٢٢٧ ـ ٢٢٨ •

(٢٤) انظر : الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ٢٨٥ ـ ٢٨٨ •

والوصفيّة، ويضمّن فعل معنى فعل آخر، ويستعمل الفعل متعديا بنفسه ، وباللام تارة أخرى كشكرته وشكرت له ونصحته ونصحت له ولكل معنى ودلالة ، ويعدل من تعدية الى تعدية لغرض لغوى وللدلالة على معنى خاص ، ويفترض أن الفعل اذا استعمل مع حرف آخر كان له معنى آخر ، وتوضع صيغة مكان صيغة لدلالة معنوية كما في وضع (استعجال) مكان (تعجيل) [(٢٥)] ، وهكذا بقية مايعدل عنه الى غيره لاغراض دلالية •

ومثل هذه الصلة المتنوعة بين اللفظ ومدلوله مانجده بين وزن اللفظة ودلالتها فمبالغة اسم الفاعل بوزن (فعّال) « تدل بما فيها من تشديد الحرف الثاني على الشدة او الكثرة ، وبألف المدّ فيها على الامتداد والفاعلية الخارجية• وأما (فِعّيل) ففيها الحرف المشدد الدال على الشدة أو كثرة الملازمة للفعل ، ولكنّ الياء أنسب للدلالة على أمر نفسيّ داخلي في مثل قول العرب صِدّيق وخِرّيت وسِكّير فهي تدل على صفة داخلية نفسيّة أكثر من دلالتها على أفعال خارجية » [(٢٦)] •

ولتركيب الجملة مدخلية كبيرة في انصراف دلالتها العامة الى الذّهن ، فتغير هذا التركيب يستتبعه تغير مدلولها العام ، الاّ اذا لم يكن تغير التركيب مما يوهم تغير الدلالة ، يقول الفرّاء : « وسمعت العرب تقول : قد عمّي علي الخبر وعمي علي بمعنى واحد • وهذا مما حوّلت العرب الفعل اليه وليس له ، وهو في الأصل لغيره •ألا ترى أن الرّجل الذى يعمى عن الخبر أو يعمى عنه ، ولكنه في جوازه مثل قول العرب : دخل الخاتم في يدي والخفّ في رجلي ، وانت تعلم أن الرجل التي تدخل في الخف والاصبع في الخاتم ، فاستخفوا بذلك اذا كان المعنى

---

(٢٥) المرجع السابق والصفحة نفسها •

(٢٦) فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٨١ _ ٢٨٢ •

معروفا ، لايكون لذا في حال ولذا في حال ، انما هو لواحد ، فاستجازوا ذلك لهذا »[٢٧] .

تطوّر الدلالة : عوامله وخواصّه

لاحظ علماء الدلالة المحدثون أن الالفاظ تتطوّر فتكتسب من المعاني أشباه جديدة لم تكن لها من قبل ، ذلك أن اللفظة تحيا حياة متجدّدة وهي أبدا في تغيّر في دلالاتها ، وفي طرائق استعمالها ، ولم تكن العربية لتشذ عن باقي اللغات في هذا التبدل والتطوّر ، فهي حيّة ناشطة تقذف بالجديد في كل حين عندما تحصل الضرورة لاستخدام هذا الجديد في اللفظ ، والالفاظ العربية كما يدلّ البحث التاريخي كانت عرضة للتبدّل الذى اقتضاه الزمان وتقلب الأحوال والنظم الاجتماعيّة ، ومن أوضح الامثلة على هذا مانسميّه بالألفاظ الاسلامية ، فما هي الا لون من ألوان التطوّر الذى اكتنف اللفظة القديمة فاستحالت شيئا آخر تقتضيه الحياة الدينية والبيئية والاجتماعية الجديدة[٢٨] .

وقد بحث الدارسون التطور الدلالي على أسس مختلفة ، فمنهم من لاتخرج عنده عن الناحية التأريخية ومنهم من بحثها من الناحيتين الاجتماعية والنفسية وربط تطور الدلالة بالشعور والارادة والسلوك . ومنهم من رجعها الى المستوى الشعبي ، اذ بوساطة البحث في المدلول يستطاع الوصول الى حلول كثير من مشكلات الانسان[٢٩] « ولكن أمرا جوهريا فات أولئك الباحثين ، وهو ان لهجة أى جهتين أو اقليمين يبعد الواحد عن الآخر نحوا من مائة ميل أو أكثر من ذلك لابد أن تكون الواحدة مختلفة عن الأخرى في كثير من الخواص والميزات ولاسيّما اذا

---

(٢٧) معاني القرآن ٢/١٢ .

(٢٨) التطور اللغوي التاريخي ص ٤٠ـ٤١ ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص ٢٧٩ .

(٢٩) التطور اللغوي التاريخي ٤٢ .

كان أهل تلك الجهة ، أو ذلك الاقليم قد غبرت عليهم الأعصار في اقامتهم في ذلك الاقليم أو تلك الجهة ، وقد اثبتت البحوث أنه ليس هناك حدود ثابتة لكلّ لهجة من اللهجات ، أو قل كل ميزة أو ناحية خاصة للهجة بعينها[٣٠] •

أما اللغويون العرب القدماء فقد وقفوا من التطور الدلالي وقفة الحرص والحفاظ على اللغة القديمة ، وسمّوا الاستعمال الجديد بالمولّد ؛ وقصروا قبولهم على لغة القدماء التي حددوها بزمان معين وأمكنة معيّنة لأن لغة هؤلاء هي التي يحتج بها دون غيرها ، وما سواها خروج على أصل اللغة النقي الذى لم تشبه شوائب (اللحن) و (التوليد) و (المفسد) و (المزال) وغيرها ، وقد وضعوا في هذا مصنفاتهم التي اسموها لحن العامة أو مايشير الى ظاهرة التطور الدلالي من أسماء وعناوين أخرى ، حتى قرّر ابن فارس أن أى تغيّر يطرأ على المعنى موقوف على ما سمع[٣١]، الا ّ أن ذلك كله لم يوقف الحركة الدائبة المستمرة لتطوّر الدلالة اللفظية •

ولتطور الدلالة وتغيّرها في اللفظ طرائق مختلفة كثيرة ، نصّ الدارسون على أن أهمّها[٣٢] : ـ

١ ـ التعميم : وذلك بأن يتوسع في معنى اللفظ ومفهومه فينقل من معناه الخاص الذى يدلّ عليه الى معنى عام شامل •

---

(٣٠) المرجع السابق ٣١ •

(٣١) الصاحبي ص ٩٦ •

(٣٢) انظر : في اللهجات العربية ص ١٩٥ ودلالة الالفاظ العربية وتطورها ص ٢٥ ودلالة الالفاظ (أنيس) ص ١٢٧ وما بعدها وفقه اللغة وخصائص العربية ص ٢١٨ وما بعدها ولحن العامة والتطور اللغوي ص ٥٨ ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية ص ٢٨١ • واللغة لفوندريس (الترجمة العربية) ص ٢٥٨ وعلم اللغة (السعران) ص ٣٠٩ ومـا بعدهـا ، وعلم اللغة (وافي) ص٢٩٣ ـ ٢٩٥ •

٢ ـ التخصيص : وهو أن تقصر الدلالة العامة للفظ على بعض اجزائها ويضيّق شمولها ، بحيث يصبح مدلول الكلمة مقصورا على أشياء تقل في عددها عمّا كانت تدل عليه الكلمة في الاصل الى حد ملحوظ • فالمتكلم اذا اطمأن من فهم سامعه أعفى نفسه من الدقة والتحديد واكتفى بالتقريب العام • ويمكن لهذا المتكلم أن يضيّق من دلالة الكلمة أو يخصّصها مهما كانت هذه الدلالة موغلة في التخصّص • وقد يقع التخصيص نتيجة حذف المضاف اليه أو الصفة ومثاله لفظ (الدنيا) وأصله الحياة الدنيا والتخصيص بعد أوسع من التعميم وأكثر ورودا •

٣ ـ تغيّر مجال الدّلالة : ويكون ذلك بانتقال اللفظ من مجال دلالته الى مجال دلالة اخرى لتشابه بين الدلالتين أو قرب بينهما أو مناسبة واضحة •

٤ ـ الاستعارة والمجاز[٣٣] : فالاستعارة علاقتها التشبيه والمجاز (المرسل) علاقته السببية والحالية والمحلية والجزئية والكلّية وغير ذلك ، وهما من أهم العوامل في تغير المعنى ، ومن هنا اعتبر العامل المجازى هذا هو من صور تغير مجال الدلالة فالمجاز هو تغير مجال الدلالة لولا اختلافه شيئا ما عن ذاك • وليس من الضرورى أن يكون الاستعمال المجازى مقصودا متعمدا ، فقد يلجأ الناس الى مجازات لتوضيح معانيهم وأبرزها في صورة جليّة دون أن يعمدوا الى هذا عمدا ؛ المهم أن المعنى الجديد يكون في بادىء الامر مجازيا بحتا ولكنه بعد كثرة الاستعمال وشيوعه بين الناس تذهب عنه هذه الصفة وتصبح دلالته على معناه الجديد دلالة حقيقية لا مجازية ، والواضح

---

(٣٣) انظر : دلالة الالفاظ (أنيس) ص ١٢٧ ـ ١٣٣ •

من دراسة تطوّر دلالات الألفاظ عن هذا الطريق أن التطور يكون من المعاني الحسيّة المادية الى المجرّدة المعنويّة •

وهناك عوامل أخرى للتطور الدلالي وهي عوامل نفسية اجتماعية منها : رقي الدلالة وانحطاطها ، والمحظور ، وحسن التعبير ، والتحول نحو المعاني المضادة ، وسوء فهم المعنى ، وتماثل صورة اللفظ ، وتغيّر المعنى تبعاً لتغير اللّهجة ، وغير ذلك مما كان له الأثر الكبير في تطوّر معاني المفردات ، والسبل التي تسلكها في هذا التطور عبر تاريخها الطويل • ولا يفوتنا أن نذكر أن من العوامل التي أدت الى تطوّر الدلالة كذلك : ابهام معنى اللفظ وغموضه مما يضعف مقاومته لعوامل الانحراف والتغير ، وانتقال اللغة من السلف الى الخلف اذ يؤدى ذلك الى عدم فهم الجيل الجديد بعض معاني الفاظ الجيل السابق • وانتقال الكلمة من لغة الى لغة يغيّر من دلالتها في استعمالها في اللغة المنقولة اليها • واختلاف الطبقات والجماعات ينشأ عنه اختلاف في مدلول الكلمات ، وتغير الشيء الذى تدل عليه الكلمة من حيث طبيعته أو عناصره أو وظائفه لابد أن يستتبعه تغيّر في مدلول اللّفظ المطلق عليه • وقواعد اللغة نفسها تذلّل السبيل الى تغيّر المدلول وتساعد على توجيهه وجهة خاصة ، مثال ذلك لفظ (وَلدَ) فكون هذه الكلمة مذكرة ربطها بالمذكر من البنين • وأخيرا تطوّر أصوات الكلمة وتبدلها يستدعي تغيّر مدلولها في الاذهان اذ هي تقترب في اصواتها من اصوات كلمة اخرى لها معنى مختلف فتكتسب منها هذا المعنى ، بعد ان ضعفت صلتها الصوتية في الأذهان بأصلها وأسرتها ، الى آخر ما هنالك من عوامل •

والتطوّر الذى تحدثنا عنه هو ذلك الذى يلحق معنى الكلمة نفسه تخصيصا وتعميما وانتقالا ، ومجازا واستعارة وسائر العوامل الأخرى ، الاّ أن هناك تطورا دلاليا يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب

الجمل وتكوين العبارة وما الى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف والتنظيم ، كما حدث كل ذلك في اللهجات العاميّة العربيّة اذ تخففت من علامات الاعراب وتغيّرت فيها قواعد الاشتقاق واختلفت مناهج تركيب العبارات • كما أن هناك تطورا ثالثا يلحق الاساليب ، كما حدث للغة الكتابة العربية الحديثة اذ تطورت أساليبها عن أساليب الكتابة القديمة بتأثير الترجمة والاحتكاك بالآداب الاجنبيّة ورقي التفكير وزيادة الحاجة الى الدقّة في التعبير عن حقائق العلوم المختلفة (٣٤) •

والتطوّر الدلالي يخضع في حدوثه لقوانين ثابتة مطردة ، هي سنة هذا التطور ومنهجه الخاص من ذلك : أنه يسير ببطء وتدرّج ويستغرق وقتا طويلا ، فينتقل المعنى الى آخر قريب ، وهذا الى ثالث متصل به حتى تصل الكلمة أحيانا الى معنى بعيد جدا عن معناها الأول ، وسنضرب مثلا واضحاً لهذا بعد قليل • ومن سنن التطور الدلالي أيضاً أنه تلقائي الحدوث لا دخل لارادة الانسان فيه ، وأنّه صارم الظواهر لايد لاحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ماتؤدى اليه • ومن سننه أيضا أنه في معظم أحواله مقيد بالزمان والمكان ، فأكثر ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص ، وليس هناك تطوّر دلالي لحق جميع اللغات في صورة واحدة ووقت واحد • ومن سننه كذلك أن أثره يشمل جميع الافراد الذين تضمهم البيئة التي يحدث فيها ، دون أن يفلت من هذا الأثر أحد • وأخيرا ترتبط الدلالة المتطورة بالحالة التي انتقلت منها باحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعي المعاني وهما : المجاورة والمشابهة • فاذا كانت منتقلة باحدى هاتين الحالتين فانتقالها الجديد يكون باحدى هاتين الحالتين أيضاً ، كما هو الحال في لفظ (ظعينة) معناه في الأصل المرأة في الهودج ، ثم

---

(٣٤) علم اللغة (وافي) ص ٢٨٧ _ ٢٨٨ •

انتقل الى معنى الهودج نفسه والى معنى البعير والى معنى المرأة [٣٥] .

وقد يحذف اللفظ لوجود قرينة دالة عليه ، يقول السيوطي : « قال ابن يعيش : وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى ، فاذا ظهر المعنى بقرينة حاليّة أو غيرها ، لم يحتج الى اللفظ المطابق ، فان أتي باللفظ المطابق جاز وكان كالتأكيد ، وان لم يؤت به فللاستغناء عنه » [٣٦] ، فاذا استمرّ حذف هذا اللفظ من الاستعمال لوجود قرينة معنوية دالة عليه انقرض وزال من اللغة وصار في عداد الالفاظ الميتة المنقرضة التي كان هذا الهجر في الاستعمال أحد أسباب انقراضها مع أسباب أخرى منها : ثقل الكلمة على اللسان أو عدم تلاؤم أصواتها . ومنها : انعزال الكلمة وعدم ارتباطها بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل متداولة الاستعمال .

واللغة عندما تخلع عنها ثوبا قديما في انقراض بعض ألفاظها ترتدي ثوباً جديداً في ميلاد ألفاظ حيّة تتم نشأتها بوسائل منها : أن تنشأ الكلمة انشاء كالمصطلحات العلمية وما شاكلها ، ومنها : أن تنتقل الكلمة من لغة أخرى أو لهجة أخرى وهو مايسمّى بالدّخيل ، ومنها : أن تعاد الى الالفاظ المهجورة في اللغة الحياة في استعمالها . ومنها : أن تشتق لفظة غير مستعملة من لفظة مستعملة أو أن تنحت من كلمتين أو أكثر [٣٧] ، وغير ذلك مما مرّ عرضه في التمهيد .

والآن نأخذ لفظة (اللحن) لنسوقها مثلا بارزا من أمثلة تطوّر الدلالة في لفظ من الألفاظ ، فقد ذكروا لهذه الكلمة عدة دلالات اعتماداً على شواهد شعرية ونثرية ليست بالقليلة . فمن معانيها (الخطأ في الكلام)

---

(٣٥) المزهر ١/٢٠٧ .
(٣٦) الاشباه والنظائر ١/٢٧٣ .
(٣٧) علم اللغة (وافي) ص ٢٩٩ ومابعدها .

واستشهدوا له ببيت مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري من شعراء الدولة الأموية :

مَنطِقٌ صائبٌ وتلحنُ أَحيا نًا وخيرُ الحديثِ ما كانَ لحنا[٣٨]

ومن معانيها كذلك (الفطنة والفهم) فقد روى عن عيسى بن عمر أنه قال : « قال معاوية للناس : كيف ابن زياد فيكم ؟ قالوا : ظريف على أنه يلحن . قال : فذاك أظرف له . ذهب معاوية الى اللحن الذى هو الفطنة ، وذهبوا هم الى اللحن الذى هو الخطأ » [٣٩] ، ومن الشواهد الشعريّة على استعمال كلمة (اللحن) بمعنى الفهم والفطنة قول لبيد :

متعـّود لَحِنٌ يعيد بكفّه قَلماً على عُسُبٍ ذَبلنَ وبانِ[٤٠]

وقال ابن أحمد الباهلي يصف صحيفة كتبها :

وتعرف في عنوانها بعضَ لحنِها وفي جوفها صمعاء تبلي النّواصيا[٤١]

ومن شواهدهم على معنى الفطنة والفهم قول عمر بن عبدالعزيز : « عجبت لمن لاحن الناس ولاحنوه كيف لا يعرف جوامع الكلم »[٤٢] ، أى فاطنهم وجادلهم .

ومن معاني اللحن أيضاً (التورية والتعريض والكناية) ، ومن الشواهد الشعرية المسوقة لهذا المعنى هو بيت القتّال الكلابي المشهور :

ولقد وَحيتُ لكم لكيما تَفهموا ولحنت لحناً ليسَ بالمرتابِ[٤٣]

---

(٣٨) اضداد ابن الانباري ص ٢٤١ ومجالس ثعلب ٢/٥٩٩ وسمط اللآلي ١/١٦ .

(٣٩) أضداد الانباري ص ٢٣٩ .

(٤٠)و(٤١) اضداد ابن الانباري ص ٢٤٠ ، ولسان العرب مادة (لحن).

(٤٢) اضداد ابن الانباري ٢٤٠ والمحكم ٣/٢٥٨ .

(٤٣)اضداد ابن الانباري ٢٤٠ ، ولسان العرب (لحن) ،واماليِ القالي ١/٦ .

ومن معاني اللحن كذلك (الغناء) ، يقول علي بن عميرة الجرمي :

صدوح الضحى معروفة اللحنِ لم تزل
تقودُ الهوى من مسعدٍ ويقودُها [٤٤]

ويقول الشاعر كذلك :

باتا على غصنِ بانٍ في ذرا فننٍ يرددان لحونا ذات ألوانِ [٤٥]

ومن معاني اللحن أخيراً (اللغة أو اللهجة) فقد روى عن عمر ابن الخطاب أنه قال : « تعلّموا الفرائض والسنن واللحن » وقال أيضاً : « تعلموا اللَّحن في القرآن كيما تَتعلمونَه » [٤٦] ، الا ان الأزهري ذهب في تفسير اللحن في هذا الحديث الى أنه (المعنى والفحوى) [٤٧] ، وذهب أبو عبيدة الى أنه بمعنى (الخطأ) [٤٨] .

وقد استخدم اللحن بمعنى اللهجة في قول عمرو بن شرحبيل في تفسير قوله تعالى : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) فقال : « العَرِم : المسنّاة بلحنِ اليمَن » [٤٩] اى بلهجة اليمن ، والمسنّاة : حاجز يمسك الماء .

وهكذا نجد أن المعاني التي تنصرف اليها كلمة (اللحن) لا تربطها رابطة واضحة وليس بينها قرب بيّن ، وتبدو كأنها بعيدة كل البعد الواحدة عن الأخرى . والشواهد ـ على كثرتها نسبيا ـ لاتهدينا الى تحديد عصر كل معنى ، فبالرغم من توزّع هذه الشواهد على عصور مختلفة فهي مع ذلك مضلّلة اذ قد يشترك أكثر من معنى في عصر ؛ كما

---

(٤٤) اضداد ابن الانباري ٢٤١ وأمالي القالي ١/٧ .

(٤٥) اضداد ابن الانباري ص ٢٤١ وامالي القالي ١/٧ ولسان العرب (لحن) .

(٤٦) الحديثان في اضداد ابن الانباري ص ٢٣٩ وقد نسب الثاني فيه الى ابي بن كعب .

(٤٧) تهذيب اللغة (لحن) .

(٤٨) النهاية في غريب الحديث ٥/٢٤٢ .

(٤٩) اضداد ابن الانباري ص٢٤٠ .

في معنيي (الخَطأ) و (الفِطنة) في العصر الأموي ، فحين يقصد معاوية (الفطنة) يقصد المجيبون (الخطأ) . فكان لابدّ من البحث عن وسيلة تهدينا الى معرفة طريق التطوّر الحاصل في هذه اللفظة .

وأهم مانعثر عليه في هذا الصدد هو تحديد ابن فارس لمعنى (اللحن) في الاصل ، وهو المعنى الذى انطلقت منه سائر المعاني بقوله « إمالة شيء عن جهته » (٥٠) وهو صحيح كما سنرى عند تطبيقنا اياه على معاني (اللحن) الاخرى ، الاّ أن بعض الباحثين أساء تطبيق هذا الاصل على معاني الكلمة (٥١) ، فهو قد افترض أن في كل معنى من معاني الكلمة شيئاً من هذا المعنى الأصلي، ففي الغناء امالة شيء عن جهته وفي التورية كذلك وفي الخطأ كذلك وهكذا حتى في الفطنة امالة شيء عن جهته ، فالمعاني عنده متساوية الدرجة في احتوائها على قدر من معنى امالة الشيء عن جهته ، دون أن يحاول الربط بين المعاني نفسها ، لذا فهو قد رتبّها هكذا : الغناء ــ التورية والرمز ــ الخطأ ــ اللهجة ــ الفطنة ــ معنى القول وفحواه .

وهذا الذى يقوله صحيح لو كانت هذه المعاني مستخدمة في عصر واحد ولسمعناها جميعا في العصر الاموى مثلا ولما اختلط الأمر بين معاوية وجلسائه في فهم معنى (اللحن) ، فأنا اختلف معه في هذه الناحية وأرى أن كل معنى من هذه المعاني انما هو متطوّر عن المعنى الذى سبقه في الاستعمال وشاع في الكلام حتى اقترب منه معنى آخر انتقلت الكلمة اليه منصرفة لهذا المعنى الجديد استعمالاً وشيوعاً . ذلك أن أقرب معانيها صلة بمعنى امالة شيء عن جهته هو (التورية والكناية) فهي مصداق امالة الشيء عن جهته لأنها على غير الأصل ، وكل ما هو على غير الأصل فهو

---

(٥٠) مقاييس اللغة ٥/٢٣٩ .
(٥١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية (عبدالعزيز مطر) .

ممال عن جهته ، يؤيّد ذلك استعانتنا بالأصل الثنائي للكلمة وهو (ل ح) فنجد أنه منسجم المعاني وقريبها مما نريده فمنه : لحد ، لحم ، لحف ، لحن ، لحق ، لحظ ، وكلها تشير الى التغطية والسّتر والتورية ، فمنها كان معنى التورية أقرب المعاني للأصل • والظاهر أنه معنى قديم ، واليه أشار القرآن (ولتعرفنهم في لحن القول) أي ممّـا يكنّون ويعرّضون تلميحـا •

والتورية الجيدة مما يجمّل الكلام ويحسّنه ، واذا كان الحديث مطعّماً بالكناية البارعة كان حديثاً شيقاً ، وذلك ما لا يستطيع الاضطلاع به والاجادة كل الناس ، وانما الفطن الذكي منهم ، لذا كان انصـراف اللحن الى معنى (الفطنة والذكاء) من هـذا الباب ، وبالعكس أيضـاً اذا كانت التورية أو الكناية ضعيفة سيئة فقد تعدّ من الخطأ في الكلام ، فصار اللحن (الخطأ في التورية) ثم على قاعدة (التعميم) صار اللحن يعني كل خطأ في الكلام كنايةً أو تصريحاً ، وهذا هو الذي أوهم ابن الانبارى ضديتها عندما صرّح بجواز كون اللحن يعني الصواب ويعني الخطأ[52] • وعندما يعتاد المتكلم الحديث بلهجته وتكون لديه كالبديهة فكل خلاف لغوى من أى نوع كان ــ حتى لو كان ذلك الخلاف لهجة اخرى ــ فهي من وجهة نظر المتكلم خطأ لغوى ، فأصبح اللحن الذى كان يعني الخطأ يعني (اللهجة) الآن •

والقدماء كثيرا ما استعملوا اللغة بمعنى اللهجة بل كان من النادر جداً العثـور على لفظـة اللهجـة التي تعني معناها فاذا قالوا : لغة اليمن فهم قد يعنون لهجة اليمن ، وهكذا بقية اللهجات ، ونظرا لما بين اللهجة واللغة من صلة وثقى اذ اللهجة ــ في الدرس اللغوي الحديث ــ شعبة

---

(٥٢) اضداد ابن الانبارى ص ٢٣٩ •

من شعب اللغة ، كان انصراف اللحن ليعني (اللغة) كانصرافه ليعني اللهجة • وهم كانوا يرون أن للحيوان لغة وللطير لغة ، اذ أشاروا الى ذلك في نصوصهم عند ذكر الورقاء والبلبل والشادن وغيرذلك من الطيور المغردة ، وتغريد الطير لغته ، فأطلق اللّحن الذي يعني اللغة على تغريد العندليب توسعا منهم في معنى اللغة ، وهذا التغريد الذي يوقعه الطير محبب الى نفوسهم ومما تطرب اليهاروواحهم فكان اذاأرادوا تشبيه الصوت الانساني الجميل شبهوه بتغريد الطير الموقّع المنغّم ، وأحلى اصوات الانسان وأوقعها على النفس عندما يغني وينغم ما يقول ، فكان هذا مدعاة انتقال المعنى من غناء الطير الى (غناء الانسان) حتى استقرّ المعنى عند غناء الانسان وصار اللفظ منصرفاً اليه •

هذا ما أردنا بيانه من تطّور دلالة (اللحن) لتكون هذه الكلمة مثلا واضحاً لكثير من الكلمات التي مرت بمراحل دلالية كثيرة حتى استقر لها الى جانب معناها الاخير معان اخرى هنّ ممّا احتفظت به هذه الكلمة في تاريخها الطويل الذي حفظته لنا الشواهد الشعرية والنثرية تارة ، وما توحيه دلالات اللفظ من قرب واضح ينبيء عن تطوّر المعاني الواحدة عن الاخرى تارة اخرى ، كما في كلمة (اللحن) مثلا • وحصر ذلك من واجبات المعجم اللغوي التاريخي الذي عليه أن يعنى بهذا الجانب من دراسة الالفاظ وتصنيفها الى جانب جمعها جمعا معجميا ، وهو ماتفتقده عربيتنا الان •

دلالـــة الصـــوت

اللفظة الواحدة التي مرّ البحث في مدلولها على أنها مجموعة أصوات تنصرف الى معنى خاص يميزها عن سائر الألفاظ ، هي في هذه المرّة تبحث على أن لكل صوت من أصواتها انصرافاً جزئياً الى ذلك المعنى وبعبارة أوضح نقول ان لكل صوت دلالة خاصة تحمل في طياتها شيئاً من

المعنى العام للفظ ، ذلك أن تعريف الوحدة الصوتية ـ كما توصل اليه تروتبسكوى [٥٣] ـ على أنها أصغر وحدة للصوت تتخذ للتمييز بين المعاني ، ومن الواضح بعد هذا أن نجد الكلمات يختلف بعضها عن بعض في المعنى تبعا لاختلاف حروفها وأصواتها ، وكل تبدّل صوتي فيها يتبعه تبدّل في المعنى ، وهذا يدل على ان للحرف او (الصوت) أثرا في تكوين المعنى وتحديده ، وأن له بعبارة أخرى وظيفة دلالية ، ومن الطبيعي أن يكون لكل لغة طريقتها في تركيب ألفاظها الصوتي ، وقوانين يخضع لها هذا التركيب . وبالرغم من اختلاف اللغات في هذا المجال ، الا أن العلاقة الطبيعيّة التي توجد بين أصوات الكلمة العربية ومدلولها يوجد مثلها في جميع اللغات . ويرجع السبب في هذه العلاقة الى المنشأ الأول للغة عند الانسان ، الذى رجّحه الرأى القائل بمحاكاة الانسان لاصوات الحيوانات والاشياء وأصوات الافعال عند وقوعها ، فلا غرابة اذن أن يبقى في كل لغة مايمثل الأصل الأول الذى صدرت عنه لغة الانسان [٥٤] .

وقد أنكر بعض الدارسين هذا المبدأ أعني مبدأ الربط بين الأصوات والمدلولات مستدلين على ذلك بالمشترك اللفظي وهو انصراف اللفظ الى عدة معان وبالترادف وهو انصراف عدة الفاظ الى معنى واحد ، وبالتطوّر المستمر للالفاظ والمعاني فقد تتطور اصوات اللفظ ويبقى المعنى وبالعكس [٥٥] ، وهو أمر لايؤيّد وجود مثل هذه الصلة بين الأصوات وبين مدلولاتها ، وقد أجاب القائلون بوجود هذه الصلة بأمور منها : وجود هذه الجمهرة من الألفاظ التي لا ينكر أنها محاكاة مباشرة للأصوات الطبيعية ـ كما أشرنا الى ذلك قبل قليل ـ وهي كثيرة ، ومنها ايضا : الاصوات الناشئة عن حركات الانسان ونشأة كلمات توحي بهذه الصلة

---

(٥٣) دلالة الالفاظ العربية وتطورها ص ٩ .

(٥٤) فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٧٥ وفقه اللغة (وافي) ص ١٦٩ .

(٥٥) من اسرار اللغة ص ١٢٩ .

بين اللفظ ومدلوله مثل : طرق الباب ، ربت على كتفه ، وكالقطع والقطف والقطم والقضم والخضم ، ومثلها الكلمات التي تعبّر عن الضرب والمشي واللعب •

ومن أدلتهم كذلك : الكلمات التي تعبر عن الحالة النفسية كالكره والنفور والسخرية مثل : البغض والغضب والنفور والفتور ، الشنآن والشنف وغيرها • ومن الأدلة أيضا : طول الكلمة أو قصرها في الأصوات مثل تضعيف عين الفعل الذى يعبر عن المبالغة في الحدث (كسَر وكسَّر) والتكرار يزيد المعنى ويشدده (جَرّ وجَرجَر) و (ثَرّ وثَرثَر) وغيرها • ومن الأدلة كذلك : الحركات وما ترمز اليه من معان خاصة ، فالكسرة في اللغة الحاميّة للقريب والضمّة للبعيد • والكسرة في اللّغات الهندية الاوربية تعبر عن صغر الحجم والرقة وقصر الوقت والكسرة في العربية رمز المؤنث ، والتصغير بالياء التي هي أخت الكسرة [٥٦] • فلهذه الامور جميعا نادى اصحاب هذا الرأى بوثاقة الصّلة بين الصوت والمدلول ، وحيوية العلاقة بينهما •

ونحن حين نميل الى هؤلاء القائلين بوجود الصلة بين الاصوات ومدلولاتها ولو بتحفظ ودون مبالغة ، ننكر أشد الانكار ما ذهب اليه أحد الباحثين من أن «خيال الادباء ولا سيّما الشعراء منهم هو المسؤول الأول عمّا يسمى بوحي الأصوات ، فهم قوم شديدو الاعتزاز بألفاظ اللغة ، وما يستشف في ثناياها من معان ، ويتخذون من أصواتها دلائل وعلامات لا وجود لها الا في مخيّلاتهم» [٥٧] ، وأيّد هذا الباحث موقفه بقوله : « ولاشك أن الذين ينكرون الصلة بين الاصوات والمدلولات هم أقرب الفريقين الى فهم الطبيعة اللّغوية ، فهم الذين يجرّدون الظواهر اللغوية

---

(٥٦) هذا الموضوع بالتفصيل في : من اسرار اللغة ص ١٢٩ـ١٣٤ •
(٥٧) من أسرار اللغة (ابراهيم أنيس) ص ١٣٤ •

من كل غموض ، ولا يرون فيها أمورا سحرّية فوق المدارك والأذهان »[٥٨] ، وانما ننكر عليه هذا فلأن البحث العلمي أثبت صحة النظرية القائلة بوجود الصلة بين الاصوات ومدلولاتها متمثلة بالأدلة التي عرضها أصحاب هذه النظرية ، وهي أدلة لا تقبل الشك ، اذ هي من واقع اللغة نفسها ، أما الأدلّة التي ساقها المنكرون فهي قابلة للرّد والتفنيد ، ذلك أن احتجاجهم بالمشترك والمترادف ينبيء عن اطراحهم لكل الدراسات العلمية التي قامت لتفسير ورودهما في اللغة ، والتي خرجت بنتائج لايمكن اهمالها والتغاضي عنها ــ كما عرضنا لها في التمهيد • وأحسن ما يقال في هذه النتائج أنها لم تقرّ وجود الاّ القليل النادر من المشترك والترادف في اللغة بحيث لايصح الاعتماد على هذا القليل في انكار ظاهرة أو تأييد أخرى • أما دليلهم أن الاصوات والمعاني تخضع للتطّور المستمر على توالي الأيام ، فقد تتطّور الاصوات وتبقى المعاني سائدة ، كما قد تتغيّر المعاني وتظلّ الأصوات على حالها ، فهو الآخر دليل ضعيف ، فان تتطور الاصوات وتبقى المعاني سائدة فلا أظن ــ حسب معلوماتي ــ ان في اللغة دليلا يؤيد هذا ، بل العكس هو الحاصل بكثرة ، فاذا تطّور صوت العين في (قطع) الى الميم مثلا فالمعنى ليس هو وانما في (قطم) شيء ليس في قطع ومثل ذلك (قطف) و (قطل) و (قطب) وهكذا ، فاذا اعتقدوا أن معاني هذه جميعا هي واحدة فقد وهموا وبعدوا ، لأن الصوت المتطور هذا قد نوّع القطع وصنّفه حسبما يوحيه الحرف أو الصوت الجديد من تنويع وتصنيف • وكذلك الحال بالنسبة لتطور المعاني وجمود الأصوات ، ذلك أن تطور المعاني يخضع لقوانين مطردة في كل عصر ومكان ، وانما الذى نعنيه من صلة الصوت بالمعنى هو المعنى الأول الأصيل الذى اوحته الأصوات وانصرفت اليه قبل أن يتطوّر الى

---

(٥٨) من أسرار اللغة ص ١٢٩ •

معنى آخر يشابهه أو قريب منه أو أخصّ من الأول أو أعمّ منه بطريقة من الطرائق التي مرّت الاشارة اليها سابقا ، بالرغم من صلة المعنى الجديد بالصوت صلة أضعف من الأولى وأبعد نوعا ما . والظاهر أن هذا الخلاف حول وجود مثل هذه الصلة قديم فقد « ظلّ فلاسفة اليونان والرومان يحاولون علاج هذه المشكلة بالجدل والنقاش قرونا عدّة ، وانقسموا في هذا الى فريقين : اولئك الذين نادوا بوجود رابطة طبيعية تدركها العقول، وتتقبلها الأفهام بين الأصوات والمدلولات ، وآخرون يرون أن الأمر لايعدو أن يكون اصطلاحا عرفيا جرى عليه الناس في كلامهم وأن لاعلاقة بين الاصوات والمدلولات الاّ بقدر ماسمح به العرف والاصطلاح »(٥٩) وممن كان يميل الى هذا الرأي الأخير سقراط وتلميذه أفلاطون فقد رأيا أن الصلة بين أصوات اللفظ ومدلوله غامضة لا تكاد تتضح في اللغة كما عرفت في عهدهما وكما شاعت على الألسنة في أيامهما (٦٠) . في حين أن علماء اللغة الهنود نادوا بالنظرية القائلة بوحدة المعنى بين الكلمتين أو الكلمات المتفقة في حرفين اثنين فقط أو في حرف واحد (٦١) .

والأهم في هذا الموضوع أن علماءنا العرب درسوا هذا الباب وبحثوا فيه وتوسعوا حتى كان جماعة منهم ينادون بنظرية صلة الأصوات بالدلالة وبايحائها بالمعاني ، وعلى رأس هؤلاء الدارسين القدماء ابن جنّي فقد عقد لهذا الموضوع فصلا مستقلا في (الخصائص) سمّاه : باب في قوة اللفظ لقوّة المعنى ، قال : « هذا فصل من العربية حسن ، منه قولهم : خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو ، وكذا قولهم : أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا :

---

(٥٩) من أسرار اللغة ص ١٢٦ .
(٦٠) المرجع السابق والصفحة .
(٦١) البحث اللغوى عند الهنود ص ١٤٣ .

اعشوشب ، ومثله حلا واحلولى ، وخلق واخلولق وغدن واغدودن ، ومنه باب فعل وافتعل نحو قدر واقتدر ، فاقتدر أقوى معنى من قدر • كـــذا قال أبو العباس وهو محض القياس »(٦٢) ، فابن جني يرى هنا أن زيادة أي صوت في اللفظ لابد أن يستتبعه زيادة في المعنى ، وأن هذا الصـــوت يقابل جزءا من المعنى العام للّفظ • وقد تحدث في فصل سماه (تصاقـب الالفاظ لتصاقب المعاني) وفصل آخر بعنوان (امساس الألفاظ أشباه المعاني) تحدث في هذين الفصلين عن التقابل بين المعاني والاصوات في الكلمات ، ونبّه الى المواطن الكثيرة التي يقع فيها مثل هذا التقابل ، وتكلم في هـــذا الموضوع كلاما يفهم منه تعميم هذه النظرة في اللغة واطراد القول في التقابل بين كل صوت في الكلمة وجزء من اجزاء معناها ، بحيث أن المعنى الـعام للكلمة ناشيء عن اجتمـاع معاني الحروف المركبة لها ، ويأتي ابن جني بأمثلة يدلّ بها على صحة نظرته مثل (بحث وشدّ وجرّ) (٦٣) •

وأشار كذلك الى التقابل بين صفة الصوت وصفة الحدث ، فالصوت الشديد للحدث الشديد كالقاف ، والصوت الليّن الناعم للأشياء والأحداث الرقيقة الناعمة كالسّين والخاء كأصوات خلس وسكن ، وأراد المقابلة بين ترتيب أجزاء الحدث وترتيب مخارج الحروف في الكلمة ، فكلمة (خرج) تبدأ من الحلق صاعدة نحو الفم دلالة على الخروج ، وكلمة (دخل) على عكسها ، تبدأ الدّال ومخرجها في أول الفم ثم تأتي الخاء ومخرجها الحلق فالفعل يتّجه من الخارج الى الداخل • وهكذا نجد أن للحرف أو الصوت عنده ايحاءا خاصا ، فهو ان لم يكن يدلّ دلالة قاطعة على المعنى ، فهو يدل دلالة اتجاه وايحاء ، ويثير في النفس جوّاً يهيء لقبول المعنى ويوجه اليـه ويوحي به• فلم يشغل ابن جني وغيره من العلماء من كل حرف أنه صوت

(٦٢) الاشباه والنظائر ١/١٤٤ •

(٦٣) الخصائص ١/٥٥٥ ، ٢/١٥٧ ، ٢/١٦٣ •

بقدر ماشغلهم من صوت هذا الحرف أنه معبّر عن غرض وان الكلمة العربية مركبة من هذه المادّة الصوتية التي يمكن حلّ اجزائها الى مجموعة من الاحرف الدوال المعبّرة (٦٤) .

فقد مال ابن جني وغيره الى الاقتناع بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله في حالتي البساطة والتركيب ؛ ففي حال البساطة رأوا الحرف الواحد - وهو جزء من كلمة - يقع على صوت معيّن ثم يوحي بالمعنى المناسب سواء أكان في أول اللفظ أم وسطه أم آخره . فما وقع في أول الكلمة (صعد) و (سعد) فجعلوا الصاد لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يرى ، وهو الصعود في الجبل والحائط ونحو ذلك؛ وجعلوا السين لضعفها لما لايظهر ولايشاهد حسا الاّ أنه مع ذلك فيه صعود الجدّ لاصعود الجسم ، فجعلوا الصّاد لقوتها فيما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة ، وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وان لم تره العين (٦٥) .

ومما وقع في وسط الكلمة : التاء والطاء والدّال في تركيب (ق ت ر) و(ق ط ر) و (ق د ر) فالتاء خافية مستفلة والطّاء سامية متصعّدة ، فاستعملتا لتعاديهما في الطرفين كقولهم : قتر الشيء وقطره والدّال بينهما ليس لها صعود الطاء ولا نزول التاء ، فكانت لذلك واسطة بينهما ، فقيل قدر الشيء لجماعه ومُحْرَنْجِمِه (٦٦) .

ومما وقع في آخر الكلمة : النضح والنضخ ، فالنضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح ، قال الله سبحانه (فيهما عينان نضّاختان) فجعلوا الحاء لرقّتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه ، « ولا يقال من

---

(٦٤) فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٦٠ ودراسات في فقه اللغة ص ١٤٢ .

(٦٥) الخصائص ١/٥٥٣ .

(٦٦) الخصائص ١/٥٥٤ .

النضّخ فَعَلت ، والحزم من الارض أرفع من الحزن ، والقبض بجميع الكّف ، والقبص بأطراف الاصابع » [٦٧] .

وهكذا الحال في ما يسمى بالتّركيب ، فقد لاحظ العلماء القيمة التعبيرية للصوت مع أخيه في لفظ ثنائي على القول بثنائية اللفظ العربي ، ولاسيّما في نشأته الأولى . ووجدوا في كثير من المواد الثلاثية والرباعية أصولا ثنائية زيد عليها صوت أو أكثر ، وتلمسوا بين صورتها الأصليّة المجرّدة وصورتها المتطوّرة المزيدة جامعا معنويا مشتركا ، حتى اذا وجدوه اقتنعوا بأن زيادة المادة الصوتية ربما أوحت بفرق معنوى جديد ، ولكنّها غالبا تحتفظ بجوهر المعنى الأصلي القديم ، وذلك مثل : جمع وجمل وجمد وجمر ففيها كلّها معنى الجمع ، وقد أشار الكرملي الى معرفة اللغويين القدماء لهذه الثنائية فقال : « فمن قال بها ولم يحد عنها قيد شعرة الاصبهاني صاحب كتاب غريب القرآن ، فانه بنى معجمه على اعتبار المضاعف هجاءاً واحدا . ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم والتحقيق » [٦٨] ، وهذا الصوت الثالث أو المزيد في الاصلين الثنائين اما أن يكون في وسط الكلمة ومن أمثلته : شلق من شقّ . فرق من فقّ . قرط من قطّ . واماّ أن يكون صدرا متوجا للكلمة ومن أمثلته : رفت من فت . لهب من هبّ . رفض من فضّ [٦٩] .

والاستشهاد بهذه الامثلة من اللغة فيه شيء من وهم ، ذلك أنه قائم على اعتبار المضعّف الثلاثي ثنائيا ، « فاذا رددنا مثلا فرق الى فق فهو في الحقيقة (فقّ) بالتضعيف ، اذ لم نقع في معجماتنا على مادّة فق مقطعا صوتيا مؤلفا من متحرك فساكن . وقس على ذلك لهب مثلا حين نأخذها من هب ، فانها في

(٦٧) ادب الكاتب ص ١٥٦ـ١٥٧ .
(٦٨) نشوء العربية ونموها واكتهالها ص ٢ .
(٦٩) الفلسفة اللغوية ص ٥٧ ، ٩٩ .

المعجم (هبّ) بتضعيف الباء »[٧٠] .

وأكثر من هذا فقد أمعن العلماء النظر في تتبع الحرف الواحد من الألفاظ ، فوقعوا على عدد من الأمثلة يبدو فيها معنى عام مشترك في الألفاظ التي تشترك بينها في حرف واحد ، وهذه الفكرة التي تجلّت عند ابن جني هي التي أوحت الى بعض الباحثين بنظرية (القيمة التعبيرية او البيانية للحرف في الألفاظ العربية)[٧١] اذ أحصوا من ذلك الشيء الكثير ، فحرف الغين يدل على الاستتار والغيبة والخفاء مثل : غاب ، غار ، غاض ، غال ، غام ، غمد ، غمر ، وحرف الرّاء يفيد معنى الاستمرار والتكرار في مثل : مرّ ، جرّ ، درّ ، رعي ، رقي ، غرف ، وحرف القاف لمعاني الاصطدام أوالانفصال مثل: قدّ، قطع ، قرع ، قرف ، دق، طق ، شقّ، وحرف النون يعطي معاني الظهور والبروز مثل : نما ، نطق ، نهض ، نشأ ، نجم ، نزع ، نزف. وحرف السّين يفيد معنى اللّيونة والحركة ومن أمثلة هذا : سهل، سلم ، سلّ ، سلس ، سال ، سار ، ساب [٧٢] .

وكان لمباحث (الاشتقاق الكبير) او مايسمى بالابدال ارتباط وثيق بمذهب القائلين بدلالة الصوت وقيمته التعبيريّة ، فعندما رأوا اثبات القيمة الدلالية للصوت البسيط ، وهو حرف واحد في كلمة ، رأوا كذلك اثبات هذه القيمة للصوت المركب كيفما كانت صورة تركيبه وهو مذهب الخليل وقد كان ابن جني ـ كما رأينا ـ على رأس المتوسعين بهذه القيمة التعبيريّة للصوت . وكان يخلط أحرف مادّة مّا ويمزج بعضها ببعض ، ويقلبها في تركيب ثلاثي على جهاتها السّت المحتملة ، ثم ينظر الى الحرف الواحد من أحرفها حيثما كان موضعه منها على أنّه صوت مايزال بسيطاً له دلالته

(٧٠) دراسات في فقه اللغة ص ١٥٩ .
(٧١) فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٠٣ .
(٧٢) فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٠٣، ٢٦٠ .

التعبيريّة الخاصّة ، وهذا المعنى العام الذى ينتظم مفردات كل مادة ، كان ابن فارس يسمّيه في مقاييس اللغة (الأصل) ويصدّر به الكلام في كل مادّة ، وقد يرجع المادّة الى أصلين أو أكثر ، الاّ انه يستطيع إعادة هذين الأصلين أوالثلاثة الى أصل واحد بعد امعان النظر ، ومن الأمثلة التي رجع ابن فارس فيها المادة الى اصول ثلاثة مادة (خلف) أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه والثاني خلاف قدّام ، والثالث التغيّر ، ولعل ثلاثتها تنحصر في أصل واحد هو (التتابع) ، وبقية المعجمات لاتلاحظ ذلك الاّ عرضا في شرح المادة ، وقد تشير الى مابين ألفاظ المادّة من صلة معنويّة • يقول ابن فارس مستوحيا من الجيم والنون دلالتهما : « وان اسم الجنّ مشتق من الاجتنان • وان الجيم والنون تدلاّن أبدا على الستر تقول العرب للدرع : جنّة ، وأجنّه الليل ، وهذا جنين أى هو في بطن أمّه أو مقبور » (٧٣) وعنده أن المسألة كلها توقيف لايصحّ فيها الاختراع أو القياس « فان الذي وقّفنا على أن الاجتنان التستّر ، هو الذي وقّفنا على أنّ الجن مشتق منه ، وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ماقالوه » (٧٤) وقد أورد ابن جني في باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) كثيرا من الأمثلة المتعلقة بهذا الضرب من الاشتقاق المعتمد على وحدة المعنى الأصيل الذى تحتفظ به الأصوات سواء في المادة الثلاثية التي تتقلب الى مجموعات صوتية ، أو في الاصل الثنائي المشترك في المجموعة التي أبدل الصوت الثالث من كل منها • والصوت الثالث هذا أو مايسمى بالزيادة ، ربما نوّع المعنى الأصيل العام تنويعاً طفيفاً ، فقط وقطب وقطف وقطع وقطم وقطل جميعها تتضمّن معنى القطع ، الاّ أن كل واحدة منها استعملت لحالة من حالات الفعل (٧٥) •

---

(٧٣) الصاحبي ٣٣ •
(٧٤) الصاحبي ٣٣ •
(٧٥) الفلسفة اللغوية ص ٩٩ •

واذا كان غريبا انكار أحد الباحثين على ابن جني وغيره من العلماء هذا المذهب واعتباره ايمانا عقليا منطقيا ومغالاة في هذا السبيل(٧٦) فان اتهام هؤلاء العلماء بسرقة هذه النظرية من الهنود وتطبيقها في العربية بتكلف وتعسّف فهو أكثر غرابة وأدعى للاشفاق ، يقول احدهم في ذلك : « واذا كان ياسكا أو غيره من لغويي الهنود قد نجحوا في اشتقاقاتهم هذه ، فمرجع ذلك أن الجذور السنسكريتية ترجع في معظمها الى أصل ثنائي . ولكن نقل النظرية الى اللغة العربيّة كان أمرا غريبا ، كما أن تطبيقها أظهر تكلفا وتعسفا ، نظرا لثلاثية الأصول العربية »(٧٧). ولا نريد أن نقول أكثر من أنه لم ينصف في ادعائه هذا ، والاّ فهل فاته أن العلماء العرب القائلين بهذه النظرية كانوا قد اتخذوا مادّتهم في دراساتهم من العربيّة نفسها ، التي وجدوا فيها بعد استقرائهم لها أنها كانت في طور من اطوار تاريخها اللّغوى ثنائية الاصل ، وكل الشواهد التي اثبتوها لنا هي مما يؤيد أن المسألة لاتعدو العربية القديمة التي تكلّم بها العرب . وكون الأصل الثنائي هو مما تشترك فيه السنسكريتية فهذا لايعني أنها نقلت للعربيّة على سبيل التقليد والمحاكاة ، ولا أدرى أى تطبيقاتها العربية كان متكلفا متعسفا وحبذا لو كان الباحث الفاضل قد ضرب لنا أمثلة من هذا التكلف والتعسّف . وعدا هذا فانه وهم في اعتقاده أن هذه النظرية قد نودى بها لأول مرة في القرن الرابع اذ الحقيقة ان جذور هذه النظرية تمتد الى اواسط القرن الثاني أى الى حياة الخليل ابن أحمد عندما وضع (العين) على طريقة ما سمّي بعده بالاشتقاق الاكبر المعتمد على التقليبات الست للمادة الثلاثية مستوحيا في ذلك الأصوات وما ترتبط به من دلالات وعلى هذا المنهج سار معجمه الكبير ، كما ان الاشارات الى الابدال في الصوت الثالث واعتبار الالفاظ مشتركة المعنى في الصوتين

---

(٧٦) ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ٤٧ .

(٧٧) البحث اللغوى عند الهنود ص ١٤٣ .

الاصليين اشارات قديمة اذا قورنت بالقرن الرابع . واذا كنّا نحسن الظّن بعلم هذا الباحث ومعرفته بهذه الأمور ، فنقول ان ارجاع النظرية الى القرن الرابع انما كان ليتسنى له القول بأنه قرن ترجمة ونقل واطلاع على علوم الشعوب الاخرى ، فتسنى لعلماءنا العرب الاطلاع على نظرية الهنود هذه ونقلها الى العربية بتكلّف وتعسّف ظاهرين !!

والدراسات العلمية الحديثة استطاعت أن تكشف أمورا عجيبة في موضوع الصوت فقد قررت « بأن ليست كافة الفروق الصوتية ذات أهمية ، فالمهم هو الفروق التي تتبلور في الوحدات الصوتية ، يصح هذا اذا اعتبرنا أن الوحدات الصوتية وحدها هي المهمّة فيما يتعلق بمعاني الكلمات ، ولكنّنا نستطيع ان نستشف المعلومات من الشخص المتكلّم ليس فقط من معاني كلماته . ان طريقة القاء الشخص تجعلنا على علم بمزاجه ، وهذا شيء لاتوضّحه الكلمات المستعملة ، والعبارة نفسها يمكن ان تؤدى بطرق متعدّدة تبعا لمزاج المتكلم »(٧٨) فتغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات ، فقد تفيد عبارة من العبارات الاستفهام مرة والتهكم والسخرية مرة أخرى ، والدهشة والاستغراب مرة ثالثة وهكذا ، كما في العبارة العامية المصرية (لا ياشيخ) (٧٩) ، وسيمر علينا في التفسير النفسي الاجتماعي للأضداد شيء من ذلك . ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية ، فالعناصر الصوتية تستطيع التعبير عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المرء ومستواه التعليمي وجذوره الاجتماعية وعمره وجنسه اضافة الى أشياء أخرى ، ذلك أن العناصر الصوتية تعتبر اشارات مألوفة تقليدية على حدّ تعبير بعض الباحثين(٨٠) .

نخلص من ذلك كلّه الى أن موضوع دلالة الصوت هو من المواضيع

---

(٧٨) اصوات واشارات ص ١٩٤ .
(٧٩) دلالة الالفاظ (انيس) ٤٧ .
(٨٠) كوندراتوف : اصوات واشارات ٢٠٠ .

التي شغلت الدارسين قديما وحديثا ، وكان لهم فيه آراء كثيرة ووجهات نظر مختلفة عرضنا لها في هذا الفصل بشيء من البسط والتفصيل لنستطيع الوقوف على حقيقة المسألة عند هؤلاء ، فبين انكار المنكرين للصلة الموجودة بين الصوت والدلالة ، وبين القائلين بوجود هذه الصلة تنكشف الحقائق ويتوضح السبيل ، ونحن سوف نفيد من هذا كثيرا عند دراستنا لتفسير التضاد في ألفاظ الاضداد ، اذ ان هذا سوف يهدينا لاستشفاف دلالة اصوات اللفظة المتضادة المعنى وسنستطيع من خلال معرفة دلالة اصواتها تبيّن الدلالة الاصيلة من بين الدلالتين المتضادتين .

ثلاثة نماذج قديمة من التأليف في الدلالة

الفّ المسلمون منذ عصر مبكر في اللغة ، وكانت مؤلفاتهم تتعرض من قريب او بعيد للبحث في اللفظ وصلته بالمعنى ، وكانت ترد في بعض الكتب دراسات قصيرة في الاشتقاق والبناء والأضداد والاختلاف في اللفظ والمعنى ، وكان لكتب غريب القرآن ومشكل القرآن اكبر الأثر في توجيه البحوث اللغوية في مدلول اللفظ . وكان الحرص على لغة القرآن ودفع الطعن عنها وراء كل بحث من تلك البحوث . وقد يقع لفظ شارد في معنى ما ّ لاحد العلماء ، ويقع مثله في المعنى نفسه لعالم آخر . ولايبعد أن يسمع لغوىّ لفظ من أعرابي في معنى ، ويسمعه آخر في معنى مختلف ، وقد يقع التحريف عن طريق اغلاط اللسان ، او تغاير لهجات القبائل ، وقد يجيء الاختلاف في المدلول عن طريق العلماء أنفسهم ، ولهذا مظاهره المختلفة . إذ نهج اللغويون في بحوث المدلول مناهج مختلفة ، ظهرت فيها محاولاتهم تتضمن كتبا بأسماء عدةّ ، ولكنها وان اختلفت في التسمية فغير مختلفة في الهدف العام وهو المدلول . ونحاول الآن ان نتبين ثلاثة مناهج من هذه الدراسات ، لتكون امثلة واضحة تعكس الوانا من الدراسات الدلالية الكثيرة المتشعبّة .

١ ـ مثلثات قطرب (ت ٢٠٦هـ)[٨١]

وهو نمط فريد من التأليف في الدلالة ، ذلك ان الدراسات اللغويـة لم يكن لها قبل بهذا النوع من التصنيف ، لأن قطـــربا أول من ألفّ في المثلثات ، كما يشير الى ذلك ابن خلكان في ترجمته ، وشاع التأليف فيهـا بعده على أيدى العلماء ، مثل ابن السيد البطليوسي والخطيب التبريزى وأبي عبدالله القزاز وغيرهم • هذا من جهة • ومن جهة اخرى ان قطربا ألّفهـا شعرا (على مجزوء الرّجز) ، وفي هذا من الجهد ما فيه لأن الشعر مقيّد بقيود التفعيلة والقافية فكأنه اراد ان تكون قصيدة تعليميّة يحفظها طـــلاّب اللغة ويسهل عليهم روايتها واشاعتها ، والمقصود بالمثلثات هو الالفاظ التي وردت على ثلاث حركات بمعانٍ مختلفة من مثل قوله :

ان دموعـي غَمْـــرُ ... وليـس عنـدى غِمْرُ
يـا أيهـــا ذا الغُمْـــرُ ... أقصِـــر عـن التَعتّبِ[٨٢]

وعلى مثل هذا المنهج تسير الارجوزة اذا صحت التسمية ، بأن تكون اللفظة المثلثة قافية ثلاثة اشطر ويكون الرابع منتهيا على روى مشترك في كل الارجوزة وهو الباء • وغمر بالفتح ـ في المثال السابق ـ هو الماء الكثـير وبالكسر الحقد وبالضمّ الرّجل الجاهل ، ومن الطريف أن يكون الشارح عبدالرحمن السنهورى الشافعي قد نظم شرحه شعرا ايضا وذلك بـــأن يلحق كل مادّة شرحها (رجزا) وبنفس الطريقة في النظم ، يقـــول في شرح (غمر) :

يقال للمـاء الكثـير غَمْــرُ ... والحقد في الصدر فذاك غِمْرُ
والرّجـل الجاهل فهو غُمْرُ ... ان لم يكن حَبرا من الأحبارِ

---

(٨١) نشره الدكتور اوغست هفنر ضمن (البلغة في شذور اللغة) بيروت ١٩١٤ م •

(٨٢) شرح مثلثات قطرب ، ص ١٦٩ •

والمثلثات نوع من المشترك اللفظي الذى مرّ أنه انصراف اللفظ الى عدّة معان قد لايربط بين دلالاتها رابط بيّن • اقول نوع من المشترك لأننا نفترض في المشترك ألاّ يتغير اللفظ صوتا وحركة في انصرافه الى معانيه كلّها ؛ وعدا هذا فهناك فرق بين المثلثات والمشترك هو ان المثلثات محصورة في ثلاثة معان هي من حركات الحرف الأول من اللفظ ، في حين قد تنصرف اللفظة الواحدة من المشترك الى معان كثيرة تصل احيانا الى عشرات ؛ وربما كان كثير من الفاظ المشترك التي تنصرف الواحدة منها الى معنيين أو ثلاثة هي من المثلثات في الأصل لم يلتفت الى حركة الصوت الاول أو أنه التفت اليها ثم تجوهلت بدافع المكاثرة وزيادة المادة المروية وهو احتمال يقرب من الرجحان اذا عرفنا ان عددا لايستهان به من الالفاظ قد رويت على أنها من المشترك وهي من المثلثات ، وكذلك الحال بالنسبة للأضداد فربما كان انصراف اللّفظة المثلثة الى معان تشبه المتضادّة أو متضادة فعلا ، فتروى هذه اللفظة علىأنها من الاضداد بعد ان تهمل الحركة عمداً أو جهلاً ،كما حدث بالنسبة لمادة (قسط)،فقد روى الاضداديون أنهامن الاضداد استنادا الى ورود مشتقاتها في القرآن ممدوحة مرّة ومذمومة أخرى ، فهي اذن من الاضداد ، في حين يقول قطرب :

طارحني بالقَسْطِ ولم يزن بالقِسْطِ
ففيه عرف القُسْطِ والعنبر المطيّبِ (٨٣)

ويقول الشارح في توضيح كل معنى :

الجور في الاحكام فهو القَسط والعدل والاحسان فهو القِسط
ثم الذى يباع فهو القُسط يفوح طيب نشره في النّارِ

ومن هنا نعرف ان القرآن ذم القاسطين من (القَسط) بالفتح ، ومدح المقسطين من (القِسط) بالكسر وليس في اللفظة تضاد اصيل في الوضع •

---

(٨٣) شرح مثلثات قطرب ، ص ١٧٢ •

وهكذا يحل موضوع المثلثات بعض المشكلات اللغويّة بهذه الدقة التي تدعو للاعجاب بالواضع الاول للمثلثات ، وتسميته اياها بهذا الاسم دون اى اسم آخر لاتندرج تحته هذه الالفاظ الا قسرا أو جهلا كما فعل هو قبل غيره حين عدّ في كتابه الاضداد الفاظا ذكرها هنا من المثلثات وقلده في ذلك الاضداديون بعده ، كمادة (قَسَطَ) مثلا التي مرت قبل قليل .

نعود فنقول انه ربّ من يشكل علينا بوجود لفظة تنصرف انصراف المثلث وهي كذلك تنصرف الى معنى رابع وقل خامس ، اليست هي من المشترك في هذه الحالة ، ولا يكون للتثليث قيمة الحركات ؟ أقول ان هذا المعنى الرابع هو تطور دلالي يحصل لاحدى المعاني الثلاثة الاولى ، وقد يتطور معنى آخر فيكون للّفظ حينئذ خمسة معان او ستة وهكذا ، فاللفظة اذن ليست من المشترك بالرغم من انصرافها الى اكثر من ثلاثة معان تحددها الحركات وانما هي — بعد التثبّت — من المثلثات التي تطورت معانيها باحدى صور التطور الكثيرة التي مرت في موضوع التطور الدلالي قبلا ، شريطة التأكد من ذلك .

من هذا يظهر لنا ان موضوع المثلثات من المواضيع التي تصور نمطا خاصا من انماط البحث في دلالة اللفظ له قيمته الكبرى في تحديد كثير من المعاني الخاصّة باللفظ الواحد التي اختلط الامر فيها على الدارسين في ظواهر اللغة حين عدّوا من هذه الظواهر ماليس منها ومالا يندرج تحتها بحال .

٢ — المأثور عن أبي العميثل (ت ٢٤٠هـ)(٨٤)

وهو كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه ، الا أن شهرته بالمأثور . وهو كما ينبيء عنوانه معجم

---

(٨٤) نشره فريتز كرنكو (لندن) ١٩٢٥م .

للألفاظ المشتركة . ينص المؤلف بعد ذكر كل مادة على عدد أوجهها ويقصد بأوجهها معانيها فيقول مثلا : كذا على أربعة أوجه ، ثم يشرع في ذكر الاوجه الاربعة ، أو على ستة أوجه أو ثلاثة ، وهو في كل مرة يبين أوجه اللفظة الدلالية . الا أن الملاحظ على المؤلف اغفاله الروابط الدلالية الواضحة بين معاني الكلمة فقد يعتبر ماهو في الاصل معنى واحد عدة معان هي أوجه اللفظة . مثال ذلك قوله : « القَلْتُ على ستة أوجه : القلت الحفرة او النقرة تكون في الجبل يجتمع فيها ماء السماء . قال الأصمعي هو ماء يغرق فيه الفيل حكى ذلك أبو نصر . والقلت ما اطمأن من الخاصرة . والقلت مابين الترقوتين . والقلت عين الركبة . والقلت مابين الابهام والسبابة . والقلت النقرة في اصل عين الفرس والبعير مابين العينين والأذن ، ويقال له ايضا النغنغة والنغانغ ، وجمعها قلات ، قال الراجز في دلوه :

أي دلاة نهل دلاتي   كأنها قلت من القلات [٨٥]

وواضح من الاوجه التي ذكرها أنها تلتقي في المعنى الحسي الأول وهو النقرة أو الحفرة في الجبل . فمستقر الخاصرة نقرة ، ومابين الترقوتين نقرة ، وعين الركبة نقرة ، ومابين الابهام والسبابة نقرة ، والنقرة في اصل عين الفرس والبعير مابين العينين والأذن نقرة بنصه وهكذا . من هنا نطمئن على ان في الامر تطورا دلاليا دعته المشابهة مرة والتخصيص تارة ، حتى صارت اللفظة منصرفة الى هذه المعاني جميعا وهي في الاصل شيء واحد وهو النقرة أو الحفرة مهما كان حجمها وسعتها واينما كانت ، لا كما ادعى الاضداديون أنها للنقرة الصغيرة وللنقرة الكبيرة ، فهي اذن من الاضداد .

وكذا الامر بالنسبة لكثير من الالفاظ التي استطيع القول بأن من

---

(٨٥) المأثور ١٨ .

التعسف اعتبار الأوجه المذكورة لها هي أوجه أصيلة في انصرافها اليها ، وانما يكون في الغالب أحد هذه الأوجه هو المعنى الذي تستشعر منه انه الاصيل لأن فيه شمولية وعموماً ، وسائر المعاني متفرعة عنه ومتطورة منه . الا انه ليس من الضروري ان نجد هذا التقارب الموحي بالتطور في معاني اللفظة وأوجهها فقد يذكر للفظ مّا اوجها تبعد عن بعضها بعدا كبيرا كما عرضنا ذلك عند الحديث عن المشترك وأفضنا فيه ، ومن أمثلة هذا عند ابي العميثل قوله : « الرَّهْو على اربعة اوجه : الرّهو مشي في سكون ... والرّهو الفجوة بين مكانين . والرّهو النظر الساكن . والرّهو طائر ... »[86] واذا كان بين (مشي في سكون) و (النظر الساكن) شيء من صلة دلالية ، فأين هذه الصلة مع الفجوة والطائر ، وليس من اللائق في البحث اللغوى ان نتكلف القرابة ونتعسف الصلة ، واذا كنا من المؤمنين بالتطور الدلالي ايمانا عميقا فنكتفي في مثل هذه الحالة بالقول بأن تطور مثل هذه المعاني غامض ومضبب ولا يمكن القطع بشيء منه . الاّ ان الشيء الذي يمكن أن نفيد منه في مادة (الرهو) هو كشفها لحقيقة خافية . فقد عدّ الاضداديون الرّهو من الاضداد زاعمين انها تنصرف للارتفاع والانحدار على حد سواء ، الاّ أن أحد وجوهها في المأثور وضح المسألة وهو (الفجوة بين مكانين) أو كما وصف اعرابيّ رجلا مفلوجا بقوله : « سبحان الله رهو بين سنامين »[87] . فقعر الفجوة التي بين مكانين هو الانحدار وهي قعر السنامين ، حين ان المكانين نفسيهما بالنسبة للفجوة ارتفاع ، والسنامان ارتفاع بالنسبة لما بينهما من انحدار . ومثل هذا الوهم حدث في جملة مواد أخر : الزَّبر[88] ، الشَّعب[89] ، المُقوِي[90] ،

---

(٨٦) المأثور ٢٧ .

(٨٧) المأثور ٢٧ .

(٨٨) المأثور ٢٨ـ٢٩ .

(٨٩) المأثور ٥٨ .

(٩٠) المأثور ٤٣ .

وغيرها ، ومنشأ هذا الوهم كما وضحنا عدم الدقة في النظـر في دلالـة الالفـاظ •

وهكذا يكون (المأثور) صورة صادقة ومثلا واضحا للبحث القديم في مسألة الدلالة من ناحية انصراف اللفظ الى عدة معان ، أو ماسموه بـ (ما اتفقت الفاظه واختلفت معانيه) وقد وضعوا فيه كتبا كثيرة ربما كان اشهرها كتاب الاصمعي على اختصاره ، وقد سميت هذه الظاهرة بعدئـذ بالمشترك الا ان هذه التسمية اعني ما اتفق لفظه واختلف معناه أقدم من تلك ووردت لأول مرة عند سيبويه في (الكتاب) في باب : اللفظ للمعاني • وقيمة هذه البحوث بالنسبة لموضوع الرسالة وهو الأضداد تتأتى من اعتبار كثير من اللغويين الأضداد من المشترك اللفظي وكثيرا ما سيقت أمثلة الألفاظ المتضادة في الفصول المعقودة لما اتفق لفظه واختلف معنـاه على أنها منها •

٣ ـ الملاحن لابن دريد (ت ٣٢١هـ)(٩١)

وهو لون آخر من الوان البحث في الدلالة ، يقوم على مايمكن ان يرمز اليه اللفظ من معنى غير معناه الشائع المألوف ، على سبيل الكنايـة واللغز والمحاجاة ، التى كانت جميعا الدافع الذى دفع ابن دريد لوضـع مؤلفه الصغير ، ذلك ان الانسان قد يضطر احيانا الى الرمز والتعريض والتلميح اذا كان في التصريح خطر يحدق به ، ويستطيع الانسـان ان يقسم ويحلف دون ان يشعر بالذنب والحرج والتأنيب على أن مقصوده هو هذا المعنى الآخر لا المعنى المعروف على حدّ زعم المؤلف • وعنوان الكتاب يوحي بذلك فالملاحن هي الكنايات أو التوريات ـ كما مرّ في الحديث عن كلمة اللحن ـ أو هي في الاصل امالة الشيء عن جهته كما حدد المعنـى ابن فارس في مقاييسه •

(٩١) نشره ابراهيم اطفيش الجزائرى (القاهرة) ، ١٣٤٧ هـ •

وهذه الغاية في وضع مثل هذا الكتاب تستدعي ان يكـون المعنـى الكاذب اذا صح التعبير هو مما استعمل في اللفظ مرة ، او مما يمكن ان ينصرف اليه اللفظ من غير استعمال سبق مرة اخرى ، وهذه الصلة بـين اللفظ والمدلول ضرورية جدا لأن في المسألة قسماً ويميناً يلزمان المتكلـم بالصدق ، أو بعبارة اوضح نقول يجب ان يكون المعنى الكاذب مما يتصل اتصالا دلاليا بالمعنى الصادق ويرتبط فيه • وابن دريد بعد أن يبسـط الحديث عن معاني كلمة (اللحن) ويذكر شواهد كل معنى شعرا ونثـرا مناقشا ومؤيدا ومفندا [٩٢] • ينتقل الى صلب الموضوع فيذكـر الالفاظ ومايمكن ان يقسم عليه من معانيها ومبينا المعنى الاصيل والمستعار • من مثل قوله : « وتقول والله ما اخذت لفـلان رداء ، ولا املك رداء • فالـرداء السيف • قال الاعشى :

وَيومَ يَبيل النساءُ الدمـاء جعلتُ رداءَك فيه خِمارا

يبيل النساء : أي تسقط من هول ذلك اليوم حملها » [٩٣] • وعندى أن الشاهد لايدعم معنى السيف فقد يكون المراد من لفظ الرداء فيه هـو المعنى المعروف للرداء لا السيف • اذ يكون المقصود أنه يجعل من ردائـه الذى يلبسه قناعا وكفنا يلف اجساد اعدائه المقتولين • فيكون التعبير ابلـغ في تحمله لمعنى البطولة ومعنى الكرم ، أي انك بعد ان تقتلهم وتعلو عليهم تكرم عليهم بردائك الذى تلبسه كفنا وقناعا لجراحهم • أما انه يريد ان يتلمس معنى السيف في الرداء من حيث أن متقلده بحمائله مرتد به ، فهذا امر آخر ، وهو عندى اولى من تلمسه في هذا الشاهد •

وقال في مكان آخر : « وتقول والله ما أجلَلتُ فلانا ولا اكرمتـه • فأما أجللته من الجِلة أى لم أُعطِه الجِلة وهي البعرة وأنشد :

---

(٩٢) الملاحن ٦ ، وذيل الملاحن ٦٩ـ٧٤ •
(٩٣) الملاحن ١٣ •

عَزَبت قضاعةُ عنكم وتكرَّمت   عن أن تناسب جِلةً وقماما

كانوا الذرّى فسموا الى قللِ الندى   وتجنبوا أن يَنزلوا الاهضاما

وقوله اكرمته أى لم اعطه الكرم وهي قلادة »[٩٤] ، ولا ادرى لماذا لم يستعن ابن دريد بضدية اجللته في هذا الصدد ، فكان باستطاعته ان يقول والله ما اجللت فلانا أى ما احتقرته ، ربما لاّن ضديتها معروفة بشكل لا ينفع معه كناية أو تعريض •• أو لأن ابن دريد نفسه كان لا يؤمن بضديتها • أو لأنه اراد ان يخفي الطريقة التي كان يتوسلها اللغويون في خلق التضاد في الالفاظ • اذ ان المنهج يوحي بأن كثيرا من الفاظ الاضداد اكتسبت ضديتها عن هذا الطريق الذى يعتمد التمويه والتستر على الاسلوب الواضح الذى نستطيع بوساطته تفنيد التضاد في الالفاظ • بمعنى انه لو عكس الامر وقيل لنا مثلا أن أجللت من الاضداد تنصرف للاحترام وللاحتقار لقلنا ان معنى الاحترام من الاجلال ومعنى الاحتقار من الجلّة وهي البعرة •

وكذلك هي الحال بالنسبة لسائر الفاظ الملاحن : خلف ، قدام[٩٥]، راكع ، سَجَد ، مُصَلي [٩٦] ، وغير ذلك ، مما كان الدافع للبحث فيه اللهو والالغاز والمحاجاة والتعمية ، الاّ انه كان ذا قيمة ليست باليسيرة في ابحاث الدلالة • وهو نمط لم يسبق به ابن دريد على شكل كتيّب مستقل خاص ، وربما كانت مواده منتشرة منبثة في بطون الكتب والمصنفات •

وعلى كلٍ فهذه الكتب الثلاثة هي نماذج من عشرات بل مئات الكتب المدوّنة في دلالة الالفاظ اخترناها امثلة تعكس الوانا مختلفة من هذه الدراسات المتشعبة الكثيرة في هذا الميدان الواسع ، نقيس على منهجها مناهج

---

(٩٤) الملاحن ، ص ٤١ •
(٩٥) الملاحن ٦٢ •
(٩٦) الملاحن ٢٣ـ٢٤ •

المصنفات التي سارت على هديها وبحثت موضوعاتها وترسمّت خطاها حتى كان لها هذا الحشد الكبير من التأليف والتصنيف .

وكان من الضروري دراسة الدلالة دراسة موسعة تبسط فيها كل الآراء والنظريات المتعلقة بدلالة اللفظ ودلالة الصوت وعوامل التطور ، والتعرف على نماذج مما ألف القدماء في هذا الموضوع ، ليتسنى لنا فهم فكرة التضاد في الالفاظ وعوامل هذا الانصراف المتضاد وأساليبه ، ودراسة تفسير هذه الظاهرة اللغوية المهمة التى شغلت الدارسين قديما وحديثا ، وتكون دراستنا للاضداد امتدادا لدراسة الدلالة للصلة الوثيقة بين الموضوعين والبناء الذى ينبني احدهما به على الآخر . وذلك ان دراسة الاضداد دراسة دلالية قبل كل شيء ، فسنستطيع بعد هذا معرفة ما اذا كان هناك تطور حصل في دلالة الاضداد وسير هذا التطور وعوامله ، وسنستوحي دلالة الاصوات لتحديد المعنى الاصيل للفظ وما الى ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع .

الفصل الثاني

فكرة الأضداد وتفسيرها في اللغة

الأضداد مصطلح أطلقه اللغويون العرب على الألفاظ التي تنصرف الى معنيين متضادين • وهي ـ لغة ـ جمع ضد وهو النقيض والمقابل ، وعليه فليست الأضداد اللفظية التي تتقابل فيها المعاني دون أن يتّحد اللفظ كالليل والنهار والطول والقصر والنور والظلمة ، والتي عقدت لها بعض كتب الادب القديمة فصولا[1] ، من هذا النوع ، وغلط المستشرق ردسلوب (Redslob) على هذا الاساس في عد الجاحظ ممن ألّف في الاضداد توهما بأن كتابه (المحاسن والأضداد) من هذا الباب[2] •

وكان القدماء المعنيون بدراسة اللغة قد التفتوا مبكرا الى مايمكن اجراؤه من التقسيمات في الكلمة العربية ، وأوّل هذه التقسيمات تلك التي وضعها سيبويه في كتابه ـ وقد سبقت الاشارة اليها ـ حيث قال : « اعلم ان من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين •واختلاف اللفظين والمعنى واحد • واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين • • •فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو جلس وذهب • واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو ذهب وانطلق • واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت اذا أردت وجدان الضالة ، وأشباه هذا كثير »[3]• فالقسم الاول هو الاغلب الاعم من ألفاظ اللغة ، والقسم الثاني هو الخاص بمجموعة الالفاظ التي سميت بعدئذ بالمترادف ، والقسم الثالث هو المشير الى ما سمّي بالمشترك اللفظي • واذا لم يُشر سيبويه الى أن هذا التقسيم قد أخذه عن بعض شيوخه أو كان من وضعه هو ، فان العربية لا تنفرد باحتواء هذه الاقسام دون غيرها من اللغات ، بل توجد في أغلب اللغات الانسانية المتطورة •

---

(١) الألفاظ الكتابية ٢٩٦ـ٢٩٧ •

(٢) في كتابه : (Die arabischen worter mit) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩١ •

(٣) كتاب سيبويه ١/٧ ـ ٨ •

وكنا قد ذكرنا في مبحث (الدلالة) حين عرضنا لتقسيم سيبويه لألفاظ اللغة حسب دلالاتها ، ان الدارسين من بعده نقلوه في مصنفاتهم اللغوية بالحرف الواحد أو مع شيء من الزيادة والايضاح والاستشهاد كالمبرد وابن فارس والسيوطي [4] ، ونذكر هنا قطربا الذي بسط في مقدمة كتابه (الأضداد) تقسيم استاذه سيبويه شارحا له ومفرعا فيه ، والذي يهمنا من كلام قطرب مايتصل منه بالقسم الثالث الخاص بالمشترك من الألفاظ – على أن نعود لدراسة كتابه فيما بعد – اذ قال : « والوجه الثالث أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا ... ومن هذا اللفظ الواحد الذي يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا في الشيء وضده » [5] . فيكون المشترك على هذا الأساس درجتين أو نوعين : الأوّل هو الذي تختلف فيه معاني اللفظة الواحدة دون أن تتضاد ، والثاني هو الذي تتضاد فيه هذه المعاني حيث تشتد درجة الاختلاف حتى تصل الى التضاد . وبهذا أبان قطرب عن موضع الأضداد في تقسيم سيبويه ، ووصل منه الى نوع الألفاظ التي صنف لها الكتب ولو بشيء من الابهام والايجاز .

وبقي هذا الاعتبار – اعني اعتبار الأضداد من المشترك اللفظي – قائما لدى الدارسين ماداموا يتعرضون لبحث الأضداد ، فبعد أن قال به السيوطي نقل لنا عن أهل الاصول قولهم : « مفهوما اللفظ المشترك اما ان يتباينا بأن لايمكن اجتماعهما في الصدق على شيء واحد كالحيض والطهر ، فانهما مدلولا القرء ، ولايجوز اجتماعهما لواحد في زمن واحد . أو يتواصلا ، فاما أن يكون أحدهما جزءا من الآخر كالممكن العام للخاص ، أو صفة كالأسود لذي السواد فيمن سمّي به » [6] . ونقل عن صاحب

(٤) ما اتفق لفظه واختلف معناه ٢–٣، والصاحبي ٩٦، والمزهر ١/٣٨٨ .
(٥) قطرب ٢٤٤ .
(٦) المزهر ١/٣٨٧ .

والحاصل انه قال : « ان النقيضين لايوضع لهما لفظ واحد ، لان المشترك يجب فيه افادة التردد بين معنييه ، والتردّد في النقيضين حاصل بالذات لا من اللفظ »[٧]. وقال الكيا في تعليقه: «المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين ، فما يقع على الضّدين كالجون وجلل، وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين»[٨] . فبحث التضاد يدخل ضمن بحوث هؤلاء الاصوليين في المشترك اللفظي على انه جزء من ظاهرة عامة ينبغي الوقوف على حقيقة دلالتها في نصوصهم التشريعية . وأخذت بهذه الفكرة دراسات المحدثين [٩]، حتى إن بعضهم قسم الاشتراك قسمين سمى الأول (ملاحن) كعين وحَج ، والثاني (أضداد) كبعد ووراء وقال : (وليلاحظ هنا ان الملاحن اللغوية غير الملاحن الأدبية ، لأن الأولى مرتجعها الى تعدد الوضع فيها، والثانية مرتجعها الى لباقة الاستعمال وتصنع الكناية ولو في الموضوع وضعا واحدا ... وبالاجمال فالاشتراك الذي الضد نوع منه ، ظاهرة من ضعف اللغة »[١٠] . ودلّل آخر على أن الأضداد ضرب من المشترك حين وجد ان اكثرها يردّ اليه بسهولة ، وذلك بمتابعة معاني الكلمات [١١] . واكثر من هذا ما فعله ابن سيده من القدماء فهو يحاج منكر الأضداد بوجود المشترك ، لأن الاقرار بوجود هذا اقرار بوجود تلك [١٢] .

والحقيقة أن هؤلاء جميعا قد اسرفوا فيما ذهبوا اليه من الصاق الأضداد بالمشترك الصاقا يقوم على التمحل الذى اصطبغت به اقوال المحدثين،

---

(٧) المزهر ١/٣٨٧ .
(٨) نفسه ١/٣٨٧ .
(٩) انظر : تاريخ آداب العرب ١/١٩٧ ، وفقه اللغة لوافي ١٨٦ ومابعدها ودائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩١ ومجلة المجمع الملكي ٢/٢٣١ .
(١٠) العلايلي : مقدمة لدرس لغة العرب ٢٢٦ .
(١١) صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ٣٠٩ .
(١٢) المخصص ١٣/٢٥٩ .

والجدل المنطقي الذى حفلت به أقوال الأقدمين من أهل الأصول وغيرهم ، فاختلاق المحاورة الواردة في المخصص واضح تماما ، ولا نريد ان نبحث هنا انكار الأضداد وتأييدها لأن له موضعا آخر من هذه الرسالة ، ولكن نريد أن نلفت النظر الى انعدام الدقة في هذه المذاهب ، ذلك انه ليس بين المشترك والأضداد من التشابه سوى انصراف اللفظة فيهما الى اكثر من معنى ، وبينهما فيما عدا ذلك من عدم التشابه مابين كل منهما واى من الظواهر اللغوية الاخرى ، وذلك ان اسباب نشأة الاضداد تختلف تماما عما هي عليه في المشترك ، ولا تتفق الا في مسائل قليلة ،وأخطأ من عدها واحدة يمكن تطبيقها على الظاهرتين (١٣) . ومن أقرب الأمثلة على هذا ما يقال في الاستحضار الذهني الطبيعي للمعنى المضاد مما لايتوفر مثله في المشترك، ومايقال فيجنوح المتكلم الىالتفاؤل ودرء العينوالتهكم والاستهزاء مما يستدعي قلب المعنى الأول والنطق بضده ، وهو مالا يتوفر في المشترك أيضا ، وغير ذلك مما سنعرض له في قابل الصفحات ؛ حتى ليعجب الدارس المتصفح للمعجمات اللغوية من امكانه اعتبار كل ألفاظ اللغة من المشترك اذ يندر أن نعثر على لفظة لم تلمسها يد التطور الدلالي فتصرفها الى معنى آخر مختلف عن الاول من قريب أو بعيد ، والاضداد ليست كذلك ، اذ لم يتجاوز عدد ما ذكرته المصادر منها الـ (٤٠٠) لفظة .

ومهما يكن فقد ظل تقسيم سيبويه دائرا بين من ألف في الاضداد بعد قطرب ، يحاول كل منهم أن ينفذ منه الى تعريف للاضداد يوضح فيه طبيعة الالفاظ التي يبحثها في الكتاب ، الا ان أغلب تحديداتهم لم تكتسب الشمول والدقة الا بعد زمن ، فقد اكتفى أبو حاتم السجستاني بقوله : «فأما المعروف في الضد في كلام العرب فخلاف الشيء (١٤) » ،

(١٣) ابراهيم انيس : في اللهجات العربية ١٩٥ ومابعدها .
(١٤) ابو حاتم ٧٥ .

باسطا بايجاز فكرة الخلاف • كما اكتفى ابو بكر ابن الانباري في تحديدها بأنها : « الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة ، فيكون الحرف منها مؤديا عن معنيين مختلفين » [١٥] • وكلا الحدين لا يقلان ايجازا وغموضا عما وجدناه عند قطرب ، وان اتفقا معه على قلة الاضداد في كلام العرب ، كما أنهما لم يقصدا الى معالجة الاختلاف الذي أشارا اليه ، وانما قصدا الى معالجة التضاد وفي كتابيهما ما يدل على ذلك •وأدق الاضداديين تحديدا للاضداد هو أبو الطيّب اللغوي الذي قال : « والأضداد جمع ضدّ ، وضد كل شيء ما نافاه ، نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل ، والشجاعة والجبن ، وليس كل ما خالف الشيء ضدا له ، ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان وليسا ضدين ، وانما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم • فالاختلاف أعم من التضاد اذ كان كل متضادين مختلفين ، وليس كل مختلفين ضدين » [١٦] • وبهذا التعريف أزال ابو الطيب الابهام والاضطراب عن فكرة التضاد التي هي أخص من الاختلاف في معناها العام • وعلى هديه سار المتأخرون والمحدثون في تعريفاتهم للاضداد [١٧] • ومن هذا الفهم للفكرة يجب أن يكون المنطلق في دراسة الاضداد والوقوف على حقيقة وجودها في اللغة •

فاذا اخذنا بهذا التحديد الدقيق وحاولنا تطبيقه على مجموع الاضداد تطبيقا صحيحا بعيدا عن الغلو لتضاءل عدد هذه الالفاظ حتى لا يبقى منها الا الشيء القليل الذي يعبر عن آثار المراحل التاريخية التي

---

(١٥) ابن الانبارى ١ •

(١٦) ابو الطيب ١/١ •

(١٧) انظر : كشف الظنون ١/١١٥ وتاريخ آداب اللغة العربية ١/٤٥ والتطور اللغوى التأريخي ٩٠ وفقه اللغة لوافي ١٨٦ ومجلة المجمع الملكي ٢/٢٣٠ ومجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٣٩ : ٤/٥٣٠ ـ ٥٣١ •

مرت بها اللغة . لاننا نعتقد أن التضاد ليس أصيلا في الوضع، وانما دعت الى وجوده في اللغة دواع مختلفة سنعرض لهـا في هذا الفصل ، وذلك لان فكرته تقوم على مـا ينـافي الفطـرة ويخالف الطبيعـة اللتين يفترض ان اللغة صدرت عنهما فكانت صدى لهما ، لان اللغة قائمة على الوفاء بحاجة الناطق الى الكلام ، والتفاهم بوساطتها مع الاخرين، فلا يعقل بعد هذا أن يكون التفاهم مضطربا مشوشـا بسبب وجود الاضداد التي ينصرف كل منها الى معنيين متضادين لا يعرف السامع أيهما عنى المتكلم وقصد اليـه ، وهذا بعيد عن واقع الحال ، اذ المفروض في الضد لكي يصح وصفه بصفة التضاد ، أن يكون ضدا مستعملا في الزمان الواحد والبيئة اللغوية الواحدة، والا فلا غرابة أن يحصل التضاد لو انعدم هذان الشرطان ، بـأن تتطـور اللفظة ذات المعنى الواحد بظروف معينة الى أن تصبح من ألفاظ التضاد ، أو أن تكون هذه اللفظة عند أهل بيئة لغوية تعني معنى وعند البيئة الاخرى تعني معنى مضادا وهو ماندعوه باختلاف اللهجات ، فوحدة الزمان والبيئـة اذا تحققت وكانت اللفظة منصرفة الى المتضادين جاز أن تعدّ بحق مـن الأضداد ، مع وجوب ملاحظة جملة ظروف ودواع متعددة تعتبر هـي الاخرى من عوامل وجود الأضداد .

يضاف الى هذا أن الحاجة لاتمسّ الى ان يجمع المتكلم العربي المعنيين المتضادين في لفظة واحدة ، لعدم افتقار لغته الى أن تختص الفـاظ فيها بمتضادين ، بل كان يلجأ الى الاستعارة والمجاز والكناية حـين يجـد أن ألفاظه تضيق بمعانيه ، فيجد في لغته سعة واستيعابا ، فماذا كان يضـيره — لو كان التضاد أصلا في الوضع — من أن يضع لكل من المعنيين المتضادين لفظة خاصة ؟ بل هذا هو الحاصل اذ لم تدعُ الحاجة الى استعمال الأضداد لأنها أضداد ، أعني انه لم تستعمل وقصد من ذلك الدلالة على المعنيـين المتضادين ، ففي كل الشواهد التى سيقت لها كانت اللفظة دالة على معنى

واحد ، اضف الى ذلك أن في اللغة نفسها مايغني عن استعمال هذه الألفاظ ، لوجود ألفاظ من غير الأضداد تنصرف الى معاني الأضداد عنها • فالتضاد اذن ليس قديما في اللغة بحيث يكون سنة من سنن الوضع عند العرب كما يذهب الى ذلك ابن فارس [١٨] ، وانما هو حادث في كلام العرب بعد توحّد القبائل وتداخل لهجاتها ، وميل المتكلمين الى التفنن في الحديث والتملّح فيه عن طريق المجاز والكناية ، والتشبيه ، حتى تلتصق بالالفاظ معان جديدة فتعرف بها ويمضي عليها الناس في التعبير ، فتثبت بعدئذ على شكل ظاهرة في الميراث اللغوى للعربيّة ، وبألفاظ هذه الظاهرة وضعت المعجمات التي تعرف بكتب (الأضداد) ، اذ لاتصمد أغلب مواد هذه الكتب أمام البحث العلمي والتفسير الدقيق، لان ماروي عنها من الشواهد يعوز أكثره النصوص الصريحة القوية ، فاننا حين نحلل امثلة التضاد ونستعرضها جميعا ، ونرجع مايمكن ارجاعه الى عامل معين ، ونحذف منها مايدل على التكلف والتعسف في اختيارها ، يتضح لنا أن ليس بينها مايفيد التضاد الا نحو عشرين كلمة في كل اللغة كما توصل الى ذلك المستشرق (Giese) بعد دراسته للشعر الجاهلي [١٩] ، ومثل هذا المقدار الضئيل من كلمات الأضداد لايشكل مشكلة بالمعنى الدقيق ، وانما يعبّر عن مرحلة من تاريخ اللغة كما قلنا قبل قليل ، خصوصا وان مصير هذه الالفاظ الى الانقراض ، وذلك بأن يجري الاستعمال بمعنى واحد من معنيي الضد مع مرور الزمن[٢٠]، كما كان الامر قبل التدوين الذي رسخ الضدية في هذه الألفاظ •

فمثلا لفظة (اللحن) التي مرت في مبحث الدلالة انها تطوّرت الى

(١٨) الصاحبي ٦٦ •

(١٩) في كتابه : ـ
Untersuchungen uber Addad auf Grund von stellen in Altarabischen Dichtern.
الذى نشره في برلين عام ١٨٩٤ : مجلة المجمع الملكي ٢/ ٢٣٠ •

(٢٠) انظر : في اللهجات العربية ٢١٥ •

معان بلغت العشرة تقريباً، وكل معنى منها متطور عن المعنى السابق لوجود العلاقة السببية بينهما وقرب مجال الدلالة ، وكلها ترجع الى معنى عام قديم هو (ازالة الشيء عن جهته) ، الا أن ابن الانباري عدّها من الأضداد وقال : « واللحن حرف من الأضداد ، يقال للخطأ لحن ، وللصواب لحن • فأما كون اللحن على معنى الخطأ فلا يحتاج فيه الى شاهد ، واما كونه على معنى الصواب فشاهده قول الله عز وجل : (ولتعرفنّهم في لحن القول) [٢١] ، معناه : في صواب القول وصحته» [٢٢] • فابن الانباري عدا أنه اقتسر تضاد هذه اللفظة التي لم تتمحض للمعنيين المتضادين ، فقد نسي ان الآية التي استشهد بها على معنى الصواب نزلت في شأن المنافقين ، ولايمكن أن يوصف قولهم بالصواب • وانما أراد القرآن بها التلميح والتورية الخفية التي يشير بها المنافقون الى نواياهم من النبي ، وقد عرض لهذه الآية أحد المستشرقين فقال انها : « في وصف طريقة التعبير المعسولة التي لايبدو في ظاهر جرسها سوء ، والتي يرمز بها أعداء محمد الى معان يفهمها اخوانهم في الرياء والنفاق » [٢٣] •فالآية اذن لم تسعف ابن الانباري بمعنى الصواب ، وبمثل هذا اليسر ترد أغلب الألفاظ التي زعموا انها من الأضداد ويرجع بها الى مواضعها الصحيحة من اللغة •

وفكرة الضدية في الحقيقة منوطة بالاصطلاح والاتفاق والتباني ، لأن المصطلحين على أن هذه اللفظة من الأضداد لانصرافها الى معنيين متضادين ، هم الذين اصطلحوا على تضاد المعنيين وتعارفوا عليه • واذا كان ثمة مايبرر تضاد الأبيض والأسود لغاية الانكشاف في الأول وغاية الستر في الثاني ، وتضاد الحياة والموت لغاية الوجود في الاول وغاية الفناء في الثاني ، فبم

---

(٢١) سورة محمد ٣٠ •
(٢٢) ابن الانباري ٢٣٨ ، وانظر سمط اللآلي ١/ ١٨ •
(٢٣) يوهان فك : العربية ٢٤٣ •

يبّرر تضاد الأصفر والأسود أو الأحمر والأخضر الذين يستعملان متضادين الى اليوم ، أو حتى الجمال والقبح وفي كل منهما شيء من الآخر وان ضؤل ، أو الطول والقصر وفي كل منهما شيء من الآخر ايضا ، اذ تكون غاية التناقض التي هي جوهر فكرة التضاد معدومة ، فليس هناك قياس يقاس به هذا الأمر ، والمسألة تقوم على نسبية الاشياء والمعاني التي شاء العرف العام أن يصطلح على حدود ثابتة فيها ، لان في الاخذ بمبدا التناسب ارهاق للفكر في تحديد هذه النسبة ، فكان لابدّ من الغائها فيما يجوز من المحسوسات والمدركات ، اراحة للفكر وتنظيما للمفاهيم . ذلك ان أغلب ماتقع عليه حواسنا واذهاننا نسبي ،والحياة قائمة على النسبية ، وتقعيد هذه النسبية – اذا صح التعبير – بقواعد ثابتة مطردة هو من مظاهر تطور العقلية البشرية لتنظيم التفكير ، على أنه لايمكن تعميم هذا المبدأ على جميع الأشياء ، لوجود ماهو حدى في الأصل سلبا أو ايجابا ، موافقة أو مناقضة .

ولمصطلح (التضاد) عند المناطقة مفهوم آخر يختلف تماما عنه في اللغة ، ففي فصولهم التي عقدوها لبحث فكرة (التداخل والتضادوالدخول تحت التضاد) فسّروا التضاد المنطقي وفرّعوا فيه ، فقالوا : « ان المتضادتين هما المختلفتان في الكيف دون الكم ، وكانتا كليتين . وسميتا متضادتين لأنهما كالضدين يمتنع صدقهما معاً ويجوز أن يكذبا معاً »(٢٤) . وقالوا : « ان الداخلتين تحت التضاد هما المختلفتان في الكيف دون الكم ، وكانتا جزئيتين . وانما سميتا داخلتين تحت التضاد ، لأنهما داخلتان تحت الكليتين ، كل منهما تحت الكلية المتفقة معها في الكيف من جهة ، ولأنهما على عكس الضدين في الصدق والكذب ، أي انهما يمتنع اجتماعهما على الكذب ، ويجوز أن يصدقا معا » (٢٥) . ورأى المناطقة أيضا ان العوارض التصريفية

---

(٢٤) المنطق للمظفر ٢/١٩٣ .
(٢٥) نفسه ٢/١٩٣ .

التي تعتور لفظا ما فتصرفه صرفا مضادا كلفظ (المختار) مثلا للفاعل والمفعول ، انما هي من (المغالطات اللفظية) التي قسموها عدة أقسام وضربوا لها الامثلة [٢٦] .

من هذا يظهر أن فكرة التضاد عند أهل المنطق ليست هي الفكرة اللغوية ، لاعتماد الاولى على التقسيم المنطقي والنظر العقلي ، مما يقطع صلتها بالبحث اللغوى أساسا ، ولكنها حلت لجماعة من اللغويين أخذوا بها في دراساتهم اللغويةوالنحوية وطبقوها على ماشاهدوه في اللغة من ظواهر فأفسدوا الدرس وبعدوا به عن مجاله ، حتى انهم صرّحوا بتشابه فكرة التضاد عند أهل الكلام وأهل اللغة ، فنقل السيوطي عن ابن جني انه قال : « اعلم ان التضاد في هذه اللغة جار مجرى التضاد عند أهل الكلام ، فاذا ترادف الضدان في شيء منهما كان الحكم للطارىء ويزول الاول ، وذلك كلام التعريف اذا دخلت على المنون ، يحذف لها تنوينه لأن اللام للتعريف والتنوين للتنكير ، فلما ترادفا على الكلمة تضادّا ، فكان الحكم للطارىء وهو اللاّم ، وهذا جار مجرى الضدين المترادفين على المحل الواحد ، كالأبيض يطرأ عليه السواد ، والساكن تطرأ عليه الحركة ، وكذلك ايضا حذف التنوين للاضافة وحذف تاء التأنيث لياء النسب » [٢٧] . وعرض السيوطي أيضا لهذا المذهب في تفسير الظواهر اللغوية في (الاشباه والنظائر) في عدة مواضع منه ، فقال في فصل (سبب الحكم قد يكون سببا لضده على وجه) : « فمن ذلك الادغام يقوى المعتل وهو أيضا بعينه يضعف الصحيح ، ومنه ان الحركة نفسها تقوى الحرف وهي بنفسها تضعفه» [٢٨] ونقل عن ابن الدهان في فصل (الشيئان اذاتضادا تضاد الحكم الصادرعنهما)

---

(٢٦) المنطق ٣/٤٧٩ .
(٢٧) الاقتراح ٧١ .
(٢٨) الاشباه والنظائر ١/٢١٣ .

انه قال : « ولهذا نظائر في المعقولات وسائر المعلومات مشاهدا ومقيسا . ألا ترى ان الاعراب لما كان ضد البناء وكان الاعراب أصله الحركة والتنقل، كان البناء أصله الثبوت والسكون . وكذلك الابتداء لما كان أصله الحركة ضرورة كان الوقف أصله السكون » (٢٩) .

وفي هذا كله تمحل وبعد عن روح الدرس اللغوى الذى يجب أن يعتمد الوصف والاستقراء والبحث عن التعليل اللغوى في ألسنة العرب واستعمالاتهم وأساليبهم ، لا أن يغرق في المنطق والكلام والفلسفة وهو أبعد مايكون بطبيعته عن طبيعة هذه العلوم الجافة . والسبب في ذلك كما يبدو أن هذه الدراسات جميعا ــ وبضمنها الدراسات اللغوية ــ كانت في ذلك الحين متداخلة تعتمد احداها الاخرى وتؤثر فيها بقدر يتفاوت قوة وضعفا ، لأن الدارس لايجد مناصا من أن يلم بأشياء من هنا وهناك ، لكي يقر العرف العام بأهليته العلمية من جهة ، ولأن هذه العلوم انّما قامت فلخدمة العقيدة الاسلامية والذبّ عن حكمتها في التشريع والتقنين من جهة اخرى ، فلابدّ من دراسة الاساليب اللغوية لمعرفة مراد الشارع المقدس في النصوص التشريعية بدقة ، ومن هنا نشأت مباحث (الالفاظ) في المنطق والكلام وقامت الفلسفة الاسلامية ، وغيرها من العلوم التي كان هدفها منصبا على هذه الناحية ، وما تزال دراسات علم الاصول تعتمد على مباحث الالفاظ ودراسة دلالاتها بشيء كبير من التأثر بالفكرة المنطقية في تفسير الظواهر اللغوية . فكان لابد للدراسات اللغوية والنحوية بعد هذا من أن تصطبغ بهذه الصبغة التي ابعدت اللغة والنحو عن طبيعتهما وأفسدت درسهما، بحيث صار هذا الدرس في بعض مصنفات الأقدمين أقرب شيء لأن يكون منطقا محضا ، على اننا يجب ألاّ نعمم هذه النظرية تعميما خاطئا ، فقد اختلفت المدارس اللغوية في تأثرها بذلك ، وفي مدى اصطباغ مؤلفاتها بالصبغة

---

(٢٩) الاشباه والنظائر ١/٢٢١ .

العقلية ، الا ّ ان المتفق عليه ان البصريين كانوا أميل من غيرهم بكثير الى الروح الفلسفية والمنطقية في دراساتهم اللغوية ، وسنجد مظاهر هذا الميل وما سببه اختلاف المناهج المدرسية عند دراستنا لكتب الأضداد .

أما رواية الأضداد ــ وسنأتي على ذكرها بالتفصيل في الباب الثاني ــ فانها بدأت في وقت مبكر نسبيا ، الا ّ أنه بعد الاسلام بأكثر من قرن على كل حال . ولا نستطيع ان نقطع بشيء من تحديد أول من روى ألفاظا من الاضداد ، الا ّ انه يمكن تحديدها بعصر أبي عمرو بن العلاء والخليل ويونس وابي زيد وابي عمرو الشيباني والكسائي ومن في طبقتهم ممن لم يؤلف في الأضداد ، لأن أوائل مصنفات الأضداد وكتب اللغة قد روت عن هؤلاء شيئا من هذه المادة ، وليس في أيدينا كذلك مايدل ّ على أن هؤلاء الاوائل قد نصوا على أن اللفظة التي يذكرون معنييها هي من الأضداد ، ولكننا نطمئن الى أن أولى مصنفاتهم التي أشارت الى هذه الظاهرة اشارة صريحة فيها شيء من التعجب والدهشة هو كتاب (العين) للخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) اذ قال في مادة (شعب) بعد أن ذكر المعنيين المتضادين: « هذا من عجائب الكلام ووسع العربية أن يكون الشعب تفرقا ويكون اجتماعا ، وقد نطق به الشعر » [٣٠] كما تعجب ايضا من تضاد لفظة (الناشد) وقال : « وهذا من عجيب كلامهم أن يكون الناشد : الطالب والمعرف جميعا» [٣١] . ومع ذلك فان الخليل لم ينص على أن (الشعب) أو (الناشد) من الأضداد ، فقد اكتفى بذكر المعنيين المتضادين وتسجيل دهشته من هذا التضاد ، ولم يحاول تبرير ذلك فقد نطق به الشعر على حد ّ قوله . أما ما عدا الخليل من رواة اللغة ممن عاصروه وتلمذوا له

---

(٣٠) العين مادة (شعب) وفي الجزء المطبوع ٣٠٦ .
(٣١) نفسه مادة (نشد) ومنقولة عنه في اللسان ٣/٤٢١ وفي التاج ٩/٢٢٠ .

فيعوز النصوص التي نقلت عنهم في الأضداد الوضوح والصراحة ، فقد اختلط النقل عن أبي عمرو بن العلاء بالنقل عن أبي عمرو الشيباني ، لذكر الكنية عارية عن اللقب في أكثر النصوص الموجودة في كتب الأضداد ، فلا يعلم لمن منهما الكلام ، والقليل من هذه النصوص ماكان يذكر اللقب المميز لكل منهما ، ولكن الراجح أن أكثرها منسوب للشيباني لان مقارنة النص الواحد بين صوره في المصادر يهدى الى ذلك احيانا • وكذلك يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ) فلم يرو عنه اكثر من ثلاثة أو أربعة اضداد عند قطرب وأبي الطيب منقولة عنهما في كتب الأضداد الاخرى ، ونصوصها غير واضحة في تحديد كلام يونس لاتصاله بكلام قطرب وابي الطيب ، مثل قول قطرب : « قال يونس : الرَّغوث : التي يرغثها ولدها من الشاء ، فصارت في معنى مرغوثة ، والولد أيضا رَغوث ، والمعنى أنه راغث لها ، فصارت رَغوث للمفعول والفاعل »[٣٢]• فلا يعلم هل انتهى كلام يونس عند ذكر المعنى الاول واتصل به كلام قطرب أم استمر الى آخر النص ، فالنقل غير واضح في هذه المسألة • وهكذا الأمر بالنسبة لسائر رجال هذه الطبقة ممن لم يؤلف في الأضداد أو لم يعاصر التأليف فيها ، فما روى عن لغويي هذا الجيل من الاضداد يعتبر ضئيلا لو قورن بما أصبح عليه الوضع بعد ذلك ، فهي كلمات قليلة ترد عارضة على الاستاذ في حلقة الدرس فيتنبه اليها ويحاول تفسيرها ، فتعلق في ذهن أحد التلاميذ ويفطن الى مافيها من تضاد ، ويجتمع عنده من هذه الالفاظ عدد يدفعه الى تدوينه في كتاب مع شيء من الشرح والاستشهاد ، فظهرت كتب الأضداد الأولى صغيرة الحجم قليلة المادة ، بسبب تمحض النية لتدوين هذه الالفاظ ، دون محاولة التكثر منها بالتعسف والتكلف والاصطناع ، وان لم تخل خلوا تاما من هذه الدوافع ، ولكنها أقل بكثير مما نجده في المؤلفات اللاحقة •

---

(٣٢) قطرب ٢٤٩ •

ومن التناقض الذى وقع فيه الاوائل ، ما وقع فيه قطرب مثلا ، فنقرأ في أضداده يقول : « وقالوا : القاسط الجائر ، قال الله جل وعز : (وأمّا القاسِطون فكانوا لِجَهَنّم حَطبًا) [٣٣] ويقال : قد قسط عن الحق قسوطا أى عدل عنه ، وقال العديل بن الفرح العجلي :

قَسَطوا على النّعمان وابن محرقٍ وابنَي قطامٍ بعزّةٍ وتناولِ »[٣٤]

فعدا انه لم يتنبه الى دور (عن) و (على) في صرفهما المعنى الى السلب والى الايجاب كدور الحرفين في (رغب في ورغب عن) ذاهبا الى الفعل (قسط) وتغير معناه في القرآن والشعر ، فهو قد عدّ اللفظة من المثلث في كتابه (المثلثات) مبيّناً هناك ان اختلاف المعاني لاختلاف حركة فاء الفعل في المصدر ، قال :

طارحني بالقَسْطِ ولم يزن بالقِسْطِ
ففيه عرف القُسْطِ والعنبر المطيبِ

وقال الشارح في توضيح المعاني الثلاثة :

الجور في الأحكام فهو القَسط والعدل والاحسان فهو القِسط
ثم الذى يباع فهو القُسط يفوح طيب نشره في النّار[٣٥]

فاللفظة اذن من المثلثات وليست من الاضداد، بعد أن رجع قطرب الى المصدر في تحديد المعنى ، بعيدا عما يكتنف الفعل من الملابسات اللفظية والاسلوبية التي تؤثر في معناه لان في المثلثات رجوع الى جذر المادة (ق س ط) الذى منه يمكن معرفة الأصل المعنوى بدقة ، في حين لا يتوفر مثل هذا الرجوع في الأضداد ، فيكتفى بأن تؤخذ أى كلمتين متشابهتي الحروف الاصلية وتعقد المقارنة بين معنييهما دون ملاحظة الخلافات الدقيقة بين

---

(٣٣) الجن ١٥ .
(٣٤) قطرب ٢٥٩ـ٢٦٠ .
(٣٥) شرح مثلثات قطرب ١٧٢ .

الكلمتين ، فحين تنبه الاضداديون بعد قطرب الى دور الحرف في ضدية (قسط) راحوا يفتشون عن شاهد يؤيد تضادها فوجدوه في القرآن ، فذكروا لمعنى الجور الآية التي ذكرها قطرب ، وذكروا لمعنى العدل قوله تعالى : (وأقسطوا ان الله يحب المقسطين)[36] ، وبهذا المعنى في قول الحارث بن حلزة :

ملكٌ مقسِطٌ واكملُ من يمـ ـشي ومن دونِ مالديه الثناء[37]

ولكنهم غفلوا أو تغافلوا عن أن الفعل في الآية الاولى (قسط) وفي الثانية (أقسط) ناسين دور همزة السلب في قلب المعنى الى ضده . ومثل قسط مادة (الجد) ذكرها قطرب في الأضداد [38] ، وكان قد ذكرها في المثلثات[39] ، محددا معانيها بدقة ، وعن أضداده نقلتها كتب الأضداد الاخرى ، حيث ذكرها ابن الانبارى [40] ، وابو الطيب اللغوى[41] ، والصغاني [42] ، بشيء من التفصيل في الشرح والاستشهاد عند الأولين . ومثل هاتين المادتين كثير من المواد التي أخذت أخذ المسلمات عن المؤلف الاول ، لهذا فنحن نحمل قطربا مسؤولية كثير من الألفاظ التي اعتبرت من الأضداد وتلمست لها الشواهد من هنا وهناك تأييدا لهذا المعنى وتوثيقا لذاك لأن قطربا كان قد ذكرها في كتابه معتبرا اياها من الأضداد . وشأن الأضداديين في هذا شأن سواهم من الذين يتصدون للتأليف فيما سبقهم اليه مؤلف سابق ، اذ تكون مادة كتابة هي التي يعول عليها ويزاد فيها وتشرح غوامضها ويفصل في موجزها .

(٣٦) الحجرات ٩ .
(٣٧) ابن الانبارى ٥٨ وابو الطيب ٢/٥٩٤ .
(٣٨) قطرب ٢٧٩ .
(٣٩) مثلثات قطرب ١٧٢ .
(٤٠) ابن الانبارى ٢٠٦ .
(٤١) ابو الطيب ١/١٧٤ .
(٤٢) الصغاني ٢٢٦ .

والاضداد التي حفلت بها كتب القدماء أنواع عديدة غير ان المصنفين فيها لم يحاولوا تقسيمها وتنظيمها على أساس من الاسس ، وانما جمعت مختلطة غير مرتبة ينقصها الفصل الدقيق بين أنواعها ، سوى ما عمله بعضهم في ترتيبها ترتيبا هجائيا صرفا ، كما ان المحاولات الحديثة لتقسيمها غير مكتملة ولم تأت على جميع المواد [٤٣] ، لذلك فنحن نقسمها هنا على أساس لفظي بحت ، فنجد الانواع التالية :

١ ـ اضداد في الاعلام : مثل (أيوّب) و (إسحاق) و (يَعقوب) يكون اعجميا مجهول الاشتقاق ، ويكون عربيا مجرى في حال التعريف والتنكير .

٢ ـ اضداد في الاسماء : مثل (البَعْل) لما تسقيه السماء ولما يشرب بعروقه ، و (الحَزَّور) لليافع القوى والشيخ الضعيف ، و (الزَّوج) للواحد وللاثنين .

٣ ـ أضداد في المصادر : مثل (البَيْن) للفراق والوصال ، (والتَّسْبيد) لتطويل الشعر وحلقه ، و (الاهماد) لمواصلة السير وقطعه ، و (التَّفطُر) لفراغ الضرع وللحلب .

٤ ـ أضداد في المشتقات (اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والمبالغة وغيرها) : مثل (الفاري) للذى يقطع الاديم والذى يخرزه ، و (المَسْجور) للمملوء والفارغ ، و (الأعور) للاعور والصحيح ، و (أعقل الرجلين) اذا كان اعقلهما أو احمقهما ، و (مِنجاب) للقوى والضعيف .

٥ ـ أضداد في الظروف : مثل (فَوق) للاعظم والأحقر ، و (دون) للاكثر والأقل و (وَراء) للامام والخلف .

---

(٤٣) انظر : عبدالفتاح بدوى : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٦ .

٦ ـ أضداد في الضمائر : مثل (نَحنُ) للواحد والجمع •

٧ ـ أضداد في الأفعال : مثل (تأثَّم) اذا اتى الاثم واذا تجنبه ، و (ظَنَّ) للشك واليقين ، و (أَمْعَنَ) بحقي اذا أقر به واذا هرب به •

٨ ـ أضداد في الحروف والادوات : مثل (لا) للجحد والاثبات ، و (ما) تكون نفيا وموصولا ، و (هَل) للاستفهام وبمعنى قد ، و (إن) للنفي والشرط •

٩ ـ أضداد في المتعلقات : مثل (راغ على وراغ عن) اذا اقبل واذا أدبر ، و (رغب في ورغب عن) اذا أراد واذا ترك ، و (قَسَط في وقَسَط على) عدل وجار •

١٠ـ أضداد في التعابير والتراكيب : ففي القرآن مثل (نَسوا الله فنَسيَهم) و (مكروا ومكر الله) و (لقد همَّت به وهمّ بها) • وفي الشعر مثل :

أتعرف رسماً كاطرادِ المذاهبِ   لعمرةَ وحشاً غير موقفِ راكبِ

و :وقد أغتدى ومعي القانصانِ   وكلٌ بمربأةٍ مقتَفِرْ

و : إنكَ أنتَ المحزون في أثرِ الـ   ـحيّ فإن تنو نيّهم تقمِ

وفي النثر مثل (تهيَّبت الطريق وتهيبني الطريق) و (لم أضربْ عبدالله ولم يضربْني زيد) و (ما ظلمتُك وأنتَ تنصفني) •

١١ـ اضداد في أصوات لا معنى لها : مثل (طَرطَبَ طرطبةً) وهي حركة بالشفتين لدعوة الضأن ولزجرها ، و (حايْ حاي) لدعوة الغنم وزجرها •

وقد أوردت كتب الاضداد جميعا لكل نوع من هذه الانواع أمثلة كثيرة تختلف قلة وكثرة حسب ورودها في الشواهد والنصوص التي

ذكروها ، ولكن اكثر هذه الالفاظ التي قالوا بضديتها يـرّد كما قلنا الى أصله بسهولة ، ويرجع به الى الظرف اللغوى الذى هيأ نشأته وعمل على وجوده في اللغة ، ونحن ندرس هنا هذه الظروف لنتبين منها علل وجـود الاضداد ، وبالتالي الغاء مايمكن الغاؤه منها ، بعد أخذ جميع هذه العوامـل بعين الاعتبار ، لاننا نحاول أن نصل من دراسة هذه الظروف والدواعـي التاريخية الى أن التضاد ليس أصيلا في وضع اللفظة ، وما دام كذلك فلا أضداد في اللغة ، وانما ألفاظ اعتور كلا منها عامل من العوامل المختلفـة فجعل منه ضدا •

اختلاف اللهجات واللّغة الموحّدة

الفرق بين مصطلحي اللهجة واللغة ، ان اللغة تنشعب بفعل عوامـل معينة الى لهجات قد تكثر حتى تصل الى العشرات ، الا ان علماءنا القدامى كانوا يصطلحون على اللهجة باللغة أو اللحن ، كقولهم مثلا : « الشَّعب : الافتراق ، والشعب : الاجتماع ، وليس من الأضداد وانما هي لغة قوم»(٤٤) أي لهجة قوم ، وكقولهم : « العَرم : المُسَنّاة بلحن اليمن »(٤٥) ، أي بلهجة اليمن • ولكنهم اصطلحوا على اللغة باللسان ، يدل على هذا مجيء اللفظة ثماني مرات في القرآن منصرفة الى معنى اللغة (٤٦) •

واللهجة من حيث هي سلوك لغوي لا تختلف عن اللغة الام ، لانها ــ في الاصطلاح العلمي الحديث ــ مجموعة من صفات لغوية تخص بيئة واحدة ، ويشترك جميع أفراد هذه البيئة بتلك الصفات • وتختلف البيئات اللغوية الواحدة عن الاخرى بصفات لهجاتها وظواهرها اللغوية الخاصة الاّ انها تنتمي جميعا الى لغة عامة مشتركة تنتظم جميع هذه الظواهر فتيسر اتصـال

---

(٤٤) المزهر ١/٣٩٦ •
(٤٥) ابن الانبارى ٢٤٠ •
(٤٦) انظر : في اللهجات العربية ١٧ •

افراد البيئات فيما بينهم ، وفهم مايدور من كلام فهما يتفاوت مقداره حسب قوة الرابطة التي تربط بين اللهجتين [٤٧] • والظاهر ان الانعزال كان أهم العوامل في نشوء اللهجات ، وهذا واضح في تكون اللهجات العربية القديمة قبل الاسلام ، اذ كانت طبيعة الجزيرة العربية الصحراوية تفرض على الجماعات أن تنعزل في أماكن يتوفر فيها الماء والكلأ ، وهي مواضع متباعدة منتشرة في أطراف الصحراء ، كما ان الطبيعة الصحراوية في الوقت نفسه تعسر الاتصال المستمر بين هذه الجماعات ، فلا تلبث لغاتهم أن تستقل بمرور الزمن على شكل لهجات ، تتميز بصفات خاصة يفرضها هذا الانعزال اللغوى •

فاللهجات العربية استقلت بعض الشيء بخصائص لغوية متميزة ، الا انها تنضوي جميعا تحت خصائص عامة في اللغة الام التي قد تصح تسميتها باللغة النموذجية لعامة العرب ، لانه حين تمسكت القبائل بلهجاتها الخاصة في الحديث العادي وفي التخاطب وفي المعاملات ، كانت تلجأ في أحايين كثيرة الى تلك اللغة النموذجية التى نشأت في مكة ، اذا أرادت ان تنظم أو تخطب ، لأنهم يرون ان التمسك بلهجاتهم غير مستساغ في مثل هذا المجال ، فهم يدخرون التكلم بلهجاتهم لبيئاتهم بعد عودتهم اليها[٤٨] • ومع ذلك فلا يمكننا أن ندعي ان جميع خصائص لهجاتهم اللغوية كانت منزوية انزواء تاماً في أشعارهم وخطبهم ، بل على العكس فقد كشفت لنا هذه النصوص بعد تدوينها عن كثير من تلكم الخصائص بشكل واضح ، خصوصا بعد أن تململت هذه اللهجات للتوحد بعد الاسلام ، وماترتب على ذلك من زيادة اقترابها من النص القرآني المقدس • ذلك لانه حين فرضت الغلبة للهجة قريش على سائر اللهجات العربية لاحتوائها على أكثر نصوص الدين

(٤٧) انظر : في اللهجات العربية ١٦ والتطور اللغوى التاريخى ٢٨ •
(٤٨) انظر : في اللهجات العربية ٤٦ •

الجديد ، واستئثار هذه اللهجة شيئاً فشيئاً بلغة الشعر والنثر ، وطغيانها التلقائي على ألسنة القبائل العربية وانحسار لهجات هذه القبائل من أفواه أفرادها ، فبالرغم من ذلك فقد بقيت آثار ضئيلة من تلك اللهجات القديمة في ميدان التفاهم والتخاطب والمحادثة ، وليس غريبا ان ينال القرشية على ألسنتهم شيء من التحريف بتأثير بداهتهم الأولى في النطق • لذلك فقد أباح الاسلام ـ تأليفاً للقلوب وشدا بالقرآن ـ أن يقرأ الكتاب المقدس ببعض خصائص تلك اللهجات التي لم يكن ممكنا التغلب عليها في هذه القراءة ، فنشأت بذلك قراءات القرآن التي هي مظهر من مظاهر اختلاف اللهجات العربية في الدلالة والصوت والقواعد الصرفية والنحوية والمفردات وما الى ذلك ، اضف الى هذا مايمكن أن يكون سببه القرآن نفسه في احتوائه على آثار من اللهجات العربية بجانب اللهجة القرشية التي نزلت بها أغلب أساليب القرآن وخصائصه اللغوية ، فكأن العرب أرادوا أن يقرأوا ما ورد من لهجاتهم في القرآن بلهجاتهم أنفسها •

فليس لنا بعد هذا أن نعتقد بأن لغة القرآن هي لهجة قريش أو لهجات الحجاز ، لأنه اجتمعت في لغة التنزيل ـ والتي أصبحت فصحى العربية ـ آثار كثيرة ومواد مختلفة تعود الى اللهجات العربية ، وعدم النص على القائلين في أغلب هذه الآثار والمواد لايعني عدم وجودها ، لأن اتساع الدولة الاسلامية وشموله بيئات جديدة مختلفة دفع العلماء الى طمس مظاهر اللهجات في اللغة ، مما قد يزيد وجوده من عصبية القبائل ويفرق بينها ، فأهمل أمر هذه اللهجات ولم يرو عنها في المدونات اللغوية والادبية الا شيء قليل ، لأنه أُريدَ للغة القرآن ان تكون موحدة شاملة ليتفق المسلمون جميعهم في فهمها والتكلم بها والعمل بموجبها(٤٩) • وكان من نتائج ذلك

---

(٤٩) انظر : فقه اللغة لوافي ١١٨ والتطور اللغوى التاريخي ١١٧ وفي اللهجات العربية ٤٧ •

تعسف غير قليل وقع به العلماء ، فهم حين ذهبوا الى توحيد اللغة ، فرّقوا بين اللهجات فنسبوا لاحداها الفصاحة ولم ينسبوها للأخرى ، رافضين أن يأخذوا عما يسمّى بالقبائل التي تطرفت مساكنها حدود الجزيرة العربية لمتاخمتهم الاعاجم في هذه الاطراف ، ونصوا على هذه القبائل وعلى الشعوب الاعجمية ، ولهذا « كانت قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن ، المجاورين لأمم الفرس والرّوم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامّة الملكة بمخالطة الاعاجم ، وعلى نسبة بعدهم من قريش ، كان الاحتجاج بلغاتهم من الصحة والفساد »(٥٠) . وزاد من تعسفهم في هذا المجال أنهم يلصقون أحيانا كل استعمال لا يرضونه ولا يستقيم لقواعد وضعوها ومقاييس افترضوها ، يلصقونه بقبائل معينة ولهجات تعارفوا على غرابة استعمالاتها كأزد شنوءة وبلحارث بن كعب وجذام وغيرهم ، عدا ان اشاراتهم الى اللهجات بصورة عامة لم تكن واضحة المعالم ، لاضطرابهم في تحديد اللّهجة ، فكثير من الاستعمالات منسوب الى تميم أو الحجاز ، وكل منهما اقليم واسع يضم عدة قبائل وعدة لهجات لايمكن أن تخضع لصفات لغوية موحدة بمجرد تسمية الاقليم المتد الأطراف ، لاننا نعرف ان طريقة نطق مدن الحجاز ليست في كل المواضع متفقة بل توجد بينها اختلافات شديدةفي مقابل قواعد اللغة الكلاسيكية(٥١) . ومن الادلة التاريخية على اختلاف قبائل الاقليم الواحد في دلالة اللفظ أو اسماء الاشياء ، ما روى عن النبي حين سقطت من يده السكين ، فأشار على ابي هريرة أن يسلمها له ، فلم يفهم أبو هريرة مراد النبي (ص) ، لانه

---

(٥٠) مقدمة ابن خلدون ٤٨٩ .

(٥١) التطور اللغوى التاريخي ٢٨ واللغات السامية لنولدكه ٧٨ .

كان يسمي السكين (مدية) ، وأبو هريرة من (دوس) التي عاشت على مسافة غير بعيدة من مكة ، وكان اهلها على اتصال بالبيئة الحجازية قبل الاسلام • ولا أميل الى الشك في صحة هذه الرواية بحجة ان لفظة (السكين) قد وردت في القرآن [٥٢] ، ذلك ان الاخبار اعلمتنا بتأخر اتصال ابي هريرة بالنبي ، فلا مانع من ورودها في القرآن وأبو هريرة لم يتدبرها بعد •

وعلى هذا فان اللغة الموحدة التي وصلت إلينا عن طريق النصوص الادبية التي رويت عن العرب قبل الاسلام وبعده ، فهي وان كانت منسجمة الصفات والخصائص ، خالية مما نفر منه العرب في اللهجات كالعنعنة والكشكشة والعجعجة وغير ذلك ، فهي لم تكتسب خصائصها اللغوية وصفاتها الاسلوبية من لهجة قريش وحدها ، بل منها ومن اللهجات الاخرى بعد أن توحدت وامتزجت فصارت لغة يمكن ان تنسب الى عدة قبائل لأن « الروايات التي تقول ان لهجة قريش هي أحسن اللهجات العربية كلها ، فان بعضها مخترع ، وفي بعضها مجاملة للحكام الذين ينحدرون من قبيلة قريش • غير انها تعارض بكل تأكيد الرأي العام للعرب من قديم الزمان[٥٣] » ، ومع اسراف نولدكه في قوله ، لأن مايتوفر في ايدينا من معلومات يؤيد أن تكون قريش صاحبة الحظ الاكبر من لغة التنزيل على الاقل ، الا انه لايخلو من الصحة خلوا تامّاً ، فقد أضافت العاطفة الدينية والسياسة شيئاً كثيراً من الأهمية لدور قريش في اللغة والسياسة والدين • ومع ذلك فهذا المزيج اللغوى الذى استقرت عليه العربية مزيج منسجم القواعد والأصول ، يتمثل فيما وصل الينا من النصوص المختلفة ، وعلى رأسها القرآن الكريم والثروة الشعرية والنثرية القديمة التي صحت روايتها عن الجاهليين •

---

(٥٢) في اللهجات العربية ١٧٧ •

(٥٣) اللغات السامية ٧٨ •

وما هذه الاشارات الواردة في ثنايا كتب اللغة الى استعمالات القبائل ومفرداتها واختلافاتها في الدلالة ، الا من بقايا تلك الحقبة من تاريخ اللغة حين لم تتوحد بعد تحت ظل الاسلام ، فالمتصفح لكتب اللغة يعثر على كثير من الألفاظ نص على أن معناه في القبيلة الفلانية كذا وهو خلاف الشائع ، أو معناه عند تلك القبيلة هكذا وهو الأشهر ، واشباه ذلك من الاشارات(٥٤) الا ان هذه الكثرة مع ذلك تعتبر قلة بالنسبة لما يجب أن يصل الينا من لهجات القبائل واستعمالاتها اللغوية المختلفة .

والأضداد من تلك الظواهر التي خلفها لنا اختلاف اللهجات الذى أشرنا اليه ، وذلك بأن تكون اللفظة بمعنى في لهجة عربية وبمعنى مضاد في لهجة اخرى ، اجتمع المعنيان في اللفظة بعد توحد اللغة وتدوين مفرداتها ومعانيها في معجمات الالفاظ الأولى ، واذا كان الأمر كذلك فليست هذه الالفاظ من الأضداد لأن شرط الاضداد أن يكون استعمالها في المعنيين المتضادين في لهجة واحدة حيث يستعمل افراد هذه اللهجة الأضداد في كلامهم فيحصل اللبس في فهم المعنى فيما بينهم وتكون الغرابة بعدئذ من وجود هذه الالفاظ التي تورث الاضطراب والفوضى في دلالة الالفاظ ، اما اذا كان التميميون جميعا يستعملون (السُّدَفة) بمعنى الظلمة فلا يمكن أن تسمّى هذه اللفظة من الأضداد بحجة أن القيسيين يستعملونها بمعنى الضوء ، لان لغة هؤلاء غير لغة اولئك ، وكل قبيلة منهما قد تعارفت فيما بينها على معنى واحد تنصرف اليه اللفظة في الاستعمال ، فلا يحصل في كلامها لبس ولا غموض ، لأن اللفظة عندها ليست من الأضداد ، وبديهي أن تكون اللفظة من الأضداد في معجمات اللغويين بعد أن يجتمع هذا المعنى بذلك وتدون اللفظة على أنها منصرفة الى المعنيين ، ولكن ذلك في المعجم

---

(٥٤) انظر : ابن الانبارى ٢٤٠ والصاحبي ١٥ والخصائص ١/٣٩٥، ٤١١ والمخصص ٤/١١٩ ، ٩/٤١ والمزهر ١/١٠٦ – ١١١ .

فقط لا في لغة التخاطب ، لان العرب بعد أن توحدت لغتهم ونشأ منهم جيل يتكلم هذه اللغة الموحدة وقفوا من هذه الالفاظ موقفين تلقائيين : الأول أنهم أماتوا قسما كبيرا منها فزالت من الاستعمال وذلك لعدم حاجتهم الى معانيها ، والثاني انهم استعملوا القسم الآخر منها بأشهر المعنيين المتضادين وخصصوه في الاستعمال • اضف الى ذلك ان الجيل الجديد علم ان اللفظة انصرفت انصرافا مضاداً بفعل توحد اللغة ، فلم يكثر استعمالها ، وقل ورودها في نصوصه الادبية بشكل واضح •

وقد تنبه القدماء انفسهم لما يمكن أن يسببه اختلاف اللهجات من تضاد الالفاظ ، فنصوا على هذا المعنى عند تعرضهم لهذه الطائفة من الألفاظ ، وأول هؤلاء اشارة الى الموضوع هو الخليل عند ذكره للفظة (سَجَدَ) التي عدت بعده من الأضداد للانحناء والانتصاب ، فذكر معناها الشائع في الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وقال : انه يعني انتصب في لغة طيء• قال الأزهري : « ولا يحفظ لغير الليث »(٥٥) • ولذلك فهو لم يتعجب من ضديتها كما تعجب من ضدية (الشَّعْب) و (النّاشِد) لأنه علم أن معنى الانتصاب انما هو في لهجة طيء ، فالعرب لم تستعمل السجود استعمالا متضادا فيما بينها ، وانما استعملته بمعنى واحد هو الخضوع ووضع الجبهة على الارض عند عامتها ، والانتصاب عند طيء • وأوضح من هذا ما نقلناه قبلا عن ابن دريد الذى ذكر أن الشَّعب بمعنى الافتراق وبمعنى الاجتماع، وقال : وليس من الاضداد وانما هي لغة لقوم (٥٦) • وقد علق السيوطي على هذا بقوله : « فأفاد بهذا أن شرط الأضداد ان يكون استعمال اللفظ في المعنيين في لغة واحدة » (٥٧) • كما بين هذه الفكرة ابن الانبارى في مقدمة

(٥٥) تاج العروس ٨/١٧٢ •
(٥٦) الجمهرة ١/٢٩٢ وسمط اللآلي ١/١٨٩ •
(٥٧) المزهر ١/٣٩٦

كتابه فقال : « اذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحي من العرب ، والمعنى الآخر لحي غيره »(٥٨) . وقريب من هذا ما قاله ابن الدهان في مقدمة أضداده (٥٩) . لاننا قلنا سابقا ان الرواة عندما شافهوا الأعراب لم يقصروا هذه المشافهة على قبيلة دون اخرى ، فسمعوا من هؤلاء وسمعوا من هؤلاء ، فكانت حصيلتهم من ذلك هذه الجمهرة من الألفاظ التي لم يرووها بادىء ذي بدء على أنها من الأضداد في لغات الأعراب ، وانما حلا لقسم من تلاميذهم الذين أرادوا التشبه باساتذتهم في الابتكار والابداع أن يجعلوها بابا من أبواب اللغة يضعون فيه مؤلفاتهم كما فعل قطرب مثلا عندما ألف في الأضداد .

ودليل ماقلناه في أن الرواة لم يروا في مثل هذه الألفاظ أضدادا ، أنه لم ينقل عنهم أنهم نصوا على ضديتها ، وانما اكتفوا بالنص على اللهجتين أو احدى اللهجتين عند ذكر المعنيين المتضادين ، ومن امثلة ذلك قول أبي عمرو الشيباني : « الساجد في لغة طيء المنتصب ، وفي لغة سائر العرب المنحني ، وأنشد :

لولا الزِمامُ اقتحَمَ الأجارِدا
بالغَربِ أودَقَّ النَّعامَ السّاجِدا »(٦٠)

وقول أبي زيد الانصارى : « السُّدفَة في لغة تميم : الظلمة ، والسُّدفَة في لغة قيس : الضوء (٦١) » وقوله : « لمَقت الشيء ألمقه لمقاً اذا كتبته في لغة بني عقيل ، وسائر قيس يقولون : لمقته محوته » (٦٢).

(٥٨) ابن الانبارى ١١ .
(٥٩) ابن الدهان ٩٢ .
(٦٠) التنبيهات ٢٩٤ والاقتضاب ١٨٦ والبئر لابن الاعرابي ٧٠ .
(٦١) الغريب المصنف ٥١٨ والمزهر ١/٣٨٩ .
(٦٢) الغريب المصنف ٥٠٠ ، ٥١٩ وابدال ابي الطيب ٢/٤٠٤ (طرف منه) والمزهر ١/٣٨٩ .

الا ان كتب الأضداد عدت هذه المواد من الأضداد بالرغم من عدم نص رواتها على ضديتها ، وأمثال هذه كثيرة في كتبهم . ونحاول الآن أن نحصي هذا النوع من الأضداد لنقول بعده شيئا :

١ ـ باعَ : للبيع والشراء ، والمعنى الثاني في تميم وربيعة [٦٣] .

٢ ـ شَرى : للشراء والبيع ، والمعنى الثاني لغة لغاضرة حي من بني أسد [٦٤] .

٣ ـ الرَّجاء : للرجاء والخوف ، والثاني لغة حجازية [٦٥] .

٤ ـ زَبَرَ : كتب وقرأ ، والثاني لغة يمانية [٦٦] .

٥ ـ المُعْصِر : التي دنت من الحيض في لغة قيس وأسد ، والتي تعنست في لغة الازد [٦٧] .

٦ ـ القُرْء : الطهر عند أهل الحجاز ، والحيض عند أهل العراق [٦٨] .

٧ ـ السُدْفَة : الظلمة عند تميم ، والضوء عند قيس [٦٩] .

٨ ـ لَمَقَ : كتب عند بني عقيل ، ومحا عند قيس [٧٠] .

---

(٦٣) معاني القرآن ١/٥٦ ونوادر أبي زيد ٣٣ .

(٦٤) ابو الطيب ١/٣٩٣ والالفاظ الكتابية ٢٧٩ .

(٦٥) معاني القرآن ١/٢٨٦ .

(٦٦) اشتقاق ابن دريد ٤٨ .

(٦٧) قطرب ٢٦٠ وابن الانبارى ٢١٦ وأبو الطيب ٢/٥١١ .

(٦٨) الاصمعي ٥ وابن السكيت ١٦٣ وابن الانبارى ٢٧ وابو الطيب ٢/٥٧١ .

(٦٩) الاصمعي ٣٥ وابن السكيت ١٨٩ وابن الانبارى ١١٤ وابو الطيب ١/٣٤٦ والغريب المصنف ٥١٨ والمزهر ١/٣٨٩ ولطائف اللغة ١٤٧ .

(٧٠) قطرب ٢٧٠ والاصمعي ٤٠ وابن السكيت ١٩٣ وابو حاتم ١٠١ وابو الطيب ٢/٦١٤ .

٩ ـ السّامد : اللاهي عند أهل اليمن ، والحزين عند طيء [٧١] .

١٠ ـ سَجَد : انحنى وانتصب ، والثاني في لغة طيء [٧٢] .

١١ ـ الحائِب : المتندّم والقاتل ، والأخير في لغة بني أسد[٧٣] .

١٢ ـ عيّن : للخلق والجديد ، والأخير في لغة طيء [٧٤] .

١٣ ـ المقْوَرّ : للمهزول والسمين ، والأخير في لغة الهلاليين[٧٥].

١٤ ـ القَلْت : النقرة الكبيرة عند أهل الحجاز ، والنقرة الصغيرة عند تميم وقيس وأسد [٧٦] .

١٥ ـ رَزَق : أنال وشكر ، والأخير في لغة الأزد [٧٧] .

١٦ ـ العَريض : الصغير والجذع من ولد الشاة ، والثاني لبني تميم [٧٨] .

١٧ ـ لم أرْجُ : لعدم الرجاء وعدم المبالاة ، والاخير بلغات كنانة وخزاعة ونضر وهذيل [٧٩] .

١٨ ـ المُشايِح : الجاد في لغة هذيل ، والمحاذر في لغة أهل نجد [٨٠] .

---

(٧١) قطرب ٢٤٥ وأبو حاتم ١٤٤ وابن الانباري ٤٣ وابو الطيب ٣٧١/١ .

(٧٢) الاصمعي ٤٣ وابن السكيت ١٩٦ وابن الانباري ٢٩٤ وابو الطيب ٣٧٨/١ . والافصاح في فقه اللغة ٢٩٦/١ .

(٧٣) ابن الانبارى ١٧٠ .

(٧٤) الاصمعي ٤٣ وابن السكيت ١٩٧ وابن الانبارى ٢٩٣ .

(٧٥) الاصمعي ٤٤ وابن السكيت ١٩٧ وابن الانبارى ٢٩٤ .

(٧٦) ابو حاتم ١٤٩ وابن الانبارى ٤٢٠ ـ ٤٢١ وأبو الطيب ٥٨٧/٢ .

(٧٧) تاريخ آداب العرب ٢٠١/١ (لم نجدها في كتب الأضداد) .

(٧٨) قطرب ٢٧٨ وابن الانبارى ٣١٩ وابو الطيب ٥١١/٢ .

(٧٩) ابو حاتم ٨١ وابن الانباري ١٨ وابو الطيب ٣٠٠/١ .

(٨٠) قطرب ٢٦٨ والاصمعي ٣٩ وابن السكيت ١٩٣ وابو الطيب ٤٠٥/١ .

١٩ ـ العَنْوَة : القهر والطاعة ، والأخير لأهل الحجاز [٨١] .

٢٠ ـ وَثَبَ : قفز وجلس، والثاني في لغةأهل حمير في اليمن[٨٢].

٢١ ـ الجَوْن : الأبيض والأسود ، والثاني في لغة قضاعة [٨٣] .

هذه كل الألفاظ التي ذكرتها كتب الاضداد ومصادر اللغة ناصة على اللهجات التي تقتسم معانيها المتضادة ، ونحن نفترض كما بينا قبلا أن عدد الاضداد التي يمكن أن يرجع بها الى اللهجات أكثر من احدى وعشرين لفظة بكثير ، ولكننا لانستطيع التحكم في ذلك مادامت مصادرنا قد أهملت النصّ على هذه الناحية لاسباب ذكرناها سابقا ، ومع ذلك فنحن نقدر أن نرجع بهذه الالفاظ الى أصول واحدة وجذور مشتركة ، ذلك ان اغلب هذا التضاد في المعنى كان اما بين قبيلتين متجاورتين في الموطن ، مما يشعر أن الأصل المعنوى المشترك لابد أن يكون قريبا من كلتيهما في الزمن ، واما بعيدتين الواحدة عن الأخرى بحيث يكون هذا الأصل سحيقا في القدم .

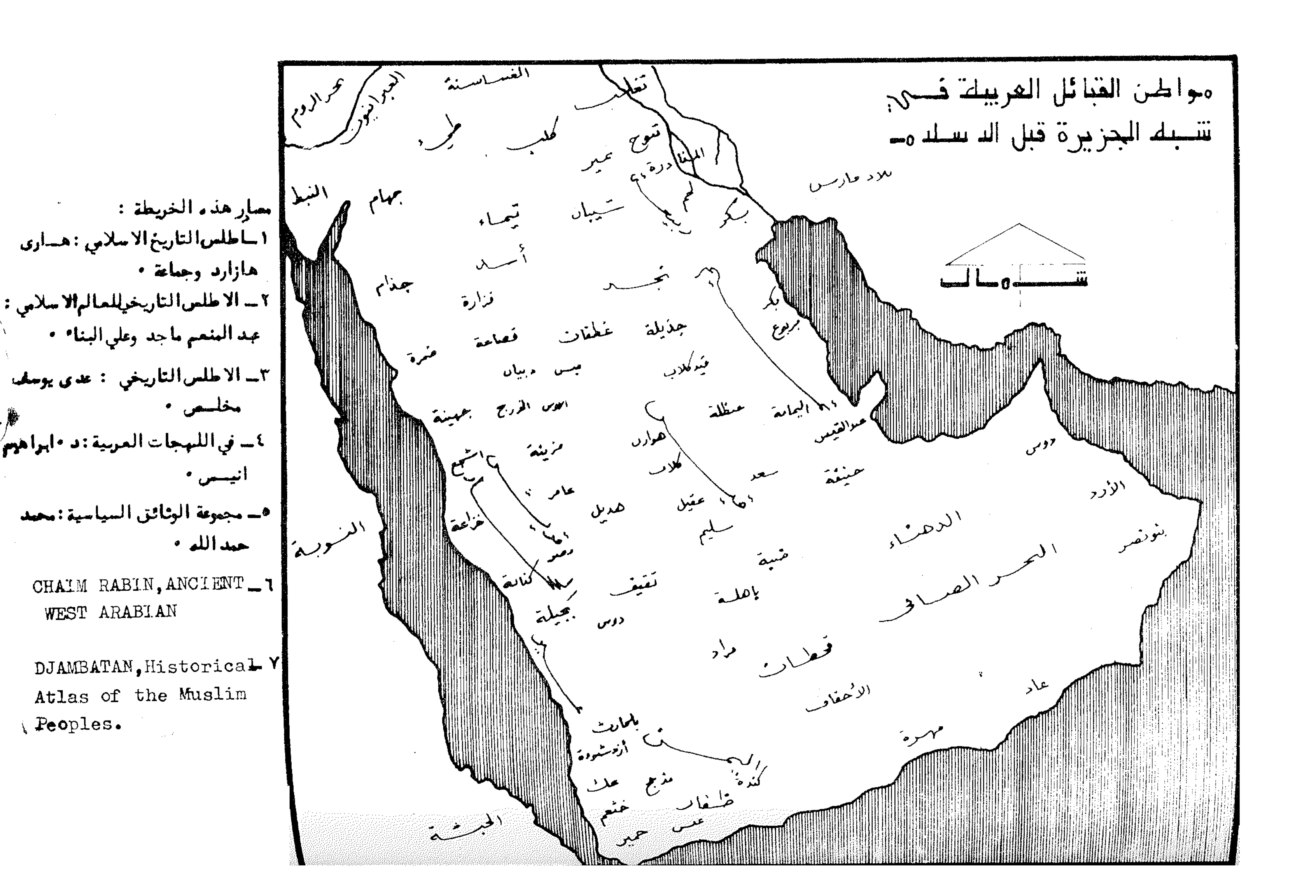
فالبيع والشراء لفظتان كانتا تدلان على الطريقة التي يتم فيها البيع أو الشراء قديما وهي المقايضة وتبادل الحاجات والسلع ، بحيث يصح اطلاق لفظ البائع على كلا المتبادلين ، كما يصح اطلاق المشترى على كليهما أيضا ، فلا غرابة ان ترتبط لفظة البيع عند قبيلة من القبائل بمفهوم الشراء الشائع أو ترتبط لفظة الشراء عند قبيلة اخرى بمفهوم البيع الشائع ، لهذا كان البيع بمعنى الشراء عند تميم وربيعة وهما قبيلتان متجاورتان في شرق الجزيرة ، وكان الشراء بمعنى البيع عند غاضرة وهي حي من بني أسد الذين يتوسطون شمال الجزيرة بشيء من الميل نحو غربها (انظر الخريطة)

---

(٨١) ابو حاتم ١٢٦ وابو الطيب ٢/٤٩١ .

(٨٢) قطرب ٢٦٤ والاصمعي ٤٥ وابن السكيت ١٩٩ وابن الانبارى ٩١ ، وانظر : تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة ٧٢ .

(٨٣) قطرب ٢٥٦ وأبو الطيب ١/١٥١ .



مصادر هذه الخريطة :

١ ــ اطلس التاريخ الاسلامي : هــاري هازارد وجماعة .

٢ ــ الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي : عبد المنعم ماجد وعلي البناء .

٣ ــ الاطلس التاريخي : عدي يوسف مخلص .

٤ ــ في اللهجات العربية : د . ابراهيم انيس .

٥ ــ مجموعة الوثائق السياسية : محمد حميد الله .

٦ ــ CHAIM RABIN, ANCIENT WEST ARABIAN

٧ ــ DJAMBATAN, Historical Atlas of the Muslim Peoples.

فموطن هذه القبيلة بعيد عن موطن تلكما القبيلتين ، ولهذا كان تخصيص الدلالة مختلفا بينهما •

وكذلك الرجاء والخوف والمبالاة فهي في حقيقتها مشاعر واحدة ، ففي كل رجاء مبالاة وخوف من عدم تحقق الشيء المرجو ، وفي كل خوف رجاء في الخلاص منه ، وفي كل رجاء وخوف مبالاة واهتمام ، لهذا كانت هذه المعاني العاطفية شيئا واحدا في نفس الانسان لا يمكن له ان يفصلها ؛ الا أن تكون طبيعة قبيلة من القبائل وجبلة أفرادها الفطرية هي التي تعمق الاحساس بالخوف في ساعة الرجاء ، فتنصرف لفظة الرجاء بمرور الزمن عند هؤلاء الى معنى الخوف وحده ، والعكس صحيح أيضا اذ تكون في هذه الطبيعة قدرة على أن تبلور الاحساس على شكل صمود نفسي وتحمل ، فيكون معنى (لم أرجُ) : لم أبال • ولهذا كانت القبائل الآخذة بهذا المعنى الاخير متقاربة فيما بينها بحيث تصطف خزاعة وكنانة ونضر وهذيل في غرب الجزيرة العربية على ساحل البحر من اقليم الحجاز (انظر الخريطة)، وهذا القرب يقوى أن تكون عوامل الاتصال المختلفة متوفرة بحيث تساعد على نمو روح متشابهة ونفسية متقاربة الخصائص بين أفراد هذه القبائل •

ولقرب قيس من أسد اتفقتا على معنى (المعصر) ، وخالفتهما أزد لبعدها عنهما (انظر الخريطة) ، فعند الاولين بمعنى التي دنت من الحيض ، وعند الاخرى بمعنى التي تعنست ، ونحن وان كنا نلمح الصلّة المعنوية بين الدلالتين وتداخلهما ، فالدنو من الحيض يستتبعه عبور زمن الحيض وهو التعنس ، الا ان الشيء الذي نريد ملاحظته هو اتفاق القريبتين على تخصيص المعنى ومخالفة البعيدة بذهابها الى تخصيصه من الناحية الثانية • ومثلها (السُّدفَة) خصصت تميم معناها بالظلمة وخصصتها قيس بالضوء ، وهو في الاصل معنى جامع للمعنيين لان السُّدفة هي اختلاط الضوء بالظلمة – كما سيجيء بيان ذلك فيما بعد – والسبب في ذلك ايضا بعد

القبيلتين الواحدة عن الاخرى بشكل يجعل كلا منهما بيئة لغوية مستقلة.
وشبيه بهذا (لَمَق) التي هي بمعنى كَتَبَ عند عقيل، وبمعنى مَحا عند قيس وعقيل من قيس ، لان قيسا كانت تشمل عدة قبائل منها هوازن وكلاب وعقيل وغيرها (انظر الخريطة) ، فاختصاص عقيل من بين أخواتها بهذا المعنى قد يوحي بشدة انعزالها عن (سائر قيس) كما يعبر القدماء ، وقد يكون ابدال اللام من النون هو سبب هذا التضاد لان (نَمَق) بمعنى كتب بلا خلاف ، وان من التجوز ان تعد عقيل بيئة لغوية مستقلة ، وذلك لقرب موطنها من مواطن قيس .

أما تفرد طيء بمعنى الانتصاب في مادة (السُجود) فهو من قبيل جريان العرف في تحديد الدلالة ، وليس معنى مضادا كما يبدو لان معنى الفعل في الاصل هو (الخضوع) ومنه خضوع المصلي الذي عبر عنه بالسجود ، واصطلح على الانحناء والتطامن ووضع الجبهة على الارض بالسجود لما يحمل هذا من عمق معنى الخضوع ، وقد يكون هناك انتصاب وخضوع في نفس الوقت ، وهو الذي جرى عليه عرف الطائيين ، فهم اذا خضعوا لملك أو آسر انتصبوا له ولم ينحنوا أو يتطامنوا الى الارض . لهذا يكون الاصل واحدا في كلا المعنيين وانما الذي جعل من اللفظة ضدا هو اختلاف العادة في طريقة الخضوع ليس غير . والى هذا المعنى اشار الزبيدي في التاج ناقلا عن شيخه انه لاتضاد بين الخضوع والانتصاب[84].
يضاف الى ذلك ان الفعل موجود في اللغات السامية ([illegible])، والظاهر ان معناه في جميعها (خَضَعَ) ، وتخصصت دلالته في العربية بالانحناء بعد الاسلام على الارجح ، لان الاستعمال القرآني للفعل لايمحض المعنى للانحناء، فالسجود لآدم هو بمعنى الخضوع له لا الانحناء والتطامن؛ لان الانحناء المعروف في الصلاة الذي اطلق عليه لفظة السجود هو لله

---

(٨٤) تاج العروس (سجد) ١٧٢/٨ .

وحده ، ومما يقوى هذا ان السجود الاسلامي غير معروف لدى الاقـوام السامية حتى في شعائرهم الدينية ، لان الخضوع في هذه الشعائـر يكون بالوقوف الخاشع والانتصاب الروحاني كما هو معروف •

واما (القَلْت) فالصواب أن يقال في معناها أنها النقرة صغرت أم كبرت ، أما انها عند أهل الحجاز الكبيرة وعندتميم وقيس وأسدالصغيرة، فهذا لايخلق من اللفظة ضدا ، لان الامر راجع الى اختلاف الخصائـص الجغرافية والجيولوجية في البيئات العربية ، اذ أن هـذه القلات تنشـأ بفعل المياه النازلة من أعلى الجبل فتتكون بمرور الزمن وبتآكل الصخـر حفر صغيرة تتسع شيئا فشيئا حتى تصل في الحجاز الى السعة التى يمكن أن يغرق فيها فيل كما يقولون • فاذا كانت الطبيعة الجغرافية في جبال الحجاز قد جعلت من صخورها أهش وأطرى مما هي عليه في جبال تميم وقيس وأسد ، يكون فعل المياه في هذه الصخور أشد وتكون القلات أكبر ، وكلما كانت الصخور أصلب وأقسى كانت القلات أصغر وأضيق ، ولهذا اطلق الحجازيون لفظة (القَلْت) على نقرتهم ، وأطلق التميميون والقيسيون وبنو أسد اللفظة على نقرتهم ، وعندما جمعت هذه الى تلك وضاعت النظرة الدقيقة ، نشأ ما يوهم بالتضاد وهو في الاصل شيء واحد •

وطيء بحكم تطرفها الى الشمال الغربي من الجزيرة قريبة من مواطن الساميين هناك ، فلا يبعد أن احتكت لهجتها بلغاتهم وتأثرت بها ، مع مـا احتفظت به من الاصول السامية ، فلفظة (عَيِّن) التي قالوا انها عند عامة العرب تعني الخلق ، وعند طيء تعني الجديد ، هي نفسها لفظة ([illegible]) العبرية التي تعني العين والنبع والغالي والجديد وما الى ذلك مما تنصرف اليه لفظة (العَيْن) العربية التي عدت من المشترك اللفظي ، فمن المحتمل ان تكون طي قد احتفظت او تأثرت بهذا التشديد في الياء من لفظة (عَيِّن) باللغـة العبرية المتاخمـة • وكذلك مـادة (السّـامِد) التي عُـدّت من

الاضداد ، وقيل انها عند طيء بمعنى الحزين وعنـــد أهل اليمن بمعنى اللاَهي[٨٥] ، وقد يبدو لاول وهلة بعد الصلة بين البيتين اللتين تطرفت الأولى منهما الى الشمال ، وتطرفت الاخرى الى الجنوب ، ولكن بعـــد ملاحظة ما قلناه من تأثر طيء باللغات السامية القريبة منها ، وبعد تذكر ان في اليمن لغات سامية قديمة كالحميرية والمعينية والسبئية وغيرها ، وهي وان كانت قريبة من العربية قربا شديدا الا انها شيء مختلف عن العربية ، ولا يتصل بها الا في الجذر السامي ، علما بأن كثيرا من الاستعمالات كانت تنسب لطيء واليمن في الوقت عينه[٨٦] ، بعد هذا ندرك انه لابد أن يكون هناك جامع ما بين المعنيين في السامية الأم ، وهذا المعنى المشترك للفعـــــل (سَمَدَ) ينتزع من جملة معان تدور حول (قام بالعمل ، عمد اليـه ، قصد اليه ، دأب فيه) وهي معان موجودة في العربية والعبرية ، اذ نقول في العربيَّة: سَمَدَ الرجل : دَأب ، وسَمَدَت الابل ، َجدّت ، ونقول في العبرية : (שָׁמַד) (شَمِد) : عَمَدَ الى ، و (שְׁמַד) قصد . فالجذر اللغوى مشترك بين اللغتين وقديم فيهما ، فاذا رجعنا الى الفصل في العبرية ، وجدنا أن اللغة اشتقت من أصليه (الشين والميم أو السين والميم) ـــ على نحو ما نسميه في العربية بالاشتقاق الكبير ـ معـــاني كثيرة بابدال الاصل الثالث وهو الدال ، فقالت : (שָׂמַח) : فرح ، طرب ، لها ، غنى ، و (שָׁמַם) : انذهل ، تخرب ، بهت ، حزن ، فيكون الحرف الثالث منوعا للمعنى بشكل عده اللغويون العرب تضادا في الاستعمال العربي ، فاذا كانت طيء قد تأثرت بالاشتقاق الثاني وأخـــذت منه معنى (حَزنَ) ولم تبدل الاصل الثالث ، وكانت اللغات اليمنيـة قـــد تأثرت

---

(٨٥) انظر : تأثر العربية باللغات اليمنية ٥٣ .

(٨٦) انظر : تأثر العربية باللغات اليمنية مادة (أم) ص ٣١ ومادة (ذو) ص ٤٧ .

بالاشتقاق الاول وأخذت منه معنى (لَهـا) ولم تبـدل الحرف الثالث ، انجمع في الفعل معنيين اعتبرهما الاضداديون مما تنصرف اليهما اللفظـة انصرافا مضادا ، على ان اللغات العربية واليمنية استعملت سائر المعـاني الاخرى التي حصلت من اشتقاق اللفظتين من الاصل السامي القديم ، ففي العربية : سمد : قام متحيرا ، بهت ، وفي اللغات اليمنية : « السمود : الغناء بالحميرية ، يقولون : ياجارية اسمدى لنا أى غني لنا (٨٧) » .

وبمثل هذه المحاولات من الربط بين المعاني والرجـوع بهـا الى اصولها اللغوية تنكشف حقائق كثيرة ، كانت خافية على الدارسين لعدم اهتمامهم بهذا الجانب من الدرس اللغوى الذى يقوم على دراسة اللهجات وأثر اللغات المجاورة فيها ، ومايمكن أن توضحه دراسة الأسر اللغويـة من تفسير لبعض الظواهر اللغوية ، لأن اللغات التي تنتمي الى ارومـة واحدة تتشابه في كثير من ظواهرها اللغوية ودلالاتها ومفرداتها ، فدراسة لغات الاسرة الواحدة تنير الطريق لدراسة ظواهر كل منها دراسة علمية متكاملة . حتى ان قسما من علمائنا القدامى كان يصل الى علمهم شيء من هذا ولكنهم يهملونه ويتجاهلونه ، يقول أحدهم : « صارَ حـرف مـن الاضداد . يقال : صُرت الشيء اذا جَمعته ، وصُرته اذا قَطعته وفرّقته، وفسر الناس قول الله عز وجل (فصُرهُنَّ اِليكَ) على ضربين : فقال ابن عباس : معناه قطعهن ، وقال غيره : معناه ضُمَّهنّ اليك ... وقال بعض المفسـرين : صُرهن معنـاه : قطع أجنحتهن ، وأصله بالنبطيّـة : صرِيَة . ويحكى هذا عن مقاتل بن سليمان . فان كان أثر هذا عن أحد الائمة ، فانه مما اتفقت فيه لغة العرب ولغة النَبَط » (٨٨) . ومثل هـذا اعتبارهم الفعل (وَثَب) من الاضداد يكون للقفز وللقعود ، مدللين عـلى

---

(٨٧) ابن الانبارى ٤٤ .

(٨٨) ابن الانبارى ٣٦ـ٣٨ .

ضديته بالقصة التي تناقلتها المصادر المعنية بانه : « خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة الى ذى جدن ، فأطلع الى سطح والملك عليه ، فلمّا رآه الملك اختبره فقال له : ثب أى أقعد . فقال : ليعلم الملك اني سامع مطيع ثم وثب من السطح . فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا : أبيت اللعن ان الوثب في كلام نزار الطفر . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من ظَفَر حَمّر ، أى من أراد أن يقيم بظفار فليتكلم بالحميرية »[89] . والفعل (יָשַׁב) موجود في العبرية بمعنى جلس أو أقام ، والظاهر أنه هو المعنى السامي القديم ، فكأن هؤلاء العلماء كانوا يستخدمون مايعرفونه من معاني المفردات في اللهجات أو اللغات استخداما عكسيا ، فبدل أن تكون هذه المعرفة اداة تفسير والغاء لما يزعم من تضاد المعاني وتقابلها ، تكون لاثبات ذلك وتدعيمه والدلالة عليه ، وربما لو كانوا يعرفون اكثر مما عرفوا لكنا الآن في حرج كبير ، فلو وصلهم مثلا أن لفظة (סִלְסֵל) تعني في العبرية : الشَّعر الجعد ، لقالوا انها من الأضداد لأن (سَلسَل) في العربية قد تشير الى الشَّعر السبط ، ومثلها (סִלּוּף) التي تعني في العبرية : ضلال أو فساد ، فقد ترتبط لفظة (سلوك) في العربية بالهداية والصلاح ، لأن اللفظة يمكن أن تختص بأحد المعنيين وتشتهر فيه ، والرجوع الى المعجم السامي قد يهدى الى كثير من امثال هذه الالفاظ التى يمكن ان تستخدم هذا الاستخدام .

ومن الامثلة العملية على ذلك غير التي ذكرنا لفظة (بَسْل) التي قالوا انها من الأضداد تعني الحلال وتعني الحرام[90] واستشهدوا على

---

(٨٩) المزهر ١/٣٩٦ والقصة في ابن الانبارى ٩٢ .

(٩٠) ابو حاتم ١٠٤ وابن الانبارى ٦٣ وابو الطيب ١/٣٢ ونوادر ابي زيد ٤ والالفاظ الكتابية ١٠٧ واعراب ثلاثين سورة ٣٦ والفاضل ٧٩ وامالي القالي ٢/٢٧٩ .

ذلك بأبيات لايتضح فيها أحد المعنيين بسهولة كقول زهير بن أبي سلمى :

بلادٌ بها نادمتُهم وعرفتُهم فإن أوحشَت منهم فإنهم بَسْلُ

يقول ابن الانبارى معلقا : أراد حرام . وهو تفسير بعيد ، اذ لامعنى لقوله : فان أوحشت منهم فانهم حرام . والظاهر أن المعنى الأصلي للفظة هو (الجزاء او المثوبة) وبفعل تطور الدلالة تخصص المعنى في الاستعمال على صور عدة بها يمكن أن يفسر معنيا الحلال والحرام في الشواهد التي سيقت في هذا المجال . ومما يقوى أن تكون (بَسْل) بمعنى الجزاء أو المثوبة استعمالها في العربية بمعنى (آمين) السامية التي تعني (اللهم استجب) واستشهدوا لهذا بقول الشاعر :

لا خابَ من نفعِكَ من رجاكا بَسْلاً وعادى الله من عاداكا (٩١)

وقالوا : انه يقال بعد قراءة الدعاء : بسلاً بسلاً أى آمين آمين ، فيكون على ما قدرناه من معناها كأنه قيل : اللهم جزاء ومثوبة ، اذ لامعنى لأن يقال هنا : حلالا حلالا أو حراما حراما كما حدد ذلك الأضداديون . ثم لما كان الجزاء هو نتيجة العمل وثمرته ، نجد أن المعنى تطور في العبرية الى الايناع والاثمار والنضج فالفعل (בָּשַׁל) يعني : أينع ، أثمر ، نضج ، ومن هذه المعاني صارت اللفظة تعني (طَبَخ) ايضا لقرب مجال الدلالة بين النضج والطبخ . اذن فاللفظة سامية وجذرها موجود في العبرية ايضا ، وهي شبيهة بلفظة (آمين) من حيث المعنى والجمود لغرابتهما عن العربية ، يقول أبو حاتم : « يقال للواحد والاثنين والجماعة والمؤنث والمذكر : بَسْل ، بلفظ الواحد » (٩٢) . ولعل مادة (بَلّ)

---

(٩١) ابن الانبارى ٦٣ .

(٩٢) أمالي القالي ٢/٢٧٩ ونوادر ابي زيد ٣ .

بالّلام المشددة التي تعني (مباح) في اللغات اليمنية لها صلة بلفظة (بَسْل) بأن فك التشديد بالسين [٩٣] • ولكن ذلك لم يكن من عمل القدماء ولا من اهتمامهم وانما كانت الجهود منصبة على تصيد التضاد في الالفاظ بأية وسيلة من الوسائل •

ومن هذه الالفاظ التي ورثتها اللغات السامية عن اللغة الام لفظة (الجَوْن) التي قالوا انها من الاضداد في العربية تكون للأبيض وتكون للأسود [٩٤] • الا انه يظهر من تتبع هذه اللفظة انها كانت تعني في السامية القديمة معنى مطلقا عاما هو (اللون) تخصص في العربية أول الأمر لاختلاط السواد والبياض ثم للأسود وحده وللابيض وحده ، فنقل على انه من الأضداد ، بالرغم من وجود استعمالات في العربية تصرف اللفظة الى معنى الأخضر والأحمر والأدهم وغيرها ، بل تدل نصوص في العربية على استعمال (الجون) بمعنى اللون مطلقا ، كقول النبي يسأل أصحابه في سحابة مرّت فوقهم : « فكيفَ تَرونَ جَونَها ؟ قالوا : ما أحسَنَه وأشدَّ سَواده » [٩٥] • فلا يمكن أن يكون النبي (ص) قد قال: فكيف ترون سوادها أو بياضها ، فقالوا : ما أحسنه وأشد سواده ، لانه أراد معنى اللون المطلق [٩٦] • يدعم ذلك معناها في العبرية فلفظة (גוון) تعني (تلوين) ، وكذلك في السريانية فلفظة (ܓܘܢܐ) تعني (لون) أيضا ، وهكذا يظهر أن الجذر سامي مشترك ، وكان يحمل

---

(٩٣) انظر : تأثر العربية باللغات اليمنية ٣٤ •

(٩٤) ابن الانبارى ١١١ وابو الطيب ١/١٥١ والغريب المصنف ٥١٩ والمزهر ١/٣٩٠ وفقه اللغة للثعالبي ٥٦٥ واmالي القالي ١/٩ ومعاني الشعر ١٤ ، ١٣٦ والابل للاصمعي ١٢٧ وكليات مختلفة لغوية (مخطوط) ١١٧ •

(٩٥) امالي القالي ١/٩ •

(٩٦) انظر : القاموس المحيط ج ٤ مادة (جون) •

معنى عاما تخصص في بعض اللهجات العربية بالأسود أو الأبيض في الأكثر وبالأخضر والأحمر والادهم في الاقل ، اضف الى ذلك ان الالوان بصورة عامة كانت تتصرف فيما بينها انصرافا اعتباطيا ، فقد يعني الأحمر الاسود ، وقد يعني الاصفر الاسود وبالعكس ، وابو حاتم يقول في التعليق على قول الشاعر :

على كلّ خوّارٍ كأنّ جذوعَها طُلين بزفتٍ أو بحمأةِ سابحِ

« وقوله طلين بزفتٍ أي أخضر . والأخضر عند العرب : الاسود » [٩٧] . ومهما يكن فالجون لفظة سامية قديمة ذات دلالة عامة تخصصت في البيئات المختلفة ، ولا وجه لاعتبارها معربة عن الفارسية كما ذهب أحد الباحثين الى ذلك [٩٨] .

ومن المؤكد أن أمر العربية من اللغات السامية شبيه بأمرها من الفارسية ، بفارق واحد هو انها مع الساميات تشترك ارومة وجذورا لغوية، ولكنها مع الفارسية تتلاقح وتتداخل ، ذلك ان الفارسية بحكم متاخمتها للعربية تأثرت بها كثيرا واثرت فيها كذلك ، ودخلت العربية من جراء هذا الاحتكاك الفاظ كثيرة جرى الاستعمال ببعضها ولم يجر بالبعض الآخر مثل (الفُرُزّ) و (الفُرْهُد) و (المائدَة) وغيرها [٩٩] . وقد نصت المعجمات اللغوية القديمة على طائفة من هذه الالفاظ المعرّبة والدخيلة وقالوا : فارسي معرّب . وأول هذه المعجمات (العَين) ففيه نص على الفاظ أنها معربة عن الفارسية [١٠٠] . والذى يهمنا هنا هو ما يتصل بالأضداد ، فقد ذكروا ان الفعل (زَبَر) من الأضداد يعني كتب ويعني

---

(٩٧) كتاب النخل للسجستاني (مخطوط) ٣٣ .
(٩٨) ادى شير : **الالفاظ الفارسية المعربة** ٤٩ .
(٩٩) انظر : **الالفاظ الفارسية المعربة** : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٨ـ١٤٩ .
(١٠٠) انظر مثلا ص ٣٦٩ من العين للخليل .

قرأ ، ويبدو أن المعنى الأول جاء من زبر المبدلة من (ذَبَر) بالذال التي قالوا انها بمعنى كتب لاغير ، مختلطا مع (زَبَر) الفارسية التي تعني قرأ أو حفظ غيبا (١٠١) ، فحصل من ذلك ان اجتمع المعنيان في (زَبَر) بهذه الطريقة من التداخل ، وقد يكون من الغريب أن نجد معنى قرأ الذى استفدناه من الفارسية هو في لغة أهل اليمن ، واليمنيون يسمّون كل كتاب (زَبرا) (١٠٢) ، وبين اليمن وفارس بون بعيد ، ولكننا نستطيع أن نرجع به في هذه الحالة الى الفعل (דִּבֵּר) العبري والذي يعني : تكلم ، تحدث ، خطب ، وما الى ذلك مما يتصل بمعنى القراءة والحفظ غيبا ، فيكون الاستعمال اليمني استعمال سامي ، وهو غير الاستعمال الذى ولّد اختلاط الفعل (زَبَر) بمعنى كتب ، بالفعل الفارسي (زبر) بمعنى قرأ غيبا . ثم تطورت دلالة اللفظة فصارت تعني الانتهاء والعقل وطي البئر وغير ذلك (١٠٣) .

واذا صح أن نتوسل بدراسة اللغات السامية أو اللغات المتاخمة للعربية في محاولة للوصول الى الجذور اللغوية المشتركة والالفاظ الدخيلة، والوقوف من هذا كله على أصول عربيتنا القديمة فينبغي أن يتم ذلك دون تعسف وقسر ، فقد قلنا ان العربية لغة سامية ، فمن الطبيعي ان يلتفت الى روابطها باللغات السامية وقلنا ان العربية جاورت الفارسية منذ القدم والى اليوم فمن الطبيعي أيضا أن يلتفت الى آثار هذا التجاور ، أما أن يكون الابتعاد في هذا المجال حتى تلتمس وحدة الجذور اللغوية بين العربية والانكليزية مثلا فهذا أمر واضح التكلف ، فحينما ذكر الاقدمون ضدية

---

(١٠١) الالفاظ الفارسية المعربة ٦٩ .

(١٠٢) تأثر العربية باللغات اليمنية ٥١ .

(١٠٣) المأثور لابي العميثل ٢٨ـ٢٩ .

الفعل (باعَ) وانه يعني البيع والشراء (١٠٤) . راح أحد الباحثين يعلل ذلك بقوله : « باعَ يفيد في لغتنا معنيين ، معنى اعطى رجلا مايملكه بدل ثمن يقبضه ، ومعنى اشترى شيئا من رجل ، فباع بالمعنى الثاني هذا يقابله بالانكليزيـــة (To buy) وهي تلفظ كالعربية مـا خلا العين ، فانهـا ليست في لغتهم ، لأنها من أحرف الحلق ، والا" فانها تلفظ (باى)والمعنى واحد » (١٠٥) . وفي هذا التوسل كما قلنا بعد ، فأن تتفق لغتان من لغات البشر على لفظ كلمة معينة بنطق متشابه ، لايعني تأثر احداهما بالاخرى أو اتفاقهما على الاصل المعنوى لهذه الكلمة مالم تتوفر الظروف اللغويـــة والبيئية المشتركة بينهما التي تسوغ عقد مثل هذه المقارنة ، فالانكليزيـــة لاتمت للعربية بأية قرابة لغوية ، ولم تتجاور اللغتان حين كان البيـــع يعني الشراء ، واذا كان مدار الأمر أن يتشابه نطق اللفظة لتعقد الصلة بين اللفظتين ، فهناك ألفاظ اخرى كثيرة يمكن أن تعتمد في مثل هذه الحالة .

تطـور الدلالـة وشموليـة المدلـول الاول

مر" علينا في الفصل السابق المعقود لبحث الدلالة ، ان اللفظة العربية تحيا حياة متجددة متغيرة ، شأنها شأن اللفظة في جميع اللغات الانسانيـة الحيّة ذلك ان اللغة باعتبارها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لابد لها من أن تخضع لتطور المجتمع في عقليته وثقافته ووسائل اتاجه المختلفة ، سالكة في ذلك سبلاً عديدة اختلف الدارسون في تحديدها وفي مدى قبولهـــم لنتائجها . والذى نريد ان نقوله هنا أن سنة التطور شملت دلالة مجموعة من الالفاظ متجهة بها اتجاهين متقابلين ، فخلقت منها أضدادا تنصـــرف الواحدة منها الى المعنى وضده في الظاهر ، فتكون اللفظة من هذه الطائفة

---

(١٠٤) ابن الانبارى ٧٣ وابو الطيب ١/٤٠ ومعاني القرآن ١/٥٦ .

(١٠٥) انستاس الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالهـا ص ٧٢ .

ذات دلالة قديمة عامة تشمل المعنيين المتضادين، بحيث يصح أن يكون كل منهما دلالة تلك اللفظة ومعناها القديم ، وهذا ماندعوه بـ (شمولية المدلول الاول) والذى سماه اللغويون القدماء بالتداخل على جهة الاتساع كأبي بكر بن الانبارى [١٠٦] • الا ان علماء الاصول كانوا يصطلحون احيانا على مثل هذه الالفاظ بـ (المشترك المعنوى) مفرقين بينها وبين الفاظ المشترك اللفظي التي صرحوا باستحالة العمل بمقتضاها لعدم العلم بها [١٠٧] • وعلى هذا فالأضداد التي تندرج تحت هذا العنوان ، والتي يمكن أن يستشعر فيها التطور الدلالي بسهولة ، على طائفتين : الأولى هي الالفاظ التي كان لها مدلول عام تطور على جهة التخصيص الى مدلولين متضادين • والثانية هي الالفاظ التي تطورت مدلولاتها وانتقلت الى مجال آخر لعلاقة مكانية أو سببية بين المدلولين فكانت من الاضداد • ومن أمثلة الطائفة الاولى :

١ ـ القُرْء : للطهر والحيض [١٠٨] • والظاهر ان المدلول الاول للفظة هو (الوقت) كما صرح بذلك ابو عمرو بن العلاء فقال: « انما القرء الوقت فقد يجوز أن يكون وقتا للطهر ووقتا للحيض ، وأقرأت الرياح هبّت لوقتها ، والقارىء الوقت ، وقال مالك بن الحارث الهذلي :

كرهتُ العَقْرَ عَقْرَ بَني شَلَيلٍ   اذا هبَّت لقارِئها الرّياحُ

وأنشد أبو عمرو هذاالبيت، أى هبّت الرياح لوقتها فيالشتاء». [١٠٩]

ويبدو من كلام أبي عمرو أنه لا يرى اعتبار اللفظة من الأضداد ، وذلك

---

(١٠٦) ابن الانبارى ٨ •

(١٠٧) الاصول للخضرى ١٧٦ عن مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ٢٤٣/٢ •

(١٠٨) ابن الانبارى ٢٧ وابو الطيب ٥٧١/٢ وفقه اللغة للثعالبي ٥٦٥ •

(١٠٩) الاصمعي ٥ وابن السكيت ١٦٤ •

لتأكيده معنى الوقت فيها ، بحيث ادى شمول هذا المدلول الى أن يصدق على طهر المرأة وحيضها ، لأن كليهما وقت معتاد تعرفه هي • فتخصص عند فقهاء العراق بمعنى الحيض وعند فقهاء الحجاز بمعنى الطهر ، وغاب هذا المعنى العام عنهم جميعا ، فبنوا أحكامهم المختلفة تبعا لاختلاف الدلالتين الخاصتين كما هو مفصل في كتبهم ، وتبعهم في ذلك الاضداديون •

٢ ـ الصَّريم : لليل والنهار [(١١٠)] • والمدلول الاول لهذه المادة على ما بينه قطرب هو (المنقطع) ، قال : « ومن ذلك يقال : صَريم الزمان أى منقطع من معظمه ، ومنه يقال : الصِّرْمَة من البيوت أى القطعة ، ومنه يقال : صرْمَة من الابل ، ومنه يقال : صرم مابيني وبينه أى قَطَعَهُ ، ومنه يقال : سيف صارم ، ومنه يقال : صَرَمَ الناس النخل ، ومنه يقال : صريمتي أى بذمي وقطعي الأمر» [(١١١)]• قال ابن الانباري: «فمن ذلك: الصَّريم ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد، وهو القطع» [(١١٢)]• فعلى هذا تكون الدلالة قد تخصصت بالليل مرة وبالنهار أخرى ، لأن كلا منهما ينقطع عن صاحبه ، فيصح على كلا المنقطعين أن يقال (صَريم) ، وبهذا الشكل من النظر نستطيع معرفة منشأ التضاد في هذه اللفظة ، وهو منشأ ولده تطور الدلالة عن طريق التخصيص • ولا وجه لقول أحدهم في هذا الصدد : « وهذا المذهب كما ترى جدلي ، ونظن القائلين به من علماء الكلام» [(١١٣)]• فلا أثر للجدل فيه ولا القائلون به من علماء الكلام، فهل

---

(١١٠) ابن الانباري ٨٤ وابو الطيب ١/٤٢٦ والاصمعي ٤٢ وابو حاتم ١٠٥ وابن السكيت ١٩٥ والصغاني ٢٣٥ وقطرب ٢٦٦ وادب الكاتب ١٦١ وفقه اللغة للثعالبي ٥٦٥ والغريب المصنف ٥٢٠ والمزهر ١/٣٩٠ ولطائف اللغة ١٤٧ •

(١١١) قطرب ٢٦٦ •

(١١٢) ابن الانباري ٨ وانظر : فقه اللغة للثعالبي ٤٦٨ •

(١١٣) الرافعي : تاريخ آداب العرب ١/١٩٨ •

البحث في الدلالة القديمة للفظ ودراسة تطور هذه الدلالة وتخصصها في معنيين متضادين ، يسمّى جدلا أو كلاما ؟ والدرس اللغوى الحديث أقرّ هذه النظرة وتوسّع فيها كثيرا ، ثم هل أثر عن قطرب وابن الانبارى وهما أول من أشارا الى هذه الناحية كما نقلنا ذلك ، هل أثر عنهما انهما من الجدليين أو الكلاميين ؟ فالاول ـ على اجمال قوله وعفويته ـ لم يعاصر تضخم الدراسات الكلامية والفلسفية بعد ، صحيح انه تأثر بها في منهجه النحوى على يد سيبويه ، الا ّ انه لم يكن من (علماء الكلام) على حد تعبير الاستاذ الباحث • أما ابن الانبارى فكان بحكم منهجه المدرسي وتلمذته لثعلب وتلقيه علوم الكوفيين ، أبعد مايكون عن الجدل والكلام خصوصا في دراسته اللغوية والنحوية •

٣ ـ السُّدْفَة : للضوء والظلمة (١١٤) • وقد مرّ في الكلام على اللهجات ان المعنيين لغتان لقبيلتين ، وانهما يرجعان الى معنى عام هو اختلاط الضوء بالظلمة ، ثم تحدد معناها وتخصص عند القبيلتين ، لان المدلول الأول كان يشمل المعنيين المتضادين • ثم بفعل تطور الدلالة عن طريق انتقال مجالها صارت السُّدفَة تعنى الباب أو السترة التي على الباب ، وذلك لانهما يمنعان شدة الضوء ويشفان عنه ، فيكون من الداخل حال بين الضوء والظلمة (١١٥) • ثم استعمل منه الفعل (أسْدِفْ) أى تَنَحَّ عن الضوء، تقال للواقف على الباب يسدّ النور الداخل منها الى البيت المظلم ، تقال له لكي يدخل ضوء فتكون سُدفَة• ومما يؤكد ان المدلول الأول كان يعني اختلاط الضوء بالظلمة انهم كانوا يطلقون السدفة على الفجر لاختلاط بقايا ظلام

---

(١١٤) الاصمعي ٣٥ وابن السكيت ١٨٩ وابن الانبارى ١١٤ وابو الطيب ١/٣٤٦ والغريب المصنف ٥١٨ والمزهر ١/٣٨٩ ولطائف اللغة ١٤٧ وابدال ابي الطيب ١/١٥٥ ومجالس ثعلب ٢/٤٢٠ ونوادر أبي زيد ١٧٧ وأدب الكاتب ١٦١ـ١٦٢ وكليات مختلفة لغوية (مخطوط) ١١٧ •
(١١٥) ابدال ابي الطيب ١/٣٨١ •

الليل بأول ضوء الصبح كما نقل ذلك ابن قتيبة [116] . قال الشاعر :

قد أسْدَفَ الليّلُ وصاحَ الحِنْزابْ

والحنزاب هو الديك ، وهو يصيح في الفجر حين يسدف الليل ويختلط ظلامه بضوء النهار ، وقال ابن مقبل :

وليلةٍ قد جَعلتُ الصُّبح موعدَها بصُدرةِ العنس حتى تعرفَ السَّدفا

قال ابن الانبارى في تفسيره : « العنس : الناقة . ومعنى البيت اني كلفت هذه الناقة السير الى أن يبدو الضوء وتراه »[117] . وهو أمر لا يتحقق الا فجرا . وهكذا نجد أن معنيي الظلمة والضوء ماهما الا نصفا المعنى الشامل ، بافتراقهما يكون التضاد الذى وجدناه في (السدفة) .

٤ ـ عَسْعَسَ : اقبل وأدبر [118] . وذلك في قوله تعالى : (والليل اذا عسعس) [119] ، والمعنيان كما يبدو يرجعان الى المعنى الشامل وهو (أظلم) أو (رَقّت ظلمته). قال ابوحاتم يناقش الشواهد التي ذُكرت لمعنى الاقبال ومعنى الادبار : « ولا اظن ها هنا معنى اكثر من الاسوداد ، عسعس : أظلم واسود في جميع ما ذكر » [120] . وقال ابن دريد : « عسعس الليل ، اذا رقت ظلمته ، وكذلك فسر في التنزيل[121] » ومثل ذلك ماقال الصّاحب بن عباد في معجمه[122]. وبيان ذلك ان الليل يرق ظلامه في أوله وآخره ، أي عندما ينصرم منه النهار فيقبل ، وعندما ينصرم

(١١٦) ادب الكاتب ١٦٢ .
(١١٧) ابن الانبارى ١١٤ .
(١١٨) قطرب ٢٦٦ وابو الطيب ٢/٤٨٨ والاصمعي ٨ وابن السكيت ١٦٧ وابو حاتم ٩٧ والصغاني ٢٣٩ .
(١١٩) التكوير ١٧ .
(١٢٠) ابو حاتم ٩٨ .
(١٢١) الاشتقاق ٢٤٨ .
(١٢٢) المحيط في اللغة ق ٢ ب .

هو من النهار فيدبر، فرقة الظلمة متحققة في الاقبال والادبار، والتخصيص انما حدث بعد ذلك ، ولعله منذ تفسير القرآن .

٥ ـ الجَون : للاسود والابيض[١٢٣] . وقد مرّ ان اللفظة تعني في اللغات السامية (اللون) مطلقا ، وكثر استعمالها في العربية منصرفة الى الابيض والاسود ، الاّ انه يظهر من بعض الاشارات ان اللونين الابيض والاسود كانا يرجعان الى معنى يشملهما جميعا ، بحيث يكون اطلاق (الجون) على الشيء الذي يتوفر فيه السواد والبياض ، من ذلك تسمية الحمار الوحشي بالجون[١٢٤] ، لاختلاط السواد والبياض في جلده . وأبو الجون : « هو النمر للسواد والبياض الذي فيه » [١٢٥] فيكون تخصيص دلالة (الجون) في العربية قد مرّ بمرحلتين : الاولى انتقلت فيها الدلالة من معنى اللون المطلق الى معنى اخص هو اختلاط البياض بالسواد والثانية انتقلت فيها الدلالة من معنى اختلاط البياض بالسواد الى معنيين متضادين كل منهما أخص من معنى اختلاطهما هما الاسود والابيض .

٦ ـ الصّارخ : المغيث والمستغيث[١٢٦] . يقول ابن الانباري : « سُمّيا بذلك لان المغيث يصرخ بالاغاثة ، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد » [١٢٧] . فالصراخ متحقق في الاثنين بل متحقق

---

(١٢٣) ابن الانبارى ١١١ وابو الطيب ١/١٥١ والغريب المصنف ٥١٩ ومعاني الشعر ١٣٦ وابل الاصمعي ١٢٧ ومجالس ثعلب ١/٣٠٦ ، ٢/٦١٤ وادب الكاتب ١٦١ وفقه اللغة للثعالبي ٤٦٨ وشمس العلوم للحميرى ٢/٣٧١ .

(١٢٤) اشتقاق ابن دريد ٢٢٤ .

(١٢٥) المرصع لابن الاثير ١٢١ .

(١٢٦) قطرب ٢٧٣ والاصمعي ٥٣ وابو حاتم ١٠٤ وابن السكيت ٢٠٨ والصغاني ٢٣٥ وابو الطيب ١/٤٢٩ وابن الانبارى ٨٠ والغريب المصنف ٥٢١ والمزهر ١/٣٩٠ ولطائف اللغة ١٥١ .

(١٢٧) ابن الانبارى ٨ـ٩ .

في كل صارخ ، وانما تخصصت الدلالة في المغيث والمستغيث لشهرة صراخهما ؛ ذلك ان المستغيث يعتمد الصراخ لطلب العون والنجدة والاغاثة، فاذا سمع المغيث صراخه ردّ عليه بصوت عال كالصراخ يخبره انه مستعد للاغاثة والمعاضدة ، فالصراخ جامع مشترك بين المغيث والمستغيث .

٧ ـ الجَلَل : للعظيم والحقير(١٢٨) . والظاهر ان اصل معناها (الغاية) كما ذهب الى ذلك ابن حبيب البصري وقال : « جلل : حرف موضوع للغاية في الشيء ، فيوصف به العظيم والحقير ، ثم قام مقام الموصوف فكان ضدا » (١٢٩) . اما ابن الانبارى فانه وان عدّ الجلل في الالفاظ التي تداخلت معانيها على جهة الاتساع الا انه اخطأ تأويل المدلول الشامل وقال : « والجلل اليسير ، والجلل العظيم ، لان اليسير قد يكون عظيما عند ما هو أيسر منه ، والعظيم قد يكون صغيرا عند ما هو أعظم منه »(١٣٠) فهذا الذي يقوله ابن الانباري ليس بيانا لمدلول عام قديم تطور فاختص بالضدين ، وانما هو تفسير يقوم على فكرة التناسب بين المعنيين المتضادين ، وهو تفسير بعيد عما نحن فيه . ويظهر كذلك ان اختصاص المعنى في الصغر واليسر اقدم من اختصاصه بالكبر والعظم، ذلك ان الاصمعي حين نقل عن ابي عمرو الشيباني ضديتها عاد فقال : « ولا أعرف الجَلَل في معنى العظيم »(١٣١). ومن هذا يبدو انها تطورت من الغاية في الشيء، الى الغاية في الصغر ، فالشيء الصغير ، ثم رجع الى معنى الغاية في الشيء، وفي هذه المرة للغاية في الكبر ، فالشيء الكبير .

---

(١٢٨) قطرب ٢٤٦ والاصمعي ٩ وابو حاتم ٨٤ وابن السكيت ١٦٧ والصغاني ٢٢٦ وابن الانبارى ٨٩ وابو الطيب ١/١٤٥ واmالي القالي ٢/١٠٠ وادب الكاتب ١٦٢ ، وانظر الملاحن لابن دريد ٤١ وشمس العلوم للحميرى ٢/٢٨٠ .

(١٢٩) مقدمة لدرس لغة العرب للعلايلي ٢٢٤ .

(١٣٠) ابن الانبارى ٩ .

(١٣١) الاصمعي ١٠ .

٨ ــ الوَراء : للخلف والقــدام [١٣٢] • واصــل المــعنى مــن (المواراة والاستتار) وهي دلالة تشمل الخلف والقدام اذا استترا ، يقول الآمدي : « وكذلك وراء انما هي من المواراة والاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء ، خلفك كان أو قدامك ، هذا اذا لـم تره أو تشاهده ، فأمـا اذا رأيته فلا يكون أمامك وراء » [١٣٣] وشبيه بهذا ما قالـه ابـن حبيب البصري [١٣٤] ، وعلي بن حمــزة [١٣٥] • وقــد استعملها العــرب في ملاحنهم وأحاجيهم بهذا المعنى أيضا [١٣٦] ، وتحتفظ أصــوات اللفظـة نفسها بمعنى المواراة وأصواتها • ويمكن تفسير جميع ما استشهد به على المعنيين بهذه الدلالة العامة بالشــرط الــذي ذكره الآمــدي ، والاّ فهــي متخصصة بمعنى الخلف منذ القديم •

٩ ــ هَوى : بمعنى هبط وبمعنى صعد [١٣٧] • يقول الحريري : « وليس كذلك بل معناه (الاسراع) الذي يكون في الصعــود والهبوط ، وفي حديث البراق : فانطلق يهوى به ، أي يسرع » [١٣٨] •

١٠ ــ المَأتَم : لاجتماع النساء في الفرح ولاجتماعهن في الحزن [١٣٩] • وانما هو في الاصل (الاجتماع) مطلقا للرجال أو النســاء ، في الفــرح أو

---

(١٣٢) ابن الانبارى ٦٨ وابو الطيب ٢/٦٥٧ وقطرب ٢٥٩ والاصمعي ٢٠ وابو حاتم ٨٢ وابن السكيت ١٧٥ والجمهرة ٣/٤٩٥ والصحــاح (ورى) ٢٥٢٣ والمأثور لابى العميثل ٨٣ــ٨٤ وادب الكاتب ١٦٣ ونوادر ابى زيد ٤٦ •

(١٣٣) الموازنة ١/١٧٣ •

(١٣٤) مقدمة لدرس لغة العرب ٢٢٤ــ٢٢٥ •

(١٣٥) التنبيهات ١٣٨ •

(١٣٦) الملاحن لابن دريد ٦٢ •

(١٣٧) قطرب ٢٦٥ وابو حاتم ١٠٠ والصغاني ٢٤٨ •

(١٣٨) درة الغواص ١٩٨ــ١٩٩ •

(١٣٩) قطرب ٢٧٠ وابو حاتم ١٤٢ والصغاني ٢٢٢ وابن الانبارى ١٠٣ وابو الطيب ١/١٨ والاقتضاب ١٠٩ــ١١٠ •

الحزن . فتخصص أول الامر في اجتماع النساء دون الرجال في فرح أو حزن ، ثم تخصص لاجتماعهن في كل منهما دون الاخر والى هذا التفسير ذهب ابن الانباري وأبو الطيب .

١١ ـ الطَّرب : للفرح والحزن[١٤٠] . وهو في الاصل (الحركة) التي تلحق الانسان في حالتي الفرح والحزن . يقول ابن ابي السرور : « ومنه قولهم : حصل لفلان الطرب ، يخصونه (بحركة) الفرح ، وهو يطلق على (حركة) الحزن أيضا .. »[١٤١] فهو اذن مطلق الحركة ، ولذا قال ابن الانباري في تعليقه على هذه المادة : « لان الطرب ليس هو الفرح ولا الحزن ، وانما هو خفة تلحق الانسان في وقت فرحه وحزنه ، فيقال : قد طرب اذا استخفّ »[١٤٢]. وهذه الخفة التي تلحق الانسان هي الحركة، وهي الدلالة العامة ، قبل ان تتخصص في الفرح أو في الحزن وتكاد تكون الان متمحضة لمعنى الفرح ، فتكادتكون دلالتها على الحزن منقرضة .

١٢ ـ الجَعفَر : للنهر الكبير وللنهر الصغير[١٤٣] . وانما هو (النهر) مطلقا كبر أم صغر ، وقد جرى الاستعمال في تخصيصه بالكبير أو بالصغير ، يقول ابن دريد : « الجعفر : النهر ، فاذا كان صغيرا فهو فالج ، فاذا جاوز ذلك فهو ينبوع ، فاذا اتسع قليلا فهو سريّ .. »[١٤٤] وهكذا ، فالتوسع في الاستعمال هو الذي طور الدلالة بحيث ساغ تخصيص اللفظة بالصغير من الانهار وبالكبير منها ، واطلق على كل منهما ما يطلق على جميع الانهار ، وقد حدد ابن دريد اسماء الانهر حسب كبرها وصغرها .

---

(١٤٠) الاصمعي ٥٨ وابن الانبارى ١٠٢ والصغانى ٢٣٧ والقول المقتضب ١٦ .

(١٤١) القول المقتضب ١٦ .

(١٤٢) ابن الانباري ١٠٣ .

(١٤٣) الصغاني ٢٢٦ .

(١٤٤) الاشتقاق ٦٣ .

١٣ ـ بشَّرتُه : للاخبار بالخير وللاخبار بالشر • وانما هي ترجع الى معنى (الأثر في البشرة) الذي وضحه الحريري فقال : « والعلة فيه أن البشارة انما سميت بذلك لاستبانة تأثير خبرها في بشرة من بشر بهـا ، وقد تتغير البشرة للمساءة بالمكروه ، كما تتغير عند المسرة بالمحبوب»[١٤٥]• فالبشارة تصلح أن تكون في الحالين لاحتوائها هذا المعنى الشامل •

١٤ ـ وَعَدَ : للخير والشـر • واستعملت في القـرآن لكليهمـا ، ومعنى (الوعد) شامل جامع لكلتا الحالتين ، ويصلح ان يكون وعدا في الخير وفي الشـر [١٤٦] •

١٥ ـ دُرْع : لليالي السود الصدور البيض الاعجاز من آخر الشهر ولليالي البيض الصدور السود الاعجاز من أول الشهر ، وللغنـم البيـض المقادم السود المآخر وللغنم السود المقادم البيض المآخر[١٤٧] • وواضـح ان المعنى الاصيل هو (اجتماع اللونين في شيء واحد) بحيث يكون اللون الذي في الصدر درعا لذلك الشيء ، فالليالي التي صدورها بيض واعجازها سود تدرع بالبياض فهي درع والعكس صحيح وذلك بأن تدرع بالسـواد وكذلك الغنم ، وعلى هذا يكون اشتقاق التسمية من الدرع ، والمعنى اجتماع اللونين • وبمثل هذا التفسير نعالج : الرحلاء ، الرثماء ، المطرف ، الاملح، الوشحاء[١٤٨] •

١٦ ـ الذَّفْر : للرائحة الطيبة والرائحة المنتنة[١٤٩] • وهـي في

---

(١٤٥) درة الغواص ١٤١ •
(١٤٦) درة الغواص ١٤١ •
(١٤٧) قطرب ٢٦٧ وابو حاتم ٩٨ والصغاني ٢٢٩ وابن الانبارى ٢٦٥ وابو الطيب ١/٢٧١ •
(١٤٨) ابو الطيب ١/٣٢٩ ، ٣٢٩ ، ٤٦٥ ، ٢/٦٣٢ ، ٦٥٧ •
(١٤٩) قطرب ٢٦٢ والاصمعي ٥٨ وابو حاتم ٩٦ والصغاني ٢٣٠ وابن الانبارى ٨٨ وابو الطيب ١/٢٧٧ •

الاصل (الرّائِحَة) يقول الاصمعي : « والذفر بالذال المعجمة وتحريك الفاء ، يقال لكل ريح ذكية شديدة من طيب أو نتن ذفر » [(١٥٠)] ، وهذا ما دعا قطربا أن يذيل كلامه عليها بقوله « وكأنها من الاضداد » [(١٥١)] . اذ هي بهذا المعنى العام للرائحة لا يمكن أن تكون من الاضداد في الاصل، وانما صرفها الى ذلك التوسع في الاستعمال بتخصيص دلالتها بالمعنيين المتضادين ، ومع ذلك فلا يكفي أن يقال (ذَفْر) لكي ينصرف المعنى الى الطيب والنتن من الرائحة ، وانما يجب ان « يفرق بينهما بما يضاف اليه ويوصف به » [(١٥٢)] . ومن هذه الطائفة ايضا : (باعَ واشْتَرى) و (الزّوج) و (دون) و (النَّبَل) و (السُّر ُر) و (الأطلال) و (القَلْت) و (العَلاقَة) و (الحُرْمَة) وغيرها .

ومن اضداد الطائفة الثانية التي قلنا انها تطورت فتغير مجال دلالتها ، وانتقلت الى ما يوحي بان المعنى الجديد ضد المعنى الاول، فمن امثلتها ايضا :

١ ـ الظَّعينَة : للهودج وللمرأة .[(١٥٣)] وكان اطلاق الظعينة أصلا على الهودج ثم انتقلت الدلالة الى المرأة التي في الهودج للعلاقة المكانية بين الاثنين ، ثم على كل مرأة وان كانت في بيتها لتشابه جنس المرأتين . وقد اشار الى هذا غير واحد من القدماء ، كأبي زيد الانصارى الذي قال : « الظعائن هي الهوادج ، وانما سميت النساء ظعائن لانهن يكنّ في الهوادج »[(١٥٤)] ، ومثل ذلك ما قاله ابن الانباري في هذه المادة واضاف

---

(١٥٠) الاصمعي ٤٢ وابن السكيت ١٩٦ .

(١٥١) قطرب ٢٦٢ .

(١٥٢) الاصمعي ٥٨ .

(١٥٣) الاصمعي ٤٦ وابن السكيت ٢٠٠ وابن الانبارى ١٦٤ والصغاني ٢٣٧ .

(١٥٤) الغريب المصنف ٥٤٦ وانظر : الاصمعي ٤٦ وابن السكيت ٢٠٠ .

« والاصل ذاك »[155] يعني الهودج ، ووضحه ابن دريد بقوله : « ولا تسمى المرأة ظعينة حتى تكون في هودج ، ثم كثر ذلك في كلامهم حتى لزم المرأة اسم الظعينة » [156] .

٢ ـ الكَأس : للاناء وللشراب الذي فيه[157] . والاصل في المعنى (الزجاجة المملوءة) ثم انتقل في الاستعمال الى السائل الذي فيها ، وهذا التطور واضح الترابط والعلاقة ، يقول الفراء : « الكأس الاناء بما فيه ، فاذا شرب الذي فيه لم يقل له كأس ، بل يردّ الى اسمه الذي هو اسمه من الآنية » [158] ، ويقول الثعالبي : « لا يقال كأس الاّ اذا كان فيها شراب ، والا فهي زجاجة » .[159] ولهذا عبر ابن الانباري في صدر كلامه على هذه المادة بأنها (من الحروف المشبهة للاضداد) ، فكأنه حين عرف منشأ هذا التجوز في تسمية الشراب بـ (الكأس) شك بضدية اللفظة .

٣ ـ الكُنْتي : للعاجز وللقوي [160] . والظاهر ان المعنى تطور من الفعل (كُنْتُ) الذي يكرره الشيخ العاجز في كلامه للاخبار عن قوته وفتوته التي كانت له ايام شبابه فيقول : كنت وكنت .. ، فارتبط حال المتكلم بمعنى العجز فنسب للفعل فقيل (كُنْتي) ، وبالمقابل ارتبطت اشارة المتكلم الى الشباب الذي ولّى بالمعنى المضاد فصارت النسبة للفعل

---

(١٥٥) ابن الانبارى ١٦٤ .

(١٥٦) الاشتقاق ١١٧ .

(١٥٧) الاصمعي ٤٦ وابن السكيت ٢٠٠ وابن الانبارى ١٦٢ والصغاني ٢٤٣ .

(١٥٨) ابن الانبارى ١٦٢ .

(١٥٩) فقه اللغة ٥٠ .

(١٦٠) الحلل في اصلاح الخلل للبطليوسي ٣٢١ وسر صناعة الاعراب ١/٢٣٠ ولسان العرب ١٣/٣٦٩ وتاج العروس ٥/٧٠ .

تدل على القوة ، حتى جرى الاستعمال بهذين المعنيين للدلالة على القـوة وعلى الضعف ، كقول الشاعر يذكر كبره وعجزه :

فأصبحتُ كُنْتِيّاً وأصبحتُ عاجِنـاً
وشرّ خصالِ المَرءِ كنتٌ وعاجِنُ[(١٦١)]

يقول ابن جني معلقا عليه : « فقوله كُنتيا ، معناه انه يقول : كنت في شبابي أفعل كذا وكنت في حداثتي أصنع كذا» .[(١٦٢)] وقريب من هـذا ما قاله الجوهري وابن منظور [(١٦٣)] . ومن الغريب أن يبلغ التطور في هذه اللفظة فيكون ضمير المتكلم وهو (التاء) حرفاً أصيـلاً في الفعـل وتدخل هذه المادة بعض المعجمات اللغوية مبتعدة عن بابها ، يقول الزبيدي: « يقال : كَنَتَ فلان في خلقه ، وكـانَ في خلقـه أي قوى ، فهـو كنتي وكانّي ، وقال ابن بزرج : الكنتي ككرسي : القوى الشديد[(١٦٤)] » .

٤ ـ المُقْوي : للمسافر الذي فني زاده وضعف ركابه وللمسافـر الذي كانت ركابه قوية وزاده وفيرا[(١٦٥)] . والمـادة من اقوى المكان اذا أقفر ، وأرض قواء مقفرة ،واقوى المنزل خلا من أهله ومنه قول النابغة :

يادارَ مَيةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ أقوتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

أي خلت وأقفرت فالمسافرالذي يقطع القواء يفنى زاده ويضعف ركابـه فهو مقو بهذا المعنى . ثم تطورت الدلالة الى عكس هذا المعنى بعد ملاحظة

---

(١٦١) فتيا فقيه العرب ٣٦ .
(١٦٢) سر صناعة الاعراب ١/٢٣٠ .
(١٦٣) لسان العرب ١٣/٣٦٩ .
(١٦٤) تاج العروس ٥/٧٠ .
(١٦٥) قطرب ٢٥٣ والاصمعي ٨ وابو حاتم ٩٣ وابن السـكيت ١٦٧ والصغاني ٢٤٣ وابن الانبارى ١٢٢ وابو الطيب ٢/٥٦٩ وغريب القرآن لابي بكر السجستاني ١٦٥ وما اتفق لفظة واختلف معناه ٦ـ٧ .

ان هذا المسافر لابّد له من أن يتزود بما يكفي من زاد وأن يصطحب الركائب القوية لعبور القواء القفر ، فهو مقو كذلك بهذا الاعتبار • وقد يكون المعنيان قد جاءا من أصلين مختلفين ، بأن يكون معنى فناء الزاد وضعف الركاب من (أقوى) ومعنى وفرة الزاد وقوة الركاب من (قَوِيَ) واشتق من كليهما (المقوى) فاختلط ذلك على الاضداديين ، وقد نستشعر هذا التفسير من قول الفراء : « وسمع الكسائي العرب تقول : أصبحت مقويا أي ابلك قوية ، وأصبحت مضعفا أي ابلك ضعاف ، تريد ضعيفة من الضعف »[166] ، فهذا التقابل الذي ذكره الفراء عن الكسائي بين المقوى والمضعف قد يؤكد ان المقوى من القوة ـ الذي يقابله المضعف من الضعف كما نص على ذلك ـ هو غير المقوى من القواء بمعنى الفراغ •

٥ ـ الرَّهْو : للارتفاع والانخفاض[167] • وفي الحقيقة ان كلا من المعنيين مرتبط بالاخر ارتباطا سببيا ومكانيا ، ذلك انهم استشهدوا على كل منهما بما يدل على أن الامرين حاصلان معا ، فقرب كل انخفاض ارتفاع وقرب كل ارتفاع انخفاض ، فكل واحد من المعنيين متطور في الاستعمال عن الاخر ومنتقل اليه ، ومما يؤكد ذلك استعمال الرهو بمعنى الفجوة بين مكانين ، وقد نقل عن الاصمعي انه قال : « مرّ فالِجٌ بأعرابي فقال : سبحان الله ، رَهوٌ بين سنامين »[168] • فلا تكون هناك فجوة بين مكانين ما لم يكن هناك ارتفاع على جانبيهما ، فانتقال مجال الدلالة واضح في هذه المسألة ، ولعل معنى الفجوة متطور أيضا عن معنى (الفضاء)

---

(١٦٦) معاني القرآن ٢/٣٢٥ •

(١٦٧) قطرب ٢٦٢ والاصمعي ١١ وابن السكيت ١٦٩ وابو حاتم ٩٣ وابن الانباري ١٤٨ وابو الطيب ١/٢٨٤ والصغاني ٢٣١ وتفسير القرطبي ١٦/١٣٧ وأدب الكاتب ١٦٢ والبارع ٩٤ـ٩٥ وكليات مختلفة لغوية (مخطوط) ١١٧ •

(١٦٨) المأثور ٢٧ •

فقد ذكر ابن دريد أن : « الرّهاء : الفضاء من الارض » (١٦٩) • فمن معنى الفضاء انتقل الى معنى الفجوة بين مكانين أو ارتفاعين ، ومن مشاهدة الانحدار من أحد الارتفاعين الذي يستتبعه الصعود في الارتفاع المقابل ، صارت اللفظة تعني الانحدار على حدة والارتفاع على حدة • وبمثل هذا التفسير ينبغي أن تفسّر : (التلعة) لما ارتفع من الوادي ولما انخفض (١٧٠) • و (فرّع) اذا أصعد واذا انحدر (١٧١) ، و (نزلت في الجبل) علوت وانحدرت (١٧٢) • و (الشرف) للارتفاع والانحدار (١٧٣) • فهي جميعا من هذا القبيل •

٦ ـ الماثِل : للقائم المنتصب وللاطيء بالارض (١٧٤) • فمعنى مثل : شخص ، ومنه مثل بين يديه أي شخص وحضر ، والاصل ان يكون مثول الانسان وقوفا وانتصابا ، فقيل الماثل هو القائم المنتصب انتقالا من معنى الشخوص والحضور ، ثم لمّا رأوا أن هذا الماثل قد صدع بأمر من مثل بين يديه وأخذ يبتعد صار المثول يعني الذهاب ، ومنه قيل : « رأيت شخصا ثم مثل اي ذهب فلم أره ، قال الهذلي :

---

(١٦٩) الاشتقاق ٤٠٥ •
(١٧٠) قطرب ٢٤٨ والاصمعي ٢٠ وابن السكيت ١٧٥ وابو حاتم ١٠٩ وابن الانبارى ٢١٨ وابو الطيب ١/١٠٣ والصغاني ٢٢٥ والغريب المصنف ٥٢٠ وادب الكاتب ١٦٢ •
(١٧١) قطرب ٢٥٧ والاصمعي ٣٤ وابن السكيت ١٨٨ وابو حاتم ٩٥ وابن الانبارى ٣١٥ وابو الطيب ٢/٥٣٤ والصغاني ٦٠٨ وادب الكاتب ١٦٣ وديوان الادب (مخطوط) ق ٢٠٨ وسمط اللآلى ١/٢١٤ •
(١٧٢) الافعال لابن القوطية ١٥١ •
(١٧٣) قطرب ٢٥٢ وابن الانبارى ٢٠٣ •
(١٧٤) الاصمعى ٣١ وابو حاتم ١١٤ وابن السكيت ١٨٦ والصغاني ٢٤٥ وابن الانبارى ٢٨٨ وابو الطيب ٢/٦٢٥ وادب الكاتب ١٦٢ وأمالي القالي ١/٥٨ والغريب المصنف ٥٢٢ والمزهر ١/٣٩١ •

يُقَرِّبُهُ النَّهضُ النَّجيحُ لما يَرى   فمنه بدوٌّ مرةً ومثولُ»[175]

أي ظهور وذهاب ، وقد قصر ابو الطيب اللغوي تضاد اللفظة على هذين المعنيين أعني الانتصاب والذهاب [176] ، خلافا لغيره • ويمكننا أن نلمح في الذهاب بوادر الانتقال الى اللاطيء بالارض ، وذلك لأن عين الناظر لا يمكن أن تحقق انتصاب الرجل من بعيد ، وتحسبه وكأنه لاطيء بالارض من صغر شخصه النائي ومنه قول زهير : (فمنها مستبينٌ وماثلُ) اي دارس[177] • ومع ذلك فاني أجد في نفسي ميلا الى تعليل لا يخلو من غرابة لعدم امتلاكي دليلا على صحته ، وهو ان الماثل بمعنى اللاطيء قد انتقل الى اتصاف الانسان به من اتصاف الكلب به قبله ، لأن الكلب يمثل لاطئا بالارض بين يدى صاحبه ، وهو أمر مشاهد الى اليوم ، وعندما أجبر العبد على المثول بين يدى سيده على هذه الصورة التي يتحقق فيها عمق الذلة والهوان ، صارت الصفتان (المنتصب) و (اللاطيء) صفتي الماثل من الناس •

٧ ـ الشَّعْب : للجمع والتفريق أو للاصلاح والافساد [178] • ويبدو ان اصل منعاها الذي كانت تنصرف اليه هو (القبيلة) فهي الشعب والجماعة الشعوب[179] • ثم لما كانت القبيلةالواحدة تنشطر بعد اتساعها وكثافة أفرادها الى قبائل أصغر هي البطون أو الافخاذ صارت كل واحدةمنها شعبا ، فتداخل في عملية الانقسام هذه معنيان : الاول معنى التفرق الذي

---

(١٧٥) أمالي القالي ١/٥٨ •
(١٧٦) ابو الطيب ٢/٦٢٥ •
(١٧٧) أدب الكاتب ١٦٢ •
(١٧٨) قطرب ٢٦١ والاصمعي ٧وابو حاتم ١٠٨ وابن السكيت ١٦٦ والصغاني ٢٣٤ وابن الانبارى ٥٣ وابو الطيب ١/٤٠٠ وادب الكاتب ١٦٣ والمخصص ١٣/٢٦١ والتنبيهات ٦٢ •٢
(١٧٩) المأثور ٥٨ •

ولده الانقسام والابتعاد بين بطون القبيلة الكبيرة وافخاذها • والثاني معنى التجمع الـذي احتفظت به القبيلـة الأم ، فكـل (شَعْب) تجمع واتحـاد للجماعات في مكان وزمان واحد ، وكل (شَعْب) تفرق وابتعـاد لهـذه الجماعات ، ومنه قيل للشجرة شعب ولاغصانها شعوب وشعب • فالشعب اذن جمع وتفريق ، وواضح ان معنى الجمع يوحي بمعنى الاصلاح وان التفريق يوحي بمعنى الافساد • وسميت المنيّة شَعوب لانها تفرق بـين الانسان وبين أهله ، وتصدع كل اجتماع •

٨ ـ الزُّبيَة : لحفيرة يصاد بها الأسد ، ولحفيرة تحفر في اماكن عالية[١٨٠] • والاصل في معنى الزبية هي الحفيرة التي تحفر للأسـد ، وانما اطلقت أيضا على الحفائر المحفورة في الاماكن المرتفعـة فلأن زبى الاسد هي مما يحفر في علّو لئلاّ يبلغها السيل فتنطم ، لـذا فـان انتقال الدلالة حادث لوجود هذه العلاقة المكانية بين الحفرتين • وقد ردّ علي بن حمزة بهذا المعنى على ابن ولاّد الذي ذكر تضاد اللفظة ، وقال : « وقـد وهم في هذا القول ، وانما تحفر الزّبى للاسد في الاماكن العالية ، فلذلك قالوا : قد بلغ الماء الزبى » [١٨١] • ومثل هذا التفسير ماقاله الفراء[١٨٢]، والمبرد [١٨٣] ، وابو الطيب [١٨٤] • ومما يقوى ذلك أن : « الزّبيـَة أيضا : حفرةالنمل ، والنمل لاتفعل ذلك الاّ في موضع مرتفع » [١٨٥] •

---

(١٨٠) قطرب ٢٧٧ والاصمعي ٥٥ وابو حاتم ٨٧ وابن السـكيت ٢٠٦ والصغاني ٢٣١ وابن الانبارى ٣٣٨ وابو الطيب ١/٣٣٠ والتنبيهات ٣٣٧ ومعاني الشعر ١٥ ولسان العرب ١٤/٣٥٣ •

(١٨١) التنبيهات ٣٣٧ •

(١٨٢) لسان العرب ١٤/٣٥٣ •

(١٨٣) الكامل ١/١٢ •

(١٨٤) ابو الطيب ١/٣٣١ •

(١٨٥) لسان العرب ١٤/٣٥٣ •

٩ ـ تَهوَّد : بمعنى صار يهوديا وبمعنى مشى مشيا رفيقا[١٨٦] .
والاصل هو المعنى الاول ، ومنه انتقل الى الثاني لان اليهود قد عرفوا بالمشي الوئيد عند الترتيل والذكر ، ولهذا قال الزبيدي في التاج بعد ذكر المعنى الثاني : « تشبها باليهود في حركتهم عند القراءة . قال المصنف في البصائر بعد سياق هذه العبارة : وهذا يعد من الاضداد .قلت : وهو محل تأمّل » [١٨٧] . فاللفظة عند الزبيدي ليست من الاضداد أو على الاقل يشك في ضدّيتها التي زعمها الفيروز ابادى في (بصائر ذوي التمييز) .
ورأى ابن دريد أن اشتقاق (يهود) هو من قوله تعالى : (إِنا هُدْنا اليك) [١٨٨] ، فقال : « واشتقاق (أهْوَد) من السكون ولين الجانب . وأحسب اشتقاق يهود من هذا ، من قولهم : (إِنا هُدْنا اليك) أي لانت قلوبنا . والتهويد : التسكين ، تقول هوّدت الرجل من نفاره اذ اسكنته ، والتهويد في السير من ذلك » [١٨٩] ، وأظنه غلط في هذا فالعكس هو الصحيح . أي ان العرب سموا المشي الوئيد بالتهويد انتقالا اليه من اسم اليهود لانهم وجدوا اليهود يمشون في صلاتهم وذكرهم مشيا رفيقا . ذلك لان اسم اليهود اقدم من الاشتقاق ، لان (يهود) لفظ معرب ، وأصله (يهوذا) وهو في العبرية اسم علم من اعلام بني اسرائيل ، ذكره القرآن واستعمله العرب بالدال ومنه اشتق التهويد بمعنى التسكين . حتى ان الكسائي ابتعد في تفسير قوله تعالى : (إِنّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصّابئون والنصّارى) [١٩٠] فجعل (هادوا) من قوله (إِنا هُدنا اليك)

---

(١٨٦) معاني القرآن ٣١٢/١ واشتقاق ابن دريد ٥٤٩ ولسان العرب ٤٣٩/٣ وتاج العروس ٣٥٥/٩ .
(١٨٧) تاج العروس ٣٥٥/٩ .
(١٨٨) الاعراف ١٥٦ .
(١٨٩) الاشتقاق ٥٤٩ ومثله في لسان العرب ٤٣٩/٣ .
(١٩٠) المائدة ٦٩ .

لا من اليهودية ، وقد ردّه الفراء محتجا بمجيء التفسير بغير ذلك(١٩١) .

١٠ ــ الخَجَل : للمرح والنشاط وللكسل والخمول(١٩٢) .

والأصل في المعنى (الامعان في الشيء) الذي يصدق على زيادة المرح وزيادة الكسل ، حتى عدّ هذا الامعان من سوء الخلق الذي يعير به المرء المتصف به ، فقالوا : الخجل سوء احتمال الغنى ، والدقع سوء احتمال الفقر ، ومنه الحديث الشريف : اذا شبعتن خجلتن واذا جعتن دقعتن ، ومنه ايضا قول الكميت :

وَلَمْ يَدقَعوا عندما نابَهُم لصَرفِ زَمانٍ وَلَم يَخْجَلوا(١٩٣)

أي لم يسيئوا احتمال الفقر ولا احتمال الغنى ، وفي الامعان معنى الكثرة ، لذلك قالوا : واد خجل اذا كان كثير النبات ، ونبات مخجل اذ كان كثيرا ومنه الخجل الذي يعترى الانسان وهو شدة شعوره بالحياء والامعان فيه حتى يبقى ساكنا لايتحرك ولايتكلم (١٩٤) . وهذا المعنى قريب من معنى الكسل والخمول ومجال دلالتهما متشابه . ومن هذه الطائفة : (اللَّحْن) و (الصَّوادي) و (طَواهُ) وغيرها .

ومن هذا الباب ايضا : (زَكَنْتُ) و (ظَنَنْتُ) و (حَسِبْتُ) و (خِلْتُ) و (رَجَوتُ) التي تستعمل كلها للشك واليقين (١٩٥) .

---

(١٩١) معاني القرآن ١/٣١٢ .

(١٩٢) قطرب ٢٦٠ والاصمعي ١٥ وابن السكيت ١٧١ والصغاني ٢٢٨ وابن الانبارى ١٥١ وابو الطيب ١/٢٥٠ .

(١٩٣) ابن الانبارى ١٥٢ والتنبيهات ٣١٢ .

(١٩٤) قطرب ٢٦٠ .

(١٩٥) قطرب ٢٤٤ ، ٢٥٣ والاصمعي ٣٤ ، ٢٣ وابو حاتم ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ وابن السكيت ١٧٩ ، ١٨٨ والصغاني ٢٣٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ وابن الانبارى ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ ، ١٦ وابو الطيب ١/٤٦٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٧ ، ٢٩٠ والاقتضاب ١٠٩ وما اتفق لفظه واختلف معناه ٨ وتأويل مشكل القرآن ١٤٦ ومشكل القرآن وغريبه ١/٣٠ وغريب القرآن للسجستاني ٢١٧

والحقيقة ان في المعنى الاول مقداراً كبيراً من المعنى الثاني ، بحيث كان انتقال الدلالة من الأول الى الثاني انتقالا يبرره قرب المعنى من الآخر . يقول ابن السيد البطليوسي : « قد حكى ابو زيد الانصارى : زكنت منك مثل الذى زكنت مني ، قال : وهو الظن الذى يكون عندك كاليقين وان لم تخبر به . وحكى صاحب العين نحوا من ذلك . وهذه الاقوال كلها متقاربة ترجع عند النظر الى أصل واحد ، لأن الظن اذا قوى في النفس وكثرت دلائله على الأمر المظنون صار كالعلم ، ولاجل هذا استعملت العرب الظن بمعنى العلم » (١٩٦) ، وبهذا يبين الفرق بين معنيي الشك واليقين في (ظَنَّ) ، اذ بمجرد قوة الشك في النفس وكثرة دلائله على التحقق صار علما ويقينا ، ولذا فقد تساهلوا في اطلاق الظن على اليقين من هذا الباب ، الا انه قيد في الاشياء غير المادية ، قال السيرافي : « لا يستعمل الظن بمعنى العلم الا في الاشياء الغائبة عن مشاهدة الحواس لها ، لا يقال ظننت الحائط مبنيا وانت تشاهده » (١٩٧) . فانتقال مجال الدلالة في مثل هذه الالفاظ انما كان للعلاقة الكمية بين الدلالتين ، وقد عدها ابن الانباري في الالفاظ التي تداخلت معانيها على جهة الاتساع (١٩٨) .

التطور الصوتي ومظاهر الخطأ والتصحيف

قد تتعرض أصوات لفظة من الالفاظ الى التغيير أو الحذف أو الزيادة ، وفقا لقوانين التطور الصوتي التي عرضنا الى أشياء منها في الفصل السابق ، بحيث يترتب على هذا التطور الصوتي الذي يلحق اللفظة أن تتحد في أصواتها مع لفظة اخرى مضادة لها في المعنى ، فتنشأ بسبب ذلك ألفاظ تعد وهما من الاضداد ، ومن الامثلة الواضحة على هذا :

(١٩٦) الاقتضاب ١٠٩ .
(١٩٧) الاقتضاب ١٠٩ .
(١٩٨) ابن الانبارى ٩ وما بعدها .

١ ـ أكْعَتَ : تعني انطلق مسرعا وتعني قعد [1] . والظاهر أن الفعل (قَعَد) قد تطور في أصواته بأن تقدم صوت القاف قليلا حتى صادف مخرج الكاف ، وبأن همست الدال فخرجت تاءا ، فنطق الفعل قعد (كَعَتَ) مع احتفاظه بمعناه ، ثم اتحد هذا الفعل ملتبسا بفعل آخر من اصل مختلف وهو (أكْعَتَ) بمعنى انطلق مسرعا [2] ، فصارت اللفظة من الاضداد . وقال الزبيدي بعد أن ذكر ان اللفظة ضد : « وقد نَظَر فيه شيخنا » [3] ، مما يشعر بشكه في ضديتها ولعله لمح الأصل الذي تطورت اصواته فاتحدت بأصوات اصل آخر .

٢ ـ الجَوْن : للاسود والابيض [4] . والظاهر : « ان الجون التي تعبر عن السواد ، قد اشتقت اولا من الفعل (جَنّ) بمعنى ستر . وهو الذي يستعمل في مثل (جَنّ الليل) أي أظلم ، فهذه المادة تعبر أساسا عن معنى الظلمة . ثم تطورت أصواتها بتأثير عامل المخالفة ، فقلب أحد النونين الى صوت مشابهه وهو الواو ، وبذلك التبس الجون المنحدر من مادة (جَنّ) بالجون التي تعبر أصلا عن النور » [5] . فأصبحت اللفظة على هذا من الأضداد .

٣ ـ القانع : للراضي بما هو فيه وللسائل المحتاج [6] . وقد ذكر الأضداديون ان المعنى الاول من قنع قناعة والمعنى الثاني من قنع قنوعا . ويبدو ان السبب في هذا التفريق بين مصدري الفعلين هو «التطور الصوتي في مادة

---

(١) لسان العرب ٧٨/٢ وتاج العروس ٦٠/٥ .
(٢) في اللهجات العربية ٢١٤ .
(٣) تاج العروس ٦٠/٥ .
(٤) ابن الانبارى ١١١ وابو الطيب ١٥١/١ وشمس العلوم ٣٧١/٢ .
(٥) في اللهجات العربية ٢١٣ـ٢١٤ .
(٦) الاصمعي ٤٩ وابو حاتم ١١٦ وابن السكيت ٢٠٢ والصغاني ٢٤٣ وابن الانبارى ٦٦ وابو الطيب ٥٧٧/٢ .

(خَنَع) الى (كَنَع) اي ان الصوت الرخو وهو الخاء قد تطور الى نظيره الشديد وهو الكاف ... ثم جاء جامعوا اللغة وذكروا لنا أن كلا من (خَنَع) و (كَنَع) يفيد ذلّ وخضع . ومصدر (كَنَع) هو الكنوع بمعنى الذلة والخضوع ، ثم اختلط الامر بين القاف والكاف . وترتب على هذا اختلاط الفعلين قنع وكنع . والحقيقةان مصدرقنع هوالقناعة ومصدر كنع هو الكنوع ، فقول القائل(أعوذ باللّهمن الخنوع والقنوع)لايعدو أن يكون تكرارا للفظ الواحد . وبهذا يمكن أن نفسر كل الشواهدالتي يشتم فيها أن القنوع يعني الذلة والسؤال » [7] . ونستطيع ان نفسر الآية الكريمة التي اعتمدوها في هذا الصدد (وأطعموا القانع والمُعْتَرّ)[8] بمعنى أطعموا من لا يسأل حياء منه لأنه قنع بما هو عليه وما قسم له ، وأطعموا أيضا من يسأل بتلميح دون تصريح وهو المعتر[9] . فلا يكون القانع على هذا بمعنى السائل ، ولا تكون اللفظة من الأضداد .

٤ ـ زَبَر : كتب وقرأ [10] . ويبدو أن الفعل (ذَبَر) الذي يعني كتب قد تطور صوت الذال فيه الى صوت الزاى على طريق الابدال المعروف فصادف الفعل الفارسي المعرب (زَبَر) الذي يعني قرأ أو حفظ غيبا ـ كما مرّ علينا في الكلام على اللهجات ـ فاتحد معه محتفظا بمعناه ، فاجتمع في (زبر) المعنيان : العربي وهو (كَتَب) والفارسي وهو (قَرأَ) فصارت اللفظة عند الاضداديين من الاضداد بعد التدوين . ومما يدل على الاصل الذي ألمحنا اليه أن شواهد (زَبر) التي بمعنى كتب تروى بالزاى وبالذال ، منها قول أبي ذؤيب :

---

(٧) في اللهجات العربية ٢١٤ـ٢١٥ .

(٨) الحج ٣٦ .

(٩) في اللهجات العربية ٢١٥ .

(١٠) اشتقاق ابن دريد ٤٨ وابدال ابي الطيب ٢/ ٦ .

عرفت الدّيارَ كرقمِ الدّواةِ   يَــزْبُرها الكـاتبُ الحِميَرى [11]

يقول ابو الطيب اللغوي : ويروى يذبرها [12] .

٥ ـ المَنين : القوي والضعيف [13] . والصيغة مشتقة من المنّـة بمعنى الضعف ، ولعلها صادفت (متين) بالمثناة التي تعني القـوة ، فوحد التصحيف الصيغتين ، فانصرفت اللفظة الموحدة انصرافا مضادا .

٦ ـ السَّبْح : الاضطراب والسكون [14] . وقـد رويت بالخـاء أيضا ، وقرئ قوله تعـالى : (إن لك في النَّـهارِ سَبْحاً طويلاً) [15] بالوجهين ، ذكرها ثعلب في المجالس بالحاء ، غير ان القرطبي نقلها عنه في تفسيره بالخاء . ومهما يكن فالظاهر ان الاصلين مختلفان ، فما كان بالمهملة غير ما كان بالمعجمة ، الاّ ان تطور صوت الخاء الى الحاء عن طريق الخطأ في النطق أو التصحيف في الكتابة ولد اجتماع معنيي اللفظتين في لفظ واحد، فقد نقل عن ابن الاعرابي انه قال : « من قرأ سَبْحـا فمعنـاه اضطرابـا ومعاشا ، ومن قرأ سَبْخاً أراد راحة وتخفيفا للأبـدان » [16] . اذن فمعنى الاضطـراب هـو للسبح بالمهملـة ، ومعنـى السكـون هو للسّبخ بالمعجمة . وحين اجتمع للسبح معنيا الاضطراب والسكون بسبب هـــذا التطور الصوتي ، حملت (السَّبْخ) بالخـاء عليهـا ، فكـان لها هـذان

---

(١١) ديوان الهذليين ١/٦٤ .

(١٢) ابدال ابى الطيب ٢/٦ .

(١٣) قطرب ٢٦٩ وابن الانبارى ١٥٥ وهي في المزهر ١/٣٩٤ بالتاء ولعله خطأ مطبعي .

(١٤) معاني القرآن ٢/١٠٢ ومجالس ثعلب ٢/٤٧١ وتفسـير القرطبي ١٩/٤٣ ولسان العرب ٢/٤٧٠ .

(١٥) المزمـل ٧ .

(١٦) لسان العرب ٢/٤٧٠ .

المعنيان ايضا ، واعتبرهما الفراء شيئا واحدا [١٧] ، وكذلك ابن السكيت [١٨] .

٧ ـ أَسَرَّ : كتم وأعلن [١٩] . وللتصحيف في هذه المادة دور كبير ، فقد اعتمد الاضداديون بيت امرىء القيس في اثبات التضاد لهذه اللفظة وهو قوله :

تَجاوزتُ أحماساً اِليها ومعشراً
عليَّ حِراصا لو يُسِرّون مقتلي[٢٠]

ومعنى (يُسِرّون) فيه يحتمل أن يكون كتماناً وأن يكون اظهاراً ، في حين أن يسرّون قد صُحّفت عن يشرون بالشين ، وقد روي البيت بالمعجمة ، وهو على هذا لا يحتمل الاّ الاظهار والاعلان كما ذهب الى ذلك ابن كيسان[٢١] وعلي بن حمزة[٢٢] يقول أبو الطيب : « ومن رواه (لو يشرون) بالشين المعجمة ، فليس معناه اِلاّ الاظهار والاعلان . يقال : أشره يشرّه اذا أظهره وأعلنه ، ومنه قول الشاعر :

فما بَرِحوا حتّى رأىالله فِعلَهم وحتّى أُشِرّتبالأكفّ المَصاحِفُ

أي أظهرت وأعلنت »[٢٣] . وبهذا يخرج الفعل من حظيرة الأضداد ، لأن تضاده قد بني على هذا الشاهد المصحف وعلى أمثاله .

---

(١٧) معاني القرآن ٢/١٠٢ .
(١٨) لسان العرب ٢/٤٧٠ .
(١٩) قطرب ٢٤٢ والاصمعي ٢١ وابو حاتم ١١٥ وابن السكيت ١٧٧ والصغاني ٢٣٢ وابن الانبارى ٤٥ وابو الطيب ١/٣٥٣ والغريب المصنف ٥٢٤ والمزهر ١/٣٩١ والالفاظ الكتابية ٢١٢ ولطائف اللغة ١٤٣ ومجاز القرآن لابى عبيدة ٢/٣٤ وغريب القرآن للسجستاني ٧٣ .
(٢٠) ديوان امرىء القيس ٩ .
(٢١) شرح السبع الطوال لابن كيسان (مخطوط) ص٤ .
(٢٢) التنبيهات ٢٩٥ .
(٢٣) أبو الطيب ١/٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

٨ ـ الغابر : للماضي والباقي[٢٤] . ولعلّه في معنى الماضي من (العابر) وبه يمكن أن تفسّر الشواهد التي تعبر عن معنى المضي ، ويشتم ذلك في قول العجّاج :

أعابِران نحنُ في العُبّارِ   أم غابران نحنُ في الغُبّارِ[٢٥]

وواضح هنا أن الغابر للباقي لا غير وان العابر للماضي ، فلو كان الغابر يحتمل المعنيين لاستعمله فيهما ، لا كما يذهب ابن الانباري الى أن المعنى هنا الماضي ، ويؤيد هذا أن العجاج قصد في قوله :

فما وَنى محمدٌ مذ أنْ غفر   له الالهُ ما مضَى وما غَبَر

معنى الباقي كما ذهب ابن الانباري[٢٦] . لأنه لا يمكن لنفس القائل أن يستعمل الضد في مكانين بمعنيين كما قررنا ذلك قبلا ، فحين استعمل العجاج (غَبر) بمعنى بقي في هذا الشاهد ، لا يصح أن نعتقد أنه استعمل (الغابر) بمعنى الماضي في الشاهد الاول لأن القائل هو نفسه ، وعلى هذا فان استعمال الغابر بمعنى الماضي قد يكون بسبب التصحيف الذي أعجم العين من (العابر) .

٩ ـ سَمَلَ : أصلح بين القوم ، وفقاً العين[٢٧] . والظاهر أن سمل بالمعنى الأول هي (شَمَلَ) بالشين جاءت الى الاضداديين مصحفة في شاهد من الشواهد[٢٨] .

١٠ ـ بَرَّد : برَّد وسخَّن[٢٩] . وذلك استنادا الى قول الشاعر :

---

(٢٤) ابن الانباري ١٢٩ وأبو الطيب ٢/٥٢٧ والالفاظ الكتابية ٦١ وغريب القرآن للسجستاني ١٤٩ .
(٢٥) ابن الانباري ١٢٩ .
(٢٦) ابن الانباري ١٢٩ .
(٢٧) أبو حاتم ١٣٤ وابن الإنباري ٢٨٥ وأبو الطيب ١/٣٦٧ .
(٢٨) في اللهجات العربية ٢٠٦ .
(٢٩) ابن الانباري ٦٣ وأبو الطيب ١/٨٦ .

عافَتِ الشربَ في الشتّاءِ فقُلنا بَرّديه تُصادِفيه سَخيِنا

وهو في الواقع (بل رديه) وعلى هذا اللفظ يجب أن يروى البيت ، ويفك الادغام الذي أوهم خطأً بالتضاد • وقد أشار ابن الانباري نفسه الى ذلك ونقله عن ثعلب •

١١ ـ لَفَأَ : اذا أعطاه حقه كله واذا نقصه حقه(٣٠) • وذكروا لها معنى ثالثا هو (ضربه بالعصا) ، وبرجوعنا الى هذه المادة والوقوف عليها في كتب الأضداديين نجد أنهم جعلوها بمعنى (لكَأَ) وان الاخيرة تنصرف الى عين المعاني السابقة(٣١) • وبعد التثبت من هذه المعاني في معجمات اللغة يكون في حصيلتنا ما يأتي : ان التصحيف ألصق معنى (ضربه بالعصا) بالفعل لفأ ، وهذا المعنى من خصوصيات لكأ ، وبالمقابل لصق المعنيان المتضادان بالفعل لكأ وهما من خصوصيات لفأ ، فالتصحيف ولد ضدا جديدا هو (لكأ) وأضاف معنى جديدا الى ضد من الأضداد هو (لَفأ) أما المعنيان المتضادان فيمكن ارجاع احدهما الى الآخر بوساطة التطور الدلالي الذي حصل في اللفظة ، فكلا المعنيين من باب واحد ، فالفرق بين أن يعطى الحق كله وبين أن ينقص منه قليلا فرق يسير ، والعلاقة الكمية واضحة وضوحها في الظن والحسبان •

١٢ ـ أعْلَلْتُ : اذا أصدرت الابل ولم تروها واذا أوردتها ثانية فرويت(٣٢) ، ففي لسان العرب : « قال أبو منصور : هذا تصحيف ، والصواب أغللت الابل بالغين وهي ابل غالّة وروى الازهري عن نصير الرازي قال : صدرت الابل غالّة وغوال ، وقد أغلَلْتها ، من الغلّة والغليل وهو حرارة العطش ، وأما أعللت الابل وعللتها فهما ضدّا أغللتها ، لأن

---

(٣٠) الاصمعي ١٦ وأبو الطيب ٢/٦١٦ والصغاني ٢٤٤ •
(٣١) ابدال أبي الطيب ٢/٣٤٠ •
(٣٢) أبو حاتم ٩٩ (مادة نهل) ولسان العرب ١١/٤٦٨ •

معنى أعللتها وعللتها أن تسقيها الشربة الثانية ثم تصدرها رواء ، واذا علّت فقد رويت »[٣٣] • فهذا التصحيف الذي نصّ عليه الأزهري هو الذي جعل من اللفظة ضدا ، اذ تداخل معنى أعللت بمعنى أغللت وكل منهما ضد الآخر وقد اجتمعا في (أعْلَلْت) كما بيّنا •

وقد أشار الى دور الخطأ والتصحيف في نشأة الأضداد غير واحد من الدارسين وذكروا له الامثلة[٣٤] ، واذا فاتهم أوعز عليهم العثور على الأصل الذي ولّد هذا الخطأ أو ذاك التصحيف ، نسبوه الى وهم الأجيال الناشئة على هذا الاستعمال أو ذاك ، والفكرة صحيحة الاّ ان تطبيقها قد يكون بعيدا عن الواقع أحيانا ، فمثلا لفظة (الهاجد) بمعنى النائم والسّاهر ، فالمعنى الأول من قول المرقش :

سَرى ليلاً خيالٌ من سُليمى فأرقَني وأصحابي هُجُودُ

والمعنى الثاني من قوله تعالى : (ومن اللّيلِ فتَجَّهدْ بـه نافلـةً لك)[٣٥] ، يقول احد الباحثين : « فكيف نفسر وقوع هذا التضاد الاّ عن طريق الأخطاء التي يمكن أن تنسب الى الأجيال الناشئة • فقد كان للكلمة معنى واحد ، ولكن لقلة شيوعها فهمت في بيئة من البيئات على معنى آخر ، ونما هذا الفهم وذاع في الجيل الناشيء ، ثم أصبح معترفا به في اللغـة النموذجية ، فاستعمل القرآن هذه الكلمة بمعنى ، واستعملها المرقش بمعنى مضاد للمعنى الأصلي • وقد تم مثل هذا التطور في عصـور الجاهليـة قبل نشأة اللغة النموذجية وازدهارها »[٣٦] • وبمقدار صحة ما يذهب

---

(٣٣) لسان العرب ١١/٤٦٨ •

(٣٤) انظر مثلا : العلايلي : مقدمة لدرس لغـة العـرب ٢٢٦ وابراهيـم أنيس : في اللهجات العربية ٢٠٨ •

(٣٥) الاسـراء ٧٩ •

(٣٦) ابراهيم أنيس : في اللهجات العربية ٢٠٨ •

اليه هذا الباحث من الفكرة ، كان خطأ اختياره للمثل لأن صيغة السلب ومعناه متوفران في الفعل (تهجّد) وسنأتي على بحث ذلك فيما بعد . واذا كان لابدّ من مثل يلتمس لهذا فنحن واجدوه في مادة (الهجرع) التي ذكر لها ثعلب معنى الجبان ومعنى الشجاع[٣٧] . فلجهلنا بحقيقة دلالتها القديمة فنحن نفترض ان الخطأ في استعمال هذه الدلالة قد ولد معنى مضادا شاع حقبة من الزمن الى جانب معناها الأول ، ثم مات المعنيان بموت اللفظة ، لأن أصواتها وجمودها الاشتقاقي وانعدام ورودها في نص من النصوص المعروفة يوحي كل ذلك بقدمها السحيق في اللغة ، بحيث تمثل تاريخا منقرضا في دلالة الألفاظ . فاذا صح أن ننسب الى الاجيال الخطأ في فهم الدلالة ، فقد يصح أن يكون في مثل هذه اللفظة .

والخلاصة ان نظام التطور الصوتي هيّأ ظرفا خاصا نشأت فيه طائفة من الاضداد ، يرفدها التصحيف الذي وقعت فيه مدونات الاوائل ، والخطأ الذي سارت عليه استعمالات المتكلمين ، وما رافق ذلك من رغبة في الجمع والاستزادة التي تشجع المعنيين على الاعراض عن تصحيح الاخطاء والتنبيه على التصحيف إلاّ في القليل النادر ، بحيث تجمعت من كل هذا مادة ليست بالقليلة من مواد الأضداد يمكن ردّها بسهولة الى اصولها والمنشأ الاول بشيء من الدقة والتثبت .

التضاد والدوافع النفسية والاجتماعية

ربما يكون من الغريب القول بأن الضدية بصورة عامة هي نوع من أنواع العلاقة بين الأشياء أو المعاني ، وهي في المعاني أقوى منها في غيرها ، اذ تكون في الذهن من أقرب العلاقات . فما ان يرد الى المخيلة معنى من المعاني ، اسرع التداعي الى تصوّر ضدّه ، وأجلى صور هذا التداعي مايكون

---

(٣٧) مجالس ثعلب ٢/٥٢٥ .

في الألوان ، اذ يستحضر السواد في الذهن البياض أو العكس ، فعلاقة الضدية من أوضح الاشياء في استدعاء المعاني ، واذا كان طبيعيا أن تتداعى المعاني لعلاقة من العلاقات فتعبر اللفظة الواحدة عن أكثر من معنى ، فمن الأولى أن يكون التداعي مضادا فتعبر اللفظة عن معنيين متضادّين ، لأن استحضار أي منهما في الذهن يستدعي استحضار الآخر[٣٨] ، وهذا الذي نقرره هنا يتصل بطبيعة النفس البشرية ، وهي طبيعة قديمة قدم الانسان ، بل تقرب أن تكون غريزة من غرائزه الفطرية ، يتم هذا التصور في أعماقه بصورة لا ارادية في أكثر الأحيان ، فتظهر نتائجه في كلامه بشكل عفوي وتلقائي •

وقد أشار القدماء الى فكرة الحمل على النقيض في اللغة وعرضوا لامثلة من ذلك ، ويبدو ان أول اولئك القدماء الخليل بن أحمد ، وان كنا لا نملك له نصا يؤيد دعوانا ، وانما شممنا ذلك من تعرض تلميذيه الكسائي وسيبويه الى هذه الفكرة في مباحثهما اللغوية ، ونحن نفترض انهما أفادا ذلك من الخليل[٣٩] ، وذلك لتأثرهما معا بهذه الفكرة وصدورهما عنها • فالكسائي علق على تعدية الفعل (رضي) بعلى في بيت القحيف العقيلي :

اذا رَضِيَت عليَّ بنو قُشَيرٍ   لعمرُ الله أعجَبَني رِضاها

بقوله : « حمله على ضدّه وهو سَخَطْت ، لأن العرب قد تحمل الشيء على ضده كما تحمله على نظيره »[٤٠] ، ونقل عن أبي علي الفارسي أنه استحسن قول الكسائي هذا في تخريج الاستعمال ، وقال السيوطي : « وقد سلك سيبويه هذه الطريق في المصادر كثيرا ، فقال : قالوا كذا كما قالوا كذا وأحدهما ضد الآخر »[٤١] • وان كانت اشارة الكسائي أكثر

---

(٣٨) انظر : في اللهجات العربية ٢٠٧ ـ ٢٠٨ •
(٣٩) انظر : العين (المطبوع) ٢٦٨ ـ ٢٦٩ •
(٤٠) الاقتضاب ٢٤١ •
(٤١) الاشباه والنظائر ١٩٥/١ •

وضوحا وصراحة من محاولة سيبويه تفسير صيغ المصادر التي لم تجيء على القاعدة بالحمل على صيغ أضدادها في المعنى . ولا نعدم أن نجد بعد الكسائي من أشار الى فكرة تداعي النقيض في الذهن بشكل واضح ، كقول ابن أياز في (شرح الفصول) : « ربّما جعلوا النقيض مشاكلا للنقيض لأن كلّ واحد منهما ينافي الآخر ولأن الذهن يتنبه لهما معا بذكر أحدهما »[٤٢] . وكقول صاحب (البسيط) يعالج صيغة الجمع في (عِجاف) : « والذي حسّن جمعها في قوله تعالى (سَبعٌ عِجاف) حملها على سمان ، لأنهم قد يحملون النقيض على النقيض كما يحملون النظير على النظير »[٤٣] . فنظرية (تصاحب المعاني المتضادة بالذهن) قديمة قدم الكسائي وسيبويه ومن بعدهما من علماء المسلمين وليست من مبتدعات (علم تطور المعاني) الحديث كما يحاول بعض المستشرقين المحدثين تصوير ذلك[٤٤] .

ومهما يكن من أمر فان هذا الاستعداد النفسي للحمل على النقيض ، لا يحدث اعتباطا في ذهن الانسان وان حدث عفويا ، فتخلقه في (اللاشعور) اعتبارات اجتماعية ينشأ المتكلم بين ظهرانيها ويترعرع على تشرّبها وتمثّلها حتى تكون فيه بديهة في التفكير وسجية في الأخلاق ، وتتبلور هذه السجايا الاجتماعية فيه فتتخذ شكل الغريزة التي ترافقه في نشاطاته الفكرية ومزاولاته المنطقية ، « فاذا أراد مثلا أن يعبّر عن معنى سيء تشاءم من ذكر الكلمة الخاصّة به وفرّ منها الى غيرها» . وأفضل المعاني التي ينبغي أن يفرّ اليها هي أضداد المعاني الأول ، فيستعملها تفاؤلا بالخلاص من ذلك السوء ، فكانت الألفاظ الخاصة بالموت والمرض والمصيبة والكارثة هي من

---

(٤٢) الاشباه والنظائر ١/١٩٥ .
(٤٣) الاشباه والنظائر ١/١٩٥ .
(٤٤) كوتولدفايل : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٣ .

الأضداد بسبب نزعة المتكلم الى التفاؤل بالخلاص من هذه الأمور وكراهية ذكر الألفاظ الأصلية التي تعبّر عن هذه المعاني تشاؤما من هذا الذكـــر وابتعادا عنه • وقديما تطير العرب من اللون الأسود فعبّر عنه بالأبيض في أحايين كثيرة ، وربما يكون من ذلك تسمية التونسيين للفحم بالبياض ، هروبا من سواد الفحم الى البياض الذي يتفاءل به(٤٥) • ومثل ما يقال في نوازع التفاؤل والتشاؤم والتأدّب والتطيّر يقال في التهكم والاستهزاء ، وواضح أنها جميعا مشاعر مرتبطة الواحدة منها بالأخرى ارتباطا وثيقا في نفس الانسان التي غذتها الاعتبارات الاجتماعية السائدة بمفاهيمها المختلفة ، حتى ان هذه المشاعر كثيرا ما تتداخل فيما بينها ويكتنفها اللّبس ، فيصعب على الدارس تحديد احداها في تفسير ضد من الأضداد ، اذ قد يكون تضاد لفظة بسبب عامل التطيّر وقد يكون بسبب عامل التهكم ، لأن الظـروف الاجتماعية التي مهدت لهذه اللفظة ان تسلك هذه الطريق متنوعة ومتعددة بحيث يكون من المتعذر أحيانا تعيين الدافع بدقة ، فقد يكون اطـــلاق (العاقِل) على المجنون تفاؤلا له بالعقل ، وقد يكون في الوقت نفسه تهكما منه واستهزاء به ، ومثله اطلاق (النَّجِيب) على من يفتقر الى النجابة ، و (الكَرِيم) على البخيل وما الى ذلك مما هـو معـروف وشـائع في الاستعمالين الفصيح والعامي • وجدير بالذكر ان هذا الصـدور التلقائي الى التفاؤل أي الانتقال من النواحي السلبية المقيتة الى النواحي الايجابية في هذه المواد اللغوية القديمة ، هو ليس مما تختص به قبيلة دون أخرى ، بل قد توجد هذه المواد في اللهجة الواحدة ، بأن يعبّر بلفظ واحد أساسه الخير عن الخير والشرّ ، ولكن يتوقف الامعان في مثل هذا الاستعمال على قوة غريزة التطير أو ضعفها بين أفراد القبيلة ، التي تتوقف بدورها عـلى مدى ما بلغوا من حضارة وفكر •

---

(٤٥) التطور اللغوي التاريخي ١٠٣ •

ويرجع أحد الباحثين كثيرا من الأضداد التي تفسر بعامل التهكم والاستهزاء الى رغبة الشباب بصفة خاصة في الخروج عن القواعد المألوفة في التعبير ، وحبّهم للتجديد في الكلام ، واظهار مهارتهم في تخيّر الكلمات ولجوئهم بالتالي الى التعبير عن الشيء بكلمة مضادة هازئين ساخرين(٤٦) . ولعل هذا الباحث قد بعد عن الدقة ، من حيث ان اللغة ليست موقوفة على الشباب دون غيرهم في الاستعمال والتجديد بل ربما كان الأمر معكوسا فالخطباء هم من كبار القبيلة وشيوخهم وكذلك الكهان والشعراء في الغالب ، وهؤلاء هم صانعو اللغة في القبيلة ، فخصوصية الشباب غير واردة أصلا في هذا الصدد ، هذا من جهة ومن جهة اخرى نتساءل : متى كانت اللغة العفوية التي تنطلق بها بديهة القوم تنتظر مثل هذا التصميم المسبّق على الخروج عن القواعد المألوفة في التعبير لتنطلق من أفواههم عبارات الاستهزاء أو التهكم التي هي بطبيعتها تحمل معنى العفوية أكثر مما تحمله أية طائفة اخرى من الالفاظ ؟ واذا كان هناك اعداد للخروج عن القواعد المألوفة ، فلماذا لا يشمل هذا جميع مسائل اللغة وقواعدها وبنيتها وصرفها واستعمالاتها الخاصة وما الى ذلك ولم تقف رغبة الشباب في هذا عند ألفاظ السخرية والتهكم والاستهزاء ؟ .

وعلى كل حال فكثيرا ما نعثر في كتب الاضداد التي أوردت هذه الألفاظ على اشارات مؤلفيها أنفسهم الى عوامل التفاؤل والتطير والاستهزاء والخوف من العين في نشأة الضد الذي هم في صدد الكلام عليه ونصهم على طائفة من هذا النوع ، ونستطيع أن نحصي من هذه المجموعة من الأضداد عددا ينتظم ثلاث طوائف :

الاولى : ما يفسر بالخوف من العين ، مثل :

(٤٦) د.ابراهيم أنيس : في اللهجات العربية ٢٠٩ .

١ ـ امرأة بَلْهاء : اذا كانت ناقصة العقل واذا كانت كاملة العقل[٤٧] . فكأنهم خافوا على كاملة العقل من أن تصاب بالعين فلجأوا الى درء ذلك بتسميتها بالبلهاء .

٢ ـ فَرَسٌ شَوهاء : اذا كانت جميلة واذا كانت قبيحة[٤٨] . قال أبو حاتم: « لا أظنهم قالوا للجميلة شوهاء الاّ مخافة ان تصيبها عين ، كما قالوا للغراب أعور لحدَّةِ بصره »[٤٩] .

٣ ـ الأعْوَر : للذاهبة احدى عينيه وللصحيح العينين حديد البصر بهما[٥٠] .

والثانية : ما يفسر بالتطير والتشاؤم ، مثل :

١ ـ السَّليم : للسليم واللديغ[٥١] . قال ابو حاتم : « وهو عندي على التفوّل »[٥٢] . ونقل ابن الانباري عن الاصمعي وأبي عبيد أنه : « انّما سمي الملدوغ سليما على جهة التفاؤل بالسلامة[٥٣] » ، ومثل هذا التفسير موجود في أكثر كتب الاضداد واللغة[٥٤] . على ان ثعلبا نقل عن

---

(٤٧) ابن الانباري ٣٣٣ والصغاني ٢٢٤ .
(٤٨) الاصمعي ٣٢ وأبو حاتم ١٣٧ وابن السكيت ١٨٦ والصغاني ٢٣٥ وابن الانبارى ٢٨٤ وأبو الطيب ١/٤٠٨ والبارع ٨١ .
(٤٩) أبو حاتم ١٣٧ وعنه في أبي الطيب ١/٤٠٨ .
(٥٠) قطرب ٢٥٦ وابن الانبارى ٣٦٦ وأبو الطيب ٢/٥٠٨ وأبو حاتم ١٣٧ (شوهاء) وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ .
(٥١) قطرب ٢٤٨ وابن الانباري ١٠٥ وأبو الطيب ١/٣٥١ والاصمعي ٣٨ (فاز) وأبو حاتم ٩٩ (نهل) و ١١٤ و ١٢٧ (مسجور) وابن السكيت ١٩٢ (فاز) والصغاني ٢٣٣ .
(٥٢) أبو حاتم ١١٤ وعنه في أبي الطيب ١/٣٥١ .
(٥٣) ابن الانباري ١٠٦ وعن الاصمعي في التنبيه على حدوث التصحيف ١١٦ .
(٥٤) قطرب وابن السكيت وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ وسمط اللآلي ١/٤٩٠ .

ابن الاعرابي وسلمة والفراء انه انما قيل (سليم) لانه أسلم لما به ، وقد نسب الفراء هذا الى بني أسد من قبائل العرب [٥٥] .

٣ ـ المَفازَة : للمنجاة والمهلكة [٥٦] . قال ابو الطيب : « انما سميت الفلاة مفازة تفاؤلا ، وانما هي مهلكة » [٥٧] . وقال ابن الانباري : « قال الاصمعي وابو عبيد وغيرهما : سميت مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز » [٥٨] ، والى مثل هذا التفسير ذهب ابن قتيبة وثعلب [٥٩] ، وسائر الأضداديين ، غير ان ابن الاعرابي ذهب الى اعتبار التسمية على الأصل ، يقول ابن الانباري : « وقال ابن الاعرابي : انما قيل للمهلكة مفازة ، لأن من دخلها هلك ، من قول العرب : قد فوّز الرجل اذا مات ... » [٦٠] . ولكن ابن الاعرابي توهم فيما ذهب اليه ، لأن اشتقاق الفعل (فَوَّز) من المفازة وانصرافه الى معنى الموت قد تأخر عن التسمية الأولى والانصراف الأول ، فبعد ان شاعت تسمية المهلكة بالمفازة شاع أيضا تبعا لذلك انصراف (فوّز) الى معنى هلك ، وبهذا المعنى استعملها كعب بن زهير في قوله (.. وفوّز جَرولُ) [٦١] .

---

(٥٥) مجالس ثعلب ١/١٧٠ وابن الانباري ١٠٦ والتنبيه على حدوث التصحيف ١١٧ وسمط اللآلي ١/٤٩٠ .

(٥٦) قطرب ٢٥٨ والاصمعي ٣٨ وابن الانباري ١٠٦ وأبو الطيب ٢/٥٦٠ وأبو حاتم ٩٩ (نهل) وابن السكيت ١٩٢ والصغاني ٢٤١ . والمصباح المنير ٦٦٢ .

(٥٧) أبو الطيب ٢/٥٦٠ .

(٥٨) ابن الانباري ١٠٥ وعن الاصمعي في التنبيه على حدوث التصحيف ١١٦ .

(٥٩) تأويل مشكل القرآن ١٤٢ ومجالس ثعلب ١/١٧٠ .

(٦٠) ابن الانباري ١٠٥ وعن ابن الاعرابي في مجالس ثعلب ١/١٧٠ والتنبيه على حدوث التصحيف ١١٦ وما بعدها ولسان العرب ٥/٣٩٣ .

(٦١) أبو الطيب ٢/٥٥٨ .

٣ ـ النّاهِل : للراوي والعطشان [٦٢] • ويقول الاصمعي « وابل نهال أي عطاش يتطيرون بها من العطش فيقولون هذه إبلٌ ناهلة »[٦٣] • ويقول ابن الانباري : « وانما قيل للعطشان ناهل تفاؤلا بالرّي » [٦٤] ، ومثل هذا ما يقوله ابن السكيت وابو حاتم وابو الطيب وابن قتيبة [٦٥] •

٤ ـ البَصير : للبصير والاعمى [٦٦] • قال ابو الطيب : « وقالوا للعمياء بصيرة على وجه التفاؤل لها بصحّةِ البصر » [٦٧] • وفي الحقيقة نجد في المسألة شيئا اكثر من التفاؤل ألا وهو التجمل والتأدب ، فكأنهم أرادوا أن يشعروا فاقد البصر بأنه يمتلك مايحرص على امتلاكه فنادوه بالبصير •

٥ ـ العَقوق : للحامل والحائل [٦٨] • قال أبو حاتم : « أظن هذا من التفؤل كأنهم أرادوا انها ستحمل ان شاء الله »[٦٩] • والى مثل هذا ذهب أبو الطيب في تفسير هذه اللفظة •

---

(٦٢) قطرب ٢٥٣ والاصمعي ٣٧ وأبو حاتم ٩٩ وابن السكيت ١٩١ والصغاني ٢٤٦ وابن الانباري ١١٦ وأبو الطيب ٢/٦٣٧ والتنبيهات ١٠٥ ومجالس ثعلب ١/١١٨ ، ١/٣١٣ ومعاني الشعر ٥ واشتقاق ابن دريد ٢٠٥ ونوادر أبي زيد ٥٧ والافصاح في فقه اللغة ١/٤٥٠ ، ٢/٧٤٦ •

(٦٣) الاصمعي ٣٧ •

(٦٤) ابن الانباري ١١٦ •

(٦٥) في اضداد الثلاثة الاوائل وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ •

(٦٦) قطرب ٢٥٦ وأبو حاتم ١٣٨ وأبو الطيب ١/٦٣ •

(٦٧) أبو الطيب ١/٦٣ •

(٦٨) قطرب ٢٥٥ وأبو حاتم ١٣٨ والصغاني ٢٣٩ وابن الانباري ١٨٥ وأبو الطيب ٢/٤٩٥ •

(٦٩) أبو حاتم ١٣٨ •

٦ ـ المَطْبُوب : للمسحور وللمعالج من السحر (٧٠) . قال الزمخشري : « انه قيل للمسحور مطبوب على سبيل التفاؤل ، كما قيل للديغ سليم ، أي انه يطب ويعالج فيبرأ » (٧١) .

٧ ـ المَسْجُور : للملآن والفارغ (٧٢) . قال أبو حاتم : « يمكن أن يكون هذا على التفؤل ، كما يقال للعطشان ريان وللملدوغ السليم » (٧٣) ، ونقل كلامه أبو الطيب في أضداده ، والى مثل هذا المعنى ذهب ابن الانباري ايضا ، ولعل أحد المعنيين لغة قوم (٧٤) . ومن هذه الطائفة : (الحافل) و (عزّر) و (المَولى) و (أبو يَحيى) و (أمّ بيَضاء) و (أبو البَيضاء) و (أبو الجَوْن) و (الآدَم) وغيرها .

والثالثة : مايفسّر بالتهكم والاستهزاء ، مثل :

١ ـ مَرحَباً بِفُلان : اذا اريد قربه واذا لم يرد (٧٥) . وقد صدر ابن الانباري كلامه على هذه المادة بقوله : « ومما يشبه الأضداد قولهم في الاستهزاء .. » .

٢ ـ يا عاقِل : للعاقِل والجاهِل (٧٦) . قال ابن الانباري : « ومما يشبه الأضداد ايضا قولهم للعاقل : ياعاقل ، وللجاهل اذا استهزؤا به : ياعاقل » .

---

(٧٠) ابن الانباري ٢٣١ والصغاني ٢٣٧ .

(٧١) الفائق ٢/٧٦ .

(٧٢) قطرب ٢٥٧ والاصمعي ١٠ وأبو حاتم ١٢٦ والصغاني ٢٣٢ وابن الانباري ٥٤ وأبو الطيب ١/٣٦٠ .

(٧٣) أبو حاتم ١٢٧ .

(٧٤) انظر : تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة ، وفيه : (سجّرت : جمعت ، خثعم) ص ٥٢ .

(٧٥) ابن الانباري ٢٥٧ .

(٧٦) ابن الانباري ٢٥٨ .

٣ ـ قوله تعالى : (ذُقْ إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الكَريم)[٧٧] .

٤ ـ قوله تعالى : (إنّكَ لأنت الحَليمُ الرَّشيد)[٧٨] .

٥ ـ الشَّمْس جَوْنَة : لشدَّةِ بَياضها[٧٩] .

٦ ـ الأسْوَد : للدّرهم الأبْيَض[٨٠] .

٧ ـ ياحَليم : للرَّجل المسْتَخَفّ[٨١] .

وقلنا قبلا انه قد تلتبس مشاعر التطيّر بمشاعر التهكم أحيانا فيصعب تحديد ذلك بدقة في تفسير بعض الاستعمالات التي خلقت أضداد هذه المجموعة ، من ذلك مثلا (المسجور) التي قلنا انها اطلقت على الفارغ تفاؤلا بامتلائه ، ولكن قد يشتم من قول الجارية الحجازية (إن حَوضكم لَمسْجور)[٨٢] معنى من معاني السخرية والاستهزاء اذا عرفنا أن الحوض كان فارغا . كما قد يكون بأطلاق (ابي البيضاء) على الحبشي شيء غير التأدب والتفاؤل ، وربما يكون على عكس ذلك ، اذ يكون تهكما منه واستهزاء ، وكذلك اطلاق (أبي الجَون) على الابيض ، ففيه معنى الاستهزاء كما ذهب الى ذلك ابن قتيبة[٨٣] . كما قد يكون في اطلاق (الحافل) على الناقة الكثيرة اللبن وعلى التي لا لبن لها شيء غير التفاؤل اذا كان أصل المعنى في (الحافِل) هو القلة لا الكثرة ، اذ يكون الدافع حينئذ هو درء العين والخوف من اصابتها ، فاطلقت (الحافل) التي تعني في الأصل القليلة اللبن على كثيرة اللبن كما خافوا على الفرس الجميلة

---

(٧٧) الدخان ٤٩ : ابن الانباري ٢٥٨ وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ وتفسير الطبري ٢٥/٨٠ .

(٧٨) هود ٨٧ : ابن الانباري ٢٥٨ وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ .

(٧٩) ابن الانباري ١١٢ وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ .

(٨٠) ابن الانباري ٣٤٩ .

(٨١) تأويل مشكل القرآن ١٤٢ .

(٨٢) ابن الانباري ٥٦ .

(٨٣) تأويل مشكل القرآن ١٤٢ .

فسموها (شَوْهاء) وعلى المرأة الكاملة العقل فسموها (بلهاء) .

نخلص من ذلك الى أن هذه الانواع من التعبير ليست من الأضداد في شيء ، ذلك ان المتفائل مثلا يريد من اطلاق (السَّليم) على الملدوغ أن يوهم نفسه وسامعه ـ دون وعي ـ بحقيقة معنى اللفظ لا ضده ، لانه يرغب في أن يبعد عن نفسه صورة الملدوغ المتألم، ويقرّب صورة السليم المعافى ، فيتفاءل بهذه التسمية بسلامة الملدوغ وعافيته ، وكذلك سائر اضداد التفاؤل والتشاؤم . وشبيه بهذا مانقوله في المتهكم المستهزىء الذي يصف الجاهل بالعاقل مثلا ، فهو لم يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعقل ، لأنه لم يرد أن يتصور السامع من قوله (ياعاقِل) انسانا جاهلا ، بل أراد أن تكون صورة انسان عاقل في الذهن ، لان استحضار هذه الصورة وتطبيقها على الانسان الجاهل الذى اطلقت عليه اللفظة ، هو ما يقصد اليه المستهزىء، فمن المفارقة بين الصورتين تتم فكرة التهكم والاستهزاء والضحك ، ولو كان العكس أى أنه لو أراد معنى الجاهل في (ياعاقِل) لانطبقت الصورتان ولما تمت المفارقة التي هي اساس السخرية(٨٤) . ونحن حين نقول ان المتكلم أراد كذا ولم يرد كذا لا نعني انه كان يتحرّى هذه المفارقة تحريا مستقلا عن بديهته ويخطط للاستهزاء ويرسم له حدوده بعيدا عن فطرته ، وانما كان يتم كل ذلك في ذهنه بسرعة وبشكل عفوى وتلقائي ، بحيث لاتتأخر عبارة الاستهزاء التي يطلقها المستهزىء على المستهزأ به سوى لحظات قليلة .

اختلاف الصيغ والعوارض التصريفيّة

أوردت كتب الأضداد ابتداءا بكتاب قطرب وانتهاءا بالكتب المختصرة المتأخرة مجموعة كبيرة من الأضداد يمكن لدارسها أن يستشعر بوضوح

---

(٨٤) انظر : مقالة حسين محمد في اللسان العربي ٨/١٢٠ .

دور الاشتقاق الصرفي والتباس الصيغ المختلفة في خلق تضادها المزعوم والايهام بأصالته في دلالاتها ، واذا كان هذا الدارس قد اطلع على قوانين الاشتقاق في العربية وسعة هذه اللغة فيما تحوى من صيغ يمكن الاستعاضة ببعضها عن البعض الآخر في الاستعمال ، ووقف على ما يعتور الألفاظ المختلفة من عوارض تصريفية تتصل بزيادة الاصوات وحذفها لنكت لغوية تتعلق بالدلالة تارة وبالانسجام الصوتي تارة اخرى وبسهولة النطق ثالثة ، اذا أدرك كل ذلك ، استغرب من انهماك هؤلاء القوم في تلمس التضاد في لفظة عرض لها التصريف فصرف أصواتها الى مايوهم بضدية دلالتها في الظاهر ، وهي في حقيقتها بعيدة عما يراد لها بالنظرة الدقيقة . ومع ذلك فنحن لا نعدم أن نجد بين هؤلاء الأضداديين من قلّل من شأنها وأفردها بملحق في آخر كتابه ، وسيأتي بيان ذلك في الكلام على كتب الأضداد فيما بعد ، المهم اننا نستطيع أن نقسم هذه الطائفة من الأضداد الى مجموعتين كبيرتين ، تشمل الاولى منهما :

١ ـ ألفاظ على وزن (فاعل) تنصرف للفاعل وللمفعول ، مثل : (خائف)[٨٥] و (عائذ)[٨٦] و (عارف)[٨٧] و (نائم)[٨٨] و (عازم)[٨٩] و (عاصم)[٩٠] و (فاطم)[٩١] و (لائق)[٩٢] و (وامق)[٩٣] و

(٨٥) ابن الانباري ١٢٥ وأبو الطيب ١/٢٣٧ .

(٨٦) ابن الانباري ١٢٥ وأبو الطيب ٢/٥٠٤ .

(٨٧) ابن الانباري ١٢٦ وأبو الطيب ٢/٥٠٤ .

(٨٨) ابن الانباري ١٢٧ .

(٨٩) ابن الانباري ١٢٧ .

(٩٠) ابن الانباري ١٢٨ وأبو الطيب ٢/٥٠٦ .

(٩١) قطرب ٢٥٠ وابن الانباري ٣٦٣ .

(٩٢) ابن الانباري ٢٦٣ .

(٩٣) ابن الانباري ٣٤٠.

(حالِق)[94] و (كاتِم)[95] و (بائِتـة)[96] و (داحِضَة)[97] و (راضِيَة)[98] و (آشِرَة)[99] وغير ذلك مما تصح تسمية فاعل الفعل به وكذلك الشيء المفعول ، وهو استعمال شائع في العربية يراد به تقوية المعنى حين يصرف الى المفعول ، كما يراد به التفنن في الكلام وتحسينه ، ولم يلتبس على العرب من ذلك شيء ، لأن الاستعمال يوضح دلالة الصيغة من خلال سياق العبارة ، فاذا قيل مثلا (سِرٌ كاتِم) أو (عيشَة راضِيَة) أو (لَيْلَة بائتَة) فالقصد واضح في أن المعنى : سر مكتوم وعيشة مرضية وليلة مبيت فيها ، وقد أشار غير الأضداديين في كتبهم ومصنفاتهم اللغوية الى هذه الألفاظ دون أن يلمحوا فيها شيئاً من التضاد ، كالخليل [100] ، والفراء [101] ، والثعالبي [102] ، بل اعتبروا مثل هذه الاستعمالات مما يشيع في لغة العرب ، ذلك أنّهم يدعمون كلامهم على كل لفظة من هذه الالفاظ بطائفة من الامثلة المتشابهة من القرآن والشعر وكلام العرب .

٢ ـ ألفاظ على وزن (مَفْعول) تنصرف للفاعل وللمفعول ، مثل : (مَأْتِيّ)[103] ولم نجد غيرها في كتب الأضداد ، وقد استدل على ضديتها بقوله تعالى (إنّه كان وَعْده مأتِيّا)[104] اذ المفروض ان تكون

---

(٩٤) أبو الطيب ١/٢٠٩ .
(٩٥) أبو الطيب ٢/٦١٠ .
(٩٦) أبو الطيب ١/٨٥ .
(٩٧) أبو الطيب ١/٢٧٤ .
(٩٨) أبو الطيب ١/٣٢٦ .
(٩٩) أبو الطيب ١/٢٦ .
(١٠٠) العين ١٥٥ .
(١٠١) معاني القرآن ٢/١٥ـ١٦ .
(١٠٢) فقه اللغة ٤٩٢ .
(١٠٣) أبو الطيب ١/٣١ .
(١٠٤) مريم ٦١ .

آتيا ، والحقيقة ان معنى الفاعل مستفاد من السياق وان كان بلفظ المفعول ، وربما يكون في عبارة (وعده) مجاز ما عن مكان الحساب يوم القيامة ، اذ يكون المعنى : كان مكان حشركم الموعود مأتيّا • ولكن الفراء عالج الآية بشكل آخر فقال : « وقوله (إنّه كانَ وَعْده مأتيّا) ولم يقل : آتيا • وكل ما أتاك فأنت تأتيه ، ألا ترى انك تقول : اتيت على خمسين سنة واتت عليّ خمسون سنة ، وكل ذلك صواب » [١٠٥] • ومهما يكن التفسير فان في اللغة سعة في الاستعمال اذا وضح المعنى وأمن اللبس ، وما قلناه في (فاعل) نقوله في (مَفْعول) ، علماً بأن الأضداديين فاتهم أن يقرنوا الى (مأتِيّ) لفظة اخرى أشار اليها الثعالبي ، فبعد أن ذكر الأولى قال : « وكما قال جل جلاله : (حجابا مستورا) أي ساترا » [١] •

٣ ـ ألفاظ على وزن (فَعول) تنصرف للفاعل وللمفْعول ، مثل : (ذَعور)[٢] و (ركوب)[٣] و (فَجوع)[٤] و (زَجور)[٥] و (رَغوث)[٦] و (نَهوز)[٧] و (غَموز)[٨] و (عَصوب)[٩] و (شكوك)[١٠] و (ضَغوث)[١١] و (عَروك)[١٢] و (ظَؤور)[١٣] و (رَحول)[١٤] و (نَخور)[١٥] و (طعوم)[١٦] و (زعوم)[١٧]

(١٠٥) معاني القرآن ٢/١٧٠ •
(١) فقه اللغة ٤٩٢ وانظر : الصاحبي ٢٠١ •
(٢) الاصمعي ٥ وابو حاتم ١١٢ وابن السكيت ٢٠٧ وابن الانبارى ٥٧ وابو الطيب ١/٢٨٠ •
(٣) قطرب ٢٤٩ وابن الانبارى ٣٥٦ وابو الطيب ١/٣٠٦ •
(٤) ابن الانباري ٣٥٦ وابو الطيب ٢/٥٣٩ •
(٥) ابن الانباري ٣٥٧ وأبو الطيب ١/٣٣٢ •
(٦) ابن الانبارى ٣٥٧ وابو الطيب ١/٣٠٨ •
(٧) ابن الانبارى ٣٥٧ وابو الطيب ٢/٦٥٠ •
(٨) ابن الانبارى ٣٥٧ وابو الطيب ٢/٥٢٦ •
(٩) ابن الانبارى ٣٥٧ وابو الطيب ٢/٥٠١ •
(١٠) و (١١) و (١٢) ابن الانبارى ٣٥٧ وابو الطيب ١/٤١٦ ، ٤٥٦ ، ٢/٥٠٣ •
(١٣) و (١٤) و (١٥) و(١٦) و(١٧) قطرب ٢٤٩ ـ ٢٥٠ وابن الانبارى ٣٥٨ وابو الطيب ١/٣٢٤ ، ٣٣٦ ، ٤٦٤ ، ٤٧٩ ، ٢/٦٥١ •

و (مَخوض)[١٨] و (خَلوج)[١٩] و (شروب)[٢٠] و (قدوع)[٢١]
و (لبـوس)[٢٢] و (قـرون)[٢٣] و (لمـوس)[٢٤] و (سَحور)
و (فَطـور) و (شَمول) و (جَنوب) و (دَبـور) و (حَلوبَة)
و (قَتوبَة) و (جَلـوبَة) و (جَزوزة)[٢٥] و (أكـولَة)[٢٦]
وغيرها ، وهذا الوزن هو الآخر قد عده الأضداديـون من الأوزان التي يطرد فيها التضاد ، لانصراف الفاظه جميعـا الى معنى الفاعل والمفعـول ، متكلفين في حمل ما يمكن حمله من الالفاظ على هذا الوزن ، ومشتقين منه ما لم يجربه الاستعمال أو يرد به النص ، حتى نقل ابن الانباري عن قطرب انه قال : « فَعول : من حروف الاضداد »[٢٧] ، على أننا لم نجد قوله بهذه الصراحة في كتابه ، المهمّ اننا نستطيع أن نلحظ في هذه الالفاظ تعسفا كبيرا ، ذلك ان أغلبها من صفات الناقة وهي (المفعول) فلا يمكن أن يكون (الفاعِل) الذي هو الانسان طبعا ، مما يتصف بصفة من صفات الناقة ، وبالتالي يعد ذلك من الأضداد . والظاهر ان الفراء كان قد تنبـه الى هـذه الناحية ، اذ يقـول ابن الانباري : « ف (رَغوث) عند الفـراء وأصحابه ليس من الأضداد ، وكذلك الحروف التي عددها قطرب [يقصد

---

(١٨) ابن الانبارى ٣٦٣ .
(١٩) ابو الطيب ١/٢٥٨ .
(٢٠) ابو الطيب ١/٣٨٥ .
(٢١) ابو الطيب ٢/٦٠٥ .
(٢٢) ابو الطيب ٢/٦١٧ .
(٢٣) قطرب ٢٥٠ .
(٢٤) قطرب ٢٤٩ .
(٢٥) المواد من (سحور) الى (جزوزة) في ابي حاتم ١١٣ .
(٢٦) ابو الطيب ١/٢٤ .
(٢٧) ابن الانبارى ٣٥٦ .

ما كان على وزن فَعول] اذ كان (زَجور) توصف الناقة به ، ولا يوصف به البعير ، ووصف الرجل لا يقع مضادا لوصف الناقة به ، اذ كان من غير جنسها ، فهذان الفرقان بين البابين »[٢٨] هذه ناحية ، وناحية ثانية هي ان وزن (فعول) في العربية ، اذا كان للفاعل مذكرا أو مؤنثا لم تلحقه الهاء ، فيقال رجل كفور وامرأة كفور وكذلك غضوب وصبور وقتول .. الخ ، فهي من الصيغ التي يستوي فيها المذكر والمؤنث اذا عنت (فاعِل) ، فليس في هذا تضاد بين فاعل ومفعول ، أما اذا اريد بهذا الوزن معنى (المَفْعول) فعند ذاك يفرق بين المذكر والمؤنث بالهاء فيقال : ناقة أكولة وحلوبة وجزوزة وظعونة ، الا اذا قصد الى التعمية وهي على غير القاعدة فحينئذ تحذف الهاء ، قال الفراء : « اذا كان (فَعول) للفاعل لم تدخله الهاء ... استوى فيه لفظ المذكر والمؤنث ، واذا كان للمفعول دخلته الهاء في باب التأنيث ، ليفرق بين المفعول والفاعل ... وربما حذفوا الهاء من المفعول اذا أرادوا الابهام[٢٩] » . نفهم من ذلك أن العرب فرقوا بالهاء التي تدخل على (فَعول) للمؤنث ؛ بين المفعول والفاعل ، وحذفوا هذه الهاء اذا أرادوا بفعول معنى الفاعل لا غير للمذكر والمؤنث ، هذه هي القاعدة كما أوضحها الفراء ، أما أن يكون (فَعول) بلا هاء للفاعل والمفعول فذلك متعمد فيه الابهام ومقصود فيه الغموض ، ولعل أمثلته في كتب الأضداد هي اصداء تلك المحاولات التي تكلفها الطموح الأول قطرب لتكثير المادة وحشو الكتاب ليأتي زاخرا بالأضداد .

ولكنهم حين عرضوا للفظة (الأكولَة) قرروا أن (المَفْعول) منها هو : الشاة يربيها الراعي ليأكلها فهي مأكولة ، ولكنهم اختلفوا في (الفاعِل) فقالوا : رجل أكولة والهاء للمبالغة . وقالوا : الأكولة بمعنى

---

(٢٨) ابن الانبارى ٣٦٠ .

(٢٩) ابن الانبارى ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

الآكلين ، وقالوا : يجوز أن يكون الأكولة بمعنى المأكول[٣٠] ، وهكذا حيث يتضح التخبط لالتماس الضد ، وذكروا لتأييد التفسير الاول قولهم : رجل عروفة بالأمر ورجل لَجوجَة[٣١] • والمسألة كلها مردودة بما يحمل لفظ (أكولَة) واضرابه من معنى (المَفْعول) وحده ، يقول الاصمعي : « الأكولة من الغنم التي تعزل للأكل ، والحلوبة التي يحلبون ، والركوبة ما يركبون ، والعلوفة ما يعلفون »[٣٢] ، والى مثل هذا ذهب أبو زيد أيضا[٣٣] • ولم يؤثر عن السلف أنهم سموا كثير الأكل من الرجال بـ (أكولَة) وانما سموه (أَكُولاً) و (إكّيلاً) بتشديد الكاف ، صحيح أنه قد يبالغ بالهاء الا انه في غير (الأكولَة) •

٤ ـ ألفاظ على وزن (فَعِيل) تنصرف للفاعل وللمفعول ، مثل : (الأمين)[٣٤] و (التَّبيع)[٣٥] و (السَّميع)[٣٦] و (الصَّريخ)[٣٧] و (الغَريم)[٣٨] و (القنيص)[٣٩] و (النَّهيك)[٤٠] و (الأكيل)[٤١]

---

(٣٠) ابو الطيب ١/٢٤ـ٢٦ •
(٣١) الغريب المصنف ٢٨٥ •
(٣٢) الغريب المصنف ٢٨٤ •
(٣٣) نوادر ابي زيد ٢٤٣ •
(٣٤) قطرب ٢٥٥ والاصمعي ٥١ وابو حاتم ٢٠٤ وابن الانبارى ٣٤ وابو الطيب ١/٩ •
(٣٥) قطرب ٢٥٨ وابن الانبارى ٣٧٢ وابو الطيب ١/١٠١ •
(٣٦) ابو حاتم ١٣٣ وابن الانبارى ٨٣ وابو الطيب ١/٣٦٦ •
(٣٧) قطرب ٢٧٣ وابو الطيب ١/٤٢٩ وابن الانبارى ٨٠ والمزهر ١/٣٩٢ ولطائف اللغة ١٥١ •
(٣٨) قطرب ٢٥٥ وابو الطيب ٢/٥١٦ وابن الانبارى ٢٠٣ ولطائف اللغة ١٤٧ •
(٣٩) ابن الانبارى ٢٦٢ وابو الطيب ٢/٦٠٣ ولطائف اللغة ١٤٩ •
(٤٠) قطرب ٢٥٤ وابن الانبارى ٣٦٣ •
(٤١) ابو حاتم ١١٣ وأبو الطيب ١/٣٠ •

و (الشَّريب)[٤٢] و (النحيض)[٤٣] و (الحليل)[٤٤] و (الأليم)[٤٥] و(الكَريّ)[٤٦] و (الوَصِي)[٤٧] و (الرَّبيبة)[٤٨] وغيرهـا ، وربما فات كتب الأضداد شيء من هذه الالفاظ كهضيم التي ذكرها أبو حاتم في غير أضداده[٤٩] . ويمكننا أن نلاحظ التكلف نفسه الذي لاحظناه في الفاظ (فَعول) ، ذلك ان الأمر في مثل هذه الألفاظ موكول للاستعمال وشيوعه ، ولا يجوز في هذه الحالة القياس ، فمثلا لا نعلم ان السميع استعملت في غير معنى الفاعل (السامِع) ، وكذلك (الأليم) و (الوصِيّ) و (الحَليل) ، كما لا نعلم أن الربيبة استعملت في غير معنى المفعول (التي تُربَّب) وكذلك (القَنيص) و (الأكيل) و (الشَّريب) وغيرها ، فدعوى التضاد في ألفاظ هذه الزنة لا يمكن أن يدعمها الاّ الاستعمال والا فهي منصرفة الى معنى واحد لا غير ، كما أن للغة أغراض تتصل بالدلالة حين تلجأ الى استبدال صيغة باخرى في الاستعمال ، أو استخدام وزن دون آخر ، فاذا كانت خصوصية (فعول) مثلا الدلالة على التفضيل في الطبيعة وتفيد معنى الأكثر ، وخصوصية (فاعل) الدلالة على الفاعل ، فان (فعيل) خصوصيتها الدلالة على لزوم الوصف لزوما لا ينفك اذا سمي به[٥٠] . ولهذا فان العرب أطلقوا

---

(٤٢) ابو الطيب ١/٣٨٥ .

(٤٣) ابو حاتم ١٣٣ وابو الطيب ٢/٦٤٣ والصغاني ٢٤٦ .

(٤٤) لطائف اللغة ١٤٧ .

(٤٥) ابو حاتم ١٣٣ .

(٤٦) قطرب ٢٥٧ وابن الانبارى ١٩٩ وابو الطيب ٢/٦٠٧ وانظر : اصلاح المنطق ٢٤٣ والامثال للسدوسي ٥٨ .

(٤٧) ابو حاتم ١١٩ والصَغاني ٢٤٧ ولطائف اللغة ١٥٢ .

(٤٨) قطرب ٢٥٧ وابن الانبارى ١٤٢ وابو الطيب ١/٣١٠ .

(٤٩) النخل ٣٤ .

(٥٠) مقدمة لدرس لغة العرب للعلايلي ٦٨-٦٩ .

(فَعيل) على من تلزمه الصفة لزوما لا ينفك عنه سواء أكان المطلق عليه فاعلا أم مفعولا وبهذا جرى القرآن ، فكان الله : (سميعاً) (عليماً) (خبيراً) .. الخ لانها صفات لا تنفك عن الذات الالهية ، وهي كذلك بالنسبة لمن يشيع اتصافه بها من البشر ، وهي فاعل في المعنى لا غير ، وبالمقابل فان (المَفْعول) اذا لزمته الصفة لزوما ثابتا صح أن يقال في وصفه (فَعيل) ، فالسائل المشروب تلزمه صفة الشرب فقيل (شَريب) ، والمأكول الذي تلزمه صفة الأكل (أكيل) والحيوان (قَنيص) وهكذا ، على ان للغة كما قدمنا قبل قليل اغراضا بلاغية تدفعها لاستبدال الصيغ في الاستعمال ، ومن ذلك مثلا : « فَعال في معنى فَعيل ، نحو طَوال فهو أبلغ من معنى طَويل ، وعَراض أبلغ معنى من عَريض ... فَفعال وان كانت أُخت فَعيل في باب الصّفة فان (فَعيلاً) أخصر بالباب من فعال لأنه أشد انقياداً منه »[51] .

واذا شئنا أن نوغل قليلا في هذه الناحية قلنا ان (فَعيل) من صفات الفاعل دون المفعول ، وانما اطلقت على المفعول لاكتساب الاخير صفة الأول بالمشاركة فيها ، ذلك أن الدرس اللغوي التاريخي يشير الى ان وزني (فاعِل) و (فَعيل) يدلان دلالة متساوية أو قل متشابهة ، وكلاهما متطور عن وزن (فاعِيل) المنقرض في العربية[52] ، وبقيت صورته في بعض اللغات السامية ، وقد قصد من هذا التطور الذي حصل في الوزن الاصلي التنويع أو التخصيص ، فكان يقال مثلا (آمين) على وزن فاعيل ، والمقصود منه فاعل (أمِن يأمَن) ثم قيل بعد أن أميت هذا الوزن (آمِن) على وزن فاعل ، و (أمين) على وزن فعيل ، وكلاهما بمعنى فاعل (أمِن يأمَن) ، ولكن بينهما فرقا دلاليا أحست به أجيال المتكلمين بالعربية ،

---

(٥١) الاشباه والنظائر ١/١٤٥

(٥٢) مقدمة لدرس لغة العرب ١٦٩ ، ١٨٨ .

واذا كان من الطبيعي أن يشارك (الأَمِين) من يؤتمن به فتوضع عنده الأمانة وهو المأمون ، قيل هو (الأَمِين) ايضا ، فالمفعول قد اكتسب صفة الفاعل بالمشاركة بالأمانة ، ويمكن أن تُعمّم فكرة المشاركة هذه على وزن (فَعول) أيضا بشيء من تأويل قريب فركوب المنصرفة الى الفاعل والمفعول ، فيها معنى من معاني مشاركة الراكب للمركوب وعلاقته به ٠

٥ ـ ألفاظ على وزن (فَعّال) تنصرف للفاعل وللمفعول ، مثل : (التَوّاب)[٥٣] ، ولم نجد غيرها في كتب الأضداد ، منصرفة الى معنى من يتوب والى من يقبل التوبة ، وقد اعتبر الاضداديون أحدهما فاعلا والآخر مفعولا ، مستندين في ضديتها هذه على ما ورد من معناها في القرآن صفة لله مرة وصفة للعبد اخرى ، و (فَعّال) من صيغ المبالغة في العربية ، فيصح أن يتصف بها الله لكثرة قبوله التوبة ، وان يتصف بها العبد اذا كان كثير التوبة ، ولعل الذي أوقع العربية في هذا اللبس الخاص بهذه اللفظة ان الفعل (تابَ) هو من الفعل المشابه له صوتا ودلالة وهو (ثابَ) الذي يعني رجع وأناب ، والتوبة فيها رجوع عن الضلال وانابة الى الله ، والظاهر ان (تاب) اختص بدلالته على الرجوع من الضلال الى الهداية وبقي للفعل (ثابَ) معنى الرجوع العام وهذا الأخير من الافعال القديمة التي يوجد لها مثيل في اللغات السامية الاخرى ، فالفعل (שוב)في العبرية والذي يلفظ (شابْ) يحمل الدلالة نفسها وهي رجع أو عاد ٠ نريد أن نخلص الى أن هذا المعنى العام بقيت له آثار في العربية منها هذا الذي نجده في (التَوّاب) ، فيكون التفسير الدقيق لهذه اللفظة في ضوء المعنى القديم أن العبد يعود الى طاعة الله ، والله يعود الى رضاه عنه ٠

٦ ـ الفاظ على وزن (مُفَعّل) تنصرف للفاعل وللمفعول ، مثل

---

(٥٣) ابو حاتم ١٣١ والصغاني ٢٢٥ وابن الانباري ٤١٥ وأبو الطيب ١/١١١ ٠

(مُغَلّب)[٥٤] ولم نجد غيرها في كتب الأضداد ، وقد ذكر الأضداديون أن هذه الصيغة اطلقت على جماعة من الشعراء ، فقيل شاعر مغلّب أي كثير الغلبة لغيره فهو غالب ، وشاعر مغلّب أي كثيرا ما يغلب فهو مغلوب ، والحقيقة أنهم وهموا في ذلك ، فالتشديد الذي في اللفظة ليس للكثرة وانما للتفضيل والمشاركة ، وانما تكون المبالغة بـ (غَلاّب) اذ يكفي أن تطلق (مُغَلّب) على شاعر تغالب مرة واحدة ، وفي هذا يقول أبو الطيب : « فمُغَلّب (مُفَعّل) من ذلك ، والتشديد لتكثير الفعل . قال أبو الطيب : وليس كذلك لأنه لو غلب مرة واحدة سمّي مغلبا . وانما هو من قولك : تغالب الرجلان فغلبت احدهما »[٥٥] . اذن فالصفة تدل على المشاركة في الغلبة ، ويكون الحكم بعد التغالب أما للشاعر أو عليه ، ولذلك فاني أظن انهم حذفوا من الصفة ما كان متعلقا بالفعل من الحروف التي تشير الى الغالب والمغلوب ، اذ تكون (مُغلّب) للغالب من (غَلَّب له) ، وتكون (مُغَلّب) للمغلوب من (غَلَّبَ عليه) .

٧ ـ ألفاظ على وزن (مُفْتَعل) تنصرف للفاعل وللمفعول ، وهي على ضربين : الأول ما كانت عينه منقلبة عن واو أو ياء ، فلا يظهر في الألف الساكنة كسر العين وفتحها ، مثل (المُبْاع) و (المُتّام) و (المجتاب) و (المجتاح) و (المجتاز) و (المحتاج) و (المحتاض) و (والمُختْال) و (المُدّان) و (المُرْتاب) و (المُرْتاح)و (المُرْتاد) و (والمُزْدار) و (والمُسْتاف) و (المُسْتاق) و (المُشْتاق) و (المُطّاف) و (المُعْتام) و (المُعْتاص) و (المُغْتاب) و (المُقتات)[٥٦] .

---

(٥٤) قطرب ٢٧٣ والاصمعي ٥٣ وابو حاتم ١٤٥ وابن السكيت ٢٠٥ والصغاني ٢٤٠ وابو الطيب ٢/٥١٨ وابن الانباري ١٩٩ (مادة فزع) والاشتقاق ٢٥ والمزهر ١/٣٩٢ .

(٥٥) ابو الطيب ٢/٥٢١ .

(٥٦) المواد في ابي الطيب ٢/٦٩١ ـ ٢/٧٠٢ .

و (المُقْتال)[٥٧] و (المُقْتاد) و (المُمْتاح)[٥٨] و (المختار)[٥٩] و (المزدان) و(المُمْتاض) و(المُكْتال)[٦٠] و(المُزْداد)[٦١] .
والثاني ما كانت عينه مدغمة في لامه فلا تظهر فيها حركة العين أيضا ، مثل : (المبتـــــدّ) و (المبتـــزّ) و (المبتـــضّ) و (المحتـــزّ) و (المُحْتَشّ) و (المُحْتَطّ) و (المُخْتَصّ) و (المُخْتَطّ) و (المُضطَر) و (المُعْتَدّ)[٦٢] و (المُفْتَكّ) و (المُفْتَنّ) و (المُقْتَصّ) و (والمُقْتَضّ) و (المُقْتَمّ) و (المُكْتَنّ) و (المُلْتَف)[٦٣] و (المُرتَدّ)[٦٤] ، وغيرها . وبالرغم من قلة ورود هذا النوع عند غير ابي الطيب من الأضداديين بالنسبة لما أورده هو منها ، فان أبا الطيب مع ذلك قللّ من شأنه وأفرده في نهاية الكتاب ونص على أنه ليس من الأضداد ، فقال : « هذا آخر الاضداد على الحقيقة . وقد أدخل علماؤنا المتقدمون فيها أشياء ليست منها ، نحن نذكرها أبوابا ، لئلا يظن ظان انّا غفلنا عنها »[٦٥] . والحقيقة ان أغلب أولئك الذين عدّوا هذه الالفاظ من الاضداد كانوا عرضة لانخداع كبير أورثهم اياه جهلهم أو تجاهلهم للحقائق الصرفية ، واذا كان فيما أقول شيء من القسوة تجاه علمائنا القدامى ، فان الواقع يؤيد هذا ، ذلك أن دعوى التضاد في هـــذه الطائفة انما هو اعتبار لدور الأصوات فقط ، وتناسي حقيقة الكلمة ومقياسها الاشتقاقي ، فمختار الذي أصله (مُخْتَيِر) بكسر الياء لا يمكن ان يقال

---

(٥٧) ابو حاتم ١٢٠ وابو الطيب ٢/٧٠٢ .
(٥٨) ابو الطيب ٢/٧٠٣ .
(٥٩) ابو حاتم ١٢٠ وابن الدهان ٩٧ .
(٦٠) ابو حاتم ١٢٠ .
(٦١) ابن الانباری ٤١٠ وابن الدهان ٩٩ والصغاني ٢٣٢ .
(٦٢) المواد في أبي الطيب ٢/٧٠٤ وما بعدها وانظر ابا حاتم ١٢٠ .
(٦٣) المواد في ابي الطيب ٢/٧٠٨ ومابعدها .
(٦٤) ابن الانباری ٤٠٩ وابن الدهان ٩٨ والصغاني ٢٣٠ .
(٦٥) ابو الطيب ٢/٦٨٨ .

انه مختار الذي أصله (مُخْتَيَر) بفتحها ، لأن التضاد انما يتصل بالمعاني والاصوات معا • وقد أشار الى فكرة اختلاف الأصل هذه أبو حاتم (٦٦) ، وابن الأنباري(٦٧) من القدماء ، عندما عرضا لهذه الألفاظ في كتابيهما ، مما يدل على انهما كانا قد وقفا على حقيقة ذلك الأصل الذي اشتق منه ، وما يولده الادغام من اتحاد الصيغتين ، ومن الغريب بعد هذا أن نجدهما قد ضمنا كتابيهما عددا من هذه الألفاظ فهل كانا يعتقدان أن التضاد في هذه الطائفة يقوم على أصوات اللفظة ومعناها في الوقت نفسه ، وانه لو فرق بين الاثنين لألغيت فكرة التضاد من أساسها ؟ يبدو ذلك اذ أن الصرفيين حين يقررون ان (مُخْتار) أصلها مختير بكسر الياء للفاعل وبفتحها للمفعول ، ثم حذفت الياءان وقلبتا ألفا ، لا يقصدون الى ان العرب نطقوا أول مرة بالياء المحركة ثم قلبوها بعد طور من أطوار لغتهم ألفا ، لأن الحس اللغوي لدى المتكلمين دفعهم منذ الوهلة الاولى الى نطقها بالألف ، وما قاله الصرفيون انما هو افتراض لما يمكن أن تستقر عليه اللفظة لو كانت في أصلها على ذلكما البناءين ، وعلى هذا تكون الصيغتان المفترضتان للفاعل والمفعول شيئا واحدا ولا فرق صوتي بينهما في الاصل(٦٨) ، وكان قد مرّ علينا في صدر هذا الفصل ان المناطقة سمّوا هذا النوع من الصيغ الصرفية بالمغالطات اللفظية ، ومع ذلك فنحن « لا نستطيع ان نلحق بهذا النوع من الألفاظ معنيين متضادين ، وانما نقول ان فيها تضادا في اتجاه المعنى ، لا المعنى نفسه ، فهو مرة متجه الى الفاعل واخرى الى المفعول ، ولكنه هو هو في المرتين • فالاختيار لم يتغير ، وانما اتجه القائل ذات مرة الى فاعل هذا الحدث ، واتجه في المرة الثانية الى الذي

---

(٦٦) ابو حاتم ١٢٠ ــ ١٢١ •

(٦٧) ابن الانباري ٤٠٩ •

(٦٨) انظر : مجلة اللسان العربي ٨/١١٥ــ١١٦ •

وقع عليه الحدث »[٦٩] • وكذلك الأمر بالنسبة للفظة (مرتدّ) واخواتها ، التي يقول فيها ابن الأنباري : « اذا كان للفاعل أصله مرتدِد ، فاستثقلوا الجمع بين حرفين متحركين من جنس واحد ، فأسكنوا الدال الأولى وأدغموها في التي بعدها • واذا كان للمفعول فأصله مرتدَد ففعلوا مثل ما فعلوا في الباب الاول ، واستوى اللفظان من أجل الادغام »[٧٠] •

وتشبه هذه الحالة الحالة السابقة من حيث النشأةوالتفسير واتحاد الأصوات، ولكنها أبعد من تلك عن الابهام أحيانا ، فمن اللهجات ما يفك بها ادغام الاسم والفعل : (حالّ وحالل) و (غضْ واغضض) و (تغترّ وتغترر) وهكذا ، فربما فكوا الادغام في هذه الصفات فيتوضح المعنى ، على اننا لم نسمع انهم وقعوا عند استعمالهم لمرتد ومختار في حرج من غموض وابهام ، وانما كانوا يفرقون بين المعنيين بالسياق والقرائن •

أما المجموعة الثانية من الأضداد التي تفسر باختلاف الصيغ والعوارض التصريفية فتشمل :

١ ـ أضداد بين فَعَل وأَفْعَل ، مثل (تَرِبَ وأَتْرَبَ)[٧١] و (ثبتُ وأَثبتُ)[٧٢] و (قسَطَ وأَقْسَط)[٧٣] و (ثَلَلْتُ وأَثْلَلْتُ)[٧٤] و (خَفَيتُ وأخْفَيتُ)[٧٥] و (راحَ وأراح)[٧٦]

---

(٦٩) اللسان العربي ١١٦/٨ •

(٧٠) ابن الانباري ٤٠٩ وما بعدها •

(٧١) قطرب ٢٦٧ وابن الانبارى ٣٨٠ وابو الطيب ١/١١٥ •

(٧٢) ابو حاتم ١٤٨ وابو الطيب ١/١٢٤ •

(٧٣) قطرب ٢٥٩ والاصمعي ١٩ وابن السكيت ١٧٤ وابن الانبارى ٥٨ وابو الطيب ٢/٥٩٤ وابن الدهان ١٠٤ والصغاني ٢٤٢ وفقه اللغة للثعالبي ٥٨٠ •

(٧٤) قطرب ٢٦٨ وابن الانبارى ٣٨٧ وابو الطيب ١/١٣٧ •

(٧٥) قطرب ٢٥١ والاصمعي ٢١ وابن الانبارى ٩٦ وابو الطيب ٢٣٧ والافعال لابن القوطية ٣٩ •

(٧٦) ابو حاتم ١٣٤ وابن الانبارى ٢٩٠ •

و (زالَ وأزالَ)[٧٧] و (شَكا وأشْكى)[٧٨] و (خَذِمَ وأخْذَمَ)[٧٩] و (طَلَبَ وأطْلَبَ)[٨٠] و (فَرط وأفرط)[٨١] و (فادَ وأفادَ)[٨٢] و (وَزَعْتُ وأوْزَعْتُ)[٨٣] و (حَمَأْتُ وأحْمَأْت)[٨٤] و (قَرأتْ وأقْرأتْ)[٨٥] و (قَهَم وأقْهَم)[٨٦] و (سَرّ وأسرّ)[٨٧] و (هَمَد وأهْمَد)[٨٨] و (عَفا وأعْفى)[٨٩] و (خَفر وأخفر)[٩٠] و (قَذى وأقْذى)[٩١] و (فَزِع وأفزَع)[٩٢] و(وَدع وأوْدَع)[٩٣] و (عَذَر وأعْذَر)[٩٤] و (وَفَيْتُ وأوْفَيْت)[٩٥] و (سَنَدْت وأسْنَدْت)[٩٦] و (ساءَ وأساءَ)[٩٧]

---

(٧٧) ابن الانبارى ٢٧٦ والصغاني ٢٣٢ ٠

(٧٨) قطرب ٢٧٧ والاصمعي ٥٧ وابو حاتم ١٠٦ وابن الانبارى ٢٢١ وادب الكاتب ٣٣٧ ولطائف اللغة ١٤٦ ٠

(٧٩) قطرب ٢٥٥ وابن الانبارى ٣٧١ ٠

(٨٠) الاصمعي ٥٦ وابو حاتم ١٢٢ وابن الانبارى ٨٥ وادب الكاتب ٣٣٧ ولطائف اللغة ١٤٥ ٠

(٨١) قطرب ٢٦٢ وابو حاتم ١٤١ وابن الانبارى ٧١ ٠

(٨٢) ابو حاتم ١٠٩ وابن الانبارى ٤١٠ ٠

(٨٣) ابو حاتم ١٥٠ وابن الانبارى ١٣٩ والصغاني ٢٤٧ ٠

(٨٤) قطرب ٢٦٩ وابن الانبارى ٣٩٦ ٠

(٨٥) قطرب ٢٦٠ والاصمعي ٥ وابو حاتم ٩٩ ٠

(٨٦) قطرب ٢٦١ والاصمعي ١٥ وابن السكيت ١٧٢ والبارع ٦٧ ٠

(٨٧) قطرب ٢٥٢ وابن السكيت ١٧٧ وأدب الكاتب ٣٣٧ ومجالس ثعلب ٢٣١/١ ٠

(٨٨) قطرب ٢٤٧ والاصمعي ٢٨ وابو حاتم ١١٨ وابن السكيت ١٨٣ ٠

(٨٩) ابن السكيت ١٦٧ وابو حاتم ٩٢ والصغاني ٢٣٩ ٠

(٩٠) فقه اللغة للثعالبي ٥٨٠ ٠

(٩١) فقه اللغة ٥٨٠ ٠

(٩٢) أدب الكاتب ٣٣٧ ٠

(٩٣) ادب الكاتب ٣٣٧ ٠

(٩٤) الغريب المصنف ٣١٧ ولطائف اللغة ١٤٤ ٠

(٩٥) الغريب المصنف ٣١٧ ٠

(٩٦) الغريب المصنف ٣٢٤ ٠

(٩٧) لطائف اللغة ١٤٤ ٠

و (رَجَلَتْ وأرْجَلَتْ)[٩٨] و (بِعْتُ وأَبعَت)[٩٩] ، وغيرها مما نصت عليه كتب الأضداد واللغة ، وقد تناست أغلب هذه المصادر الفروق الدقيقة التي تكمن في دلالة الصيغتين ، حيث ان الهمزة لم تدخل على الفعل الثلاثي اعتباطا في كلام العرب ، والا لكان استعمالهم للثلاثي المجرد هو المعمول به في الضدين لو أرادوا ذلك ، فالهمزة بدخولها على الفعل لابد أن يكون لها دور كبير في تغيير المعنى ، وهذا الدور يكمن في أمرين : الاول أن تكون للتعدية فيثبت بها المعنى لمن وقع عليه الفعل ، فيكون في ظاهر معناه مخالفا لمعنى الفعل الثلاثي اللازم • والثاني أن تكون للسلب[١٠٠] ، وذلك بأن تسلب معنى الفعل المجرد وتقلبه الى المعنى المضاد ، يقول ابن جني : « وأفْعَلْتَ هذه وان كانت في غالب أمرها انما تأتي للاثبات والايجاب ، فقد تأتي أفعلت أيضا يراد بها السّلب والنفي ، وذلك نحو أَشْكَيتُ زيدا ، اذا زلت له عما يشكوه • أنشدنا أبو علي قال : أنشد أبو زيد :

تَمُدّ بالأعناقِ أو تَلويها وتَشتكي لو أننّا نُشْكيها

أي لو أننا نزول لها عما تشكوه » [١٠١] • وبهذا يكون الفعل بعد دخول الهمزة عليه شيئا آخر تماما بل فعلا مضادا في المعنى للفعل الأول بسبب هذا السلب الذي أفادته الهمزة • ولهذا قال ثعلب في قوله تعالى (أَكاد أُخْفيها) : « أريد أسترها ، ومن قال أَخْفي قال : أُظْهر »[١٠٢] ، فكأنه كان يرى أن الهمزة فيمن قرأ بالضم هي همزة السلب ، وقد قلبت المعنى ، وكانت هذه الآية هي التي أوهمت الأضداديين بتضاد الفعل

---

(٩٨) قطرب ٢٧٨ وابن الانبارى ٤٠٨ •
(٩٩) أمالي الزجاجي (مخطوط) ٦٩ ب •
(١٠٠) انظر : الفعل زمانه وأبنيته ٨٢ ومابعدها •
(١٠١) سر صناعة الاعراب ٤٢ •
(١٠٢) مجالس ثعلب ٢٣١/١ •

(أخْفى) لأن (خَفى) مجردا لا يعني الا ّ الاظهار[1] ، وقد وضح ذلك ابن جني أيضا بقوله : « ومثله قوله عز اسمه (إن السّاعَة آتية" أكـاد أُخفيها) تأويله والله أعلم عند أهل النظر : أكـاد أظهرهـا . وتلخيص حال هذه اللفظة : أي أكاد أزيل عنها خفاءها ، وخفاء كل شيء غطاؤه ... فأُخفيها في أنه (أُزيل خفاءها) بمنزلة قوله (لو أنّنا نُشْكيهـا) أي نترك لها ما تشكوه »[2] . وللعرب بعد هذا مآرب دلالية اخرى في هذه الهمـزة ، يقـول الفراء : « أطْرَدْت الرجـل أي صيّرته طـريـدا ، وطَرَدْته اذا أنت قلت له : اذهب عنا » و « أُقْهِرَ أي صار الى حال القَهْر ، وانما هو قُهِر »[3] ، و « العرب تقول لكل ماكان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجري لقوم : أَسْقيت ، فاذا سقاك الرجل ماء لشفتك قالوا : سَقاه ولم يقولوا : أسْقاه »[4] . أضف الى هذا ان كثيراً من استعمالات (فَعَل وأفْعَل) انما هو من اختلاف اللهجـات ، فقبيلة تستعمل الفعل بصيغة (فَعَل) وقبيلة أخرى بصيغة (أفْعَل) ، وقـد أشار غير واحد من علمائنا القدامى الى ذلك ، فهذا الخليل يعلق على بيت أبي ذؤيب :

أوْدى بَنيّ وأعْقَبوني حَسْرةً ... بَعد الرّقاد وعبرةً ما تَقلع[5]

بقوله : « أعْقَبوني مخالف للألفاظ السابقة وموافق لها في المعنى . ولعلهما لغتان . فمن قال (عَقّب) لا يقول (أعْقَب) كمن قـال بَدأْتُ به لا يقول أبْدَأْتُ به »[6] واذا كان الخليل قال (لعلهما) فالفراء جزم

---

(١) نوادر أبي زيد ٩ ومجـاز القـرآن لابي عبيدة ٢/١٦ ـ ١٧ وشـرح مقصورة ابن دريد ١٢٢ والاقتضاب ٢٣٠ .
(٢) سر صناعة الاعراب ٤٣ .
(٣) معاني القرآن ٢/٣٨٩ .
(٤) معاني القرآن ٢/١٠٨ .
(٥) ديوان الهذليين ١/٢ .
(٦) العين (المطبوع) ٢٠٣ .

بذلك في تفسير قوله تعالى : (فَسَوف نُصْليه ناراً)[7] ، فقال :
« وتقرأ : نَصْليه ، وهما لغتان وقد قرئتا ،من صَلَيت وأَصْليت »[8] .
وعرضت بعض المعجمات اللغوية الى شيء من هذا ، ففي لسان العرب :
مَضَّني الامر ، وبنو تميم يقولون : أمضَّني . وتقول قريش : حَزَنه ،
وبنو تميم : أَحْزَنَه[9] ... الخ .

من كل ذلك نريد أن نفضي الى تقرير أن القول بتضاد (فَعَل وأَفْعل) لا يقوم على علم بأساليب العربية في تغيير صيغة الفعل ، وما تلعبه الهمزة من دور التعدية والسَّلْب ، وما اختلفت فيه اللهجات العربية في استعمالها للصيغ لهذا فان ما كان التضاد فيه بين (فَعَل وأفْعَل) من الالفاظ لا يمكن أن يعدّ من الاضداد ويجب الاّ نغفل موقف ابن الانباري الصارم منها ، فقد نقد عليها وصرح بعدم ضديتها عنده ، يقول مثلا :
« وقال قطرب : من الاضداد قولهم : قد تَرِبَ الرجل اذا افتقر وأَتْرَبَ اذا استغنى . وهذا عندي ليس من الأضداد ، لأن (تَرِب) يخالف لفظ (أتْرَب) فلا يكون (تَرِب) من الأضداد لأنه لا يقع الاّ على معنى واحد . وكذلك (أتْرَب) ، والعرب تقول : قد ترب اذا لصق بالتراب من شدة الفقر ، وأترب اذا استغنى فهو مُترب »[10] . ومثل هذا ما قاله في (ثَلْلت وأثْلَلت) و (خَذِم وأخْذَم) و (حَمأت وأحْمأت) وسواها . وبالرغم من اشارات غيره كأبي الطيب وأبي حاتم الى هذه الناحية، الاّ انها اشارات عابرة لايعوّل عليها كقول أبي حاتم في (ثَبْت وأثْبَتُ): « ولا أعرف الثاني الاّ توهما »[11] . وعلى أن نقد هؤلاء أقرب للبساطة

(7) النساء ٣٠ .
(8) معاني القرآن ٢٦٣/١ . وانظر : ٣٩٩/١ و ٤٦٠/١ و ٢٣٢/٢ و ٣٩٤/٢ .
(9) لسان العرب (مضض) و (حزن) .
(10) ابن الانباري ٣٨٠ .
(11) أبو الطيب ١٢٤/١ .

منه الى النظرة الدقيقة ، فانه يقدر لهم التفاتهم الى ناحية من نواحي الفرق بين الصيغتين وان كانت شكلية محضة .

أما أن يكون (أفْعَل) وحده من الأضداد ، كقولهم : أطْلَبْت الرجل : أعطيته ماطلب ، وأطْلَبْته : الجأته الى أن يطلب[١٢] . فله تفسير آخر ، هو عندي قائم على التفريق بين همزتي الفعل ، فالأولى هي غير الثانية ، فالهمزة التي في (أَطْلبْته : أعطيته ماطلب) هي همزة السلب ، التي سلبت معنى الطلب وحولته الى معنى الاعطاء ، وهي جواب : طلب (الموجب) . والهمزة التي في (أطْلَبْته : الجأته الى أن يطلب) هي همزة التعدية التي أوقعت معنى (أطْلَب) الرباعي على الطالب ، فكان ملجأ بهذا الوقوع الى أن يطلب ، وهي جواب : لم يطلب (السالب) . فاجتمعت بهذا صيغتان متشابهتا الاصوات مختلفتا الهمزة فظن فيها التضاد . ولست أميل الى اعتبار أحد المعنيين حقيقيا والآخر مجازيا بدعوى انهما مرتبطان سببا ومسببا كما ذهب الى ذلك أحد الباحثين[١٣] . ذلك ان الاستعمالين موجودان منذ أن وجدت همزتا التعدية والسّلب وان كان المثل هنا مصنوعا، ولا يستشعر من أحد المعنيين انه مجازي بالنسبة للثاني وانه مرتبط به ارتباط السبب بالمسبب ، فالمتكلم يستطيع أن يستعمل أحد المعنيين باستخدام الفعل الخاص به دون أن يرتبط بذهنه المعنى الثاني بسبب مّا .

٢ ـ أضداد بين فَعَلَ وفعَّل، مثل: (بَدَنَ وبَدَّن)[١٤] و (سَبَدَ وسَبَّد)[١٥] و (عَزَرَ وعَزَّر)[١٦] و (فَزِع وفَزَّع)[١٧] و

---

(١٢) كتب الاضداد وتاج العروس ٣/٢٧٥ .

(١٣) حسين محمد : اللسان العربي ٨/١١٤ .

(١٤) قطرب ٢٧٣ وابن الانباري ٤٠٠ .

(١٥) قطرب ٢٧٦ وابن الانباري ٣٠٩ وابن الدهان ٩٩ .

(١٦) ابن الانباري ١٤٧ وابن الدهان ١٠٢ .

(١٧) ابن الانباري ١٩٩ ، ٢٨٣ وابن الدهان ١٠٣ وفقه اللغة للثعالبي ٥٥٩ .

(عَرَب وعَرَّب)[18] ، ومن ذلك أيضا ماكان (فعّل) وحده من الأضداد ، مثل : (فَرَّع)[19] و (حَلَّق)[20] و (جَمَّرت المرأة)[21] و (قَرَّظت)[22] و (وَلَّيت)[23] و (فَوَّز)[24] و (بَرَّد)[25] ، وغيرها . وهذه الصيغة أعني صيغة (فَعَّل) بتضعيف العين ، تنصرف الى ما تنصرف اليه صيغة (أفْعَل) من معنى ، اذ يستخدم هذا التضعيف للغرضين أنفسهما[26] . فاما أن يكون للتعدية وهو ايجاب، واما أن يكون للسلب ، وورودها في الأول هو الأكثر ، يقول ابن جني : « وقد قالوا ايضا : عَجّمت الكتاب ، فجاءت (فعّلت) للسلب أيضاً كما جاءت (أفعلت)» ونظير عَجّمت في النفي والسلب قولهم: مرّضت الرجل: أي داويته ليزول مرضه وقذّيتُ عينه أي أزلت عنها القذى ، ومنه رجل مبّطن : اذا كان خميص البطن كأن بطنه أخذ منه ، فجاءت (فَعَّلت) للسلب أيضا ، وان كانت في اكثر الأمر للايجاب »[27] ومن أوضح اشارات القدماء الى مجيء بناء (فَعَّل) للسلب هي اشارة الخليل في تعليقه على قول أوس بن حجر يذكر الخيل :

لَدى كلِ أُخْدودٍ يُغادِرن دارعاً
يُجَرّ كما جُرَّ الفصيلُ المُقرَّعُ

---

(18) النخل لابي حاتم (مخطوط) 39 ولسان العرب 1/590 .

(19) ابن الانباري 315 وابن الدهان 103 وديوان الادب للفارابي (مخطوط) ق 208 .

(20) ابن الانباري 422 وابن الدهان 96 .

(21) ابن الانباري 372 .

(22) ابن الانباري 392 وابن الدهان 105 .

(23) أبو الطيب 2/666 .

(24) أبو الطيب 2/557 .

(25) ابن الانباري 64 وأبو الطيب 1/86 وابن الدهان 94 .

(26) انظر : الفعل زمانه وأبنيته للدكتور ابراهيم السامرائي 82-92 .

(27) سر صناعة الاعراب 44 .

فقال : « وهذا على السلب لانه ينزع قرعه بذلك ، كما يقال : قذّيتُ العين : نزعت قذاها ، وقرّدت البعير .. » [٢٨] . ولهذا فان العارب والمُعَرِبّ ليسا ضدين بدعوى ان اصل الفعل وهو مجرّد يحمل معنى الاصلاح والافساد كما وهم أبو حاتم [٢٩] وغيره ، وانما هما شيئان مختلفان لاختلاف الأصلين ، اذ الأول من (عرب) والثاني من (عَرّب) مضعفا ، فاكتسب الفعل بهذا التضعيف معنى السلب ، فعرب مجردا بمعنى أفسد ، ولكن تقول المعجمات اللغوية في (عرّب) مضعفا انه بمعنى : « قبّح قوله وفعله، وغيّره عليه وردّه عليه ... وعرّب عليه :منعه » [٣٠]، فيكون هذا المنع والردّ للفساد هو الاصلاح ، وانما استفدنا هذا المعنى من صيغة (فعّل) التي هي للسلب .

ولانعدم أن نجد بين الأضداديين من نقد على هذا التضاد ملتفتا الى شيء من الفرق بين الصيغتين ، وان كان في ظاهره نقدا شكليا يقوم على التفريق بين صورتي الفعل ، دون تعليل أو شارة الى معنى السلّب ، يقول ابن الانباري : « وقال قطرب : من الأضداد قولهم : بَدُنَ الرجل اذا حمل اللحم والشحم ، وبدّن تبدينا اذا أسّن وكبر وضعف ، قال أبو بكر : وليس الأمر عندي على ما ذكر قطرب ، لأن (بَدّنَ) لفظه يخالف لفظ (بَدُنَ) ، وما لا يقع الاّ على معنى واحد لايدخل في حروف الاضداد » [٣١] . الا ان ابن الانباري لم يحاول هو ولا غيره أن ينقد ضدية (فَعَّل) وحدها ، بل ارتضاها وأدخلها في كتابه ، ونستطيع أن نوجّه لمثل هذا التضاد عين الملاحظة التي وجهناها لتضاد (أفْعَلَ) وحدها . اعني أنه ربّما اجتمعت في (فَعَّل) صيغتان لبستا لبوسا صوتيا متشابها فظن أن

---

(٢٨) العين (المطبوع) ١٧٧ .
(٢٩) النخل لابي حاتم (مخطوط) ٣٩ .
(٣٠) لسان العرب ١/٥٩٠ .
(٣١) ابن الانبارى ٤٠٠ ـ ٤٠١ .

فيها تضادا معينا ، فمثلا قد تكون (فرّع) التي تعني أصعد هي غير (فرّع) التي تعني انحدر[٣٢] ، وذلك بأن يكون التضعيف الذي دخل عين الفعل في الأولى للتعدية ولذا قيل في معناها (أصعد) لا صعد وهو متعد بمعنى أصعد جسمه أو راحلته او نظره أو أي شيء آخر يقع عليه الفعل ، ويكون التضعيف في الثانية للسلب ، وهو قلب المعنى وسلبه ، ولذا قيل في معناها (انحدر) وهو لازم لا متعد ، فيكون بذلك سلبا لمعنى الفعل المجرد (صعد) الذى هو لازم أيضا .

٣ ـ أضداد بين فَعَل وتَفَعَّل ، مثل : (تَأثَّم)[٣٣] و (تَحَوّب)[٣٤] و (تَصَدَّق)[٣٥] و (تَحَنَّث)[٣٦] و (تَظَلَّم)[٣٧] و (تَهَيَّب)[٣٨] و (تَوَسَّد)[٣٩] و (تَهَجّد)[٤٠] و (تَضَوّع)[٤١] و (التَفطّر)[٤٢] و (التّنبّل)[٤٣] و (المتفكه)[٤٤]

---

(٣٢) يرى أبو زيد في نوادره ١٨٦ : ان (فرع) علا ، و (أفرع) انحدر ، وهذا يؤكد معنى السلب في (افعل) من الاضداد .
(٣٣) قطرب ٢٥٨ وابن الانباري ١٦٩ وابن الدهان ٩٣ وأبو الطيب ١/١٧ وفقه اللغة ٥٥٩ .
(٣٤) ابن الانباري ١٦٩ .
(٣٥) أبو حاتم ١٣٥ والصغاني ٢٣٥ وابن الانباري ١٧٩ وابن الدهان ١٠٠ وأبو الطيب ١/٤٣٧ .
(٣٦) ابن الانباري ١٨٠ وابن الدهان ٩٦ والصغاني ٢٢٨ .
(٣٧) قطرب ٢٦٨ وأبو حاتم ١٢٧ وابن الانباري ١٩١ والاصمعي ٥٣ وابن الدهان ١٠١ وأبو الطيب ١/٤٧٣ .
(٣٨) الاصمعي ٤٩ وأبو حاتم ١٢٨ وابن الانباري ٩٩ .
(٣٩) ابن الانباري ١٨٦ وابن الدهان ١٠٧ والصغاني ٢٤٧ .
(٤٠) الاصمعي ٤٠ وابن السكيت ١٩٤ وابن الانباري ٥٢ وأبو الطيب ٢/٦٧٨ وفقه اللغة للثعالبي ٥٥٩ .
(٤١) أبو حاتم ١٣٨ والصغاني ٢٣٦ .
(٤٢) قطرب ٢٦٠ وابن الانباري ٢٧٣ وابن الدهان ١٠٣ وأبو الطيب ٢/٥٦٣ .
(٤٣) أبو الطيب ٢/٦٤٩ .
(٤٤) قطرب ٢٧٥ والاصمعي ٥١ وابن‌الانباري ٦٥ وابن‌الدهان ١٠٣ وأبو الطيب ٢/٥٤٥ .

و (المتكئد)[٤٥] و (يتَمَصحَّن)[٤٦] وغيرها، وهذه الصيغة هي الاخرى تستعمل لأكثر من معنى ، تماما كصيغتي (أفْعَل) و (فَعَّل) ، فقد تأتي للسّلب كما تأتي للاثبات ، يقول ابن جني : « ونظير فعّلت وأفْعَلت في السلب أيضا (تفعّلت) ، قالوا : تحوّبت وتأثّمت ، أي تركت الحوب والاثم ، وان كان (تَفَعَّلت) في أكثر الأمر تأتي للاثبات ، نحو تقدمت وتأخرت وتعجلت وتأجّلت .. »[٤٧] . واشار الفراء الى معنى السلب في (تَفَعّل) بمقارنتها في الاستعمال بـ (أفْعَل) فقال في قوله تعالى : (واذْ تَأذن رَبكم)[٤٨] : « معناه : أعلم ربكم ، وربّما قالت العرب في معنى أفْعَلْت : تَفَعّلْت ، فهذا من ذلك والله أعلم . ومثله : أوْعدَني وتَوَعدّني ، وهو كثير »[٤٩] . وفرّق ابو علي القالي بين معنيي علا وانحدر في مادة (فَرَع) بأن جعل (تَفرَّع) للعلو ، و (فَرَّع وأفْرَع) للانحدار ، والأولى على السلب[٥٠] . ورأى الثعالبي السبب نفسه في تضاد (فَعَل وتَفَعّل) وعدد امثلة من ذلك ، وذكر مما لم يذكر الأضداديون : « حَرِج فلان اذا وقع في الحرج ، وتَحرَّج اذا تباعد عن الحرج »[٥١] حتى إنه أبعد في تلمّس معنى السّلب في الالفاظ والصيغ ، فذكر انه يقال : « إمرأة قَذُور ، أي متصونة عن الأقذار ، واللفظ يُشْبه ضدّ ذلك »[٥٢] .

والى جانب معنى الاثبات ومعنى السلب في صيغة (تَفَعّل) معان

---

(٤٥) أبو الطيب ٢/٦٠٩ .
(٤٦) أبو الطيب ١/٤٤٧ .
(٤٧) سر صناعة الاعراب ٤٤ .
(٤٨) ابراهيم ٧ .
(٤٩) معاني القرآن ٢/٦٩ .
(٥٠) أمالي القالي ١/٥٧ .
(٥١) فقه اللغة ٥٥٩ .
(٥٢) فقه اللغة ٥٥٩ .

أخر تنصرف اليها بعض امثلة هذه الصيغة ، منها (التكلّف) نحو تشجّع وتحلّم ، وما هو بشجاع ولا حليم • و (الاتّخاذ) نحو تردّى وتوسّد من الرداء والوسادة ، وهو معنى يأتي من الاشياء المادية لا المجردة • و (التكرّر في مهلة) نحو تجرّع وتفهّم (٥٣) • ومن هذا الأخير لفظة (تَصَدّق) التي يقول فيها البطليوسي: «لأن العرب تستعمل (تَفَعَّلْتُ) في الشيء الذي يؤخذ جزءا بعدجزء، فيقولون: تَحَسَّيت المرق، وتَجرَّعت الماء ، فيكون معنى تَصَدَّقت التمست الصدقة شيئا بعد شيء » (٥٤) ، وكان الأولى أن يقول (أعطيت الصَّدقة شيئا بعد شيء) على الأصل ، ولا يختلف معنى الجزئية والتقطيع الذى قرره في هذه الصيغة ، لان أبا حاتم نقل لنا عن ابي زيد أنه قال : « تصدّق الرجل اذا أعطى صدقته ، وبعض العرب يقول : تصدق سأل ، والجيد تصدق اعطى »(٥٥) • المهم اننا امام معان كثيرة يمكن أن نرجع اليها الالفاظ السابقة كل واحدة منها الى حظيرتها • اذ نفترض ان تكون الافعال التي تعني اشياء مكروهة يستحب تجنبها واتقاؤها ، صيغت على تفعّل للسلب ، ليستفيدوا منه معنى التجنب والاتقاء ، وهذه مثل : تأثّم ، تحوّب ، تحنّث ، تظلّم ، تهيّب ، تحرّج ، تهجد وغيرها ، حتى ان بعض الاضداديين صرح بأن من هذه الافعال مالم يكن له الاّ معنى واحد وهو السّلب ، يقول ابن الانبارى : « كما يقال : قد تحوّب الرجل اذا تجنّب الحوب • ولايستعمل (تحوّب) في المعنى الآخر » (٥٦) • ولما كان الهجود مما يستكره للعابد التقي ليلا سلبوا معنى (هَجَدَ) فقالوا (تَهجدّ) ، يقول أبو الطيب : « وأكثر مايقال في النائم

---

(٥٣) شرح الرضي على شافية ابن الحاجب ١/١٠٤ ــ ١٠٧ •

(٥٤) الاقتضاب ١١٠ •

(٥٥) أبو حاتم ١٣٥ ــ ١٣٦ •

(٥٦) ابن الانباري ١٦٩ •

هاجد ، وأكثر مايقال في المستيقظ متهجّد ، وفي التنزيل (فتهجدّ به)(٥٧) قال التوزى : معناه صلِّ به ، وقال غيره : فتيقَّظ به »(٥٨) .

ويمكن أن نرجع الى معنى (التكلّف) من هذه الافعال : تفطّر ، تفكّه ، تكأّد ، تَنَبَّل ، فهي تشعر بمحاولة فاعلها أن يتكلف معانيها في نفسه ، وهي ليست فيه . ونرجع الى معنى (الاتخاذ) منها : توسّد ، تصحّن . والى معنى (التكرّر والجُزئيَّة) : تصدّق وتضوّع . وهكذا نجد أن جميع هذه الافعال انضوت تحت معان متعددة دفعت العربي الى استعمال هذه الصيغة ليعبّر عن واحدة من هذه المعاني ، على ان معنى السلب فيها أشيع هذه المعاني وأقوى الدوافع الى استعمال (تَفَعّل) فيما عدا معنى الاثبات والتحقيق الذى يشمل جمهور أفعال هذه الصيغة ، ذلك ان التكلف بحد ذاته فيه معنى من معاني السلب ، ولكنه سلب عكسي اذا صحّ التعبير ، ففي السّلب المعروف نبعد عنا معنى الفعل السيء تجنبا وتعففا ، ولكننا في التكلف نقلب المسألة فنستجلب معنى مفقودا فنسلبه لأنفسنا بعد أن لم يكن فيها ، وهذا واضح اذا قلنا : تكرّم ، تحلّم ، تشجّع ، وسواها(٥٩) . لهذا فلا تضاد حقيقي بين صيغتي (فَعَل وتَفعَّل) أو في صيغة (تَفعَّل) وحدها ، لاختلاف الاصل المعنوى الذى يقوم عليه بناء هذه الأفعال ، اذ لا تكفي وحدة الصوت أو الشكل لكي تفترض مثل هذه الضدية .

الثنائية واختلاف الاصلين

مرت علينا في أكثر من موضع سابق الاشارة الى نظرية ثنائية اللغة ، التي نادى بها علماء اللغة القدامى ، وسار على خطاهم عدد من المحدثين ،

---

(٥٧) الاسراء ٧٨ .

(٥٨) أبو الطيب ٢/٦٨٠ وانظر : الاصمعي ٤٠ .

(٥٩) انظر نوادر أبي زيد ٢٠٦ وفيه : « ويقال : ما كان ذا حلم ولقد تحلّم . وما كان ذا أناة ولقد تأنّى » .

مدلّلين جميعا على صحتها بما يمكن ملاحظته في طائفة كبيرة من الفاظ اللغة ، وامكان ارجاعها الى حرفين أصليين بحيث يكون الحرف الثالث طارئا منوعاً للمعنى ومخصصا له .

الذى نريد أن نبينه هنا هو امكان تطبيق هذه النظرية في تفسير نشأة الأضداد كما حاول ذلك أحد الدارسين(٦٠) . وهذا يتم بالرجوع بالضد الى أصلين ثنائيين تلاقحا بفعل تطور العربية من مرحلة الثنائية التامة الى الثلاثية التي أصبحت طابعها المميز ، اذ تكون دلالة اللفظة في هذه الحالة دلالتين مجتمعتين باجتماع الاصلين الثنائيين ، فتكون في دلالتها على أحد الضدين منحدرة من أصل ، وفي دلالتها على مقابله منحدرة من أصل آخر ، وبذلك نكون بصدد كلمتين لا كلمة واحدة ، وهذا الأمر يصدق على طائفة كبيرة من الأضداد ، فمثلا :

١ ـ ضَعُفَ : التي تعني الدلالتين المتضادتين : زاد ، نقص (٦١) . اذ تكون بالمعنى الأول منحدرة من الثنائي (ضَفْ) الدال على الزيادة والكثرة ، وبالمعنى الثاني من الثنائي (ضَعْ) الدال على القلة والضمور والنقصان (٦٢) .

٢ ـ أبَضَ : بمعنى سكن وتحرك (٦٣) ، فبالمعنى الأول صادر من (بَضْ) في بضا وباض بمعنى : أقام في المكان وسكن . وبالمعنى الثاني من (أبّ) الشيء : حرّكه(٦٤) .

٣ ـ شَعَبَ : التي تعني فرق وجمع (٦٥) ، فبالمعنى الأول هي من

---

(٦٠) الاب مرمرجي الدومينكي في ابحاثه في الثنائية والألسنية .
(٦١) ابن الانباري ١٣١ والصغاني ٢٣٦ .
(٦٢) المعجمية العربية للاب مرمرجي ٢٢١ .
(٦٣) الصغاني ٢٢٢ ولسان العرب ٧/١١٠ .
(٦٤) هل العربية منطقية للاب مرمرجي ١٣٥ .
(٦٥) قطرب ٢٦١ وابن الانباري ٥٣ وأبو الطيب ١/٤٠٠ والمصباح المنير ٤٢٧ .

الثنائي (شَعْ) المراد به التفرق ، وبالمعنى الثاني هي من (عَبْ) الدال على الجمع [٦٦] .

٤ ـ أبَلَ : بمعنى رطب ويبس [٦٧] . فبالدلالة الأولى من الثنائي (بَلْ) بمعنى : ندى وبالدلالة الثانية من (أبْ) في الآب وهو الكلأ اليابس[٦٨] .

٥ ـ هَجَدَ : التي تعني نام وسهر [٦٩] . الأول من (هَدْ) في هدأ بمعنى سكن . والثاني من (جَدْ) بمعنى : جهد ، اذ السهر اجتهاد في منع النوم[٧٠] .

ومثلها المواد : عَطَلَ ، قَلَصَ ، لَطَعَ ، نَصَبَ ، هَلَبَ ، فَغَمَ ، قَوِي ، قَشَعَ ، طَلَعَ ، لَقَمَ ،، وغيرها [٧١] . اذ يمكن رد كل لفظة من هذه الالفاظ الى ثنائيين مختلفين في الدلالة بنفس الطريقة المتبعة في الأمثلة السابقة ، على ان الأب مرمرجي بالغ كثيرا في هذا الصدد وأوغل في محاولة ابطال الضدية بطريقته التي سمّاها (نظرية الثنائية) .

ان عامل (المغناطيسيّة) اذا صح التعبير ، الذى نشط في تلك المرحلة التاريخية من مراحل اللغة ، وحد مجموعة من الثنائيات اللغوية التي ترتبط فيما بينها برابط التضاد في المعنى ، فكون منها ألفاظا ثلاثية ـ بعد أن استغنى عن بعض أصواتها ـ تنصرف دلالتها انصرافا متضادا ، فكانت ظاهرة من ظواهر اللغة ، أو مشكلة من مشكلاتها القديمة كما يسميها الدارسون . والرجوع الى طائفة من موادها بهذا التفسير يكشف عن حقيقة وجودها

(٦٦) المعجمية العربية ٢٢٤ .
(٦٧) الصغاني ٢٢٢ .
(٦٨) هل العربية منطقية ١٣٥ .
(٦٩) الاصمعي ٤٠ وابن الانباري ٥٢ وأبو الطيب ٢/٦٧٨ .
(٧٠) هل العربية منطقية ١٤٢ .
(٧١) هل العربية منطقية ١٣٧ ـ ١٤٢ والمعجمية العربية ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

ويوضح أحد عوامل نشأتها ، حيث لا يعني استخدام هذا التفسير ان جميع الأضداد يمكن أن تخضع له ، لأن كثيرا منها كان نشؤوه بسبب عوامل لغوية وحضارية ونفسية اخرى عرضنا لها وسنعرض لغيرها .

ويمكننا من دراسة هذه الطائفة من الأضداد أن نتبين المسير الذى سلكه الأصلان الثنائيان في تلاحمهما وتداخلهما ، اذ تدل أغلب الأمثلة على ان المعنى السلبي هو الذى تقدم نحو المعنى الايجابي فلصق به وطرأ عليه ، فكأنهما معتد ومعتدى عليه ، وهو سلوك طبيعي حين تتعقد الحياة ويحتاج فيها الى النقض والابطال وتبتعد الأذهان عن البساطة والعفوية المتناهية التي كانت متوفرة في البدائية الأولى حين كانت الايجابية سمة الحياة غير المركبة والعيش غير المعقد . فلكل ضد دلالتان سلبية وايجابية ، فاذا كانت اللفظة تعني الزيادة والنقصان ، فالزيادة معنى ايجابي والنقصان سلبي ، واذا كانت تعني الجمع والتفريق فالجمع معنى ايجابي والتفريق سلبي وهكذا ، فاذا صح ان المعنى السلبي هو الطارىء ، صح قولنا ، انه هو المعتدى لأن الفطرة البشرية تنفر من هذه السلبية المقيتة وترتاح الى الايجابية المحببة . نلمح ذلك حين نحلل أصوات الضد الثلاثي ونرجع به الى الأصلين الثنائيين ، ونرى كيف تسلسلت هذه الأصوات وتمازجت واستقرت ، فمن هذا التسلسل والتمازج والاستقرار نتبين خطوات الأصلين في تحركهما . فمثلا (ضَعُفَ) التي ذكرنا انها بمعنى زاد ونقص وهما من الثنائيين (ضعْ) نقص ، و (ضَفْ) زاد . فلو حللنا أصوات اللفظة كما استقرت عليه لوجدنا انها تبتدىء بالثنائي (ضع) تاما ولكنها احتفظت من الثنائي الآخر بالفاء وحدها ، وعلى هذا فنحن نفترض أنها في الأصل (ضَعْضَفَ) قبل أن يستغنى عن نصف الثنائي الثاني ، فيكون لدينا بهذا التركيب صورة لحدثين أحدهما وقع على الآخر ، وبالتأمل نجد ان الحدث الأول وقع على الحدث الثاني ، أي ان (ضَعْ) وقع على (ضَفْ) ولو شئنا ترجمة هذه

الأصوات بعبارة لقلنا (نقص الزيادة) ، فعندنا أصلا زيادة ما وهي معنى ايجابي وقع عليها فعل النقصان وهو معنى سلبي ، ولهذا استغني عن ضاد (ضَفْ) ولم يستغن عن ضاد (ضَعْ) ، وذلك لترسيخ معنى النقصان الحاصل في الزيادة الأصلية ، ومن هنا كان النقصان معتد طارىء ، وبالرغم من ان ذلك لم يكن له تخطيط مسبّق من قبل المتكلم الا انه لم يحدث اعتباطا وبمعزل عن (اللاشعور) النشيط في نفس الانسان ، والا لكان الضد (فَعَضَ) أو (فَضَعَ) مثلا أو غير ذلك من صور الأصوات الثلاثة ، ومثل هذه المادة في التكوين مادة (شَعَبَ) الآتية من (شَعْ) فرق و(عَبْ) جمع ، وكذلك (أبَضَ) من (أبْ) تحرك و (بَضْ) سكن .. وهكذا .

ولابد لنا ونحن في صدد الحديث عن الثنائية من أن نتعرض الى شيء يتصل بالأصوات المفردة لما له من علاقة بهذا الموضوع ، لأن الصوت ـ كما مرّ في فصل الدلالة ـ له دور كبير في تحديد المعنى العام للفظة وصرفه الى وجهة معينة ، حيث تتكون دلالة الألفاظ في اللغة من مجموع دلالات أصواتها ، ولهذا كان استقراء المعجم اللغوي يؤكد وجود أصوات تدلّ ـ فيما لو وجدت في لفظة من الألفاظ ـ على معنى خاص بتلك الأصوات . وذلك يتعلق أيضا بالألفاظ التي حكت أصواتها أصوات الطبيعة وهي كثيرة ، منها ما كان حكاية لأصوات الانواء ومنها لأصوات الاحداث وأصوات الحيوانات حتى ان اللفظة من هذه المجموعة كانت تدل على مسماها دلالة صوتية بحتة ، بل يستطيع السامع أن يتبين دلالتها دون أن يعرفها وذلك باستيحاء أصواتها ، فاذا قيل لأحد أي أصوات الحيوانات يسمّى (عواء) فربما عرفه وقال صوت الذئب ، وان لم يكن قد عرف ذلك قبلا ، ولكنه يهتدي اليه باستيحاء اصوات الاسم وتطبيقه على طبيعة مسمّاه .

أريد أن أخلص من ذلك الى أننا قد نستطيع بشيء من دقة في استيحاء

دلالة الصوت أن نصل الى معنى بعض الألفاظ ، ولست أدعي بذلك ان موضوع ربط الصوت بدلالة اللفظ من المواضيع المستحدثة في علم اللغة ، ذلك ان القدماء وعلى رأسهم ابن جني قد تنبهوا اليه وبحثوا فيه ، وزاد فيه المحدثون وطوّروه على أسس علمية مدروسة ، ولكني أريد أن أقول ربّما كانت محاولة تطبيقه الآن على الاضداد جديدة ، حيث نهدف من ذلك الى توثيق صلة اللفظة بأحد معنييها المتضادين أو بمعنى مشترك عام وذلك باستيحاء الأصوات وربطها بالمعنى • فلو أخذنا مثلا لفظة (السُّدْفَة) التي قالوا انها تعني الظلمة وتعني الضوء ، لوجدنا أن أصواتها لا تميل بنا الى أي من المعنيين ، فلا تتمحض في ايحائها للضوء كما لا تتمحض للظلمة ، اذ نستشعر انها شيء آخر ربّما كان وسطا بين الظلمة والضوء • فتتابع أصواتها وتلاحقها يوحي بأن هناك انبثاقا بطيئا لينا لشيء من بين شيء آخر وهما الضوء من الظلمة ، ذلك أن صوت السين الصادر من بين الأسنان المنطبقة وما يرافقه من لم للشفة بسبب ضمة السّين يوحي بالانبثاق ، ثم تأتي حركة اللسان المتجه من الداخل الى الخارج للنطق بالدال مؤيدة المعنى السابق ، حتى اذا استقر صوت الدّال الساكن الموحي بالظلمة الساكنة التي ينبثق منها الضوء جاء صوت الفاء المفتوحة الصادر من بين شفتين مفتوحتين موحيا بقرب انتهاء عملية الانبثاق ، فأصوات اللفظة بمجموعها عبّرت بنغمتها وتتابعها وحركات أعضاء النطق معها عن عملية ولادة الضوء من الظلمة ، ولهذا أطلقت (السُدْفَة) في شواهد كثيرة على ما يشاهد (فجرا) من المعنى الذي أشرنا اليه والذي أرجعنا اليه الضدين في موضوع (شمولية المدلول الأول) • وقد لا نستطيع أن نجد في الفاظ اخرى مثل هذا التفصيل الدقيق في تسلسل الأصوات حسب تسلسل حدوث المعنى أو ما نجده في حركات أعضاء النطق من مرافقة لدلالة الصوت ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستوحي منها انها ألصق بهذا المعنى من ذاك لمجرد انطباع يتركه في الذهن وحي الأصوات ، فمثلا توحي أصوات مادة (الجَوْن) على السواد

دون البياض ، و (الجَلَل) على العظيم دون الحقير بسبب صوت اللام المتكرر ، اذ لو كانت بلام واحدة لكان ايحاؤها معكوسا • و (الرَّهْو) على حفرة كبيرة أو فضاء واسع ينظر اليه من عل ، وربما يفسر هـــذا معنيي الارتفاع والانخفاض • و (ماثِل) على من لطأ بالأرض بعد أن كان منتصبا وذلك ما يوحيه مدّ الألف وكسر الثاء • و (سَبْح)[٧٢] على الانتشار والاضطراب دون السكون • و (هَجَدَ) على النوم دون السّهر لان صوت الهاء يوحي بالهمود والارتماء ، وغير هذه من الألفاظ • وهذا لا يعني اننا بذلك نقطع بأن المعنى الحقيقي للفظة هو هذا الذي توحيه أصواتها ، وانّما هي محاولة نستأنس بها عـلى مـا توصلنا اليـه تحرياتنـا الاخرى ، ونوثق بوساطتها النتائج والخلاصات ، لان مثل هذا الاستيحاء لا يقوم على دليل بقدر ما يقوم على الاستشفاف والتطلّع ، لذا فقد يصدق وقد لا يصدق •

ومن بحوث الثنائية أيضا أن يرجع بالضّد الى أصل ثنائي واحـد يعبّر عن المعنى الأصلي الذي تفرّع منه المعنيان المتضادان ، وهذه الطريقة تشبه الى حد بعيد تلك المحاولة التي تفسّر التضاد بشمولية المدلول الأول ولكنها في هذه المرة تعتمد أصلا ثنائيا ربما احتيج الى مقارنته بما يشبهه في اللغـات الساميّة ، وهي مـا دعـاه أحـد الباحثين ب (طريقـة الألسنية السامية)[٧٣] ، وهي وان كانت وسيلة ذات نفع وجدوى في هذا المجال الاّ ان الايغال في ترصّدها وتتبعها من شأنه أن يفسد جدواها • ومن أمثلة تطبيق هذه الطريقة مادة (عَسْعَسَ) التي تدل على اقبال الليل وعـلى ادباره[٧٤] ، فأصلها الثنائي (عَسْ) يعني : طاف بالليل ، فيمكن أن

---

(٧٢) معاني القرآن ٢/١٠٢ ومجالس ثعلب ٢/٤٧١ ولسان العرب ٢/٤٧٠ وتفسير القرطبي ١٩/٤٣ •

(٧٣) الاب مرمرجي الدومنيكي نفسه : المعجمية العربية ٢١٩ •

(٧٤) قطرب ٢٦٦ والاصمعي ٨ وأبو حاتم ٩٧ وأبو الطيب ٢/٤٨٨ وابن الدهان ١٠٢ •

تطلق اللفظة على اقبال الليل وعلى ادباره لأن في كل منهما معنى الحركة[٧٥] . ومثلها (قَرَضَ) المستعمل في المدح والذم[٧٦] ، وهو من الثنائي (قَضْ) الدال على القطع ، لان المادح يقطع الممدوح ويفرزه عن سائر الناس ، وكذلك الذام يقطع المذموم ويفرزه[٧٧] . ومثلها (سَجَرَ) التي تعني ملأ وأفرغ[٧٨] ، والمادة من الثنائي (سَجْ) الدال على الانزال ، والملء نوع من انزال السائل في الوعاء أو نقله من حوض الى آخر أو من بحر الى ثان ، حيث يتطلب هذا الملء افراغ الاناء أو الحوض أو البحر المنقول منه لتلازم المعنيين في عملية (السَّج) فكان الانصراف متضادا[٧٩] . وكذلك المواد : شَمَلَ من (شَمْ) . وبيض من (بَضْ) وباعَ من (بَعْ) . وعَنَدَ من (عَنْ) وغيرها[٨٠] . مما يمكن أن يلمح فيها الأصل الثنائي قبل أن ينوع معناه الصوت الجديد .

الا أن تفسير الأضداد بالثنائية لم يرق لاحدهم ، فأنكره بشدة ، بل اعتبره دليلا عكسيا على حقيقة الضدية ، وان الأضداد أمر واقع سواء كان ذلك بسبب اتحاد ثنائيين في الصورة أو تطور دلالي لثنائي واحد[٨١] . وقد تناسى هذا الباحث أن القصد من ذلك هو بيان أن التضاد ليس أصيلا في الوضع ، وانما كانت نشأته بسبب من هذه الاسباب ، التي نستطيع بوساطة الرجوع اليها أن نتبين الظروف التي هيأت وساعدت مجموعة من الألفاظ على أن تكتسب هذه الضدية ، ونحن حين نلغي عددا من هذه

---

(٧٥) المعجمية العربية ٢٤٤ .
(٧٦) قطرب ٢٦٧ وابن الانباري ٣٩٢ وفي كليهما بالظاء .
(٧٧) المعجمية العربية ٢٢٣ .
(٧٨) ابن الانباري ٥٤ وأبو الطيب ١/٣٦٠ وابن الدهان ٩٩ .
(٧٩) المعجمية العربية ٢٢٥ .
(٨٠) هل العربية منطقية ١٣٦ ـ ١٤٢ .
(٨١) عادل زيدان : أبو الطيب اللغوي ٨٨ ـ ٨٩ .

الأضداد ، فانما نلغي أصالة الضدية في وضع الألفاظ فقط ، وأمـا تلك التي حفلت بها كتب الأضداد فهي أضداد بلا خلاف ، وهي موضع درسنا ، ومحاولات تفسيرها هذه انما كانت لأنها أضداد .

المجــاز والمقلـوب من التراكيب

في مواد الأضداد طائفة غير قليلة يتضح فيها ان أحد معنيها حقيقي والآخر مجازي ، ذلك أن الانتقـال من الحقيقـة الى المجـاز عن طريق استعمال الألفاظ مستعارة من معانيها الأول الى معان جديدة ، تدفع اليـه حاجات كثيرة في نفس المتكلم قد يكون منها الحياء أو الخجل أو الخوف أو أي دافع آخر متعمد أو غير متعمّد ، يقول الاصمعي : « ولما أرادوا أن يجيئوا بالشيء فلا يمكن ، فيأتون بشيء من سببه يستدل عليه به »[٨٢] ، حتى اذا شاع اطلاق اللفظة مجازا على معنى معين وكثـر استعمالها فيـه تقترب شيئا فشيئا الى أن تكون حقيقية في دلالتها على ذلك المعنى ، ونكون بعد ذلك ازاء لفظة تنصرف انصرافين حقيقيين ، فاذا كان المعنيان متضادين أو ما يشبه المتضادين عدت هذه اللفظة من الأضداد ، والوهم في عد هذه الالفاظ من الأضداد واضح ، ذلك ان الاسرار البلاغية لا علاقة لهـا في الواقع بوضع اللغة ، فهي أمور نسبية تتفاوت طرق التعبير عنها بتفـاوت الأشخاص ، فليس ضروريا أن يكون ما استعمل على سبيل الاستعارة أو التقابل لغرض من الاغراض دالا على التضاد الحقيقي الوضعي ، غير أن الناس اذا تناسوا العلاقة التي تستدعيها الصور والألفاظ والأفكار المتداعية بين الحقيقة والمجاز ، نقلوا هذه الألفاظ متوهمين فيها التضاد الحقيقي .

وقد أشار الى دور المجاز في خلق التضاد غير واحد من الـدارسين

---

(٨٢) الحروف لابن السكيت ٤٤ .

المحدثين[٨٣] ، متحفظين في ايراد أمثلته وشواهده ، غير أن منهم من أسرف في هذا المجال فعدّ كل الاضداد داخلة في هذا الباب ، وقد تعمد المتكلم أن يستعمل معانيها المتضادة مجازا وملاحن ليتسنى له تحقيق أغراضه حين الملحفة ، والابانة عن أفكاره حينما تحوم من حوله الاذن ، حتى قال صاحب هذا الرأي : « واذا كانت الاضداد حيلة لغوية تفسّر على هـذا الوجه ، فيتحتم علينا جدا أن نتريث في درسها لأنها قد توقفنا على نحو من (الشيفرة) عند العرب اذا قبلت هذه التسمية »[٨٤] . وفي هذا المذهب بعد عن حقيقة المسألة لأن كثيرا من الأضداد أمكن الرجوع به الى اختلاف اللهجات والى التطور الدلالي والصوتي الذي يصيب الالفاظ والى العوارض الصرفية التي تلحق الصيغ والمشتقات والأفعال وغير ذلك من عوامل نشوء التضاد ، فلا يمكن حصر هذه العوامل جميعا بالمجاز أو (الحيلة اللغوية) التي يقصد اليها المتكلم قصداً على نحو من (الشيفرة) ، وذلك ما لا يؤيده الدرس العلمي الحديث لهذه الظاهرة ، كما لا يؤيده الدرس التاريخي لطبائع العرب وسلوكهم . ومهما يكن من أمر فاننا نستطيع أن نحصي من أضداد المجاز :

١ ـ الهَجْر : يقال هجرت الرجل اذا أعرضت عنه ، وهجرت الناقة اذا شددت في انفها الهجار وهو حبل ، ليعطفها على ولد غيرها[٨٥] . فقد انتقلت اللفظة عن طريق المجاز من معنى هجر الرجل فأطلقت على هجر

---

(٨٣) انظر : فقه اللغة (وافي) ١٨٩ ودراسات في فقه اللغة ٣١٠ وابن السكيت اللغوي ٢٣٩ ودائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٢ ومجلة مجمع اللغة العربية الملكي ٢/٢٢٧ ومجلة اللسان العربي ٨/١١٦ ومحاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية ٢٥ .

(٨٤) مقدمة لدرس لغة العرب للعلايلي ٢٢٥ .

(٨٥) قطرب ٢٧٥ وابن الانباري ٣٢٣ وابن الدهان ١٠٧ وأبو الطيب ٢/٦٨٣ .

الناقة لولدها والعطف على ولد غيرها .

٢ ـ إرَة : للحفرة التي تشعل فيها النار ، وللنار بعينها[٨٦] .

٣ ـ الإشْرارَة : يقال إشْرارة للخصفة التي يشرر عليها الملح والأقط ، ويقال إشْرارة لما يشرَّر على الخصفة من الملح والأقط[٨٧] .

٤ ـ الثِنْي : يقال ناقة ثني اذا وضعت بطنين ، ويقال للذي في بطنها ثني[٨٨] .

٥ ـ النّاس : يقال ناس للناس ، وناس من الجن[٨٩] .

٦ ـ الغانِيَة : يقال غانية للمرأة التي استغنت بزوجها ، ويقال غانية للشابة الجميلة التي تستغني بجمالها عن الزينة[٩٠] .

٧ ـ الأَيِّم : يقال امرأة أيّم اذا كانت بكرا لم تزوج ، وامرأة أيّم اذا مات عنها زوجها[٩١] .

٨ ـ الظِّهارَة والبطانَة : يقال للظهارة بطانة ، وللبطانة ظهارة ، لأن كل واحد منهما قد يكون وجها[٩٢] .

٩ ـ الثَّغْب : يقال للماء ثغب ، وللموضوع فيه الماء ثغب[٩٣] .

١٠ ـ الأَحْمَر : للأحمر والابيض[٩٤] .

١١ ـ الأَخْضَر : للأخضر والأسود[٩٥] .

---

(٨٦) ابن الانباري ٣١٩ وأبو الطيب ٢/٧١٣ .
(٨٧) ابن الانباري ٣١٨ وابن الدهان ١٠٠ .
(٨٨) ابن الانباري ٣٢٠ وابن الدهان ٩٥ وأبو الطيب ١/١١٩ .
(٨٩) ابن الانباري ٣٢٨ وابن الدهان ١٠٦ .
(٩٠) ابن الانباري ٣٣٠ وابن الدهان ١٠٣ .
(٩١) ابن الانباري ٣٣١ وابن الدهان ٩٣ .
(٩٢) ابن الانباري ٣٤٢ وابن الدهان ١٠١ وأبو الطيب ١/٤٧٨ .
(٩٣) ابن الانباري ٣٤٥ وابن الدهان ٩٥ .
(٩٤) ابن الانباري ٣٤٦ وابن الدهان ٩٦ .
(٩٥) ابن الانباري ٣٤٧ وأبو الطيب ١/٢٢٩ وابن الدهان ٩٧ .

١٢ ـ الأَخْضَر : يقال رجل أخضر اذا مدح بالخصب والعطاء والسخاء ، ورجل أخضر اذا كان لئيما[٩٦] • فالمعنى الأول مجازه واضح ، أما الثاني فربما كان من السواد الذي تنصرف اليه لفظة الأخضر السابقة •

١٣ ـ الأَكْمَه : للذي تلده أمه أعمى ، وللذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل[٩٧] •

١٤ ـ الجَعْد : للبخيل والكريم[٩٨] • فالأول من معنى التقبض والتقلص ، الثاني من الشعر الجعد الذي هو صفة العربي المشهور بالكرم • وقيل « أبو جَعْدَة وأبو جَعادَة : هما من أشهر كنى الذئب ، ولا ينصرفان للتعريف والتأنيث ، كني بها لبخله • وقيل على التضاد لأن الجَعْد الكريم من الرجال »[٩٩] • الى آخر ما هنالك من مواد هذا النوع من الأضداد ، مثل (السّاجِد)[١٠٠] و (الرّداء)[١] و (أبو حَفْص)[٢] و (خَشيب)[٣] و (الرّاوِية)[٤] و (الكأْس) و (الظّعينَة) و (المِجمَر)[٥] وغيرها • ويدخل في هذا الباب ايضا التقابل المجازي في مثل : (نَسوا الله فَنَسِيَهم)[٦] و (مَكَروا ومَكَر الله)[٧]

---

(٩٦) ابن الانباري ٣٨٢ وابن الدهان ٩٧ •
(٩٧) ابن الانباري ٣٧٧ •
(٩٨) أبو الطيب ١/١٦٣ •
(٩٩) المرصع لابن الاثير ١١٩ وانظر : اشتقاق ابن دريد ٢٩٨ ، ٥٦٥ •
(١٠٠) الملاحن لابن دريد ٢٣ •
(١) الملاحن ١٣ والتنبيهات ٣٣٥ وسمط اللآلي ٢/٩٣٤ـ٩٣٥ •
(٢) المرصع لابن الاثير ١٣٨ •
(٣) الاصمعي ٩٨ وابن الانباري ٣٢٧ وابن الدهان ٩٧ وأبو الطيب ١/٢٥٥ وسمط اللآلي ١/٤٥٤ •
(٤) الاصمعي ٤٦ وابن السكيت ٢٠٠ •
(٥) أبو حاتم ١٥٦ وأبو الطيب ٢/٧١٨ •
(٦) ابن الانباري ٣٩٩ وأبو الطيب ٢/٦٤٨ وابن الدهان ١٠٧ •
(٧) معاني القرآن للأخفش (مخطوط) ١٨ آ •

و (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم)[8] وأشباهها مما لا يمكن ان يعد من المعاني الحقيقية بسبب عدم جواز اتصاف الله بالنسيان والمكر والاستهزاء وقيامه بها فعدت من الأضداد ، وهي معان مجازية يتم بها التناظر البلاغي المعبّر ، ولذا فهي « على الجواب ، والله لا يكون منه المكر والهزء • والمعنى أن المكر حاق بهم والهزء صار بهم »[9] • والنسيان مثلا في العبارة الأولى ليس له الاّ معنى واحد ، اذ لم يسمّ ما حصل من الله تعالى نسيانا الاّ حين ذكر في جوار ما حصل من الناس على طريقة المشاكلة ، فلا يمكن أن يكون شيء من هذا داخلا في التضاد •

هذه المواد التي ذكرناها هي من الاضداد التي أمكننا تفسير نشوئها بالمجاز الذي حصل فيها ، وهو تفسير لمّح اليه ابن الانباري تلميحا ، فكان يذكر في صدر المادة منه أحيانا عبارة (ومما يشبه الأضداد) أو (ما يجري مجرى الأضداد) مشيرا الى أنه يجد فيها شيئاً مّا ، بالامكان أن يردّ الى ما يشبه المجاز ، كما فعل في مادتي (سَمِع)[10] و (طَبَخْتُ)[11] ، على أن أبا الطيب كان صارماً تجاه هذه الفئة من الأضداد ، فلم يدرجها في مواضعها من كتابه ، وانما أفرد لها فصلا في آخر الكتاب أطلق عليه (باب ما جاء مسمّى باسم غيره لما كان من سببه ، فأدخله من كان قبلنا في الأضداد)[12] • ويدرج فيه مجموعة مما يفسر بالمجاز ، ويشعرنا عنوان الباب انه لولا ادخال من كان قبله لهذه الطائفة من الالفاظ في الأضداد لما عدّها هو منها ولما ذكرها في كتابه ، ومع ذلك فافراده لها ينبيء عن برودة موقفه من ضديتها • وكان أبو حاتم دقيقاً عندما سمّى كتابه (المقلوب

(٨) معاني الاخفش ١٨ آ •
(٩) معاني الأخفش ١٨ آ وانظر : ما اتفق لفظه واختلف معناه ص ١٣ •
(١٠) ابن الانباري ١٣٦ •
(١١) ابن الانباري ٢٨٩ •
(١٢) أبو الطيب ٢/٧١١ — ٧١٩ •

لفظه في كلام العرب والمزال عن جهته والأضداد) وكأنه كان يعتقد أن ليس جميع الاضداد تتوفر فيها الضدية الحقيقية ، ولهذا فقد ذيل كتابه بما يشبه الباب قال في أوله : « وقد ذكر بعض أصحابنا حروفاً لا علم لي بها أتقال أم لا »[١٣] وكثير من هذه الحروف التي ذكرها هي من النوع الذي يفسر بالمجاز أو المقلوب من التراكيب أو ما يشبه ذلك مما دفع أبا حاتم الى الشك به واستبعاده .

أما المقلوب أو ما يسمى أحياناً بـ (المزال عن جهته) فقد دخل قسماً من كتب الأضداد على أنه منها ، واستبعده القسم الآخر ، ويقصد به تغير تركيب العبارة عن ترتيبها المتعارف عليه ، وذلك بأن يقلب الفاعل مفعولاً أو المفعول فاعلاً أو ما يشبه ذلك مما لا يلتبس معناه لدى السامع لأن القصد فيه واضح ، مثل :

١ ـ ناءَ بيَ الحِمْل : والأصل نوّت بالحمل[١٤] .

٢ ـ تهيَّبُني البِلاد : والأصل تهيبتها[١٥] .

٣ ـ كانَ الزِّناءُ فَريضَةَ الرَّجمِ : وهو كان الرجم فريضة الزناء[١٦] .

٤ ـ خُلِقَ الانْسانُ مِن عَجَلٍ : والاصل خلقت العجلة منه[١٧] .

٥ ـ يا خَيْلَ اللهِ اركَبي[١٨] .

وغيرها من التراكيب المقلوبة التي يمكن أن يفسر ما ورد منها في

(١٣) أبو حاتم ١٤٨ .
(١٤) أبو حاتم ١٥٢ وابن الانباري ١٤٤ وأبو الطيب ٢/٧٢٠ ومجالس ثعلب ٢/٤١٧ وطبقات النحويين ١٠٦ ومجاز القرآن ٢/٣٨ ـ ٣٩ وما اتفق لفظه واختلف معناه ١٥ .
(١٥) أبو حاتم ١٥٢ وابن الانباري ٩٩ ولحن العوام للزبيدي ١٢٣ .
(١٦) أبو حاتم ١٥٢ وسمط اللآلي ١/٣٦٨ والصاحبي ١٧٢ .
(١٧) طبقات النحويين ١٠٦ ومجاز القرآن لابي عبيدة ٢/٣٨ .
(١٨) أبو الطيب ٢/٧٢١ .

الشعر بالضرورة الشعرية وبصرامة التفعيلة وحركة الرويّ ، وما ورد منها في النثر بالمجاز حيناً وبالسهو والخطأ أحياناً ، ذلك ان علماءنا القدماء كابن جني والازهري كثيراً ما كانوا يخطئون استعمالات الاعراب ، لانهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها ، وانما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا عن القصد ، الاّ ان استقراء هذه الفئة من التراكيب المقلوبة يدل على أن أكثرها بل كلها قصد منه المجاز باستعارة معنى لفظ آخر يجاوره في التركيب الواحد وبالعكس ، فلا يمكن أن يفسّر (ناءَ بي الحِمْل) مثلا أو (يا خيلَ الله اركَبِي) بغير المجاز البليغ ، فلا اضطرار يدفع الى هذا التغيير ، كما لا خطأ يفترض في كلام الله أو كلام النبي ، ولذا فان هذه التراكيب تكون أوقع في النفس مما لو كانت واردة بترتيبها الطبيعي من الكلام • ولم يؤثر عن العرب انهم التبس عليهم المعنى فضحكوا من المتكلم لانه قصد الى أن ينوء الحمل بالحامل ، بل على العكس ، فقد استكثروا من هذه الصياغات المجازية ودار على ألسنتهم قلب التراكيب دون أن يزعج ذلك فهمهم للمعاني ، لهذا فمن الخطأ أن تعدّ مثل هذه الاستعمالات من الأضداد للاسباب التي بيّناها من جهة ، ولأن هذه التراكيب ليست ألفاظاً مفردة وردت متضادة المعنى ، وانما التضاد المزعوم في هذه التراكيب كان بسبب التركيب نفسه ، اذ لو جزأنا العبارة لما وجدنا في الفاظها (يا خيلَ) (الله) (اركبِي) أي نوع من أنواع الضدية • ولهذا وقف أبو حاتم من هذا النوع موقف الشك وذكره في الفصل الذى أشرنا اليه قبل قليل ، كما ألغى أبو الطيب هذا النوع من الأضداد وأفرده في باب خاص في آخر كتابه وهو (باب تكلّمت به العرب مقلوب المعنى ، مزالا عن جهته ، فخلط بالاضداد وليس منها)[19] ، فعبارته (وليس منها) صريحة بعدم قناعته بضدية هذه

(19) أبو الطيب ٢/٧٢٠ ـ ٧٣٢ •

التراكيب ، واعتقاده أنها من أساليب العرب في مجازها واستعارتها وتفننها في الكلام ، وقد خلطت بالأضداد وهي شيء آخر ، والحق معه في ذلك .

طريقة الاستعمال وضدية التفسير

عندما تعد لفظة ما من الأضداد فالمفروض ـ وقد أشرنا الى هذا سابقاً ـ ان تنصرف هذه اللفظة الى معنيين متضادين مجردة من كل ما يتصل بها من تعليق أو تركيب أو سياق يخصص أحد المعنيين ويجرّها الى حظيرة الالفاظ الدالة على معنى واحد ، لأن فكرة الضدية في هذه الحالة لا تتوفر في اللفظة نفسها وانما تتوفر في الاختلاف الذى ينشأ من تفسيرها بسبب ما يفسر به السياق أو التركيب العام للجملة ، فالتضاد في التأويل لا في اللفظة ، وفي متعلقاتها من الحروف لا بأصلها المفرد . وتدخل تحت هذا النوع من الأضداد ثلاث طوائف هي :

١ ـ ما كان تضاده بسبب حروف الجر المتعلقة بالفعل ، مثل : (أغارَ الرجل الى القوم : أغاثهم ، وأغارَ على القوم : قتَلهم)[٢٠] و (راغَ فلان على القوم : أقبل عليهم . وراغَ عنهم : اذا ولّى عنهم)[٢١] و (فزّعه : اذا أخافه . وفزَّع عنه : كشَف عنه الفزَع[٢٢] و (طلَعْتُ على القوم : غِبْتُ عنهم . وطلَعت اليهم : أقبلت اليهم)[٢٣] و (أوْزَعْتُه بالشيء : أولعته به . وأوْزَعْتُه : كففته عنه)[٢٤] و (تَياجَروا على الطريق: ساروا عليه تباعا . وتَياجَروا

---

(٢٠) قطرب ٢٥٥ وابن الانباري ٣٦٨ .
(٢١) قطرب ٢٧٨ وابن الانباري ١٥٣ وأبو الطيب ٣٢٨/١ .
(٢٢) قطرب ٢٧٣ وأبو حاتم ١٤٥ وأبوالطيب ٥٥٣/٢ وابن‌الانباري ١٩٩ وبصائر ذوي التمييز ١٩١/٤ والتنبيهات ٩٢ .
(٢٣) أبو الطيب ٤٥٩/١ والغريب المصنف ٥١٨ .
(٢٤) قطرب ٢٧٢ وأبو الطيب ٦٦٧/٢ وأبو حاتم ١٥١ وابن الانباري ١٤٠ .

عنه : عَدلوا عنه)[٢٥] و (ظاهر" عنك : زائل عنك • وظاهر" عليك : لم يزل عنك)[٢٦] و (قَسَط : عَدل ، وقَسَط عن الحق وعليه : عَدل عنه وجار)[٢٧] و (اطْلب لي شيئاً : ابغِه لي ، وأطْلِبْني : أعنّي على الطّلب)[٢٨] • ومما لم تذكره كتب الاضداد : (رَغِب فيه : أراده وأقبل عليه ورغب عنه : عافه وتركه) و (انْصَرف اليه : أقبل عليه • وانْصَرف عنه : تشاغل بغيره) وما أشبه ذلك من الاستعمالات•
وواضح أن التضاد في كل هذه الافعال غير حاصل الا" بسبب المتعلقات التي تصرف الفعل الى معنى ايجابي أو آخر سلبي ، فحقيقة الضدية هي بين (الى وعلى) و (على وعن) و (في وعن) وهكذا ، وليس بين الفعل ونفسه في أى من استعماليه ، فقد احتفظت المواد الاصلية للافعال بمعانيها ، فأغارَ : اشترك في صراع ، ولكنه مرة مع القوم وقد أفادته (اِلى) ، ومرة عليهم وقد أفادته (عَلى) • وراغَ : تحرك بخفاء ، ولكنه تحدد بالاقبال بـ (عَلى) ، وتحدد بالادبار بـ (عَن) ، ورغب يشتمل على مطلق الرغبة في كلا الاستعمالين ، وانما الذي صرف هذه الرغبة الى اتجاهين متعاكسين هو حرفا الجر • وللحروف هذه معان خاصة تتضح وتتبلور اذا اتصلت بالفعل ، فـ (اِلى) تفيد معنى الافضاء والاقبال والاقدام وهي معان ايجابية ، و (عَلى) تفيد معنى الايقاع والنزول والتمكن ، وهي معان سلبية ، كما ان (في) تفيد معنى الرغبة والارادة ، بعكس (عَن) التي تفيد معنى الترك والعزوف ، •• الخ • فهذه الافعال التي تعلقت بها حروف الجر" هي الفاظ رسم لدلالاتها الطريق وحدد المعنى ايجابيا كان أم سلبياً بوساطة هذه الحروف ، يقول الدكتور مصطفى جواد : « وذلك ان العرب

---

(٢٥) أبو الطيب ٢/٦٨٧ •
(٢٦) قطرب ٢٧٥ وابن الانباري ٥٦ •
(٢٧) قطرب ٢٥٩ ـ ٢٦٠ •
(٢٨) تاج العروس ٣/٢٧٥ •

جعلت أكثر استعمال (عَلى) في لغتها للشر والأذى ، وجعلت أكثر استعمال (لام الجرّ) للخير والمنفعة »[٢٩] ، واعتبرها قاعدة عامة في اللغة أو شبه عامة ، الاّ اذا كانت (عَلى) موضوعة للفعل أصلا ، فحينئذ لا تفيد معنى الشر ، مثل أشفق عليه وعطف عليه وانفق عليه وأبقى عليه[٣٠] ، فهذه الافعال هي بنفسها تفيد معنى الخير فلا يضيرها تعلق (على) بها . وضرب للام أيضا أمثلة مدلاً بها على أن تعلقها بالفعل مما يصرفه الى معنى الخير[٣١] . واللام قريبة من (الى) في مجال استعمالها ، لـهـذا يصـح أن تكـون شـواهـدها عـلى هـذا المعنـى هـي شواهد (الى) التي تعني الاقبال والافضاء ، كما كانت (عَن) تفيد الانصراف ، يقول السيوطي معلقاً على قوله تعالى : (أُحِلّ لكم لَيلَة الصِّيام الرَّفَثُ إلى نِسائكم) : « لما كان في معنى الافضاء عدّاه بالى ، ومثله قول الفرزدق (قَدْ قَتَل الله زِياداً عَني) لأنه في معنى صرفه »[٣٢] .

وعلى هذا فنحن نفترض ان الافعال التي ذكرت على أنها تعني أحد المعنيين وهي متعلقة بحرف وتعني المعنى المضاد دون أن يتعلق بها حرف ، هي من الأفعال التي استعملت محذوفاً منها الحرف بعد أن كان فيها ، وذلك لكثرة تداولها على الألسن متخففة من هذا الحرف ، فالتصقت بمعناها دون أن يحتاج معه الى الحرف المحذوف ، مثل : (وَلّى : أقبل . وولى عنه : أدبر)[٣٣] ، (سمع : سمع . وسمع له : أجاب ، ومنه سمع الله لمن حمده)[٣٤] . فالفعل ولّى هو في الأصل : ولّى اليه . والفعل

(٢٩) المباحث اللغوية في العراق ٨ .
(٣٠) المباحث اللغوية ٤٢ .
(٣١) المباحث اللغوية ٤٣ .
(٣٢) الاشباه والنظائر ١/١٩١ .
(٣٣) أبو حاتم ١٤٤ وأبو الطيب ٢/٦٦٦ .
(٣٤) ابن الانباري ١٣٦ .

سمع أصله : سمع منه ، شاعا بهذين المعنيين فحذف الحرفان واكتفى بصورتيهما مجردتين من التعليق ، ثم انتقلا في الاستعمال الى التعدية للمفعول دون وساطة • ولعلنا نستطيع أن نلحق بهذا النوع أسماء هي في الأصل من أفعال حذف في كلا معنييها الحرف ، فبقيت صورتها تحمل الضدين ، مثل (البَسْل)[٣٥] التي تعني الحرام وتعني الحلال ، والتي قلنا في مبحث (شمولية المدلول الأول) انها تعني (الجزاء) ثم تخصص المعنى ، فكل الشواهد التي ذكروا أنها تعني فيها الحرام كان يتعلق بها الحرف (على) مثل : (بَسْلٌ عليكِ مَلامَتي وعِتابي) •• الخ ، بخلاف الشواهد التي عنت فيها الحلال فقد كانت اللاّم هي المتعلقة مثل : (دَمي إنْ أُحلَّتْ هذه، لكم بَسْلُ)•• الخ• ممايشعران الفعل(بَسل) كان ينصرف الى المعنين بهذين الحرفين ، فَبَسل لك تعني : جَزاك خيراً وهو المعنى الايجابي ، وبَسَلَ عَليك : جزاك شراً وهو المعنى السلبي • ومثلها (المغلّب) للشاعر الغالب والشاعر المغلوب • وهو من (غَلَّب له) و (غلّب عليه) ثم تخفف من الحرف بعد اشتقاق الاسم ، وهكذا في أسماء اخرى • ودعوى التضاد في هذه الطائفة غير واردة لأن الضدية شيء خارج اللفظة ، وطريقة الاستعمال هي التي تقصد اليه قصدا بهذا الحرف أو ذاك من حروف الجر ذوات المعاني الايجابية والسلبية •

٢ ـ ما كان تضاده بسبب موقع اللفظة من السياق ، مثل : (فَوْق) التي تأتي بمعنى دون[٣٦] ، في قوله تعالى (إنَّ اللهَ لا يستحيي أن يَضربَ مثلاً مّا بَعوضةً فما فَوقَها) • و (خلْف) بسكون اللام

---

(٣٥) أبو حاتم ١٠٤ وابن الانباري ٦٣ وأبو الطيب ٣٢/١ وبصائر ذوي التمييز ٢٤٨/٢ •

(٣٦) قطرب ٢٧١ وابن الدهان ١٠٣ وابن الانبارى ٢٤٩ ومجالس ثعلب ١٩١/١ •

وفتحها للولد الصالح والطالح[37] ، في قوله تعالى (فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة) • و (بَيْن) للوصل والفراق[38] ، في قوله تعالى (لَقَد تَقطَّع بينكم) ، و (جَديد) للجديد والبالي[39] ، في قول الوليد بن يزيد :

أبى حُبّي سُلَيمى أنْ يبيدا وأصبحَ حَبْلُها خَلَقاً جَديدا

و (بَيضَةَ البلد) للمدح والذم[40] ، في شواهد منها قول حسان:

أمسى الجَلابيب قَدْ عزّوا وَقَد كثُروا

وابْن الفُريْعَةِ أمْسى بَيضَةَ البلدِ

وغير ذلك من أشباه هذه الالفاظ ، التي كان اختلافهم في تفسير معناها في مواضعها التي وردت فيها هو الذي أكسبها صفة الضدية ولم تكن بها قبل هذا الخلاف ، كما لا تكون بعده لو أنها انتزعت من موضعها الذي هي فيه ، ذلك ان السياق هو الذي يعين بالضرورة معنى اللفظة وعلاقتها السلبية أو الايجابية فيه ، فهو لا يخفي مقصد المتكلّم منه اذا وعى السامع نظم الجملة واسلوب تركيب الكلام • والى هذا رمى ابن الانباري بقوله : « كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين ، لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، ولا يراد بها في حال التكلم والاخبار

---

(37) معاني القرآن ٢/١٧٠ ولسان العرب ٩/٨٤ •

(38) قطرب ٢٧٤ والاصمعي ٥٢ وابن الانبارى ٧٥ ودرة الغواص ٦٣ وشرح درة الغواص ٩٧ •

(39) ابن الانباري ٣٠٨ وابن الدهان ٩٥ والصغاني ٢٢٦ •

(40) قطرب ٢٦٤ وأبو حاتم ١١٧ والصغاني ٢٢٤ وابن الدهان ٩٤ وسمط اللآلي ١/٥٤٩ والتنبيه على أوهام أبي علي ٧٦ •

الا ّ معنى واحد »[41] • فبمعونة السياق يستطاع معرفة المعنى والوقوف على حقيقته ، غير ان الشيء الذي سبب تضاد طائفة من الألفاظ هنا هـو الاختلاف في تفسير معانيها وأغراضها عند ورودها في نصوص كان احترامهم لها حينا ، وجهلهم بملابساتها حينا آخر هو الذي دفعهم الى الاختلاف في معاني الالفاظ فيها ، وهو أمر خارج عن المسألة التي نحن بصددها •

فالآية الكريمة التي وردت فيها لفظة (فَوْق) أشعرت جماعة من المفسرين بأن المراد منها أن يضرب الله مثلا بأصغر ما يمكن من الاشياء فلا بد من أن يكون المقصود ما هو أصغر من البعوضة ، فذهبوا الى تفسير (فَوْق) بمعنى دون لهذا السبب ، غير أن وعي فكرة الآيـة يقود الى اعتبار (فَوْق) مستعملة بمعناها الأصلي ، اذ يكون المقصود : ابتـداءا في الصغر من البعوضة وصعودا الى ما هو أكبر منها ، وهو الذي مال اليـه ثعلب وجوّده[42] • لان ذكر البعوضة يشعر بنهاية الصغر ، والا ّ لذكرت الآية شيئا أكبر من البعوضة كالطير مثلا ، ليصح أن يـكون هنـاك شيء أصغر منه وتكون فوق بمعنى دون • ومن القدماء من أراد أن يجمع بين المعنيين فقال ان معنى الآية (فما فوق البعوضة حقارة) وأخذت به بعض دراسات المحدثين[43] • ولا نرى وجهاً لهذا التفسير ولا ضرورة له •

ولولا عبارة (أَضاعُوا الصَّلاة) في الآية الكريمة الثانية ، لمـا اختلف في تفسير (الخَلْف) ، يقول لسان العرب : « لأنهم اذا أضاعوا الصلاة فهم خلف سوء لا محالة »[44] • ولهذا فرّقوا بين (خَلْف)

---

(٤١) ابن الانباري ٢ •

(٤٢) مجالس ثعلب ١/١٩١ •

(٤٣) فقه اللغة لوافي ١٩٠ وابن السكيت اللغوي ٢٤٠ ومجلة المجمع الملكي ٢/٢٣٦ •

(٤٤) لسان العرب ٩/٨٤ •

الساكنة اللام والمفتوحتها فقالوا : ان المفتوحة للولد الصالح والساكنة للولد الطالح ، ثم قلبوا بين الاثنين[٤٥] ، ثم ساووا بينهما وصرحوا بأن كلا منهما تكون للصالح والطالح . وكل هذا تخبط لا جدوى منه بسبب الحرص على معنى خاص يجب أن تؤديه الآية ، ولا يتعدى المعنى أن يكون بمعنى الولد صالحا كان أم طالحا ، حافظا للصلاة أو مضيعا لها وهو مذهب ابن شميل[٤٦] . والآية استعملت فتح اللام في الفعل واسكانها في الاسم وهو جمع بمعنى الأولاد ، وعلى هذا فلا فرق بين الساكنة اللام والمفتوحة اللاّم أصلا ، ولا تضاد في المادة .

أما (بَيْن) فلا يمكن الاحتجاج بالآية على ضديتها بقراءتها مرفوعة على الفاعلية قراءة ضعيفة، لأن الأصل فيها(لَقَدْ تَقَطَّعَ ما بَينكم) ولذا فهي تقرأ مبنية على الظرف بالرغم من حذف (ما) ، وهي القراءة المشهورة التي عبّر عنها الفراء بقوله : « وهو وَجهُ الكلام »[٤٧] ، ولذا فهي ظرف مستعمل استعماله الطبيعي ، وهي غير (البَيْن) بمعنى الفراق الذي هو من بان يبين فهذه معربة الا ّ أن الاضداديين قرنوا (بَيْن) في الآية مقروءة بالرفع حيث تعني الوصل ، الى (البين) الاسم المعرب الذي يعني الفراق وحكموا بالضدية[٤٨] .

وأما (جَديد) في البيت فهي أيضا على معناها الأصلي وهو (المقطوع) يقول ابن دريد : « والجدّ : مصدر جَدَدْته جدا اذ قطعته . وجِدادُ النّخل : صرامها . والجَديدان : الليل والنهار وهما الأَجدَان . والجَديد : المقطوع »[٤٩] . فكأن الشاعر يقول : لا يموت حبي لسليمى

(٤٥) معاني القرآن ٢/١٧٠ .
(٤٦) لسان العرب ٩/٨٤ .
(٤٧) معاني القرآن ١/٣٤٥ .
(٤٨) انظر : ابن الانباري ٧٥-٧٦ .
(٤٩) الاشتقاق ٥٠١ .

بالرغم من ان حبلها خلق مقطوع • الا ّ ان غياب المعنى الاصلي للجديد عن أذهان الاضداديين وتصور معناه المتطور ّ قد أورثهم هذا الوهم • اذ ان تسمية الليل والنهار بالجديدين هي من تسميتهم بالمقطوعين لأن كلامنهما ينقطع عن صاحبه وعن سابقه ، وهو الذي تطور فصار يطلق على كل مستحدث (جديد) فكأنّه مقطوع عما سبقه بحدوثه هذا ، والأصل هو معنى القطع ذاك ، فلا ضدية في لفظة (جَديد) في الشاهد •

و (بَيضَة البَلد) لا تعني في كل شواهدها التي ذكرتها كتب الأضداد ومنها الشاهد المذكور هنا الا ّ معنى (الانقطاع والتَّفَرد) سواء قصد بها المدح أو الذم ، لأن كلا الشخصين الممدوح والمذموم متفرد بخصاله منقطع بها عن غيره ، ولو عدنا الى الشاهد لتيقنا من ذلك ، خصوصا بقرينة قوله في المقابلة (قَد عَز ّوا و َقَد كَثُروا) ، وقد أشار الى معنى الانفراد أبو الطيب اللغوي(٥٠) • وحاول هو وغيره أن يفسر معنى المدح بأن المراد به : « البَيضَة التي يحتضنها الظَّليم ويصونها ويوقيها لأن فيها فرخه • والمذموم يراد به البيضة المنبوذة بالعراء المذرة التي لا حائط لها ولا يدرى لها أب وهي تريكة الظليم »(٥١) • واذا كان هذا التفسير يدّل على محاولة من نوع ما ّ فان تفسير الر ّماني يدل على سذاجة وسطحية متناهيتين ، اذ يقول : « اذا كانت النسبة الى مثل المدينة والبصرة فبيضة البلد مدح، وان نسبت الى البلاد التي أهلها أهل ضعة فبيضة البلد ذم ّ »(٥٢) • كأن المراد ببيضة البلد حين تطلق على ممدوح أو مذموم أن يكون بيضة البصرة أو بيضة المدينة أو سواهما من المدن الكبيرة أو الصغيرة ، وهو تفكير بسيط جدا يستل منا ابتسامة • وأقرب محاولات التفسير الى الصحة ما نقله أبو الطيب من أنه : « قال من يمنع الأضداد : انما بيضة البلد كل مشتهر

---

(٥٠) أبو الطيب ١/٥١ •

(٥١) سمط اللآلي ١/٥٤٩ والتنبيه على أوهام أبي علي ٧٦ •

(٥٢) سمط اللآلي ١/٥٤٩ والتنبيه على أوهام أبي علي ٦ ٧•

بشيء خيرا كان أو شرا ، وهذا الاسم يقع على الشُهرة فقط »[٥٣] •
فيصح أن يطلق على الممدوح والمذموم لاشتهار كل منهما بما فيه •

ومهما يكن من أمر فاننا نستطيع أن نعد من هذه المجموعة ايضا :
(أَنْجَبَ) اتى بولد شجاع واتى بولد جبان[٥٤] • وشواهده تدل على
ان معناه ولد النجباء ، ولذا قيل منه (منْجاب) من النَّجابَة[٥٥] ؛ ثم
توسع فيه فصارت تطلق بمعنى (أتى بولد) شجاعا كان أو جبانا ، ثم
تخصص بأحد المعنيين ، ومثله (حَزَوَّر) للقوي والضعيف[٥٦] •
و (الجادِي) للسائل والمعطي[٥٧] • و (الشَّف) للزيادة والنقصان[٥٨] •
و (القُعْدُد) قليل الآباء الى الجد الاكبر وهو ذم ، وكثير الآباء الى الجد
الاكبر وهو مدح[٥٩] ، ونقل عن ابن الاعرابي انه قال : كلاهما
مدح[٦٠] ، و (الأدْمة) للأبيض والأسود[٦١] • و (لَيْث عِفرّين)
للمدح والذم[٦٢] ، وغيرها • حيث تقوم دعوى التضاد في هذه الالفاظ على
إنكار ما سببه اختلاف التفسير وتباين وجهات النظر في مؤدى اللفظة في
موقعها من السياق ، اذ لم يقصد المتكلم أن يستعمل في نصه ضدا ، وانما

---

(٥٣) أبو الطيب ١/٥٧ •
(٥٤) ابن الانباري ٤٢٣ وأبو الطيب ٢/٦٤٥ ولطائف اللغة ١٤٤ •
(٥٥) الاشتقاق ١٩٣ •
(٥٦) ابن الانباري ٢١٧ وأبو الطيب ١/١٨٦ وابن الدهان ٩٦ ومجالس ثعلب ٢/٦٤٤ والهامش وابدال أبي الطيب ١/٣٢١ والهامش •
(٥٧) قطرب ٢٧٢ وابن الانباري ٢٠١ وأبو الطيب ١/١٧٢ وابن الدهان ٩٥ وأمالي القالي ٢/٣٢٦ •
(٥٨) الاصمعي ٣٩ وابن الانباري ١٦٦ وأبو الطيب ١/٤١٠ والمرصع ٢١٣ •
(٥٩) أبو الطيب ٢/٥٦٨ •
(٦٠) التنبيه على أوهام أبي علي ١١٦ •
(٦١) ابو الطيب ١/٢٣ ونظام الغريب للربعي ١٦٢ •
(٦٢) قطرب ٢٦٥ وابن الانباري ٣٨٣ وابو الطيب ٢/٦١٤ •

كان فهم السامعين متضادا ، فالكلمة في منأى عما يحدث في ذهن السامع من ادراك ، وعليه فليست من الأضداد •

٣ ـ ما كان تضاده من النصوص بسبب اختلاف التفسير : وهو شبيه بالنوع السابق الا انه يفرق عنه بأن التضاد المزعوم في ذلك النوع كان في اللفظة المفردة بسبب اختلافهم في مؤداها من سياق الكلام • أما التضاد في هذا النوع فهو في المعنى العام للنص ، كأن تكون آية برمتها من الأضداد أو بيت شعر بكامله من الأضداد ، وذلك لاختلافهم في تفسير مراد القائل من مجموع تعبيره • فمن أمثلته في القرآن :

يقول ابن الانباري : « ويفسر أيضا قوله عزّ وجل : (لا خَوفٌ عليكم ولا أَنْتُم تَحْزنون)[٦٣] تفسيرين متضادين ، فيقول الكلبي : هذا يقوله الله جل وعز لأصحاب الاعراف ، وقال : يرى أصحاب الاعراف في النار رؤساء المشركين فينادونهم : يا عاصي بن وائل ويا وليد بن المغيرة ويا أسود بن المطلب ويا أبا جهل بن هشام ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا وما كنتم تستكبرون ، اذ انتم الآن في النار ، ويرون في الجنة المستضعفين من المسلمين : سلمان الفارسي وعمار بن ياسر وصهيبا وعامر بن فهيرة ، فيقولون للمشركين : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، فيقول الله تبارك وتعالى لأصحاب الاعراف : (ادْخُلوا الجَنّة لا خوفٌ عليكم ولا أنْتم تَحزَنون) • وقال مقاتل بن سليمان : يقسم أهل النار أن أصحاب الاعراف لا يدخلون الجنة ، فتقول لهم الملائكة الذين حبسوا أصحاب الاعراف على الصراط : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، ويقولون لهم أيضا : ادْخلوا الجَنّة لا خوفٌ عليكُم ولا انتم تحزنون •• »[٦٤] وهكذا نرى أن المسألة لا تتعدى أن تكون اختلافا بين

(٦٣) الزخرف ٦٨ •

(٦٤) ابن الانباري ٣٦٩ ـ ٣٧٠ •

المفسرين في مؤدى الآية وهو مما حفلت به كل كتب تفسير القرآن ومعانيه، فهل تعد هذه الكتب من كتب الأضداد ؟ والظاهر ان الذي دفع ابن الانباري الى الخوض في ذلك هو اتصاله بالقرآن اتصال بحث دقيق ودرس مستوعب واضعا فيه مصنفاته ودراساته فانعكس ذلك على دراساته اللغوية ، اذ لا نجد مثل هذا في كتب الأضداد الاخرى ، ودعوى تضاد هذه الآيـة متهافتة لا تقوم على ساق ومكان هذه الآراء ووجهـات النظـر ليست كتب الأضداد ، وانما كتب القرآن وتفسيره ذلك انها تتعلق بمعاني الآيـات لا بمعاني الألفاظ . ولذا نجد ان ابن الانباري كثيرا ما يرجع القـارىء الى مصنفاته القرآنية لزيادة الاطلاع على الخلاف في التفسير(٦٥) . ومثل هذه الآية آيات اخرى كثيرة(٦٦) .

ومن أمثلة هذا النوع في الشعر :

يقول ابن الانباري : « ومما يفسر من الشعر تفسيرين متضادين قول قيس بن الخطيم :

أتعرفُ رسماً كاطّرادِ المذاهبِ لِعَمرةَ وحشاً غير موقفِ راكبِ

قال ابن السكيت : أراد بقوله (غير موقفِ راكب) الا ان راكبا وقف ، يعني نفسه .

وقال غيره : لم يرد الشاعر هذا ، ولكنه ذهب الى أن (غيرا) نعت للرسم ، تأويله : أتعرف رسما غير موقف راكب ، أي ليس بموقف للراكب لاندراس الآثار منه وامحاء معالمه ، فمتى بصر به الراكب من بعد ذعر منه فلم يقف به . وتفسير ابن السكيت يدل على ان الراكب أراد به الشاعر نفسه ، أي الا انني أنا وقفت به متذكرا لأهله ، ومتعجبا من خرابه

---

(٦٥) انظر مثلا ص ٤٢٨ .
(٦٦) انظرمثلا : ابن‌الانباري ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ .

وخلائه من سكانه الذين كنت أشاهد وأعاشر »[٦٧] . وشبيه بهذا الاختلاف اختلافهم في أبيات اخرى[٦٨] .

ونقول في هذه الأبيات ما قلناه في الآيات ، من أن هذه الآراء المختلفة في تفسيرها لا تجعل منها أضدادا بالمعنى الذي حددناه وحدده قبلنا الأضداديون أنفسهم ، اذ لابد أن يكون البحث عن التضاد قائما على دراسة اللفظة الواحدة دراسة تاريخية دقيقة آخذة بنظر الاعتبار استقلالها المعنوي عن كل ما يتعلق بها من كلام وتركيب . أما أن يكون البحث فيما أراد الشاعر في هذا البيت وما قصد اليه في ذلك البيت ، مما يسمّى اضدادا ، فذلك ما لا يقول به أحد خبر طبيعة الدرس اللغوي ووقف على حقيقة الضدية في الألفاظ ، ولعل ما يؤيد ذلك اننا لا نجد مثل هذه البحوث عند غير ابن الانباري من الأضداديين ، فكأنهم تنبهوا الى أن الخوض في هذا الغمار ليس مما يدخل في كتبهم التي محضوها لدراسة تضاد الألفاظ وجمع الأضداد ، وان هذا الأمر تختص به كتب النقد الأدبي ، فلو رجعنا الى أي من الكتب المعنية بنقد الشعر ودراسة معانيه ومذاهبه وأغراضه لألفيناه غاصا بمثل هذه المسائل ، فهذا ابن رشيق مثلا يقلب قول سليمان بن قتة في رثاء الحسين :

أولئكَ قومٌ لم يشيموا سُيوفَهم ولم تكثرِ القتْلى بها حين سلّتِ

على جميع وجوهه ذاكرا أقوال الآخرين في تفسير معناه ، حتى يخلص الى فكرتين متضادتين تستفادان من قول الشاعر[٦٩] ، فهل يعد عمل ابن رشيق في العمدة بحثا في الأضداد ؟ ولهذا فاننا نستطيع الغاء

---

(٦٧) ابن الانباري ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٦٨) انظر مثلا : ابن الانباري ٢٩٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦٩ .

(٦٩) العمدة ١٨٧/٢ .

جميع أمثلة هذا النوع من الأضداد لعدم توفر فكرة الضدية فيها جميعا •

ومن أمثلة هذه الأضداد في الكلام :

يقول ابن الانباري : « ومن الأضداد ايضا قول العرب : لمْ اضْرِبِ عبدالله ولم يضْرِبْني زيد ، يحتمل معنيين متضادين : أحدهما أن يكون : ضربي عبدالله مجحودا وكذلك ضرب زيد ايّاى ، يراد به ما كان ذا و ما كان ذا • والوجه الآخر أن يكون الفعل الأول والثاني صحيحين مثبتين ، والتقدير : لم أضرب عبدالله حتى ضربني زيد ، فوقع ضربي بعبدالله لما وقع بي ضرب زيد »[٧٠] ومثل هذا في (ما طَلَمْتُك وأنتَ تُنصفني)[٧١] و (أقْسَمت أن تَذْهَبَ معنا)[٧٢] و (نَشَدْتك الله أن تَذْهب معَنا)[٧٣] و (أحلفُ أنْ تَذهَب)[٧٤] و (زيدٌ أعقلُ الرّجليْن)[٧٥] و (أفْلَتَ الرّجل الرجل)[٧٦] و (وَعَدني الرّجل فأخْلَفْته)[٧٧] و (استَعتَبته فأعْتَبَني)[٧٨] •

ونستطيع ان نقول ان ابن الانبارى هو المتكثر الوحيد من هذا النوع ، لأننا لانكاد نعثر على مثله في كتب سواه من الأضداديين ما عدا ابن الدهان الذى وضع كتابه اختصارا لكتاب ابن الانبارى كما سنأتي على بيان ذلك فيما بعد • والحقيقة أن الزعم بأن هذه العبارات والأقوال من الأضداد غريب كغرابته في الآيات والأشعار ، فلا يوجد هنا لفظ معين ينصرف الى

---

(٧٠) ابن الانباري ٢٥٩ وانظر : ابن الدهان ١٠١ والصغاني ٢٣٦ •
(٧١) ابن الانباري ٢٦١ وابن الدهان ١٠٦ •
(٧٢) ابن الانباري ٣١٠ وابن الدهان ١٠٤ •
(٧٣) ابن الانباري ٣١٠ وابن الدهان ١٠٦ •
(٧٤) ابن الانباري ٣١٠ وابن الدهان ٩٦ •
(٧٥) ابن الانباري ٣١٦ والصغاني ٢٣٩ •
(٧٦) ابن الانباري ٤٠٩ وابن الدهان ١٠٤ •
(٧٧) ابن الانباري ٢٣٣ والغريب المصنف ٣٤١ •
(٧٨) تاج العروس ٣/٣١١ •

معنيين متضادين ، وانما قول يعبر عن حالتين تحـدد واحدة منهمـا قرائن حال المتكلم والسامع وسياق الكلام الدائر بينهما ، اضف الى ذلك أن اغلب أو كل هذه العبارات مصنوع ، اذ لم تنسب الى قائل ، وانما هي مما يصاغ على مايمكن أن يعبّر به المتكلم ، ولعل متكلما لم يقل ابدا : لم أضـرب عبدالله حتى ضربني زيد ، ولاعلى شاكلة هذا ، اذ لم يردمن الشواهد مايصح أن يكون نظيرا لهذا الاستعمال . فهي على هذا مما يجب أن يستبعد مـن الأضداد لانها ليست منها .

دور التعسف في تكثير الأضداد

في كتب الأضداد ألفاظ كثيرة لايمكن أن يفسر وجودها في هـذه الكتب بغير تعسف مؤلفيها وتكلفهم في اخضاعها للفكرة ، ومع ذلك فهي غير خاضعة لها بما أوردوا من معان ، وصحيح اننا نحمل قطربا مسؤولية كثـير من هذه الأضداد الاّ ان الذين جاءوا بعده لم يقتصروا على ما أورده قطرب أو يكتفوا به ، وانما زادوا عليه متعسفين فيما أوردوه ، حتى كان من ذلك مواد كثيرة لاتنصرف الى الضدية حتى لو حملت محملا بعيداً . فليس من العلم أن نصطنع بناءا ونزعم وجوده في اللغة بحجة أنه مقيس على قواعدها ، لأن اللغة استعمال قبل كل شيء ، فينبغي أن يسمع ويعرف ليبنى عليه درس ويقوم فيه رأى ، وكثير مما عدّ من الأضداد لايقوم دليل قوى على وجوده في كلام العرب وانما هو مقيس على كلامهم ، كما فعل ابن الانبارى مثـلا في مادة (النّاهِـل)[79] . ويتضح هذا التعسف اكثر فيما يتصل بالتصريف من المواد ــ كما مر بحثه سابقا ــ وبالصيغ المشتقة ، ويمكن ان نقسم أضداد التعسّف انواعا مختلفة ، هي :

---

(79) ابن الانبارى ١١٧ .

١ ــ اعلام اشخاص ، مثل : (أيوّب)[٨٠] و (إسْحاق)[٨١] و (يَعْقوب)[٨٢] و (طه)[٨٣] . اوردها ابن الانبارى دون غيره ، وجعل تضادها قائما على كون كل منها ينصرف اعجميا وعربيا ، يقول : « ومنها ايضا : اسحاق ، يكون اعجميا مجهول الاشتقاق فيمنع الاجراء في باب المعرفة بثقل التعريف والعجمة . ويكون عربيا من أسحقه الله اسحاقا أى أبعده ابعادا ، من ذلك قوله جل اسمه: (فَسُحْقاً لأصْحابِ السّعير)[٨٤] أى بعداً لهم .. »[٨٥] . والحقيقة انها أعلام أعجمية لاغير ، وقد دخلت العربية عن طريق اتصال العرب بالشام في تجارتهم ، لأنها أعلام عبريــة ــ فيما عدا طه ــ كانت تطلق على انبياء بني اسرائيل وقد استعملها القرآن ، ولا يصح حملها على افعال عربية ليست لها علاقة بالاسم الاعجمي كما فعل ابن الانبارى ، كما ان (إسْحاق) و (يَعْقوب) في العبرية ليسا على هذا اللفظ تماما ، وانما هما (יִשְׂחָק) يشْحَقْ (יַעֲקֹב) يعْقبْ) وقد ابدلت العربية الياء من اسحاق الفا ومدت فتحة الحاء ، كما مطلت ضمة القاف من يعقوب ابتعادا عن الفعلية واقترابا من ابنية الاسماء . اضف الى ذلك انها لاتتضاد في معناها الذى وضعت له والذى ينبغي ان ينظر اليه ، ولكنها ــ لو سلمنا بصحة مذهب ابن الانبارى ــ اختلفت في اشتقاقها الذى حصر فكرة الضدية فيه .

اما (طه)فقد نقل ابن الانبارى اختلاف مفسرى القرآن في معناها ، وذكر ان منهم من قال ان معناها (يارَجُل) بالسريانية ، أو بلغة عك ،

---

(٨٠) ابن الانبارى ٤١٦ .
(٨١) ابن الانبارى ٤١٥ .
(٨٢) ابن الانبارى ٤١٥
(٨٣) ابن الانبارى ٤٠٤ .
(٨٤) الملك ١١ .
(٨٥) ابن الانبارى ٤١٥ .

ومنهم من قال انها علامة لانقطاع السورة من السورة ، ومنهم .. الخ .
وهي في الحقيقة حرفان (ط) و (هـ) بمنزلة (ألم) و (يس) و (المر) التي تبتدى بها السور كما ذهب الى ذلك الفراء[86] ، ثمَّ سمّى بها النبي تكريما له ،وكفانا المفسرون بحثا في هذه الحروف ، وعليه فليست هذه الاعلام من الأضداد في شيء ، ولذا فان ابن الدهان اسقطها من كتابه الذى التقط فيه مواد كتاب ابن الانبارى ، مشعرا بعدم قناعته بعمل ابن الانبارى في عدها من الأضداد ، محقا في ذلك كل الحق .

٢ ـ حروف وأدوات ، مثل : (إذْ ، إذا)[87] و (إنْ)[88] و (لا)[89] و (مـا)[90] و (هَـلْ)[91] و (أوْ)[92] و (مِنْ)[93] وغيرها مما وجد الأضداديّون أن الواحدة منها تستعمل في أكثر من معنى ، فان نافية وشرطية ، وما نافية وموصولة وأو للعطف في الشك واليقين وهكذا ، ونجد ان المكثّر من هذه الأضداد هو ابن الانبارى وقلده ابن الدهان والصغاني ، والظاهر ان ابن الانبارى نقل بعضها عن غيره بدليل قوله في مادة (إنْ) : قال بعض أهل العلم ، ثم يذكر الكسائي بعدها بقليل[94] ، مما يدل أنه حكي عن الكسائي قوله بضدية (ان) والواقع ان هناك وهما كبيرا في اعتبار الضدية في مثل هذه الحروف ، ذلك أنها ليست هي نفسها في الاستعمال الثاني ، فما النافية مثلاً هي غير (ما) الموصولة . وان النافية غير (إن) الشرطية . فلا يجوز عقد مقارنة توصل الى

---

(٨٦) ابن الانبارى ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .
(٨٧) قطرب ٢٨٠ وابن الانبارى ١١٨ وابن الدهان ٩٣ وابو الطيب ٢٧/١
(٨٨) ابن الانبارى ٨٩ والصغاني ٢٢٣ وابن الدهان ٩٤ .
(٨٩) ابن الانبارى ٢١١ والصغاني ٢٤٨ وابن الدهان ١٠٥ .
(٩٠) ابن الانبارى ١٩٥ والصغاني ٢٤٤ وابن الدهان ١٠٦ .
(٩١) ابن الانبارى ١٩١ والصغاني ٢٤٨ وابن الدهان ١٠٧ .
(٩٢) ابن الانبارى ٢٧٩ والصغاني ٢٢٣ وابن الدهان ٩٣ .
(٩٣) ابن الانبارى ٢٥٢ وابن الدهان ١٠٦ .
(٩٤) ابن الانبارى ١٨٩ .

القول بضدية هذه الأدوات[٩٥]. اضف الى ذلك ان الدرس اللغوى الحديث توصل الى أن هذه الادوات ماهي الا بقايا ألفاظ قديمة، تخلفت لدينا من الأطوار الأولى للغة، وان معظمها يتألف من عناصر اشارية كالنون مثلا، فهذه المعاني التي تنصرف اليها هذه الأدوات وصلت الينا من مراحل مختلفة من التطور اللغوى[٩٦]. والى الآن تحتفظ العبرية بأداة النفي (לֹא : انْ)، كما تحتفظ بعض اللغات اليمنية بمعنى العدول في (أوْ) ويستعمل فيها استعمال العربية للحرف (بَلْ)، فلا يمكن على هذا الحكم بأن هذه الادوات المختلفة الصور ـ أو النسخ ـ المتعددة الاستعمال هي من الأضداد، خصوصا وان بعضها ينتقل في الاستعمال من الحرفية الى الاسمية مثل (ما)، اذ يؤكد هذا ان كل واحدة منها ليست هي الاخرى. وبعضها الآخر ليس في استعماليه اى تضاد واضح مثل (مِنْ) التي قالوا انها للكلية والتبعيض، ولذا فهي جميعا مما يجب أن يستبعد من حساب الأضداد لثبوت التعسف الذى لحقها من جراء ذلك.

٣ ـ ألفاظ مختلفة، مثل : (بَعْد) للتأخير وبمعنى قبل[٩٧]. و (بَعْض) بمعنى بعض وكل[٩٨]. و (حاىْ حاىْ) لزجر الغنم ودعوتها[٩٩]. و (ما أسَرَّني) يقولها السّار والمسْرور[١] و (الصَّلاة) للمسْجد والكنيسة[٢]. و (طَرْطَبَ) وهي أصوات تصدر من بين

---

(٩٥) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٩ .

(٩٦) انظر : مجلة اللسان العربي ٨/١١٧ .

(٩٧) قطرب ٢٥٧ والصغاني ٢٢٤ وابن الانبارى ١٠٧ .

(٩٨) ابن الانبارى ١٨١ والصغاني ٢٢٤ وابو الطيب ١/٩٩ .

(٩٩) قطرب ٢٧٣ وابو حاتم ١٤٩ وابن الانبارى ٤٠٢ وابو الطيب ١/٢٠٢ .

(١) ابن الانبارى ٢٢٠ وابن الدهان ٩٩ .

(٢) ابن الانبارى ٣٣٨ والصغاني ٢٣٦ .

الشفتين لدعوة الغنم وزجرها [٣] • و (أَليَتْ) للمرأة اذا عظمت أليتها ، وللشاة اذا قطعت أليتها [٤] • و (قَعَدَ) اذا جلس ، وقعد يشتمني بمعنى قام [٥] • و (كانَ) للماضي والمستقبل [٦] • و (يكون) للمستقبل والماضي [٧] • و (يوم مَعْمَعان ومَعْمَعاني) لشديد الحر وشديد القر [٨] • و (نَحْن) للواحد والجمع [٩] • و (رَجْل) للواحد وللجماعة [١٠] • و (الأُمَّة) للواحد وللجماعة [١١] • و (فَعَل) لما وقع ولما لم يقع [١٢] • و (يَفْعل) لما وقع ولما لم يقع [١٣] • و (الضِدّ) للمخالف والمماثل [١٤] • و (النِدّ) للمماثل والمضاد [١٥] • و (المِثْل) للمثل ولضعفه [١٦] • و (الضِعْف) للمثل وللمثلين [١٧] • و (لا أمَّ له) للمدح والذم [١٨] • و (ضَنين وظَنين) الاولى بمعنى البخيل والثانية

---

(٣) قطرب ٢٧٨ وابو الطيب ١/٤٦٤ والصغاني ٢٣٧ وابن الانبارى ٤٠٧ •

(٤) قطرب ٢٧٨ وابن الانبارى ٤٠٦ •

(٥) قطرب ٢٧٤ وابو حاتم ١٣٥ وابن الانبارى ٢٤٧ •

(٦) ابن الانبارى ٦٠ وابن الدهان ١٠٥ •

(٧) ابن الانبارى ٦٠ وابن الدهان ١٠٥ •

(٨) ابن الانبارى ٢٩٠ وأبو الطيب ٢/٦٢٩ وابن الدهان ١٠٦ •

(٩) ابن الانبارى ١٨٢ وابن الدهان ١٠٦ •

(١٠) ابن الانبارى ٤١٤ •

(١١) ابن الانبارى ٢٦٩ •

(١٢) قطرب ٢٦٣ •

(١٣) قطرب ٢٦٣ •

(١٤) قطرب ٢٦٢ وابو الطيب ١/٤٤٩ وابن الدهان ١٠١ والصغاني ٢٣٦ •

(١٥) ابو حاتم ٧٣ وابن الانبارى ٢٣ وابن الدهان ١٠٦ وأبو الطيب ٢/٦٥١ •

(١٦) ابن الانبارى ١٣٢ وابن الدهان ١٠٥ والصغاني ٢٤٥ •

(١٧) ابن الانبارى ١٣١ والمصباح المنير ٤٩٣ •

(١٨) الصغاني ٢٢٣ •

بمعنى المتهم [١٩] . و (سِوى وسِواء) لنفس الشيء ولغيره [٢٠] .

والقاء نظرة فاحصة على هذه المواد توقفنا على مدى التعسف الذى لحق بها فما معنى الضدية المزعومة في (حايْ حايْ) أو (طَرْطَبَ) وهي أصوات مبهمة لا معنى لها ، يصدرها الراعي بتحريك شفتيه ولسانه اذا أراد سوق غنمه والانتقال بها سواء أكان يريد زجرها وابعادها أم دعوتها والاتيان بها ، المهم انها ليست من الكلام المفهوم لكي تفترض فيها الضدية . وينبغي أن يعد الفعل (قَعَد) في مثل قولنا (قَعَدَ يشْتِمني) من أفعال الشروع في معناه ، اذ يقوم مقام طفق وأخذ وشرع ، وليس المقصود به (قام) أى انتصب ، اذ ليس من الضرورى أن يكون الشاتم منتصبا . واستعمال (نحن) للمفرد هو من باب التجوز المقصود به التعظيم والاجلال للنفس ومثله (رَجْل) و (الأُمّة) . واستعمال (كانَ) للاستقبال أو (يكون) للماضي ، ليس معناه ان الفعلين أصيلين في انصرافهما الى هذين الزمنين في الأساس ، وانما يصرفهما الى ذلك سياق الكلام ومجرى العبارة ، كاستعمال (كانَ) في الشرط مثلا للدلالة على الاستقبال ، لأن من طبيعة اسلوب الشرط أن يتوقف تحقق الجواب فيه على مايحمله المستقبل من امكان تحقق الشيء المشروط ، وكاستعمال (يكون) في سياق يدل على ان الفعل كان مستقبلا في الزمن الماضي . ومثلهما (فَعَل) و (يَفْعَل) ، والى هذا المعنى اشار ابن الانبارى بقوله : « والذى نذهب اليه أن كان ويكون لايجوز أن يكونا على خلاف ظاهرهما ، الاّ اذا وضح المعنى .. لأن هذا ما لايفهم ولا يقوم عليه دليل ، فاذا انكشف المعنى حمل أحد الفعلين على الاخر» [٢١] .

---

(١٩) ابو حاتم ٧٨ .

(٢٠) ابو الطيب ١/٣٥٦ .

(٢١) ابن الانبارى ٦١ .

و (ما أسَرَّني) اسلوب تعجب يصح ان يطلقه السار اذا رأى شدة سرور المسرور به فيقول (ما أسَرَّني لفلان) ، ويطلقه المسرور اذا كان شديد السرور بصاحبه فيقول (ما أسَرَّني بفلان) • و (الصَّلاة) معناها الاصلي (الدّعاء) وهو معنى يتوفر في المسجد والكنيسة • أما (الضِّدّ) و (النِّدّ) و (المِثْل)و(الضَّعْف) فهي أضداد اكتسبت كل واحدة منها الضدية من الاخرى بوساطة الانتقال الذهني الطبيعي الى الضدّ ، ولأن كل معنى من معانيها لايتوفر الاّ بتوفّر النقيض ، فلا يمكن أن يكون هناك ضدان اذا لم يكونا مثلين كل منهما يضاد الآخر ، كما لايمكن أن يكونا ندّين اذا لم يكونا ضدين وهكذا ، وكنا رجحنا سابقا أن تكون الآية الكريمة (ولا تَجْعلوا لله أنْداداً) هي السبب في وجود هذه المعاني لاختلافهم في تفسير معنى (أنداداً) • وأما (ضَنين وظَنين) وانصراف الاولى الى معنى (بخيل) والاخرى الى معنى (متّهم) وقد جعلهما أبو حاتم مادة واحدة ، فانه الى باب الابدال أقرب منه الى الأضداد ، فليس كل منهما ينصرف الى ضدين ، وانما في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه ، وحتى لو سلمنا بأنهما مادة واحدة فالمعنيان ليسا متضادين ، ولذلك لم ترد هذه المادة أو هاتين المادتين عند غير ابي حاتم من الأضداديين • وهكذا سائر اضداد هذه المجموعة التي يظهر التعسف واضحا في حملها على التضاد •

٤ ـ المشترك اللفظي ، مثل : (اجْلَعَبَّ) اضطجع ومضى [٢٢] • و (اللَّحْن) الخطأ والتورية والفطنة والصواب[٢٣] • و (المَولى) السيد وابن العم والصهر والعبد والجار[٢٤] •و (دَلْوٌ يَديَّة) اذا كانت وفقا

---

(٢٢) ابن الانبارى ٣١٤ وابو الطيب ١٦٦/١ وابن الدهان ٩٥ •
(٢٣) ابن الانبارى ٢٣٨ ـ ٢٤٦ وابن الدهان ١٠٥ والصغاني ٢٤٤ •
(٢٤) قطرب ٢٥٥ وابو الطيب ٦٦٠/٢ وابن الانبارى ٤٦ـ٥٠ وابن الدهان ١٠٧ •

ليست واسعة ولا ضيقة ، واذا كانت واسعة [٢٥] . و (الفـارِي) للذي يقطع الاديم والذي يخرزه [٢٦] . و (جَمَّرت المرأة) جعلت لهـا ، كالنزعتين من حلق ونتف وجمرت الجنـد قطعت نسـلهم [٢٧] . و (التَفَطُّر) الا ّ يخرج من لبن الناقة شيء ، والحلب ، والانشقاق [٢٨] . و (سَمَلَ) بين القوم أصلح بينهم ، وسمل عينه فقأها [٢٩] . و (البِكْر) للمرأة قبل أن تنكح وبعد أن تنكح والرجل والولد [٣٠] . و (أَشُدّ) للبالغ ثماني عشرة سنة وللبالغ ثلاثا وثلاثين وللبالغ اربعين [٣١] . و (الأصْفَر) للأصفر والاسود [٣٢] . و (الغاضِيَة) للنار العظيمة والليلة الشديدة الظلمة والناقة التي تأكل الغضا [٣٣] . وغير ذلك كثير ، ومن الواضح أن المعنيين أو المعاني التي تنصرف اليها اللفظة الواحدة من هذه المجموعة ليست متضادة تضادا واضحا يسوغ عدّها في الأضداد ، وقد مرّ في صدر هذا الفصل عرضنا لتحديدات الاضداديين لمعنى الضد ، واشتراطهم أن يكون التضاد بين المعنيين تاما كالذي بين الطول والقصر والعلم والجهل والشجاعة والجبن وما أشبه ذلك ، اذ اننا لو طبقنا هذا على مجموعة الألفاظ ، هنا ، لما كنا أمام

(٢٥) قطرب ٢٥٥ وابو الطيب ٢/٦٨٧ وابن الانبارى ٢٦٢ وابن الدهان ١٠٨ .

(٢٦) قطرب ٢٥٨ وابو الطيب ٢/٥٦٠ وابن الانبارى ١٥٨ وابن الدهان ١٠٣ .

(٢٧) قطرب ٢٥٦ وابن الانبارى ٣٧٢ .

(٢٨) قطرب ٢٦٠ وابن الانبارى ٣٧٣ وابو الطيب ٢/٥٦٣ وابن الدهان ١٠٣ .

(٢٩) أبو حاتم ١٣٣ وابن الانبارى ٢٨٥ وابو الطيب ١/٣٦٧ وابن الدهان ٩٩ .

(٣٠) ابو حاتم ١٣٨ وابن الانبارى ٢٤٦ وابو الطيب ١/٩١ وابن الدهان ٩٤ .

(٣١) ابن الانبارى ٢٢٢ وابن الدهان ١٠٠ والصغاني ٢٣٣ .

(٣٢) قطرب ٢٧٨ وابو الطيب ١/٤٢٤ وابن الانبارى ١٦٠ وابو حاتم ١٠٢ وابن الدهان ١٠٠ ومجاز القرآن لابي عبيدة ١/٤٤ .

(٣٣) الاصمعي ٤٥ وابن السكيت ١٩٩ وابو الطيب ٢/٥٢٤ وابن الدهان ١٠٣ والصغاني ٢٤٠ .

أضداد بهذا المعنى ، فما التضاد بين اضطجع ومضى ؟ اذ المفروض أن يكون ضد اضطجع نهض وضد مضى جاء ، وكذلك معاني (اللّحن) و (المولى) فهي كثيرة غير متضادة ، تعبر عن مسلكها في التطوّر الدلالي . وليس بين أن تكون الدلو متوسطة الكبر وكبيرة تضاد ، وانما يجب أن يكون بين الصغيرة والكبيرة . كما ليس بين معاني (أشُدّ) أيّ تضاد، فكونها تعني ثماني عشرة سنة أو أربعين أو ثلاثا وثلاثين ، لا يوحي بأية ضدية فيها ، وكما ان الاصفر ليس ضد الاسود بأى اعتبار من الاعتبارات ، وانما ضد الاسود الابيض لغاية الستر في الأول وغاية الانكشاف في الثاني ، أما الأصفر فلا يضاد اى لون من الالوان المعروفة وانما كل واحد منها شيء خاص متميز ، وهكذا الامر في سائر ما ذكرناه من المواد وما لم نذكره شبيها به مما حفلت به كتب الأضداد ، حيث ينبغي ـ بانصاف ـ عده من المشترك اللفظي الذى تكلمنا عليه في تمهيد هذه الرسالة ، والذى يقوم على انصراف اللفظة الى معنيين أو أكثر مما ليس بينهما أو بينها تضاد واضح ، اذ المشترك شيء غير الاضداد وهو باب قائم بذاته يختلف اختلافا كبيرا عما نحن في صدده ، لأن فكرة الضدية ، فكرة خاصة ومستقلة ، لايشبهها أى مظهر من مظاهر الحياة الاخرى ، وحتى الذين عدّوا الاضداد نوعا من المشترك ، فانهم جعلوها نوعا متميزاً يبحث فيه بمعزل عن المشترك، وربما يكون الأضداديون هم أول من فرق بين ظاهرتي التضاد والاشتراك ، ذلك ان منهم من كان له في كل واحد منهما تأليف خاص ، كالاصمعي مثلا فقد وضع للاضداد كتابه الذى ندرسه ونرجع اليه الآن ، ووضع للمشترك كتابه (ما اتفق لفظه واختلف معناه) ، وبين الاختلاف والتضاد بون بعيد ، لهذا يجب أن يلحق هذا النوع الذى تفسر معانيه بالاشتراك بالانواع الاخرى التى توصلنا الى ضرورة اخراجها من حظيرة الأضداد لعدم توفر فكرة الضدية فيها لانها قسرت على أن تكون كذلك بتعسف أصحابنا الأضداديين .

قانون (وحدة وصراع المتضادات)

أشرنا في مواضع مختلفة من هذا الفصل اشارات عابرة الى فكرة هذا القانون ، عند محاولاتنا لتحديد فكرة الضدية ، ونحن الآن نبسط الكلام على هذه الفكرة في ضوء المبدأ المادى (الديالكتيكي) لقانون : وحدة وصراع المتضادات ، محاولة منّا جديدة لتفسير وجود الأضداد في اللغة ، ومشاركة جادة في هذا السبيل ، وذلك بالافادة من نتائج الاستقراءات العلمية للظواهر الموجودة موضوعيا . فكنّا قد ألمحنا الى أنه لا معنى أساسا لأن يقال (هذا ضد ذاك) أو (ان هناك تضادا) أو (ضدية الشيء) أو ما أشبه ذلك ، اذا لم يكن هناك شيئان موجودان متضادّان بالفعل ، سواء أكان هذان الشيئان ماديين أو معنويين ، المهم أن يكونا موجودين وجودا موضوعيا ، في ذهن الانسان كالمعاني والأفكار ، أو فيما يحيطه من مادة ، اذ لايمكن منطقا أن يكون أحد الضدين موجودا دون الآخر ، والاّ لما عرف بأنه ضد ذلك الشيء، فلولا البياض لما قلنا السّواد ضد البياض ولولا الحياة لما كان الموت ضدها ولولا الشجاعة لما كان الجبن ضدها وهكذا . فكل ضد من هذه الأضداد هو السبب في اعتبار ضده ضدا ، وكل منهما علة وجود الآخر . ومن هذا الترابط الاساسي بين الضدين صحّ أن يقال انهما متصلان صلة وثيقة تجعلهما يتواجدان معا في كيان واحد ، ويقوّي هذه الصلة ان كلا من المتضادين يتحول تدريجيا بفعل عوامل معينة الى ضده فيكونه . وهذه الخصيصة الجوهرية في الضدين هي مايسمى ب (وحدة المتضادات) (٣٤) .

ولما كان الضدان موجودين في الشيء الواحد فانهما لايقفان موقف اللا مبالاة كلا تجاه الآخر ، بل يحدث بينهما صراع دائم ، لأن كلا منهما

---

(٣٤) أنظر : في التناقض لماوتسي تونغ ٥٦ والمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لستالين ٣٤ وما بعدها وعرض موجز للمادية الديالكتيكية لبودو ستنيك وياخوت ٨٩ .

يجسد ميلا ما : الايجابية أو السلبية ، التأثير أو عكس التأثير ، واذا كنا نجد من الاشياء مايمثل انسجاما مطلقا أى خلوا من الصراع بين نقيضيه ، فهذا لا يعني عدم وجود هذا الصراع ، صحيح انه قد يمر وقت تبدو فيه الاشياء وكأنها خالية من الصراع الا أن ذلك يعتبر حالة موقتة عابرة ، يحدث بعدها الصراع الحتمي بين النقيضين ، الذى قد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا • على ان هذا الصراع لايحدث بشدة وبحدية تامة في البدء ، فهو عادة ينطبع في المراحل الأولى بطابع (فارق) فقط ، ثم يتحول الفارق الى تضاد ، اى الى تناقض أكثر تطورا ، وذلك عندما تعمد كل ناحية من نواحي التناقض الى نفي الناحية الاخرى بحدة ، وهذه هي الخصيصة الجوهرية الاخرى في الضدين وهو ما يسمى بـ (صراع المتضادات)[٣٥]• وحينما نجمع فكرة (وحدة المتضادات) الى فكرة (صراع المتضادات)تتكون لدينا صورة واضحة ومختصرة عن (قانون وحدة وصراع المتضادات) الذى اعتبر جوهر جميع العمليات والظواهر والاشياء المادية والمعنوية ، وهو الدافع الداخلي للتطور والمؤدى الى نمو التناقضات التي تنتهي الى القضاء على القديم ونشوء الجديد [٣٦] ، ولو لاحظنا لرأينا ان قانون المتضادات هذا يضيف الى معنى الضدين معنى جديدا هو وحدة المتضادات الى جانب مفهوم الصراع بينهما ، وعلى كل فالقانون يفترض في التناقض سنة الحياة الموضوعية •

واللغة باعتبارها ظاهرة من ظواهر المجتمع ومظهر من مظاهر الوعي والعلاقات الجدلية بين أفراده ، يمكن أن تخضع لهذا القانون خضوع الظواهر الموضوعية الاخرى ، وفي اللغة جوانب متعددة وظواهر كثيرة

(٣٥) في التناقض ٦٦ والنظرية الفلسفية العامة لتطور الكون والمجتمع لستالين ٧ ومابعدها والنظرية المادية في المعرفة لروجيه غارودى ٩٢ ومابعدها والمادية الديالكيتيكية لجماعة من الاساتذة السوفيت ٢٦٦ •

(٣٦) المادية الديالكتيكية ٢٦٩ •

ينطبق عليها القانون من هذه الزاوية أو تلك • وأضدادنا اللغوية هي من تلك الظواهر التي يمكن أن تفسر بقانون (وحدة وصراح المتضادات) • فاذا أخذنا مثلا لفظة (الجَوْن) (٣٧) يكون بامكاننا ان نقول انها حين أطلقها المتكلم على الأسود أول الامر ، كان ذلك بداية لصراع النقيضين المتحدين في وعي هذا المتكلم بفعل عاملي الوحدة الذين هما : ان كلا منهما علة وجود الثاني ، وان كلا منهما ينزع الى ان يتحول الى نقيضه ، وهي وحدة موجودة لاشعوريا في ذهن المتكلم ـ كما أشرنا الى هذه الناحية عند كلامنا على تصاحب أو تداعي المعاني المتضادة في الذهن ـ وبفعل هذا الصراع الذى يمثل ميلين خاصين : سلبا وايجابا ، تغلّب النقيض الجديد وهو البياض ، على النقيض القديم وهو السواد ، وربما يكون مصداق ان الصراع يتدرج حتى يأخذ شكله النهائي ان الجون اطلقت على الشيء الذى اختلط فيه السواد والبياض • ذلك ان اللغة وهي نتاج وعي الانسان لايمكن أن تكون بمعزل عن هذا الوعي حتى في وحدة وصراع متضاداتها ، فالنقيضان موجودان في وعي الانسان ابتداء ، وقد اختار أحدهما وهو السّواد ليكون معنى (الجَوْن) واطلق اللفظة على كل أسود ، حتى اذا وصلت درجة الصراع الى المرحلة (الكميّة) المتساوية في ذهن الانسان اطلقها على الاشياء التي يتوفر فيها النقيضان الاسود والابيض بدرجة متساوية (٣٨) ثم لما اشتد صراعهما حتى وصل الى النفي (النوعي) بتداعي النقيض في الذهن ، أسرعت المخيلة الى استحضاره واطلاق اللفظة عليه ، فكان البياض هو معنى (الجَوْن) الجديد ، بعد أن مات المعنى القديم ، الا ان التدوين المبكر احتفظ لنا بالمعنيين ، وصارت (الجَوْن) من الأضداد • وتؤيد

---

(٣٧) ابن الانبارى ١١١ وابو الطيب ١/١٥١ •

(٣٨) كتسمية الحمارالوحشي بالجون لاختلاط السوادوالبياض فيجلده : اشتقاق ابن دريد ٢٢٤ ، وتسمية النمر بالجون لاختلاط اللونين في جلده ايضا : المرصع لابن الاثير ١٢١ •

الشواهد والنصوص التي سيقت في كتب الأضداد واللغة على معنيي هذه المادة أن معنى السواد أقدم من البياض ، فشواهده جاهلية في الغالب في حين تكون أغلب شواهد المعنى الآخر اسلامية متأخرة عن تلك في الزمن[٣٩] ، ومثل الجون تماما : (الجَلل)[٤٠] و (السُّدفة)[٤١] و (الشِّفّ)[٤٢] وغيرها ، حيث تعبر جميعا عن أنها كانت تحت تأثير قانون الوحدة والصراع القائم بين النقيضين .

والذي نقوله هنا ليس من قبيل فكرة تطور الدلالة التي عرضنا لها سابقا ، لاننا قلنا ان تطور الدلالة يخضع لعوامل معينة لا يتعداها كالتعميم والتخصيص وتغيّر المجال ... الخ أما وحدة وصراع المتضادات فشيء آخر ، اذ المفروض ان يكونا سنة غير محددة بعوامل من هذا النوع ، فهو قانون الحركة التي لاتسكن والتطور الذي لايهدأ . واذا صح تطبيق هذا القانون على الأضداد ، وصح تفسير نشأتها به ، فهذا يعني اكتفاءا به واستغناءا عن كل التفسيرات الاخرى ، ولا مانع من وقوعه في اللهجة الواحدة والمكان الواحد ، على أن يراعى في ذلك الزمان ، فقانون وحدة

---

(٣٩) انظر : كتب الأضداد مادة (الجون) ومشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة ١/٢٧ وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ٥ ومعاني الشعر ١٤ ، ١٣٦ واmali القالي ١/٩ والابل للاصمعي ١٢٧ وسمط اللآلي ١/٤٢ واساس البلاغة للزمخشري ٧٠ ولسان العرب ١٣/١٠١ والافصاح في فقه اللغة ٢/٧٣٦ ، ٩١٣ .

(٤٠) قطرب ٢٤٦ والاصمعي ٩ وابو حاتم ٨٤ وابن السكيت ١٦٧ ومشكل القرآن وغريبه ١/٢٩ وتأويل مشكل القرآن ١٤٥–١٤٦ وما اتفق لفظه واختلف معناه ٣–٤ والاقتضاب ٣٦١ والبارع لابي علي ٤١٩ واساس البلاغة ٦٢ ولسان العرب ١١/١١٧ .

(٤١) الاصمعي ٣٥ وابن السكيت ١٨٩ وابن الانباري ١١٤ وابو الطيب ١/٣٤٦ وتأويل مشكل القرآن ١٤٣ ومشكل القرآن وغريبه ١/٢٨ وأساس البلاغة ٢٠٦ ولسان العرب ٩/١٤٧ والافصاح في فقه اللغة ٢/٩٢٠ ، ٩٢٢ ، ١٣٢٤ .

(٤٢) كتب الاضداد مادة (الشف) والصحاح ١٣٨٢ (شفف) .

وصراع المتضادات مرتبط باستقراء التاريخ والتعويل عليه ، ولهذا يكون للضدّ بعد زمني بالضرورة ، بشرط أن تكون اللفظة حاوية للنقيضين الحقيقيين الذين تصدق عليهما فكرة الوحدة والصراع ، والاّ فهناك المشترك اللفظي والمشتقات الصرفية وغير ذلكَ ممّا لا تصدق على تضادها هذه الفكرة ، والأضداد من النوع الأول هي الأقل كثيرا في كتب الأضداد من سواها الذى استبعدناه لعدم توفرّ فكرة الضدية فيه بشكل واضح •

ومن تطبيق هذا القانون على الأضداد نخرج بالنتيجة التي تؤكد أن لا أضداد حقيقية في أصل الوضع ، وانما هناك (محتوى) معين في ذهن الفرد هو السواد ، و (شكل) معين هو الجَوْن [٤٣] ، وبفعل وحدة النقيضين وجد البياض في ذهنه وبفعل صراعهما الضرورى ونزوع كل منهما الى أن يكون في مركز الآخر ، أخذ المحتوى الجديد يقترب من مركز المحتوى القديم حتى وجد (الحَلّ) في سيطرة النقيض الجديد على (الكيان) وموت النقيض القديم[٤٤] • وهذا يعني أن اللفظة لم تكن تنصرف الى كل منهما على حدة في وقت واحد ، وانما كان انصرافها الى الأسود في زمن يسبق انصرافها الى الابيض ، فهي لم تكن من (الاضداد اللغوية) في يوم من الايام ، وانما كان معناها الثاني نقيضا لمعناها الأول ، وحتى حين انصرفت اليهما معا فهي لم تكن من الاضداد لانها كانت تنصرف الى الشيء الذى يتوفر فيه النقيضان بدرجة متساوية ،وهي مرحلة (الفارق) من الصراع ، وهو معنى واحد • تمّ كل هذا بفاعلية قانون (وحدة وصراع المتضادات) في وعي الانسان اللغوى •

---

(٤٣) انظر في مصطلحي (المحتوى) و (الشكل) : المادية الديالكتيكية لجماعة من الاساتذة السوفييت ٢٨٨ ـ ٢٩٥ •

(٤٤) انظر في مصطلحي (الحل) و (الكيان) : المادية الديالكتيكية ٢٥٨ وفي التناقض ٦٩ ومابعدها •

نخلص من هذا الاستعراض الشامل للظروف التاريخية اللغوية ، والعوامل البيئية الطبيعية التي رافقت العربية في مسيرتها الطويلة ابتداءا من عصورها السحيقة في القدم حتى عصر تدوينها ، بعد عرض مواد الأضداد على كل واحد منها لمعرفة مايمكن أن يكون سببا في نشأة قسم من الأضداد ، الى أن الاغلب الأعم من هذه المواد كان وليد هذه الظروف ونتاج هـــذه العوامل ، اذ ان العربية البدائية لم تكن لتحوى هذه الكثرة من الأضداد ، وانما اكتسبتها بفعل التطور الحتمي في دلالاتها والذى تستدعيه الحيـــاة المتغيرة المتبدلة في كل آن •

ولو وحدنا مواد الأضداد التي جاءت بها كتب الأقدمين في قائمـــة خالية من التكرار ، لكان لنا من ذلك مايقرب من (٤٠٠) مادة ، ولو رجعنا الى المواد التي امكن ردها الى كل عامل من هذه العوامل المدروسة في هذا الفصل مسقطين منها المادة المكررة ، ومضيفين اليها الأشباه التي لم نذكرها والتي اكتفينا بالاشارة الى مظانّها ، لكان لنا من ذلك ايضا ما يقرب من هذا العدد ، وعليه يكون صحيحا ما وصل اليه المستشرق (Giese) بعد دراسته للشعر الجاهلي من أنه لم يجد أكثر من اثنين وعشرين ضدا فقط مستعينا بنتائج علم تطور المعاني [٤٥] ، كما أشرنا الى ذلك قبلا • ولعل فيها هـــذا العدد الضئيل من الألفاظ التي تنصرف انصرافا مضادا ليست بدعا بـــين اللغات ، اذ لانعدم أن نجد في اكثر لغات العالم مثل هـــذا العدد مـــن الأضداد [٤٦] ،الذى يعبر ــ في العربية وغيرها ــ عن بقايا تاريخية قديمـــة تشير الى مرحلة حوت فيها اللغة الفاظا معينة تتوفر فيها الضدية لسبب أو

---

(٤٥) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٣ ومجلة مجمع اللغة العربيـــة الملكي ٢/٢٣٧ •

(٤٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٤ ، ٣٠٢ للوقوف على الامثلة •

لآخر ، وربما كانت هذه الألفاظ هي وليدة الحركة (الديالكتيكية) للغة في ذهن الانسان ووعيه • وعلى ذلك فليس لنا أن ندعي ان في العربيـــة مشكلة اسمها (الأضداد) ، وانما هناك ألفاظ تداخلت معانيها وتطـــورت أصواتها ودلالاتها فعلقت بها الضدية علاقة طارئة غير أصيلة ، واذا كان ثمة مشكلة حقيقية فهي في (ضخامة) كتب الأضداد •

الفصل الثالث

مواقف الدارسين من الاضداد

ومناهجهم في دراساتها

لم يقف الدارسون من الاضداد موقفا واحدا ، فمنذ ان وجد الحديث عنها وظهرت اوائل المصنفات التي تحاول جمع مادتها ، وجد الى جانب ذلك الاختلاف في وجودها وتفسيرها ، فانقسم العلماء الى مؤيد يدافع عن الاضداد ويدلل على وجودها في اللغة ، والى منكر لهذا الوجود ينعى على العربيّة احتضانها لهذه المواد ويعيب عليها عدم الدقة في دلالة الفاظها • ومن الطبيعي ان يكون وجود المؤيدين أسبق في الظهور من المعارضين ، اذ لولا وجودهم لما ظهر الرد والانكار من الطرف الآخر ، وعليه يكون الرواة الاوائل للالفاظ المتضادة ـ الذين سنبسط الكلام على روايتهم فيما بعد ـ هم اوائل المؤيدين لوجود الاضداد في اللغة ، كما نفترض ان يكون مؤلفو معجمات الاضداد جميعا على طريق التأييد كذلك ، سوى وقفاتهم العابرة في مصنفاتهم هذه حيال بعض الالفاظ التي يعالجون ضديتها ، مما نستشعر منه شكهم في تضادها ، هذا اذا لم ينصوا فعلا على انها ليست من الاضداد كما فعلوا في مواضع غير قليلة من كتبهم • اما انكار الاضداد اصلا والطعن على العربية في هذه الناحية فهو وان تأخر عن تاريخ البدء بروايتها والتأليف فيها الا انه كما يظهر قديم ايضا وقد رافق التدوين مبكرا ، لاننا نجد ذكر الطاعنين عند ابن الانبارى الذى توفي سنة ٣٢٨ هـ والذى يمكن ان يكون قد الف كتابه في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الرابع ، فاذا عرفنا ان اول كتب الاضداد قد تم تأليفه في نهاية القرن الثاني او بداية القرن الثالث على يد قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، عرفنا ايضا ان هؤلاء المنكرين وجدوا في حدود القرن الثالث قريبين من عصر التدوين الاول للأضداد ومتأخرين عن روايتها قليلا •

ونحن حين نقول ان التأييد سبق الانكار يجب ان نفرق بين معنى التأييد ومعنى الدفاع ، فالتأييد معنى خاص يتوفر في كل كتب الاضداد وفي

انفس مؤلفيها وان لم تتعرض هذه الكتب الى مسألة وجود الاضداد وعدم وجودها او تبحث في تفسيرها او تدافع عنها ، فمجرد القيام بوضع معجم خاص بالفاظ تضادت معانيها والاستشهاد عليها يعني وحده تأييد الفكرة ، اما الدفاع فهو معنى اعم من التأييد لانه يتطلب مع المعنى الاول البرهنة على وجود الاضداد في اللغة والتدليل على صحة ورودها عن العرب وسلامة استعمالاتها في اساليبهم ومحاولة تفسيرها ، وهو أمر لا يوجد الا بعد وجود الانكار •

وبناء على تسلسل هذه المراحل فنحن نبدأ كلامنا بالحديث عن الانكار لانه كما قلنا سبق الدفاع ، فبعد ان ظهرت كتب : قطرب وأبي عبيدة والاصمعي والتوزى وأبي حاتم وابن السكيت وغيرهم من اوائل الاضداديين، انبرى لانكار ما جاء به هؤلاء من مادة جماعة من الدّارسين اختلفت مناهجهم في الانكار بمقدار ما اختلفت نياتهم فيه ، ولهذا فنحن لا نستطيع ان نعد جميع المنكرين فئة واحدة ونمطا واحدا وانما هم بحسب دوافعهم ثلاث طوائف : الاولى هم الشعوبيون واهل الزيغ والازراء بالعرب كما يسميهم ابن الانبارى ، يودون الطّعن على العرب من ناحية ان وجود الاضداد في اللغة دليل عدم الابانة والغموض والاضطراب وهذه الطائفة التي كانت سيئة النية في انكارها الاضداد اسبق الطوائف في الظهور • والثانية هم الذين افادوا فكرة الانكار من الاوائل ولكن لم تتوفر فيهم النية السيئة ولكنهم ارادوا ان يبطلوا الضدية بشكل من الاشكال ، ويقف ابن درستويه على رأس هؤلاء • والثالثة هم المحدثون من العرب والمستشرقين الذين يحاولون تفسير نشأة الاضداد لانكار ضدية اللفظة في وضعها الاول ، تبرئة لها من عدم الابانة الاصيل الذى اتهمها به اهل الازراء والشعوبيون ، وحرصا على نقاء اللغة من العيب الذى تطعن لوجوده فيها •

اما الطائفة الاولى فلا نعرف من مذهبها الا ما ذكره ابن الانبارى في

مقدمة كتابه فقال : « ويظن اهل البدع والزيغ والازراء بالعرب ان ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم وكثرة الالتباس في محاوراتهم وعند اتصال مخاطباتهم فيسألون عن ذلك ويحتجون بان الاسم منبيء عن المعنى الذي تحته ودال عليه وموضح تأويله فاذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب ايهما اراد المخاطب ، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى »[1] وهي فكرة مجملة عن ازراء هؤلاء الشعوبيين بالعرب من هذه الناحية ، فلا ندرى هل وضع احدهم في ذلك كتابا او هل سجلت آراءوهم ومناقشاتهم ونقلت عنهم ، ومتى بالضبط كان ذلك ومن هم رجال هذا المذهب ؟ كل ذلك مجهول لان كتب الاضداد وابن الانبارى على وجه الخصوص لم يسعفنا بهذه المعلومات • غير اننا لا نرجح بل لانعتقد ان يكون المقصود بهؤلاء هم ابن درستويه ومن سار على نهجه ممن اعتبرناهم طائفة اخرى تختلف منهجا عن اولئك كما يتوهم احد الباحثين[2] • لان ابن درستويه متأخر عن ابن الانبارى في الزمن فقد توفي سنة ٣٤٧ هـ ، واذا كان ابن الانبارى قد الف كتابه قبل وفاته ٣٢٨ هـ بعشرين سنة مثلا ، فتكون هذه المدة الطويلة مبعدة احتمال تأليف ابن درستويه لكتابه (ابطال الاضداد) قبل تأليف ابن الانبارى كتابه فلا يكون الاخير مشيرا الى ابن درستويه فضلا عن ان يكون المقصود احد انصار ابن درستويه او الذاهبين مذهبه في الانكار • فأهل البدع والزيغ والازراء بالعرب ـ كما يبدو ـ جماعة من الاعاجم تتوفر فيهم الروح الشعوبية والرغبة في الانتقاص من العرب عاشت بين ظهراني الوسط المثقف في ذلك الحين ، حاولت ان تجد في الاضداد سندا تستند اليه في الطعن على اللغة والنيل منها فهب ابن الانبارى للدفاع عن الاضداد وردّ دعاوى الشّعوبيين وتفنيد مزاعمهم وآرائهم •

---

(١) ابن الانبارى ١ـ٢ •

(٢) حسين محمد : اللسان العربي المغربية ٩٦/٨ في ١٩٧٢ م •

واما الطائفة الثانية فقد انكرت الاضداد ذاهبة الى تأويل المعنيين وارجاعهما الى اصل واحد ، لعدم قناعتها بأصل فكرة التضاد ، وهي تختلف عن الطائفة الاولى في دافعها الى الانكار ، ذلك انها لم تكن في عملها سيئة النية تجاه العربية كالطائفة تلك ، صحيح ان فيها الفارسي كابن درستويه الا ان ذلك لايعني توفر الروح الشعوبية في كل فارسي في الاصل ، لاننا نعرف ان كثيرا من علماء العربية الغيورين عليها هم من اصول فارسية واصدق مثال على ذلك ابن فارس الذى دافع عن الاضداد ، اضف الى ذلك ان من هذه الطائفة التي انكرت الاضداد من لايشك بعربيته كثعلب وهو من هو في غيرته على اللغة والذب عنها ، فانكار الاضداد ان توفر فيه حسن النية وسلامتها وقام على اساس معقول من التأويل وارجاع المعنيين الى اصل واحد كالذى فعلناه في (شمولية المدلول الاول) لا يعد انتقاصا من العربية ولا طعنا فيها ولا إزراء بالعرب ، بل على العكس تماما حيث دفع هؤلاء بدافع تنقية العربية مما طعنها فيه اولئك الشعوبيون وصحيح ايضا انهم افادوا فكرة الانكار من اولئك الا انهم سخروها بشكل مختلف ، تتوفر فيه الايجابية ويقوم على النظرة الموضوعية لمواد اللغة ودلالات الفاظها المختلفة .

ومن المؤسف ان يكون كتاب (ابطال الاضداد) لابن درستويه ضائعا ، اذ لو كان بين ايدينا الآن لكنا ازاء كتاب يقدم لنا الصورة الكاملة لمنهج الانكار وطريقة ابن درستويه في ابطال ضدية الالفاظ واستخلاصه المعنى الشامل للمعنيين المتضادين ، وربما نقل لنا آراء غيره ممن سبقوه الى معالجة الاضداد وانكارها . ولم يبق لنا منه الا نقول قليلة عنه متناثرة هنا وهناك لايمكن ان تقدم الصورة الواضحة التي يقدمها الكتاب ، عدا ما يحيط هذه النقول من مخاطر لاضطرارنا الى ان نستقيها من كتب المدافعين عن الاضداد وهم في معرض الرد على آراء المنكرين ، فهل كان النقل امينا ام حرّف النص ؟ هذا شيء لايمكن التثبّت منه مادام اصل الكتاب غائبا .

وهل كان النقل عن (ابطال الاضداد) أم عن كتاب آخر ؟ لايمكن القطع بذلك ايضا لان المصادر لاتنص في اكثر ما نقل عن ابن درستويه على انها نقلت قوله من كتابه ابطال الاضداد ، غير اننا نرجح ان يكون النقل عنه لا عن غيره لان ابن درستويه كما يوحي ذكره للكتاب في كتابه (تصحيح الفصيح) مرتين ، انه ملزم نفسه ألاّ يكرر ماقاله في ابطال الاضداد ، فهو يكتفي بأن يرجع القارىء الى كتابه (إبطال الأضداد) فليس هذا موضع ذكره[٣] ، او ما لايصلح ذكره ها هنا [٤] ، مما سنفصل فيه عند كلامنا على كتابه فيما بعد • واننا استفدنا من ذكر الكتاب في هذين الموضعين من (تصحيح الفصيح) ان مادتي (ناءَ) و (النَّبَل) اللتين هما عند الاضداديين من الاضداد كانتا ضمن المواد التي ابطل ضديتها في كتابه ابطال الاضداد •

واول ما نستطيع ان نلتقطه من اقوال ابن درستويه في هذا الصدد هو ردّه على سيبويه في اعتباره لفظة (وَجَدَ) مثلا للالفاظ التي تتفق في الشكل وتختلف في المعنى عند تقسيمه كلام العرب تقسيمه المعروف [٥] • فقال : « هذه اللفظة من اقوى حجج من يزعم ان من كلام العرب ما يتفق لفظه ويختلف معناه ، لان سيبويه ذكره في اول كتابه ، وجعله من الاصول المتقدمة ، فظن من لم يتأمل المعاني ولم يتحقق الحقائق ان هذا لفظ واحد قد جاء لمعان مختلفة ، وانما هذه المعاني كلها شيء واحد وهو اصابة الشيء خيرا كان او شرا ، ولكن فرّقوا بين المصادر لان المفعولات كانت مختلفة ، فجعل الفرق في المصادر بأنها ايضا مفعولة ، والمصادر كثيرة التصاريف جدا ، وامثلتها كثيرة مختلفة وقياسها غامض وعللها خفية والمفتشون عنها قليلون ،

---

(٣) تصحيح الفصيح ٨ ب •

(٤) تصحيح الفصيح ٢٥٦ أ •

(٥) كتاب سيبويه ١/٧ •

والصبر عليها معدوم . فلذلك توهم اهل اللغة انها تأتي على غير قياس ، لانهم لم يضبطوا قياسها ، ولم يقفوا على غورها »[٦] ، يعطينا هذا الكـلام فكرة موجزة عن طريقة ابن درستويه في ردّ المعاني وارجاعها الى اصـل واحد ، وذلك بعد دراسة اللفظة من جميع وجوهها واللجوء الى مصدرها الذى قد يوضح ان اللفظة قد تتفق في أصواتها مع لفظة اخرى ولكنهـا تختلف عنها في المصدر وحينئذ تكون لفظة اخرى غير الاولى فلا تكون من الاضداد او من المشترك كما قد يتوهم ذلك. وكان قد مرّ علينا في مبحـث (طريقة الاستعمال وضدية التفسير) نقل ابي الطيب عمن (يمنع الاضداد) الذى نرجح ان يكون ابن درستويه نفسه ، ارجاعه معنيي (بيضة البلد) التي هي للمدح والذم الى معنى الشهرة لان كلا الممدوح والمذموم يشتهر بما هو فيه[٧] ، فالمنهج ـ كما يبدو ـ يعتمد في الاساس على فكرة ارجاع المعنيين الى معنى عام او اصل واحد .

ويقول ابن درستويه : « ليس ادخال الالباس في الكلام من الحكمة والصواب ، وواضع اللغة عز وجل حكيم عليم . وانما اللغة موضوعة للابانة عن المعاني فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفـين ، او احدهما ضد الآخر، لما كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية »[٨]. فالمنطلق الاول هو من الايمان بتوقيف اللغة ، والواقف هو الله ، فلا يمكن ان يضع الحكيم العليم الفاظا تكون سببا في التعمية والتغطية ، فلابدّ اذن من الدفاع عـن قداسة اللغة بانكار الاضداد وذلك بارجاع المعنيين الى معنى واحد . وحتى حين اعترف ابن درستويه بمجيء الشيء النادر من الاضداد فانه لم يقصد الى ان ذلك كان اصلا في الوضع ، وانما اعترف بالعجز عن رصد العلـة

---

(٦) المزهر ١/٣٨٤ .

(٧) ابو الطيب ١/٥٧ .

(٨) المزهر ١/٣٨٥ .

التي ولدت التضاد او معرفة السبب في تشابه اللفظين ، فقال : « ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل ، كما يجيء فَعَل وأفعَل ، فيتوهم من لا يعرف العلل انهما لمعنيين مختلفين وان اتفق اللفظان ، والسّماع في ذلك صحيح عن العرب ، فالتأويل عليهم خطأ»[٩] ، ومن العلل التي ذكرها ان « يجيء ذلك في لغتين متباينتين او لحذف واختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك على السامع وتأول فيه الخطأ » [١٠] ، بمعنى انه اذا جهل ان احد المعنيين هو في لغة قبيلة غير القبيلة التي تستعمل المعنى الثاني ، او اذا خفي ان هناك حذفا واختصارا جعلا من اللفظتين لفظة واحدة ، حينئذ تكون اللفظة من الاضداد عند من لم يحسن معرفة السبب الذى جعل منها ضدا ، فكلامه وان اشعر باعترافه بوجود القليل من الاضداد، الا انه ينفي عن هذا القليل اصالة الضدية ، وهي نظرة علمية تدعونا للاعجاب بعمق تمرسه في اللغة وبعد اطلاعه على اسرارها .

ومن الاضداديين الذين ساروا على نهج ابن درستويه في انكار الاضداد الحسن بن بشر الآمدى مؤلف (الحروف من الاصول في الاضداد) الذى سنعرض لدراسة كتابه في الباب الثاني ، الا ان الذى يجب التنبيه عليه هو ان كتابه هو الآخر ضاع ولم يصل ، وربما هدانا ذكره للاصول في عنوانه الى مغزى وضعه ، لاننا عثرنا له في (الموازنة) على كلام طويل يعالج فيه ضدية عدد من الالفاظ عدّها الاضداديون من الاضداد بنفس الطريقة التي يعالج بها ابن درستويه الاضداد من ارجاع المعاني الى اصول واحدة ، وكنا قد قررنا ان ذلك يعتبر منهج هذه الطائفة من المنكرين ، يقول الآمدى : « واما ما ذكرته من ان (دون) تأتي بمعنى خلف وانها عند اهل العربية من الاضداد مثل (وراء) ، فقد اخبرتك ان معناها عند اهل اللغة والعربية

---

(٩) المزهر ١/٣٨٥ .
(١٠) المزهر ١/٣٨٥ .

(التقصير عن الغاية) ، واذا كان الشيء وراء الشيء او امامه او يمنة منه او شأمة ، صلح في ذلك كله ان تقول : هو دونه .. فليس هذا من الاضداد في شيء ، وانما جعلها قوم من الاضداد لما رأوها تستعمل في هذه الوجـوه لما فيها من الابهام ، وكذلك (وراء) انما هي من الموارات والاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء ، خلفك كان او قدامك [11] .. » ، وواضح من هذا ان الآمدى من القائلين بانكار الاضداد ، حيث يمكن ان يرجع بمعنيي قسم منها الى معنى عام يصلح ان يكون اصلا لكل من المعنيين ، ونفترض ان يكون كتابه في الاضداد سائرا على هذه الطريقة .

اما ثعلب فقد ذكر الجواليقي انه انكر الاضداد ، ونقل عنه انه قال : « ليس في كلام العرب ضد ... لانه لو كان فيه ضد لكان الكلام محالا ، لانه لا يكون الابيض اسود ولا الاسود ابيض . وكلام العرب وان اختلف اللفظ فالمعنى يرجع الى اصل واحد [12] ». فلو صح ذلك فانه على طريق هذه الطائفة في الانكار منهجا ونيّة ، فهو يرى انه يمكن ان يرجع بالمعنيين المتضادين الى اصل واحد هو المعنى الشامل ، بنفس الرؤية التي استجليناها عند ابن درستويه والآمدى ، وثعلب وان كان اسبق هذه الطائفة صدورا الى هذا المذهب لتقدم عصره على عصر سابقيه ، فنحن أخرنا الكلام عليه لشكنا في نسبة انكار الاضداد اليه ولو على هذه الطريقة ، ذلك ان تلميذه ابـن الانبارى اكثر من الرواية في كتابه عنه بشكل تجعلنا نعتقد بقوله بالاضداد وتأييده لها ، كما لم ينص ابن الانبارى وهو اعرف الناس به على هــذا المعنى من انكار ثعلب للاضداد ، فلو كان في الامر شيء من ذلك لكان ابن الانبارى ذاكره بكل تأكيد . اضف الى هذا ان ثعلبا ممن الف في الاضداد ـ كما سيأتي درس كتابه فيما بعد ـ وبالرغم من ضياع كتابـه

---

(١١) الموازنـة للآمدى ١/١٧٣ .
(١٢) شرح ادب الكاتب ١٧٧ .

ايضا ، فاننا استطعنا ان نستخلص ظواهر كثيرة منه لوفرة النقول عنه في كتب اللغة والاضداد ، ولكن جميع هذه النقول لا تشير ولا تشعر بشيء من الانكار ولا بما يشبه ذلك ، بل على العكس فربما تركت في اذهاننا انطباعا حسنا عن تأييده للفكرة والعمل بموجبها ، كما ان عنوان الكتاب كما ذكره ابن خير الاشبيلي هو (الاضداد) (١٣) ، وهو لايلمح الى شيء من ابطال الاضداد او نقضها او انكارها او الرجوع بها الى اصولها المعنوية الشاملة •
وعليه فمن الموضوعية استبعاد ثعلب من هذه الطائفة من المنكرين ، وربما صرح في احد كتبه بامكان ارجاع الضدين الى اصل واحد بشكل لا يمكن ان يفسر بان موقف ثعلب من الاضداد هو الانكار ، وربما وهم الجواليقي في مقولته فنسبها لثعلب وهي لغيره •

واما الطائفة الثالثة من المنكرين وهم المحدثون من دارسي الاضداد العرب والمستشرقين فنحن نرجيء الكلام عليها الى مابعد الكلام على المدافعين عن الاضداد ، لتأخر دراساتهم عن دراسات القدماء ، ثم نحاول ان نصل بين هؤلاء واولئك •

فاذا انتقلنا الى المدافعين عن وجود الاضداد وجدنا ان لهم آراءهم وادلتهم على هذا الوجود ، واذا كنا لم نعثر بعد على اى كتاب من كتب منكرى الاضداد فان الكتب التي وصلت الينا من مؤيديها المدافعين عنها كثيرة ، ولذلك نستطيع ان نتابع اقوالهم متابعة صحيحة ودقيقة ، فقد تشعبت الطرق لهؤلاء المدافعين عندما أرادوا الاستدلال على وجود الاضداد في اللغة العربية ، فكان منهم من اعتمد على النقل والرواية في البرهنة على وجودها مثل ابن فارس ، ومنهم من اعتمد على المنطق والجدل العقلي مثل ابن سيده ، ومنهم من اعتمد على تفسير نشأتها والظروف التي عملت على وجودها كابن الانبارى •

---

(١٣) فهرسة ابن خير ٣٨١ •

فابن فارس يقرر اولا ان : « من سنن العرب في الاسماء ان يسمّوا المتضادين باسم واحد • نحو (الجون) للأسود ، (الجون) للأبيض »[١٤]• وهو اعتماد محض على النقل ، واعتبار الاضداد ظاهرة (سنة) لغوية شأنها شأن الترادف والاشتراك لايمكن انكارها وما دامت كذلك فلا بدّ من الاعتراف بوجودها ، ثم يؤكد ابن فارس صحة البرهنة بالنقل على وجود الاضداد مطعما ذلك بشيء من الاستدلال العقلي فيقول : « وانكر ناس هذا المذهب وان العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده ، وهذا ليس بشيء • وذلك ان الذين رووا ان العرب تسمي السيف مهندا والفرس طرفا هم الذين رووا ان العرب تسمي المتضادين باسم واحد » • [١٥] معناه انه اذا صحت رواية الترادف عن العرب فلماذا لاتصح رواية الاضداد عنهم والرواة هم الرواة ، فان كان علينا ان نصدقهم وجب ان نصدقهم فيما رووه جميعا ، وان كان علينا ان نكذبهم وجب ان نفعل ذلك في جميع ما قالوا ، فليس من المعقول ان نصدقهم اذا رووا لنا مايعجبنا ، ونكذبهم اذا رووا لنا مالم يعجبنا • وربما كان يشير بعبارته (وانكر ناس) الى ابن درستويه او الى الآمدي ، لتقدمهما عليه في العصر فلا يبعد انه كان مدفوعا بذلك الى ردّ مزاعمهما في كتابيهما ، ولم ينعت (الناس) بالشعوبية او انهم اهل زيغ وازراء بالعرب ، لعلمه بعدم توفر القصد السيء لدى هؤلاء في انكارهم الاضداد ، ومن شدة حماسه لفكرته المتأثرة بايمانه بنظرية (توقيف اللغة) انه وضع كتابا في الرد على منكري الاضداد ، اذ يقول : « وقد جردنا في هذا كتابا ذكرنا فيه ما احتجوا به ، وذكرنا ردّ ذلك ونقضه ، فلذلك لم نكرره » [١٦] • ولكن الكتاب لم يصل مع مالم يصل من كتب المنكرين التي اشرنا اليها • والظاهر من منهج ابن فارس ومذهبه في الاستدلال انه

---

(١٤) الصاحبي ٦٦ •
(١٥) الصاحبي ٦٦ •
(١٦) الصاحبي ٦٦ـ٦٧ •

شحن الكتاب بالشواهد الشعرية والنثرية وذكر اقوال الرواة والعلماء ، كل ذلك للتدليل على صحة ورود الاضداد عن العرب وصدق روايتها عنهم ، بعد ان نطقت بها اشعارهم واقوالهم ٠

اما ابن سيده فذكر ان احد شيوخه كان ينكر (الاضداد التي حكاها اهل اللغة ، وان تكون لفظة واحدة لشيء وضده) فراح يقسم دفاعه عن الاضداد وردّ هذا الشيخ المنكر على شكل برهانين عقليين احدهما من جهة السماع والثاني من جهة القياس ، فقال : « ولا يجوز ان تقوم له حجة تثبت له دلالة من جهة السماع ، بل الحجة من هذه الجهة عليه ، لان اهل اللغة كأبي زيد وغيره وأبي عبيدة والاصمعي ومن بعدهم قد حكوا ذلك وصنفت فيه الكتب ، وذكروه في كتبهم مجتمعا ومفترقا ، فالحجة من هذه الجهة عليه لا له [17] » وهو بهذا الدليل يشبه ابن فارس في استدلاله براوية الرواة للاضداد وغير الاضداد ، ولعله استقاه واخذه من ابن فارس بعد ان قرأ كتابه ، ثم يأتي ابن سيده لبيان الدليل العقلي الذى يردّ به المنكر من جهة القياس ، فيصطنع حوارا جدليا بينه وبين ذلك المنكر فيقول : « قيل له هل يجوز عندك ان تجيء لفظتان في اللغة متفقتان لمعنيين مختلفين، فلا يخلو في ذلك ان يجوزه او يمنعه ، فان منعه وردّه صار الى ردّما يعلم وجوده وقبول العلماء له ومنع ما ثبت جوازه وشبهت عليه الالفاظ فانها اكثر من ان تحصى وتحصر نحو : وجدت الذى يراد به العلم والوجدان والغضب ٠ وجلست الذى هو خلاف قمت وجلست الذى هو بمعنى اتيت نجدا ٠ ونجد يقال لها جلس ، فاذا لم يكن سبيل الى المنع من هذا ثبت جواز اللفظة الواحدة للشيء وخلافه، واذا جازوقوع اللفظة الواحدة للشيء وخلافه جاز وقوعها للشيء وضده اذ الضد ضرب من الخلاف وان لم يكن

(١٧) المخصص ١٣/٢٥٩ ٠

كل خلاف ضدا » (١٨) • فهو يحاول عن طريق هذا الجدل المنطقي ان يثبت اولا وجود المشترك اللفظي في اللغة ، فاذا ثبت بدليل النقل والعقل ثبت ايضا وجود الاضداد في كلام العرب لان الاضداد نوع من المشترك ولكنه نوع اخص منه ، لان التضاد عنده خلاف وليس كل خلاف تضادا ، وهو مذهب اخذ به كثيرون عرضنا لهم في صدر الفصل السابق • وواضح ان منهج ابن سيده في الدفاع عن الاضداد يختلف عن منهج ابن فارس تماما فحين يعتمد ابن فارس على الرواية والنقل واستقراء الظواهر اللغوية، يعتمد ابن سيده على العقل والمحاكمة المنطقية والتقسيم الجدلي للبرهنة على وقوع الاضداد •

واما ابن الانبارى فقد اختلف منهج دفاعه عن المنهجين السابقين ، وذلك لاختلاف فهمه للاضداد • فقد رأينا خلال عرضنا لآراء المنكرين والمدافعين ان المسألة بينهما لاتتعدى ان تكون اما اضدادا او لا أضداد ، على اختلاف الاساليب التي تثبت احد الامرين • ولكن ابن الانبارى لم ينظر للمسألة من هذه الزاوية او تلك وانما نظر اليها على انها اضداد موجودة الآن في اللغة ولا مانع من ان يكون احد المعنيين لغة لقبيلة غير القبيلة التي تستعمل المعنى الثاني ، او ان يرجع بالمعنيين الى معنى عام شامل ، او ان السياق هو الذى يعين احد المعنيين المهم عنده ان هذه الامور جميعا تظافرت فخلقت اضدادا في اللغة ، بل استغل ابن الانبارى هذه التفسيرات المختلفة لنشوء الاضداد للدفاع عن اللغة امام اهل البدع والازراء بالعرب وكأنه يريد ان يبرهن لهم من ذلك ان التضاد ليس اصيلا في وضع اللفظة وانما هو نتيجة عامل من هذه العوامل ، ولا مانع بعد ذلك من ان نقول ان في لغتنا اليوم اضدادا نصنف فيها الكتاب ونذكر فيه شواهدها من الشعر والقرآن ، ومن هذا الفهم الدقيق القائم على الجمع بين النظر الى عوامل نشوء الاضداد وبين

(١٨) المخصص ١٣/٢٥٩ •

الرغبة في جمعها ودراستها انطلق ابن الانباري في دفاعه عن الاضداد ، فقال رادا على المنكرين المتسائلين : « فأجيبوا عن هذا الذي ظنوه وسألوا عنه بضروب من الاجوبة : أحدهنّ ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط اوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين ، لانها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الاخر ، ولايراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد ، فمن ذلك قول الشاعر :

كلّ شَيءٍ ما خلا الموت جَلَلْ   والفتى يَسْعى ويُلهيه الأَمل

فدل ما تقدم قبل (جَلَل) وتأخر بعده على أنّ معناه : كل شيء ما خلا الموت يسير ، ولا يتوهم ذو عقل وتمييزان (الجَلَل) ها هنا معناه (عظيم) [19] ... » . وهذا الذي يبينه ابن الانباري هنا هو في جواب من يقول ان وجود الاضداد في كلام المتكلم يورث اللبس لان السامع لايعلم اى معنيي الضد قصد هذا المتكلم ، فيوضح ابن الانباري ان قرائن الكلام بما يتقدم الضد وما يتأخر عنه هو الذي يخصص احد المعنيين ويحصر اللفظة فيه ، وعليه فلا لبس ولا فوضى في الكلام . وفي الواقع ان ابن الانباري يدافع عن اللغة التي احتضنت الاضداد اكثر مما يدافع عن الاضداد نفسها ، لان الشعوبيين الذين اشار اليهم ، كانوا يعيبون اللغة لوجود الاضداد فيها ولم ينكروا وجود الاضداد في اللغة ، ومن هنا كان دفاعه منصبا على اللغة وطرائق التعبير فيها لا على اصل وجود الاضداد ، ومن هنا ايضا كان تقسيمنا لطوائف المنكرين قريبا من الصحة ، فالذين يجابههم ابن الانباري هم غير الذين جابههم ابن فارس او ابن سيده ، فالمنكرون عند ابن الانباري انكروا على العربية وجود الاضداد فيها ، اما المنكرون عند ابن فارس وابن

---

(١٩) ابن الانباري ٢ .

سيده فقد انكروا وجود الاضداد في العربية فراح ابن فارس يثبت وجودها بالرواية ، وذهب ابن سيده الى اثباتها بالعقل • ولهذا عبر ابن الانباري عن المنكرين الذين عرض لموقفهم بـ (أهل البدع والزيغ والازراء بالعرب) ، ولكن ابن فارس وابن سيده لم ينعتا المنكرين بذلك •

وشبّه ابن الانباري الاضداد بالمشترك من حيث تحديد المعنى بالسياق فقال : « ومجرى حروف الاضداد مجرى الحروف التي تقع على المعاني المختلفة وان لم تكن متضادة ، فلا يعرف المعنى المقصود منها الا بما يتقدم الحرف ويتأخر بعده مما يوضح تأويله ، كقولك : حمل لولد الضأن من الشاء ، وحمل اسم رجل ، لا يعرف أحد المعنيين الا بما وصفنا »[20] وذكر ان من الاضداد ما يفسر بتداخل المعنيين على جهة الاتساع وأصلهما معنى واحد ، وقد أشرنا الى رأيه هذا في (شمولية المدلول الاول) ، فقال : « وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع • فمن ذلك الصريم ، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع »[21] • وهذا التفسير هو الذي جعله ابن درستويه والآمدي ومن سار على هديهما منهجهم في الانكار ، ولعل ابن الانباري أفاده من ثعلب فعبر في أوله (وقال آخرون) ، مشعرا انه لا مانع من أن يكون ذلك تفسيرا لضدية الاضداد التي هي حقيقة واقعة الآن ، ولعل هذا الموقف يفسر لنا ما نقل عن ثعلب من أنه أنكر الاضداد ، اذ يكون ابن الانباري قد استلهم هذا الفهم لحقيقة الاضداد من استاذه الذي أكثر الرواية عنه ، ولكنه لم يشأ أن يصرح باسمه في نقله لهذا التفسير لئلا يساء فهم موقفه ويظن أنه قائل بالانكار

---

(٢٠) ابن الانباري ٣ـ٤ •

(٢١) ابن الانباري ٨ •

على طريقة أهل الزيغ والازراء بالعرب • ونقل ابن الانباري عن قطرب رأيه في تفسير الاضداد فقال : « وقال قطرب : انما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلّوا على اتساعهم في الكلام ، كما زاحفوا في أجزاء الشعر ليدلّوا على أن الكلام واسع عندهم ، وان مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والاطالة والاطناب »[٢٢] ولكن ابن الانباري لم ترق له فكرة تشبيه الاضداد بزحاف الشعر الجائز، لاختلاف العلتين اللتين سببتا كل واحد منهما ، فلم يأخذ بهذا القول وذهب الى تأييد ابن الاعرابي الذى صرح بأننا لا نعلم جميع العلل التي بسببها كان استعمال العرب لاسمائها « فلم تزل عن العرب حكمة العلم بما لحقنا من غموض العلة وصعوبة الاستخراج علينا[٢٣] » •

وذكر ابن الانباري اختلاف اللهجات في جملة تفسيرات الاضداد فقال : « اذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربي قد أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ولكن أحد المعنيين لحي من العرب ، والمعنى الآخر لحي غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء ، قالوا : فالجون الابيض في لغة حي من العرب ، والجون الاسود في لغة حي آخر ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر »[٢٤]• والظاهر انه استقى هذا التفسير من الكسائي والفراء لانه ذكرهما بعد هذا الكلام مشيرين الى أمثلة من تداخل اللغات ، أو انه أخذه من كتاب قطرب بدليل المثل الذي ساقه ابن الانباري ، فقد نص قطرب على أن « الجون في لغة قضاعة الاسود وفي ما يليها الابيض »[٢٥] • وأخذ به بعد ابن الانباري

---

(٢٢) ابن الانبارى ٨ •
(٢٣) ابن الانبارى ٨ •
(٢٤) ابن الانبارى ١١-١٢ •
(٢٥) قطرب ٢٥٦ •

ابن درستويه كما مرّ في تعليله لمجيء القليل النادر من الأضداد[٢٦] ، وقال به ابو علي الفارسي فيما فسر به الاضداد وجعله احد علتين لنشوء الاضداد وجعل العلة الاخرى كون المعنى الثاني مجازيا استعمل اول الامر على سبيل الاستعارة ثم شاع وصار كالاصل[٢٧] ، وذكره ابن الدهان أيضاً في مقدمة كتابه آخذا به في تفسير الاضداد[٢٨] ، ناصا على ان هذا مما يرد به منكرو الاضداد ، وهو متأثر فيه بابن الانباري ، وهو يقوى اعتقادنا ان ابن الدهان حذا حذو ابن الانبارى في كتابه بعد اختصاره والاكتفاء بالمواد مجردة من التعليق والاستشهاد .

ويرى ابن الانبارى ان الاعتلال لنشوء الاضداد على هذا النحو الذى فصله في مقدمة كتابه ، هو مما يجب ان يعني به المتصدى للتأليف في الاضداد وبعدمه يكون العمل ناقصا ، اذ لاتقوم الحجة على المنكرين الذين أزروا بالعرب لاستعمالهم ما يورث التعمية وعدم الابانة لولا بيان هذه الامور التي توضح ان الاضداد موجودة ولكنها لاتسبب ما زعموه من التعمية والغموض ، ولهذا فهو ينعى على الذين ألفوا في الاضداد انهم لم يعتلوا لها فيقول : « وقد جمع قوم من أهل اللغة الحروف المتضادة ، وصنفوا في احصائها كتبا نظرت فيها فوجدت كل واحد منهم اتى من الحروف بجزء ، واسقط منها جزءا ، واكثرهم امسك عن الاعتلال لها ، فرأيت ... »[٢٩] . فالاعتلال لها ــ كما سبق ان بينا ــ لايمنع القول بها وجمع موادها واحصائها ، بل كان ابن الانبارى اكثر موضوعية من هذا فقد ناقش في متن كتابه كثيرا من الاضداد التي ذكرها رادا بعضها وشاكا في البعض الآخر وناصا على عدم ضدية

---

(٢٦) المزهر ١/٣٨٥ .
(٢٧) المخصص ١٣/٢٥٩ .
(٢٨) ابن الدهان ٩٢ .
(٢٩) ابن الانبارى ١٣ .

القسم الثالث مما اشرنا الى شيء من ذلك في الفصل السابق عند دراستنا لتفسير الاضداد ، وقد اشبهه في نقد الاضداد ابو الطيب ، وقد مرّ انه اخرج كثيرا من الاضداد وافردها في فصول الحقها في نهاية الكتاب ، ذاهبا الى انها ليست من الاضداد الحقيقية ، وانما ادخلها السابقون فيها ، وهو يذكرها لئلا يقال انه غفل عنها او جهلها [٣٠] .

فعندما وضعت الطبقة الاولى من مؤلفي الاضداد كتبها في جمع هذه المادة واحصائها ، بدافع الاستلطاف والغرابة من جهة كما هو عند قطرب وبدافع خدمة القرآن والحرص على مؤدى الفاظه من جهة اخرى كما هو عند أبي حاتم ، كان لابدّ ان يدخل شيء كثير مما هو بعيد عن الضدية وضعيف الصلة بها . فاضطرت الطبقة الثانية التي تلت اولئك وعلى رأسها ابن الانباري وابو الطيب ان ينقوا تلك المادة وينقدوا كثيرا من مزاعم الاوائل في تضاد الفاظها ويضعوا شروطا معينة يجب ان تتوفر في اللفظة لكي يصح عدّها في الاضداد ، وغير ذلك مما يعطي صورة عن الفهم الجديد للاضداد الذي لم يتوفر عند أكثر اولئك ، ومع ذلك فانّ ابن الانباري وأبا الطيب قد أهملا النظر في أضداد كثيرة حفل بها كتاباهما وتخليا عن تطبيق شروطهما في مواضع كان يجب عليهما الاخذ بهذه الشروط ، فكأنهما خافا ان يقال لهما : لماذا اذن وضعتما كتابيكما واكثر مادتيهما ليست من الاضداد ؟ وبالرغم من ذلك فاننا نكتفي بأن نعرف أنّ صورة الاضداد في ذهنيهما كانت واضحة وان لم تتحقق كل التحقق في كتابيهما .

فقد اخرج ابن الانباري من الاضداد ما كان تضاده بين (فَعَل وأفْعَل)[٣١] . واستبعد ايضا ماكان تضاده بين (فَعَل وفَعِلَ) [٣٢] ،

---

(٣٠) ابو الطيب ٢/٦٨٨ .
(٣١) انظر : ابن الانبارى ٣٧١ (خَذَمت وأخْذَمت) .
(٣٢) انظر : ابن الانبارى ٤٠٠ (بدن وبدّن) .

واستبعد كذلك ما كان تضاده بين (فَعْل وفَعِل و مَفْعول و فَعيل)[٣٣]، واخرج ما كان تضاده بين (فاعِل و مَفْعول) [٣٤] ، واخرج ماكان تضاده بين (الاسم والفعل) [٣٥] • هذه شروط ابن الانبارى من ناحية اللفظ (الشكل) ، وذلك بان يكون المعنيان المتضادان لفعلين أو اسمين أو صفتين وكل منها على وزن واحد وصيغة متشابهة ، والا فلا يجوز الحكم على ما شذ عن ذلك بالتضاد ، وقد اشار الى كثير منها ابو الطيب في كتابه •

اما من ناحية المعاني (المضامين) فقد ارجع ابن الانبارى معنيي بعض الاضداد الى اصل واحد [٣٦] ، وكان قد اشار الى هذا التفسير في مقدمته كما مرّ • وذهب ابو الطيب هذا المذهب في بعض الاضداد [٣٧] ، واشترط ابن الانبارى ان يكون المعنيان المتضادان فصيحين لا من ستعمالات العامة •[٣٨] واشترط أن يكون المعنيان معروفين في جنس واحد [٣٩] ، وذهب الى ما يشبه ذلك ابو الطيب [٤٠] •

وقد مرّ ان ابا الطيب اخرج من الاضداد (ماجاء مسمى باسم غيره لما كان من سببه) ويقصد فيه الى المجاز ، فليس من الاضداد مثلا (العشراء) الذى يطلق على الناقة التي بلغت عشرة اشهر في حملها ، والناقة التي نتجت حديثا ، و (الارة) الذى يطلق على الحفرة التي فيها النار ، وعلى النار نفسها [٤١] ، وغير ذلك مما عدّ ابو الطيب احد معنييه مستعملا

---

(٣٣) انظر : ابن الانبارى ٤٠٦ (نَجْد ونَجِد و مَنْجود ونَجيد) •
(٣٤) انظر : ابن الانبارى ٣٩٤ (الطاحي) •
(٣٥) انظر : ابن الانبارى ٣٧٣ (جَمَّرت المرأة) •
(٣٦) انظر : ابن الانباري ١٠٢ (طَرِب) •
(٣٧) انظر : أبا الطيب ٢١/١ (المأتم) •
(٣٨) انظر : ابن الانبارى ٣٦٦ (الحِرْفة) •
(٣٩) انظر : ابن الانبارى ٣٢٣ (الهَجر) •
(٤٠) انظر : أبا الطيب ١١٣/١ (التَّفل) •
(٤١) أبو الطيب ٧١١/٢ •

استعمالا مجازيا • كذلك اخرج من الاضداد ماكان مقلوبا او مزالا عن جهته ، مثل (ناء بي الحمل) و (يا خيل الله اركبي)[42] وغيرها ، فلم يعد ذلك من الاضداد • كما اخرج ابو الطيب من الاضداد جميع الالفاظ التي تماثلت صورتها وتضادت معانيها بسبب التصريف مما كانت عينه منقلبة عن واو أو ياء كالمحتاج والمبتاع والمجتاب ، وما كانت عينه مدغمة في لامه كالمرتد والمبتز والمعتد ، وافرد جميع هذه المواد في فصل بآخر كتابه [43]• واستبعد مجموعة اخرى من الاضداد تماثل تلك ، لاختلاف حرف العلة الاصلي فيها [44] ، واستبعد ابو الطيب ايضا ما اختلفت مصادر الفعل المتحد في الصورة [45] •

وكان قد مرّ ايضا ان ابن الانبارى وابا الطيب اشارا الى ما استعمل من الاضداد على سبيل التفاؤل والتطير ودرء العين وما الى ذلك من الاعتبارات النفسية والاجتماعية التي عملت على نشأة الاضداد ، مثل (السليم) [48] و (المفازة)[47] و (الناهل) [48] و (البصير)[49] وغيرها كثير ، وقد سبقهما الى لمح عامل التفاؤل والتطير الاضداديون الاوائل ، فقد وردت الى هذا العامل اشارات لدى الاصمعي وابن السكيت واكثر منهما قليلا لدى أبي حاتم ، الا انها زادت بشكل ملحوظ لدى ابن الانبارى وأبي الطيب •

ولا نريد ان نطيل في عرض هذه الجوانب لاننا اشرنا الى شيء منها في الفصل السابق ، ولاننا ادخرنا دراستها الى الفصل المعقود للكلام على

---

(٤٢) أبو الطيب ٢/٧٢٠ •
(٤٣) أبو الطيب ٢/٦٩١ •
(٤٤) انظر : أبا الطيب ١/٤٥٢ (ضاع) •
(٤٥) انظر : أبا الطيب ٢/٥٧٧ (القانع) •
(٤٦) ابن الانباري ١٠٦ •
(٤٧) ابن الانباري ١٠٥ وأبو الطيب ٢/٥٦٠ •
(٤٨) ابن الانباري ١١٦ •
(٤٩) أبو الطيب ١/٦٣ •

كتب الأضداد ، ولكننا نريد ان نستخلص من هذا ان صورة الاضداد كانت غامضة في ذهن قطرب وعلى هذا الغموض انطبع كتابه ، فكان مزيجا من كل هذه الانواع دون ان يحاول وضع حدود واضحة للاضداد ، ثم اخذت الصورة في الجلاء والتحدد على مر محاولات الاضداديين فكانت عند الاصمعي وابن السكيت وأبي حاتم اكثر وضوحا من السابق ، ثم كان كمال البروز والتحدد عند ابن الانبارى وابي الطيب ، حيث عادت بعدهما غامضة مضبّبة عند المتأخرين من الاضداديين كابن الدهان والصغاني مصطبغة بصبغة تعليمية جافة ،خالية من التعليق والشاهد والتفسير •

وهذا الذى فعله ابن الانبارى وابو الطيب من اخراج هذه الانواع التي ذكرناها من الاضداد منسجم مع قولهما بالاضداد وتأييدهما لها ودفاع ابن الانبارى عنها ، لان ما استبعداه ليس كل الاضداد التي ذكراها ، من جهة ، ولان توفر علة الضدية في الضد لايمنع من وجوده الآن ، من جهة ثانية • وهذه النقطة الاخيرة أخذ بها بعض الدارسين المحدثين كما سنأتي الى بيان ذلك بعد قليل ، فموقف ابن الانبارى بين المدافعين عن الاضداد موقف موضوعي يقوم على اسس متينة ، أولها قناعته بأن وجود الاضداد ليس من شأنه التعمية وعدم الابانة كما زعم المنكرون ، لان ما يتقدم الضد وما يتأخر عنه يوضح معناه ويخصصه ، وثانيها اعتلاله لنشوء الاضداد باختلاف اللهجات وبشمولية المدلول القديم وبالاتساع في الاستعمال وهي علل تدعم مقولة وجود الاضداد في العربية ، وثالثها رفضه لكثير من الاضداد واستبعاده اياها استبعادا كاملا لانكشاف الوهم الذى وقع فيه من عدها من الاضداد وهو قطرب كما ينص هو في اكثر مواضع النقد والرفض • وهذه الاسس التي تشكل موقفه النابه من فكرة الاضداد والغرض من تأليفه الكتاب كانت معدومة لدى تاليبه ابن فارس وابن سيده الذين حاولا الاستدلال بما افتقر الى هذه الدقة في دفاعهما عن الاضداد • فحين استدل ابن فارس بالرواية

اجبر المنكر على ان يرتضي جميع الاضداد المروية ، حتى التي استبعدها ابن الانبارى وابو الطيب ، وكذلك الامر بالنسبة لابن سيده الذى استدل بالعقل على صحتها جميعا • وكلاهما قصر عن الغاية التي رمى اليها ابن الانبارى في معالجاته القيمة •

ونعود الآن للمحدثين من دارسي الاضداد ، وكنا قد اشرنا اليهم في تقسيم المنكرين الى طوائف ، واعتبرناهم الطائفة الثالثة من القائلين بالانكار ، ولكنهم يختلفون عن اولئك بأن إنكارهم للاضداد لم يكن بدافع النزعة الشعوبية التي تحاول الازراء بالعرب كالطائفة الاولى ، كما انهم لم يرجعوا جميع الاضداد الى أصول واحدة كما فعلت الطائفة الثانية التي انكرت وجود الاضداد في اللغة ، فالمحدثون ـ عدا القليل النادر منهم ـ كانوا يحاولون انكار اصالة الضدية في الاضداد لعدم امكان استعمال الضد في اللغة ، وقد ذهبوا الى ذلك مذاهب مختلفة تبعا لتطور العلم اللغوى الحديث الذى هيأ من سبل دراسة الالفاظ ودلالاتها مايمكن معه الرجوع الى اصول الكلمات والدوافع النفسية والاجتماعية البدائية التي هيأت نشوء الاضداد •

فقد وقف المستشرقون من الاضداد مواقف متباينة ، فقد اوغل بعضهم في تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى العصور القديمة ، عندما كان العقل البشرى في سذاجته ، فلم يكن يفطن لما يعتريه من تناقض ،وكان قائل هذه النظرية هو آبل (Abel) اذ اعلن ان الاضداد هي البقية الباقية مما كان للأوائل من تناقض منطقي في التفكير [٥٠] • وذهب لجوست (Leguest) الى رجوع الاضداد الى اشتقاقات مبالغ فيها [٥١] • ولكن

(٥٠) في كتابه : Uber den Gegensinn der Urwortei
المطبوع بليبسك ١٨٨٤م : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٣ •

(٥١) في كتابه : Etudes sur les racines semitiques
باريس ١٨٥٨م : دائرة المعارف ٢/٢٩٣ •

هذين الرأيين لم يلقيا رواجا حتى في اوساط المستشرقين فردّ عليهما فايل (Weil) ورفضهما لان كلا منهما كان يرمي الى تفسير جميع الاضداد من ناحية واحدة [٥٢] . وهما بذلك يشبهان الى حد بعيد الطائفة الثانية من المنكرين وهم ابن درستويه ومن سار على نهجه ، فقد حاولت هذه الطائفة كما مرّ ارجاع جميع الاضداد الى تفسير واحد هو شمولية المدلول القديم ، ولعل آبل ولجوست قد استلهما عمل ابن درستويه في هذه الناحية واتفقا معه على الفكرة ولكنهما توجها في المنهج وجهة اخرى ، تتفق مع تلك في الاساس وتختلف معها في العلة .

ودرس المستشرق جيز (Giese) الشعر الجاهلي دراسة معمقة مستعينا بنتائج علم تطور المعاني ، فوضع قواعد معينة طبقها على الاضداد ، فخرج منها بانه لايوجد في الشعر القديم غير اثنين وعشرين ضدا فقط[٥٣] . واغلب هذه القواعد التي وضعها جيز كان قد اشار اليها القدماء من العرب في دراستهم للاضداد ، ونصّوا على امكان تفسير هذه الالفاظ بهذه القواعد ، وهي :

١ ـ الاستعارة ، ومثل لها جيز بمادة (ناءَ) التي تأتي بمعنى نهض مثقلا بالحمل كما تأتي أيضا بمعنى بعد به ، و (ناهِل) التي تقال للعطشان والريان ، وكان ابو علي الفارسي قد اشار الى تفسير الاضداد بالاستعارة فقال : « او تكون كل لفظة تستعمل لمعنى ثم تستعار لشيء فتكثر وتصير بمنزلة الاصل »[٥٤] .

---

(٥٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة (أضداد) ٢/٢٩٣ .

(٥٣) في كتابه : Untersuchungen uber die Addad auf Grand von Stellen in Altarabischen Dichtern.
برلين ١٨٩٤م : مجلة المجمع المصري ٢/٢٣٠ ودائرة المعارف ٢/٢٩٣

(٥٤) المخصص ١٣/٢٥٩ .

٢ ـ تصاحب المعاني المتضادة بالذهن ، وقد مثل لها جيز بمادة (بَيْن) التي تفيد الفراق ، كما تفيد الوصال وفقا لحالة الشخص الذى يكون اما مفترقا وحده عن جماعته او متصلا بجماعة اخرى ، ومثل (جَلَل) ومعناها في العبرية يدحرج ومن ثم جاءت بمعنى ثقيل ، كما تأتي ايضا بمعنى يتدحرج في سرعة ويرتفع ، ومن ثم جاءت بمعنى حقير وخفيف . وبغض النظر عن الامثلة التي جاء بها جيز ، فان فكرة تصاحب الاضداد في الذهن قد تنبه اليها القدماء كما اشرنا الى ذلك في مبحث (الدوافع النفسية والاجتماعية) في الفصل السابق ، ونقلنا عن الكسائي قوله بان العرب قد تحمل الشيء على ضده كما تحمله على نظيره[٥٥] . وكذلك ما روى عن غيره من الدارسين القدماء[٥٦] .

٣ ـ المشتق من الاسماء واختلاف صيغ الافعال ، ومثل جيز لذلك (فَعل) و (أفْعَل) وقال ان معناهما في الاصل احداث الحدث بالشيء المراد ، ولذلك يمكن استعمالها في الايجاب والسلب نحو (فرّع) التي تأتي بمعنى صعد كما تأتي بمعنى انحدر . وهذه العلة هي الاخرى ـ بعيدا عن أمثلتها عند جيز ـ وقف عندها القدماء ونظروا فيها ، حتى صرح ابو الطيب كما مرّ ان جميع الاضداد الناشئة بعوامل التصريف واختلاف الصيغ ليست من الاضداد الحقيقية واستبعدها وافرد لها فصولا في آخر الكتاب . وحين اضاف جيز الى هذه النقطة ان عدم وجود حروف الجر المركبة في اللغة العربية يؤدي الى الكثير من الالتباس ، وكذلك وجود كثير من الكلمات المتقاربة في النطق او المشتركة في الاصل مما يحملنا على تفسيرها بمعنيين ، مثّل لها بمادة (مأتم) التي تطلق على جمع النساء في الحزن او الفرح . فاننا نجد

---

(٥٥) الاقتضاب ٢٤١ .
(٥٦) الاشباه والنظائر ١/١٩٥ .

ابن الانبارى وابا الطيب يناقشان هذه المادة على أساس ارجاعها الى معنى الاجتماع المطلق سواء كان في الفرح او الحزن (٥٧) تماما كما يحاول جيز ان يفسرها به مشعرا انه عمل جديد •

٤ ـ تداخل الاحداث وغموض الانفعالات واختلافها من شخص الى آخر ، ومثّل لها جيز بمادة (طرب) التي تأتي بمعنى حزن او بمعنى فرح ، و (الذفر) للرائحة الطيبة والرائحة النتنة • وقد نقلنا من قبل شك ابن الانبارى في المادة الاولى ورأيه في ارجاع المعنيين الى معنى الخفة التي تلحق الانسان في حالتي الفرح والحزن (٥٨) • كما مرّ قول الاصمعي في المادة الثانية : « يقال لكل ريح ذكية شديدة من طيب او نتن ذفر » (٥٩) • وحتى قطرب فانه لم يجد بدا من ان يذيل كلامه عليها بقوله : « وكأنها من الاضداد » (٦٠) •

٥ ـ التباس نسبة فعل من الافعال الى فاعله او قائله ، ومن امثلته عند جيز (باع) و (شرى) اللتين كان معناهما الاصلي (تبادل) ويعتبر جيز ان ذلك كان من أثر الثقافة على الاغلب ، بان تباينت الكلمات التي كانت تدل في الاصل على معنى واحد ، وهو مما لم يلتفت اليه القدماء في دراساتهم للاضداد •

٦ ـ قصر الفكرة على معنى الاصلاح او الافساد على التوالي ، ومن امثلته عند جيز (رَمَّ العَظْم) بمعنى قوى حين يكون فيه النخاع ، وبمعنى ضعف حين يكون العظم رميما •

ويظهر من هذا ان جيز قد أفاد من دراسات القدماء فائدة كبيرة ،

---

(٥٧) ابن الانباري ١٠٣ وأبو الطيب ١/٢١ •
(٥٨) ابن الانبارى ١٠٢ •
(٥٩) الاصمعي ٤٢ وانظر : ابن السكيت ١٩٦ •
(٦٠) قطرب ٢٦٢ •

بحيث راح يستقي كثيرا من قواعده التي وضعها لدراسة الاضداد ، من مصنفات الاوائل وبحوثهم . ومع ذلك فهو لم يستطع ان يفسر بهذه القواعد جميع الاضداد أو ان يثبت عدم اصالة الضدية فيها كما ذهب الى ذلك (فايل) الذي نقل لنا هذه القواعد وقال : « لم يفلح جيز في تفسير جميع الاضداد » (٦١) بل ذهب هرشفلد الى ابعد من ذلك حين علق على قول جيز الذي اعلن فيه انه لم يجد غير اثنين وعشرين ضدا فقط ، بقوله : « ان هذا العدد يمكن ان نقلل منه لو ازدادت معرفتنا بالمعاني الاصلية لهذه الالفاظ » (٦٢) . كما استدرك فايل عليه تفسير الاضداد باختلاف اللهجات ناقلا ما أورده الاضداديون من امثلته كالسدفة ووثب وسامد وقرء وغيرها . وذهب فايل كذلك الى ان تغير المعنى الاصلي للكلمة قد يكون بسبب تباين وجهات النظر الى الحياة والكون ، لا في اللغة العربية وحدها ولكن في اللغات السامية كلها مثل לשׂר ومعناها خبز : لحم ، ومعناها في الاصل غذاء . و לחם ومعناها يسر وعسر ، وكانت في الاصل تفيد العمل (٦٣) . وذكر ان لندبرج (Landberg) قد جاء بمعلومات قيمة في هذا الصدد افادها من دراسة اللهجات الحديثة (٦٤) .

وربما يكون ردسلوب (Redslob) اعمق المستشرقين نظرا الى الاضداد واشملهم تفسيرا وتصنيفا لها بعد ان ادرك ان مصنفي العرب توسعوا كثيرا في فهم كلمة (اضداد) فجمعوا في شيء كثير من التصنّع والتكلف عددا كبيرا منها ، فهو يرى :

---

(٦١) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٣ .
(٦٢) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ــ لندن ١٨٩٥م ص ٢٢٣ : عن مجلة اللسان العربي ٨/٩٨ .
(٦٣) فايل : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٤ .
(٦٤) في كتابه : La Langue arabe et ses dialectes ليدن ١٩٠٥ م : دائرة المعارف ٢/٢٩٤ .

١ ـ ان معظم الاضداد كانت معروفة عند العرب او شائعة بينهم بمعنى واحد فقط اما المعنى المخالف فلم يرد الا في روايات نادرة وربما كانت موضع الشك ، ولو كان الامر كذلك لكثر الالتباس في محاورات الناس ، على ان ابن الانباري قد انكر في مقدمة كتابه امكان الالتباس • وابن الانباري هو الذي لفت نظر المستشرقين الى الشك في الاضداد التي لا يوجد لها شاهد (٦٥) •

٢ ـ انه يجب ان يلاحظ الضدفي المعنى اللغوى الذى تدل عليه الكلمةوهى مفردة ، ومن الخطأ ان تلاحظ المعانى التى تدل عليها الكلمة في التراكيب المختلفة ويحكم عليها بالضد تبعا لذلك ، مثل(لم اضرب عبد الله ولم يضربنى زيد) واشباه ذلك • لان السياق قد يكسب اللفظة معنى جديدا يخرجها الى التضاد • ولم يكن الاضداديون الأوائل ملتفتين الى هذا النوع من الاضداد ولم يشيروا اليه في كتبهم، وانما وجدناه عند الطبقة التي تلت اولئك عندما شاعت الرغبة في الاحاطة والاتساع والاتيان بما لم يأت به السابقون ، فكان هذا النوع وفيرا عند ابن الانباري ومن حذا حذوه من المتأخرين كابن الدهان والصغاني •

٣ ـ ان تخرج من الاضداد الحروف مثل (ان) و (من) و (أو) و (ما) و (هل) وغيرها ، اذ لاقيمة للاستدلال بان (ان) مثلا معناها اذا الشرطية وما النافية أو الامكان والنفي بعبارة اخرى • وان تخرج كذلك بعض الصيغ الفعلية المختلفة للفعل الواحد اذا دلت صيغة منها على زمانين مختلفين مثل (كان) و (يكون) اللتين تدل كل منهما

---

(٦٥) انظر : ابن الانباري ١٣٨ (الحميم) ، ٢٧ (الضد) •

على زمانين • وان تخرج ايضا اسماء الاعلام مثل (اسحاق) و (يعقوب) و (ايوب) وغيرها التي اعتبرت من الاضداد لوجود معان ثانوية اخرى • وقد رأينا أن الاضداديين لم يتفقوا على ذكر هذه الانواع في كتبهم ، اذ لم يرد من هذا شيء عند ابي الطيب مثلا ، وانما تكثر منه ابن الانبارى وتابعه ابن الدهان والصغاني •

٤ ـ ان تخرج من الاضداد الالفاظ التي تشترك فيها الحالية والمحلية مثل (كأس) التي تدل على الاناء وعلى مايملؤه • وتخرج كل الصيغ التي على وزن فاعل وتدل احيانا على المفعول ، وفعيل التي تفيد معنى فاعل ، وصيغ المبالغة التي تنصرف للفاعل والمفعول ، والافعال التي تشعر صيغتها المجردة بمعنى من معاني التعدية مثل (زال) ، ويخرج الضمير (نحن) الذى يستعمل للمفرد والجمع ، فجميع هذه الانواع ليست من الاضداد • والحقيقة ان الاضداديين تنبهوا لهذا كله فرفضوا قسما منه وشكوا بالقسم الآخر ولم يذكروا بعضه ولا نريد ان نفصل في اثبات ذلك فقد مرّ سابقا عرضه •

٥ ـ ان تخرج جميع الالفاظ التي استعملت للتهكم والاستهزاء مثل (ياعاقل) للمجنون ، والتي استعملت للتفاؤل مثل (ياسالم) للمريض ، من الاضداد ، لان استعمال هاتين الاستعارتين موقوف على اختيار المتكلم • وقد مرّ علينا ايضا نص الاضداديين حتى القدماء منهم على الفاظ هذا النوع من الاضداد وذكروا دوافعه النفسية والاجتماعية واكثرهم نصا على ذلك ابو حاتم وابن الانبارى •

٦ ـ ان تخرج الالفاظ التي يظهر التعسف والافتعال على اشدهما في ادخالها في الاضداد مثل (التلعة) التي معناها المسيل من الماء والمرتفع من الارض ، لان الماء يهبط والارض ترتفع •

هذا مجمل آراء ردسلوب وملاحظاته في تقويم الاضداد ودراستها ، وكنا قد اعتمدنا اكثرها في تفسير الاضداد في الفصل السابق ، ولو قارنا ما جاء به جيز وما جاء به ردسلوب لوجدناهما يتفقان على بعض النقـــاط ويختلفان ببعض وان كان الاخير ادق من الاول واشمل نظرا الى فكـرة الاضداد ، ومن هنا نفهم قناعة (فايل) بهذه الملاحظات حين اوردها في بحثه عن الاضداد مشعرا انه آخذ بها في موقفه من الاضداد اذ يقول : « ومعظم الشواهد التى اوردها ابن الانبارى تنطبق عليها واحدة من الملاحظات التى مرت بنا ، ولذلك لا تعتبر من الاضداد ، وهكذا لا يبقى من الاضداد بعد هذا الا القليل »(٦٥) • غير ان هناك فرقا اساسيا بين قواعد جيز وملاحظات ردسلوب يجب التنبه اليه ، هو ان جيز وضع قواعد عامة قبل البحـث في الاضداد نفسها ، وبتطبيق هذه القواعد على الاضداد تكون النتيجة المطلوبة في رفض الاضداد وانكار اصالة ضديتها ، في حين كان ردسلوب دارسـا للاضداد قبل ان يضع تقسيمه لانواعها ، فبعد ان وجد ما يمكن ان تصنف اليه الاضداد ، سجل ملاحظاته التى من شأنها ان تفسر التضاد وتخرج من الاضداد ما يمكن اخراجه •

وحين اراد فايل ان يعترف للعرب القدماء بمحاولاتهم في تفسير الاضداد لم يعمم هذا على جميع التفسيرات وانما قصرها على بعضها دون بعض فقال : « وقد حاول العرب انفسهم تفسير هذه الظواهر ، الا ان تفسيرا واحدا يستحق منا الاهتمام ، وهو التفسير الذى يريدنا على ان نرجع لاصل الكلمة الذى يؤخذ الضد منه »(٦٦) ، مشيرا الى ما اسميناه شمولية المدلول الاول ، لانه ارجع في الهامش الى الصفحة التي يعالج فيها ابن الانبارى هذه الناحية في (الصريم) و (الصارخ) و (السدفة) وغيرها • ثم يقـول فايـل :

---

(٦٥) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٣ •

(٦٦) دائرة المعارف ٢/٢٩٣ •

« اما التفسيرات الاخرى فتعلل المعاني الموجودة بالفعل ، وترى ان الاضداد عبارة عن معان مستعارة من ناحية اصول الكلمات بعضها من بعض (مشيرا الى تداخل اللهجات الذى اشار اليه ابن الانبارى في الجون) او تحاول ايجاد صلة سقيمة بين المعاني ، فالعرب يقولون مثلا ان (بعض) تأتي بمعنى كل ، لان كل الشيء ما هو الا بعض من شيء آخر »(٦٧) . فلم يعجب فايل من تفسيرات الاضداد الا التفسير الذى اتفق فيه ابن الانبارى مع المنكرين القدامى للاضداد وهو ارجاع المعنيين المتضادين الى معنى واحد او اصل قديم ، ومن هنا كان المستشرقون ميالين الى انكار الاضداد على طريقة ابن درستويه وجماعته فقد ذكره فايل في صدر مقالته مشعرا بايمانه بصحة ما ذهب اليه في انكاره الاضداد ، فقال : « ولا يؤخذ الآن بالرأى الذى كان سائدا منذ عهد بعيد والذى يقول ان اللغة العربية بخلاف اللغات السامية الاخرى ، تشمل عددا عظيما من الاضداد ، ذلك لاننا اذا استبعدنا جميع الكلمات التي ليست بأضداد حقيقية أو الموضوعة في غير مواضعها ، وهي كثيرة من غير شك ، لايبقى من الاضداد في اللغة العربية الا القليل ، وهذا ما دعا ابن درستويه الذى نقل عنه السيوطي الى انكار وجود الاضداد انكارا تاما »(٦٨) . فالنية لدى فايل وسواه من المستشرقين الذين عرضنا لآرائهم ومواقفهم متجهة الى الانكار ، مرة على طريقة الشعوبيين الذين أزروا بالعرب ، وذلك حين اتهم آبل العرب بتناقضهم المنطقي في التفكير ، ومرة على طريقة ابن درستويه في ارجاع المتضادين الى اصل واحد كما صرح فايل باعجابه بهذا التفسير ، ومرة على طريقة علمية شاملة تنظر للاضداد نظرة تأريخية فاحصة وتحاول استبعاد مايمكن استبعاده منها لا على اساس عدم وجوده وانما على اساس عدم اصالة الضدية فيه ، كما فعل رذسلوب

---

(٦٧) دائرة المعارف ٢/٢٩٣ .

(٦٨) دائرة المعارف ٢/٢٩١ـ٢٩٢ .

مثلا • ونحن حين نزعم ان هذا المستشرق أو ذاك بحث الاضداد على طريقة المنكرين الفلانية ، فاننا لانعني من ذلك ان هذا المستشرق ينتمي الى تلك الطائفة انتماء خالصا يشمل دوافعه الى الانكار ومنهجه فيه ونتائجه التي يتوخاها في ذلك ، وانما نشبه سبيله الذى سلكه بتلك السبيل ، لاننا اعتبرنا المحدثين من الشرقيين والمستشرقين طائفة واحدة تميل الى الانكار وتريد الوصول الى تأييد مذهبها بوسائل علمية افتقر اليها اكثر المنكرين القدماء وحتى آبل الذى رمى الاوائل بتناقضهم المنطقى في التفكير ، لم يكن يقصد بذلك الاساءة للعرب او النيل من حضارتهم القديمة ، وانما هى محاولة للتفسير عبر عنها بمثل هذا التعبير • وانى اختلف مع احد الباحثين العرب الذى يرى ان فايل وسواه من المستشرقين هم شعوبيون يتوثبون للنيل من العرب والاسلام [69] •صحيح ان فيهم من هو كذلك الا ان تعميم ذلك خطأ خصوصا فيمن عرضنا لآرائه ومواقفه من الاضداد •

واطرف ما عرض له فايل هو مقارنة موقف علماء العرب القدامى ومناهجهم في دراسة الاضداد بموقف المستشرقين منها ومناهجهم في دراستها، ورأى ان رأى اولئك يختلف عن رأى هؤلاء في المسألة ، فهى عند العرب مسألة عملية وعند المستشرقين مسألة علمية « ذلك لان العرب يهتمون اشد الاهتمام بوضع ثبت جامع بقدر الطاقة لجميع الاضداد المتداولة ورائدهم في الاغلب اشتراك الكلمات في اللفظ ••• اما نحن فنضع الحاجة العملية في المحل الثاني ، ولا نهتم بالكلمات المشتركة في اللفظ فقط ولكننا نهتم باصول الكلمات ايضا »[70] • وفايل بهذا ناقض نفسه وردّ عليها ، لانه سبق ان نقلنا رأيه في تقويم تفسيرات العرب للاضداد واعجابه بالتفسير الذى بينه ابن الانبارى في كتابه وهو الرجوع الى اصل اللفظة التى اخذ الضد

---

(٦٩) عبدالفتاح بدوي : دائرة المعارف الاسلامية ٢/٣٠٣ •
(٧٠) دائرة المعارف ٢/٢٩٥ •

منها ، واعتبره التفسير الوحيد الذى يدعو للاكبار والتقدير • فما باله عاد فأنكر ان يكون القدماء قد بحثوا في اصول الكلمات ؟ • وقال ايضـا في معرض المقارنة : « كما اننا يجب الا نقنع باللغة القديمة واقتباساتها من القرآن والشعر وحدهما ، بل علينا ان ندخل في حسابنا جميع اللهجات وجميع اللغات السامية ذات الارومة الواحدة ، في حين نجد العـــرب لا يعتبرون من الاضداد الا الكلمات ذات المعنيين المتضادين في اللهجة الواحدة ، ولا يعنون باللهجات الاخرى الا اذا دعتهم الى ذلك حاجة عمليـة ، لان الجهل بهـا يجـر الى وقوع الالتبـاس والتعـرض للمصـائب[٧١] » • وهو هنـا أيضا يجانب الصواب ، لان مـا ذكـره من أن الاضـداديين لا يعتبرون من الاضداد الا ما كان في لهجة واحدة غير صحيح ، فكثيرا ما وجدناهم ينصون على ذكر القبيلتين في المعنيين المتضادين ويقولون هذا في لغة قيس مثلا وهذا في لغة تميم ، ومع ذلك فاللفظة من الاضداد عندهم ، واذا كان فايل يقصد من قوله الى أنهم لم يكونوا ليتخذوا من اختـلاف اللهجات وسيلة لتفسير التضاد ، فقد وهم أيضا ، لانهم على اختلاف مواقفهم من الاضداد فسروا كثيرا من الالفاظ المتضادة باختلاف اللهجات ، قـال به ابن الانباري من المدافعين وقـال به ابن درستويه من المنكرين ، فلـم يغرب عن بالهم الاخذ بهذا ، وانما غرب عن فايل انهم أخذوا به • ولعل ما ختم به فايل هذه المقارنة هو الصحيح فقال : « ولقد عـاق العرب عن الوصول الى حل صحيح لمشكلة الاضداد جهلهم بأصلها وتطورها الاساسي الذى كان يرجع أحيانا الى بواعث دينية كانت تطغى على جميـع فروع المعرفة الاخرى • كما كانوا يجهلون تمام الجهل اللغات السامية الاخرى وتاريخ آسية الغربية وثقافتها • ثم انهم كانوا يفسرون الكلمات الخاصـة

---

(٧١) دائرة المعارف ٢/٢٩٥ •

بالحياة الدينية تفسيرا لا يقوم على أساس مثل مصلى وأنصار ومسيح »[72] حيث نجد مصداق ما يقوله هذه الكثرة من الالفاظ الواردة في القرآن والتي اختلف في تحديد مؤداها في الآية فاعتبرت من الاضداد وقد عرضنا لها في الفصل السابق • كما كان مصداق ما يتصل باللغات السامية هذه الالفاظ التي استطعنا ارجاعها الى اصولها السامية القديمة ووقفنا فيها على المعنى الاصلي الذى تطور الى معنيين متضادين في اللغتين الساميتين واللفظة في كل واحدة من اللغتين ذات دلالة واحدة •

وعندي أن المقارنة بين عمل القدماء وعمل المحدثين لا تصح الا بعد أخذ مسألتين أساسيتين بنظر الاعتبار ، وهما :

١ ـ ان أكثر دراسات المحدثين ـ ومنهم المستشرقون ـ قد اعتمدت في تسجيل ملاحظاتها وبيان نتائجها وتحديد قواعدها على ما تركته لها دراسات القدماء من ملاحظات ونتائج وقواعد ، وهذه التوصلات القديمة وان كانت ناقصة وسطحية أحيانا ، فانها بلا شك كانت نافعة وجديرة بالاهتمام بحيث أفاد منها الدارسون المحدثون كثيرا في القاء الضوء على المشكلة التي هم بصددها ، كما كانت المفتاح الاول الذى فتحت به الابواب للباحثين الجدد في الاضداد ، وقد رأينا هذه الصلة في كثير من الآراء المطروحة •

٢ ـ ان البون الزمني الواسع بين الفريقين كان من شانه أن يدفع بالعلم اللغوي مراحل مهمة الى الامام ، بحيث كشف للدارسين المحدثين كثيرا من الحقائق التي اعتمدوها في أبحاثهم في الاضداد ، مما لم يكن يتوفر لدى القدماء وليس عدم توفره لدى اولئك عيبا يلحق بهم ، فان ذلك قد استدعاه الزمان الطويل وتقدم الحضارة والعلم والتطور الشامل في كل الميادين ، شأن كل العلوم الاخرى التي تبدأ قليلة الخبرة ساذجة

---

(٧٢) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٥ •

المادة ، حتى تستقر وتترسخ بفعل التجارب الطويلة والعمل المتظافر •

وبمثل هذا الادراك لحقيقة الدراسات الاضدادية نستطيع أن ننصف القدماء بعض الشيء ونرفع عنهم قليلا من الحيف ، على اننا لا نبرىء القدماء تبرئة تامة من الجهل ، لانهم توفرت لديهم أحيانا مادة علمية جيدة كان يمكنهم استخدامها لمصلحة بحوثهم التي يعالجون مشكلاتها ، ولكنهم أهملوا هذه المادة جهلا في أكثر المرات وتجاهلا في أقلها ، ومن أمثلة ذلك ما مرّ علينا في الفصل السابق من معرفتهم للاصول السامية لبعض الاضداد ، ومعرفتهم لقوانين التطور الصوتي الذي يلحق الالفاظ ، ووقوفهم على فكرة تصاحب المعاني المتضادة بالذهن وتداعي النقائض ، وغير ذلك من الامور التي أصبحت الدعائم الاساسية لدراسة الاضداد في العلم اللغوي الحديث •

ومهما يكن من أمر فقد بقي أن نعرض لمحاولات المحدثين العرب في دراسة الاضداد ، فيبرز أمامنا عبدالفتاح بدوي أكثر الرافضين للاضداد تطرفا وتوسعا في رأيه ، اذ أنكرها انكارا تاما ، فقال : « واننا لنتحدى الذين يزعمون أن في اللغة أضدادا ونباهلهم بجميع كلمات اللغة العربية أن يأتونا بلفظ واحد له معنيان متقابلان بوضع واحد ، فان لم يفعلوا – ولن يفعلوا – فليس في اللغة تضاد[٧٣] » • وهو يبني موقفه من الاضداد مستلهما موقف ابن درستويه في أن الاضداد دليل على عدم الابانة ، منكرا على ابن الانباري دفاعه عن الاضداد وردّ هذه الشبهة بالقرائن والسياق ، اذ يقول : « ينبغي أن لا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة وانه لا يسهل التفاهم بين الناس ، فمن الصعب أن نقبل ان المعاني الاولية المتضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد ، والصعوبة التي تنشأ من التضاد

---

(٧٣) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٣٠٢ •

أكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك ، واذا قيل أن القرائن توضح المراد كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سذاجتها ، وانما هو طور آخر فوق ذلك »[٧٤] .

والضدان ـ عند عبدالفتاح بدوي ـ هما الامران الوجوديان المتقابلان في المعنى اللذان لا يجتمعان في وقت واحد لشيء واحد وقد يتخلفان عنه معا ، كالحلاوة والملوحة والسواد والبياض ، فيجب أن يبحث التضاد في اللغة من ناحيتين مختلفتين : الاولى ناحية انه مظهر من مظاهر الكلام في تأديته الاغراض والمعاني التركيبية . والثانية انه مظهر من مظاهر اللغة نفسها في تأدية المعاني الاولية للمفردات[٧٥] .ويرى ان التضاد بالمعنى الاول شيء عام وواسع ، يشمل الاستعمالات المجازية وأنواع التشبيه ، والمحسنات البديعية ، والمقدمات اللغوية لعلم الاصول وغير ذلك ، وعليه فلا يجب أن يدقق في بحث هذه الناحية من التضاد لان العلماء تلمسوه في الالفاظ بشكل واسع ، أما الناحية الثانية فهي التي يجب أن تبحث . لان الاضداديين حين الفوا كتبهم في الاضداد غلب على الالفاظ التي ذكروها المعنى الاول للتضاد ، وبدراسة ما ذكروه من أمثلته تتضاءل الاضداد الحقيقية التي يجب أن ينظر اليها من الناحية الثانية وهي التقابل الواقعي بين معنييها[٧٦] .

وكان عبدالفتاح بدوي قد وضع بحثه هذا تعقيبا على مقالة فايل في الاضداد ، ولهذا نجد ردوده عليه ومآخذه على المقالة السابقة متلاحقة متعددة أولها قوله : « ويظهر أن شمول البحث في تلك التواليف العربية للناحيتين معا متلاصقتين متتابعتين أبهم على كاتب المقال وأمثاله ، فذكر الملاحظات التي ذكرها والتي منها ما هو جدير بالاعتبار اذا قصرنا البحث

(٧٤) دائرة المعارف ٢/٢٩٦ .

(٧٥) دائرة المعارف ٢/٢٩٥ .

(٧٦) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٢٩٦ .

على وجهة النظر الثانية[٧٧] » . فكأنه كان يريد أن يفهم فايل انه غير موفق في أخذه على القدماء اعتبارهم جميع الالفاظ التي ذكروها في كتبهم من الاضداد ، لان فهمهم لفكرة الاضداد كان يشمل الناحيتين اللتين ذكرهما وأنهم لذلك توسعوا في جمع الاضداد حتى التي لم يتقابل فيها المعنيان تقابلا تاما كأن يكون المعنى الثاني مستخدما استخداما مجازيا غير بعيد عن مجال الاول ، وعليه لايمكن ان ينظر الى عمل القدماء هذه النظرة الدقيقة في تحديد مفهوم (الضد) . واستكمالا لما ذهب اليه بدوى راح يقسم الاضداد المدونة في الكتب حسب ما يمكن ان تفسر به من تفسيرات ، وذلك من ناحية المفهوم الثاني الذى ذكره للاضداد . وذلك ليثبت عدم اصالة الضدية فيها من جهة ، وليدافع عن منهج القدماء امام استخفاف فايل بهم ، فجعل الاضداد عشر طوائف[٧٨] .

يخلص من هذا العرض لطوائف الاضداد والكلام على كل منها الى قوله : « وبعد هذا الذى قدمنا من استعراض الطوائف المتقدمة نجدنا صائرين في طريق انكار وجود الاضداد بالمعنى العلمي البحت المتجرد عن اعتبار التراكيب وملابساتها ولا مفر من ذلك . وقديما انكر كثير من العلماء وجود الاضداد بهذا المعنى ... ومن ثم تسقط الملاحظات التي ابداها كاتب المقال وتصبح فاقدة القيمة العلمية سواء منها ما يقبله كالذى فعله جيز وما يرده كالذى فعله آبل »[٧٩] . وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من ان بدوى اكثر الرافضين للاضداد والمنكرين لها مستلهما انكار ابن درستويه كما يشير هنا ، ثم يصرح بذلك في الهامش الذى أرجع فيه الى السيوطي الذى نقل انكار ابن درستويه للاضداد ، وقوله يؤكد ايضا ما قلناه انه بعمله هذا الذى قسم

---

(٧٧) دائرة المعارف ٢/٢٩٦ .

(٧٨) انظر : دائرة المعارف ٢/٢٩٦-٣٠٠ .

(٧٩) دائرة المعارف ٢/٣٠٠-٣٠١ .

فيه الاضداد وناقش ضديتها انما يدافع عن الاضداديين امام اتهامات فايل لهم بعدم الدقة والبعد . الا انه جانب الصواب في ردّه على فايل بقوله : « وكذلك تعبير الكاتب عن عمل العرب المجيد في التضاد العملي بانه محاولة لتفسير هذه الظواهر يكون غمطا لهذا العمل الذى هو فاخر في الوجهة التي يتجهها ، ويكون خلطا من الكاتب لنظرية الضد العملية بالنظرية العلمية، وتطبيقا لاحكام احداهما على احكام الاخرى وذلك غير سديد »[٨٠]، أقول انه جانب الصواب ، لان الاضداديين انفسهم ـ كما عرضنا لتحديداتهم للاضداد في صدر الفصل السابق ـ قد الزموا انفسهم منذ البدء بالعمل بمفهوم دقيق لفكرة الضدية ووضع تعريف علمي للضد ، وان بعضهم نص على ان التضاد شيء غير الاختلاف ، اذ كان كل تضاد اختلافا وليس كل اختلاف تضادا ومثلوا لذلك بأمثلة صريحة تنبيء عن انهم سيأخذون انفسهم في الكتاب بجمع الالفاظ المتضادة تضادا حقيقيا وهو الذى جعله عبد الفتاح بدوى المفهوم الثاني للاضداد، غير ان الذى دونوه لم يكن كذلك فقد كان اكثر ما ذكروا يفتقر الى هذه الضدية العلمية كما يعبر عنه فايل ، فلهذا كان لفايل الحق في ان يحاسب الاضداديين على توسعهم الذى لم يقروه ابتداء . كما ان بدوى لم يدرك قصد فايل من قوله : لقد عاق العرب عن الوصول الى حل صحيح لمشكلة الاضداد جهلهم بأصلها وتطورها .. الخ ، فقال يرد عليه : « ولم يعن العلماء العرب بحل مشكلة الاضداد لانه لا توجد عندهم اضداد حتى تكون لها مشكلة تحل ، وما قول الكاتب : لقد عاق العرب ... الا افتيات ورمي بالتهم جزاف »[٨١] . فلم يرد فايل من هذا ان العرب لم يحاولوا ان يحلوا مشكلة الاضداد أو يفسروها وانما اراد انهم لم يصلوا في محاولاتهم الى (حل صحيح) كما يرى ، وذلك لجهلهم باصول الالفاظ

(٨٠) دائرة المعارف ٣٠١/٢ .
(٨١) دائرة المعارف الاسلامية ٣٠١/٢ .

القديمة وعلاقتها باللغات القريبة وتطور هذا الاصل وما الى ذلك ، لاننا وجدنا العرب ـ لا كما يزعم بدوى ـ قد عنوا بدراسة الاضداد ووقفوا على حقيقة كثير منها سواء منهم المنكرون كابن درستويه ، والمدافعون كابن الانبارى ، فكلا الفريقين طرح حلولا للمشكلة تتعلق بالمعنى القديم وبالسياق وباختلاف اللهجات وبالاستعارة وغير ذلك ، ولا معنى لقوله (لانه لاتوجد عندهم اضداد) فلماذا اذن وضعوا مصنفاتهم في احصائها واجهدوا انفسهم في جمعها وتبويبها ؟ بل نصوا على ان هذا كله اضداد موجودة في كلام العرب وقد نطقت بها اشعارهم • وما هذا الانكار والدفاع القديمان الا صورة من صور تحسس المشكلة ومحاولة للوصول منها الى حل للاضداد الموجودة عندهم •

ويعود عبدالفتاح بدوى الى طوائفه العشر الماضية فيجد ان امثالها مستفيضة في اللغات غير العربية ، ويستعرض لكل طائفة منها ما يشبهه في اللغة الفرنسية [٨٢] ، ليدلل بهذا على ان الاضداد بهذه الاعتبارات المختلفة هي ليست مما تختص به العربية دون غيرها من اللغات ، واذا كان ثمة عيب يلحق العربية منها فليلحق غيرها ايضا • وينهي مقالته بملاحظة يسجلها على فايل يتهمه بها وغيره من المستشرقين بالشعوبية ، ولكنه يدلس في النص الذي نقله من كلام فايل مستشهدا به على رأيه ، فيقول ما نصه : « اننا لانفتأ نجد غير المسلمين الذين يكتبون عن العرب لايزالون يتوثبون للنيل من الاسلام لأدنى مناسبة ، كما يقول الكاتب في آخر المقال : لقد عاق العرب ••• جهلهم الذى كان يرجع احيانا الى بواعث دينية »[٨٣] • ولم يقل فايل هذا وانما قال : « ولقد عاق العرب عن الوصول الى حل صحيح لمشكلة الاضداد جهلهم بأصلها وتطورها الاساسي الذى كان يرجع احيانا

(٨٢) دائرة المعارف ٢/٣٠٢ •
(٨٣) دائرة المعارف ٢/٣٠٣ •

الى بواعث دينية ..» (٨٤) . فليس الجهل هو الذى يرجع الى بواعث دينية كما يحاول ان يصور ذلك بدوى ، وانما تطور بعض الاضداد كان يرجع الى هذه البواعث ، وهو صحيح تماما ، ومصداقه هذه الالفاظ الكثيرة التي التمست فيها الضدية لانها اكتسبت في النصوص الاسلامية معاني جديدة لا قبل لها بها ، وقد مرّ علينا في الفصل السابق من امثلتها الشيء الكثير : أشد ، فوق ، ظن ، مصلى ، مسيح ، القرء ، خاف ، وغيرها ، وعلى ذلك فان محاولة بتر النص بالشكل الذى فعله عبدالفتاح بدوى ، لايمكن ان تنطلي على الدارس النابه . ولا نقول له الا ما قاله هو نفسه : « وايا ما كان فالمسائل العلمية يجب ان تكون خالصة لوجه العلم لاغمز فيها ولا تلميز » (٨٥) .

ننتقل الآن الى باحث آخر درس الاضداد بمقالة ضافية مستوعبة هو الدكتور منصور فهمي (٨٦) ، وكان موقفه من الاضداد وسطا بين الغائها جميعا واثباتها جميعا ، فبعد ان ذكر مصادر دراسة الاضداد ، وعرض لاختلاف الآراء في وقوعها ونقل شيئا من آراء المنكرين والمدافعين ، قال : « ويخيل الينا ان الفريقين اسرفا فيما ذهبا اليه من المبالغة في اثبات الاضداد أو في انكارها انكارا تاما فأما الذين ابطلوا الاضداد فعدنا انهم غلوا فيما ذهبوا اليه ، لوجود بعض الفاظ تشهد على التضاد فيما بين ايدينا من كتب اللغة ، حتى ان ابن درستويه نفسه وهو من المنكرين قرر وجود النادر من تلك الالفاظ ... واما الذين اثبتوا الاضداد وبالغوا في عددها على نحو ما بينا ، فقد انحرفوا عن جادة الصواب . ذلك لان هناك كثيرا جدا من الالفاظ حشرت حشرا بين الاضداد بعد ان زيد في معناها زيادة لم تكن في

(٨٤) دائرة المعارف ٢/٢٩٥ .

(٨٥) دائرة المعارف ٢/٣٠٣ .

(٨٦) انظر مقالته في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ٢/٢٢٨ وما بعدها : ١٩٣٥م .

اصل الوضع » [٨٧] . ولهذا فهو يأخذ بملاحظات ردسلوب التي مر ذكرها ، ويسقط على اساسها كثيرا من الاضداد التي جعلها اولئك العلماء في زمرة الاضداد ، الا انه بعد ان يعدد تلك الملاحظات يرى انها تفتقر الى اربع اخرى يضيفها اليها من عنده ، وهذه الملاحظات المضافة هي [٨٨] :

١ ـ ان بعض علماء اللغة والنحو تساهل في تكثير معاني اللفظ الواحد ، بحسب اختلاف مؤدى المعنى باختلاف المواقع ، ويمثل لذلك بمادتي (فَوْق) و (وَرَاء) .

٢ ـ ان بعض علماء اللغة كابن الانباري وغيره حرصوا على ان يذكروا في الاضداد ما لم يدققوا في تطوراته الصرفية ، فقد يأتي بعض الاضداد من عوارض تصريفية بحتة ، وذلك بان تؤدى القواعد الصرفية الى ان تتفق لفظتان متقاربتان في صيغة صرفية واحدة ، فينشأ عن ذلك لبس في معناها ، يؤدى بها الى الاضداد ، ومن امثاته عنده : (فُلْك) و (مُرتَد) و (مُزْداد) وغيرها .

٣ ـ هناك من الالفاظ مانقل عن معناه الاصلي الى معنى آخر مجازي لضرورة البلاغة أو التأدب او غير ذلك ، فاعتبرت من الاضداد وهي ليست منها ، ويمثل لذلك بقوله تعالى : (نَسوا الله فنَسِيَهم) .

٤ ـ ان كثيرا مما اوردوه من الاضداد هو من المشترك اللفظي وليس منها ومثالها (المُعْصِر) و (الحَزَّور) و (أفَادَ) و (زَنَاَ) وغيرها .

وفي ضوء ملاحظات ردسلوب وملاحظاته التي اضافها اليها ، يحذف من الاضداد اكثرها الاغلب ، بحيث يتفق مع (جيز) في انه لايبقى في

---

(٨٧) مجلة المجمع الملكي ٢/٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٨٨) انظر : المجلة المذكورة ٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

اللغة غير نحو من عشرين ضدا ، يصح ان تكون قد نشأت نشأة طبيعية لسبب من الاسباب ثم يقول : « ولا يستغرب في لغة من اللغات ان نجد قليلا من الالفاظ التي تقبل معنى التضاد ، ولكن ليس من المقبول عندنا ان يذهب علماء اللغة الى مثل ما ذهبوا اليه من جمع المئين منها » (٨٩) . يعود بعد هذا الى استعراض آراء علماء العرب وغير العرب في تفسير الاضداد انكارا ودفاعا ليؤيد من يؤيد ويخالف من يخالف . فيذكر رأى ابن فارس في ان تسمية المتضادين باسم واحد من سنن العرب ، ويذكر رأى ابن الانبارى في ان اختلاف لهجات العرب ، ومن ثم امتزاجها ولد الاضداد ، وينقل رأى أبي علي الفارسي في ان الاستعارة كان لها شأن في نشأة الاضداد ، ويعرض لرأى ابن درستويه في تعليل ما اعترف بوجوده من الاضداد ، بانه قد تنشأ لحذف واختصار وقعا في لفظ من الالفاظ ، واخيرا يذكر تعليل الشيخ محمد الخضرى من الاصوليين المحدثين لنشأة الاضداد ـ وسنأتي على بسطه فيما بعد ـ ليخلص من هذا الى ان من هذه التعليلات ما يرد بسهولة ، والآخر الذى يؤخذ به ينقصه الشمول ، لانه يعلل التضاد من ناحية واحدة ، واحتمال ان يصدق على جميع الاضداد بعيد (٩٠) .

فهو يرد مذهب ابن فارس « لان الاصل ان كل لفظ انما يعبر عن معنى بعينه ، ولايجوز ان نأخذ بمذهب ابن فارس الا اذا اخذنا بمذهب بعض علماء الاجتماع الذين يذهبون الى ان الشعوب في أول نشأتها تبدو كأنها في دور طفولة ، فكما ان الطفل قد يعبر بحرف واحد عن عدة معان ، فكذلك الامم في طور سذاجتها ، ولكننا لا نذهب هذا المذهب » (٩١) . ولكنه يأخذ بمذهب ابن الانبارى في اختلاف اللهجات ، ويوسعه حتى يشمل

---

(٨٩) المجلة المذكورة ٢/٢٣٨ .
(٩٠) المجلة المذكورة ٢/٢٣٩ .
(٩١) المجلة المذكورة ٢/٢٤٠ .

اختلاف اللغات ، ويقول : « اما المذهب الثاني الذى يرّد الاضداد الى لغات مختلفة ، فمذهب تؤيده الشواهد الكثيرة •• وقد نجد في لغتين من اصل واحد ما يكون سببا للاختلاف الذى قد يتضمن من بعض الوجوه نوعا من التضاد »[(٩٢)] • ويقبل كذلك مذهب أبي علي الفارسي « لان الاستعارة قد اعتمدت عليها كل اللغات في تطورها ونمو الفاظها ومعانيها : علمية وغير علمية • فكثيرا ما يستعار لفظ كان يدل على معنى لمعنى آخر ، وقد يكون هذا المعنى الآخر يخالف او يضاد ، وشواهد الاستعارة كثيرة في مختلف اللغات »[(٩٣)] • ويرجح ايضا رأي ابن درستويه " فكثيراً ما يكون الحذف والاختصار والقلب والنحت سببا في ايجاد بعض الفاظ من العسير ان نوفق الى اصلها ، وقد يكون من هذه الالفاظ بعض الاضداد »[(٩٤)] •

يرجع الدكتور فهمي بعد هذا الى قواعد (جيز) ، يعددها ويدعمها بأمثلة من عنده ، وكأنه يؤيده فيما يذهب اليه من تفسير ، فمثلا عندما ذكر قاعدة (جيز) الاخيرة وهي (التباس نسبة فعل من الافعال الى فاعله او قائله) مثل باع واشترى ، قال : « واني اضيف الى ذلك امثلة مما يستخدم في حياتنا اليومية •••• فقد نستخدم لفظا واحدا لشيء يؤدى معنيين متضادين فنقول صعدنا (بالمصعد) لندل على الآلة المعروفة نصعد بها الى طبقات الدور، ونقول هبطنا بالمصعد ، فهو اذا آلة تفيد الهبوط »[(٩٥)] ، ويستدرك على قواعد (جيز) قاعدتين اخريين يراها ضرورية لتفسير قسم من الاضداد ، الاولى هي النزعة الطبيعية للتفاؤل والتهكم مثل (المفازة) للمهلكة و (يا عاقل) للاحمق • والثانية هي فكرة تداعي المعاني المتضادة في الذهن• ويبدو ان الدكتور فهمي حين نقل قواعد (جيز) نقلها من كتابه الذى اشرنا

---

(٩٢) المجلة المذكورة ٢/٢٤٠ •
(٩٣) المجلة المذكورة ٢/٢٤١ •
(٩٤) المجلة المذكورة ٢/٢٤١ •
(٩٥) المجلة المذكورة ٢/٢٤٢ •

اليه ، فموه بعض الشيء ، لان فايل حين عرض لهذه القواعد ذكر فيها هاتين القاعدتين اللتين زعم الدكتور فهمي انه اضافها الى قواعد جيز فقد جعل جيز كل ما عده فهمي من التفاؤل والتهكم ، ضمن قاعدة الاستعارة ، ونص على ان القاعدة الثانية هي (تصاحب المعاني المتضادة في الذهن) ، فليس ما فعله الدكتور منصور فهمي ــ اذا احسنا الظن ــ الا توضيحا ، وليس استدراكا ، على انه لم يدرج في قواعد جيز في مقالته هاتين القاعدتين • ومهما يكن من امر فقد انهى الباحث مقالته بقوله : « ونكرر القول بان القواعد التي ذكرناها في تعليل الاضداد ، لا تصلح الا لتأويل قليل من الالفاظ لا محيص من الاعتراف بالتضاد فيه • فأما ما عداه فقد اعتبر من الاضداد بكثير من التعسف والتمحّل »[96] • ولو قارنا موقف عبدالفتاح بدوى السابق وموقف الدكتور منصور فهمي هذا من الاضداد ، لوجدنا الاخير اقل تطرفا من الاول في انكار الاضداد وألين منه في رفضها ، فلم يجزم بامكان حذف الاضداد جميعا واستبعادها كما فعل الاول، وانما ذهب مذهب ابن درستويه في الاعتراف بالقليل النادر منها والذى ايده (جيز) ايضا • كما لم يقف من المستشرقين موقف الشك المسبق كالذى وقفه بدوى ، وانما ايدّ بعض ما جاءوا به ولم يؤيد البعض الآخر واضاف شيئا على (ردسلوب) •

واما استاذنا الدكتور ابراهيم السامرائي ، فقد درس الاضداد دراسة مستفيضة في كتابه (التطور اللغوى التاريخي) ولعل اول ما نستشفه من موقفه من الاضداد هو وضعه لهذه الدراسة ضمن هذا الكتاب ، اذ يشعرنا منذ الوهلة الاولى انه يرى ان الاضداد ما هي الا نتيجة للتطور اللغوى التأريخي الذى يعمل بدأب ونشاط في تغيير دلالة الالفاظ جميعا ، ومن هذه الالفاظ ما كان تطوره خلال تاريخ اللغة متضادا ، فكانت الاضداد • ونظرته للموضوع بهذا الشكل نظرة علمية دقيقة ، اذ يقول : « ومعنى هذا ان

---

(٩٦) المجلة المذكورة ٢/٢٤٣ •

فكرة التضاد تكون نتيجة التطور في الاستعمال ونتيجة الجديد في الدلالة، ومن اجل هذا فدراسة الاضداد تؤلف موضوعا لغويا تاريخيا من حيث علم الدلالة التاريخية ... وبهذا التفسير يمكن ان نرّد كثيرا مما اعتبر من الاضداد الى هذه الحقيقة في التطور والاستعمال » (٩٧) ويمثل لذلك بـ (رغب في) و (رغب عن) ذاهبا الى ان الاستعمال اقتضى ان تستفاد خصوصية التضاد من هذا الفعل بما يتعلق به من حرف ، ومثله (الامين) للفاعل والمفعول ، وزمان استعمال المعنى الاول غير زمان الاستعمال الثاني .

عرض الدكتور السامرائي لاهم كتب الاضداد معددا اياها حسب تسلسلها الزمني ، وانتقل الى بيان اختلاف القدماء في موقفهم من الاضداد ، واستعرض آراء المنكرين كابن درستويه وذكر كتابه (ابطال الاضداد) وبيّن آراء المدافعين كآبن فارس وذكر كتابه الذى اشار اليه في الصاحبي ، ثم عاد الى ابن الانبارى يدرس موقفه ومنهجه بالتفصيل ، وجعل كتابه محورا يدور حوله البحث في الاضداد ، لان كتاب الاضداد لابن الانبارى اوسع الكتب مادة واهمها معالجة ، ثم ان ابن الانبارى عرض في مقدمته الى اشياء من تفسير الاضداد تستحق ان يقف عندها الدارس .

فوقف استاذنا الدكتور عند آراء الشعوبيين الذين ذكرهم ابن الانبارى وبيّن وجهة نظر ابن الانبارى في الرّد عليهم وابطال مزاعمهم، فبسط القول في مذهب ابن الانبارى الذى يقوم على اعتبار المعنى الواحد في السياق الذى يتوضح فيه معنى الضد بما يتقدمه ويتأخر عنه من قرائن . والظاهر انه يأخذ به ويراه ، لانه حين ناقش ضدية الفعل (ظن) الذى قالوا انه بمعنى شك وبمعنى تيقن مستقرياً النصوص القرآنية التي سيقت للبرهنة على ذلك، يخلص الى القول : « وهذا المعنى الذى ذهبوا اليه يشير الى ان المعانى قد

---

(٩٧) التطور اللغوي التاريخي ٩٢ .

تختلف باختلاف الاحوال التي يجرى فيها الكلام ، وان مايستفاد منها داخل في باب الاستعمال وما يجد فيه من صور مختلفة في زمن واحد او في ازمنة مختلفة ، فقد يجوز ان يحصل في هذا الاختلاف في الاستعمال ما يمكن ان يجرى على التضاد »(٩٨) • وايد ذلك بما نقله ابن الانبارى عن الذين قالوا بان المعنيين المتضادين اصلهما واحد وقد تداخل الاثنان على جهة الاتساع ، واغلب الامثلة التي ساقها ابن الانبارى في هذا الصدد : « يؤيد ما ذهبنا اليه من ان في طوقنا ان نردّ الاضداد الى لون من الاستعمال الذى جرى على طريق التوسع • وان القائلين بهذا يؤمنون ان التضاد مستفاد مما يتصل بالكلمة من خصوصية في المعنى تصرفها الى الضدية (٩٩) » • وكان من المستشرقين والعرب ـ كما مرّ من عرض آرائهم ـ من فهم نقل ابن الانبارى لهذا الرأى على انه ارجاع المعنيين الى اصل واحد ، وعليه فهو انكار لاصالة الضدية على طريقة ابن درستويه وجماعته الذين قالوا بشمولية المدلول الاول ، وهذا الفهم ـ في الظاهر ـ يخالف مذهب ابن الانبارى ، الا ان تفسيره بالشكل الذى استفاده الدكتور السامرائي ينسجم مع موقف ابن الانبارى من الاضداد ، ويتحد مع ملاحظته السابقة من تحدد المعنى في السياق ، فكأنه يريد من هذا ان استعمال اللفظة في المعنيين المتضادين انما كان فبسبب قرائن الكلام ، لان اصل المعنيين واحد في اللغة •

وذكر استاذنا الباحث تفسير ابن الانبارى للاضداد باختلاف اللهجات فأيده واستدرك عليه بقوله : « هذا صحيح جائز ، ولكن معاجم الاضداد لاتقيد الكلمة باصحابها القائلين بها ، وانما تذكر طرفا من ذلك »(١٠٠) ويضرب لذلك امثلة مما ذكرت كتب الاضداد • يعود بعدهاالى آراء المنكرين والمدافعين من القدماء موجها لها ، ليخلص الى ردّ ما زعمه نولدكه في هذه

(٩٨) كتابه المذكور ٩٣ •

(٩٩) كتابه المذكور ٩٤ •

(١٠٠) التطور اللغوي التاريخي ٩٤ •

المسألة ، يقول هذا المستشرق : « اذا كان الشعوبيون وجلهم من الفرس الاعاجم قد استدلوا بالاضداد على أن لغة العرب تفتقر الى الدقة والسداد فلعل هؤلاء هم الذين شاركوا في البحث عن الاضداد فتوسعوا فيه توسعا كثيرا وتلمسوه لأدنى سبب [١٠١] » • ويقول الدكتور السامرائي في ردّ ذلك : « ان الشعوبيين وهم طبقة من الفرس قد عابوا العرب في هذه المسألة» ولكن الباحثين ليسوا جميعا من الفرس ، فقد تصدى للتنقيب عن هذه المواد جماعة منهم العربي ومنهم غير العربي ••• والحقيقة ان اهتداء الرواة وعلماء اللغة الى مواد الاضداد كان نتيجة ولعهم بالتماس فرائد العربية ونوادرها وغريبها ••• وربما كان شوقهم الى معرفة هذه الفرائد والنوادر هو الذي دفعهم الى تسجيل الاضداد والتوسع فيها ، أكثر مما دفعهم حرصهم على الردّ على الشعوبية[١] » وعندي ان الباحثين لم يختلفا في القصد ، فالاول قال : (شاركوا) في البحث عن الاضداد ، وقال الثاني : منهم العربي ومنهم غير العربي فالنتيجة واحدة •

ولعلّ أهم ما امتاز به بحث الدكتور السامرائي عن البحوث السابقة ، هو هذا الدرس المعمق لما اعتبر من الاضداد في لغة القرآن ، مستعرضا آراء المفسرين في هذه الالفاظ ومناقشا اياها ، اذ انهم – أي المفسرين – لم يتفقوا على ضدية هذه الالفاظ ، فما كان من الاضداد عند جماعة لم يكن كذلك عند جماعة اخرى ، وشواهد ذلك كثيرة ، عرض لها الباحث في مصادر مختلفة ، فنقل آراء الطبري والزمخشري والفخر الرازي وسواهم من المفسرين ، مقارنا بينها وبين ما ذكرت كتب الاضداد من تفسير هذه الالفاظ التي اختلف في مؤداها في القرآن مثل (أسرّ) و (الاصفر)

---

(١٠١) في كتابه :
Neue Beitrag Zur Semitischs Sprachwissnschaft
التطور اللغوي ٩٥ • وبروكلمان ٢/٢١٥ •

(١) الكتاب المذكور ٩٦ •

و (توسّد) و (أشد) وغيرها ، ويبدو ان هذا الخلاف بين المفسرين حول مؤدى اللفظة ، كان بسبب بواعث دينية محضة ، ولم يكن خلافا لغويا ، اذ يعلق السامرائي على خلافهم في ضدية (أسرّ) بقوله : « لعل هذا الخلاف بين المفسرين يوحي لنا الخلاف بين أهل السنة من المفسرين وبين المعتزلة منهم ، فهذا التفصيل وهذه المحاكمة العقلية يكون من نتائجها أن يبدو في الآية لون من فكرة التضاد في هذا الفعل »[٢] .

ثم يستقري الباحث مواد الاضداد التي جاءت في كتاب ابن الانباري فيجد أن كثيرا منها الصق بالاضداد ولا تتوفر فيه فكرة التضاد بوجه من الوجوه وهي عنده أنواع منها في اللفظ المفرد مثل (الاصفر) و (توسد) و (أشد) التي مرّ ذكرها ، ومنها في التركيب وهي تلك الآيات التي اعتبرت برمتها من الاضداد لاختلافهم في تفسيرها والاشعار التي عدت بشطريها من الاضداد للسبب نفسه ، ومنها في الادوات مثل (أو) للشك واليقين . وهو يدرس هذه الانواع ويناقشها ويستشهد عليها بكثير من الدقة والنظر الموضوعي ، يخلص من ذلك الى أن هذه الامثلة « تثبت ان مادة الاضداد لم تكن على هذا النحو من الاتساع والشمول في لغة العرب ، ولكن أسبابا كثيرة عرضنا لها دفعت الرواة الاقدمين وعلماء اللغة على الذهاب بعيدا في هذا السبيل فأدخلوا في الموضوع أشياء كثيرة لم تكن تشتمل على طبيعة الاضداد . وقد احصيت من هذا القبيل ما يقرب من مائة وخمسين مادة حفلت بها كتب الاضداد وهي لا تملك الضدية الا بهذه الوجوه البعيدة من التأويل والتفسير »[٣] ثم يذكر من هذه المواد مجموعة كبيرة .

واستاذنا الباحث يأخذ بمذهب تفسير الاضداد بالتفاؤل مثل (بصير)

---

(٢) التطور اللغوي التاريخي ٩٨ .
(٣) الكتاب المذكور ١٠٢ .

و (السَّليم) و (جَلَل) و (المَفازَة) ، وبالتهكم مثل (النَّجيب) لمن يفتقر الى النَّجابة و (العاقِل) للمجنون و (الكَريم) للبخيل ، ويضرب لذلك أمثلة من اللهجات العامية العربية ، فالتونسيون مثلا يطلقون على النار (العافِية) وعلى الفحم (البَياض) ، ولعله أول من سمى هذه الدوافع لاطلاق اللفظة على ضد معناها بالاعتبارات الاجتماعية لان (جيز) سماها استعارة وأدخل أمثلتها في هذا الباب ، والدكتور منصور فهمي جعلها (مشاعر طبيعية) تدفع لمثل هذا الاطلاق ، والتسمية الاخيرة الصق التسميات بالواقع ، لان هذه الدوافع لو لم تكن حاصلة بفعل اعتبارات تسود مجتمعا معينا ، لكان لهذه الالفاظ أمثلة في كل لغات العالم ، لان الاستعارة جارية في كل اللغات ، والمشاعر الطبيعية متوفرة في أنفس كل البشر ، اذ ان ذلك غير حاصل في كل اللغات وانما في قسم منها ، فهي اعتبارات اجتماعية وبهذه التسمية أخذنا في الفصل السابق . أضف الى ذلك ان الدكتور السامرائي لم يغفل عن دور الاستعارة في خلق التضاد ، فقد أشار اليها في غير هذا البحث ، ففي مدونتي الخاصة عن محاضراته شيء يتصل بهذا التفسير كان استاذنا قد أخذ به في دراسة الاضداد[٤] .

فالدكتور ابراهيم السامرائي يمثل مرحلة اخرى في دراسات العرب المحدثين للاضداد ، فبعد أن رفض عبدالفتاح بدوي الاضداد رفضا كاملا لا استثناء فيه وتساهل الدكتور منصور فهمي قليلا فاعترف بوجود القليل منها مؤيدا (جيز) في صحة عشرين ضدا فقط ، لم يرفض الدكتور ابراهيم السامرائي الا مائة وخمسين ضداً وهي أقل من نصف أضداد ابن الأنباري ، وعليه فهو قائل بضدية ما بقي من المواد . فهو منكر للاضداد وقائل بها في الوقت نفسه ، ونستطيع أن نشبه موقفه بموقف ابن الانباري الذي مر انه

---

(٤) محاضرات الدكتور السامرائي ٢٤ـ٢٥ .

أنكر ضدية كثير مما ذكر في كتابه ، عدا ان السامرائي أيد ابن الانباري في تفسيراته للاضداد ، خصوصا تلك التي تنظر الى السياق وتخصيصه لمعنى الضد • وافترق منهج السامرائي عن منهج السابقين في انه لم يهمل دراسة الشواهد كما أهملاها ، لان القائلين بالاضداد لم يفعلوا ذلك الا اعتمادا على الشاهد ، فان أمكن تزييف هذا الشاهد اذا صح التعبير ، أمكن معه ردّ اللفظة ومنع تضادها •

وأما الأب مرمرجي الدومنيكي الذي درس الاضداد في كتابيه (المعجمية العربية) و (هل العربية منطقية) ، فمنهجه في دراستها منهج خاص ، ذلك انه أنكر الاضداد انكارا تاما وعاب على العربية وجود الاضداد فيها ، وارجع نشأتها الى عامل واحد هو ما سماه بالثنائية والالسنية السامية ، ناصا على صواب ما ذهب اليه المنكرون القدماء ، اذ ان أدلتهم على أبطالها مقنعة ، ولندعه يفصح عن هذا الذى قلناه ويشرح طريقته في ابطال الضدية : « من غرائب بل قل من معايب المعجمية العربية ، انها لا تحوي الفاظا متضاربة المعاني متنافرتها وحسب ، ولكن ـ فضلا عن ذلك ـ نجد فيها كلمات لكل منها مدلولان متضادان وقد دعاها أرباب اللغة (الاضداد) ويمكنا ان نطلق على خاصيتها اسم (الضدية) • وقد عني بعضهم بجمع هذه المفردات ••• فأوصله الى ما فوق الاربعمائة ، أما غيره فقد انزله الى نحو المائة • على أن آخرين حاولوا ابطال حقيقة وجود الاضداد ، اما في جملتها واما في طائفة منها • وعندنا انهم في رأيهم مصيبون ، وأغلب أدلتهم في صدد هذا مقنعة • الا اننا نزيد على ذلك وسيلة لم يذكرها أحد منهم ـ لأنهم لم يذهبوا مذهبها ـ ألا وهي وسيلة (نظرية الثنائية) و (طريقة الالسنية السامية) ، وبالحق ان لم تكونا الذريعة الوحيدة ، فلا أقل من انهما حريتان بأن تنظما في سلك المسالك المتعددة ، لابطال الضدية في العربية • وللبلوغ الى هذه الغاية المتوخاة ينبغي أن تتخذ الثنائية بنوعها

الخاص الذي اكتشفناه بالتقصي الشخصي ، الا وهو أن لا يردّ الثلاثي الا ثنائي واحد ، بل الى ثنائيين أو أكثر عند اقتضاء الحاجة . وهذا ما يجب تطبيقه في مسألة ابطال الضدية أي أن يرد الثلاثي أولا الى ثنائي يطابق أحد المعنيين المتضادين ، ثم الى ثنائي آخر يناسب المعنى الثاني واذا كان اللفظ من الاصل ثنائيا يقارن بما يقابله في اللغات السامية »[٥] ومن أمثلة تطبيق هذا المذهب مادة (ذَرَبَ) ، اذ يقول : « ذربت معدته : فسدت ذربت معدته : صلحت . بالمعنى الاول ذرب صادر من (ذَبْ) : هزل ، ذوى . جف من العطش ، مما يحصل عنه الفساد والمرض . وبالمدلول الثاني هذا الفعل صادر من (ذرّ) البقل والنبات اذا طلع وانتشر وذلك لقوته وصحته والا ذبل وذوى »[٦] . ومن الامثلة كذلك مادة (عَفَا) اذ يقول : « أول معنى لهذا الفعل : درس ، خفي ، ذهب أثره . ثم ما يضاده : ظهر ، نما ، كثر . فاذا اعتبرت دلالته الاولى كان مصدره الثنائي (عَفْ) ويتجلى معناه في (af) السرياني الدال على معنى اللف والغطاء والستر ، ومن ثم على الكف والطمر ومحو الاثر . واذا لوحظ مدلوله الثاني ، كان اشتقاقه كذلك من (عَفْ) الدال على الجمع ومن (af) السرياني المراد به اللّي والطّي واللف . فان ما يطوى ويلف يجمع جمعا مضاعفا ، وما يضاعف ينمو ، وما ينمو يصبح ظاهرا[٧] » .

وكنا قد أخذنا بهذا التفسير فيما أخذنا من تفاسير لنشأة الاضداد في الفصل السابق ، ورأينا انه اذا صح تفسير الاضداد به ، فانما يصدق على قسم منها لا على جميعها كما يحاول الأب مرمرجي أن يفعله ، لان كثيرا مما عالج ضديته هذا الباحث بهذه الوسيلة واضح فيه تعسف تطبيقها عليه

---

(٥) المعجمية العربية ٢١٩ .
(٦) هل العربية منطقية ١٣٤ .
(٧) المعجمية العربية ٢٢٢ .

واخضاعه لها وبالرجوع الى المواد (بَطَلَ) و (باعَ) و (زَحَكَ) و (سَبَدَ) و (سَجَدَ) و (فَزِع) و (عضا)[8] و (قَسَطَ) و (الحَزَوَّر) و (ضَرا) و (أقْوى) و (غَفَرَ)[9] وغيرها نجد من تكلف التطبيق ما يؤيد ما ذهبنا اليه •

وقبل أن نحدد ملامح موقف الدومنيكي من الاضداد ، لابد من الوقوف عند ردود عادل أحمد زيدان عليه ، وأول ذلك استغراب الاستاذ زيدان من تأييد الدومنيكي للمنكرين بحجة ان أدلتهم مقنعة ، فيقول : « ومن الغرابة اننا نرى ان الأب مرمرجي يؤيد ما ذهب اليه مبطلو الاضداد وانه يرى ان أدلتهم مقنعة ، مع العلم انه لم يصلنا شيء مما قالوه من ادلة في ابطالهم الاضداد ، فكتاب ابن سيبويه (درستويه) لم يصلنا ، وابن سيده لم يذكر لنا شيئاً مما اعتمد عليه أحد شيوخه في انكار الاضداد، أما أهل الزيغ والبدع الذين ذكرهم ابن الانباري فأقروا بها [الا] انهم عدوها منقصة • وكل ما وصلنا هو ردود على هؤلاء وتعليل للاضداد »[10] • وهذا الذي يقوله عادل زيدان فيه شيء كثير من الصحة ، الا ان الأب مرمرجي قد لا يعني هذا ، فربما كان يشير الى الشيء القليل الذي وصلنا من آراء المنكرين وخصوصا ابن درستويه ، فهي على قلتها تفصح عن المذهب الذي ذهبه ابن درستويه وغيره من المنكرين ، وعليه يكون صحيحا — من وجهة نظر الدومنيكي — القول بأنها أدلة مقنعة في هذا الصدد • ويعود زيدان مرة اخرى فيعتبر ما جاء به الأب مرمرجي دليلا على وجود الاضداد لا على ابطالها ، يقول : « وعندي ان هذا لا يقوم دليلا على ابطال الضدية في اللفظ بل العكس ، أعده دليلا على وجود الاضداد ، وخاصة

---

(٨) هل العربية منطقية ١٣٦ — ١٣٩ •
(٩) المعجمية العربية ٢٢٣ — ٢٢٩ •
(١٠) أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة ٨٨ •

إذا عددنا الاضداد لغات تداخلت ••• فالتضاد واقع في اللفظ المفرد سواء كان تطورا صوتيا للفظين ثم اتحدا في الصورة أو تطورا للفظ سامي اختلفت دلالته باختلاف استعماله[11] » فهو يشبه في هذا الموقف ابن الانباري الذى لم يمنع من تفسير الاضداد والقول بوجودها في آن واحد ، بل عدّ ابن الانباري التفسير دليلا على الوجود ، ولكن عادل زيدان من جهة اخرى لم يفرق بين ابطال اصالة الضدية وبين انكار ما هو موجود فعلا ، فالأب مرمرجي ذهب الى الناحية الاولى وهو ذهب الى الثانية •

ويقف الأب مرمرجي من الاضداد أكثر من موقف ، فهو مع الشعوبيين في عيب العربية والازراء بها ، ومع ابن درستويه وآبل في الاخذ بتفسير واحد ، ومع عبدالفتاح بدوي في رفض جميع الاضداد ، كما لم يأخذ بأي تعليل سابق وان اعترف بقناعته بعلل المنكرين ، وجاء بشي خاص في تفسير الضدية وابطالها افاده من فكرة الثنائية التي قال بها القدماء منذ الخليل ، الا انه أضاف اليها مقارنة الثنائي باشباهه في اللغات السامية الاخرى ، وربما دفعه الى ذلك معرفته ببعض اللغات السامية كالسريانية مثلا لانها لغة كتابه المقدس ، وهذه الناحية ـ ناحية المقارنات السامية ـ نجدها عند المسيحيين من الباحثين العرب أكثر مما نجدها عند سواهم •

بقي أن نعرض لأحد علماء الفقه والاصول المحدثين ، الذين تنبهوا الى أهمية البحث في المشترك والاضداد لما لهما من دور في تحديد أحكامهم الشرعية ، لان التشريع عندهم هو (العمل بما يدل عليه اللفظ) ، وهذا الباحث الفقيه هو الشيخ محمد الخضري الذي رأى ان المشترك ـ والاضداد عنده نوع منه يختلف قليلا ـ لا يدل على أحد معنييه بعينه ما لم يكن مصحوبا بقرينة تبينه ، فاذا جاء غير مبين مع أن المراد به أحد

(11) أبو الطيب اللغوي ٨٨ ـ ٨٩ •

معانيـه ، كان مجمـلا بالضـرورة ، اذ يستحيل العمـل بمقتضـاه لعـدم العلم به[١٢]. ومنع الاصوليون أن يستعمل المشترك ويراد به جميع معانيه « وأجازه فريق منهم ، واختار آخرون جـوازه في النفي دون الاثبـات ، وآخرون جوازه فيما عدا المفرد منه . والمجوزون اختلفوا فيه اذا استعمل في جميع معانيه : أحقيقة أم مجاز » [١٣] .

وحاول الشيخ الخضري خـلال بحثه في المشـترك أن يعلل نشـأة الاضداد ، وأهم ما ذكره من علل ذلك اثنتان :

١ ـ شمولية المدلول الاول ، قال : « ان يكون بين المعنيـين معنى يجمعها فتصلح الكلمة لكل منهما ، لذلك المعنى الجامع ، وهذا ما يسمونه الاشتراك المعنوي ، وقد يغفل الناس عن ذلك المعنى الجامع ، فيظنون الكلمة من قبيل المشترك اللفظي ، ومثال ذلك : القرء ، فانه في لغة العرب الوقت المعتاد ، فيقولون للحمى قرء : أي دور معتاد تكون فيه ، وللثريا قرء : أي وقت معتاد تمطر فيه ، وللمرأة قرء : أي وقت تحيض فيه ووقت تطهر فيـه[١٤] » .

٢ ـ تطور الدلالة عن طريق انتقال مجالهـا ، يقـول : « ان يضـع الواضع الكلمة لمسمى ، وعند الاشارة اليه يكون مع المسمى غيره ، فيتلقاها عنه السامع من غير ان يتبين حقيقة ما وضعت له الكلمة ، فتستعمل في الشيء وفيما كان معه وفيهما جميعا وربما ينفصلان بعد . وقـد يكونان ضديـن كما في نحو (جون) فانه وضع في الاول للسحاب ، وفيه الابيض والاسود حتى اذا كان ابيض صرفا او اسود صرفا فهو جون[١٥] » .

---

(١٢) الاصول للخضري ١٧٥ـ١٧٦ عن مجلة المجمع الملكي ٢/٢٤٣ .
(١٣) الاصول ١٧٦ : مجلة المجمع ٢/٢٤٤ .
(١٤) الاصول ١٧٤ : مجلة المجمع ٢/٢٣٩ .
(١٥) الاصول ١٧٤ـ١٧٥ : مجلة المجمع ٢/٢٣٩ .

فالشيخ الخضري على هذا ـ وان كان ميدانه العلمي غير ميدان اللغويين ـ قائل بالانكار في تفسيره الاول على طريقة ومنهج ابن درستويه وطائفته من المنكرين ، وهو الرجوع بالمعنيين الى اصل واحد ، والذي قال به ابن الانبارى فيما قال من تعليل ، ولكننا نلاحظ ان المثل الذى ساقه في التعليل الثاني لا يخرجه عن دائرة التعليل الاول ، فكلا معنيي الجون يرجعان الى أصل واحد هو السحاب ، ولو التمس المثل في (الظعينة) مثلا لكان ادق ، فهي عندهم من الاضداد لانها تعني الهودج والمرأة التي فيه ، ومثله (الكأس) الذى يعني الزجاجة وما فيها من شراب ، ومواد كثيرة من هذا النوع ، وعلى امثالها يصدق قوله : ان يضع الواضع الكلمة لمسمى ، وعند الاشارة اليه يكون مع المسمى غيره •

هذه أهم دراسات العرب المحدثين للاضداد ومحاولاتهم للكشف عن اسرار وجودها وعلل نشأتها ، اخترناها دون سائر الدراسات الاخرى[(١٦)] ، لان كل واحدة منها تميزت بشيء يستحق الدرس والوقوف عنده ، اما الاخريات التي لم نتعرض لها فكان ينقص اغلبها التميز والجدة ، فهي اما ناقصة في تعليلها للاضداد ، أو مقلدة لغيرها في المنهج أو قليلة المادة المدروسة بحيث كان التعرض لها وبسط آرائها يعتبر من الاطالة التي لا جدوى منها والحشو الزائد ، فهي نسخ من هذه البحوث التي درسناها ، فيما عدا القليل منها الذى لا يخلو من التفاتات رصينة كالذى فعله الدكتور ابراهيم انيس[(١٧)] •

---

(١٦) انظر : تاريخ آداب العرب ١/١٩٧ ـ ٢٠٢ وتاريخ آداب اللغة العربية ١/٤٥ وفقه اللغة وخصائص العربية ١٩٨ وفقه اللغة لوافي ١٨٦ ودراسات في فقه اللغة ٣٠٩ وابن السكيت اللغوي ٢٣٧ وأبو الطيب اللغوي ٨٣ـ١٣٢ ومجلة اللسان العربي ٨/٩٣ ورواية اللغة ٣٣٣ ـ ٣٤٠ •

(١٧) في اللهجات العربية ٢١٥ •

نخلص من دراسة مواقف الدارسين من الاضداد ومناهجهم المختلفة في تناول مشكلتها الى ضرورة التأمل الدقيق في التفسيرات التي اوردوها لوجود الاضداد وعلل نشأتها •

فنجد ان أهم واخطر ما عللوا به الاضداد هو رجوع الضدين الى معنى واحد هو الاصل الذى تفرع منه المتضادان ، اما سائر العلل الاخرى فهي اقل شأنا من هذا ، فهي لمعرفة السبيل التي سلكها اللفظ حتى وصل الى درجة التضاد مثل اللهجات ، والمجاز ، والحذف والاختصار وما الى ذلك • وعليه يجب إعادة النظر في الاضداد وفيما ذكر لها من معان لاستكشاف الطريق الى المعنى الاصلي لكل منها ، وهو المدلول الشامل ، وينبغي أن يتم ذلك بعيدا عما يكتنف اللفظة من ملابسات وما يرتبط بها من سياق يتقدم فيه ويتأخر ما يخصص معناها ، وبعيدا ايضا عن ملاحقة اللفظ فيما قطعه من اشواط دلالية قريبة وبعيدة ، فاذا استطعنا ان نصل من ذلك الى المعنى الحقيقي للفظة وقفنا على بداية تطور هذه اللفظة واكتسابها المعاني الجديدة والدلالات الطارئة ، ووقفنا ايضا على نشأة الظلال التي تحيط بالمعنى القديم والتي ستصرفه الى الضدية باستعمال من الاستعمالات•

ونخلص من دراسة هذه المواقف ايضا الى نفي ان يكون احد من اللغويين ممن وصلتنا آراؤه وتعليقاته بهذا الصدد ، قد انكر وجود الاضداد في العربية على حد تعبير القدماء ، وانما هناك منكرون لاصالة الضدية في الالفاظ ، ولكن خضوع هذه الالفاظ للتطور عن طريق التوسع والمجاز والحذف والاختصار وما سببته اللهجات المختلفة المتحدة ، جعل منها اضدادا في العربية الفصيحة • فاللغة بالصورة التي نظر فيها القدماء كانت تحوى الفاظا تضادت معانيها فسميت بالاضداد بغض النظر عن اختلاف اصول هذه الاضداد ، والطرق التي سلكتها حتى وصلت الى ما

هي عليه ، وهذا ما اتفق عليه القدماء جميعا دون استثناء : من انكر الاضداد ومن دافع عنها •

وشيء اخير تجب ملاحظته في هذه الدراسات هو انه اتفق المنكرون والمدافعون على قلة الاضداد في العربيـة فابن درستويه يعتـرف بمجيء النادر منها ، وابن الانبارى يقول : « هذا الضرب من الالفاظ هو القليل الظريف في كلام العرب[18] » • وجيز من المستشرقين لا يرى في اللغة اكثر من عشرين ضدا او نحو ذلك ، والدكتور منصور فهمي من العرب المحدثين يؤيد جيز ولا يقول الا بالقليل من الاضداد ، وهكذا أغلـب دراسات الآخريـن •

---

(١٨) ابن الانباري ٦ •



الباب الثاني

الفصل الأول

تدوين اللغة ورواية الأضداد



تدوين اللغة

الظاهر ان التصنيف في متن اللغة أمر قديم في اللغات الانسانية ، فقد حفلت بعض لغات العالم القديمة بمعجمات اللغة المختلفة الغرض والميدان ، فهناك معجمات عنيت بجمع ألفاظ اللغة وموادها ، واخرى عنيت بالمعاني والدلالات ، ومجموعة ثالثة بالموضوعات وهكذا . من ذلك ما وصلنا من خبر وضع الهنود معجمات المترادف والمشترك التي كان أقدمها وأكملها « معجم أما راسنها الذى اشتهر باسم (أماراكوسا) والذى كتب قبل القرن السادس الميلادي .. وهو معجم مترادفات في ثلاثة أبواب ألحق به فصل عن المشترك اللفظي واخر عن الكلمات غير المتصرّفة ، وكلمات التذكير والتأنيث .. وقد رتب المؤلف جزء المترادفات بحسب الموضوعات ، وجزء المشترك اللفظي بحسب الحروف الساكنة في أواخر كلماته »[1] ، ومن المعجمات الهندية القديمة أيضا معجم المشترك اللفظي « لمؤلفه ساسفاتا الذى كان يعيش حوالي القرن السادس الميلادي . وترتيبه للموضوعات التي على أساسها وضعت الكلمات ترتيب عجيب جدا . فقد شرح أولا الكلمات التي تحتاج لبيان معناها الى بيت كامل ، ثم الكلمات التي تحتاج نصف بيت ثم تلك التي تحتاج ربع بيت »[2] ، ومثل هذا في الموضوع معجم آخر تلاه زمنا من تأليف هيماكاندرا « وهو من نوع معاجم المشترك اللفظي ، ويقع في سبعة أبواب : الستة الاولى على التوالي للاسماء ذات المقطع الواحد ، المقطعين ، الثلاثة الى الستة . أما السابع فيعالج الكلمات غير المتصرّفة . والى جانب ترتيب الكلمات بحسب عدد مقاطعها نظر الى الحرف الاول والحرف الساكن الاخير »[3] . ومثل الهنود

---

(١) البحث اللغوي عند الهنود ص ٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .
(٣) البحث اللغوي عند الهنود ص ٩٦ .

في هذا الميدان اليونان والرومان الذين عنوا بالدراسات اللغوية وجمع مواد اللغة وبحث دلالاتها أيمّا عناية ـ كما أشرنا الى طرف من ذلك في مبحث الدلالة ـ وان كانت معلوماتنا عن هؤلاء أقل استيعابا واكثر غموضا ، وذلك للبون الزمني الذى يفصلنا عنهم • وعلى كل حال فأمرهم جميعا لا يهمنا هنا بقدر ما يهمنا أمر العربية التي رزقت في هذا المجال مجال المعجمات اللغوية حصيلة وافرة ومجهودا ثرا حفظاها لنا من الضياع والاندراس •

يقول ابن خلدون : « فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين »[٤] ، وكان ابتداء حركة التأليف هذه اذا صحّ التعبير في بداية القرن الثاني الهجري، على أيدي جماعة من العلماء دأبهم أن يخدموا لغة التنزيل والحديث كما أشار ابن خلدون ، وذلك بتحديد الاستعمال اللغوى الصحيح ، فوجهوا همهم الى الاعراب ، يلتقطون من أفواههم اللغة السليمة • ووضعوا القواعد والاصول يضبطون بها الاعراب على اصول من الاستقراء الدقيق والملاحظة والاحصاء للّغة الاصلية القديمة ، واتجهوا الى الشواهد الصحيحة وحصروها في العصر الجاهلي وصدر الاسلام بشرط الاصالة والبداوة وعدم التطرف الى الشمال « لهذا اعتبر عديّ بن زيد من بين من لا يستشهد بشعره ، واعتبر أبو عمرو بن العلاء الفرزدق وجريرا ممن لا يستشهد بشعرهم كذلك »[٥] ، وقد تميزت المرحلة الاولى في كتب اللغة بالجمع في صور شتى ، فقد تجمع كل مجموعة من الالفاظ تحت اسم في كتاب أو باب من كتاب ، يجمعها تقارب المعنى او تضاده ، أو تقارب

---

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٤ •

(٥) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ١٥٤ •

المبنى ، أو صيغ الالفاظ واستعمالاتها الصحيحة ، أو جمع الالفاظ اللغوية في ترتيب خاص حسب الحروف الابجدية أو حسب مخارج الالفاظ[٦] •

وقد تضخمّت المعجمات اللغوية العربية تضخما كبيرا ، ذلك « انها تذكر التسميات الشعرية الشخصية الخالصة للاشياء ، على انها كلمات خاصة • فحين يسمي أحد الشعراء الاسد مثلا (بالكاسر بالاسنان) ويسميه شاعر آخر (بالسّاحق) •• الخ ، فان المعجم العربي يأخذ هذه التسميات على انها تساوى مطلقا كلمة (الاسد) • وعلى الاخص ، قد أمدّ شعر الهجاء والذمّ ـ الذى ضاع أغلبه ـ المعجم العربي بالتأكيد ، بتعبيرات كثيرة مخترعة ونادرة • وأيضا كثير من الكلمات الشائعة الاستعمال أكثر مما ذكر علماء فقه اللغة ، والتي يأتي بها الشعراء عرضا ، لم تكن مألوفة في الواقع الا لدى القبائل • ولكن كمية الكلمات لا تزال مع ذلك كبيرة جدا •• والأشعار نادرا ما تكون مناسبة لاعطاء صورة واضحة عن اللغة البسيطة الحقيقية • وأيضا فقد وجد في الشعر العربي منذ البداية ، ميل معيّن نحو الصنعة والطريقة • والقرآن كذلك ، لا يظهر لنا لغة الحياة الا قليلا • وعلى العكس من ذلك يظهر لنا بعضها النثر القديم الموجود في الروايات المتناقلة (الحديث) • وتقدم الحكايات الحقيقية عن أعمال النبي وأصحابه وكذلك أخبار حروب ومغامرات البدو في العصر الجاهلي والاسلامي الاول ـ كل ذلك يقدم نموذجا حقيقيا للنثر ، على الرغم من أن بعضه قد نقّح فيما بعد »[٧] • فالاصمعي في القرن الثاني وأول الثالث يرفض لفظ زوجة بدلا من اللفظ القديم زوج ـ وهي صيغة جديدة وردت عند الفرزدق من قبل ـ رعاية لاستعمال القرآن

---

(٦) أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص ١٥٣ •

(٧) اللغات السامية (نولدكه) ص ٨١ •

اللغوي[8] . وكان الاصمعي على رأس حركة التنقية اللغوية في أوجها ، ولم يكتف بجمع المادة اللغوية من أفواه البدو ، وترتيبها فحسب ، بل شرع كذلك في تنظيم الاستعمال اللغوى الدقيق بوساطة تحديدات معنوية غاية في الدقة[9] .

وقد حاول الرواة أن ينقلوا الى علماء اللغة الذين تولوا تدوينها ، ما وصل اليهم من لهجات القبائل المختلفة في وقت كانت فيه هذه اللهجات قد تباعد بعضها عن بعض قليلا أو كثيرا بالنسبة الى مدى تباين بيئاتها ومدى تفاعل بعضها ببعض . وكان في اعتبار هذه اللهجات المتباينة لغة واحدة ، ما نقل هذا التباين الى المعجمات العربية ، فغدا الكثير من مفرداتها متعدد اللفظ . فلكلمة الشمال مثلا خمسة وجوه ، وللصداق أربعة ، وللزجاج ثلاثة ، وللحصاد وجهان . كما غدا الكثير منها يحمل معاني مختلفة ، كثيرا ما لا يمتّ بعضها الى بعضها الاخر بصلة ، فمعنى (المعس) : اللبن ، والحركة . ومن معاني (اليَراعة) : الحشرة المضيئة ، والقصبة ، والنّعامة ، والاحمق . ومن معاني (الغَرب) : مغرب الشمس ، وحدّة النشاط ، وحد السيف ، والدّلو العظيمة . وقد تتّسع الشقّة في معنى اللفظة الواحدة فتصل الى حدّ التضاد ، فالجَون : الابيض والاسود . والسدفة : الظلمة والنور . والجَلَل : العظيم والحقير[10] . وهكذا سائر المفارقات المعجمية التي خلقها اعتبار العربية المدونة لغة واحدة .

لهذا كله يمكن أن نقسم المعجمات اللغوية أقساما أربعة بحسب

---

(٨) العربية (يوهان فك) ص ٤٣ .

(٩) العربية ص ٤٠ .

(١٠) مجلة مجمع اللغة العربية مجلد ٤٧ مقالة (المعاجم العربية وضرورة تهذيبها) للدكتور فؤاد حنّا ترزى ج٢ ، ص ٣٨٩ ـ دمشق نيسان ١٩٧٢م .

ما ترمي اليه والمنهج الذى سارت عليه والميدان الذى بحثت فيه[11] ، وهذه الاقسام هي :

١ـ معجمات مواد اللغة ، وهى التى وضعت لجمع مفردات اللغة وشرحها ، مرتّبة ترتيبا خاصا يسهل الرجوع اليها والوقوف على كل مادة من موادها في موطنها « وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين ، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلّها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان العربي •• واعتمد فيه ترتيب المخارج ، فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة ، وجعل حروف العلّة آخرا وهى الحروف الهوائية • وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى منها »[12] ، وتلا العين معجم (الجمهرة) لابن دريد الذي أفاد من العين ومن مصنفات الاصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، الا أنه رتب مفرداته على حروف الهجاء مبتدئا بالهمزة ومنتهيا بالياء • ونهج ابو على القالى نهج العين في معجمة (البارع) بل ضمّنه اكثر مواد العين ، ومثله الازهرى في (تهذيب اللغة) الاّ أن الأخير أوسع وأكبر اذ هو في عشر مجلدات وكذلك الصاحب بن عباد في معجمه (المحيط في اللغة) في سبع مجلدات رتّبه ترتيب العين • وقبل أن يؤلف أحمد بن فارس معجميه (مقاييس اللغة) و (المجمل) ، اختصر ابو بكر الزبيدى العين للخليل « مع المحافظة على الاستيعاب ، وحذف منه المهمل كلّه وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص • وألف الجوهرى من المشارقة

---

(١١) يراجع في هذا : مقالة (المعاجم اللغوية بين ماضيها وحاضرها) لابي طالب زيان في مجلة المجمع العلمي العربي مجلد ٤٠ ج١ ص ٣١٠ ـ ٣٢٢ • ويراجع كذلك : أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ١٥٩ •
(١٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٤ •

كتاب الصّحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير » [١٣] ، فكان عدد ما جمع أربعين ألف مادّة ، فاختصره الرازى باسم (مختار الصحاح) ، وألّف الزمخشرى بعد ذلك معجمه (أساس البلاغة) وهو « في المجاز بيّن فيه كل ماتجوزت به العرب من الألفاظ ، وما تجوّزت به من المدلولات »[١٤] ، وألّف الصّغاني معجميه (التكملة) و (العباب) ثم جمعهما في كتاب واحد سمّاه : (مجمع البحرين) ، وألّف ابن منظور (لسان العرب) الذي ضمّنه أكثر ما كتب قبله في هذا الباب ، فكان في خمس عشرة مجلدة ، وألف الفيروز ابادى بعده (القاموس المحيط) ، والمقرى (المصباح المنير) [١٥] ، والزبيدى (تاج العروس) الذى شرح فيه قاموس الفيروز ابادى واستدرك عليه ، فكان ضخما في مجلدات عديدة، كثير الفائدة بالرغم من تأخره في الزمان ، اذ انتهى من وضعه قبل أقل من قرنين فقط ، ومن المعجمات الحديثة في هذا الباب (المساعد) للكرملى ، أما (المنجد) فهو معجم مدرسي محشو بالخطأ والزيّف .

وقد بذل مؤلفو هذه المعجمات جهودا ضخمة في الجمع والاستيعاب والعناية بذكر معاني الكلمات والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب ، الا انهم « أغفلوا اغفالا تاما تعقّب معاني كل كلمة في مراحل حياتها ، وشرح تطوّرها في مختلف العصور ، وبيان الاصول التي انحدرت منها .. هذا الى أن معظم هذه المعجمات العربية لم يتبع نظاما معيّنا في ترتيب معاني الكلمة ، فخلط بين الحقيقي منها والمجازى ، والقديم والحديث ، كما خلط بين المعاني في مختلف لهجات العرب ، فاصبح

---

(١٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٥ .
(١٤) المصدر نفسه ص ٤٨٦ .
(١٥) علم اللغة (وافي) ص ٦٨ .

البحث فيها شاقا »[١٦] . ولو لا كتاب (العين) للخليل لكان هذا النمط من كتب اللغة يعد متأخرا عن الانماط الأخرى من التأليف التي سنعرض لهـا .

٢ ـ معجمات المعاني ، وهي الكتب الرامية الى تصنيف المفـردات حسب المعـاني المختلفـة ، بحيث تذكر في كل باب من أبـواب المعـاني المفردات التي تعبر عن موضوعه ، مرتبـة ترتيبا خاصا ومبينـة مدلولاتهـا ومواطن استعمال كل منهـا ، مثل باب (خلق الانسان) وتذكر فيـه كل ما يخصّ هذا المعنى من مفردات لغوية وباب (الحمل والولادة) و (الرضاع والفطام) وهكذا ، والفرق بين هذا النوع من المعجمات والنوع السابق ، ان الاول يحتاج اليه من يعرف اللفظ ويرغب في الوقوف على معناه ، أمـا الثاني فيحتـاج اليه من يعـرف المعنى ويرغب في الوقـوف على الألفـاظ الموضوعة له[١٧] ، وقد « اختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي وأفرده في كتاب له سمّاه (فقه اللغة) وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه .. وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها .. وأمّا المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة ، الكثير الاستعمال تسهيلا لحفظها .. فكثيرة ، مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما ، وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم »[١٨] ، الا أن أقدم ما ألف من هذا النوع هو (كتاب الالفاظ) لابن السكيت ، يليه كتاب (الألفاظ الكتابية) للهمذاني ، فكتاب (مبادىء اللغة) للاسكافي ، و (فقه اللغة) للثعالبي « ثم ألف فيها من الاندلسيين ابن سيده كتاب (المحكم) على ذلك المنحى من الاستيعاب ، وعلى نحـو

---

(١٦) علم اللغة (وافي) ص ٦٨ .
(١٧) المرجع السابق ص ٦٩ .
(١٨) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٦ .

ترتيب كتاب العين »[19] وكتاب (المخصّص) في سبعة عشر جزءاً ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقاً ، وأكثرها استيعاباً لمسائل البحث ، وقد تناول الثعالبي في (فقه اللغة) وابن سيده في (المخصص) ، في أثناء دراستهما لمسائل الكتابين الاساسية ، بعض بحوث من نوع آخر[20] •

٣ ـ كتب فقه اللغة العربية ومسائل علم اللغة ، وهي التي عنيت بمباحث نشأة اللغة ، والاشتقاق ، والاطراد والشذوذ ، واختلاف لغات العرب ، والموازنة بين العربية والفارسية ، والتعريب ، والمصنوع والفصيح ، والحوشي والغرائب ، والشوارد والنوادر ، والمستعمل والمهمل ، وتداخل اللغات ، وغيرها • وخير من يمثل هذا النوع من الدرس اللغوي والتصنيف فيه : كتاب (الاشتقاق) للأصمعي ، و (الصاحبي) لأحمد ابن فارس ، و (الخصائص) لابن جنّي ، ومقدمة (المخصص) لابن سيده ، وبعض فصول (فقه اللغة) للثعالبي و (المعرب من الكلام الاعجمي) لأبي منصور الجواليقي ، و (المزهر) للسيوطي ، و (شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل) لشهاب الدين الخفاجي[21] ، وجمهرة من الكتب الحديثة التي ألفها رجال هذا الميدان مثل : كتاب (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) للكرملي ، و (فقه اللغة المقارن) للدكتور ابراهيم السامرائي ، و (اللغة والعصر) لليازجي ، و (فقه اللغة) للدكتور علي عبدالواحد وافي ، وبحوث المستشرقين مثل : كتاب (العربية) ليوهان فك وغير هذا كثير جدا مما كان ميدانه دراسة العربية فقهاً وخصائص وأساليب •

٤ ـ كتب الموضوعات والظواهر اللغوية ، وهي أشبه ما تكون

---

(١٩) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٥ •

(٢٠) علم اللغة (وافي) ص ٧٠ •

(٢١) المصدر نفسه ص ٠٧٠ •

بالمعجمات بل هي معجمات فعلا تعنى بجمع وشرح جميع المفردات والمعاني المتعلقة بموضوع معيّن من مثل (الخيل) أو ظاهرة لغوية خاصة من مثل (الاضداد) ، وهذا النوع من الكتب أو المعجمات كثير قديم ، فهو لولا عين الخليل كان أقدم أنواع مصنفات اللغة ، لأن أوائل من ألّف في هذا المجال هم ممن عاصر الخليل أو جاء بعده بقليل بحيث سبق وضع معجمات مواد اللغة التي كان ثانيها في أوائل القرن الرابع على يد ابن دريد وهو (الجمهرة) ، في حين كانت الموضوعات والظواهر نتاج القرن الثاني وأوائل الثالث مستمرة الى اليوم • ف (اللبن واللبأ) وهو اسم لأكثر من كتاب لجماعة من العلماء في عصر واحد أو عصور متقاربة لا تتعدى حدود القرنين الثاني والثالث ، كل كتاب يجمع ما سمع مؤلفه أو ما وقع عليه عن طريق النقل أو الرواية مما قيل في اللبن واللبأ من ألفاظ تتناول أطوار اللّبن منذ حلبه ، والتطورات التي تطرأ عليه حتى يصبح حامضاً ، وما جاء في هذا كله من اللغات واللهجات المختلفة لقبائل العرب • ويقرب منه ما كتب في موضوع (النخل والكرم) و (الرحل والمنزل) و (النبت والشجر) و (الدارات) وغيرها[٢٢] •

ومن أمثلة هذا النوع كتب ابن السكيت في النبات والاصوات والقلب والابدال ، وكتب أبي حاتم السجستاني في الأزمنة والحشرات والطير والأضداد وكتاب أبي حنيفة الدينوري في الانواء والنبات ، وكتب الأصمعي في الاضداد والسلاح والابل والخيل ، وكتب أبي زيد في المطر واللبن واللبأ والغرائز والجرائم ، وكتاب الأضداد لابن الانباري ، وشرح غريب الحديث للجزري ، وعدّوا من هذا النوع كذلك : المعجمات الفلسفية والعلمية وما اليها ، ككشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ،

---

(٢٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ١٥٩ •

والتعريفات للجرجاني ، والكليّات لأبي البقاء ، وغيرها[٢٣] • ومن الكتب الحديثة في هذا النوع كتاب (سر الليال في القلب والابدال) لأحمد فارس الشدياق ، و (الكأس المروق على الدورق في الأضداد) لأحمد الحلواني الخليجي ، و (معجم المصطلحات الطبية) و (معجم أسماء الاشياء) و (معجم الملابس) وسوى ذلك كثير مما تضعه المجامع العلمية أو أيدي العلماء والباحثين •

قائمة كتب الأضداد

نخلص مما سبق الى أن مؤلفات الأضداد تندرج تحت النوع الاخير من المصنفات اللغوية وهو النوع المعنيّ بدراسة الظواهر اللغوية وجمع مفرداتها وشرح معانيها ، في جملة ما عني به • والاضداد من الظواهر المحظيّة بدراسات وكتب كثيرة فيما لو قورنت بسواها من الظواهر كالابدال والقلب والنحت والاشتقاق وما الى ذلك • وقد عثرنا في كتب التراجم والمظان القديمة والفهارس على ذكر لواحد وثلاثين كتابا في الاضداد لم يصل أكثرها والظاهر أنه مفقود فيما فقد من تراثنا الضخم خلال العصور • ولم ير النور منها سوى ثمانية من الكتب القديمة[٢٤] ، عدا أربعة أو خمسة من الكتب الحديثة أو المتأخرة المحفوظة في مخازن المخطوطات بعضها مجهول المؤلف • ونحن اذ ندرج قائمة بأسماء مؤلفي الاضداد مرتبة حسب تواريخ وفياتهم ، نذكر بعد كل منهم المظان التي أشارت الى كتابه ، منوهين في الهامش الى المطبوع منها :

١ ـ أبو علي محمد بن المستنير قطرب المتوفى عام ٢٠٦هـ[٢٥] •

---

(٢٣) علم اللغة (وافي) ص ٧٠ •

(٢٤) فات مؤلف (ابن السكيت اللغوي) ص ٢٤٢ كتابا قطرب وأبي الطيب فيما عده من كتب الأضداد التي وصلت ونشرت ، عدا التي لم تنشر من الكتب المتأخرة •

(٢٥) نشره محققا المستشرق هانس كوفلر في العدد الثالث من المجلد الخامس من مجلة (اسلاميكا) ١٩٣١م التي تصدر بالالمانية •

ذكره : الفهرست ٧٨ ونزهة الالباء ٦١ وانباه الرواة ٣/٢٢٠ ووفيات الاعيان ٣/٤٣٩ ومعجم الادباء ١٩/٥٣ والوافي بالوفيات ٥/١٩ والمزهر ١/٣٩٧ وبغية الوعاة ١٠٤ وشذرات الذهب ٢/١٦ وكشف الظنون ١/١١٥ وتاريخ بروكلمان ٢/١٤٠ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/١٢٥ والاعلام ٧/٣١٥ ٠

٢ ـ يحيى بن زياد الفرّاء المتوفى عام ٢٠٧هـ ٠

ذكره : أضداد ابن الدهان ٩١ (لم يصل) ٠

٣ ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى عام ٢١٠هـ ٠

ذكره : الفهرست ٨٠ وانباه الرواة ٣/٢٨٦ ووفيات الاعيان ٤/٣٢٦ ومعجم الادباء ١٩/١٦١ وهدية العارفين ٢/٤٦٦ وايضاح المكنون ١/٩٤ (لم يصل) ٠

٤ ـ عبدالملك بن قريب الأصمعي المتوفى عام ٢١٦هـ[٢٦] ٠

ذكره : الفهرست ٨٢ وانباه الرواة ٢/٢٠٣ ووفيات الاعيان ٢/٣٤٩ وبغية الوعاة ٣١٣ وخزانة الأدب ٤/٥٣٠ وكشف الظنون ١/١١٥ وهدية العارفين ١/٦٢٣ ومعجم المطبوعات ٤٥٧ وتاريخ بروكلمان ٢/١٤٩ والاعلام ٤/٣٠٨ ٠

٥ ـ أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤هـ ٠

ذكره : المزهر ١/٥٨١ ، ٢/٢٤٩ وتاريخ بروكلمان ٢/١٥٨ (لم يصل) ٠

٦ ـ أبو محمد عبدالله بن محمد التوزى المتوفى عام ٢٣٣هـ ٠

ذكره : الكامل ١/٢٥٥ ، ٣/٢٢٨ وفهرسة ابن خير ٣٨٤ وانباه

---

(٢٦) نشره محققا المستشرق الدكتور أوغست هفنر ضمن (ثلاثة كتب في الاضداد) بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩١٣ م ٠

الرواة ٢/١٢٦ والمزهر ١/٣٩٧ وبغية الوعاة ٢٩٠ وهدية العارفين ١/٤٤٠ وتاريخ بروكلمان ٢/١٦٢ وايضاح المكنون ١/٩٤ ومعجم المؤلفين ٦/١٤٣ (لم يصل) .

٧ ـ أبو يوسف يعقوب بن السكيت المتوفى عام ٢٤٤هـ[٢٧] .

ذكره : الفهرست ١٠٨ وفهرسة ابن خير ٣٨٢ ووفيات الأعيان ٥/٣٤٣ ومعجم الادباء ٢٠/٥٢ وخزانة الادب ١/١١ ، ٢/١٤٧ ، ٢/٥٣٠ ، ٤/٧٦ ، ٤/٢٠٠ والذريعة ٢/٢١٤ وهدية العارفين ٢/٥٣٦ وايضاح المكنون ١/٩٤ وتاريخ بروكلمان ٢/٢٠٥ ومعجم المطبوعات ١٢٠ .

٨ ـ أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني المتوفى عام ٢٤٨هـ[٢٨] .

ذكره : الفهرست ٨٧ وانباه الرواة ٢/٦٢ ووفيات الاعيان ٢/١٥٠ ولسان العرب ٧/١٢٦ وكشف الظنون ١/١١٥ وهدية العارفين ١/٤١١ وتاريخ بروكلمان ٢/١٦٠ ومعجم المطبوعات ١٠٠٩ والاعلام ٣/٢١٠ .

٩ ـ عبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفى عام ٢٧٦هـ .

ذكره : مجلة الاقلام السنة الاولى ٤/٩٨ (وهم)

١٠ ـ عبيد (أوعسل) بن ذكوان المتوفى ؟ عاصر المبرّد .

ذكره : الفهرست ٨٩ وايضاح المكنون ١/٩٤ (لم يصل)

١١ ـ أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب المتوفى عام ٢٩١هـ .

ذكره : أضداد ابن الدهان ٩١ وفهرسة ابن خير ٣٨١ (لم يصل).

١٢ ـ أبو بكر محمد بن القاسم الانباري المتوفى عام ٣٢٨هـ[٢٩] .

---

(٢٧) ينظر الهامش السابق .

(٢٨) نشره محققا المستشرق الدكتور اوغست هفنر ضمن (ثلاثة كتب في الأضداد) بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩١٣م .

(٢٩) نشره محققا المستشرق هوتسما في ليدن سنة ١٨٨١م ، والشيخ محمد بن عبدالقادر سعيد الرافعي بمشاركة الشيخ أحمد الشنقيطي في المطبعة الحسينية بمصر سنة١٣٢٥هـ ، ومحمد أبوالفضل ابراهيم في الكويت سنة ١٩٦٠م .

ذكره : الفهرست ١١٢ وانباه الرواة ٣/٢٠٤ ووفيات الاعيان ٣/٤٦٤ ومعجم الادباء ١٨/٣١٢ والوافي بالوفيات ٤/٣٤٤ والمزهر ١/٣٩٧ وبغية الوعاة ٩١ وخزانة الادب ٣/٣٥٦ ، ٤/٧٦ وكشف الظنون ١/١١٥ وتاريخ بروكلمان ٢/٢١٥ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/١٨٢ ومعجم المطبوعات ٤١ والأعلام ٧/٢٢٧ •

١٣ ــ عبدالله بن جعفر بن درستويه المتوفى عام ٣٤٧هـ •

ذكره : تصحيح الفصيح ٨ب ، ٢٥٦ آ والفهرست ٩٤ وانباه الرواة ٢/١١٤ والمزهر ١/٣٩٦ وكشف الظنون ١/١١٥ وهدية العارفين ١/٤٤٦ (لم يصل) •

١٤ ــ أبو الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي المتوفى عام ٣٥١هـ[٣٠] •

ذكره : خزانة الأدب ١/١١ ، ٤/٧٦ وتاج العروس ١/٧ ، ١٠/٤٧٣ وتاريخ بروكلمان ٢/٢٤٣ والأعلام ٤/٣٢٥ •

١٥ ــ الحسن بن بشر الآمدي المتوفى عام ٣٧٠هـ •

ذكره : معجم الادباء ٨/٨٦ وانباه الرواة ١/٢٨٧ وبغية الوعاة ٢١٨ وهدية العارفين ١/٢٧١ وروضات الجنات ٣/٧٥ (لم يصل) •

١٦ ــ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي المتوفى عام ٣٩٥هـ •

ذكره : الصاحبي ٦٧ (لم يصل) •

١٧ ــ أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي المتوفى عام ٤٣٠هـ •

ذكره : مجلة الأقلام السنة الأولى ٤/٩٨ (وهم) •

---

(٣٠) نشره محققا في مجلدين الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٣م •

١٨ ـ سعيد بن المبارك بن الدهان المتوفى عام ٥٦٩هـ[٣١] •

ذكره : معجم الادباء ١١/٢٢١ ووفيات الاعيان ٢/١٢٤ ونكت الهميان ١٥٨ والمزهر ١/٣٩٧ وبغية الوعاة ٢٥٦ وكشف الظنون ١/١١٥ وهدية العارفين ١/٣٩١ •

١٩ ـ أبوالبركات عبدالرحمن بن محمد الانباري المتوفى عام ٥٧٧هـ•

ذكره : الوافي بالوفيات ٢/١٧١ والمزهر ١/٣٩٧ وبغية الوعاة ٣٠١ (لم يصل) •

٢٠ ـ أبوالفضائل الحسن بن محمد الصغاني المتوفى عام ٦٥٠هـ[٣٢] •

ذكره : تاريخ ثغر عدن ٢/٥٤ والمزهر ١/٣٩٧ وبغية الوعاة ٢٢٧ والجواهر المضيّة ١/٢٠٢ وفروق اللغات ١٩٠ وكشف الظنون ١/١١٥ وروضات الجنات ٣/٩٤ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/٥٠ والأعلام ٢/٢٣٢ •

٢١ ـ عبدالرحمن بن محمد بن ابراهيم العتائقي المتوفى عام ٧٩٠هـ•

ذكره : الذريعة ٢/٢١٤ (لم يصل)

٢٢ ـ محمد بن أحمد بن شرف‌الدين المدني المتوفى عام ٩٠٤هـ[٣٣] •

ذكره : مجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ •

٢٣ ـ تقي‌الدين عبدالقادر التميمي‌المصري المتوفى عام ١٠٠٥هـ[٣٤] •

---

(٣١) نشره محققا الشيخ محمد حسن آل ياسين ضمن المجموعة الاولى من (نفائس المخطوطات) في النجف ١٩٥٢م • وأعاد طبعه في بغداد ١٩٦٣م •
(٣٢) نشره محققا اوغست هفنر ضمن (ثلاثة كتب في الاضداد) على شكل (ذيل) بيروت ١٩١٣ م •
(٣٣) مخطوط بمكتبة السليمانية بالاستانة رقمه (١٠٤١) •
(٣٤) وهو مختصر كتاب الأضداد لابن الانبارى •

ذكره : كشف الظنون ١/١١٥ ومعجم المؤلفين ٥/٢٨٥ (لم يصل) •

٢٤ ـ ملا حسن بن تقي الدين عبدالقادر التميمي المصري المتوفى عام ؟ [٣٥] •

ذكره : كشف الظنون ١/١١٥ (لم يصل) •

٢٥ ـ عبدالهادي نجا بن رضوان نجا المصري الابياري المتوفى عام ١٣٠٥هـ [٣٦] •

ذكره : تاريخ آداب اللغة العربية ٤/٢٢٧ ومعجم المطبوعات العربية ٣٦١ ومعجم المؤلفين ٦/٢٠٣ وفهرس دار الكتب المصرية ٧/٧ •

٢٦ ـ عبدالهادي الابياري (السابق) [٣٧] •

ذكره : مجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ (لم يصل) •

٢٧ ـ أحمد بن أحمد بن اسماعيل الحلواني الخليجي المتوفى عام ١٣٠٨هـ [٣٨] •

ذكره : فهرس دار الكتب المصرية ٧/١٢ وفهرس المخطوطات المصورة ١/٣٦٤ •

٢٨ ـ محمد بن سليمان بن محمد التنكابني المتوفى قبل عام ١٣٢٠هـ •

ذكره : الذريعة ٢/٢١٤ • (لم يصل) •

٢٩ ـ عبدالله بن محمد المتوفى عام ؟ [٣٩] •

ذكره : مجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ •

---

(٣٥) وهو ترتيب المختصر السابق على حروف الهجاء •
(٣٦) مصور بدار الكتب المصرية رقمه ٨٤٤ لغة ، باسم (دورق الأنداد في أسماء الاضداد) •
(٣٧) كتاب ثان باسم (الرونق على الدورق) وهو شرح كتابه السابق •
(٣٨) مصور بدار الكتب المصرية رقمه ٨٤٤ لغة ، باسم (الكأس المروق على الدورق) وهو شرح لكتاب دورق الانداد للابياري •
(٣٩) مخطوط بدار الكتب المصرية رقمه ٢٤١ مجاميع ، باسم (رسالة في ذكر بعض الالفاظ المستعملة في الضدين الموجودة في القاموس) •

٣٠ ـ مؤلف مجهول(٤٠) .

ذكره : مجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ .

٣١ ـ مؤلف مجهول(٤١) .

ذكره : مجلة المورد ١/١٥٧ (وهم) .

هذا ما استطعنا الوقوف عليه من الكتب المصنفة في الأضداد ، جاهدين أن يكون استقراؤنا شاملا لكل ما ألف في هذا الموضوع قديما وحديثا . وترتيبنا هذه الكتب حسب وفيات مؤلفيها كفانا مغبة الحيرة التي تحدث من جراء ذلك ، لأننا لا نستطيع بحال أن نحدد زمن تأليف الكتاب في حياة المؤلف ليكون الترتيب حينئذ أقرب الى الدقة وألصق بالصواب ، وما دمنا لا نقدر على ذلك لجأنا ـ وهذا ما يحدث غالبا ـ الى ترتيبنا الذي رتبناه بالرغم من مساوئه ، ففي الوقت الذي ندّعي أن قطربا أول من ألّف في الأضداد نظرا الى أولية وفاته بالقياس للآخرين ، فقد نكون مخطئين في هذا الزّعم حين يكون المؤلف الذي توفي بعده قد سبقه الى التأليف في الاضداد اذا كانا قد تعاصرا في طور من حياتهما . ومع ذلك فقد لقيت هذه الطريقة في التسلسل الزمني قبولا لدى الباحثين القدماء والمحدثين .

وأشرنا في هذه القائمة الى المطبوع منها والمفقود والمخطوط والذى حصل وهم في ذكره ، فأما المطبوع فنحن دارسوه في قابل الصفحات مع ما وصل الينا من آراء مؤلفي الكتب المفقودة القديمة التي حفلت بها كتب الاضداد التي وصلت وكتب اللغة ومؤلفاتهم الاخرى ، لتكون آراء كل منهم هي نواة كتابه الضائع ومنها نستطيع الوقوف على منهجه وفهمه وطريقته

---

(٤٠) مخطوط بدار الكتب المصرية رقمه ٣٢٩ لغة ، باسم (منبه الرقاد في ذكر جملة من الاضداد) .

(٤١) مخطوط في مكتبة جستر بيتي في دبلن رقمه ٣١٦٥ مجموعة ، باسم (أضداد آي القرآن) .

في معالجة الأضداد • وأما الكتب المخطوطة فكلها متأخرة وحديثة ولا نستطيع أن نتبيّن تطور الدراسة فيها لجهلنا بمؤلفيها ومكانتهم العلمية ودورهم في الدرس اللغوي الا القليل النادر منهم الذى لا يعدو كتابا أو كتابين ، ككتاب الشيخ محمد المدني المخطوط في الاستانة الذى لم نوفق في الحصول على صورة منه لصعوبة المهمة ، وكتابي الابياري والخليجي في القاهرة ، الذين لم نوفق أيضا في الحصول على صورتيهما لوجود بعض العقبات في التنسيق بين دار الكتب ومعهد المخطوطات ، لذا فلا نعرض لأكثر من ذكر ترجمة مختصرة لمن استطعنا أن نحصل له على ترجمة في بعض المراجع الحديثة • تبقى الكتب التي حصل الوهم في ذكرها ، وهي كتابا ابن قتيبة والثعالبي وكتاب أضداد آي القرآن المجهول المؤلف • فسنعرض لها أثناء الحديث عن كتب الاضداد ونبين وجه الوهم فيها •

رواية الاضداد

عندما شافه اللغويون الأوائل أعراب البادية ، وسمعوا منهم لغتهم ولهجاتهم وأساليبهم ، عادوا يروون لتلاميذهم في الأمصار ما سمعوا ، وربما كانوا قد دونوا أشياء كثيرة من ذلك(٤٢) • لذا كان اللغويون الأوائل هم الروّاد الحقيقيون للغة وحفظتها الأمناء ، فاذا سمعوا لفظا غريبا سألوا الناطق عن معناه ، واذا لفت انتباههم استعمال خاص حفظوه أو دوّنوه ، واذا استغربوا من استعمال العرب كلمة تنصرف الى المعنى وضدّه حفظوا ذلك ليرووه دهشين متعجبين ، كما فعل الخليل مثلا حين نقل في العين غرابته لضديّة (الشعب) التي تعني الجمع والتفريق في آن واحد(٤٣) ، وهكذا سائر ما يطفح به بحر اللغة الزاخر • حتى اذا سمع التلاميذ من

---

(٤٢) ينظر : رواية اللغة للشلقاني ص ٣٣٣ ـ ٣٤٠ وعبقري من البصرة ص ٥٨ ـ ٥٩ •

(٤٣) العين ص ٣٠٦ •

هؤلاء الاساتذة الرواة ، راحوا ينقلون ما سمعوا ويدوّنون ويحاولون زيادة معلوماتهم في كل باب من أبواب اللغة ، فاذا عنّ لأحدهم أن يضع كتاباً في باب من هذه الأبواب فعل ذلك مضيفا من عنده أشياء ربما كانت صحيحة وربما كانت مصطنعة للمكاثرة والافتخار ، الجدوى منها بيان القدرة والحافظة الواسعة والاستيعاب • لهذا كانت الرواية في أول الامر مقتصرة على ألفاظ قليلة في كل موضوع لا تعدو الشوارد والنوادر وبعض الغريب ، وهو ما حفلت به كتب الامالي والنوادر الاولى ، التي رأينا مثلها عند أبي زيد واليزيدي وابن الاعرابي وغيرهم ، وفي أثنائها التقاطات من هنا وهناك من أفواه الاعراب منقولة عنهم مشافهة أو عمّن سمعها منهم وشافههم كأبي عمرو بن العلاء والاموي وأبي عمرو الشيباني وأبي زياد الكلابي وآخرين • ثم طوّرت رغبة بعضهم هذا النمط من جمع اللغة الى كتب مستقلة في باب واحد من أبواب الألفاظ المروية ـ كما مرّ في استعراضنا لتاريخ التصنيف في اللغة ـ كالذي حصل في ألفاظ الاضداد التي رويت طائفة منها على لسان أبي عمرو بن العلاء والخليل وأبي زيد الانصاري وسواهم من أوائل الرواة اللغويّين • فظهرت كتب الاضداد تتوالى واحداً بعد واحد منذ أواخر القرن الثاني في حياة قطرب الى القرون المتأخرة ، وكلها معنيّ بجمع هذه الألفاظ وشرحها مروية عمن نقلها أو رواها أو سمعها ، مع ملاحظة أن التالي الذي يتصدّى للتأليف في هذا الميدان لابد له من أن يأتي بجديد لم يكن في كتاب سابق ، سواء كان هذا الجديد في عدد الألفاظ التي وصل عديدها عند بعضهم مئات بعد أن لم تكن سوى بضع مفردات أيام الخليل ، أو بتفسير جديد أو شاهد جديد ، أو أن المنهج الذي يلتزمه المؤلف يفرض أشياء أخر ، لهذا كان بعض هذه الكتب بمثل هذه الضخامة والسعة ، لحاظا لاحدى تلك العوامل أو جميعها معا •

انهم ان رواية الأضداد ظلت مستمرة ، وهي ان لم تكن رواية ألفاظ

فرواية كتاب كامل في الأضداد ، يقرؤه التلميذ على الاستاذ ويرويه ، ومن أقرب الامثلة الى ذلك ما فعله ابن خير الاشبيلي في فهرسته الذي سجل فيه الكتب التي رواها عن اساتذته وشيوخه ذاكرا أسانيدها وسلسلتها، ومنها كتب الأضداد . فهو يروي كتاب (الاضداد) لثعلب عن شيخه أبي عبدالله محمد بن سليمان النفزى عن خاله الاديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء عن أبي بكر الزبيدي عن أبي علي البغدادي عن أبي عمر عبدالواحد المطرّز عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب[٤٤] ، وهكذا بالنسبة لأضداد ابن السكيت[٤٥] ، وأضداد التوزى[٤٦] ، وهذه الطريقة كانت متبعة في الرواية في تلك الحقبة من الزمن على صعيد واسع .

ولو لاحظنا قائمة مؤلفي الأضداد لوجدنا أن كثيرا من الذين رووا لنا ألفاظ الاضداد في مصنفاتهم وكتبهم أو الذين ألّفوا كتبا خاصة فيها ، قد ورثوها عن أساتذتهم وأورثوها لتلاميذهم ، فالفرّاء الذي ورث شذورا من ألفاظ الأضداد عن استاذه الكسائي فوضع كتابه في (الاضداد) ، قد أورث تلاميذه وتلاميذهم أمثال ثعلب وابن السكيت وأبا عبيد القاسم ابن سلام الرغبة في وضع كتبهم في الأضداد ، التي وصلنا بعضها وضاع الآخر ، والأصمعي كذلك روى عن أبي عمرو بن العلاء شوارد من ألفاظ الأضداد في كتابه ، ثم يؤلف تلميذه التوزى كتابا في الأضداد أيضا ، فيؤلف عبيد بن ذكوان تلميذ التوزى كتابا في الموضوع نفسه كذلك[٤٧]، وربما تكون هناك طفرة بين المؤلف والمؤلف ، حين يكون بينهما راو

---

(٤٤) فهرسة ابن خير ص ٣٨١ .
(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٨٢ .
(٤٦) المصدر نفسه ص ٣٨٤ .
(٤٧) على خلاف في ذلك سنعرض له عند ترجمة عبيد هذا .

يروي عن الاول شفاها ليضع تلميذه الكتاب المدون • كما هو الأمر بالنسبة لثعلب فقد روى عنه أبو عمر الزاهد ولم يؤلف ولكن أبا الطيب اللغوي تلميذ أبي عمر ألّف في الأضداد ، وروى عن ثعلب أيضا أبوموسى الحامض ولم يؤلف ولكن الحسن بن بشر الآمدي تلميذ الحامض ألّف في الأضداد ، وروى عن ثعلب كذلك أبو بكر أحمد بن الحسن الخطيب المعروف براوية ثعلب ولكنه لم يؤلّف ليدع الأمر لتلميذه أحمد بن فارس ، وهكذا سائر المؤلفين الذين ان لم يكن من بين أساتذتهم من تصدّى لوضع كتاب في الأضداد ، فهم واجدوه عند أساتذة أساتذتهم أو من هم أبعد من ذلك ، كالذي حصل لأبي البركات الانباري الذي أخذ عن ابن الشجري وهذا عن ابن طباطبا العلوي وهذا عن علي بن عيسى الربعي وهذا عن أبي علي الفارسي وهذا عن ابن السراج الذي يلتقي عنده أخذ آخر ، اذ هو استاذ علي بن عيسى الرماني الذي أخذ عنه ابن الدّهان أحد مؤلفي الأضداد •

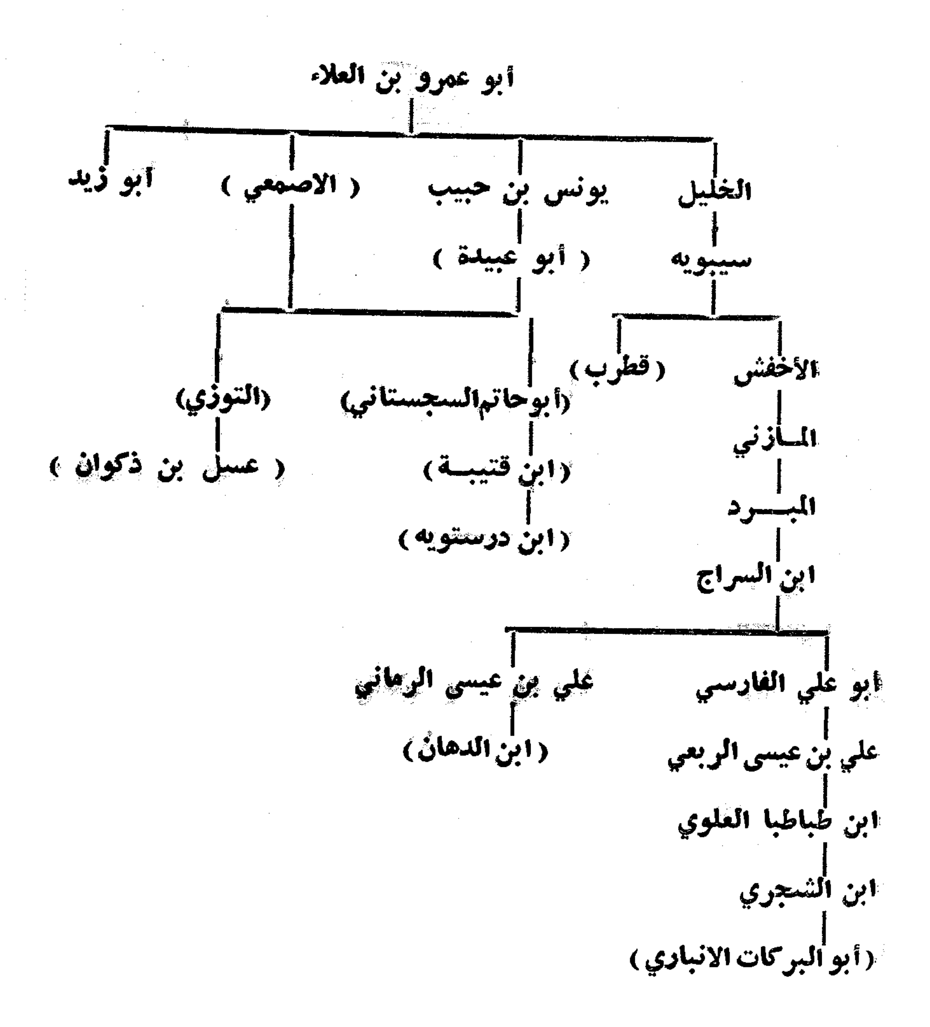
وربما تحسسنا شيئاً مهماً في دراسة الرواية هذه ، هو بروز ملامح مدرسية قد تكون في بعض جوانبها واضحة جليّة ، ذلك أننا نعرف أن منهج الدرس اللغوي بصورة عامة مختلف بين البصريين والكوفيين ، وأجلى ما يكون هذا الاختلاف في النحو ، ولا حاجة بنا الى ذكر هذا الامر فهو معروف لدى دارسيه ، الا أن الذي نريده هنا هو وضوح الاختلاف المنهجي في اللغة والتأليف في مفرداتها ومعانيها ، اذ من المعروف أن الكوفيين أهل رواية ونقل يعتمدون الشاهد اعتماداً كبيراً ، ويأخذون باللهجات أخذاً واسعاً ويحترمون النص ، وليس من دأبهم في الدرس أن يتمنطقوا أو يتفلسفوا ، في حين كان البصريون على عكس هذا ، فعنايتهم بالشواهد أقل ، وربما قاسوا فلا يحتاجون الى الشاهد ، كما أن احترامهم للنقل والرواية ليس كما يفعل الكوفيون ، ومن هنا كانت كتب الكوفيين في

الأضداد كبيرة واسعة لما حفلت به من شواهد قرآنية وشعرية ونثرية كثيرة ، ولما عنيت به من رواية واسعة واهتمام باللهجات وذكر القليل والنادر ولتوسعها في الجمع والاستقصاء وما الى ذلك ككتابي ابن الانباري وأبي الطيب اللغوي مثلا ، فالأول درس على ثعلب مباشرة ، والثاني على أبي عمر الزاهد تلميذ ثعلب ، وبالمقابل نجد كتب البصريين مختصرة قليلة الشواهد غير معنيّة بلهجات العرب بقدر عنايتها بتسجيل اللفظ والنص على معنييه المتضادين من غير توسع ولا استقصاء ، من مثل كتب قطرب والأصمعي وأبي حاتم • ورب من يقول ان هؤلاء الذين ذكرتهم على أنهم يمثلون المنهج البصري في تأليفهم في الأضداد ما هم الا روّاد هذا الميدان والبادئون في شوطه ، فلابد أن تكون الريادة والبداية أضيق مما أصبح عليه الحال أيام ابن الانباري وأبي الطيّب • وهذا صحيح لو لم يكن هـذا المنهج البصري ممتداً الى ما بعد ابن الانباري وأبي الطيب ، فهو حينئذ منهج تفرضه طبيعة الدراسة العقلية المبنيّة على القياس المبتعدة عن النقل والرواية والاهتمام باللهجات ، قلت انه منهج ممتد ، فهذا ابن الدهّان في القرن السادس لا يسجل في أضداده سوى الالفاظ وما يقابلها من معان متضادة ، من غير تعليق او شاهد أو رواية محيلا ذلك الى كتب « الكبار من العلماء » أمثال الفراء وثعلب وابن الانبارى وغيرهم ، وابن الدهّان بصرى الدّرس والتعليم فهو تلميذ علي بن عيسى الرمّاني وهذا تلميذ ابن السرّاج الذى درس على المبّرد شيخ البصريين في زمانه •

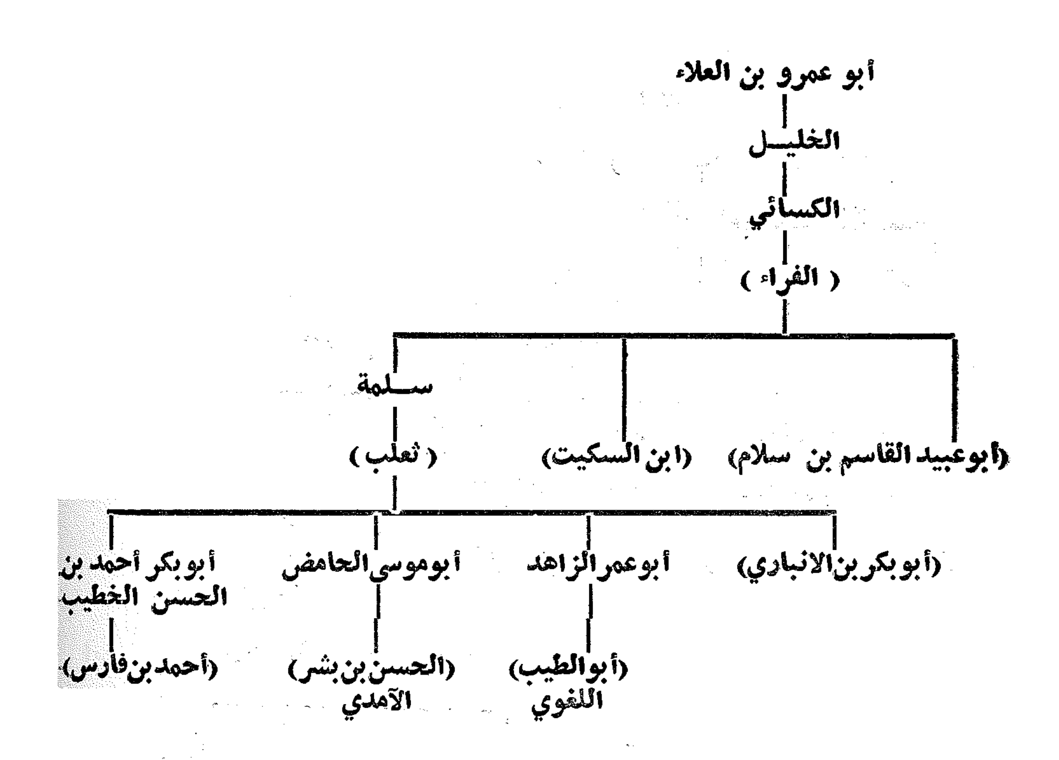
ولتوضيح ما ذهبنا اليه في هذه الدراسة صنعنا شجرة للرواية البصرية للاضداد واخرى للرواية الكوفية ، وثالثة جمعنا بها الروايتين لنتبيّن بها رواية الاضداد بشكل عام • ونرجيء التعليق على الكتب وبيان الملاحظات الخاصة بالتصنيف والتبويب والعمل والمنهج الى مكانه من كل كتاب ، ولا يفوتني أن أذكر أنني لم أستطع أن أجد نسبا في شجرة الرواية

وصلة بها لاثنين من مؤلفي الاضداد القدماء هما الثعالبي[48] والصغاني ـ لبعد الاول عن مواطن الدرس اللغوى وحواضره واقامته في بلاد فارس ، ولعدم معرفتنا انه أخذ عن غـير أبي بكـر الخوارزمي . ولبعـد زمـان الصَّغاني عن رواة الاضداد وأساتذة اللغة فقد توفي سنة ٦٥٠هـ ، ولجهلنا بأحوال استاذيه المرغيناني وابي الفرج الحصرى .

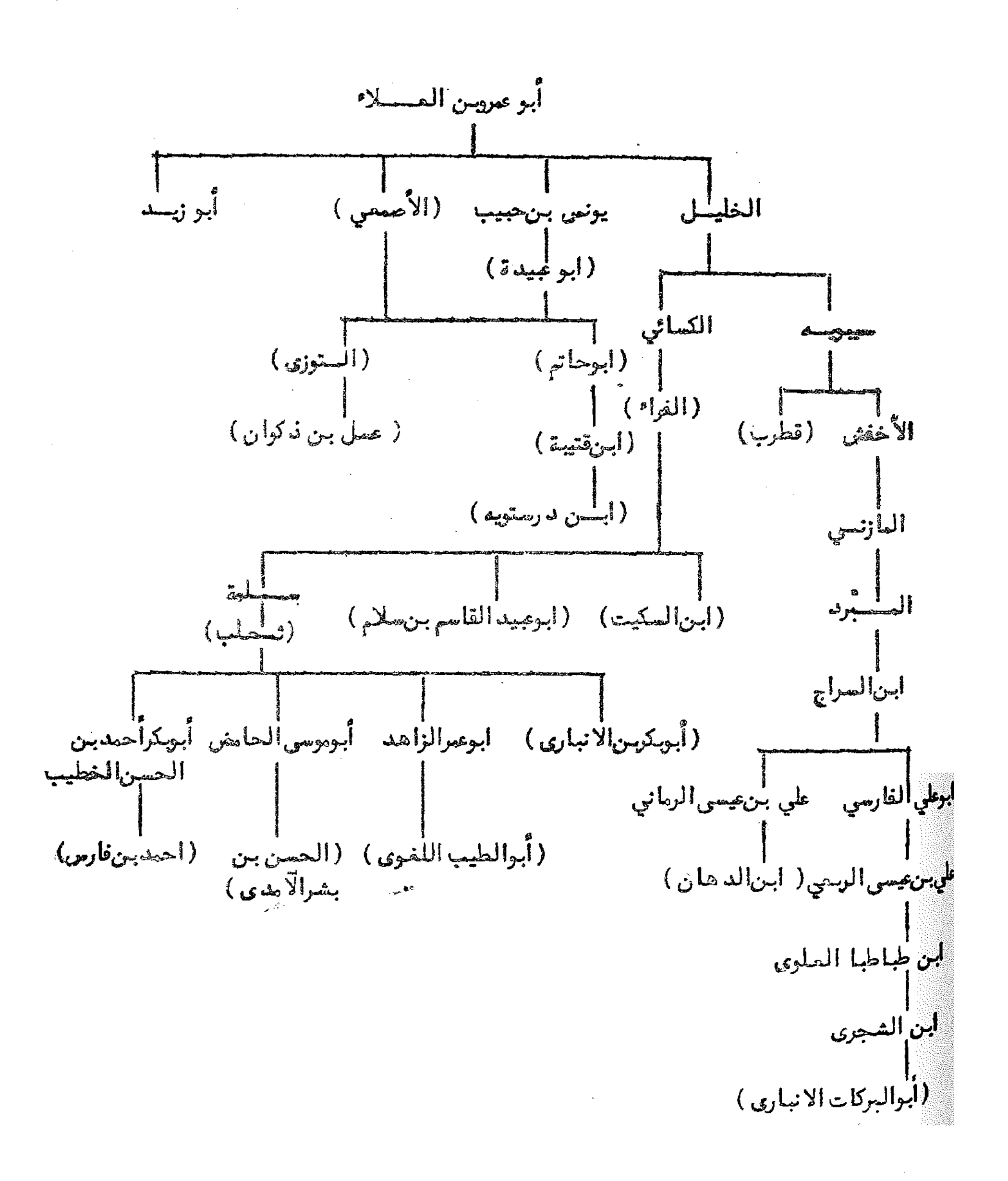
(٤٨) على ان لنا رأيا في الكتاب الذي نسب اليه في الاضـداد سنذكره في الحديث عنه .



« شجرة الرواية البصرية للأضداد ، وقد وضعنا مؤلفي كتب الأضداد منها بين قوسين للتوضيح » .



« شجرة الرواية الكوفية للأضداد ، وقد وضعنا مؤلفي كتب الأضداد منها بين قوسين للتوضيح »



« شجرة رواية الأضداد العامّة ؛ وقد وضعنا أسماء مؤلفي كتب الأضداد بين قوسين للتوضيح » .

الفصل الثاني

دراسة كتب الأضداد



كتـــاب قطـرب

المؤلف هو أبو علي محمد بن المستنير البصري المعروف بقطرب[1]، من علماء اللغة والنحو ، أخذ عن عيسى بن عمر والخليل ويونس بن حبيب وسيبويه وجماعة من البصريين ، وسيبويه هو الذي لقبه بقطرب لمباكرته له في الأسحار ، قال له يوما : ما أنت الا قطرب ليل . ولد بالبصرة وكان مولى لسالم بن زياد فيها ، وعندما قدم بغداد نصبه الرشيد مؤدبا لابنه الأمين ، ثم لما أبعده الرشيد نصبه أبو دلف العجلي صاحب الكرخ مؤدبا لأولاده .. وسمع منه في بغداد أشياء من مؤلفاته وتصانيفه ، وروى عنه محمد بن الجهم السمري . وقد اتهمه في روايته عن العرب أبو زيد وابن السكيت وثعلب وابو عمر الزاهد والزجاج ونهج نهجهم الأزهري في التهذيب ، في حين وثّق روايته القفطي في الانباه ، والظاهر أنهم لحظوا مذهبه الديني وما يمكن أن يفرضه عليهم من حسن الظن وسوئه .

هو أول من وضع المثلث في اللغة ، وكتابه على صغره له فضيلة السبق كما يقول ابن خلكان ، وهو كذلك أول من ألّف في الأضداد على ما يظهر ، وله غير هذين الكتابين ـ المثلثات والأضداد ـ كتب كثيرة منها : النوادر ، الصفات ، الأصوات ، الهمز ، خلق الانسان ، خلق الفرس ، اعراب القرآن ، مجاز القرآن ، وغير هذا مما حفلت بذكره المصادر

---

(1) تراجع ترجمته في : أخبار النحويين البصريين ٣٨ وطبقات النحويين واللغويين ١٠٦ ومراتب النحويين ٦٧ وتهذيب اللغة ١ / ٣٠ والفهرست ٧٨ ونزهة الالباء ٦٠ وانباه الرواة ٢١٩/٣ وتاريخ بغداد ٢٩٨/٣ ووفيات الاعيان ٤٣٩/٣ ونور القبس ١٧٤ ومعجم الادباء ٥٢/١٩ والوافي بالوفيات ١٩/٥ والنجوم الزاهرة ١٨١/٢ والمزهر ٤٠٥/٢ وبغية الوعاة ١٠٤ وشذرات الذهب ١٥/٢وتاريخ بروكلمان ١٣٩/٢ والكنى والالقاب٦٠/٣ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢ / ١٢٥ والأعلام ٧ / ٣١٥ والمدارس النحوية ١٠٨ .

والفهارس القديمة ، توفي سنة ست ومائتين هجرية .

أما كتابه (الاضداد) المنشور في مجلة اسلاميكا [٢] ، فقد ترجمه المحقق هانس كوفلر في المجلد نفسه وعلّق عليه ودرسه (ص ٣٨٥ - ٤٦١) باللغة الالمانية . وسألتزم عند ارجاعي الى نص في الكتاب أن أذكر الصفحة التي هو عليها من المجلة تيسيرا للرجوع اليه .

يبدأ قطرب كتابه بمقدمة قصيرة يقسم فيها كلام العرب على ثلاثة اقسام كالذى فعله سيبويه في كتابه [٣] ، فالأول اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، والثاني اختلاف اللفظين والمعنى متّفق ، والثالث أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، ويضرب لكل واحد من هذه الأقسام الامثلة من لغة العرب [٤] ، ويعتبر الأضداد من النوع الثالث الذى يكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا [٥] ، حيث يقول : « ومن هذا اللفظ الواحد الذى يجيء على معنيين فصاعدا مايكون متضادا في الشيء وضدّه ، وسنأتي عليه كلّه ان شاء الله » [٦] . ثمّ يبين سبب العناية بالأضداد والتأليف فيها فيقول : « وانّما خصصناه بالاخبار عنه لقلّته في كلامهم ولظرافته » [٧] . اذن فالدافع الى التأليف هو الجمع المستقصي لانه قليل في لغة العرب ، ولأن وجوده في لغتهم دليل ظرافة .

وأول ألفاظ الأضداد التي ذكرها (عسى) معتبرا مجيئها يقينا مرة وشكا أخرى ، مستشهدا على المعنى الأول بالقرآن ، وينقل عن ابن عباس أنها في كتاب الله واجبة ، ويدعم ذلك بقول ابن مقبل : ظَنٍّ بهم

---

(٢) المجلد الخامس - العدد الثالث ١٩٣١ م .
(٣) كتاب سيبوية ١ / ٧٠.
(٤) قطرب ٢٤٣ .
(٥) قطرب ٢٤٣ .
(٦) قطرب ٢٤٤ .
(٧) قطرب ٢٤٤ .

كَعَسَى •• الى آخر البيت [٨] ، ومثل عسى لفظة (الظَنّ) التي قال انها تكون شكا ويقينا بشواهد من القرآن والشعر ، والظاهر أن احترام المعنى القرآني الذى يفترض أن يكون هو المقصود في الآية ، هو الذى يسوق قطربا الى تقرير ضدية (الظَنّ) مثلا في الآيـة : (ظننتُ أَنّي مُلاقٍ حِسابِيَه) ، فيقول : « فهذا يقين ولو كان ذلك شكا لم يجز في المعنى وكان كفرا ولكنه يقين » [٩] ، فتوجيه المعنى بهذه الصورة يفرضه شيء آخر غير الدلالة وغير اللّغة ، هو الخوف من أن يكون تفسير (الظن) بالمعنى المعروف خروج عن مقصود القرآن فيكون كفرا ، في حين يوجد في الظن مقدار كبير من اليقين ، وهو المرحلة التي تسبق اليقين مباشرة لأن الظن ترجيح ، وان قطربا وغيره قد فهموا الظن شكا محضا ، وهو خلاف استعمالات العرب لهذه اللفظة ، فما دام الأمر هكذا فلا بأس أن يستعملها القرآن بهذا المعنى وهو يقصد ايمانا قريبا من اليقين في لقاء الحساب • ومثل هذا يقال في (عَسَى) وغيرها من ألفاظ القرآن التي توهّموا ضدّيتهـا بوحي من المعنى القرآني المفترض •

•

والأكثر في منهج الكتاب أن يذكر قطرب اللفظة ومعنييها المتضادين وما يتفرع عنهما من مشتقات ، حتى يستوفي كل مايخص هذه اللفظة ثم يشرع بذكر الشواهد والأمثلة الخاصة بكل معنى أوكل استعمال • قلت : الأكثر هذا ، لانه لم يلتزم به في كل الألفاظ ، فقد يبدأ احيانا بذكر معان غير متضادة ، او معنى تنصرف اليه اللفظة ليس له علاقة بمعنييها المتضادين، ففي (النَّهِيك) ذكر الى جانب معنييها المتضادين القوة والضعف معنى

---

(٨) قطرب ٢٤٤ •

(٩) قطرب ٢٤٤ • ونقل كلام قطرب في عسى وظنّ وآراء العلماء فيها في خزانة الادب ٤ / ٧٦ •

ثالثا هو (الشّجاع) وتكلم عليه [١٠] ، أو أنه يخلط لفظتين من ألفاظ الأضداد بعضهما في الكلام عليهما ، وقد لايذكر في لفظ الضدّ الاّ معنى واحدا كما في (الغَموز) وهي النّاقة التي لاتدّر حتى يغمز ضرعها ، ولم يذكر لها معنى مضادا[١١] ، ومثله في (ظَؤور) وهي الناقة التي تعطف على ولد غيرها ، ولم يبّين وجها آخر تنصرف اليه [١٢] ، وهكذا جملة من الألفاظ في كتابه .

ويذكر الألفاظ التي على صيغة (فعول) والتي تنصرف الى الفاعل والمفعول ، وينص في آخرها على انها للفاعل والمفعول جميعا مثل (الرّغوث) وهي الناقة التي يرغثها ولدها فهي مرغوثة ، والولد رغوث أيضا فهو راغث لها ، يقول : « فصار رَغوث للمفعول والفاعل » [١٣] ، ومثلها (ذَعور) [١٤] ، و (فَجوع) [١٥] ، وغير ذلك ، ويستمر في ذكر صيغة (فعول) التي هي للفاعل والمفعول حتى يصل الى قوله : « وقد جاؤا بفاعل في معنى مفعول ضدا » [١٦] ، ويذكر من هذا : سرٌ كاتم أي مكتوم ، وأمر عارِف أي معروف ، وما أنت بحازِم عقل أي مَحْزوم ، وتَطْليقة" بائِنَة أي مبانة ، وعيشَة راضِية أي مَرضيّة[١٧] ، الى آخر ماذكر في هذا الباب . ومن العجيب أنه مع اعترافه الضمني أن المسألة لاتعدو أن تكون صورة من صور العوارض التصريفية المحضة ، فهو يعتبر مجموع هذه الالفاظ من الاضداد .

---

(١٠) قطرب ٢٥٤ .
(١١) قطرب ٢٤٩ .
(١٢) قطرب ٢٤٩ .
(١٣) قطرب ٢٤٩ .
(١٤) قطرب ٢٤٩ .
(١٥) قطرب ٢٤٩ .
(١٦) قطرب ٢٥٠ .
(١٧) قطرب ٢٥٠ .

وكان منهجه في الاستشهاد مضطربا ، ذلك أنه في مواطن كثيرة لم يستشهد بشيء على كلا المعنيين كما في لفظ (البَعْل) لما سقت السّماء ولما يشرب بعروقه [18] ولفظ (البُحْتُر) للقصير والعظيم [19] ، أو أنّه يستشهد على أحد المعنيين ويترك الآخر بلا استشهاد كما في لفظ (السَّليم) للسليم والملدوغ ، فلم يستشهد الاّ للملدوغ [20] ، وربما كان له الحق في هذا ، فالمعنى الأول هو الشائع الذي تنصرف اليه الكلمة أول الأمر في أذهان النّاس ، فلم ير حاجة لتأييد هذا المعنى بالاستشهاد ، ومثل ذلك (النّاهِل) للراوى والعطشان و (هَجَد) لمن نام وسهر ، وسواها من الألفاظ . الاّ أن الكثير في المسألة أن يستشهد على كلا المعنيين وربما كان استشهاده على كل منهما بأكثر من شاهد ، وشواهده تتنوع بين آيات القرآن الكريم والشعر العربي الجاهلي والاسلامي ، والامثال والاقوال المأثورة ، والكتاب طافح بكل هذا .

وللتنظيم في كتابه وضوح وظهور ، فقد رتّب ـ كما أشرنا ـ الألفاظ التي تكون على صيغة (فَعول) التي تنصرف للفاعل والمفعول ترتيبا متسلسلا ووضعها في موضع واحد ، وهي تسع وعشرون لفظة ، قال في آخرها : « هذا كله الذى ذكرنا أضداد على فاعل ومفعول » [21] ، ومثل هذا رتّب الألفاظ التي على صيغة (فاعل) والتي تعني المفعول ، وهي احدى عشرة لفظة ، وختمها بمثل ختامه السابق . الاّ أنه لم يلتزم مثل هذا التنظيم في الألفاظ التي على صيغة (فعيل) التي تنصرف للفاعل والمفعول ، وهي ستة ألفاظ مفرقة في الكتاب وهي : النَّهيك [22]

---

(18) قطرب ٢٥٢ .

(19) قطرب ٢٥٢ .

(20) قطرب ٢٤٨ .

(21) قطرب ٢٥٠ .

(22) قطرب ٢٥٤ .

الأمين[٢٣] ، الغريم[٢٤] ، البصير[٢٥] ، الصريم[٢٦] ، التبيع[٢٧] .

روى قطرب في أضداده عن جماعة من اللغويين الرواة ، منهم من درس عليه وأخذ عنه ، ومنهم من عاصره ولم يأخذ عنه ، هم : يونس بن حبيب ، ذكره في (الزجور)[٢٨] ، و (الرغوث)[٢٩] ، و (الطعوم)[٣٠] . وأبو عمرو بن العلاء ، ذكره في (همد)[٣١] ، و (الأسفى)[٣٢] . والأصمعي ، ذكره في (عسى)[٣٣] ، و (الظن)[٣٤] ، و (عفوت)[٣٥] ، و (أعبل)[٣٦] . وأبو عبيدة ، ذكره في (الظن)[٣٧] ، و (عفوت)[٣٨] و (بيضة البلد)[٣٩] . وأبو عمرو الشيباني ، ذكره في (العنوة)[٤٠] . والكلبي ، ذكره في (فوقها) من قوله تعالى : (مثلاً ما بعوضةً فما فوقها)[٤١] . ورجع في تفسير بعض

---

(٢٣) قطرب ٢٥٥ .
(٢٤) قطرب ٢٥٥ .
(٢٥) قطرب ٢٥٦ .
(٢٦) قطرب ٢٧٣ .
(٢٧) قطرب ٢٨٥ .
(٢٨) قطرب ٢٤٩ .
(٢٩) قطرب ٢٤٩ .
(٣٠) قطرب ٢٥٠ .
(٣١) قطرب ٢٤٧ .
(٣٢) قطرب ٢٧٢ .
(٣٣) قطرب ٢٤٤ .
(٣٤) قطرب ٢٤٤ .
(٣٥) قطرب ٢٦٢ .
(٣٦) قطرب ٢٧٠ .
(٣٧) قطرب ٢٤٤ .
(٣٨) قطرب ٢٦٢ .
(٣٩) قطرب ٢٦٥ .
(٤٠) قطرب ٢٧٣ .
(٤١) قطرب ٢٧١ .

الآيات الكريمات الى ابن عباس ، من مثل رجوعه اليه في (مثلا ما بعوضة فما فوقها)[٤٢] ، و (صُرْهنّ)[٤٣] ، و (ولكل وجهة هو مُولّيها) [٤٤] ، و (عَسى) ووجوبها في القرآن [٤٥] ، و (أسْرَرْتُ)[٤٦] ، و (عَسْعَسَ)[٤٧] وفي أماكن اخرى كثيرة ، كما ذكر أن قراءة ابن مسعود في (صِرْهُن) كسر الصاد[٤٨] . وذكر من الأعراب الذين استشهد بعربيتهم أبا طفيلة الحرمازى في الكلام على (ذَعور) [٤٩] ، وأبا عون الحرمازى في الكلام على (المفرط) [٥٠] ، والحرمازى نسبة الى حيّ من تميم ، وأبا خيرة العدوى في الكلام على (صُرْهن)[٥١] .

والتفت قطرب الى اللهجات فذكرها مرجعا اليها في بعض ألفاظ الاضداد معاني هذه الألفاظ ، كما في (السّامِد) فهو بلغة طيء الحزين وبلغة أهل اليمن اللاهي[٥٢] ، و (الجَوْن) في لغة قضاعة الأسود وفيما يليها الابيض[٥٣] ، و (وَثَب) في لغة حمير بمعنى قعد [٥٤] ، وفي (النّاهِل) نقل عن هذيل[٥٥] ، و (المُعْصر) في لغة قيس وأسد التي

---

(٤٢) قطرب ٢٧١ .
(٤٣) قطرب ٢٧١ .
(٤٤) قطرب ٢٧٢ .
(٤٥) قطرب ٢٤٤ .
(٤٦) قطرب ٢٥٢ .
(٤٧) قطرب ٢٦٦ .
(٤٨) قطرب ٢٧١ .
(٤٩) قطرب ٢٤٩ .
(٥٠) قطرب ٢٦٣ .
(٥١) قطرب ٢٧١ .
(٥٢) قطرب ٢٤٥ .
(٥٣) قطرب ٢٥٦ .
(٥٤) قطرب ٢٦٤ .
(٥٥) قطرب ٢٥٣ .

دنت من الحيض وفي لغة الأزد التي ولدت أو تضنست [٥٦] ، وذكر اللغات في النطق ، مثل قوله في (خَفَيتُ) وقد ذكر الشاهد : فان تكْتُموا الداءَ لانُخفه : « ويروى لانَخْفِه وهي لغة يمانية في نُخْفه » [٥٧] ، وصار صيـــورا وهي لغـــة بني سليم [٥٨] ، ومثلهـــا في (خِفْتُ) [٥٩] ، و (التَّهيك) [٦٠] ، و (الحَزَوَر) [٦١] • وأشار الى المعرّب ونص على ألفاظه ، كما في (هَمَد) [٦٢] ، و (ركوب) [٦٣] • وغريب بعـد ذلك أن نجد قطربا ـ وقد عرف أن معنيي اللفظ المتضاد انما هما لهجتان مختلفتان نص هو عليهما ، أو أن أحد المعنيين فارسي معرب ـ يعد مثل هذه الالفاظ من الأضداد ، والظاهر أن مفهوم الأضداد لم يكن متبلورا عنده ، فهو في الوقت الذي يقدم التفسير العلمي القوي لضدية مثل هذه الألفاظ ، يكون قد اعتبرها من الأضداد • وشيء آخر يدعو للتساؤل ، هو اعتباره (القاسط) مثلا من الأضداد ذاكرا معنى الجور مستشهدا عليه من القرآن والشعر [٦٤] ، في حين وجدناها عنده في المثلثات على أن معنى الجور من (القَسْط) بالفتح ، ومعنى العدل من (القِسْط) بالكسر ، فكيف عاد هنا وأضاع هذه الدقة في التفريق بين المعاني •

وقد اشتمل الكتاب من ألفاظ الاضداد على ثماني عشرة ومائتين ، تكررت منها خمسة ألفـاظ هي : زَعـوم ، أضَبّ ، بَطـائن ، ذَفْر ،

---

(٥٦) قطرب ٢٦٠ •
(٥٧) قطرب ٢٥١ •
(٥٨) قطرب ٢٧١ •
(٥٩) قطرب ٢٥٤ •
(٦٠) قطرب ٢٥٤ •
(٦١) قطرب ٢٧٧ •
(٦٢) قطرب ٢٤٨ •
(٦٣) قطرب ٢٤٨ •
(٦٤) قطرب ٢٥٩ •

جَوْن . فيكون العدد الحقيقي هو ثلاثة عشر ومائتين ، انفرد قطرب بثمانية ألفاظ منها لم يشاركه فيها أحد ممن ألّف في الأضداد بعده ، على حدّ علمنا بالكتب التي وصلت ، هي : اللَّموس[٦٥] ، خَلوج[٦٦] ، قَرون[٦٧] ، راضية[٦٨] ، تَمَمْت[٦٩] ، خِطْب[٧٠] ، وَلَثْتُه[٧١] ، يُفاوِت[٧٢] . الثلاثة الاولى من صيغة (فَعول) ، والرابعة من صيغة (فاعِل) ، وربما كان هذا هو سبب عدم ذكرها عند غيره ، وأمّا الاربعة الباقية فلعل الشك في صحتها هو الدافع الى اهمالها .

وأخيرا فكتاب قطرب في الأضداد فتح الطريق أمام الذين ألّفوا في الأضداد . فكثيرا ما نقلوا عنه وأشاروا اليه وأخذوا مفرداته يضيفون اليها ويحذفون منها مشاركين تارة ومخالفين اخرى ، الا أنهم جميعا لم يمحّصوا ما نقلوه تمحيصا دقيقا فتسرب من جراء ذلك خطأ كنا نريد أن يتلافى في كتبهم ، من مثل تكرير ابن الانباري لمادة (زَعوم) في أضداده لتكرير قطرب اياها ، ومن مثل التصحيف في (بَلْ رِدِيه) فصارت (بَرِّديه) وعدّت من ألفاظ الأضداد . لكننا نستثني ابن السكيت من هؤلاء لأنه شك بوثاقة قطرب في نقل اللغة ـ وكان قد اتهمه فيها كما مرّ في ترجمته ـ فطرح أكثر ما نقل قطرب من الاضداد ، ولم يشاركه منها الا في القليل ـ اذا ما قورن بمشاركة الآخرين لقطرب ـ الذي سمعه من الفراء وابن الاعرابي والأصمعي وغيرهم من أساتذته في اللغة .

---

(٦٥) قطرب ٢٤٩ .
(٦٦) قطرب ٢٥٠ .
(٦٧) قطرب ٢٥٠ .
(٦٨) قطرب ٢٥٠ .
(٦٩) قطرب ٢٥٢ .
(٧٠) قطرب ٢٦٠ .
(٧١) قطرب ٢٦١ .
(٧٢) قطرب ٢٧٥ .

كتاب الفراء

المؤلف هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي الباهلي الفراء(٧٣) ، ولد بالكوفة سنة أربع وأربعين ومائة ، أخذ عن الكسائي وغيره من علماء الكوفة ، ومن أعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي مروان وغيرهما ، فبرع بالنحو واللغة والتفسير • وهو أول من قعد لدرس تفسير القرآن في مسجد من مساجد بغداد الى جانب منزله ، وكان ينزل بازائه الواقدى ، وكان الناس لرغبتهم بكتابه (معاني القرآن) يشترون كل خمس أوراق بدرهم من الوراقين •

سُمِع منه النحو واللغة فكان امام الكوفيين بهما في زمانه ، أخذ عنه سلمة بن عاصم ومحمد بن الجهم السمري وغيرهما • أملى كتابه (الحدود) في اصول النحو بطلب من المأمون بعد اتصاله به وتأديبه ولديه• وكان ثعلب يقول عن منهجه في الدراسة انه كان يتفلسف في تصانيفه حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة • ولعلَ ذلك كان من أثر اعتزاله في الرأي • له مصنفات كثيرة غير المعاني والحدود والاضداد ، منها : كتاب اللغات ، الجمع والتثنية في القرآن ، الوقف والابتداء ، فعل وأفعل ، المقصور والممدود ، المذكر والمؤنث ، وغيرها كثير • توفيّ في طريقه الى مكة سنة سبع ومائتين ، عن عمر أمده ثلاث وستون سنة •

---

(٧٣) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين١٤٣ ومراتب النحويين ٨٦ وتهذيب اللغة ١/١٨ والفهرست ٩٨ ونزهة الالباء ٦٥ ونور القبس ٣٠١ ووفيات الاعيان ٥/٢٢٥ والمزهر ٢/٤١٠ وشذرات الذهب ٢/١٩ وتاج العروس ١/٣٥ والعدة في الرجال ١٩٠ وتاريخ بروكلمان ٢/١٩٩ والكنى والألقاب ٣/١٤ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/١١٧ والأعلام ٩/١٧٨ ومدرسة الكوفة ١١٩ـ١٤٤ والمدارس النحوية ١٩٢ ـ ٢٢٣ وأبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة للانصارى •

أما كتابه (الاضداد) فلا نملك ذكرا له في المصادر والفهارس القديمة ، الا اشارة ابن الدهان في أضداده ، وهي مع ذلك ليست اشارة قوية ، لأنها غير صريحة تماما في تسمية الكتاب أو الاخذ عنه ، خصوصا وان الكتاب من الكتب التي لم تصل ، الا ّ أن الذي سوّغ لنا الاخذ باشارة ابن الدهان على انها ذكر لكتاب الاضداد للفراء ، انه لم يذكر مع الفراء الا ّ من كان له كتاب في الاضداد ، حيث يقول : « وأحلت شواهد ما ذكرته على كتب الكبار من العلماء كالأصمعي والفراء وأبي علي قطرب وابن السكيت وأبي العباس ثعلب وأبي حاتم السجستاني وأبي بكر ابن الانباري ، فمن شك فيما ذكرته فليقصد هذه الكتب فانه يجده فيها ، والعهدة له وعليه »(٧٤) ، فكلهم ألف في الاضداد ووصلت كتبهم سوى كتاب ثعلب الذي نملك ذكرا قويا له في فهرسة ابن خير فلابد أن يكون ـ قياسا على هذا ـ للفراء كتاب في الاضداد ، كان موجودا حتى زمان ابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩ • الا أن تساؤلنا عن سبب اغفال الكتب التي ترجمت للفراء وعنيت بمؤلفاته ذكر كتابه في الاضداد يبقى قائما يحتاج الى توضيح • بما في ذلك الترجمات المتأخرة للفراء ، فهذا أحد الباحثين لم يدرج في الفصل الذي عقده لكتب الفراء كتابا في الأضداد له(٧٥) ، ولعله لم يعثر على اشارة ابن الدهان الى ذلك ، كما أن محقق كتاب ابن الدهان لم يكتف بهذه الاشارة ولم يعتبرها ذكرا لكتاب له في الاضداد فقال في الهامش : « ليس له كتاب في الاضداد ، ولكنه يشير الى الكلمات المتضادة في تضاعيف مؤلفاته »(٧٦) ، والظاهر أنه كتاب صغير ، ولصغره ظل متداولا في أوساط ثقافية ضيقة جنبا الى جنب مع الكتب المعاصرة في

---

(٧٤) ابن الدهان ٩١ـ٩٢ •

(٧٥) أبو زكريا الفراء لاحمد مكي الانصاري ص ١٦٩ وما بعدها •

(٧٦) الشيخ محمد حسن آل ياسين : اضداد ابن الدهان ٩١ •

الأضداد حتى اذا ظهرت كتب ابن الانباري وأبي الطيب وغيرهما من المصنفات الضخمة في هذا الباب ، تلقفتها الايدي وأكبت عليها بيوت العلم فقل شأن الكتاب الصغير حتى ضاع فلم نسمع به الا على لسان ابن الدهان بهذا الشكل الضعيف ، شأنه في ذلك شأن كثير من الكتب التي ذابت في خضم المصنفات الكبيرة المؤلفة في بابها فضاعت ولم نسمع بخبرها .
وبهذا نستطيع أن نفسر اغفال (الفهرست) لابن النديم المتوفى سنة ٣٧٧ - وهو أقدم من ذكر مصنفات المترجمين باستيعاب - لاضداد الفراء ، ذلك أنه عاصر تأليف أضداد ابن الانباري وأضداد أبي الطيب ، وهي الحقبة التي افترضنا أن يكون أضداد الفراء مختفيا فيها ، فله في ذلك شيء من حق ، خصوصا وأنه ليس من أرباب اللغة كابن الدهان .

المهم اننا نستطيع أن نلملم من كتب الأضداد المؤلفة بعده ومن بعض مؤلفاته ومؤلفات اللغويين شيئاً لا بأس به من آرائه في الاضداد وفكرة التضاد وحصولها في بعض الالفاظ ، وما نص عليه منها ، بحيث يكون هذا المجموع من آرائه نواة لكتابه الضائع وصورة له ، ان لم نقل كاملة فقريبة منه ، وربما استطعنا أن نتبين منها منهجا خاصا أو طريقة معينة .

فقد لاحظ الفراء مثلا أن الاستعمال قد يؤدى الى قلب المعنى الى ضده ، كما حصل في لفظ (تَعال) فيقول : « أصلها عالِ الينا وهو من العُلُوّ ، ثم ان العرب لكثرة استعمالهم اياها صارت عندهم بمنزلة هَلُمَّ ، حتى استجازوا أن يقولوا للرجل وهو فوق شرف : تَعال ، أي اهْبِط وانما أصلها الصُّعود »(٧٧) .

كما لاحظ أن قراءات المصحف واختلافها قد تخلق معنى مضادا ، كما في الآية : (لَقد تقطّعَ بَينكُم)(٧٨) ، فيقول : « قرأ حمزة ومجاهد

(٧٧) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤١٨ .
(٧٨) الانعام ٩٤ .

(بَينُكم) يريد وصلكم وفي قراءة عبدالله (لقَد تَقَطّع ما بَينَكم) وهو وجه الكلام »(٧٩) ، وقد عدت (بَيْن) عند الاضداديين من الأضداد لهذا السبب منصرفة الى الفراق والى الوصل • وهو هنا يبيّن وجهها في القرآن الكريم ، حيث تخرج عنده من الأضداد •

وذكر للفظة (بَشْر) معنى آخر غير المعنيين المتضادين اللّذين هما عند الاضداديين : القليل والكثير ، وبهذا أخرجها من الاضداد الى المشترك فقال : « البَشْر الحد أيضا ، يقال : بشره يبشره بشرا ، أي حده »(٨٠) ، وهذا المعنى – بالنظر الدقيق – هو الدلالة الجامعة لكلا المعنيين المتضادين المتطورين عنها فالقلة والكثرة كلاهما حد معين ، لذا كانت (بَشْر) بمعنى الكثرة مقترنة بلفظة تصرفها اليه ، وأشيع هذه القرائن فيها قولهم للاتباع : كثير بثير ، فشمولية المدلول الأول وراء هذه اللفظة كما يشعر بذلك الفراء •

كما يشعر بهذا أيضاً قوله : « اِذا كثرت الغنم فهي ثَلّة وجمعها ثِلَل ، مثل بَدْرَة وبِدَر • وأنشد لابن هرمة :

لستُ بذي ثَلّةٍ مؤنّفةٍ
يأقِطُ ألبانها ويسلؤها »(٨١)

وكانوا قد ذكروا أن (ثَلَلْتُ) من الاضداد بمعنى أصلحت وبمعنى هدمت ، وواضح من قول الفراء أن هاتين الدلالتين متطورتان بوساطة انتقال مجال الدلالة أو بوساطة المجاز عن المعنى الحسي الأول

---

(٧٩) معاني القرآن ١/٣٤٥ والاصمعي ٥٢ وابن السكيت ٢٠٥ وأبو الطيب ١/٨٢ – ٨٣ •
(٨٠) أبو الطيب ١/٦٧ •
(٨١) ابو الطيب ١/١٤١ – ١٤٢ •

الذي هو المدلول الشامل ، فحين يكون كل شيء قد جمعته وكثرته كاجتماع وكثرة الغنم فهو اصلاح ، وحين يكون كل شيء قد جزأته وجعلته قطعا كرؤوس الغنم اذ هي ليست شيئاً واحدا ، فهو هدم •

ومثل هذا في قولهم : عَزَّرته : أدَّبته ، وعَزَّرْتُه : عظمته ، قال الفراء : « العَزْر والتَّعْزير : التَّعليم »[٨٢] ، وفي التأديب تعليم وتقويم ، كما أن في التعليم اكراماً وتعظيماً ، فالمدلول الأول شمل المعنيين •

وعندما أنشد الفرّاء :

شَرَيتُ لهم نَفْسي بِقَفْرَةَ بَعدَما
دَنا الموتُ حتى صارَ بَيْنَ الجَوانحِ

قال : شَريت هاهنا بمعنى ابْتَعْت[٨٣] ، وذكروا قوله في مادة (شَرى) بمعنى اشترى وبمعنى باع ، الا أن الفراء كان يشترط أن يكون المشترى به مما يصدق أن يكون ثمناً كالدّراهم والاّ فأي الشيئين المشترى والمبيع يصدق عليه أن يكون الآخر ، وشرح وجهة نظره في الكلام على قوله تعالى : (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا)[٨٤] ، فقال : « وكل ما كان في القرآن من هذا قد نصب فيه الثمن وأدخلت الباء في المبيوع أو المشترى ، فان ذلك أكثر ما يأتي في الشيئين لا يكونان ثمناً معلوماً مثل الدنانير والدّراهم ، فمن ذلك : اشتريت ثوباً بكساء ، أيهما شئت تجعله ثمناً لصاحبه لأنه ليس من الأثمان ، وما كان ليس من الاثمان مثل الرقيق والدّور وجميع العروض فهو على هذا • فان جئت الى الدراهم والدنانير وضعت الباء في الثمن كما قال في سورة يوسف : (وشروه بثمن بخس

---

(٨٢) ابو الطيب ٢/٥٠٦ •
(٨٣) أبو الطيب ١/٤٠٠ •
(٨٤) البقرة ٤١ •

دراهم معدودة)[٨٥] ، لأن الدراهم ثمن أبداً ، والباء انما تدخل في الاثمان •• لأن كل واحد منهما في هذا الموضوع بيع وثمن •• ولو اشترى عبدا بجارية ثم وجد به عيبا لم يرجع بجارية اخرى مثلها ، فذلك دليل على أن العروض ليست بأثمان »[٨٦] •

كما اشترط في (الرَّجاء) ليكون بمعنى الخوف أن يكون معه جحد ، وهو مصطلح الكوفيين في النفي • وكان الرجاء عند الاضداديين من ألفاظ الأضداد ، يقول الفرّاء : « وقوله : (لايَرْجون لِقاءَنا)[٨٧] لايخافون لقاءنا وهي لغة تهاميّة ، يضعون الرّجاء في موضع الخوف اذ كان معه جحد • من ذلك قول الله (مالكُم لاترَجون للهِ وَقارا) [٨٨] أي لاتخافون لله عظمة • وأنشدني بعضهم :

لاتَرتَجي حينَ تُلاقي الذّائِدا أسَبْعةً لاقَتْ معاً أم واحِدا

يريد : لاتخاف ولاتبالي • وقال الآخر [٨٩] :

إذا لَسَعَتْه النَّحلُ لم يرجُ لسْعَها
وحالَفَها في بيتِ نُوبٍ عواملِ »[٩٠]

وقد أيده ابن الانبارى في هذا الشرط الذى ذهب اليه رادا من لم يقل به ممن أطلق الاستعمال [٩١] •

و (حسِبتُ) التي عدّوها من الاضداد ، تكون للشك وتكون لليقين ، يرى الفراء انها منقولة من معناها الاصلي الى معنى آخر بوساطة

---

(٨٥) يوسف ٢٠ •
(٨٦) معاني القرآن ١/٣٠ •
(٨٧) الفرقان ٢١ •
(٨٨) نوح ١٣ •
(٨٩) هو ابو ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١/١٤٣ •
(٩٠) معاني القرآن ٢/٢٦٥ وابن الانبارى ٩ ومابعدها •
(٩١) ابن الانبارى ١١ •

تغير حركة السين ، يقول : « حسِبت أصله من حَسَبت الشيء ، أي وقع في حسابي ، ثم كسرت السين منه ونقل الى معنى الشك » (٩٢) .

ويرى أن معنى (أَقْرأَتْ المرأة) اذا حاضت فقط(٩٣) ، وعدّت عند غيره من الاضداد تنصرف للحيض وللطهر ، على خلاف في ذلك بين الفقهاء .

وقالوا : صَرى الشيء اذا جمعه وصراه اذا قطعه وفرّقه وهي من الأضداد ، قال الفرّاء : « بات يَصرى في حوضه اذا استقى ثم قطع ثم استقى » (٩٤) . فالمعنى اذن عام يشمل الضدين جميعا ، فلا يصدق على أحدهما أن يقال : صرى ، الاّ أن يكون جمع وقطع معا .

وعدّت (سِوَاء) من الاضداد تكون لغير الشيء وتكون لنفسه ، الاّ أن الفراء ذكر لها معنى (حِذاء) ومعنى (القَصد) ومعنى (غَير) وبالأخيرين فسّر قول الله (فقد ظَلَّ سَوَاء السَّبيل) (٩٥) .

وقال في قوله تعالى (أكاد أُخْفيها)(٩٦) : « قرأت القرّاء أكاد أُخْفيها بالضمّ .. وقرأ سعيد بن جبير (أَخفيها)(٩٧) بفتح الألف .. حدثني الكسائي عن محمد بن سهل عن وقاء عن سعيد بن جبير انه قرأ (أخفيها) بفتح الألف من خَفَيت . وخفيت : أظهرت وخفيت : سترت .
قال الشاعر :

فان تدفنوا الدّاء لا نَخْفه ... وإن تبعثوا الحربَ لا نقعدِ
يريد لا نَظره »(٩٨) .

---

(٩٢) ابن الانبارى ٢١-٢٢ .
(٩٣) ابن الانباري ٣٠ وتاج العروس ١/٣٦٦ .
(٩٤) ابن الانبارى ٣٩ .
(٩٥) البقرة ١٠٨ معاني القرآن ١/٧٣ وابن الانبارى ٤٢ .
(٩٦) طه ١٥ .
(٩٧) هو امرؤ القيس بن عابس الكندى : اللسان (خفى) .
(٩٨) معاني القرآن ٢/١٧٦ وابن الانبارى ٩٦ .

وقال في (السَّليم) : « قال بعض العرب : انّما سمّي الملدوغ سليما لأنه مُسْلَم لما بِه »[99] . والظاهر من نقله لقول بعض العرب هذا أنه يراه ، ولا يذهب كما ذهب غيره الى أنها على التفاؤل بسلامته .

ورأيه في قوله تعالى (ما اِنَّ مفاتِحَه لتنوء بالعُصْبة)[100] ، ان الفعل محوّل الى غيره ومقلوب ، وقال : « والمعنى : ما ان مفاتحه لتنيء العصبة أى تميلهم من ثقلها ... وقد قال رجل من أهل العربية : ان المعنى ما ان العصبة لتنوء بمفاتحه فحوّل الفعل الى المفاتح كما قال الشاعر :

اِن سراجاً لكريمٌ مفْخَرُه تَحلى به العينُ اذا ما تَجْهرُه

وهو الذى يحلى بالعين . فان كان سمع بهذا أثرا فهو وجه . والاّ فان الرّجل جهل المعنى .. » [1] .

وفي قوله تعالى (مثلاً ما بعوضةً فما فَوقَها) [2] ، يرى الفراء أن المقصود فما أكبر منها وهو العنكبوت والذباب ، الاّ أنه « لو جعلت في مثله من الكلام (فما فَوقَها) تريد أصغر منها لجاز ذلك . ولست أستحسنه ، لأن البعوضة كأنها غاية في الصغر ، فأحب اليّ ان أجعل (ما فَوقها) أكبر منهـا »[3] .

و (طادَ ووَطِدَ) عنده من الاضداد بمعنى ثبت وسار[4] ، ولكنه لم ير في (الأَزْر) الاّ معنى القوّة والمعاونة والظهر [5] ، خلافا لمن عدّها

---

(99) ابن الانبارى ١٠٦ .
(100) القصص ٧٦ .
(1) معاني القرآن ٢ / ٣١٠ وابن الانبارى ١٤٤ وتاج العروس (نـوأ) ١ / ٤٧٢ .
(2) البقرة ٢٦ .
(3) معاني القرآن ١ / ٢٠ وابن الانبارى ٢٥٠ .
(4) لسان العرب ٣ / ٤٦١ وتاج العروس ٩ /٣٠٣ .
(5) اللسان ٤ / ١٧ والتاج ١٠ / ٤٢ .

من الأضداد تنصرف للضعف ايضا • و (المَسْحوت) عنده من الاضداد ، للجائع ولمن يتخم كثيرا [٦] • و (ذَئِجَ) اذا أكثر من شرب الماء ، فقط [٧] • وقال في (عَسْعَس) : « أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ، قال : وكان بعض أصحابنا يزعم أن عسعس معناه دنا من أوله وأظلم » [٨] •

وعرض الفراء في كتابه (معاني القرآن) لجملة من الالفاظ التي تضمنتها الآيات الكريمات والتي عدت من الأضداد أو من المقلوب مثل : النسْيان [٩] ، التَّوليَة [١٠] ، كان الزّناء فريضَةَ الرَّجم [١١] ، الظَّن والخَوْف [١٢] ، ومكروا ومكَر الله [١٣] ، السُّجود [١٤] ، الاثابَة والبِشارَة [١٥] ، تَخافون وتَعْلَمون [١٦] ، هادوا [١٧] ، بَسْل [١٨] ، عَجَل [١٩] ، ظَلَم [٢٠] ، النَّصْر [٢١] ، لأنتَ الحليمُ الرَّشيد [٢٢] ،

---

(٦) تاج العروس ٤ / ٥٥٠ •
(٧) التاج ٥ / ٥٨٣ •
(٨) لسان العرب ٦ / ١٣٩ •
(٩) معاني القرآن ١ / ٦٤ ، ٢ / ٣٨٨
(١٠) معاني القرآن ١ / ٨٥ •
(١١) معاني القرآن ١/٩٩ •
(١٢) معاني القرآن ١ / ١٤٦ ، ٢ / ١٤٧
(١٣) معاني القرآن ١ / ٢١٨ •
(١٤) معاني القرآن ١/٢٣١ ، ٢/٨٨ •
(١٥) معاني القرآن ١ / ٢٣٩ •
(١٦) معاني القرآن ١ / ٢٦٥ ، ٣٣٦ •
(١٧) معاني القرآن ١ / ٣١٢ •
(١٨) معاني القرآن ١ /٣٣٩ •
(١٩) معاني القرآن ١ / ٣٩٣ •
(٢٠) معاني القرآن ١ / ٣٩٧ •
(٢١) معاني القرآن ٢ / ١٣ •
(٢٢) معاني القرآن ٢ / ٢٦ •

أسرّوا الندامة[٢٣] ، ييأس[٢٤] ، المُصْرِخ والصَّريخ[٢٥] ، السَّبح [٢٦] ، أشُدّه [٢٧] ، وَراء [٢٨] ، خَشِي وخاف [٢٩] ، أعْرض [٣٠] ، ضِدّ وورد [٣١] ، القانع [٣٢] ، قَعَد يشْتمني [٣٣] ، الغابِرون[٣٤] ، عَسى[٣٥] ، الحَميم[٣٦] ، أنتَ العَزيزُ الكريم[٣٧] ، فَزّع ومُغَلب [٣٨] ، سخَر الله والله يستهزِئ [٣٩] . وسوى هذا كثير مما عرضنا له وذكرنا ، ومما لم نذكر .

يضاف الى هذا ما نقلته عنه كتب الاضداد ، فقد ذكره الأصمعي في أضداده مرتين [٤٠] ، وابن السكيت في أضداده ثلاث مرات [٤١] ، وابن الانبارى في اضداده سبعا وسبعين مرة [٤٢] ، وابو الطيب اللغوى في أضداده

---

(٢٣) معاني القرآن ١ / ٤٦٩ .
(٢٤) معاني القرآن ٢ /٦٣ .
(٢٥) معاني القرآن ٢/٧٥ ، ٣٧٩ .
(٢٦) معاني القرآن ٢ / ١٠٢ .
(٢٧) معاني القرآن ٢ / ١٢٣ .
(٢٨) معاني القرآن ٢ / ١٥٧ .
(٢٩) معاني القرآن ٢/١٥٧ ، ١٦٩ .
(٣٠) معاني القرآن ٢ / ١٦٠ .
(٣١) معاني القرآن ٢/١٧٢ .
(٣٢) معاني القرآن ٢/٢٢٦ .
(٣٣) معاني القرآن ٢/٢٧٤ .
(٣٤) معاني القرآن ٢ / ٢٨٢ .
(٣٥) معاني القرآن ٢/٣٠٩ .
(٣٦) معاني القرآن ٢ / ٣٢٠ .
(٣٧) معاني القرآن ٢ / ٣٦١ .
(٣٨) معاني القرآن ٢ / ٣٦١ .
(٣٩) معاني القرآن ٢ / ٣٨٤ .
(٤٠) الأصمعي ٢٨ ، ٥٢ .
(٤١) ابن السكيت ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٤٢) يراجع فهرس الكتاب .

خمس مرات [٤٣] ، وكلهم يذكر رأيه في اللفظة التي يعالجـونها ، أو انشاده لبيت أو ابيات من الشعر شاهدا عليها ، أو ذكره لقراءة من القراءات السبع للمصحف ، أو نصه على لغة ما واستعمال معين ، وما الى ذلك •

واستشهدت برأيه معجمات اللغة وذكرت آراءه في كلمات الاضداد التي تعرض لها ، فقد ذكره لسان العرب في : وَطِد ، الأزْر ، عَسْعَسَ ، السَّبْح ، المَفازَة ، سَجَرَ ، قَعَدَ ، لَفَأَ ، زبْيَة • ممّا مرَ قبل قليل نقل رأيه في بعضها • كما ذكره تاج العروس في : القُرْء ، ناءَ ، وَطِد ، الأزْر ، مَسْحوت ، ذَأَج ، وقد نقلنا رأيه فيها أيضا ، ومثل هذين التهذيب والصحاح والمخصص وغيرها •

تدل هذه الكثرة [٤٤] من النقول عنه والاستشهادات بآرائه أنه كان من المعنيين بهذا الجانب من اللّغة عناية ليست باليسيرة ، بحيث يسوغ لنا أن نجزم بصحة اعتقادنا الذى بنيناه على اشارة ابن الدهان ، من أنه كان قد وضع كتابا في الأضداد لم يصلنا ، ومجموع هذه النقول هي نواتـه أو صورتـه •

بقي علينا أن نتلمس في صورة هذا الكتاب أسس منهجه العلمـي الخاص أو المدرسي الذى زعمنا توفـرّه في مصنفات الكوفيـين ، والفرّاء شيخهم وامامهم • وتتضح معالم هذا المنهج في أمور منها :

١ ـ اهتمامه بالقراءات وتصحيحه اياها والأخذ بها واحترامه لها ، كما في (تقطّعَ بينَكم) و (أكاد أُخْفيها) ، وغيرها ، وقد وجّه قراءة مجاهد وحمزة وعبدالله وسعيد بن جبير وأُبّي وغيرهم توجيها يلائم النص القرآني وينسجم مع المعنى اللغوى المفترض ، مثلقوله في قراءة عبدالله (لقد تقطّع ما بينكم) : وهو وجه الكلام •

---

(٤٣) يراجع فهرس الكتاب •
(٤٤) اكتفينا بذكر المصدر والمادة والصفحة فالمجال لا يسمح بسردها •

٢ – اهتمامه بالشواهد الشعرية واتساعه في رواياتها ، بحيث ذكره ابن الانبارى مثلا في اربع وعشرين مرّة منشدا للشاهد في أضداده[٤٥] ، وأبو الطيب مرتين منشدا للشاهد في أضداده [٤٦] ، وفي بعضها يحاول توجيه الاستعمال الشعرى ويجد له تخريجا ، من مثل تعليقته على الرّجز : تَحاجُزَ الرِّيّ ولم تكادِ • قال الفراء : « انما هو ولم تكد ، فلما حرّك الدال أعاد الألف لأنها انما سقطت لسكونها مع سكون الدال فلما تحركت الدّال أعاد الألف » [٤٧] •

٣ – اهتمامه باللغات ونصه عليها ، مثل تفسيره (لا يرجون) بـ (لايخافون) وقال : « وهي لغة تهاميّة يضعون الرّجاء في موضع الخوف » [٤٨] أو قوله : « وأنشدني بعض بني أسد » [٤٩] ، وتكراره لقوله : « سمعت العرب تقول » [٥٠] أو « العرب تقول » [٥١] • وغير ذلك مما يدل على مشافهته العرب وسماعه منهم وقوله : « يَيْأَس في معنى يعلم لغة للنَّخَع » [٥٢] • وسوى ذلك من ذكر اللغات وأثرها في خلق المعنى الضد •

٤ – اهتمامه بالتفسير والمفسرين [٥٣] ، والفقه والفقهاء [٥٤] ، والحديث

---

(٤٥) ابن الانبارى ١١ ، ٢٠ ، ٤٠ ، ٦١ ، ١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٤ ، ٤١٥ •
(٤٦) أبو الطيب ١/ ١٤١ ، ١ / ٤٠٠ •
(٤٧) الاصمعي ٢٨ وابن السكيت ١٨٣ •
(٤٨) معاني القرآن ٢ / ٢٦٥ •
(٤٩) معاني القرآن ٢ / ٢٨٢ •
(٥٠) معاني القرآن ٢/١٠٢ (السَّبْح) •
(٥١) المصدر نفسه ١ / ٣٣٩ (بسل) •
(٥٢) نفسه ٢ / ٦٣ (ييأس) •
(٥٣) نفسه ٢/٦٣ (ييأس) ، ١/٣٣٦ (يخافون) ، ١/٣١٢ (هادوا) واللسان ٦ / ١٣٩ (عسعس) •
(٥٤) نفسه ٢/١٧٦ (أخفيها) •

والرواية عن النبي والخلفاء وابن عباس وآخرين (٥٥) ، ممّا يؤيد القول بأنه آخذ بالنقل والرواية وهي سنة الكوفيين •

٥ ـ اكثر رواياته اللغوية والنحوية وانشاداته الشعرية هي عن الكسائي استاذه (٥٦) كما في (أكاد أُخْفيها) و (هادُوا) و (أقْرأْتْ) • وهذا يسند سلسلة الرّواية الكوفية المدرسية •

٦ ـ تحرره من المسلّمات في اللّغة وفي الاضداد على وجه الخصوص ، وتحكيم الرواية والنقل والمأثور عن العرب والذّوق في أكثر ما أثر عنه في الأضداد ، وقد مرّ أمر الرواية والنقل والاستشهاد الكثير ، أما الذوق فمثله في (بعوضة فما فوقها) قال : فأُحبّ الّتي أن أجعل (مافَوقَها) أكبر منها (٥٧) • واستفاد من سعة معلوماته ومن استقرائه للغة في أن اشترط اشتراطات في استعمال بعض الاضداد في معانيها الأخر ، وقد مرّ شرطه أن يكون في الرجاء جحد ليكون بمعنى الخوف ، أو أن يكون المشترى به مما يصدق أن يكون ثمنا كالدراهم والاّ فان كلا الشيئين مبيع ومشترى • واشتراطه أن يكون الظن داخلا على خبر ليجوز له أن ينصرف لليقين ، وكانوا قد أطلقوا الاستعمال قال : « وقوله : (وظنّ داوُد انّما فَتَنّاه)(٥٨) أي علم • وكل ظن أدخلته على خبر فجائز أن تجعله علما ، الاّ أنه علم ما لايُعايَن » (٥٩) •

٧ ـ ميله لمعرفة المعنى الاصلي للفظ الذى هو المدلول الشامل للمعنيين

---

(٥٥) نفسه ١/٢٦٥ (تخافون) ، ٢/٣٨٨ (نسيَ) ، ٢/٦٣ (ييأس) ، ٢/١٢٣ (أشدّه) •

(٥٦) نفسه ٢ / ١٧٦ ، ١ / ٣١٢ • وتاج العروس ١ / ٣٦٦ •

(٥٧) معاني القرآن ١ / ٢٠ وابن الانبارى ٢٥٠ •

(٥٨) سورة ص ٢٤ •

(٥٩) معاني القرآن ٢ / ٤٠٤ •

المتضادين كما في (البَثْر) و (صَرى) و (ثَلَلْتُ) و(عزّرته)، وقد مرّ الكلام فيها •

٨ ـ ملاحظته الاستعمال وما يمكن أن يخلقه بالتقادم من معنى مضاد كما في (تَعال) وكما في (حَسِبَ) ، وقد مرّ الكلام فيهما •

من ذلك كله تتوضح معالم المنهج الذى سار عليه الفرّاء في الكتاب وهو الذى سار عليه في كل مصنفاته وتآليفه ، لأنه ـ مع صبغته الشخصيّة ـ منهج كوفي محض ، رأيناه عند الكثير من طلابه وطلاب طلابه ، وهو ما تميزت به مدرسة الكوفة من مدرسة البصرة التي لم تكن عنايتها بكل هذه الامور بمثل هذه الدرجة وكان كتاب قطرب خير مثل لهذا ، فلم نعثر فيه على ذكر واحد لقراءة من القراءات أو تصحيحها أو الاستشهاد بها ، كما لم نجد مثل هذا الميل لذكر المدلول الشامل للمعنيين المتضادّين ، ولا ملاحظة ما يمكن أن يؤدي اليه تطور الاستعمال وتقادمه ولا تحكيم الذوق ، وحتى الشواهد ـ بالقياس الى اختلاف حجمي كتاب قطرب وما نقل عن الفرّاء ـ قليلة ، كما كان اغفال المفسرين ـ فيما عدا ابن عباس ـ والفقهاء يكاد يكون تاما ، ومثله اغفال الرواية والنقل الاّ فيما ندر •

كتـــاب أبي عُبَيْــدَة

المؤلف هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري[٦٠] ، ولد في

---

(٦٠) تراجع ترجمته في : أخبار النحويين البصريين ٥٢ وطبقات النحويين واللغويين ١٩٢ ومراتب النحويين ٤٤ وتهذيب اللغة ١ / ١٤ والفهرست ٧٩ ونزهة الألباء ٦٨ وانباه الرواة ٣ / ٢٧٦ وتاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ ووفيات الاعيان ٤ / ٣٢٣ ومعجم الادباء ١٩ / ١٥٤ ونور القبس ١٠٩ ومروج الذهب ٣ / ٣٥٧ والفلاكة والمفلوكون ١٠١ والمزهر ٢ / ٤٠٢ والأشباه والنظائر ٣ / ٤١ وبغية الوعاة ٣٩٥ والنجوم الزاهرة ٢ / ١٨٤ وشذرات الذهب ٢ / ٢٤ وتاج العروس ١ / ٣٣ والعدة في الرجال ١٨٩ وتاريخ بروكلمان ٢ / ١٤٢ وهدية العارفين ٢/٤٦٦ والكنى والالقاب ١/١١٤ والاعلام ٨/١٩١ •

البصرة سنة عشر بعد المائة ، لأبوين رقيقين من يهود باجروان في فارس • كان مولى لتيم قريش • أخذ في أوّل عهده عن أبي عمرو بن العلاء ويونس ابن حبيب ، ثم نقل لنا أنه ناظر أبا عمرو مناظرة الندّ • وكان يرى رأى الخوارج الصفرية ـ كما يقول ابو حاتم ـ وأنه كان يكتم ذلك •

استقدمه الرشيد الى بغداد ليقرأ عليه شيئاً من كتبه وليختص بمنادمته • فأخذ عنه الأثرم والمازني وأبو عبيد القاسم بن سلام والتوزى وأبو حاتم وعمر بن شبّة النميرى • وكان أبو عبيدة من أعلم النّاس بأنساب العرب وبأيّامهم وله كتب كثيرة في أيام العرب وحروبها •وكان ثعلب يقول: من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة •

كان الغالب عليه الشعر والغريب حتى قيل انه أول من ألف في الغريب ، الاّ انه في النحو مخلّ كثير الخطأ ، على حد عبارة الازهرى • وكان ابو حاتم يقول : انه كان ينشد البيت مختلف العروض ويخطيء اذا قرأ القرآن نظرا • وأظن ان هذه الحملة مبالغ فيها ضدّه لما اشتهر عنه من كونه شعوبيا خارجيا أولا ، ولأن أحدا لم يسلم من لسانه وبذاءته ثانيا •

له من الكتب غير الأضداد والغريب مجموعة كبيرة ، منها : ايام العرب ، طبقات الفرسان ، نقائض جرير والفرزدق ، الخيل ، الابل ، السيف ، اللغات ، المصادر ، خلق الانسان ، وغيرها • توفي سنة عشر ومائتين في البصرة بعد ان اطعم موزا ، وله من العمر مائة عام في أقوى الاخبار •

أما نسبة كتاب (الاضداد) له ، فهي نسبة موثقة وليس لنا أن نشك فيها ، فقد ذكرت الكتاب المصادر القديمة ابتداء بالفهرست لابن النديم وانتهاء بايضاح المكنون لاسماعيل البغدادى • والكتاب مفقود وفي جملة الكتب التي لم تصل • الاّ أن نقول كتب الاضداد ومصنفات اللغة عنه كثيرة ، بحيث بلغ مجموع ذلك في هذه الكتب (١٩٢) ذكرا موزعة كالآتي :

ذكر في أضداد الاصمعي (١٨) مرة ، واضداد ابن السكيت (٢٠) مرة ، واضداد السجستاني (٢٠) مرة ، واضداد قطرب (٣) مرات ، واضداد ابن الانبارى (٤٢) مرة ، وأضداد أبي الطيب (٨٣) مرة ، وفي لسان العرب (٦) مرات تخص الأضداد ، ومرة واحدة في (خزانة الادب) ، ومرة واحدة في (الاقتضاب للبطليوسي) ، ومرة واحدة في (التنبيهات لعلي بن حمزة) ، وفي كلها في الكلام على لفظة من ألفاظ الأضداد .
وواضح أنها مجموعة كبيرة من الذكر تفوق مجموع ذكر الفراء في هذه الكتب ، الا ّ ان الفراء فاقه في واحد من هذه الكتب ، وهو اضداد ابن الانبارى ، والسبب واضح اذا علمنا أن ابن الانبارى كوفي النزعة تلمذ لثعلب وهو تلميذ سلمة الذى هو تلميذ الفراء ، فمن الطبيعي أن يكون النقل عنه أو ذكره في الكتاب فائقا ذكر ابي عبيدة البصرى ، هذا كلّه عدا ماورد من اشاراته لبعض ألفاظ الأضداد في كتابه مجاز القرآن .

وندرج هنا أمثلة [٦١] من آرائه في الاضداد ومانص عليه منها لنستطيع أن نتبين بعد ذلك خصائص مذهبه ، وما يحمل من ملامح مدرسية .

قال ابو عبيدة : « يقال أَقْرَأَتْ النجوم بالألف معناه غابت ، ومنه قُرْء المرأة في قول من زعم أنّه طهرها لأنها خرجت من الحيض الى الطهر كما خرجت النجوم من الطلوع الى المغيب .. »[٦٢]

وقال : « يقال عَسْعَسَ الليل اذا أقبل وعسعس أدبر وأنشد لعلقمة بن قرط التيميّ :

---

(٦١) لايمكن ادراج كل ما أثر عنه في هذا الصدد فهو أكثر من أنتتسع له هذه الرسالة واكتفينا بالنص على مواطن وجودها ، وعددها في كل موطن وهو ما فعلناه مع الفراء .

(٦٢) الاصمعي ٦ وابن السكيت ١٦٥ وأبو حاتم ٩٩ وابن الانباري ٢٨ ـ ٢٩ وأبو الطيب ٢ / ٥٧٤ ومجاز القرآن ١ / ٧٤ .

مُدَّرِعاتِ اللَّيلِ لمَّا عَسْعَسا

أي أقبل ، وقال بعضهم عسعس اذا ولّى .. »(٦٣) .

وقال : « الضَّراء البراز والضَّراء الأسْتِخْفاء »(٦٤) ، ونص على أنه من الاضداد .

وقال : « الرَّهْو الارتفاع والرَّهْو الانحدار »(٦٥) .

وقال : « بقيت في الحوض صَراة وهو مايبقى في الحوض متغيّراً وأنشد :

تَلْهَمُ ما في أسفلِ المِقْراةِ وما بَقى في الحوضِ من صَراةِ

أراد بقّى فخفّف ... »(٦٦) .

وقال : « شَراة المال بمنزلة شَواة المال أي رذال المال والجميع شرى كقوله :

مُنادِراتٍ بالشرى المُحَسَّلِ

أي المبقى المتروك ، والشرَّاة في لغة بعضهم خيار مسان من الابل وكرائمها كقوله :

من الشَّراةِ رَوْقَةُ الأمْوالِ » .(٦٧)

وقال : « وللمَولى سبعة مواضع ، المولى ذو النعمة من فوق والمولى المنعم عليه من أسفل ، وفي كتاب الله تبارك وتعالى (فان لم تَعْلَموا آباءَهم فاخوانكم في الدّين ومَواليكم) ، والمولى في الدين من الموالاةوهو الولي .. وجاء في الحديث : من كنت مولاه فان عليا مولاه ... قال العجّاج :

---

(٦٣) الاصمعي ٨ وابن السكيت ١٦٧ وأبو حاتم ٩٧ وابن الانباري ٣٣ وأبو الطيب ٢ / ٤٨٨ ولسان العرب ٦ / ١٣٩ .

(٦٤) الاصمعي ١١ وابن السكيت ١٦٩ وابو حاتم ١٠٢ وأبو الطيب ١ / ٤٥٠ .

(٦٥) الاصمعي ١١ وابو حاتم ٩٤ .

(٦٦) الاصمعي ١٢-١٣ وابن السكيت ١٧٣ وأبو الطيب ١/٤١٤ .

(٦٧) الاصمعي ١٨ - ١٩ وابن السكيت ١٧٤ وأبو الطيب ١/٤٤٤ .

مواليَ الحقِّ إن المَولى شكَر

أي أولياء الحقّ .. والمولى ابن العم .. والمولى الجار..»[٦٨] .

وقال : « يقال بِعْتُ الشيء إذا بعتـه من غـيرك ، وبِعتْه اذا اشتريته » [٦٩] .

وقال : « يقال فرس شَوْهاء أى حسنة ، ولايقال للذّكر من هـذا شيء ، ويقال لاتشوّه عليّ أى لاتقل ما أفصحك فتصيبني بالعين ، قال وما سمعتها الاّ في هذين الحرفين .. » [٧٠] .

وقال : « الجَوْن الأسود والجَوْن الأبيض ، وأنشد ابو عبيدة :

غَيَّر يا بنتَ الحُليسِ لَوْني مرُّ اللّيالي واختلاف الجَوْنِ
وسَـفَر كان قَليلَ الأوْنِ

عنى بالجون ههنا النّهار .. »[٧١] .

وقال : « الـمُنَّة القوة والـمُنَّة الضعف ، ومنه حبل مَنين أى ضعيف » [٧٢] .

وقال : « سَواء الشيء غيره وسَواء الشيء نفسه ، قال الأعشى :

تَزاوَر عن جوّ اليَمامة ناقتي وما عَدَلتْ من أهلِها بسَوائكا

يريد ما عدلت من أهلها بك ، حكى هذا الحرف أبو عبيدة »[٧٣] .

---

(٦٨) الاصمعي ٢٤ ـ ٢٧ وابن السكيت ١٨٠ ـ ١٨٢ وابو الطيب ٢ / ٦٦٠ ومجاز القرآن ١ / ١٢٤ .

(٦٩) الاصمعي ٢٩ وابن السكَيت ١٨٤ وأبو الطيب ١/٤١ ، ٥٠ ومجاز القرآن ١ / ٤٨ ولسان العرب ٨ / ٢٣ .

(٧٠) الاصمعي ٣٢ وابن السكيت ١٨٦ وأبو حاتم ١٣٧ وأبو الطيب ١ / ٤٠٨ .

(٧١) الأصمعي ٣٦ وابن السكيت ١٨٩ وأبو الطيب ١/١٥١ ، ١٥٥ .

(٧٢) الاصمعي ٤٠ وابن السكيت ١٩٤ وابو الطيب ٢ / ٦٢١ .

(٧٣) الاصمعي ٤٤ وابن السكيت ١٩٨ وابن الانبارى ٤١ وابو الطيب ١ / ٣٥٨ .

وقال : « الكَأْس الاناء الذى يشرب فيـه ، والكَأْس مافيه من الشرّاب » (٧٤) .

وقال : « الثّغَب أُخدود تحتفره المسايل من عل، فاذا انحطت حفرت امثال الدّبار فيمضي السيل عنها ويغادر الماء فيها فتصفقه الرّياح فيصفو ويبرد وليس شيء أصفى منه ولا أبرد . والثّغَب الماء ، والمكان الذى فيه الماء ثَغَب وهما جميعا ثَغَبٌ وثَغْبٌ قال الشاعر :

وما ثَغَبٌ باتت تُصفّقه الصّبا قرارة نِهْيٍ أتْأَقَتْها الرّوائِحُ »(٧٥)

وقال : « يقال نوءت بالحمل اذا نهضت مثقلا ، وناءني الحمل اذا أثقلك وغلبك » (٧٦) .

« تهيبت الشيء اذا هبته ، وتهيّبني اذا خوّفني ، وقال ابن مقبل :

وما تهيّبُني المَوماة أركَبُها اِذا تَجاوَبت الأصداءُ بالسَّحَرِ

أى لا أُهابها أنا ، قال أبو عبيدة هو مقلوب » (٧٧) .

وقال : « الزُّبْيَة حفرة تحفر للأسد ، والزُّبْيَة جمعها زبى أماكن مرتفعة ويقال في المثل : علا الماء الزبى أى بلغ الأمر أقصاه ، قال العجّاج :

وَقَدْ علا الماءُ الزُّبى فلاغَيَرْ » .(٧٨)

وقال : « أُخْلَفْت الرّجل في ميعاده ، وأُخْلَفْته وافقت منه خلفا ، ومنه قول الاعشى :

أثْوى وَقَصّر ليلةً ليُزوّدا فمَضَت وأخْلَفَ من قُتيلةَ مَوعِدا

---

(٧٤) الاصمعي ٤٦ وابن السكيت ٢٠٠ وابن الانبارى ١٦٢ .
(٧٥) الاصمعي ٤٨ وابن السكيت ٢٠١ .
(٧٦) الاصمعي ٤٨ وابن الانبارى ١٤٤ .
(٧٧) الاصمعي ٤٩ وابن السكيت ٢٠٢ .
(٧٨) الالاصمعي ٥٥ وابن السكيت ٢٠٦ .

أى أصاب موعدها مخلفا » [٧٩] .

وقال : « يقال دَلْوٌ أَدِيَّة مشدّدة الياء وهي الوفق المقتدرة ، وتحوّل الالف ياء فيقال يَدِيّة ، وهي في موضع آخر الواسعة ، قال العجّاج :

أزمانَ إذْ ثوب الصَبيّ يَدِيُّ

أي واسع » [٨٠] .

وقال : « أمر جَلَلٌ أى جليل وأمر جَلَلٌ أى هيّن يسير صغير » [٨١] .

وقال : « السَّدَفُ الظُلْمة والضَّوْء ، وأنشد في الضوء :

قَدْ أسْدَفَ الصبحُ وصاحَ الحِنْزابْ » [٨٢]

وقال : «الخِنْذيذ من الخيل الفحل والخصيّ . وغلط انما الخنْذيذ الفائق من الخيل ومن كل شيء، ويقال: خطيب خِنْذيذ وشاعرٌ خنذيذ» [٨٣]

وقال : « خاف من الخوف ومن اليقين ، وكان يقول (فإن خِفْتم ألاّ تَعْدِلوا) يريد أيقنتم . ولا علم لي بهذا ، لأنه قرآن ، فانّما تحكيه عن ربّ العالمين ولاتدرى لعلّه ليس كما يظنّ » [٨٤] .

وقال : (واللاّئي يَئِسْنَ من المحيض من نسائكم ان ارْتَبْتُم) أى شككتم ويكون ايقنتم ولا علم لي بهذا ولا أعرف فيه الاّ شككتم » [٨٥] .

---

(٧٩) الاصمعي ٥٧ وابن السكيت ٢٠٨ .
(٨٠) ابن السكيت ١٧٤ .
(٨١) ابو حاتم ٨٤ وأبو الطيب ١ / ١٤٥ ، ١٥٠ .
(٨٢) أبو حاتم ٨٦ وأبو الطيب ١/٣٤٦ ولسان العرب ٩/١٤٧ .
(٨٣) أبو حاتم ٨٧ وابن الانباري ٥٩ وأبو الطيب ١/٢٣٢ .
(٨٤) ابو حاتم ٨٨ وابن الانبارى ١٣٧ وابو الطيب ١ / ٢٣٥ ومجاز القرآن ١ / ١١٦ .
(٨٥) ابو حاتم ٨٨ وابو الطيب ١ / ٣٠١ .

وقال : « الحَرْفُ من الرجال القصير والحَرْفُ من الابل الضخمة »(٨٦).

وقال : « ليالٍ دُرْعٌ وهي السود الصدور البيض الأعجاز من آخر الشهر ، والبيض الصدور والسود الاعجاز من أول الشهر ، وكذلك غَنَمٌ دُرْعٌ للبيض المآخير السود المقاديم أو السّود المآخير البيض المقاديم »(٨٧) .

وقال : « كما يقال انه لحقير فيقال وفَوقَ ذلك » (٨٨) في تفسير قوله تعالى (ما بعوضةً فما فَوقَها) .

وقال : « أسْرَرْتُ الشيء أخفيته وأظهرته ايضا ، وكان يقول في هذه الآية (وأسرّوا النَّدامةَ لما رَأَوا العَذاب) أظهروها . ولا أثق بقوله في هذا والله أعلم » (٨٩) .

وقال : « يقال قَمأَت الماشية قَمْأً اذا سمنت ، ويقال صغر فلان وقَمُؤَ قَماءَة » (٩٠) .

وقال : « ماءٌ بَثْر كثير ، وماءٌ بَثْر قليل ، وأنشد في هذا ــ زعم ــ للهذليّ أبي ذؤيب :

فافْتَنَّهنَّ من السَّواء وماؤُه بَثْرٌ وعارضه طريقٌ مهيَعُ

وقال الاصمعي انما بثر اسم ماء بعينه وليس ما قال أبو عبيدة بشيء »(٩١) .

---

(٨٦) ابو حاتم ٩٦ وابو الطيب ١ / ١٩٠ .
(٨٧) أبو حاتم ٩٨ وابو الطيب ١ / ٢٧١ .
(٨٨) ابو حاتم ١٠١ .
(٨٩) ابوحاتم ١١٤ وابن الانبارى ٤٦ وابو الطيب ١ / ٣٥٣ ومجاز القرآن ٢ / ٣٤ والتنبيهات ٢٩٥ ولسان العرب ٤ / ٣٥٧ .
(٩٠) ابو حاتم ١٣٢ .
(٩١) ابو حاتم ١٤٠ ــ ١٤١ وابن الانبارى ٢٩٠ وابو الطيب ١ / ٦٤ .

وقال : « غَفِر من مرضه اذا بَرَأَ ويقال اذا نكس ، وأنشد للمرّار الفقعسي :

لَعمرك إِن الدّارَ غَفْرٌ لذي الهوى
كما يغفرُ المَحمومُ أو صاحبُ الكَلْمِ » .(٩٢)

وقال : « (فلا تَجعلوا لله أَنْداداً) أضداداً »(٩٣) .

وقال : « كانَ : من الأضداد ، يقال : كان للماضي ، وكان للمستقبل ، فأما كونها للماضي فلا يحتاج لها الى شاهد ، واما كونها للمستقبل ، فقول الشاعر :

فأدْرَكت مَن قَد كانَ قَبلي ولم أدَعْ
لِمَن كانَ بَعدي في القصائدِ مَصْنَعا

أراد لمن يكون بعدي » (٩٤) .

وقال : « يقال للصديق والخليل : دُخْلَل ، ويقال للحشو ومن يدخل نفسه في قوم ليس منهم دُخْلَل » (٩٥) .

وقال : (لَقد تقطّع بَينكم) قال أبو عبيدة : معناه وصلكم ، وأنشد بيت المهلهل :

كأنّ رماحَهم أشطانُ بئْر بعيدٌ بَيْنُ جالَيْها جَرورِ ».(٩٦)

وقال : « يقال : أخْفَيت الشيء اخفيه اخفاء اذا كتمته . وأخفيته أيضا أخفيه اخفاء ، اذا أظهرته . قال : وزعم ان قوله تعالى : (ان الساعةَ آتيةٌ أكاد أُخْفِيها) معناه أظهرها » (٩٧) .

---

(٩٢) ابو حاتم ١٤٧ وابو الطيب ٢ / ٥٢٣ .
(٩٣) ابن الانباري ٢٤ ومجاز القرآن ١ / ٣٤ .
(٩٤) ابن الانباري ٦٠ .
(٩٥) ابن الانباري ٢٣٥ .
(٩٦) ابو الطيب ١ / ٨٠ ــ ٨١ .
(٩٧) أبو الطيب ١ / ٢٣٧ ومجاز القرآن ٢ / ١٦ والاقتصاب ٢٣٠ .

وقال : « الصَّريم اللّيل ، والصَّريم النّهار ، عن أبي عبيدة »[٩٨] .

وقال : (عَسى الله) هي ايجاب من الله ، وهي في القرآن كلها واجبة ، فجاءت على احدى لغتي العرب ، لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين ، قال ابـن مقبـل :

ظَنّي بهم كَعسى وهُم بتَنوفَةٍ   يتنازعون جَوائزَ الأمثـالِ

أي ظني بهم يقين »[٩٩] .

نستطيع الآن بعد هذه المجموعة الكافية من الامثلة التي سقناها مـن آرائه في الاضداد وأقواله فيها ، مستخلصة من كتب الاضداد أو كتابه مجاز القرآن أو كتب اللغة والمعجمات اللغوية . نستطيع أن نضع أيدينا على ملامح منهجه في هذا الميدان الذى كان طابع كتابه المفقود ، ومع محاولتنا هذه نسجل ما يعن لنا من ملاحظات اخرى حول هذا الموضوع .

١ ـ لم يعن بالقراءات ولم يعرض لها عند معالجة آيات القرآن الكريم ، فلم نعثر له حتى في آية واحدة ما يبطل هذا الزعم ، علما بأنه من المؤلفين في مجاز القرآن ، فلا بد أن يكون معنيا بالقراءات خصوصا عند التعرض لآية كانت قراءة من القراءات هي السبب في خلق المعنى المضاد ، كما في (تقطع بينكم) التي رأينا كيف أن الفراء ذكـر القراءات فيها ووجه المعنى على قراءة عبدالله ، في حين اكتفى ابو عبيدة وقد قرأها بالضم بأن اعتبر المعنى (وصلكم) .

٢ ـ اما الشواهد فقد كان مهتما بها لو قورن بقطرب ، الا أنه مع ذلـك دون الفراء اهتماما بها . ويلاحظ عليه في هذا المجال أنه شبيه بقطرب من حيث اغفال الشاهد تماما في بعض الالفاظ مثل : الضراء ، الرّهو ،

---

(٩٨) ابو الطيب ١ / ٤٢٦ .
(٩٩)مجاز القرآن ١ / ١٣٤ وابو حاتم ٩٥ وخزانة الادب ٤ / ٧٦ .

بعت ، المنّة ، الكأس ، جلل ، وغيرها . كما اشبهه في أنه قد يستشهد لاحد المعنيين دون الآخر كما في : السدف ، تهيّبت ، الزبية ، بثر ، وغيرها ، والأقل أن يستشهد لكلا المعنيين أو أن يستشهد للمعنى الواحد بأكثر من شاهد كما في شراة ، المولى ، وغيرهما . وشواهده في الغالب الأعم شعريّة .

٣ ـ لم يهتم باللّغات ، ولم يرو عن أحد فكان يكتفي بأن يقول (قيل) أو (يقال) فلا نعلم من أقواله استاذا روى عنه شيئا من الأضداد وافترضنا في رواية الاضداد انه رواها عن يونس بن حبيب ، وهو مجرّد افتراض ليس بأيدينا دليل عليه أكثر من علمنا أنه أخذ عن يونس اشياء من اللغة ، كما أننا لانعلم من أقواله أنه شافه اعرابا وأخذ عنهم المعاني ، وهو سبب انعدام ذكر اللهجات في أضداده .

٤ ـ لم ينقل لنا فيما نقل من أقواله في الاضداد انه ذكر الفقهاء والمفسرين وأصحاب الرأى في القرآن والحديث ، ولعل سبب ذلك بغضه لهم وعداوته التي شملت طائفة كبيرة من العلماء بسبب مذهبه الديني ولؤم عنصره ـ كما مرّ في ترجمته ـ واعتداده برأيه .

٥ ـ لم تكن له نظرة الفراء للّفظة الضد من حيث دور الاستعمال في تغير دلالتها ، أو من حيث شمولية مدلولها الأول . بل كان يذكر اللفظة ومعنييها المتضادين مسلما بهما دون نظر ، ولهذا وجدنا السجستاني كثيرا ما يخطئه فيما ينقل عنه ويبرأ مما يقول ، اما بدافع الحرص على المعنى القرآني ، وما لانه لم يسمع بالمعنى الثاني ، كما في : الخنذيذ ، خاف ، ارتبتم ، أسررت ، البثر ، وغيرها . وهو اذ يختلف مع الفراء في هذا يكون قد أشبه قطربا شبها كبيرا كما مرّ في دراسة كتابه ، وهذا يقوّى اعتبار أبي عبيدة بصرى المنهج اذ كان قطرب كذلك .

ولا يفوتنا أن نذكر للأمانة العلمية احتمال أن يكون النقل عن أبي عبيدة ناقصا مبتورا ، بمعنى أن أبا حاتم مثلا حين نقل نصوصا عن كتاب الأضداد لأبي عبيدة نقلها بالمعنى فلم تجيء كاملة ، أو نقلها مبتورة عن ذكر لغة أو علم أو رواية وما أشبه ذلك ، فجاءتنا أقواله عارية من كل ذلك •

وكان الطريق أمام أبي عبيدة واسعاً لاعمال فكره وذوقه فيما نقل لنا من الاضداد فقد نقل ما يفسر بالتفسير الاجتماعي النفسي على التفاؤل او التشاؤم كتسمية الفرس الحسناء بالشَّوْهاء • وما يفسّر بالمجاز مثل لفظة (دُرْع) ، وما يفسر باللهجات مثل لفظة (السَّدَف) للضوء والظلمة وقد اقتسمت معنييها قيس وتميم ، وما كان بسبب التصريف من زنة فعل وأفعل مثل خفيت وأخفيت ، وغير هذا كثير مما يمكن ردّه ومناقشته ولو بالذوق الفطرى كما فعل كثير من الأضداديين قبله وبعده •

ويلاحظ على ابي عبيدة أنه يذكر من الأضداد ماتنصرف اللفظة فيه الى عدة معان لايتضاد اثنان منها تضادا كاملا ، كما ليس من الأضداد لفظة تنصرف الى سبعة معان كالمولى وان تضاد منها اثنان • كما يلاحظ عليه كذلك انه كان مهتما بمشتقات اللفظة وكل ما يتصل بها من معان قريبة وبعيدة مثل مادة (قرء) التي للحيض والطهر ، فقد وصل بها أبو عبيدة الى (أَقرْأتْ النجوم بمعنى غابت) ، وهو في هذا يشبه قطربا ، اذ وجدناه معنيا بهذا عناية واضحة ، ولعلها خصيصة بصرية متصلة الجذور بفكرة القياس واحصاء المتشابهات • بقي ان نلاحظ ملاحظة أخيرة هي التزام أبي عبيدة في الاكثر أن يذكر بعد الشاهد الشعرى موطن هذا الشاهد بتعليقة صغيرة مثل قوله ــ وقد أنشد قول العجّاج : أزمانَ إذْ ثوبُ الصبيِّ يَدِيٌّ ــ : أي واسع • أو قوله ــ وقد قرأ قول ابن مقبل : ظَنّيٌّ بهم كعسى وهم بتَنوفةٍ ••• الخ ــ : أي ظني بهم يقين وهكذا في (كَان) و (أخْلَفْتُ) و (تَهيَّبْتُ) وغيرها •

نخلص من هذه الملاحظات وتبيّن الخصائص المنهجية لاضداد أبي عبيدة الى النتيجة التي طرحناها سابقا وهي كونه بصرى الدرس ومعالم بصريته واضحة في هذه الميزات التي امتاز بها كتابه الضائع والذى حاولنا أن نكوّن صورة قريبة له بما نقلت مصادر الفنّ عنه ٠

كتابا الأصمعي وابن السكّيت

المؤلف الاول هو ابو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي الاصمعي[1]، ولد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ومائة ٠ أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر ، وسمع شعبة بن الحجاج والحمادين ومسعر بن كدام ، وحكى شيئا يسيرا ــ من العروض لا من اللغة ــ عن الخليل وكان الخليل أسنّ منه ٠ وكان أبو زيد وأبو عبيدة يخالفانه ويناوئانه كما يناوئهما ، فكلهم كان يطعن على صاحبه بأنه قليل الروّاية ٠ أخذ عنه ابن أخيه عبدالرحمن بن عبدالله وأبو عبيد القاسم بن سلاّم وأبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ونصر بن علي الجهضمي وغيرهم ٠

قدم بغداد أيام الرشيد وكان صاحب لغة وغريب وأخبار ونحو وملح ، يكره اختراع المعاني والعناية بالعروض ، وأظن أن سبب ذلك لانه لم يستطع

---

(١) تراجع ترجمته في : أخبار النحويين البصريين ٤٥ وطبقات النحويين واللغويين ١٨٣ ومراتب النحويين ٤٦وتهذيب اللغة ١/١٤ والفهرست ٨٢ ونزهة الالباء ٧٤ وتاريخ بغداد ١٠ / ٤١٠ وانباه الرواة ٢/١٩٧ ومروج الذهب ٣ / ١١٢ ونور القبس ٢١٥ ووفيات الأعيان ٢ /٣٤٤ والنجوم الزاهرة ٢ / ١٩٠ والانساب ١ / ٢٨٨ وعجالة المبتدى ١٨ ولب اللباب ١٧ والمزهر ٢ / ٤٠٤ وبغية الوعاة ٣١٣ وشذرات الذهب ٢ / ٣٦ وتاج العروس ١ / ٣٣ والعدة في الرجال ١٨١ وهدية العارفين ١ / ٦٢٣ وتاريخ بروكلمان ٢ / ١٤٧ والكنى والالقاب٢ / ٣٢ ومعجم المطبوعات ٤٥٦ والاعلام ٤ / ٣٠٧ والاصمعي حياته وآثاره للجومرد ٠

فهم العروض عندما حاول أن يدرسه على الخليل ، والقصّة معروفة من اشارة الخليل له بترك هذا الدرس • ونقل عنه أنه كان يحفظ ستة عشر ألف ارجوزة • وكان من أوثق الناس في اللغة واسرعهم جوابا وأحضرهم ذهنا ، كثير التوقي لتفسير القرآن • وأملى في بغداد كتابا في النوادر فزيد عليه ماليس من كلامه • وللاصمعي مصنفات كثيرة ، منها فيما عدا كتاب الأضداد : غريب القرآن ، خلق الانسان ، الاجناس ، الأنواء ، الهمز ، المقصور والممدود ، الصفات ، الابل ، الخيل ، وغيرها • مات سنة ست عشرة ومائتين عن نيف وتسعين سنة •

والمؤلف الثاني هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت(٢) ، من كبار اللغويين في عصره ، والسكيت لقب أبيه اسحاق الذي كان معلم صبيان في قرية دورق بخوزستان ويرجّح بروكلمان انه آرامي الاصل •

درس ابن السكيت على الفراء وأبي عمرو الشيباني وابن الاعرابي من الكوفيين وروى عنهم • كما أخذ عن الاصمعي وأبي عبيدة والاثرم من البصريين والتقط اللغة من أفواه الاعراب ، حتى كانت مصنفاته الكثيرة مضرب المثل في الجودة والاتقان والثقة ، فقال بعضهم : ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل اصلاح المنطق • وكان سبب قعود ابن السكيت للدّرس وقصدهم اياه أنه عمل شعر أبي النجم العجلي وجوّده • وعرف عنه أنه عالم بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعراء ، رواية ثقة ، حتى

---

(٢) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ٢٢١ ومراتب النحويين ٩٥ وتهذيب اللغة ١ / ٢٣ والفهرست ١٠٨ ونزهة الألباء ١٢٢ وتاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ ونور القبس ٣١٩ ومعجم الادباء ٥٠/٢٠ ووفيات الاعيان ٤٣٨/٥ والفلاكة والمفلوكون ١٣٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٢ والمزهر ٤١٢/٢ وبغية الوعاة ٤١٨ وشذرات الذهب ١٠٦/٢ والعدة في الرجال ١٩١ وهدية العارفين ٥٣٦/٢ وتاريخ بروكلمان ٢٠٥/٢ والكنى والالقاب ٣٠٣/١ وتاريخ آداب اللغة العربية ١١٨/٢ والذريعة ٢١٤/٢ ومعجم المطبوعات ١٢٠ •

انهم اعتبروا علم الكوفيين منتهيا اليه والى ثعلب » وكانا ثقتين أمينين ، ويعقوب أسن وأقدم وأحسن الرجلين تأليفا ، وثعلب أعلمهما بالنحو » ، وقيل ان ابن السكيت احتاج الى الكسب فجعل يتعلم النحو بعد أن كان يؤدب صبيان العامة بدرب القنطرة ببغداد •

وله من المصنفات : اصلاح المنطق ، الذى قال عنه المبّرد : « ما رأيت للبغداديين كتابا خيرا من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق » • وله أيضا : تهذيب الألفاظ ، الامثال ، الاجناس ، النوادر ، سرقات الشعراء ، القلب والابدال ، المقصور والممدود ، السرج واللجام ، والاضداد وهو ماسنبحثه هنا ، وغيرها كثير • حمل من عند المتوكل مقتولا ـ وقصته معروفة ـ سنة اربع وأربعين ومائتين عن ثماني وخمسين سنة •

والذى دعانا الى دراسة الكتابين معا أمران ، الاول : هـو تشابـه الكتابين من حيث المادة والمنهج وطريقة العرض وما الى ذلك ، بحيث يصدق أن يكون الكلام على أى منهما كلاما على الآخر تقريبا ، الا ّ بفروق سنعرض لها ونبيّنها • والثاني : هو اعتقاد جملة من الباحثين المحدثين (٣) أن كتاب الاصمعي ليس للاصمعي وانما هو نسخة اخرى من اضداد ابن السكـــيت محاولين أن يجدوا من هذا التشابه الذى ألمحنا اليه الأدلة على هذا الرأى والبراهين الكافية لما يذهبون اليه ، وسنحاول أيضا الرد عليها ومناقشتها ما أمكننا ذلك •

وتتلخص أدلتهم على خطأ نسبة الكتاب للاصمعي وانه نسخة اخرى من كتاب ابن السكيت في النقاط التالية :

---

(٣) كالدكتور رمضان عبد التواب في مجلة المكتبة ج ٥٥ ص ٦ ومابعدها، ومحي الدين توفيق ابراهيم في مجلة كلية الشريعة سنة ١٩٦٨ م ص ٢٧١ وما بعدها وحسين محمد في مجلة اللسان العربي ج ٩ سنة ١٩٧٢ ص ١١٠ وما بعدها •

١ ـ الفاظ الاضداد التي وردت في كتـــاب الاصمعي هي نفس الالفاظ الواردة في كتاب ابن السكيت ، وعبارات الكتاب الاول وترتيبه هي نفس عبارات وترتيب الكتاب الثاني •

٢ ـ اتفاق الكتابين في طريقة العرض ، فهما يرجعان الى المادة المجرّدة المشتق منها اللفظ ، فـ (القرء) مثلا في مادة (قرأ) و (الضراء) في مادة (ضرا) وهكذا •

٣ ـ الرواية عن الشيوخ واللغويين والرواة هي نفسها في الكتابين ، في حين كانت هناك عداوة شديدة بين الاصمعي وبين بعضهم كأبي عبيدة وابن الأعرابي •

٤ ـ تكرّر عبارة (انشد الاصمعي) و (قال الاصمعي) وما أشبه ذلك في كتاب الاضداد للاصمعي مما يدل على ان المؤلف شخص آخر غير الاصمعي •

٥ ـ في كتاب الاصمعي روايات عن شيوخ مدرسة الكوفة كأبي عمـــرو الشيباني والفرّاء وابن الأعرابي ، ممّا يدل على أن الكتاب ليســـ للاصمعي (البصرى) •

يخلصون من هذا الى أن كتاب الاصمعي في الاضداد ليس له وان نسبته اليه خاطئة ، بل هو لابن السكيت • أما تعليـــل نسبته للأصمعي في المخطوطة التي طبع منها ، فهو ورود اسم الاصمعي في أول الكتاب ، حيث تكون هذه المخطوطة منقولة عن نسخة فقدت منها صفحة العنوان [٤] •
وعندما تذكروا أن المصادر المختلفة وفهارس الكتب القديمة قد ذكـــرت للاصمعي كتابا في الاضداد ، اضطروا الى ان يقـــرّوا للاصمعي بكتاب في الاضداد الاّ انه ليس هذا الكتاب المطبوع بل هو كتاب آخر مفقود فيما فقد

---

(٤) مجلة المكتبة ج ٥٥ ص ٧ •

فلم يصل الينا [٥] .

واعتقد أن الذى فتح الطريق أمام هؤلاء الدارسين للشك في كتاب الأصمعي هو محقق كتابي الاصمعي وابن السكيت ، في عبارته : « يتضح من مطالعة كتاب الأضداد لابن السكيت انه تتبّع كتاب الأضداد للاصمعي الاّ فيما ندر ، فيورد العبارات ذاتها وبالترتيب ذاته ويرفع الى الاصمعي مايورده عنه قائلا :قال أبوسعيد اوقال الاصمعي او الأصمعي مكتفيا بذكر اسمه في بدء ماينقله عنه .ومن ثم يمكنّا اعتبار كتاب الاضداد لابن السكيت كراوية ثانية لكتاب الاصمعي »[٦] ،وهووان كانت المسألة عنده بعكس ماذهبوا اليه ، الا أنه ـ على ما يظهر ـ حفزّهم للرجوع الى الكتابين وتملّي مادتيهما واستخراج هذه الأدلة البعيدة .

وعندى أن ابن السكيت ـ وهو تلميذ الاصمعي المكثر من الرواية عنه ـ حاول أن يضع كتابا في الأضداد على غرار كتاب استاذه الاصمعي ويوحي من مادته ويترسم لمنهجه ، ولعله أخذ كتاب الأصمعي فزاد فيه شيئا ونقص منه أشياء وعدّل هذه العبارة وقوّم تلك ، فكان بالمجموع كتاب يشبه كتاب استاذه شبها كبيرا ويوافقه توافقا واضحا حتى في العبارة والجملة والمادّة . وهذا هو الذى يفسر لنا النقطة الأولى من نقاط أدلة المشككين بنسبة الكتاب للاصمعي . ومما يؤيد ماذهبنا اليه أن ابن السكيت يذكر الأصمعي في كتابه الأضداد ثماني عشرة مرة ناقلا فيها رأيه اوانشاده لشاهد من الشواهد . ويظهر من اخبار ابن السكيت أنه كان من المولعين باعادة النظر في كتبه واعادة تنقيحها كما فعل بكتابه اصلاح المنطق ، فقد نقحه ثم اختصره مرتين ، أريد أن اقول انه ربما بدافع من هذا الولع كان في أول عهده بالتأليف ينقح كتاب الأضداد للاصمعي او غيره ثم لما اكتملت له صناعة

---

(٥) مجلة كلية الشريعة ٢٧٧ ومجلة المكتبة ٧ .
(٦) ثلاثة كتب في الأضداد ١٦٣ (الهامش) .

التأليف راح ينقح مؤلفاته ومصنفاته .

ومع هذا فالاختلاف بين الكتابين ليس بالشيء اليسير ، فمجموع الاضداد في كتاب الأصمعي مائة وخمسة ألفاظ ، في حين هي عند ابن السكيت أربعة وتسعون لفظا فقط ، فابن السكيت لم يوافق الاصمعي في الألفاظ التالية : قهم ، لفأ ، وجه ، أكرى ، قرع ، غابر ، طرب ، زفر ، بلو ، صاقب ، صرد ، عرد . بل زاد عليه لفظ (قيص) [٧] الذى لم يذكره الاصمعي في كتابه . وروى الاصمعي عن ابي عمرو بن العلاء تسع مرات ، في حين روى ابن السكيت عنه سبع مرات ، وروى الاصمعي عن ابي عمرو الشيباني أربع مرات ، في حين روى عنه ابن السكيت ست مرات وروى الاصمعي عن أبي عبيدة ثماني عشرة مرة في حين روى ابن السكيت عنه عشرين مرّة ، وروى الاصمعي عن ابن الاعرابي أربع مرات في حين روى ابن السكيت عنه ثلاث مرات ، وروى الاصمعي عن ابي زيد سبع مرات في حين روى ابن السكيت عنه ست مرات ، وروى الاصمعي عن الفراء مرتين ، في حين روى ابن السكيت عنه ثلاث مرات . ولم يرو الاصمعي عن ابن سلام ويونس بن حبيب وأبي عبيد القاسم بن سلام شيئا في حين روى ابن السكيت عنهم جميعا [٨] . كما يختلف الكتابان في معالجة كثير من المواد مثل :حزّور ، سدف ، جون ، قور ، ناء ، نبل ، فكه ، بين ، ركب ، وغيرها مما يدل على اختلاف المؤلفين وتغيرهما في الكتابين .

أما أن الكتابين يرجعان الى المادة المشتق منها اللفظ كالقرء في قرأ ، فهذا لايعني شيئا ، لانها طريقة متبعة في كثير من الكتب المعنية بالالفاظ وعلى رأسها المعجمات اللغوّية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك في الاضداد كتاب

---

(٧) ابن السكيت ١٧١ .
(٨) المصدر نفسه ١٧٦ ، ١٧٩ ، ٢٠٣ .

الاضداد لابي الطيب فهو سار على هذه الطريقة مرجعا اللفظة الى جذرها اللغوى ، فهل يعني هذا أن كتاب ابي الطيب نسخة اخرى من كتاب ثان • واللغويون انما يتبعون هذه الطريقة فلأنها تنّظم البحث في الألفاظ وتسهل الرجوع اليها • ومع هذا كان تسلسل هذه الجذور وترتيبها مختلفا بين الكتابين فمثلا نجد عند الاصمعي التسلسل : رَها ــ صَرى ــ قَلَص ــ خَجِل ــ قَهَم ــ لَفَأَ ــ قَرَع ــ عَبَد ــ وَجَه ــ شَمَل ــ شَرى • وهو عند ابن السكيت : رَهْوَة ــ قَلَص ــ قَيَص ــ خَجِل ــ قَهَم ــ صَرى ــ شَمل ــ أَدى ــ قَسَط • كما أنهما اختلفا في تسمية المادّة أو الجذر ، فالاصمعي جعل مادة (حَزَوَّر) هي حَزَرَ ، ومادة (رَهْوَة) هي رَها ومادة (وَراء) هي وَرى ، في حين هي عند ابن السكيت : حَزَوّر ورَهْوَة ووَراء •

وأما الرواية عن الشيوخ فقد رأينا أنها مختلفة تماما بين الاثنين وليست نفسها كما يزعمون ، وقد فهرسنا الكتابين واتضح لدينا أن الرواية مختلفة ــ كما مرّ قبل قليل ــ فقد يروى الاصمعي عن أحدهم رواية أو روايتين بالوقت الذى يروى ابن السكيت عنه اكثر من ذلك ، وقد يكون العكس ، كما أن ابن السكيت روى عن جماعة لم يرو عنهم الأصمعي أبدا كابن سلاّم ويونس وأبي عبيد ، وهذا من أجلى وأوضح الاختلافات في الرواية عن الشيوخ في الكتابين • أما ما ادعى من وجود العداوة بين الأصمعي وبين أبي عبيدة وابن الأعرابي استنادا الى ما أخبر به القفطي في الانباه [٩] ، فهي ــ ان صحّت ــ متأخرة في حياة الاصمعي ، أعني أنه بعد أن روى عنهما شيئا من شذور اللّغة ــ وهما أسن منه ــ وقد صنف بعضا من كتبه ومن جملتها الأضداد ، نشأت منافسة وتزاحم على

(٩) انباه الرواة ٢/٢٠٢و٣/١٣٣ •

قصور الخلفاء ثم تطورت الى الاتهام والمناوءة والعداوة ، وربما كان من أسبابها أيضا ـ خصوصا تلك التي بينه وبين أبي عبيدة ـ هو بذاءة ابي عبيدة وكراهية الرواة واللغويين له للؤم عنصره وشعوبيته • فنحن اذن نفترض ان تكون الرواية عنهما في الفقرة التي سبقت هذه العداوة وهي فترة جافلة بالرواية في البصرة •

وتكرر عبارة (قال الاصمعي)[10] أو (انشد الاصمعي)[11] هي الاخرى شائعة في المصنفات القديمة شيوعا كبيرا واقرب الامثلة كتب الاضداد ، فهذا كتاب أبي حاتم فيه (قال ابو حاتم) كثيرا ، وكتاب أبي الطيب اللغوى كثيرا ما تكرر عبارة (قال ابو الطيب) فيه وكتاب ابن الانبارى ملىء بعبارة (قال أبو بكر) ومثل كتب الاضداد جمهرة كبيرة من الكتب في اللغة وغيرها ، ولايعني هذا ان مؤلف اضداد السجستاني شخص آخر أو مؤلف اضداد ابن الانبارى شخص آخر وهكذا ، وانما يحدث هذا اذا كان الكتاب مرويا عن المؤلف ، فالراوى يبدأ روايته لبعض نصوص الكتاب بعبارة (قال فلان) لتوثيق نسبة الكتاب الى المؤلف وارتباطه به ، وهذا الدليل ـ في رأيي ـ على المشككين لا لهم من هذه الناحية • اذ ان راوى كتاب الاصمعي يبدأ بقول (قال الاصمعي) قبل النص ليشعر ان الكتاب للاصمعي وانه مروى عنه •

تبقى مسألة اعتبروها اهم المسائل هي : كيف يروى الاصمعي (البصرى) عن امثال ابي عمرو الشيباني[12] والفراء[13] وابن الاعرابي[14] من الكوفيين ؟ وكان حرى بهم ان يستغربوا ايضا من رواية

---

(١٠) الاصمعي ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٥ •
(١١) المصدر نفسه : ٢٢ •
(١٢) الاصمعي : ٦ ، ١٠ ، ٣١ ، ٤٢ •
(١٣) المصدر نفسه : ٢٨ ، ٥٢ •
(١٤) نفسه : ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٤٨ •

ابن السكيت الذى لم يشكوا في نسبة الكتاب اليه عن امثال الاصمعي وأبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وأبي زيد والاثرم وغيرهم من البصريين ، وهو الكوفي الذى عد هو وثعلب في منزلة واحدة من الدرس والمنهج الكوفي وقد مرت ترجمته والقول فيه . فلماذا لم يكن هذا مما يطعن بوساطته في الكتاب المنسوب اليه .

صحيح ان الاصمعي بصرى المدرسة الا ان روايتين عن الفراء واربع روايات عن أبي عمرو الشيباني واربعا عن ابن الاعرابي لايخرجه من مدرسته ولا يعني شكا في كتابه ، فهو قد لقيهم جميعا في البصرة وبغداد فلا يبعد ان يكون قد سمع منهم شيئا يسيرا وهم كما قلنا اسن منه ، وارجح ان تكون روايته عن الفراء في البصرة عندما مر بها الاخير للقي الخليل فيها وكان الخليل قد توفي [١٥] . وهذه الحدية المدرسية اذا صح التعبير لم تكن في اللغة كما كانت في النحو ، فقد وجدنا ابا زيد من البصريين اللغويين يروى عن الكوفيين اشياء [١٦] ، وكذلك ابن السكيت الذى روى الى جانب رواياته عن الكوفيين روايات عن البصريين [١٧] ، فالمسألة ليست بتلك الغرابة اذا عرفنا انها متوفرة في اكثر من لغوى واكثر من راو غير الاصمعي .

ومع ذلك وجدنا في عرضنا لاختلاف الرواية عن الشيوخ بين الكتابين ، ان الاصمعي في كتابه اكثر من ابن السكيت رواية عن البصريين وبالعكس وجدنا ابن السكيت اكثر من الاصمعي رواية عن الكوفيين بل روى عمن لم يرو عنهم الاصمعي من الكوفيين كأبي عبيد مثلا .

نخلص من ذلك كله الى ان الادلة التي ساقها من شك في نسبة

---

(١٥) انظر سؤال الاصمعي للفراء عن بيت من الشعر : التنبيهات ٨٦ .
(١٦) نزهة الالباء ١٧٥ .
(١٧) بغية الوعاة ٤١٨ .

كتاب الاصمعي اليه بل نفى هذه النسبة الخاطئة ، هذه الادلة متهافتة ولا تقوم على ساق امام التمحيص والنظر الدقيق الذى يتطلبه البحث وتريده الموضوعية في الدراسة ، وربما اراد كل واحد منهم ـ بعد ان ظفر بالمفتاح عند هفنر ـ ان يفتح ابوابا جديدة مهما كانت صحة مايذهب اليه ، لهذا وجدنا بينهم من يصرح بأنه وصل الى هذه الحقيقة قبل فلان ، ويحدد بالاشهر المدة التي سبق فيها صاحبه (١٨) .

اذن فكتاب الاضداد للاصمعي ليس نسخة اخرى من كتاب ابن السكيت سقطت منه صفحة العنوان بل هو للاصمعي نفسه ، وذلك للاختلاف الذى وجدناه بين الكتابين ، مما يؤكد انهما ليسا لمؤلف واحد هو ابن السكيت ، الا ان يكون ابن السكيت قد الف كتابين في الاضداد بهذا المقدار من الاختلاف ، وهو بعيد الاحتمال والتصديق . خصوصا وان الكتب القديمة وفهارس المؤلفات قد أكدت وجود كتاب في الاضداد للاصمعي ـ كما مرت الاشارة الى ذلك ـ وهو بلا شك غير كتاب ابن السكيت الذى اشارت اليه نفس الكتب والمصادر . والتخريج الذى خرج به الموضوع من ان صفحة المخطوطة الاولى التي تحمل عنوان الكتاب واسم المؤلف الذى هو ابن السكيت كما يدعون قد سقطت ، واخذ اسم المؤلف من اول علم ذكر في الكتاب وهو الاصمعي . اقول ان هذا التخريج ضعيف لاتؤيده الحقائق ، واذا صدق في كتاب آخر كالغريب المصنف مثلا حين سقطت منه صفحة العنوان فنسب الى ابي عمرو الشيباني لابتداء الكتاب بذكره (١٩) ، فلا يصدق على اضداد الاصمعي ، ذلك انه لو افترضنا ان تكون النسخة التي حقق منها هفنر الكتاب ساقطة الصفحة الاولى ، فهل نسخة البغدادي صاحب خزانة الادب كذلك وهو قبل هفنر

---

(١٨) مجلة كلية الشريعة : ٢٧١ وما بعدها .

(١٩) مجلة المكتبة ج ٥٥ ، ص ٧ .

بقرون لم تكن فيها طباعة ولا مطبعة ، والظاهر انه كان يملك كلا الكتابين اعني اضداد الاصمعي واضداد ابن السكيت فقال بعد ان اورد قول الراجز :

تَمُدّ بالأعناقِ أو تلويها وتَشتكي لو أنّنا نُشكيها

قال : « وهذا الرجز اورده ابو زيد في نوادره والاصمعي في كتاب الاضداد. وقال: تقول أشْكَيت الرجل اذ أتيت اليه مايشكو منه واشكيته نزعت عنه شكايته ، وكذا قال ابن السكيت في اضداده وأنشد هذا الرجز وأورده ابن جني ايضا في سر الصناعة .. [20] » ، وقول الاصمعي بنصه موجود في اضداده [21] ، ومثله في اضداد ابن السكيت [22] ، فالبغدادي وقد نشر امامه مصادره وكتبه يرجع الى نوادر أبي زيد واضداد الاصمعي وأضداد ابن السكيت وسر الصناعة لابن جني وغيرها من الكتب، وهو يعي عمن ينقل ولمن الكتاب ومن هو المؤلف الحقيقي ، لان صفحات العنوان الاولى لم تكن ساقطة من هذه الكتب !! كما لم يسبق النص في كتاب الاصمعي بعبارة من اى نوع تشعر بنقله عنه . وقد نقل البغدادي في مكانين آخرين من الخزانة عن ابن السكيت دون الاصمعي [23] ونص على كتابه ، الذي سجل لنا ابن خير سند روايته الطويل ، فقد حدثه به ابو عبدالله محمد بن سليمان النفزي عن خاله ... عن ابي بكر بن الانباري عن ابيه عن ابي محمد عبدالله بن محمد بن رستم عن يعقوب بن السكيت [24] .

---

(٢٠) خزانة الادب ٤ / ٥٣٠ .
(٢١) الاصمعي ٥٧ .
(٢٢) ابن السكيت ٢٠٨ .
(٢٣) خزانة الادب ٢ / ١٤٧ ، ٤ / ٢٠٠ .
(٢٤) فهرسة ابن خير ٣٨٢ .

ويلاحظ على منهج الاصمعي في اضداده انه يشبه منهج قطرب وأبي عبيدة من حيث عدم الاستشهاد على كــلا المعنيين المتضاديـــن كما في (الضَّراء) [٢٥] و (أوْجَهَه) [٢٦] وغيرهما . او الاستشهاد على احد المعنيـــين دون الآخـــر كمـــا في (أَدا) [٢٧] ، و (قَوِرَ) [٢٨] و (أَمين) [٢٩] وغيرها . الا انه اختلف عنهما في استشهاده في الحديث . كما شابه قطربا في التفاته احيانا الى اللّغات كما في (قَرَأ) يقــول : « وأهل الحجاز يقولون قِرَةَ بغير همز ، يعني أنّك ان مرضت بعدهـــا فليس ذلك من وباء تلك البلدة ، وقوله العقر وأهل الحجاز يقولـــون عُقْر الدار وأهل نجد عَقْر الدار ، وأهل الحجــاز يضمّون العين والعُقْر أصل الدّار ومنه قيل العقار » [٣٠] . وعني بالمشتقات أكثر مــن عناية أبي عبيدة بها ، يظهر هذا في مواد (ذَفْر) و(قُرْء) و(صَرى) و (ناهِل) [٣١] .

ولا يلتزم الأصمعي منهجا مرسوما في كتابه ، ولا يحاول الخروج الى نتائج في معنى اللّفظ ، أو يعلل ذلك التناقض والاختلاف . وكـــان يتحاشى اذا تعرّض للفظ قرآني أن يبتّ فيه برأى ، بل يورد ما جاء فيه مبيّنا أصح تلك الأقوال ، تاركا للقارىء التفضيل والترجيح . ويقلّل من الشاهد القرآني . كما لم يشر في أوّل الكتاب الى الغرض من تأليفه أو الدافع لذلك . ولو راجعنا مادتي (أقوى) و(سَجَر) في كتابه [٣٢]،

---

(٢٥) الاصمعي ١١ .
(٢٦) الاصمعي ١٨ .
(٢٧) الاصمعي ١٩ .
(٢٨) الاصمعي ٤٤ .
(٢٩) الاصمعي ٥١ .
(٣٠) الاصمعي ٥ـ٦ .
(٣١) الاصمعي ٣٧ .
(٣٢) الاصمعي ٨ ، ١٠ .

تتبيّن طريقته في ايراد الشاهد القرآني مع الألفاظ ، وكيف أنه يذكر الألفاظ التي في الآيات ثم يتبعها الآية ، اذا رأى أن المعنى واضح صريح لا لبس فيه ولا غموض ، وفي هذا دليل على ان تحرجه من القول في القرآن لم يكن شديدا فلا مانع احيانا من تفسير ماجاء في اللغة فيه على ماتروى الاخبار • ولهذا لم يقتصر الاصمعي على ذكر الاضداد في كتابه ، بل ذكر ايضا كلمات اختلف في معانيها باختلاف مواضعها ومناسباتها ، مثل مادة (المَوْلى) التي ذكر لها سبع دلالات ليست متضادة مع الدلالة الاولى [٣٣] •

اما ابن السكيت فيلاحظ على منهجه كثير مما لوحظ على منهج الاصمعي ، خصوصا في ناحية عدم الاستشهاد على كلا المعنيين أو الاستشهاد على أحد المعنيين أو الاستشهاد على كليهما • وشواهده كثيرة متنوعة من القرآن والشعر والامثال ، والى جانب هذه عني بالحديث كما في (صَرى) [٣٤] و (خَفِيَ)[٣٥] و (المَولى)[٣٦] و (باعَ)[٣٧] و (مِثْل) [٣٨] • وطريقته في العرض تكون بأن يذكر المادة اولا ثم يتبعها بمعنييها المتضادين ثم بالشواهد والامثلة كما في مادة (جَلَل) يقول : «جَلَل : والجَلَلُ الهيّن ، والجَلَلُ العظيم ، فقد جلت مصيبتهم اى عظمت ، وأنشد للبيد •• »[٣٩] • أو أنه أحيانا يذكر المعنى الاول ويتبعه بشواهده ثم المعنى الثاني ، مثل مادة (أقْوى) يقول : « والمُقوِي الذى لازاد معه ولامال له ، وكذلك الدار التي قد اقوت من اهلها ، قال الله تبارك

(٣٣) الاصمعي ٢٤ ــ ٢٧ •
(٣٤) ابن السكيت ١٧٢ •
(٣٥) ابن السكيت ١٧٩ •
(٣٦) نفسه ١٨٠ •
(٣٧) نفسه ١٨٤ •
(٣٨) نفسه ٨٦ •
(٣٩) نفسه ١٦٧ •

وتعالى : (ومتاعاً للمُقْوين) ، وفي موضع آخر المقوى الكثير المال ، يقال
أكثر من اتيان فلان فانه مقوٍ .. [40] ..

وعني بالمشتقات كعناية السابقين مثل الاصمعي وقطرب ، الا انه لم يخضع لقطرب ومارواه في اضداده ، لشكه في صحة روايته ـ كما بينا سابقا ـ فلم يوافقه في ثلثي اضداده أو اكثر . وبهذا تحرر من سيطرة المنهج البصرى سيطرة كاملة ، وان كنا نلمح آثاره في روايته عن الاصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، فهو اقرب من الاصمعي للكوفيين مع تأثرات بصرية تركتها تلمذته لبعض البصريين ، والاصمعي اقرب من ابن السكيت الى البصريين مع تأثرات كوفية تركها سماع قديم عن بعض الكوفيين ولقي عابر لاثنين أو ثلاثة من شيوخهم .

كتاب ابي عبيد

المؤلف هو أبو عبيد القاسم بن سلام الخزاعي الهروى [41] ، ولد سنة احدى وخمسين ومائة . كان ابوه عبدا روميا لرجل من اهل هراة . نشأ أبو عبيد مولى للازد في خراسان ، ثم ولى قضاء طرسوس ايام ثابت بن نصر بن مالك . قدم بغداد وحدث بها ما أخذه عن ابي زيد الانصارى وابي عبيدة والاصمعي واليزيدى وغيرهم من البصريين ، وابن الاعرابي وأبي زياد الكلابي ويحيى الاموى وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفراء من الكوفيين وروى الناس من كتبه نيفا وعشرين كتابا في القرآن والفقه .

---

(٤٠) ابن السكيت ١٦٧ .
(٤١) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ٢١٧ ومراتب النحويين ٩٣ وتهذيب اللغة ١/١٩ والفهرست ١٠٦ ونزهة الالباء ٩٣ وانباه الرواة ٣/١٢ ونور القبس ٣١٤ وتاريخ بغداد ١٢/٤٠٣ ومعجم الادباء ١٦ / ٢٥٤ ووفيات الاعيان ٣ / ٢٢٥ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٤١ والمزهر ٢ / ٤١١ وبغية الوعاة ٣٧٦ وشذرات الذهب ٢/٥٤ و تاج العروس ١/٣٦ والكنى والالقاب ١/١١٣ وتاريخ بروكلمان ٢ / ١٥٥ والاعلام ٦ / ١٠ .

ولأبي عبيد من المصنفات : غريب القرآن ، غريب الحديث ، المقصور والممدود ، القراءات ، الامثال السائرة ، عدد آي القرآن ، المذكر والمؤنث، وغيرها . ثم انه لما حج اقام بمكة حتى توفي ودفن فيها في (دور جعفر) سنة اربع وعشرين ومائتين ، وله من العمر ثلاث وسبعون سنة .

وأقدم اشارة لكتابه (الاضداد) هي اشارة (المزهر) للسيوطي [٤٢] المتوفى سنة ٩١١ /هـ ، وهي اشارة متأخرة لو قيست بما ذكره ابن النديم المتوفى سنة ٣٧٧ من اشاراته لكتب الاضداد ، ومن الغريب ان لانعثر في المصادر المختلفة والفهارس القديمة التي سبقت السيوطي على ذكر لكتاب الاضداد بين كتب أبي عبيد ، فهل كان الكتاب مختفيا ثم ظهر بعد ذلك او كان مفتقداً فعثر عليه السيوطي ؟ لا أظن ذلك ، اذ لو كان الامر هكذا لسمعنا بخبره من غير السيوطي من المتأخرين الذين فهرسوا الكتب وعنوا بذكرها وتصنيفها كحاجي خليفة في كشف الظنون او اسماعيل البغدادي في هدية العارفين او ايضاح المكنون أو غيرهما . أما كتاب (الأضـــداد والضد) الذي نسبه بروكلمان الى ابي عبيد القاسم بن سلام والذي زعم وجوده في مكتبة عاشر افندي فهو لغير ابي عبيد وقد اخطأ بروكلمـــان « فالحقيقة انه لا وجود لكتاب بهذا الاسم في مكتبة عاشر افندي ٨٧٤ ، وانما وهم بروكلمان ٢/١٥٨ فنسب الى ابي عبيد هذا الكتاب ، وهو في الحقيقة لأبي حاتم السجستاني كما في دفتر عاشر افندي وكما في بروكلمان نفسه ٢ / ١٦٠ في ترجمة أبي حاتم ، ولقد تحققت بنفسي من ذلك اذ انني سألت قبل حوالي عشر سنوات مضت المستشرق ريتر عن حقيقة هـــذه المخطوطة فأخبرني بما ذكرته لك الآن » [٤٣] .

---

(٤٢) المزهر ١/٥٨١ ، ٢/٢٤٩ .
(٤٣) رسالة شخصية من الدكتور رمضان عبـد التـــواب بتاريـــخ ٣٠ / ٣ / ١٩٧٢ .

الذى نراه ان كتاب (الاضداد) الذى نسبه السيوطي وحده لأبي عبيد ، ما هو الا (باب الاضداد أو كتاب الاضداد) من الغريب المصنف ، نسخه ناسخ دون سائر ابواب الكتاب ـ والتي سمي بعضها بالكتب ككتاب الطير أو كتاب الوحوش ـ معنونا اياه (كتاب الاضداد لابي عبيد) ، حتى اذا وقع بيد السيوطي ظن انه كتاب خاص لأبي عبيد في الاضداد ، يؤيد هذا الذى نذهب اليه ان اوضح مانقل عنه من آرائه في الاضداد هي من (باب الاضداد أو كتاب الاضداد) في الغريب المصنف بالحرف الواحد .
أما اذا ورد اسم ابي عبيد اثناء الكلام على ضد من الاضداد في كتاب او معجم ، وليس هذا اللفظ المبحوث من مادة (باب الاضداد) في الغريب المصنف ، فذلك لأنه ـ بعد الملاحظة الدقيقة ـ لم ينقل عنه الا معنى واحدا من معنيي هذا اللفظ ، وتفسير هذا الامر بعد ذلك يسير في احتمال ان يكون قد ورد ذكر هذا اللفظ في مصنف من مصنفاته الاخرى ، أو في باب آخر من ابواب الغريب المصنف ، لأن اللفظة في هذه الحالة عند أبي عبيد ليست من الاضداد ، وانما هي مادة لغوية يذكر لها معنى من المعاني .

ومن الامثلة التي تدعم هذه المقولة مادة (شعب) [٤٤] ، فما ورد منقولا عنه في لسان العرب وتاج العروس من امر ضديتها ، فهو بنصه في الغريب المصنف [٤٥] ، بما في ذلك الشاهد الذى انشده ابو عبيد لعلي بن الغدير الغنوى في الشعب بمعنى التفريق :

وإذا رأيت المَرْءَ يَشْعَبُ أمْرَه
شَعْبَ العَصا ويَلِجُ في العِصْيانِ

(٤٤) لسان العرب ١/٤٩٧ وتاج العروس ٣/١٣٣ .
(٤٥) الغريب المصنف ٥١٩ .

ومثل هذا مادة (القُرْء)[٤٦] ، فهي بنصها في الغريب المصنف[٤٧]، منقولة عنه في اللسان والتاج . ومثلها مادتي (البَيْع) و (النّاهل) في لسان العرب [٤٨] ، فهي في الغريب المصنف ومن مواد باب الاضداد فيه [٤٩] . اما مادة (النَّبَل) في لسان العرب التي ورد فيها قول ابي عبيد بتضادها ، فلا وجود لها في (باب الاضداد) من الغريب المصنف ، الا ان هذا لايعني انها منقولة من كتاب في الاضداد لابي عبيد ، لأننا وجدناها منقولة عنه في اضداد ابن السكيت [٥٠] ، ونحن نعرف ان ابن السكيت عاصره ، وربما سمع منه شفاها هذه اللفظة ، فجاء ابن منظور ونقلها عنه في اللسان بوساطة كتاب الاضداد لابن السكيت .

وأما ورود ذكره في جملة من الفاظ الاضداد الواردة في لسان العرب أو تاج العروس أو المزهر أو غير ذلك من المعجمات والمصنفات اللغوية ، فلا يتعدى الامر نقل احد معنيي الضد عنه دون الآخر مما يشعر ان اللفظة عنده محصورة الدلالة بهذا المعنى المنقول عنه دون سواه من المعاني ، وهي – اى اللفظة – على هذا ليست من الاضداد عند ابي عبيد ، وبهذا نفسر عدم ورودها في (باب الاضداد) في الغريب المصنف ، لانها يمكن ان تذكر في اى موضع آخر سوى (باب الاضداد) ، ربما كانت في باب من ابواب الغريب المصنف تندرج تحته كما سنرى ، وربما كانت في مصنف آخر من مصنفات ابي عبيد كما اشرنا الى ذلك قبل قليل . ومن امثلة هذا النوع : نَشَد [٥١] ، مَسيح [٥٢] ، المَرُّوب [٥٣] ،

---

(٤٦) لسان العرب ١ / ١٣٠ وتاج العروس ١ / ٣٦٦ .
(٤٧) الغريب المصنف ٥٢٥ .
(٤٨) اللسان ٨ / ٢٣ ، ١١ / ٦٨١ .
(٤٩) الغريب المصنف ٥١٩ ، ٥١٨ .
(٥٠) ابن السكيت ٢٠٣ .
(٥١) لسان العرب ٣ / ٤٢١ ، تاج العروس ٩ / ٢٢٠ .
(٥٢) اللسان ٢ / ٥٩٤ .
(٥٣) اللسان ١ / ٤٤٠ .

النَّوء [٥٤] ، غَمَـدَ [٥٥] ، ظلمة ظلماء [٥٦] .

ولايفوتنا ان ننبه على خطأ وقع فيه محققو كتاب المزهر للسيوطي بخصوص كتاب الاضداد لأبي عبيد ، يقول السيوطي : « وأنشد ابو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الاضداد لأبي داود [كذا] الايادى :

رُبَّ كلبٍ رأيته في وثاق   جُعِلَ الكلبُ للأميرِ جمالا
رُبَّ ثورٍ رأيتُ في جُحر نملٍ   وقطاةٍ تُحمّل الأثقالا

وقال : الكلب : الحلقة تكون في السيف ، والثور : ذكر النمل » [٥٧] .

فنسبوا كتاب الاضداد ـ في الفهرس الذى عملوه للكتب الواردة في المزهر ـ لأبي داود الايادى وليس لابي عبيد ، لأنهم فهموا من العبارة « وأنشد أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الاضداد لأبي داود الايادى » ان الكتاب للأخير وما ابو عبيد سوى شاعر انشد البيتين في الكتاب ، في حين ان المسألة معكوسة ، فالكتاب ـ كما يقصد السيوطي ـ لأبي عبيد ، لانه ذكره ايضا منسوبا لأبي عبيد في موضع آخر من المزهر [٥٨] ، وما أبو دؤاد الايادى ـ وليس ابو داود ـ غير شاعر هذين البيتين فلم يكفهم الخطأ في نسبة الكتاب حتى اخطأو في اسم أبي دؤاد على شهرته ، واظنه في المخطوطة (دواد) بغير همز .

والظاهر من دراسة (باب الاضداد) في الغريب المصنف وأبواب الكتاب عامة ان ابا عبيد كان ينكر كثيرا من الالفاظ ان تكون من الاضداد ، ويحاول ان يعقد لها فصولا وابوابا في كتابه ليشعر انها تندرج تحت هذا

---

(٥٤) اللسان ١/١٧٤ .
(٥٥) تاج العروس ٨/٤٦٩ .
(٥٦) المزهر ٢ / ٢٤٩ .
(٥٧) المزهر ١ / ٥٨١ .
(٥٨) المزهر ٢ / ٢٤٩ .

الباب او ذاك وليست من الاضداد في شيء • ففي باب (فعولة) ادرج (الاكولة) من الغنم وهي التي تعزل للأكل [٥٩] ، وقاسها على الحلوبة والركوبة والعلوفة ، وكل من هذه الالفاظ له معنى واحد ، لاكما عد قطرب والتوزى بعضها من الاضداد • وفي باب (فعلت وأفعلت) جعل وفيت بالعهد وأوفيت بمعنى واحد ، وعذرت الرجل وأعذرته بمعنى واحد من العذر وأنشد قول الاخطل :

فاءنْ تَكُ حربُ ابنَيْ نزارٍ تواضَعَتْ

فَقَدْ أعذَرَتْنا في كلابٍ وفي كعبِ [٦٠]

الا انه عقد بابا آخر للموضوع سماه (باب آخر من فعلت وأفعلت) وجد فيه ان قسما من الافعال يكون لازما ومتعديا في آن واحد فقال : « سَنَدْتُ الى الشيء أسْند سُنُوداً اذا استندت اليه وأسْنَدْت غيرى » [٦١] ، ولم ير في هذا تضادا من نوع ما ، بل اكثر من ذلك فقد عقد ابوابا ذكر فيها من الالفاظ ماعده في (باب الاضداد) من الاضداد ، من مثل ما فعله في (باب افعلت الرجل وغيره اذا وجدته كذلك) قال : « أبو عبيدة وَعَدني الرجل فأخْلفته أى وجدته قد أخْلفني قال : ومنه قول الاعشى :

أثْوى وقصَّر ليلةً ليُزوَّدا

فَمضَت وأخْلف من قُتيلةَ موعِدا » [٦٢]

وقد ذكر هذا الرأى وانشد الشاهد عينه في باب الاضداد ، الا ان الظاهر ان ابا عبيد احس ان الامر لايتعدى ان يكون بفعل الهمزة التي هي

---

(٥٩) الغريب المصنف ٢٨٤ •
(٦٠) المصدر نفسه ٣١٧ •
(٦١) نفسه ٣٢٤ •
(٦٢) نفسه ٣٤١ •

من عوارض التصريف ومثل هذا ما فعله في (باب الكتاب والاستماع) قال : « أبو زيد : كتبت اسمي أكتبه كَتْباً ومثله نَمَقْتُه نَمْقا ولَمَقْتُه أَلْمُقُه لَمْقاً » [٦٣] ، وكان قد ذكر (لَمَقْتُ) في باب الاضداد على انها بمعنى كتبت وبمعنى محوت •

وعقد بابا سماه (باب الاسمين يكون احدهما مع صاحبه فيسمى باسم صاحبه ويترك اسمه) ، ومما قال فيه : « الظَّعائِن هي الهَوْدَج ، وانما سميت النساء ظَعائِن لأنَّهن يكنَّ في الهوادج » [٦٤] ، **فهو هنا يتنبه الى** انتقال مجال الدلالة بفعل العلاقة المكانية بين الاصلين ، في حين عد الاضداديون قبله وبعده (الظعينة والظعائن) من الاضداد • [٦٥]

وبهذا نستطيع ان نفسر قلة مواد (باب الاضداد) في الكتاب ، اعني ان ابا عبيد قد اخرج من هذا الباب ما ادخله غيره فيه ، لهذا لم يشتمل (باب الاضداد) في الغريب المصنف الا على اربعين مادة فقط ، وحتى هذه الاربعون قابلة للتقليل فيما لو اعمل فيها ابو عبيد طريقته في ارجاع المواد الى ابوابها ومحاولة تفسير دلالاتها ، خصوصا تلك التي يكون اثر التصريف واضحا فيها •

كتاب التوّزي

المؤلف هو أبو محمد عبدالله بن محمد التوزى أو التوّجي [٦٦] ،

---

(٦٣) الغريب المصنف ٥٠٠ •
(٦٤) الغريب المصنف ٥٤٦ •
(٦٥) الاصمعي ٤٦ وابن السكيت ٢٠٠ والصغاني ٢٣٧ وابن الانباري ١٦٤ •
(٦٦) تراجع ترجمته في : أخبار النحويين البصريين ٦٥ وطبقات النحويين واللغويين ١٠٦ ومراتب النحويين ٧٥ ونزهة الالباء ١١٩ ونور القبس ٢١٥ وانباه الرواة ٢ / ١٢٦ ولب اللباب ٥٥ والمزهر ٢ / ٤٠٧ والأشباه والنظائر ٣ / ٢٢ وبغية الوعاة ٢٩٠ وتاج العروس ١/ ٣٤ وهدية العارفين ١ /٤٤٠ وتاريخ بروكلمان ٢ / ١٦٢ ومعجم المؤلفين ٦ / ١٤٣ •

منسوب الى موضع من بلاد فارس اسمه توّز وهم يسمّونه اليوم (توّج) . ودعي بالقرشيّ لانه كان مولى لقريش . وهو من أكابر أئمة اللّغة ، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد والأخفش قرأ كتاب سيبويه على الجرمي . قال عنه المبّرد : ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من أبي محمد التوزى ، كان أعلم من الرياشي والمازني وأكثرهم رواية عن أبي عبيدة ، ونقل انه ناظر أبا حاتم السجستاني في اللغة والنحو فتفوق عليه .

كان التوزى يغلّط استاذه أبا عبيدة في اللغة والشعر ، فقد نقل عن أبي عبيدة أنه فسّر (جُمانة) و (العاقِر) في البيت :

أمّا الفُؤاد فَلَنْ يزالَ موكلاً
بهوى جُمانَة أو بحبِّ العاقِر

على أنهما امرأتان . فيضحك التوزى ويقول : هما والله رملتان عند بيوتنا . صنّف التوّزى كتبا منها : الخيل ، الامثال ، الأضداد ، وغيرها . توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل .

أما كتابه (الأضداد) فربّما كانت الاشارة اليه هي أقدم الاشارات على الاطلاق لمجموع كتب الاضداد . فقد ذكره ونقل عنه المبّرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ في كتابه (الكامل) ، وبين التوزى والمبّرد من الزمن اثنتان وخمسون سنة فقط بلحاظ تاريخ وفاتيهما ، أما اذا أخذنا زمن تأليف الكامل بنظر الاعتبار ــ اى في حياة المبّرد ــ فتكون المدة اقصر من ذلك، ونستشعر من نصوص المبّرد المنقولة عن الكتاب ، أنه رأى الكتاب أو حدّثه التوزى نفسه عمّا فيه « حدثني التوزى في كتاب الأضداد »(٥٧) « وانشدني التوزى عن أبي زيد » (٥٨) ، « ذكر التوزى في كتاب الاضداد » (٥٩) ،

(٥٧) الكامل ١ / ٢٥٥ .
(٥٨) الكامل ٣ / ٢٢٧ .
(٥٩) الكامل ٣ / ٢٢٨ .

مما يوثق نسبة الكتاب ووجوده متداولا في الايدى مدة من الزمن • حتى اذا جئنا الى ابن خير الأشبيلي (ت ٥٧٥) وجدناه يروى الكتاب عن شيوخه في الاندلس ، فيقول : « كتاب الأضداد لأبي محمد التوزى ، حدثني به أبو عبدالله محمد بن سليمان النفزى عن خاله الاديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي عن أبي عمر يوسف بن خيرون السهمي عن أبي القاسم احمد بن أبان بن سيد عن أبي علي البغدادى عن أبي بكر بن دريد عن أبي عثمان سعيد بن هارون الاشناندانى عن ابي محمد عبدالله بن محمد التوزى مؤلفه رحمه الله » (٦٠) •

وعلى ان الكتاب من الكتب الضائعة التي لم تصل ، الا أننا نستطيع أن نتبيّن شيئا منه مما نقلته عنه الكتب والمصادر ، فقد نقل عنه المبّرد في (الكامل) مرتين (٦١) ، وفي (ما اتفق لفظه واختلف معناه) مرة واحدة (٦٢) ، وذكره أبو الطيب اللغوى في أضداده خمسا وسبعين مرة (٦٣) ، فيكون مجموع ما نقل عنه من آرائه وانشاده في الأضداد ثمانيا وسبعين مرّة • وهي كل ماوصلنا عنه في هذا الموضوع اذ تكون هذه المجموعة من النقول هي زبدة كتابه ، ومنها نستطيع أن نتعرّف على منهجه فيه وروايته للأضداد •

وبالرغم من أن اغلب مانقل عنه في الأضداد جاء عاريا من سند الرواية اذ تبدأ النقول عادة بعبارة (قال التوزى) الا أننا عثرنا بينها على سبع مرات يرجع التوزى فيها رواية الأضداد الى أبي عبيدة (٦٤) ، ومرتين الى

---

(٦٠) فهرسة ابن خير ٣٨٤ •
(٦١) الكامل ١ / ٢٥٥ ، ٣ / ٢٢٧ — ٢٢٨ •
(٦٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ٥ •
(٦٣) أبو الطيب : فهرس أعلام الكتاب •
(٦٤) أبو الطيب ١ / ١٠٤ (التلْعَة) ، ١ / ١٨٦ (الحَزَوَّر) ، ١/٢٤٠ (خَفَيْت) ، ٢٩٦/١ (النُّوب) ، ٣٥٣/١ (أسْرَرْتُ) ٤٢٦/١ (الصَّريم) ، ٥٢٣/٢ (الغَفْر) •

الاصمعي [٦٥] ، ومرة واحدة الى أبي عبيد [٦٦] ، ومرة واحدة الى أبي زيد [٦٧] ، ومرة واحدة الى ابي مالك [٦٨] ، مما يؤكد أن اخذه عن ابي عبيدة في الاضداد كان أكثر من أخذه عن سائر اساتذته ، وأن الكتاب كان مملوءا بالنقل عنه من غير نص على ذلك • وهـذه المرّات السّبع صورة من ذلك ، لأن أبا الطيب وغيره ممن يعنى بنقل الرأى والشاهد لا يهمه بعد ذلك أن يذكر عمّن رواه صاحب الكتاب الذى ينقل عنه الاّ في النادر ، حتى وان كان صاحب الكتاب قد نصّ على مصادره وذكر أسانيد نصوصه •

الاّ أن اللاّفت للنظر في نقول أبي الطيب عنه أنه يقرنه دائما بأبي حاتم ويقول (قال أبو حاتم والتوزى) وهذا يصدق على الاكثر الاعم مما نقل عنهما ، ولم يفرّقهما الاّ في مرات قليلة جدا • وهذا أمر يدعو للتساؤل حين يكون النص المنقول عن كتابيهما متحدا للدرجة التي تخوّل أبا الطيب أن يقول دائما (قال أبو حاتم والتوزى) فهل كان النّص فعلا متحدا في الكتابين ؟ يظهر أنه كذلك ، فبين أيدينا كتاب السجستاني في الأضداد يؤيد صحة نقل أبي الطيب عنه ، ولكن ليس بين أيدينا كتاب التوزى ، فتكون هذه الصحة في النقل عن أبي حاتم قرينة على الصحة في النقل عن التوزى ، وحين يوحد أبو الطيب النص بينهما ويشركهما في القول، يكون مؤكدا بعد ذلك أنّ نّص كتاب التوزى موحد مع نص أبي حاتم، ان لم نقل وحدة كاملة فلا أقل من وحدة في المواد اللغويّة وطريقة عرضها والاستشهاد عليها • فهل نقل أحدهما عن الآخر نقلا موسعا أو حكى عنه شيئا يفسّر هذا التشابه الكبير بين الكتابين ؟ لايبدو هذا الافتراض صحيحا ،

(٦٥) ابو الطيب ١ / ١٠٣ (التَّلْعَة) ، ١ / ٣٦٥ (المَسْجور) •
(٦٦) نفسه ٢/٦٤٦ (مِنْجاب) •
(٦٧) نفسه ١ / ٣٥٦ (سِوى) •
(٦٨) نفسه ١ / ٣٥٣ (أَسَرَّت) •

لأن التوزى ـ وهو تلميذ أبي عبيدة وأبي زيد والاصمعي ـ لايمكن أن يروى عن تلميذهم شيئا أو يحكي عنه لغة ، علما بأن التوّزى متقدم في العصر عليه فقد توفي سنة ٢٣٣ في حين توفي أبو حاتم سنة ٢٤٨ ، فهل العكس صحيح ، أي هل كان أبو حاتم هو الراوى عن التوزى والناقل عنه معظم مادته في الأضداد ؟ الرجوع الى كتاب أبي حاتم لايؤيد هذا أبدا ، فلم يذكر التوزى فيه مرة • اذن لابّد أن يكونا قد التقيا في ورد واحد ، اعني ان مصادرهما لابد ان تكون واحدة ، فهل هذا الاحتمال وارد ؟ الظاهر أنه كذلك ، لأمور الأول : أن كلا منهما تلميذ أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي ، وهؤلاء كثيرا مايردون عند أبي حاتم في أضداده كما وردوا فيما نقل عن التوزى من الأضداد • والثاني : أنّهما من مدرسة واحدة هي مدرسة البصرة وقد تعاصرا في الدراسة فيها والتصنيف في مواد اللغة والتأثر بمنهجها في العرض والمعالجة • والثالث وهو أهمها : أنهما كانا راويي أضداد أبي عبيدة خاصة ، لكثرة النقل عنه عند كليهما ، وهذه الكثرة أكسبتهما تشابها في المادة والاستشهاد عليها ، يتوضّح هذا فيما نص عليه عندهما أنه عن أبي عبيدة ، أو فيما نّص عليه أحدهما أنه عنه وأغفل الثاني هذا النّص ، بمعنى أنه حين ينّص التوزى على أن هذا الحرف من الأضداد عن أبي عبيدة ، ولانجد أبا حاتم قد نص على مثله في كتابه نعرف بهذه القرينة أنه رواه أيضا عن أبي عبيدة ، والعكس صحيح اذ أنه حين ينّص أبو حاتم على نقله هذا المعنى عن أبي عبيدة ولاينّص التوزى ، نعرف أنه نقله عن أبي عبيدة أيضا ، والامثلة على هذا كثيرة ، فمثلا تفريق التوزى في مادة (القُمُوء) التي هي للصّغر والسّمن بين المعنيين : « قال التوزى : قَمُوءتْ في الصّغر أى صارت قَميئة ، وَقَمَأتْ قَمْأً في السّمن لاغير » (٦٩) ، هذا التفريق هو لأبي عُبيدة وان لم ينّص التوزى ، عرفنا

---

(٦٩) أبو الطيب ٢ / ٥٨٢ •

ذلك من نقله عند أبي حاتم حيث يقول : « وقال أبو عبيدة : يقال قَمَأَت الماشية قَمْأً اذا سمنت ، ويقال : صَغُر فلان وقَمُؤَ قَماءَةً » [٧٠] ، ومثله نقل أبي الطيب عن التوزى أنه ذكر لمادّة (يَتَفَكَّهون) ـ التي هي بمعنى يتندمون أو يَتَلَذَّذون ـ معنى ثالثا : « قال التوزى : يَتَفَكَّهون أيضا يأكلون الفاكهة » [٧١] ، في حين هي عن ابي عبيدة في أضـــداد السجستاني [٧٢] ، وسوى هذين المثالين كثير •

كما أننا نستطيع أن نعرف بهذه الوساطة من المقصود مثلا بعبارة (وقال بعضهم) عند أبي حاتم في مادة (المَسْجور) [٧٣] ، فبالمقارنة بما نقل منها التوزى نعرف أنه الاصمعي [٧٤] ، أو بعبارة (يقال زعموا) عند أبي حاتم في مادة (المِنْجاب) [٧٥] ، فبالرجوع الى هذه المادة عند التوزى نعرف أنها عن أبي عبيد القاسم بن سلام [٧٦] • هذا عدا النصّ المشترك بينهما على أبي عبيدة في مواد : (الغَفْر) [٧٧] ، (أَخْفَيْتُ) [٧٨] ، (أَسْرَرْتُ) [٧٩] وغيرها من ألفاظ الاضداد التي نصّ كلاهما على مصدرها •

ويختلط الأمر أحيانا على أبي الطيب في النقل عنهما ، كقوله في مادة (سِوى) : « قال ابو حاتم : وأنشدنا أبو زيد لحسان أو غيره :

---

(٧٠) ابو حاتم ١٣٢ •
(٧١) ابو الطيب ٢ / ٥٤٦ •
(٧٢) ابو حاتم ١٣٢ •
(٧٣) ابو حاتم ١٢٧ •
(٧٤) اضداد ابي الطيب ١ / ٣٦٥ •
(٧٥) ابو حاتم ١٣٤ •
(٧٦) اضداد ابي الطيب ٢ / ٦٤٦ •
(٧٧) ابو حاتم ١٤٧ وابو الطيب ٢/٥٢٣ •
(٧٨) ابو حاتم ١١٥ وابو الطيب ١ / ٢٤٠ •
(٧٩) ابو حاتم ١١٤ وابو الطيب ١ / ٣٥٣ •

أتـانـا فَلَم نَعْـدِلْ سِــواه بغَــيرِه
نبــيٌّ أَتى من عندِ ذي العَرشِ صادقُ

قال اللغــوى : وأما التوزى فانه روى هذا البيــت بعينه على غير هــذا الروىّ وقال أنشدني أبو زيد :

أتانا فَلَمْ نَعْــدِلْ سِــواه بغَــيرِه
نبيٌّ أَتى من عندِ ذي العَرْشِ هاديا »[٨٠]

في حين نجد رواية البيت في أضداد أبي حاتم هي نفس رواية التوزى له ، والروىّ نفس الروىّ وليس (صادِق) كما قال أبو الطيب [٨١] . فهل هذا التغيير في أضداد السجستاني من فعل النسّاخ اذ تكون في نسخة أبي الطيّب (صادق) وفي نسختنا المحققة (هاديا) ، أم انه تخليط من أبي الطيب ووهم ، اذ من الممكن أن تكون روايته معكوسة بين أبي حاتــم والتوّزى ؟ الذى أرجحه ان كتاب التوزى كان يحوى الروايتين وربّمــا علّق التوزى عليهما ، فاكتفى أبو الطيب باحداهما عن الأخرى وقارن بينها وبين رواية أبي حاتم للبيت الشعرى . فكثيرا مايعلق التوزى على الشواهد تعليقات مختلفة تعنى بشرح المفردات تارة أو باختلافات الروايات تارة اخرى أو بيان الوجه اللغوى في الاستعمال أو بالتخريج النحوى وما الى ذلك ، مثل تعليقاتــه على الشواهــد في مــواد : (البَسْل)[٨٢] ، (بَيْضَة البَلَد)[٨٣] ، (الحَزَوّر)[٨٤] ، (أرَمّ)[٨٥] ، (السَّدَف)[٨٦] ،

---

(٨٠) ابو الطيب ١ / ٣٥٦ .
(٨١) أبو حاتم ١٢٣ .
(٨٢) ابو الطيب ١ / ٣٤ .
(٨٣) نفسه ١ / ٥٣ .
(٨٤) نفسه ١ / ١٨٨ .
(٨٥) نفسه ١ / ٣٢٢ .
(٨٦) نفسه ٣٤٨/١ .

(شَرَيْتُ) [٨٧] ، (عَسْعَسَ) [٨٨] ، (أَفَدْتُ) [٨٩] ، (فَزِع) [٩٠] ، وغيرها . فلا يبعد على هذا ما رجحناه في أمر رواية بيت حسّان .

ومهما يكن من أمر فان حسن الظن هو الذى دفعنا لقول ما قلناه في أمر تشابه الكتابين تشابها كبيرا وخصوصاً فيما نقل فيهما عن أبي عبيدة وهو الغالب فيهما اذا اخذنا بنظر الاعتبار ما قلناه في كشف كل منهما للآخر عن مواطن النقل عن أبي عبيدة . والاّ فنحن نظنّ ظنا - لايدعمه من الادلة سوى الحالة العامة التي نحن فيها من أمر الكتابين - أن كلاً منهما حاول بعد وفاة أبي عبيدة سنة ٢١٠ أن يدّعى الكتاب مضيفا من عنده ما لا يغني من فقر او يسمن من جوع ، من مثل ردود أبي حاتم على أبي عبيدة في تفسير الآيات الكريمات - وسنأتي على بيانها في الكلام على كتاب أبي حاتم - او بنقل رواية أو روايتين عن الأصمعي وأبي زيد وغيرهما مقحمة في الكتاب ليشعر أنه من تأليفه . ولاحاجة لأن نقول في خلق أبي حاتم شيئاً فقد كفتنا مصادر ترجمته هذه المؤونة ، الاّ انه لايفوتنا أن نذكر أنه كان كثير الاتهام لغيره بادّعاء الكتب وسرقتها ، وفي هذا تفسير نفسيّ لما نذهب اليه .

ونقول في التوزى ما قلناه في أبي حاتم ، مع تسجيل غرابتنا من قلّة ذكره لأبي عبيدة فيما نقل عنه في الاضداد . فبالوقت الذى نقل عنه ابو الطيب خمسا وسبعين مرّة ، لم يذكره راوياً عن أبي عبيدة الاّ في سبع مرات ، خصوصا وقد عرفنا عن طريق ابي حاتم ان أغلب ما رواه التوزى هو عن ابي عبيدة . فان كان ابو الطيب لا يذكر سلسلة الرواية عند نقل

---

(٨٧) نفسه ١ / ٣٩٩ .
(٨٨) نفسه ٢ / ٤٩٠ .
(٨٩) نفسه ٢ / ٥٣٩ .
(٩٠) نفسه ٢ / ٥٤٣ .

نص من النصوص فلماذا ذكر أبا عبيدة في سبع مرات من خمس وسبعين مّرة ؟ وقد قلنا قبلا أن أبا الطيب وغيره ممن يعنى بنقل الرأى ، لايلتزم نقله معنعنا ، وانّما يكتفي بأن يذكر صاحب الكتاب الذى ينقل عنه ، ولكن لماذا هذه المّرات السبع التي ذكر فيها أبو الطيب أبا عبيدة فيما نقل من كتاب التّوزى ؟ الظاهر ان هذه هي كل المّرات التي ذكره فيها التّوزى نفسه في الكتاب ،مهملا ذكره فيما أخذه عنه في سائر المواد أو ما هو قريب من ذلك • لأن هذه النسبة هي شبيهة بنسبة ما ذكره أبو حاتم في كتابه عن أبي عبيدة لمجموع مواد الكتاب ، فقد بلغت مواد الأضداد عند أبي حاتم (١٦٩) مادة ، ذكر أبا عبيدة في عشرين منها • وقد عرفنا أن التوزى وأبا حاتم قد نقلا عن أبي عبيدة أكثر مما نّصا عليه أنه عن أبي عبيدة ، كما كشف كل منهما عن هذه الحقيقة عند الآخر • فيكون في الامر بعد ذلك اخفاء متعمد لأبي عبيدة عند كلا التلميذين في كتابيهما في الأضداد ، وهي الحقيقة التي نرمي الوصول اليها •

ونحن نفترض بعد هذا ان تكون ظواهر كتاب أبي عبيدة التي تلمسناها فيما روى عنه من الاضداد هي نفسها في كتاب التوزى ، وخصائص المنهج هي نفس الخصائص • فمثلما فات ابا عبيدة أن يعمل فكره قليلا في تفسير التضاد الحاصل لجملة من الألفاظ ــ كما حاول ذلك الفراء مثلا في أضداد آيات القرآن الكريم أو ما فعله أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (الغرب المصنّف) ــ فات التوزى ايضا أن يفعل ذلك في كتابه فقد ذكر من الأضداد ما يفسر تضاده بعوامل التصريف ، مثل : (الأكُولَة) للشخص الآكل والهاء للمبالغة ، وللشاة المأكولة [٩١] ، و (التَّبيع) للتابع والمتبوع [٩٢] ،

(٩١) ابو الطيب ١ / ٢٤ •

(٩٢) نفسه ١ / ١٠١ •

و (ركوب)[٩٣] ، و (الرَّغوث) [٩٤] ، و (الزَّجور) [٩٥] ، و (الزّاهق)[٩٦] ، و (الصَّريم)[٩٧] ، وقال المبرد : « أنْشَدني التوزي عن أبي زيد :

يا ريَّها إنْ سَلِمَتْ يَميني وَسَلِم السّاقي الذي يَليني
وَلَم تَخُنّي عُقَدُ المنينِ

يريد الحبل الضعيف ، فهذا هو المعروف ، ويقال : منين وممنون كقتيل ومقتول وجريح ومجروح ، وذكر التوزي في كتاب الأضداد أن المنين يكون القويّ ، فجعله فعيلاً من المنّة والمعروف هو الأوّل » [٩٨] ، وقال المبرد ايضا : « وقوله :

يَظلُّ منها صَحيحُ القَوم كالمُودِي

فالمودى في هذا الموضع الهالك ، وللمودى موضع آخر يكون فيه القوى الجاد ، حدثني بذلك التوزى في كتاب الأضداد وأنشدني :

مُودون يَحْمون السَّبيلَ السّابلا

المُؤدى بالهمز : التام الأداة والسّلاح ، وبغير الهمز : الهالك » [٩٩]، وواضح من هذا أنه لم يلتفت الى دور العوارض التصريفية في الايهام بتضاد اللفظة وقد تنبه المبرد في المثالين الى هذا .

وبالوقت الذى يذكر فيه ألفاظا تضادهاواضح مثل : (البَسْل) للحرام والحلال [١] ، و (النَّحيح) للبخيل والسخي[٢] ، يذكر ألفاظا لا تضاد

---

(٩٣) ابو الطيب ١ / ٣٠٦ .
(٩٤) نفسه ١ / ٣٠٨ .
(٩٥) نفسه ١ / ٣٣٢ .
(٩٦) نفسه ١ / ٣٣٣ .
(٩٧) نفسه ١ / ٤٢٦ .
(٩٨) الكامل ٣ / ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(٩٩) الكامل ١ / ٢٥٥ .
(١) ابو الطيب ١ / ٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٦٥٠ .

في معنييها مثل (اجْلعبّ) مضى واضطجع [٣] ، وليس المضيّ ضد الاضطجاع وانما الاقامة ، والجلوس ضد الاضطجاع . ومثلها (الزّاهق) للميّت والسمين [٤] ولا تضاد بينهما فقد يكون الميت سمينا . ومثلها (أشَفّ) [٥] ، وغيرها . لذا فهذه الألفاظ وأشباهها مما عدّه من الأضداد، هي في الحقيقة ليست منها ، بل هي للمشترك اللفظي اقرب وبه ألصق .

وما ذكر ما يفسر بشمولية المدلول الأول ، مثل (الدّائم) للساكن والمتحرك [٦] والدائم يصدق على كليهما اذا كان كل منهما دائما على الحالة التي هو فيها من السكون او الحركة ، ومنه ما يفسّر على التفاؤل مثل (المَفازَة) للمنجاة والمهلكة [٧] ، و (المُقْوى) للضعيف الذى لا زاد له ولا مال وللقوى [٨] ، ومنه ما يفسّر على السّلب مثل : (خَفَيْتُ وأَخْفَيت)[٩] و (ثابَ وأَثابَ) [١٠] ، و (رَمَّ وأَرَمّ)[١١] .

اما شواهده فمتنوعة ، منها الشعر الذى كان يعلق بعد ايراده تعليقات مختلفة كما أشرنا الى ذلك سابقا . ومنها القرآن وقد استشهد بآياته في : (الأكولة)[١٢] و (خَفَيْت)[١٣] و (التفكه) [١٤] ، و (المفازة) [١٥] ،

---

(٣) ابوالطيب ١ / ٦٦ .
(٤) نفسه ١ / ٣٣٣ .
(٥) نفسه ٢ / ١٢ ٤ .
(٦) نفسه ١ / ٢٦٤ .
(٧) نفسه ٢ / ٥٦٠ .
(٨) نفسه ٢ / ٥٦٩ .
(٩) نفسه ١ / ٢٣٨ .
(١٠) نفسه ١ / ١٢٤ .
(١١) نفسه ١ / ٣٢٢ .
(١٢) نفسه ١ / ٢٤ .
(١٣) نفسه ١ / ٢٣٨ .
(١٤) نفسه ٢ / ٥٤٦ .
(١٥) نفسه ٢ / ٥٦٠ .

و (المُقوى)[١٦] ، و (الهاجد)[١٧] . وفي خلال استشهاده بالقرآن قد يعرض لآراء المفسرين كما في (خَفَيْتُ وأخفَيْتُ) . ومن شواهده : الامثال كما في (حزوّر)[١٨] ، ومنها القصص والاخبار كما في (الجَوْن) وقد ذكر قصة الدروع التي عرضت على الحجاج [١٩] ، ومنها التمثّل بلغة العرب واستعمالاتها كما في (النّحيح)[٢٠] ، الا أن التوزى يبعد أحيانا في شواهده عن موطن الشاهد ، ففي مادة (بَيضَة البَلَد) التي هي للمدح وللذم : « أنشد التوزى في المدح :

كانَتْ قريشٌ بيضةً فتفلَّقت فالمُحُّ خالصُه لعَبْدِ منافِ

قال أبو حاتم : ليس هذا من هذا الباب قال أبو الطيب: وهو كماقال » [٢١].

ويذكر اللغات احيانا عند ايراد المعاني كقولهفي (خَفَيْت وأخْفَيت): « لغتان في الاظهار والكتمان جميعا » [٢٢] ، كما عرض لمشتقات بعض الألفاظ مثل (شَعَبْتُ) فبعد ان ذكر المعنيين المتضادين : أصلحت وفرقت، راح يقول : « والشّعب الفرقة من الفرق . يقال هؤلاء شعبي أى فرقتي . وأنشد :

وقَد عَلم الشّعْبُ أنّا لَهُم إزاءٌ وأنّا لهم مَعقِلُ »[٢٣]

وأوضح من هذا ما فعلـــه في مادة (حَرَس) وقد ذكر لها معنى واحدا هو : حفظ وكلأ ، قال : « يقال حَرَس فلان الشيء يحرسُه حرســاً

---

(١٦) أبو الطيب ٢/٥٦٩ .
(١٧) نفسه ٢ / ٦٨٠ .
(١٨) أبو الطيب ١ / ١٨٦ ــ ١٨٨ .
(١٩) ما اتفق لفظه وأختلف معناه ٥ .
(٢٠) أبو الطيب ٢ / ٦٥٠ .
(٢١) المصدر نفسه ١ / ٥٥ .
(٢٢) نفسه ١ / ٢٣٨ .
(٢٣) نفسه ١ / ٣٠٤ .

وحِراسةً وحرسةً ومَحرِساً ، اذا حفظه وكلأه ، والشيء مَحْروسٌ وَحَريس » (٢٤) .

كتـــاب أبي حاتـــم

المؤلف هو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد السجستاني الجشمي (٢٥) ، سكن البصرة وظل بها ، واذا ما خيّبت بغداد أمله عاد الى البصرة وبقي فيها الى ان مات . أخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي وعمر بن كركرة وروح بن عبادة وغيرهم ، وقرأ كتاب سيبويه على الاخفش مرتين . وكانت تقرأ على أبي حاتم كتب الأخفش فيرد ما فيها ، واتهم الاخفش بسرقة كتاب علي الجمل في النحو وكتاب ابي عبيدة في مجاز القرآن ؟ ! كان حسن العلم بالعروض واخراج المعمى ، ويعد من الشعراء المتوسطين . ترك النحو بعد اعتنائه به ، ولم يكن حاذقا فيه ، حيث انه كان اذا التقى هو والمازني تشاغل او بادر خوفا من ان يسأله المازني عن النحو .

أخذ عنه ابن دريد وعليه اعتمد في اللغة ، وجالسه شمر وابن قتيبة ، وكان المبرد يحضر حلقته ويلازم القراءة عليه وهو غلام . قيل ان ابا حاتم كان يظهر السنة ويضمر الاعتزال ، وقيل انه كان يضمر الخارجية كأبي عبيدة ، وبهذا فسروا احترام ابي عبيدة له . قال الرياشي لجماعة

---

(٢٤) أبو الطيب ١/٢٢٥ .

(٢٥) تراجع ترجمته في :أخبار النحويين البصريين ٧٠ وطبقات النحويين واللغويين ١٠٠ ومراتب النحويين ٨٠ وتهذيب اللغة ١ / ٢٢ ونزهة الالباء ١٢٩ وانباه الرواة ٢ / ٥٨ ووفيات الاعيان ٢ / ١٥٠ ومعجم الادباء ١١ / ٢٦٣ ونور القبس ٢٢٥ والفلاكة والمفلوكون ١١٣ والنجوم الزاهرة ٢/٣٣٢ والمزهر ٢/٤٠٨ وبغية الوعـــاة ٢٦٥ وشذرات الذهب ٢ / ١٢١ والعدة في الرجال ١٧٩ وهدية العارفين ١ / ٤١١ وتاريخ بروكلمان ٢ / ١٥٩ والكنى والالقاب ١ / ٤٢ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢ / ١٨٥ ومعجم المطبوعـــات ١٠٠٨ والاعلام ٣ / ٢١٠ .

وهم يدفنونه ويترحمون عليه : ذهب معه بعلم كثير ، فقال له بعض اصحابه : كتبه ، فقال : الكتب تؤدى مافيها ، ولكنّ صدره • وكان الاصمعي يجلّه من أجل القرآن ويقوم له ويعانقه • قيل انه كان يتصدق كل يوم بدينـار على أنه لم يكن من الغنى في شيء ، فقد كان يتعاطى بيع الكتب والتجـارة فيهـا •

له من المؤلفات : مايلحن فيه العامّة ، المذكر والمؤنث ، المقصـور والممدود ، القراءات ، خلق الانسان ، الاتباع ، النخل ، الوحوش ، الادغام ، الاضداد ، وغير ذلك كثير • توفيّ سنة ثمان وأربعين ومائتين في يوم مطير ، وصلّى عليه سليمان بن القاسم •

أما كتابه في الأضداد فلعلّه كان أكثر منهجيّة ونضجا في تصنيفه ممن وصلتنا كتبهم قبله : قطرب والاصمعي وابن السكيت • ويتجلى ذلك مثلا في عنوان الكتاب اذ اختار له أبو حاتم أن يكون (كتاب المقلوب لفظه في كلام العرب والمزال عن جهته والأضداد) وفي هذه التسمية دقّة لم نعهدها عند قطرب والأصمعي وابن السكيت ، ذلك أن أبا حاتم تنبّه الى ما يمكن ان يدخل في هذا مما عدّ من الاضداد وهو ليس منها ، وهو (المقلوب لفظه في كلام العرب والمزال عن جهته) لأن المقلوب والمزال قد دخلا عند أولئك في الأضداد ، وما يدرينا فلعل أبا عبيدة كان قد أسمى كتابه تسمية قريبـة من هـذه •

كما تظهر هذه المنهجيّة في تقديمه للكتاب بمقدمة قصيرة يوضح فيها اسباب التأليف ودوافعه ، وهذا ما لم يفعله الاصمعي ولا ابن السكيت ، أما قطرب فقد فعل مثل هذه المقدمة بشيء من الاختصار ، ففي الوقت الذى يكون فيه الدافع للتأليف عند قطرب هو جمع مواد الاضداد لقلتها وظرافتها في العربيّة يكون الدافع عند السجستاني بالدرجة الاولى هو توضيح حقيقة المعاني القرآنية ، حيث يقول أبو حاتم : «حملنا على تأليفه أنّا وجدنا مـن

الأضداد في كلامهم والمقلوب شيئا كثيرا • فأوضحنا ما حضر منه اذ كان يجيء في القرآن الظّن يقينا وشكا • والرجاء خوفا وطعماً ، وهو مشهور في كلام العرب ، وضّد الشيء خلافه وغيره ، فأردنا أن يكون لايرى من لايعرف لغات العرب أن الله عز وجلّ حين قال : (انّها لكبيرة الاّ على الخاشعين يَظُنُّونّ) مدح الشاكّين في لقاء ربّهم ، وانما المعنى يستيقنون » (٢٦) •

ثم يوضّح أبو حاتم مفهوم التضاد مناقشا ماورد من تفسير معنى الضدّ بقوله : « قال أبو حاتم : زعم قوم أن بعض العرب يجعل الضدّ مثل النّد ، ويقول : هو يضادّني ، في ذلك المعنى ، ولا أعرف أنا ذلك • فأما المعروف في الضد في كلام العرب فخلاف الشيء ، كما يقال : الايمان ضد الكفر ، والعقل ضدّ الحمق ، وفي القرآن (ويكونُون عليهم ضِدّا) أي أضداداً »(٢٧) • وهو بهذا يرسم لنفسه السبيل التي يسلكها في كتابه محاولا أن يكون مايورده من الأضداد في كتابه أن يخالف المعنى الأول المعنى الثاني مخالفة الضدّ والاّ فهو من المقلوب أو المزال أو المشترك أو أنه يسجل شكّه في صحة الزّعم بضدّيته •

غير انه لم يوفق في ترتيب موادّه وتنظيمها بحسب تسلسل مّا ، وهو في هذا يشبه سابقيه ، الاّ أنه يختلف عن الاصمعي وابن السكيت في أنه لايرجع الى المجرّد فيبدأ به كما فعلا في كتابيهما ، فهو يذكر اللفظ الضدّ في صدر الحديث عنه كما فعل قطرب ، ويورد شواهده المختلفة عليه ، ولا يذكر المجرّد منه الاّ اذا كان المجرّد نفسه من الأضداد •

وقد تأثر ابو حاتم بأبي عبيدة تأثرا واضحا في الكتاب ، فقد ورد ذكره عشرين مرّة في اثناء معالجاته للأضداد ، وقد بيّنا رأينا في هذا التأثر عند

---

(٢٦) ابو حاتم ٢ ٧ •
(٢٧) نفسه ٧٥ •

الكلام على أضداد التوزى ، كما تأثر بالأصمعي ونقل عنه رأيه في عشرين موضعا أيضا ، وبأبي زيد الانصارى وقد نقل عنه في ثلاثة عشر موضعا ، وهؤلاء هم اساتذته في اللغة والشعر والغريب ، يضاف اليهم الاخفش في موضعين[٢٨] وابن سلام في موضع واحد[٢٩] و (بعض شيوخنا) في موضعين [٣٠] ، ومن القرّاء مجاهد في موضع واحد [٣١] ، ومن المفسرّين ابن عباس في خمسة مواضع [٣٢] ، ومن العرب الفصحاء أبو مسعود الحرمازى في موضع واحد [٣٣] ، وابن مروان في موضع واحد كذلك [٣٤] .

غير أننا نلحظ فرقا بينّا بين موقف أبي حاتم من شيوخه وبين موقف الآخرين ، خصوصا موقفه من أبي عبيدة ، فكثيرا ما يردّه وينكر عليه فيما يرتأى ويذهب اليه ، في حين نجده يحترم رأى الاصمعي وان خالفه أيضا ، ولعله بذلك كان يخفي مايريد اخفاءه عن طريق هذا الجحد والانكار ، فقد علق على بيت أبي ذؤيب :

اذا لَسَعَتْه النَّحلُ لم يرجُ لسْعَها
وخالَفَها في بيتِ نوُبٍ عواملِ

بقوله : « والنّوب جمع نائب ، ونوب أراد أنها تختلف وتأتي بالشمع والعسل ، وليس قول أبي عبيدة أراد أنها سود مثل ألوان النوّبة لجنس من الحبش بشيء ... وان كان الاصمعي قد ذكر ذلك ، فانه لم يصحّ

---

(٢٨) ابو حاتم ١٠١ ، ١٢٣ .
(٢٩) نفسه ١٢٩ .
(٣٠) نفسه ١٣٨ ، ١٤١ .
(٣١) نفسه ٩٨ .
(٣٢) نفسه ٨٣ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٤٤ ، ١٤٧ .
(٣٣) نفسه ١٤٣ .
(٣٤) نفسه ١٤٤ .

عندنا من وجه آخر » (٣٥) . وقال أبو حاتم أيضا : « قال ابو عبيدة : الخِنْذيذ من الخيل الفحل والخصي ، وغلط انّما الخِنْذيذ الفائق من الخيل ومن كل شيء » (٣٦) . وقال أيضا « وكان أبو عبيدة يقول : خافَ من الخوف ومن اليقين ، وكان يقول (فاءنْ خِفْتُم ألاّ تَعْدِلوا) يريد أيقنتم ، ولا علم لي بهذا لأنه قرآن ، فانما تحكيه عن ربّ العالمين ، ولاتدرى لعله ليس كما يظن » (٣٧) .

وهذا يجرّنا الى ملاحظة مهمّة في ذوق أبي حاتم ، هي تحرجه الشديد من القول في القرآن واتخاذ الآيات الكريمات وسائل للحكم والاستشهاد الذى قد يكون خاطئا . فهو يرفع اسلوب القرآن ولغته عن مواطن الشبهات ، ذلك أن القرآن لم يخضع لما خضع له الشعر واللغة من تغيير قد يدفع بهما الى مواطن الشكّ كالتصحيف والغلط في الرواية وخلط الشاعر نفسه فيما يقول . قال أبو حاتم في مادة (عسعس) : « قال أبو عبيدة : (واللّيل اِذا عَسْعَسَ) : أقبل ، ويقال أدبر ، وأنشد لعلقة بن قرط التيميّ فجعله اقبالا :

مُدّرِعات اللّيل لمّا عَسْعَسا ... وادّرَعَتْ منه بَهيماً حِنْدِسا

البهيم الأسود الذى لايخالطه بياض ، والحندس الشديد السوّاد ، قال : زعموا أن ابن عباس رحمه الله قال : عسعس أدبر والله أعلم ، قال أبو عبيدة : وقال الزبرقان في الادبار :

ومـاء قديم عَهده دايُرى به
سِوى الطّيرِ قَدْ باكرْنَ وردَ المُغلّسِ

---

(٣٥) أبو حاتم ٨٢ .

(٣٦) ابو حاتم٧ ٨ .

(٣٧) نفسه ٨٨ .

وَرَدْتُ بأفراسٍ عتاقٍ وفتيةٍ
فوارطَ في أعجازِ ليلٍ مُعَسْعِسِ

قال أبو حاتم : قد تقلّد أبو عبيدة أمرا عظيما ، ولا أظن هاهنا معنى أكثر من الاسوداد ، عسعس : أظلم واسود في جميع ماذكر ، وكل شيء من ذا الباب في القرآن فتفسيره يتّقى ، ومالم يكن في القرآن فهو أيسر خطبا »[٣٨] • ويتضح موقفه هذا بشكل أوضح في كلامه على مادة (أسَرَّ) اذ يقول :« وقال أبو عبيدة : أسْرَرْتُ الشيء أخفيته وأظهرته أيضا ، وكان يقول في هذه الآية : (وأسَرّوا النّدامة لمّا رَأوا العَذاب) : أظْهَروها • ولا أثق بقوله في هذا والله أعلم ، وقد زعموا أن الفرزدق قال :

فَلَمَا رَأى الحَجّاج جَرّدسَيفَه
أسَرَّ الحَروُرِيّ الذى كانَ أضْمَرا

ولا أثق أيضا بقول الفرزدق في القرآن ، ولا أدرى لعله قال : الذى كان أظهرا ، أى كتم ماكا نعليه ، والفرزدق كثير التخليط في شعره ،وليس في قول نظيريه جرير والأخطل شيء من ذلك ، فلا أثق به في القرآن»[٣٩] •

من هذا يظهر تمسك أبي حاتم بالاستعمال القرآني ورفض الشواهد التي تخالف هذا الاستعمال ، فقد أثار الشبهات من وجهات متعددة في قول الفرزدق ، ووضع بهذا أصولا لقياس معنى اللفظة ، وحاول أن يبعد القول بتضاد لفظ قرآني قياسا على الشاهد الشعرى ، اذ نستشعر من قوله أنه ينكر التمادى في الاعتماد على الشاهد الشعرى دون تمحيص أو تدقيق ذلك الذى قاد أبا عبيدة الى الخطأ فيما ذهب اليه •

ونستطيع أن نقول ان كتاب أبي حاتم في الأضداد هو من كتب

---

(٣٨) ابو حاتم ٩٨ •
(٣٩) نفسه ١١٥ •

الدراسات القرآنية لسيطرة القرآن على قلم أبي حاتم وفكره في الكتاب سيطرة تامة فلا يكاد يذكر اللفظ ويذكر معنييه المتضادّين حتى يعرّج على آيات القرآن ذاكرا أن هذا اللفظ ورد في الآية الفلانية والأية الفلانية حتى يستنفد جميع الآيات المتضمنة لهذا المعنى أو اللفظ ، وربّما أوحت له آيات القرآن بمعان قريبة وألفاظ متشابهة ليست من الأضداد في شيء فينساق وراء تفسيرها وبيان معانيها ، مثل قوله في (ضَنين وظَنين) : « وأما قوله (وماهو على الغَيب بضَنين) وبظَنين ، فهما وجهان معروفان ، فالضَّنين البخيل ، يقال : ضَنِنت أضِن ضنا ، والظَّنين المتّهم وهو من الظِّنّة أى التُّهمة ... وبئر ظنون لايوثق بمائها ، ورجل ظنون لايوثق بما عنده اى متّهم » [٤٠] ، حتى يصل الى جمع الظِّنّة على الظنائن ، ويضرب لذلك الأمثلة وينشد الشواهد ، وجميع هذا ليس من الكلام على الأضداد ، وقد وصل اليه دون وعي ، أوصلته اليه آيات القرآن .

وأبو حاتم خلال ذلك كلّه لايدع المناسبة تمرّ قبل أن يسجّل رأيا خاصا أو تفسيرا معينا لبعض أوجه التضاد في الالفاظ مما أغفله السابقون وقد أخذنا عليهم هذا الاغفال ، فقد تنبّه مثلا الى أن بعض الأضداد خلقها الطبع الاجتماعي أو النفسي التوّاق الى التفاؤل ، فقال : « وقال بعضهم : المَسْجور الفارغ ، بلغني ذاك ولا أدرى ما الصواب ، ولا أقول في (البَحْر المسْجور) شيئا ، ولا (وإِذا البحارُ سُجِّرَتْ) لأنه قرآن فأنا أتق به ، وقالوا : قالت جارية بالحجاز : ان حوضكم لمسجور ، ولم تكن فيه قطرة ، قال أبو حاتم : يمكن ان يكون هذا على التفؤل ، كما يقال للعطشـــان ريّان ، وللملدوغ السَّليم » [٤١] . ومثل هذا التفسير ذهب اليه في (عَقوْق) للمرأة الحامل والحائل ، قال : « أظُنّ هذا من التفؤل كأنهم أرادوا أنها ستحمل ان شاء

---

(٤٠) ابو حاتم ٧٨ .

(٤١) نفسه ١٢٧ .

الله » [٤٢] ، ومثل ذلك ماقاله في مادة (المَفازة) [٤٣] .

وفسر بعض الفاظ الأضداد بما يسمّى بـ (المعتقدات الشعبيّة) من مثل فكرة إصابة العين ، يقول: « قال أبو عبيدة مهرة شَوْهاء قبيحة وجميلة، قال أبو حاتم : لا أظنهم قالوا للجميلة شوهاء الا" مخافة أن تصيبها عين ، كما قالوا للغراب أعْوَر لحدّة بصره » [٤٤] .

كما تنبّه الى اللغات ، فقد ذكر لغة تميم في مادة (مُشيح) [٤٥] ، ولغة الحجاز في مادة (عُنوة)[٤٦] ، ولغتي طيء واليمن في مادة (السّامِد) [٤٧] ، ولغتي بني عقيل وقيس في مادة (لَمَقَ) [٤٨] .

واستشهد بالحديث النبوى كما في مادة (فَرَط) : « وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا فَرَطُكم على الحوض أى متقدّمكم » [٤٩] ، ومثله في مادة (دائم) [٥٠] . كما استشهد بالأخبار والمأثورات كقصة الحجاج والدّروع [٥١] ، وبتفسير القرآن كما في (فَوْق) فقد نقل رأى الاخفش في تفسير الآية [٥٢] ، كما نقل تفسير ابن عباس في خمس آيات أشرنا الى مواضعها سابقا .

وذكر ماكان على صيغة (فَعول) وتكلم على : رَكوب[٥٣] ،

---

(٤٢) أبو حاتم ١٣٨ .
(٤٣) نفسه ٩٩ .
(٤٤) ابو حاتم ١٣٧ .
(٤٥) نفسه ١٢٦ .
(٤٦) نفسه ١٢٦ .
(٤٧) نفسه ١٤٤ .
(٤٨) نفسه ١٠١ .
(٤٩) نفسه ١٤١ .
(٥٠) نفسه ١٢٩ .
(٥١) نفسه ٩٢ .
(٥٢) نفسه ١٠١ .
(٥٣) نفسه ١١٠ .

وفَجوع [٥٤] ، وذَعور [٥٥] ، وزَجور ، حتى يصل بها الى (جَزوزة) التي ذكر لها معنى واحدا هو : « الجَزوزة : التي تُجَز » [٥٦] ، دون ان يذكر لها معنى مضادا ودون أن يستشهد • ويترك هذه الصيغة لينتقل الى صيغة (فَعيل) ومن موادّها التي ذكرها : نحيض وسميع وأليم [٥٧] • وذكر بعد ذلك (المَولى) معددا للفظة سبعة معان دون أن ينسبها الى أبي عبيدة كما نسبت عند ابن السكيت ، والظاهر أن أبا حاتم كان يرى فيها أنها من الأضداد بالرّغم من انصرافها الى هذه المعانى السبعة •

ويعقد فصلا في آخر الكتاب يبدؤه بقوله « قال أبو حاتم : وقد ذكر بعض أصحابنا حروفا لا علم لي بها أتقال أم لا » [٥٨] ، ويذكر فيه الألفاظ التي يشك في معانيها مثل (أَثابَ) [٥٩] ، أو التي هي من المشترك اللفظى مثل (فادَ) [٦٠] أو التي كان التصريف سببا واضحا في ضديتها مثل (زَعوم) [٦١] ، أو التي هي من المقلوب مثل (ناءَ) : « قال أبو حاتم: يقال ناءَ بي الحمل نوءا في معنى نُوءت به أى نهضت به متثاقلا ، وهو شبيه بقولهم تهيّبني البلاد اذا تهيبتها ، وقول الجعدى :

كانتْ فرَيضَةُ ماتَقول كما   كانَ الزّناءُ فريضةَ الرّجْمِ

يريد كان الرّجم فريضة الزناء ، وكقول الاخطل :

مثل القَنافذِ هَدّاجَونَ قد بَلَغتْ
نَجران أو بَلَغَتْ سوآتِهم هجرُ

(٥٤) أبو حاتم ١١١ •
(٥٥) نفسه ١١١ •
(٥٦) نفسه ١١٣ •
(٥٧) نفسه ١٣٣ •
(٥٨) ابو حاتم ١٤٨ •
(٥٩) نفسه ١٤٨ •
(٦٠) نفسه ١٤٨ •
(٦١) نفسه ١٥٠ •

مقلـــوب ، أراد قد بلغت سـوآتُهم هَجَرا ••• وقالوا : أدخلت الخفّ في رجلي ، والقلنسوة في رأسي ، والمعنى أدخلت رجلي في الخفّ ورأسي في القلنسوة ، وقال تعالى : (ما ان مفاتِحَه لتنوءُ بالعُصْبة) والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتح » [٦٢] •

وكان قد أشار قبل هذا الى اتساع العرب في استعمال (فَعَل) في الكلام على (أضبّ) قال أبو حاتم : « اتسعت العرب فجعلوا (فعل) في مواضع لما لم ينقطع بعد ولما لم يكن بعد ، وجعلوا (يَفعل) واخواتها لما قد كان ، فقال تعالى : (كيفَ نُكلمُ مَنْ كانَ في المَهْد) أى من هو في المهد ••• وقال الحطيئة فجعل شهد في معنى يشهد :

شَهِدَ الحُطيئةُ يومَ يَلقى ربَّه
أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعذْرِ

وقالوا في يفعل لما لم يقع ، قال الشاعر :

ولَقدْ أمرُّ على اللئيم يَسبُّني
فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ لا يعنيني

أى ولقد مررت » [٦٣] • وفي هذا جواب لأبي عبيدة وغيره ممّن عدّ (كانَ) من الاضداد للماضي والمستقبل و (يكونُ) من الأضداد للحاضر والماضي [٦٤] ، لان عبارة ابي حاتم (اتسعت العرب) تفسر هذا الاسلوب وتنفي عنه التضاد المختلق « والاختلاف في الدلالة الزمنية للفعل في اللغة العربيّة مجال بحث وجدل في القديم والحديث وقد دعا هذا الاختلاف وعدم اختصاص كل صيغة في الفعل بزمن ، بعض الباحثين المحدثين الى الزعم بعدم مجاراة الفعل في العربية للزّمن ، فالماضي غير مختص بالزّمن

---

(٦٢) أبو حاتم ١٥٢ ـ ١٥٣ •
(٦٣) ابو حاتم ١٣١ ـ ١٣٢ •
(٦٤) ابن الانبارى ٦٠ •

الماضي ، والمضارع غير مختص بالحال أو الاستقبال الخ ، وحاول أن يرجع بهذا الى خاصيّة عامة في اللغات السّامية ، كما جعله وجها للخلاف بينها وبين اللغات الاندو أوربيّة » [٦٥] .

وعلى كل حال فمحاولات أبي حاتم لتفسير بعض ألفاظ الأضداد بالتفاؤل وبالخوف من العين وبالمقلوب وباتساع العربية في الأستعمال وباللغات وغير ذلك ، تنبيء عن تمكّن من الموضوع ومن السيطرة عليه ، لم نشهدها بهذا الوضوح عند من سبقه من الأضداديين . الا انا نؤكد هنا ماقلناه في أمره مع أبي عبيدة وكتابه في الأضداد . اذ ربّما كانت هذه النظرات في كتاب أبي عبيدة الضائع ، سترت عليها مناقشات أبي حاتم له وردّه في آرائه وتغليطه فيما نقل .

كتابا ابن قتيبة والثعالبي

المؤلف الاول هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى [٦٦] ، نسبة الى مدينة (دينور) التي ولي القضاء زمانا بها ، ونسب أبوه الى (مرو) لأنه كان أعجميا أو تركيا فقيل (المروزى) . أخذ ابن قتيبة عن ابي حاتم والرياشي وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي واسحاق بن راهويه ومحمد بن زياد الزيادي . وكان فاضلا في اللّغة والنحو والشعر عالما بغريب القرآن ومعانيه . قيل عنه انه كان يغالي في مذهب البصريين ،

---

(٦٥) اثر القرآن في تطور النقد العربي ١٧٤ .

(٦٦) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ٢٠٠ ومراتب النحويين ٨٤ وتهذيب اللغة ١ / ٣٠ والفهرست ١١٥ ونزهة الالباء ١٤٣ وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠ وانباه الرواة ٢ / ١٤٣ ووفيات الاعيان ٢ / ٢٤٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والمزهر ٢ / ٤٠٩ وبغية الوعاة ٢٩١ وشذرات الذهب ٢ / ١٦٩ والعدة في الرجال ١٨١ وتاريخ بروكلمان ٢ / ٢٢٢ والكنى والالقاب ١ / ٣٧١ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/١٧٠ والاعلام ٤/٢٨٠ .

الا أنه خلط المذهبين، وحكى في كتبه عن الكوفيّين • أخذ عنه جملة من العلماء منهم ابنه القاضي أحمد وابن درستويه وغيرهما •

أقرأ كتبه ببغداد الى حين وفاته ، وهي كثيرة منها : اعراب القرآن ، معاني القرآن ، تأويل مشكل القرآن ، أدب الكاتب ، مختلف الحديث ، الشعر والشعراء ، الخيل ، دلائل النبوة ، اصلاح غلط أبي عبيد ، المسائل والاجوبة ، وغير ذلك • اما وفاته فقيل انها بسبب هريسة أكلها فأصابته حرارة اضطرب منها ساعة ومات •وذلك سنة ست وسبعين ومائتين •

والمؤلف الثاني هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري(٦٧) ، ولد سنة خمسين وثلاثمائة • والثعالبي نسبة الى خياطة جلود الثعالب ، لأنه كان فرّاء قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ويبعد صيته ، اخذ عن ابي بكر الخوارزمي ، واتصل بطائفة من رجال الادب والملك في عصره ، وكان فيما يظهر مرضياً عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء • كان شاعرا وكاتبا ، وان لم يكن في شعره من الطبقة العالية ، أما نثره فجيّد يغلب عليه السجع ولكنه بريء من التكلّف ومن الغموض ، ونقل في كتابه (فقه اللغة) فصولا برمتها عن كتب غيره من امثال أبي عبيدة وابن دريد والخوارزمي وأبي الحسن الجرجاني وابن الأعرابي والفارابي وغيرهم • ومؤلفاته كثيرة جدا منها : يتيمة الدهر ، فقه اللغة ، نسيم السّحر ، سحر البلاغة وسرّ البراعة ، فرائد القلائد ، سر الأدب ، وغيرها • توفي سنة ثلاثين واربعمائة •

أما الكتابان المنسوبان اليهما في الاضداد ، فلا نملك فيما عدّ من

---

(٦٧) تراجع ترجمته في : نزهة الالباء ٢٤٩ ووفيات الاعيان ٢ / ٣٥٠ وشذرات الذهب ٣ / ٢٦٤ والعدة في الرجال ١٨٢ والكنى والالقاب ١١٤/٢ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢٨٤/٢ والنثر الفني في القرن الرابع ٢ / ١٧٩ •

مؤلفات ابن قتيبة والثعالبي في مصادر ترجمتهما والفهارس القديمة اية اشارة الى هذين الكتابين أو الى انهما ألفا في الاضداد ، نعم عقدا للأضداد فصولا في كتبهما ، واحصوا منها مقدارا ، وربما ناقشا ضدّية بعضها ، الا أن هذا لايعني أنهما ألّفا في الاضداد كتابين مستقلين • اذ لو كان ذلك يعني أنهما ألفا في الأضداد لعدّ جميع اللغويين الذين تناولوا الأضداد في كتبهم ممن ألّف في الاضداد بهذا التفسير •

غير أننا وجدنا فهرسا لمخطوطات مكتبة (كاشف الغطاء) في النجف ، منشورا في مجلة الأقلام بعنوان (الآثار المخطوطة في النجف ـ القسم الثاني) [68] ، يذكر مايلي :

١ ـ اسماء الأضداد : رسالة صغيرة ، تأليف أبي محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الباهلي الدينوري المتوفى ٢٧٦ هـ ، بخط علي نقي الرضوى، فرغ منه عام ١٢٥٣ هـ ، ٢٥/٧ سم ١٤/٤ سم ، رقمه ٩٧ •

٢ـ اسماء الأضداد : تأليف أبي منصور عبدالملك بن اسماعيل النيسابوري المعروف بالثعالبي المتوفى ٤٣٠ هـ • يوجد ضمن الكتاب المتقدم وبالتعريف نفسه •

وهذا أمر يثير الاستغراب للوهلة الاولى ، وقد عرفنا أن الكتابين لم يذكرا قبل هذا في أي مصدر أو فهرس قديم ، اذ لو صحّ ذلك فلا يفوت ابن النديم والقفطي والسيوطي مثلا أن ينبّه واحد منهم على الاقل لهذين الكتابين ، خصوصا وأن المؤلفين من المشاهير الذين عنيت الكتب بذكر مصنفاتهما وأخبارهما عناية كبرى ، واهتمت الفهارس المختلفة بعد كتبهما ورسائلهما اهتماما واضحا •

فما كان منا الاّ أن قصدنا المخطوطة في مكانها من المكتبة ، واذا هي

---

(٦٨) علي الخاقاني : مجلة الاقلام ـ السنة الأولى ٤/٩٨ •

ضمن مجموع يتكون من (٢٢٠) صفحة ، في كل صفحة ١٢ سطرا ، رقمه (٨٩٨) أدب ، فيه شيء من ديوان امرىء القيس وشيء من ديوان النابغة وقصائد متفرقة لابن دريد وأبي الشيص والشريف الرّضي وغيرهم ، وخلق الانسان للزجاج وفتيا فقيه العرب لأحمد بن فارس . مرتبة كلها ترتيبا عشوائيا لاتنظيم فيه ولا دقة . وقد كتب ناسخ هذا المجموع في أول الكتاب (فهرس مافي هذه المجلّدة) ـ كما هو واضح في الصورة الاولى ـ الاّ أنه لم يسلسل المحتويات هنا كما هي في داخل المجلدة . فقد بدأها ـ كما يبدو في الصورة ـ بعبارة : قال أبو منصور الثعالبي النيسابوري : فصل في تسمية المتضادّين باسم واحد من غير استقصاء . وكان قد وضع في الفهرس أسماء الأضداد بعد ديوان امرىء القيس وديوان النابغة .

ومهما يكن من أمر فبعد دراسة ماسمّي بـ (أسماء الاضداد) لابن قتيبة والثعالبي في مجلة الاقلام نقلا عن فهرس هذه المجلدة دون تمحيص ونظر . ظهر أنهما ليسا كتابين أو رسالتين لابن قتيبة والثعالبي في الأضداد، وانّما هما فصلان في الأضداد نسخهما الناسخ بالحرف الواحد من كتابيهما المشهورين (ادب الكاتب) و (فقه اللغة) ، مضيفا الى كل واحد منهما شذورا مما نصّ عليه الجوهري في الصحاح أنّه من الاضداد ، وقد أشار الناسخ الى ان هذا من الصحاح عند كل نقل من الكتاب . كما أن اشارته في أول كل فصل الى أن هذا (فصل في تسمية المتضادين باسم واحد) تشعر أنه نقله من كتاب كبير مقسم الى عدة فصول في مواضيع العربيّة ، وأماناته في النسخ هذه هي التي هدتنا الى معرفة الحقيقة .

والآن نحاول ان نخرج مادة هذه المنسوخة في كتابيهما والصحاح للجوهري لنضمن سلامة النتيجة التي وصلنا اليها في خصوص هذين الكتابين الذين نصصنا أمام كل منهما في قائمة كتب الأضداد أنه (وهم) . وقد وقع فيه ـ في رأيي ـ واضع فهرس المكتبة المنشور في مجلة الاقلام ،

ولايمكن الاحتجاج من قبله بتسمية الناسخ • لأنه ـ اى الناسخ ـ لم ينسب أسماء الأضداد في فهرسه الصغير في اعلى الصفحة الاولى الى مؤلف معين أو مؤلفين ، كما فعل بسائر منسوخاته الاخرى ، اعتقادا منه بأنه امر واضح للدارس او القارىء •

فبالنسبة للثعالبي فمن قوله : فصل في تسمية المتضادين باسم واحد من غير استقصاء ، الى قوله : الخَشيب من السيوف مالم يصقل وهو ايضا الذى أحكم وفرغ من صقله • في فقه اللغة ص ٤٨٦ •

وقوله : الغريم الذى عليه الدين وقد يكون الغريم الذى له الدين • في الصحاح (غَرَم) ٥/١٩٩٦ • باختلاف يسير • ومن قوله : بِعْتُ الشيء شريته الى قول الفرزدق : والشَّيبُ ليسَ لبائعِيه تجارُ • في الصحاح (بَيَعَ) ٣/١١٨٩ •

ثم في اثناء ذلك يستحسن الناسخ قصيدة لعبد قيس بن خفاف بن حريش بن مرّة بن عبد بن حنظلي البرجمي يوصي ابنه ، فينسخها عن كتاب (مختار أشعار القبائل من مختار أشعار البراجم) لأحمد بن الحسين الغضائرى ، كما يذكر ذلك في آخر القصيدة ، يعود بعدها الى الأضداد •

فمن قوله: الجَوْن : الابيض وأنشد أبو عبيدة ، الى قوله : رجل صَتْم وقوم صُتْم • في الصحاح (جَوَن) ٥/٢٠٩٥ • ومن قوله رجل صَتْم ، الى قوله غليظ شديد • في الصحاح (صَتَم) ٥/١٩٦٤ •

ومن قوله : الصَّريم : الليل المظلم ، الى قول بشر : تجلّى عن صريمته الظلام • في الصحاح (صَرَم) ٥/١٩٦٦ •

بعد ذلك يبدأ النسخ عن ابن قتيبة في أدب الكاتب بالبسملة والحمد والصلاة ، لتكون تفريقا بين الفصلين المنسوخين ، وليشعر بانتهاء الاول وابتداء الثاني •

فمن قوله : باب تسمية المتضادين باسم واحد : الجَوْن وهو الأبيض ،

الى قوله : وشَرَيْتُ الشيء : اشْتَرَيتُه وبعتُه • في أدب الكاتب ص ١٦١ ـ ١٦٣ • وقد علق النّاسخ في الهامش أمام العبارة الاخيرة بقوله : (انتهى كلام ابن قتيبة هنا) •

ومن قوله : الشِّفّ بالكسر الفضل والربح ، الى قوله : وهو من الأضداد عن ابن السكيت • في الصحاح (شَفَفَ) ٤/١٣٨٢ •

ومن قوله : البَيْن : الفِراق ، الى قوله : يريد مابينكم ، عن الجوهرى • في الصحاح (بَيَنَ) ٥/٢٠٨٢ •

وبعدها يستحسن الناسخ قصيدة ينسبها مرة لبشّار بن برد ومرّة لأبي الشيص وينقلها ثم يبدأ بنسخ ديوان امرىء القيس •

ونقل في الهامش ثلاثة نصوص من الصحاح لتوضيح المفردات التي وردت في فصل ابن قتيبة ولشرح معانيها •

فمن قوله في الهامش الأعلى المقلوب : الجلل الأمر العظيم ، الى قوله : أى هيّن يسير • في الصحاح (جَلَلَ) ٤/١٦٥٩ •

ومن قوله في الهامش الجانبي الأعلى : النَّبَل بالتحريك : الكبار ، قال بشر ، الى قوله : وهي العظيمة • في الصحاح (نَبَلَ) ٥/١٨٢٤ •

ومن قوله في الهامش الجانبي الأسفل : ومثل بين يديه مُثولا ، الى قوله : والماثِل الرّسوم • في الصحاح (مَثَلَ) ٥/١٨١٦ •

وقد كتب هذه الهوامش بالخط الفارسي المائل على طريقة الشروح القديمة التي كانت تسجَل برسم مختلف على هامش الكتاب المشروح للتفريق بينها وبين الاصل •

والظاهر أن الناسخ لم يقصد من هذا أن يؤلف كتابا في الاضداد يجمع فيه ماقال العلماء في الأضداد ، لانه لو قصد الى هذا لجمع الفصلين معا ووحّد المادتين ، ولنقل من فقه اللغة وأدب الكاتب أشياء كثيرة تخص

فهرس ما في هذه المجلد فيه ديوان امرئ القيس
وفيه ديوان النابغة وفيه اسماء الاضداد وفيه فيما تقيد العرب لابن سكيت
وفيه جزء ابن حبيب الربا وفيه قصيدة ابن دريد في المقصور والممدود
وفيه صفة خلق الانسان لابي اسحق الزجاج وفيه المجلد الثاني من النوادر
قال ابو منصور الثعالبي النيسابوري فصل في تسمية المتضادين
باسم واحد من غير استقصاء الغريم المولى البيع الرفيع وراء
الصريم لليل وهو ايضا الصبح لان كل منهما ينصرم عن صاحبه
الجلل اليسير والجلل العظيم لان اليسير قد يكون عظيما عندما
هو اعظم منه الجون الاسود وهو ايضا الابيض الخشب
من السيوف ما لم يصقل وهو ايضا الذي احكم وفرغ من صقله
الغريم الذي عليه الدين وقد يكون الغريم الذي له الدين ايضا
بعت الشيء شريته ابيعه بيعا ومبيعا وهو شاذ مباعا

وبعته اذا اشتريته وهو من الاضداد قال الفرزدق ان الشباب
لرابح من باعه والشيب ليس لبائعيه تجار قال عبد قيس
خفاف بن حرش بن مرة بن عبد بن حنظلة البرجمي يوصي ابنه

اجبيل ان اباك كارب يومه ... فاذا دعيت الى المكارم فاعجل
اوصيك ايصاء امرئ لك ناصح ... طبن بريب الدهر غير مغفل
الله فاتقه واوف بنذره ... واذا حلفت مماريا فتحلل
والضيف اكرمه فان مبيته ... حق ولا تك لعنة للنزل
واعلم بان الضيف مخبر اهله ... بمبيت ليلته وان لم يسأل
وصل المواصل ما صفا لك وده ... واحذر حبال الخائن المتبدل
واهجر محال السوء لا تحلل به ... واذا نبا بك منزل فتحول
دار الهوان لمن رآها داره ... افراحل عنها كمن لم يرحل
واذا رايت القوم فاضرب فيهم ... كلا وبوك تحلاه اجرب مهمل

واستغن ما أغناك ربك بالغنى — وإذا تصبك خصاصة فتجمل

وإذا افتقرت فلا تكن متخشعا — ترجو الفواضل عند غير المفضل

وإذا تشاجر في فؤادك مرة — أمران فاعمد للأعف الأجمل

وإذا هممت بأمر سوء فاتئد — وإذا هممت بأمر خير فاعجل

وإذا رأيت الباهشين إلى الندى — غبرا أكفهم بقاع ممحل

فأعنهم وابشر بما بشروا به — وإذا هم نزلوا بضنك فانزل

من كتاب مختار اشعار القبائل من مختار اشعار البراجم تأليف
تأليف احمد بن الحسين الغضائري رحمه الله الجون الأبيض
وأنشد أبو عبيدة غير يا بنت الحليس لوني مر الليالي واختلاف
الجون قال يريد النهار والجون الأسود وهو من الأضداد
فالجمع جون بالضم مثل قولك رجل صتم وقوم صتم صح

عبد صتم بالضم أي غليظ شديد من الصريم الليل المظلم
قال النابغة كالليل يخلط أصراما بأصرام والصريم الصبح
هو من الأضداد قال بشر تجلى عن صريمته الظلام صح

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله الطاهرين
الطيبين المعصومين قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن
قتيبة الباهلي الدينوري رحمة الله عليه باب تسمية
المتضادين باسم واحد الجون وهو الأبيض قال الشاعر
بادر الجونة أن تغيبا يعني الشمس والصريم الصبح والصريم
الليل والسدفة الظلمة والسدفة الضوء وبعضهم يجعل
السدفة اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر

الى الاسفار والجلل الشئ الصغير والجلل الشئ الكبير
والنبل الكبار والصغار قال احزح ان اذرا الكرام وان اورث
ذودا شصايصا نبلا والنبل هههنا الصغار والشصايص
التى لا البان لها وقال بعضهم هى نبلا جمع نبلة وهى العطية
والناهل الريان قال ينهل منها الاسل الناهل اى يروى
منها الرماح العطاش والمائل القائم والمائل اللاطى
بالارض قال الشاعر منها مستبين وماثل اى دارس و
الصارخ المستغيث والمغيث والماجد المصلى بالليل
وهو النائم ايضا والرهوة الارتفاع والانحدار والتلعة
مجرى الماء ينزل من اعلاه الوادى وما انهبط من الارض
والظن يقين وشك والخشيب السيف الذى لم يحكم
عمله وهو الصقيل والاهماد السرعة فى السير والاهماد

الاقامة والخناذيذ الخصيان من الخيل وهى الفحولة قال البشر
وخناذيذ ترى الغرمول كطى الزق علقه التجار والافراء
الخيض وهى الاطهار والمفرع فى الجبل هو المصعد وهو المنحدر
ووراء يكون خلفا وامام قال الله عز وجل وكان وراءهم
ملك ياخذ كل سفينة غصبا اى امامهم وكذالك فوق
يكون بمعنى دون قال الله عز وجل ان الله لا يستحيى ان
يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها هذا قول ابى عبيدة وقال
الفراء فما فوقها يعنى الذباب والعنكبوت الحى خلوف
غياب ومتخلفون اسررت الشئ اخفيته واعلنته رتوت
الشئ شددته وارخيته اخفيت الشئ اظهرته وكتمته
شعبت الشئ جمعته وفرقته ومنه سميت المنية شعوب
لانها تفرق طلعت على القوم اقبلت عليهم حتى يرونى

وأشتريته وشريتا الشيء اشتريته وبعته الشف
بالكسر الفضل والربح تقول منه شف يشف شفا مثال
جمل يجمل جملا والشف ايضا النقصان وهو من الاضداد ه
عن ابن السكيت البين الفراق تقول منه بان يبين
بينا وبينونة والبين الوصل وهو من الاضداد وقرئ
لقد تقطع بينكم بالرفع والنصب فالرفع على الفعل اي
تقطع وصلكم والنصب على الحذف يريد ما بينكم عن
الجوهري مما يستحسن لبشار بن برد قصيدة الضادية
المشهورة وهذه الضادية لابي الشيص وقال

ابقى الزمان له ندوب عضاض ... ورمى سواد قرونه ببياض
نغرت به كاس النديم وعضت ... منه الكواعب ايما اغماض
حسر المشيب قناعه عن راسه ... فرمينه بالصد والاعراض
ثنتان لا تصف النساء اليهما ... حلل المشيب وحلية الانقاض
فوعودهن دا وعد بك باطل ... وبروقهن كواذب الايماض
لا تنكري صدي ولا اعراضي ... ليس المقل عن الزمان براض
صد عقال مطيتي لا عن قلى ... وامضي فاني بامره ماض
عوضت من برد الشباب ملاءة ... خلقا وبئس معوض المعتاض
ولربما اوضعت في طلب الصبى ... وحللت بين مساكن ورياض
ايام امراس لنا جوامح ... تأبى اعنتها على الرواض
وركائب صرفت اليك ... نكبات دهر للفتى عضاض
شدوا اباعر اد الزمال خطيتهم ... من كل اهوج للحصا رضاض
يرمين بالمرء والطريق كما ... يحذفن وجه الارض بالرضراض

الأضداد عرض لها المؤلفان في غير هذين الفصلين ، ولاستوعب مثلا كل مانص الجوهري عليه من الأضداد ، إضافة لما يمكن أن يجده لابن قتيبة في مؤلفاته الأخرى من بحوث الاضداد كالذي في كتابه (تأويل مشكل القرآن)[٧٠] وكتابه (المسائل والأجوبة)[٧١] وغيرهما • الا أن الناسخ لم يفعل هذا لأنه لم يكن يقصد التأليف ، وكل الذي رمى اليه أن يجمع في هذه (المجلدة) اشتاتاً من الشعر واللغة والأخبار ، لتكون حاوية للمتعة والظرافة واللذة • وربّما لبيان مهارته في الخط وإتقانه لأنواعه المختلفة • أو لتثبيت اسمه على كتاب بشكل من الأشكال أو كان قد طلب اليه أن يفعل ذلك ففعل • ومهما تكن الحقيقة فوجود كتابين باسم (اسماء الأضداد) لابن قتيبة والثعالبي هو مجرد وهم ليس الا • كما هو واضح من دراسة هذه المنسوخة وتخريج مادتها في كتابيهما (أدب الكاتب) و (فقه اللغة) ، وتعليقات الناسخ في (الصحاح) للجوهري ، وقد اثبتنا صورتها هنا لتتم للقارىء الدارس المقارنة بين المادة والتخريج ، وليقف بنفسه على حقيقة الموضوع •

كتاب عسل بن ذكوان

المؤلف هو أبو علي عسل بن ذكوان النحوي العسكري [٧٢] ، كما ذكرته بهذا الاسم كل مصادر ترجمته سوى (الفهرست) لابن النديم ، فقد سمّاه (عبيد بن ذكوان) ، واحتمال التصحيف وارد وقريب ، ذلك ان أسنان السين في عسل هي الباء والياء في عبيد ، واللاّم في تلك هي الدال في هذه بشيء من الصغر في رسم الأخيرة •

أخذ عن المازني والرياشي ودماد ، وعاصر المبرد وكان من طبقته

(٧٠) فيالفصل الذى عقده للمقلوب من الالفاظ •
(٧١) ص ١٠ وما بعدها •
(٧٢) تراجع ترجمته في : اخبار النحويين البصريين ٨٠ ومراتب النحويين ١٣٧ والفهرست (مصر) ٧٩ وانباه الرواة ٢ / ٣٨٣ ومعجم الادباء ١٢ / ١٦٨ وبغية الوعاة ٣٢٤ •

ونظرائه الا انه لم يكن له نباهته ولم يشتهر شهرته كما تقول مصادر ترجمته ، وكان مقيما للافادة بعسكر (مكرم) من كور الاهواز ، وأخذ عنه الناس ورووا كتبه وهو مذكور هناك ، وكان قد قرأ كتاب سيبويه على المازني . له من الكتب : الجواب المسكت ، أقسام العربية ، الأضداد . ولم تذكر لنا المصادر تاريخ وفاته ، فقد اكتفت بأن حددت عصره بعصر المبرد ، وعلى هذا تكون وفاته قريبة من وفاة المبرد سنة خمس وثمانين ومائتين .

أما كتابه (الاضداد) ـ وهو من الكتب المفقودة ـ فلم يذكره من المصادر القديمة الا (الفهرست) لابن النديم ، وعنه نقل اسماعيل البغدادى في (ايضاح المكنون) . فالفهرست هو المصدر الوحيد الذى أشار الى الكتاب وعده ثالث مصنفات عبيد بن ذكوان . الا أن نسخ الفهرست نفسه اختلفت في الاشارة الى كتاب الأضداد لعبيد ونسبته اليه ، فقد اتفقت طبعتا (فلوجل) و (مصر) على ذكر الكتاب منسوبا الى عبيد بن ذكوان [(٧٣)] الا أنه غير مذكور مع كتابيه الآخرين في طبعة (طهران) [(٧٤)] ، وفي هذه الأخيرة زيادة على ما في تلكما الطبعتين ، ففي طبعتي فلوجل ومصر تنتهي ترجمة عبيد بذكر مصنفاته الثلاث . الا أن الترجمة في طبعة طهران الأخيرة تنتهي بهذه العبارة ـ وهي بعد ذكر كتابيه : الجواب المسكت وأقسام العربية ـ :
« روى أبو بكر محمد بن الحسن بن مروان عن أبي ذكوان كتاب الأضداد عن التوزى » [(٧٥)] ، وقد وضعها المحقق بين هلالين ليعلم أنها زيادة على ما في طبعة فلوجل ، كما نص على ذلك في مقدمته ، فهي اذن موجودة في النسخة التي حقق منها الكتاب التحقيق الثالث الاخير ، وهي تشعرنا أن كتاب الأضداد الذى ذكر منسوبا لعبيد في النسختين الأولين ما هو الا

---

(٧٣) فلوجل ٥٩ ومصر ٨٩ .
(٧٤) طهران ٦٥ .
(٧٥) طهران ٦٥ .

كتاب التوزى رواه عنه أبو ذكوان ورواه عن أبي ذكوان أبو بكر محمد بن الحسن بن مروان ، والكتاب على هذا ليس له وانّما هو راو له عن مؤلفه ، ولامانع زمنا من أخذ أبي ذكوان عن التوزى وان لم يذكر لنا تاريخ وفاته ، الاّ أنه بالقياس الى وفاة المبرد معاصره (٢٨٥) والذى تلمذ للتوزى (٢٣٣) يكو نجائزا ان نطمئن الى هذا الامر • فهل كان موضوع كتاب الأضداد هو كما ورد في نسخة طهران ، وان عبيدا لم يؤلفه وانما رواه عن التوزى ؟ •

بعد النظرة الفاحصة لما ورد في النسخ الثلاث ودراسة ترجمة عبيد ابن ذكوان وموضعها من الكتاب ، نخرج بالنتيجة التي تؤيد نسبة الكتاب لعبيد وأنه هو المؤلف الحقيقي له ، وأن الكتاب الذى رواه أبو ذكوان عن التوزى هو كتاب آخر من تأليف التوزى وقد مرّت دراسته ، وذلك لملاحظة لأمور : الأوّل :ان هذه العبارة الزائدة في نسخة طهران نصّت على أن راوى كتاب التوزى هو أبو ذكوان « روى أبو بكر محمد بن الحسن بن مروان عن أبي ذكوان كتاب الأضداد عن التوزى » وليست هذه هي كنية عبيد بن ذكوان صاحب كتاب الأضداد وانما كنيته هي (أبو علي) ، واسمه مختصرا (ابن ذكوان) وليس أبو ذكوان لو قلنا بأنه اكتفى بهذا الجزء منه • والثاني ـ وهو الأهم ـ : ان ترجمة عبيد بن ذكوان في الفهرست وردت ضمن جملة من تراجم معاصرى المبّرد الذين نظروا في كتاب سيبويه ، ولم يكن لهم نباهة المبرد ولا شهرته ، وأول هؤلاء هو أبو ذكوان القاسم ابن اسماعيل ، ثم عبيد بن ذكوان ، فأبو يعلى •• الخ ولتوضيح ذلك ننقل النص المشترك في هذا الفصل بين النسخ الثلاث ، فيما عدا ذكر كتاب الأضداد في النسخة الطهرانية •

يقول ابن النديم : « وقد نظر في كتاب سيبويه في عصره جماعة لم يكن لهم كنباهته ، يعني المبّرد • مثل أبي ذكوان القاسم بن اسماعيل ،

ولأبي ذكوان كتاب معاني الشعر رواه ابن درستويه ، وقع الى سيراف أيام الزنج ، وكان علامة اخباريا قد لقي جماعة ، وكان التوزى زوج أم أبي ذكوان • ومثل عبيد بن ذكوان وكان مقيما بعسكر مكرم ، وله من الكتب : كتاب الأضداد ، كتاب جواب المسكت ، كتاب أقسام العربية » (٧٦) وبعد هـذا النص مباشرة تنفرد نسخة طهران بالعبارة التي نقلناها •

ومن هذا الكلام يدرك الدارس تماما أن العبارة ليست في محلها من السياق اذ هي ـ لو افترضنا وجودها في نسخة المؤلف نفسه ـ لابدّ أن تكون ملصقة بترجمة أبي ذكوان القاسم بن اسماعيل ، لا بترجمة عبيد بن ذكوان • فأبو ذكوان هو المنصوص عليه في العبارة ، والتوزى زوج أمّه ، فهو ربيبه الذى درس عليه (٧٧) ، واخـذ عنـه وروى كتابـه في الأضداد •

وبهذا نعيد الامور الى نصابها الصحيح ، ويكون أبو ذكوان راويـا لكتاب التوزى في الأضداد ، ويكون عبيد بن ذكوان مؤلفا في الأضداد • والخطأ هنا كان من الناسخ في نسختنا الطهرانية ، وكثيرا مايحدث مثله في نسخ المخطوطات ، اذ يفوت على الناسخ سطر من أسطر الكتاب ، أو يكرّر سهوا نسخ سطر من الأسطر ، او يلتبس عليه ماتشابه من الكلام فيكون من جرّاء ذلك مثل هذا الخطأ والتحريف •

الاّ اننا في الوقت نفسه نسجل تساؤلنا عن سبب اغفال مصادر ترجمة عبيد المختلفة لكتابه (الاضداد) ، خصوصا تلك التي عنيت بذكر مؤلفـات المترجمين كمعجم الادباء وبغية الوعاة • صحيح ان ياقوت والسيوطي نقلا عن الفهرست لابن النديم غير أنهما لماذا لم ينقلا عنه (كتاب الاضداد) لعبيد بن ذكوان ، فهل كانت نسختاهما خاليتين من ذكر الكتاب كنسخة

(٧٦) مصر ٨٩ وفلوجل ٦٠ وطهران ٦٥ •
(٧٧) بغية الوعاة ٣٧٥ •

طهران ؟ وشيء آخر هو أننا لم نعثر لعبيد ـ وهو المؤلف في الأضداد ـ على أي ذكر في كتب الأضداد ، ولا في مصادر اللغة ومعجماتها التي عرضت للأضداد وسجلت آراء العلماء فيها • لعلهم أهملوا كتابه واستبعدوه لضعفه واختصاره • أو ربما كان ضياعه قديما جدا •

كتاب ثعلب

المؤلف هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني النحوى المعروف بثعلب (٧٨) ، امام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه • ولد سنة مائتين ، وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة ، وحفظ كتب الفراء فلم يشذ منها حرف ، وعني بالنحو اكثر من غيره ، فلما اتقنه أكب على الشعر والمعانى والغريب ، اذ نظر في النحو وله ثمان عشرة سنة ، وصنف الكتب وله ثلاث وعشرون سنة ، وكان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درسا •

لازم ابن الاعرابي بضع عشرة سنة ، وسمع من محمد بن سلام الجمحي وعلي بن المغيرة الأثرم وسلمة بن عاصم وعبيدالله بن عمر القواريرى وخلف والزبير بن بكار وأبي الحسن احمد بن ابراهيم • أدب اولاد محمد بن عبدالله بن طاهر ، وناظر المبرد وجالس ابن كيسان ،

---

(٧٨) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ١٥٥ ومراتب النحويين ٩٥ وتهذيب اللغة ١ / ٢٦ والفهرست ١١٠ وتاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤ ونزهة الالباء ١٥٧ وانباه الرواة ١/١٣٨ ونور القبس ٣٣٤ ووفيات الاعيان ١ / ٨٤ ومجالس العلماء للزجاجي ٩٤ ـ١٢٤ ومروج الذهب ٤ / ٢١٦ ومعجم الادباء ٥ / ١٠٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٣٣ والاشباه والنظائر ٣ / ٢١ والمزهر ٢ / ٤١٢وبغية الوعاة ١٧٢ والاكمال ١/٥٠٩ وشذرات الذهب ٢/ ٢٠٧ وروضات الجنات ١ / ٢٠١ وتاريخ بروكلمان ٢ / ٢١٠ والكنى والألقاب ٢/١١٥ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢ / ١٨٠ ومعجم المؤلفين ٢/٢٠٣ والاعلام ١/٢٥٢ ومدرسة الكوفة ١٤٤ ـ ١٦١ • والمدارس النحوية ٢٢٤ـ٢٣٥ •

ونقل السيوطي في الأشباه والنظائر هذه المجالس • أخذ عنه محمد بن العباس اليزيدى والأخفش الأصغر ونفطويه وأبو عمر الزاهد وابن عرفة وابو بكر بن الانبارى وأبو موسى الحامض وابراهيم الحربي وغيرهم • له من المصنفات : المصون في النحو ، معاني القرآن ، القراءات ، معاني الشعر ، ماينصرف ومالا ينصرف ، الفصيح ، المجالس ، الأضداد ، وغيرها كثير • توفي سنة احدى وتسعين ومائتين •

أما كتابه الضائع في الأضداد فقد عدّه ابن الدهان (ت٥٦٩) بين كتب (الكبار من العلماء) التي يرجع اليها للاستزادة والاطلاع على الشواهد • ولم يكتف محقق أضداد ابن الدّهان بهذه الاشارة للاقرار بتأليف ثعلب كتابا في الاضداد ، ونفى أن يكون له كتاب مستقل في الاضداد ، وانّما كان يعرض لها في مصنفاته وكتبه (٧٩) ، وقد مرّ في الكلام على كتاب الاضداد للفرّاء ـ الذى أشار اليه ابن الدهان أيضا ـ عدم قناعة المحقق بالاشارة نفسها الى كتابه ، نافيا أن يكون للفراء كتاب في الاضداد ، وانما عرض لها في مصنفاته (٨٠) •

واذا كنّا في أضداد الفراء لا نملك غير اشارة ابن الدّهان ، فنحن هنا في أضداد ثعلب نملك ذكرا آخر للكتاب ، نستطيع به أن نؤكد تأليف ثعلب اياه ووجوده متداولا في الايدى مدة طويلة من الزّمن • فقد رواه ابن خير الاشبيلى (٥٧٥) عن شيوخه ، وذكر لنا سند هذه الرواية في فهرسته فقال : « جزء فيه الأضداد لثعلب ، حدثني به أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزى عن خاله الأديب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي عن أبي بكر عبادة بن ماء السماء عن أبي بكر الزبيدي عن أبي على البغداذيعن أبي عمر محمد بن عبدالواحد المطرّز عن أبي العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب رحمه

---

(٧٩) ابن الدهان ٩١ الهامش •

(٨٠) المصدر نفسه والصفحة •

الله » [٨١] ، ومعنى هذا أن الكتاب وصل الى الاندلس عن طريق أبي علي القالي (البغدادي) ـ على مايبدو من سند الرواية ـ وتلقفه العلماء بالرواية واحدا عن واحد ، وهذا يبعد الشك في تأليفه أو وجوده •

ونحن نستطيع ـ في حالة عدم وجود الكتاب بين أيدينا الآن ـ أن نتبيّن ظواهره المنهجية وخصائصه المدرسيّة مما خلفته لنا المصادر التي عنيت بنقل رأيه في الأضداد ، وعلى رأسها كتابه (مجالس ثعلب) الذي حفظ لنا خمس عشرة مادة من مواد الاضداد التي ذكرها ثعلب نفسه وناقشهـــا ، ومثله كتابه المفقود (مجاز الكلام وتصاريفه) الذي نقل السيوطي عنه احدى عشرة لفظة من الاضداد [٨٢] ، كما حفظ لنا كتاب (الأضداد) لابن الانباري رأيه في مواد الاضداد وانشاده لشواهدها في واحد وستين موضعا ، يضاف الى ذلك ورود ذكره في مواد الاضداد في لسان العرب خمس عشرة مرة ، وفي مواد الأضداد في تاج العروس ست مرات ، وقريب من هذين العددين في تهذيب اللغة والصحاح • فيكون من مجموع ذلك مادة وفيرة تصلـــح أن تكون صورة صادقة قريبة لكتابه المفقود معدّة للدراسة واستجــــلاء الظواهر المختلفة •

وأول هذه الظواهر كون مصادره كوفية بحتة ، ذلك أن أبا بكر بن الأنباري لم ينقل رأيه في لفظة من ألفاظ الاضداد أو تفسيره لمعنى من المعاني أو انشاده لشاهد من الشواهد الا وهو مسند في روايته لاساتذته الكوفيين عن طريقين • الأول : عن سلمة عن الفراء في أربعة عشر موضعا ، والثاني: عن ابن الاعرابي في ثلاثة عشر موضعا ، ومرة واحدة عن الأثرم ومرة واحدة عن الكسائي دون ذكر الوساطة ، فيكون مجموع الآراء المذكور فيها سند الرواية تسعة وعشرين رأيا من واحد وستين مرّة ذكر فيها ابن

(٨١) فهرسة ابن خير ٣٨١ •
(٨٢) المزهر ١ / ٣٩٣ •

الانبـارى ثعلبـا في أثناء معالجاته لألفـاظ الاضداد • أما المرّات البواقي فذكره منشدا أو مخبرا أو مفسرا دون أن يسند ذلك لغيره ، مما يدل على أن هذا المنقول هو له وحده ، سمعه منه ابن الانبارى تلميذه وصاحبه • أما المصادر الاخرى فقد سكتت هي أيضا عن ذكر السند بما في ذلك كتابه (مجالس ثعلب) • اذن فمصادر ثعلب هي مصادر الكوفيين ورأيه هو رأيهم ووجهته في الدرس والطرح والمعالجة هي وجهتهم ، كما يملي عليه كل ذلك ارتباطه بسلمة والفراء والكسائي وابن الاعرابي في النقل والرواية والاحتجاج • وهذا الرجوع في الرأى الى الفرّاء يدل على اهتمام الفراء ببحوث الاضداد ، ويقوّى الاعتقاد بتأليفه مصنفا فيها •

والظاهر أن كتابه (الاضداد) كان قائما على ذلك ، وقد رجع اليه ابن الانبارى فنقل منه ما شاء في كتابه مضيفا الى هذا النقل ما سمعه منه مشافهة أو ما دوّنه عن كتاب آخر كالمجالس ، يدل على ذلك قول أبي بكـر بن الانبارى في مادة (الاهْماد) معلقاً على الشاهد الشعرى ومفسـراً معنى (الكُرّز) في قوله رؤبة :

لمّـا رأتْني راضياً بالاهِمـادْ كالكُرّزِ المشْدودِ بين الأوْتادْ

« وأخبرنا أبو العبـاس قـال : يقـال : هو البـاز ، وهـو البازى ، فمن قال : هو الباز قال في التثنية : هما البازان والجمع البيزان ، على مثـال قولهم : الخال والخيلان • ومن قال : هو البازى قال في التثنية : هما البازيان وفي الجمع البُزاة ، على مثل القاضي والقُضاة • قال ابو بكر : في الباز لغة ثالثة لم يذكرها في هذا الكتاب وذكرها لنا في بعض اماليه ، قال : ويقال هو البأز بهمز الألف » [83] • فقول ابن الانبارى : انه «لم يذكرها في هذا الكتاب » ولم يذكر اسم الكتاب قبلا يشعر انه كتاب (الاضداد) ، لدلالة قرائن الحال والكلام على ذلك •

---

(٨٣) ابن الانبارى ١٧٣ •

وثعلب كثيراً ما يعلق على شواهده التي يسوقها ، ويخرج أحياناً في هذه التعليقات الى امور من التفسير لا تمت للموضوع المبحوث بصلة ، تقوده اليها لفظة مبهمة او معنى غريب او استعمال خاص • ومن اقرب الامثلة على ذلك ما نقلناه من تفسير لفظة (الكُرَّز) الواردة في شاهد شعرى سيق في مادة (الاهْماد) التي هي من الاضداد تنصرف للاقامة والسير ، وواضح من الشاهد ان (الكُرَّز) ليس محل الشاهد في هذا البيت • ومثل هذا تعليقه على الشاهد في مادة (النِدّ) [٨٤] وكذلك في مادة (المَسْجور) [٨٥]، ومادة (نُوْتُ) [٨٦] ، ومادة (الصَّفْر) التي هي للامتلاء والخلو ، وقد ورد أثناء الكلام عليها قول النبي « لا عَدْوى ولا هامة ولا صفْر » ، فأبعد ثعلب في التعليق على هذا الحديث حتى نقل عن ابي الاعرابي أنه : « قال : الهامَةُ طائرٌ يسكن القبور تتشاءم به العرب ، وتتطيّر به ، فأبطل النبي صلى الله عليه ذلك من ظنّهم • قال أبو العباس عن ابن الاعرابي ثم سمّت العرب الميّت هامَة على جهة الاتساع وأنشد :

فإنْ تكُ هامةٌ بهراةَ تَزقُو ... فقد أزْقيتُ بالمرْوينِ هاما »[٨٧]

وواضح أن التعليق الطويل على (الهامة) ليس من صلب الكلام على الضدّ • وقد قاد هذا التعليق الجانبي الى الاستشهاد الجانبي ايضا وهكذا •

أما شواهده فمعظمها من الشعر ، وهو يكثر من الاستشهاد به ، حتّى ليذكر بيتين أو ثلاثة قبل البيت الذى فيه موطن الشاهد ، كأنه يحرص بذلك على أن تكون الفكرة التي يريدها الشاعر متكاملة واضحة حتى لينشد ثلاثة ابيات في سبيل ذلك ، اذا لم تكن واضحة في بيت واحد ،وأمثلة ذلك في

---

(٨٤) ابن الانباري ٢٦ •
(٨٥) نفسه ٥٦ •
(٨٦) نفسه ١٤٥ •
(٨٧) نفسه ٣٢٥ •

المواد : الندّ ، القرء ، المولى ، ذعور ، ليل نائم ، تلحلح ، اللحن، لائق[88]، وغير هذا كثير .

أما شواهده من غير الشعر فتكاد تكون معدومة ، فلم ينقل عنه انه استشهد بآية كريمة أو حديث شريف أو مثل سائر . اللهم الاّ تعرضه لتفسير بعض ألفاظ الآيات الكريمات مما يشمّ منها التضاد في معنييها ، ومن أمثلة ذلك قوله : « وقال أبو العباس في قوله عزّ وجلّ (ما بعوضةً فما فَوقَها) : يقال دونها وهو قليل ، وتكون (ما) صلة ، وما فوقها أي اكبر منها ، أجود » [89] وهو رأي الفراء أيضا كما مرّ سابقا والظاهر أن ثعلبا قد تأثر به . وقوله : « أكاد أُخْفيها : أريد أسترها ، ومن قال أَخْفي قال أظهر . و (أسَرّوا النَّدامة) قال : من رؤسائهم » [90] ، فقد لاحظ في الفعل (أُخفي) حركة الهمزة ليعلم هل هي أصلية أم هي للسلب وقد فرّق بها المعنى ، وقد مال في (أسَرّوا) الى المعنى المشهور خلافا لغيره ، وهو في هذا كالفراء أيضا . وقد فرّق في المعنى في قوله تعالى (لقدْ تَقَطَّع بَينكم) فقال : « بفتح النون أي مابينكم ، وبينُكم بضمّ النون أي وصلكم »[91] وكأنه بهذا يترك الامر للقراءات التي يُشعر ثعلب بهذا الاسلوب من الحكم على معاني القرآن واستعمالاته أنه يحترمها ويقرّها وان لم ينص على ذلك ، وقد نص الفراء عليها في هذه الآية عندما عرض لتفسيرها كما مر سابقا ، وهي خصيصة كوفية ـ اعني احترام القراءات ـ والا فبامكان كل منهما أي الفراء وثعلب ، لو لم يكن كذلك أن يقطع بحكم في معنى اللفظ مفيدا أنه هو الصواب فيه وأن مادونه خطأ كما فعل أبو عبيدة مثلا في

---

(٨٨) ابن الانباري ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ١٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٤ .
(٨٩) مجالس ثعلب ١ / ١٩١ .
(٩٠) مجالس ثعلب ١ / ٢٣١ .
(٩١) نفسه ٢٦٣/١ ولسان العرب ٦٢/١٣ .

بته في معاني القرآن ، الا ان منهج هؤلاء يختلف عن منهج اولئك تمام الاختلاف ، اذ لا يمكنهم جحد القراءات وتناسيها وعدم الاعتراف بها في ترتيل المصحف الكريم .

وحاول ثعلب أن يفسر التضاد في بعض الألفاظ فيردها تارة الى التصريف واخرى الى التفاؤل وثالثة الى السياق والقرائن الكلامية وما الى ذلك . فقال مثلا في تفسير (الظن) الذي يقع شكا مرة ويقينا مرة : « وقال أبو العباس : انما جاز أن يقع الظن على الشك واليقين لأنه قول بالقلب ، فاذا صحت دلائل الحق وقامت اماراته كان يقينا ، واذا قامت دلائل الشك وبطلت دلائل اليقين كان كذبا ، واذا اعتدلت دلائل اليقين والشك كان على بابه شكا لا يقينا ولا كذبا »[92] . وقال في (السَّليم) و (المَفازَة) : « وقال أبو العباس : قالت العرب : انما سمينا الملدوغ سليماً لما به . وقال بعضهم : سميت المفازة مفازة تفاؤلا أي ينجو من سلكها »[93] . وقال في (القُرْء) وقد تنبه للتصريف وما يمكن أن تؤديه الهمزة في فعلت وأفعلت : « وأخبرنا أبو العباس عن سلمة عن الفراء قال : يقال : أَقْرأَتْ المرأة اذا حاضت ، وقرأَتْ : حملت . ويقال : قد أَقْرأَتْ الحية اقراءاً اذا جمعت السم شهراً ، فاذا وفى لها شهر مجته »[94] ، ومثل هذا التفسير بالتصريف في مادة (الفارِى)[95] .

كما لاحظ في (الخِنْذيذ) شمولية المدلول الأول فقال : « وأخبرنا أبو العباس عن ابن الاعرابي قال : الخِنْذيذ الضَّخْم والخَناذيذ : الضخام وأنشدنا :

---

(٩٢) ابن الانبارى ١٦ .

(٩٣) مجالس ثعلب ١ / ١٧٠ والمزهر ١ / ٣٩٣ وابن الانبارى ١٠٦ ، وفي الاخير ان ثعلبا نقله عن سلمة عن الفراء .

(٩٤) ابن الانبارى ٣٠ .

(٩٥) نفسه ١٦٠ .

يَصُدُّ الفارسُ الخِنْذيذُ عَنّي

صدودَ البِكر عن قَرم هجانِ

وأخبرنا أبو العباس عن ابن الأعرابي قال : الخنذيذ : الضخم ، والخناذيذ : الضخام • وأنشدنا :

تَعلُو أَواسيهِ خَناذيذُ خِيَمْ »[٩٦]

فليس الخنذيذ على هذا من الأضداد يكون للفحل ويكون للخصي من الخيل ، وانما هو الضّخم منها سواء كان فحلا أو خصيا • كما رجع في تفسير (بَرِح) الى الأصل اللغوي للفظة ، وقالوا انها من الاضداد للظهور والخفاء ، ومنها (بَرِحَ الخَفاء) فقال : « قال أبو العباس : أصل (بَرِح) صار في براح من الأرض ، وهو البارز المنكشف والخفاء : المستور المكتوم• فاذا قال القائل : بَرِحَ الخَفاء ، فمعناه ظهر المكتوم » •[٩٧] •

ودعاه استقراؤه لكلام العرب وتعمقه فيه أن يشترط في (الوَراء) شرطا ليكون استعمالها في المعنى الثاني جائزا فقال : « قال ثعلب : الوَراء : الخلف ولكن اذا كان مما تمرّ عليه فهو قدّام ، هكذا حكاه الوَراء بالالف واللام ، ومن كلامه أخذ »[٩٨] • وتنبّه للتصحيف ودوره في خلق التضاد : « وَرَقَأَ بينهم يَرْقَأُ رَقْأً : أفسد وأصلح • وَرَقَأَ ما بينهم يَرقأُ رَقْأً اذا أصلح • فأمّا رفأ بالفاء فأصلح ، عن ثعلب »[٩٩] ، فمعنى الاصلاح عنده بالفاء وليس بالقاف ، ومن هذا يستنتج أن التصحيف في اللّغة ــ وهو قريب جدا بين القاف والفاء ــ خلق من الفعل (رَقَأَ) ضدا •

---

(٩٦) ابن الانباري ٥٩ ــ ٦٠ •

(٩٧) ابن الانباري ١٤١ •

(٩٨) لسان العرب ١ / ١٩٣ وتاج العروس ١ / ٤٨٦ •

(٩٩) لسان العرب ١ / ٨٨ •

وناقش ثعلب مضطرا الشاهد الذي سيق دليلا على ضدية (البَعْض) وحاول أن يجد تفسيرا مقبولا للمعنى الذي يريده الشاعر ، فقال : « قال أبو العباس أحمد بن يحيى : أجمع أهل النحو على أن البعض شيء من أشياء أو شيء من شيء الا هشاما فانه زعم أن قول لبيد :

أوْ يَعْتَلِقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

فادّعى وأخطأ أن البعض ههنا جمع ، ولم يكن هذا من عمله وانما أراد لبيد ببعض النفوس نفسه »[100] • وأشار الى القلب اللغوي ودوره في خلق التضاد ، كما في مادة (تَلَحْلَحَ) التي تعني أقام وتعني زال ، فيقول في تفسير المعنى الثاني : « وأنشدنا في المعنى الآخر أبو العباس عن سلمة عن الفراء :

تَقولُ وَرْياً كلّما تَنَحْنَحا شَيْخٌ اذا حَرّكْتَه تَلَحْلَحا •

أراد ب (تَلَحْلَحَ) تحلحل ، فقدّم اللام وأخر الحاء ، كما قالوا : جذب وجبذ ، وعاث في الارض وعثا ، هذا تفسير الفرّاء »[1] • ووجد أن الادغام سبّب ما اعتبر من الاضداد خطأ ، ذلك أنهم قالوا ان الفعل (برّد) له معنيان متضادان هما المعنى المعروف وسخّن ، وذلك لقول الشاعر :

عافَتِ الشّربَ في الشّتاءِ فقُلْنا بَرّديهِ تُصادِفِيه سَخينا

« قال أبو بكر : وحكى لي بعض أصحابنا عن أبي العبّاس أنه كان يقول في تفسير هذا البيت : بل رديه ، من الورود فأدغم اللاّم في الراء ، فصارتا راء مشددة »[2] •

كل محاولات التفسير هذه تعطي صورة عن تفتح الذهن واستيعابه

---

(١٠٠) لسان العرب ٧/١١٩ •

(١) ابن الانباري ٢٣٦ •

(٢) نفسه ٦٤ •

للفكرة وانكاره أن يكون مثل هذه الالفاظ من الأضداد وقد ظهر بوضوح سبب تضادّها وانصرافها الى معنييها الوهميين بما نصّ عليه ثعلب أو أشار اليه من تفسير • وهذا من خصائص المنهج الكوفي الذي رأيناه عند الفراء بوضوح وجلاء ، ولم نجده عند البصريين أمثال قطرب وأبي عبيدة والأصمعي ، اللهم الا أبا حاتم فكان في كتابه شيء من ذلك ، غير أن هذا الشيء محصور في ردوده على أبي عبيدة • ولا ينافي أن تؤمن مدرسة الكوفة بالنقل والرواية في اللغة ، وأن تحاول تفسير تضاد الالفاظ بحجة أن الاضداد نفسها قد رويت ونقلت عن العرب • ذلك أنهم يحاولون تفسير ما روي عن العرب أنفسهم وما نقل عنهم ، فهم في ذلك على المنهج نفسه من احترامهم للرواية والنقل • والا لأنكروا وجود هذه الالفاظ في اللغة ولجحدوا ورودها عن العرب •

الا أن ثعلباً أغفل تفسير بعض الألفاظ في الوقت الذي يكون تفسيرها يسيرا بيّنا ، مثل قوله : « قال أبو العباس : ويقال طَواه ، أي أتاه وجازه ، وهو من الاضداد»[٣] • في حين لا يتم معنى اللفظة الاّ بما اعتبره معنيين متضادين معا وهو الاتيان والاجتياز ، وبعبارة اوضح نقول ان (طَواه) له معنى واحد هو أتاه وجازه معا ، وليس كل منهما معنى خاصا تنصرف اليه اللفظة على حدة انصرفا مضادا • وكذلك قوله : « النّاهِل : العَطشان والرّيان ، من الاضداد »[٤] ، وقد فسره غيره على التفاؤل كأبي حاتم السجستاني مثلا[٥] ، ومثل هذا (السّاجِد) للمنحني والمنتصب[٦] ، في حين يكون المعنى الثاني في لغة طيء دون سائر اللغات

---

(٣) مجالس ثعلب ٢ / ٢٥ع •
(٤) المصدر نفسه ١ / ١١٨ •
(٥) أبو حاتم ١٢٧ •
(٦) المزهر ٣٩٣/١ نقلاً عن مجاز الكلام وتصاريفه •

العربية • و (المُتَظلِّم) للذي يشكو من ظلامته ، وللظالم[7] في الوقت الذى يكون دور التصريف واضحا في كون الصيغة من صيغ السلب • و (القنيص) للصائد والصيد[8] ، وهو أيضا بسبب عوارض التصريف، كما لم ينص ثعلب على المقلوب في كلام العرب ، كقوله : « تقول العرب: نُؤْت بالحمل أنوء به نوءاً أي نهضت به ، وناء بي الحمل أي نؤت به نهوضا • ويقال ناء النجم ينوء نوءا اذا سقط »[9] وكان أبو حاتم ايضا قد عدّ هذامن المقلوب وجعله في الفصل الذى عقده في آخر كتابه ، ونص على أنه ذكر فيه « حروفا لا علم لي بها أثقال أم لا »[10] وفي (المَسْجور) لم ينص ثعلب الا على المملوء[11] ، كما لم ينص في (البَسْل) الا على الحلال[12] ،كأنه لم ير فيهما الا معنى واحدا ، فهي على هذا ليست من الاضداد غير أن ثعلبا برر كل ذلك ووضحه بقوله : « الاسماء كلها لعلة ، خصت العرب ما خصت منها من العلل ما نعلمه ، ومنها ما نجهله »[13] • وهو بهذا يثبت لنفسه تواضع العالم الذى أيقن بعد طول المران والتجربة والبحث أنه لا يمكن الاحاطة بأساليب العرب واستعمالاتهم وعلل لغتهم فلابد من الاقرار بما يعلم منها وما يجهل •

وهناك شيء يجب ان لا يغيب عن البال ، هو اننا الان تحت رحمة وسيط بيننا وبين الكتاب ، قد لا يكون ناجحا في عكس الصور الكافية

---

(٧) المزهر ١ / ٣٩٣ •

(٨) نفسه ١ / ٣٩٣ •

(٩) مجالس ثعلب ٢ / ٤١٧ •

(١٠) ابو حاتم ١٤٨ •

(١١) لسان العرب ٤/٣٤٥ ، وفي المزهر ١/٣٩٣ ان ثعلبا ذكر المعنى الثاني وهو (الفارغ) في كتابه (مجاز الكلام وتصاريفه) •

(١٢) ابن الانبارى ٦٣ •

(١٣) نفسه ٧ •

عن الكتاب فيما نقل عنه ، وربمـا كان هـذا الوسيط ـ وهو أبو بكر بن الانبارى في الدرجة الاولى ـ مهتما في جوانب معينة من كتاب ثعلب فأكثر من النقل منها • كاهتمامه الواضح بالشعر والتعليقات المختلفة على الشواهد الشعرية ، دون غيره من الشواهد الذى يشمل القرآن والحديث والمثل والمأثور وغير ذلك • ويؤيد هذا ان ثعلبا نفسه قد اهتم بالقرآن وآياتـه في مجال الاضداد عندما عرض لها في كتابه (المجالس) ولابد أن يكـون تعرضه لها أكثر في كتاب يجرده للاضداد • الا أن أبا بكر لم ينقل عنـه شيئا من ذلك في كل المواضع التي ذكره فيها • أريد أن اقول انه ربمـا وجدنا في الكتاب ـ لو كان في أيدينا الان ـ كل ما افتقدناه في مجموع هذه النقول الكثيرة عنه ، والتي حفلت بها معجمات الاضداد وكتب اللغة•

كتـاب ابن الأنبـاري

المؤلف هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الانبارى النحوى(١٤) ، كان أبوه القاسم بن محمد الانبارى من علماء الحديـث واللغة وهو أول اساتذة ابنه ابي بكر • فنشأ الولد واسع الدراية متقنـا لعلوم القرآن والحديث والرواية ، عالما بنحو الكوفيين وأكبرهم حفظـا للغة في زمانه زاهدا متواضعا • انتدبه الخليفـة الراضي لتأديب الامـير عبدالواحد بن المقتدر • أخذ عن ثعلب بعد أخذه عن ابيـه ، وعن ابـي

---

(١٤) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ١٧١ وتهذيب اللغـة ١/٢٨ والفهرست ١١٢ وتاريخ بغـداد ٣/١٨١ ونزهة الالباء ١٨١ والانساب ١ / ٣٥٣ ونور القبس ٣٤٥ ووفيات الاعيان ٣ / ٤٦٣ ومعجم الادباء ١٨ / ٣٠٦ والفلاكة والمفلوكون ١٥٧ وانباه الرواة ٣ / ٢٠١ والوافي بالوفيات ٤ / ٣٤٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٩ والمزهر ٢ / ٤١٣ وبغية الوعاة ٩١ وشذرات الذهب ٢ / ٣١٥ وتاريخ بروكلمان ٢ / ٢١٤ وطبقات اعلام الشيعة ٤ / ١١٦ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/١٨٢ والكنى والالقاب ١/٢٠٩ ومعجم المطبوعـات ٤١ والاعلام ٧ / ٢٢٦ والمدارس النحوية ٢٣٧ •

جعفر احمد بن عبيد وجماعة ، كان يُكتب عنه وابوه حي • وكان يحفظ فيما ذكر ثلثمائة ألف بيت شاهد في القرآن ، واكثر ما يمليه من غير دفتر ولا كتاب • وحدث انه كان يحفظ ايضا عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها ، يرويها عن أبيه ويرويها عنه أبو العباس محمد بن ابراهيم بن اسحاق الطالقاني من مشايخ الصّدوق راوية الحديث الشيعي المعروف •

أخذ عنه أبو عمر بن حيويه وأبو الحسين بن البواب وأبو الحسن الدارقطني وابو الفضل بن المأمون واحمد بن محمد بن الجراح ومحمد بن عبدالله بن أخي ميمي وغيرهم • أملى كتابه (غريب الحديث) في خمس واربعين ألف ورقة ، وله (شرح الكافي) في ألف ورقة ويقول الصفدي : « وكتاب الاضداد ما رأيت اكبر منه في بابه » وله غير هذه مصنفات كثيرة منها : الهاءات ، المشكل ، المذكر والمؤنث ، الزاهر ، المقصور والممدود، اللامات ، الكافي في النحو ، الهجاء ، وغير ذلك • توفي ليلة النحر من ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ببغداد •

أما كتابه (الاضداد) فقد وصلنا وطبع عدة طبعات أشرنا اليها سابقا، وخيرها التي بتحقيق الاستاذ محمد أبي الفضل ابراهيم[١٥] • والكتاب في الوقت نفسه أكبر واوسع كتب الاضداد التي مرّت • اذ وصل عدد الاضداد فيه الى سبعة وخمسين وثلاثمائة ضدا ، ويكاد يكون هذا العدد ضعف عدد الاضداد عند أبي حاتم وضعفيه عند الاصمعي وثلاثة اضعافه عند ابن السكيت ، وفي هذا تتجلى سعة الحفظ والرواية ، وقد جاءت شروحه غاية في الافاضه والاكتظاظ بالاستطرادات والتعليقات التي لا تمت الى فكرة الاضداد بصلة الا قليلا •

---

(١٥) الكويت ١٩٦٠ •

ويعتبر كتاب ابن الانبارى مرحلة جديدة من التأليف في الاضداد ، اذ ألفه ابن الانبارى متأثرا بمحاولات سابقيه : الفراء والاصمعي وابي عبيدة وثعلب وغيرهم ، محاولا أن يجمع بينها ليكمل بعضها بعضا ، مضيفا اليها من رأيه الخاص ، بمنهج اكثر شمولا ونضجا . وكان الدافع لتجريد مثل هذا الكتاب لدراسة الاضداد هو الرد على الطاعنين في لغة العرب والمنتقصين من حكمتها وبلاغتها ، فيقول في مقدمته للكتاب : « هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة ، فيكون الحرف منها مؤديا عن معنيين مختلفين ، ويظن أهل البدع والزّيغ والازراء بالعرب ، أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم وقلّة بلاغتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم »[١٦] . فهو يشير هنا الى دوافع تأليفه الكتاب ويرسم لنفسه الطريق ، ثم يحاول بعد ذلك أن يجيب على ما أثار أهل البدع والزيغ والازراء بالعرب بأجوبة مختلفة تفنّد اشكالهم في الالتباس الذى يحصل من جرّاء انصراف اللفظة الواحدة الى المعنيين المتضادين ، فيقول في مقدمة كتابه : « فأجيبوا عن هذا الذى ظنوه وسألوا عنه بضروب من الاجوبة، أحدهن : ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين ، لانها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الاخر ، ولا يراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد »[١٧] ، ثم يضرب لذلك الامثلة ويسوق الشواهد الشعرية والقرآنية ويعلق عليها ويبين أن سياق اللفظة هو الذى يحدد المعنى ويفرده عما سواه ويخصصه للسامع . وهو بهذا يعتبر أول من فسر التضاد بالسياق ، فانفتح لكثير من الباحثين المحدثين الغربيين والعرب

---

(١٦) ابن الانبارى ١ .

(١٧) ابن الانبارى ٢ .

هذا الباب ـ كما مر سابقا ـ فراحوا يفسرون المشترك بالسياق أيضا ، وأيدوا هذه الفكرة بالنسبة للاضداد .

وفي نهاية هذا الجانب من الكلام قال ـ وهو يقصد الاضداد ـ : « وهذا الضرب من الالفاظ هو القليل الظريف في كلام العرب »[18] ، معتبرا هذا الضرب من الالفاظ هو احد الاضرب الثلاثة لالفاظ العربية ، اذ ان « اكثر كلامهم يأتي على ضربين آخرين : أحدهما أن يقع اللفظان المختلفان على المعنيين المختلفين ، كقولك : الرجل والمرأة ، والجمل والناقة ، واليوم والليلة ... والضرب الاخر ان يقع اللفظان المختلفان على المعنى الواحد كقولك : البُر والحُنطة ، والعَير والحِمار ، والذّئْب والسّيِد .. »[19] ، وهو بهذا التقسيم ينحو منحى سيبويه ويفيد منه ، لان سيبويه في (الكتاب) هو أول من قسم لغة العرب أقسامها الثلاثة ، التي أخذها عنهمن جاء بعده من المعنيين باللغةوبالاضداد والمشترك خاصة، وصدروا بها كتبهم ومصنفاتهم ، وابن الانباري واحد منهم .

بعد هذا ينتقل ابن الانبارى الى التفسير الثاني لنشوء الاضداد ويسمّيه : التداخل على جهة الاتساع ، ونحن سميناه : شمولية المدلول الاول ، فقال : « وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع . فمن ذلك الصَّريم ، يقال لليّل صَريم وللنهار صَريم ، لان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع ، وكذلك الصّارخ المُغيث ، والصّارخ المُستْغيث ، سميا بذلك لان المُغيث يصرخ بالاغاثة ، والمُستَغيث يصرخ بالاستِغاثة ، فأصلهما

(١٨) ابن الانبارى ٦ .

(١٩) نفسه ٦ ـ ٧ .

من باب واحد »[٢٠] ، وهكذا يستمر في ايراد الشواهد والامثلة المختلفة مؤيدا هذه الفكرة ، وهي أن تكون اللفظة في اصل وضعها في اللغة مشتملة على كلا المعنيين وصالحة للانصراف لكل منهما على حدة لاشتراكهما فيها على جهة الاتساع وشمولية المدلول •

ثم يعرض للتفسير باللهجات العربية ، وذلك بأن يكون كل من المعنيين المتضادين قد جاء من لهجة مستقلة ثم جمع المعنيان عن طريق السّماع ، يقول : « وقال آخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين، فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحيّ من العرب ، والمعنى الاخر لحي غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء ، قالوا : فالجَوْن الأبيض في لغة حيّ من العرب ، والجَوْن الاسود في لغة حيّ آخر ، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر »[٢١] ، وينقل لتأييد ذلك آراء ثعلب والفراء والكسائي في اللغات التي اعتورت (حَسِب يَحسِب) و (فَضِل يَفْضَل) و (متّ أَمُوت) وغيرها ، وكيف تداخلت هذه اللغات فيما بينها فكان لكل ماض منها صورتان ولكل مضارع منها صورتان أيضا •

وينهي ابن الانباري مقدمته الطويلة هذه بتوضيح منهجه في الكتاب وفضله على غيره ، وما زاد فيه ممّا ليس في سواه ، فيقول : « وقد جمع قوم من أهل اللغة الحروف المتضادة وصنفوا في احصائها كتبا ، نظرت فيها فوجدت كل واحد منهم أتى من الحروف بجزء ، وأسقط منها جزءا ، وأكثرهم أمسك عن الاعتلال لها ، فرأيت أن أجمعها في كتابنا هذا على حسب معرفتي ومبلغ علمي ، ليستغني كاتبه والناظر فيه عن الكتب القديمة المؤلفة في مثل معناه ، اذ اشتمل على جميع ما فيها ، ولم يعدم منه زيادة

---

(٢٠) ابن الانباري ٨ـ٩ •
(٢١) ابن الانباري ١١ـ١٢ •

الفوائد ، وحسن البيان ، واستيفاء الاحتجاج ، واستقصاء الشواهد »[٢٢] ، فهو بالاضافة الى جمعه ما قال القدماء في كتبهم المصنّفة في الأضداد ، درس هذه الظاهرة وحاول تعليلها ، فكلامه هنا يثبت أنه يأخذ كلام سابقيه لا جمعاً أو احصاءاً كما فعل بعضهم ، بل دارساً ومعللاً ، على حسب معرفته ومبلغ علمه • ثم أشار الى مسألة اخرى هي استيفاء الاحتجاج واستقصاء الشواهد ، ومحاولة الخروج من هذا كلّه الى نتائج عامة •

والآن ـ قبل أن نترك دراسة المقدمة ـ نتساءل : اذا كان ابن الانباري وقف بنفسه على ما يمكن أن يخصصه سياق الكلام من معنى للفظة ، وما كان للاتساع في اطلاق اللفظة وتداخل معانيها من دور في خلق التضاد ، وما أحدثته اللهجات المختلفة من اجتماع المعنيين المتضادين في اللفظة الواحدة ، اذا كان قد وقف على كل ذلك وآمن به وفسّر كثيرا من الألفاظ والشواهد والاستعمالات بهذه التفسيرات المنطقية المقبولة ، فلماذا عدّ الالفاظ التي تندرج تحت هذه النقاط ـ فتفقد صفة التضاد وضعا وأساسا ـ من الأضداد ؟• أهو تناقض في موقفه من الأضداد ، بحيث يكون سلبيا أمام أهل البدع والزيغ ، وايجابيا أمام نفسه ، أم انه اندفاع غير مدروس الى الجمع والاستقصاء ، مهما كان تلمس هذه المواد مشحونا بالتفسير والتأويل والالصاق ؟ كلاهما صحيح ، فهو حين يجد صوت العربي الغيور على لغته يصيح في نفسه ، نراه رادا على الشعوبيين الذين أرادوا الطعن في اللغة والازراء بالعرب والانتقاص منهم في عدم هذه الدقة في الدلالة ، محاولا أن يجد التفسيرات والمبررات المختلفة لوجود هذه الالفاظ في اللغة • وحين تحتدم الرغبة في نفسه في أن يكون مستوعباً ومستوفياً ومتفوقاً على غيره ممن خاض هذا الجانب من التأليف ، نراه مندفعا الى الاحصاء غير الواعي واللمّ غير المنظم ، ليكون هذا مجالا للمكاثرة

---

(٢٢) ابن الانبارى ٣ ١ •

بالمادة والمفاخرة بالعلم والتوسع بالرواية والنقل ، وان كان قد عرض أيضا الى هذه التفسيرات السابقة وغيرها أثناء معالجته لبعض الالفاظ في الكتاب •

أما مصادره فمتنوعة مختلفة ، الا أنها في الاغلب الأعم كوفية ، فقد روى عن استاذه ثعلب عن سلمة بن عاصم عن الفراء عن الكسائي ، وعن ابن الاعرابي بوساطة ثعلب أيضا ، وعن ابن السكيت • وهؤلاء هم شيوخ مدرسة الكوفة في اللّغة • ولكنه روى كذلك عن بعض شيوخ مدرسة البصرة كقطرب وأبي عبيدة والاصمعي وأبي حاتم وابن قتيبة ، وقد ناقشهم وردّهم ووقف منهم موقف المفنّد في كثير من المواضع وخصوصا ابن قتيبة • ومال الى أساتذته الكوفيين وأيَدهم وكرر النّص على أن مايقولونه هو الصواب • بحيث يعطي كتابه بشكل عام صورة واضحة لنزعته الكوفية الخالصة المتمثلة أولا بتلمذته لثعلب والاكثار من الرواية عنه وعن شيوخه ، وثانيا بموقفه من بعض شيوخ البصريين ورده لآرائهم ، وثالثاً بذوقه اللغوي القائم على الاكثار من الشواهد الشعرية والقرآنية وذكر آراء المفسرين والاحتجاج بالقراءات ولهجات العرب وأساليبهم المختلفة وما الى ذلك ، مما يؤكد فكرة الاعتماد على النقل والرواية واحترامهما ، والبعد عن التمحّل والتقعّر والنظر الفلسفي العقلي •

والأمثلة على ذلك من الكتاب كثيرة ، وقد مرّ قسم كبير منها خلال دراستنا لكتب الأضداد المفقودة والتي تلمسنا مادتها في كتاب ابن الانباري ، وعرفنا هناك مقدار اعتماده على ثعلب وشيوخه بالتسلسل الى الكسائي الذي نفترض أنه أخذ مادته عن الخليل ، أما ردّه لآراء البصريين وتغليطهم فيها فواضح في جملة مواضع ، منها قوله في مادة (الرّجاء) : « وقال سهل السجستاني : معنى قوله : (فَمَنْ كانَ يَرجو لقاءَ رَبِّه) : فمن كان يخاف لقاء ربّه ، وهذا عندنا غلط ، لأن العرب لا تذهب بالرجاء

مذهب الخوف الا مع حروف الجحد ، وقد استقصينا الشواهد لهذا »[٢٣]، ومرّ بنا في دراسة كتاب الفراء انه أول من اشترط هذا الذي يقوله ابن الانباري من وجوب الجحد (النفي) لتنصرف لفظة الرجاء الى معنى الخوف ، وابن الانباري يرد على أبي حاتم البصري من وجهة النظر الكوفية هذه • وشبيه بهذا التغليط ما نجده في كلامه في مادة (اللَّحْن) وايراده الشاهد :

منطقٌ صائبٌ وتَلحَنُ أحيا نًا وخيرُ الحَديث ما كانَ لَحْنا

قال : « وقال ابن قتيبة : اللحن في هذا البيت الخطأ ، وهذا الشاعر استملح من هذه المرأة ما يقع في كلامها من الخطأ • قال أبو بكر : وقوله عندنا محال ، لأن العرب لم تزل تستقبح اللحن من النساء كما تستقبحه من الرجال ويستملحون البارع من كلام النساء كما يستملحونه من الرجال »[٢٤] وغلّط ابن الانباري ابن قتيبة أيضاً في مادة (الشَّنَق) فقال : « ورد ابن قتيبة على أبي عبيد اختياره وما ذهب اليه في اشناق الديّات ، وقال : ليست أشناق الديات كأشناق الفرائض ، لأن الديّات ليس فيها شيء يزيد على عَدٍ من عددها أو جنس من أجناسها فيلغى ، قال : وانما أشناق الدّيات أجناسها ••• وقال أبو بكر : والصواب عندنا قول أبي عبيد ، والذي اختاره ابن قتيبة وذهب اليه خطأ بدليل من بيت الأخطل وآخر من بيت الكميت • اذ كان الأخطل قال : تُعَلّقُ أشْناقُ الدّيات بِه • فأضاف الاشناق الى الدّيات لأنها زيادات عليها »[٢٥] ، فابن الانباري في هذا الكلام يثبت كوفيته عن طريقين : الأول ردّه وتغليطه لابن قتيبة البصري المغالي ، والثاني دفاعه عن رأي ابي عبيد والوقوف معه

(٢٣) ابن الانباري ١٧ •

(٢٤) ابن الانباري ٢٤١ـ٢٤٢ •

(٢٥) ابن الانبارى ٣٠٧ ـ ٣٠٨ •

في التفسير • ومثل هذا الموقف من ابن قتيبة نجده في مواد : (النَّبَل)[26]، (تَوَسَّدَ)[27] ، (البَعْل)[28] ، وغيرها • وبالرغم من أن ابن الانبارى لا ينص على الكتاب الذى ينقد فيه آراء ابن قتيبة ، الا أنه كما يظهر كتابه (تأويل مشكل القرآن) والفصول التي عقدها فيه للمقلوب خاصة •

وشواهد ابن الانبارى في الكتاب كثيرة جدا ومتنوعة تنوعا عجيبا ، أكسبت كتابه هذه الضخامة والسعة ، بحيث لو اننا جرّدنا الكتاب من الشواهد واقتصرنا على مواد الاضداد وبيان معانيها المتضادة فقط ، لم يبق في أيدينا الا جزء صغير لا يتعدى ثلث الكتاب • وتتوزع هذه الشواهد على الشعر والآيات القرآنية والأحاديث والامثال والمأثور من كلام العرب والقصص والأخبار ، وما يستتبع كل ذلك من شرح لألفاظ الشواهد اللغوية والتعليق على موطن الشاهد والتعرض لآراء المفسرين والفقهاء في دلالة الآيات والاحاديث واختلاف القراءات وعرض وجهات نظر النحاة واللغويين في استعمالات العرب المختلفة في كلامهم ، حتى كانت من مجموع ذلك دراسة لغوية غزيرة المادة واسعة الرواية دقيقة النتائج • فلا يكاد يخلو الكلام على أي مادة من مواد الأضداد في الكتاب من الاستشهاد بمجموع هذه الانواع المختلفة من الشواهد أو ما هو قريب من هذه النسبة • اذ بلغ عدد الآيات التي استشهد بها في الكتاب (٢٦٩) آية ، والاحاديث (٥٣) حديثاً ، والاشعار (٧٩٦) بيتاً ، أنصاف الابيات (١١) شطراً ، والارجاز (٩٩) رجزاً ، ومثل هذه الاعداد استشهد بالأمثال والاخبار والمأثور وهكذا • وشعراؤه يتوزعون مختلف العصور ففيهم

---

(٢٦) نفسه ٩٣ •

(٢٧) نفسه ١٨٦ ـ ١٨٧ •

(٢٨) نفسه ٢٢٦ ـ ٢٢٨ •

الجاهليون كامرىء القيس والاعشى وزهير بن أبي سلمى والافوه الأودي وطرفة بن العبد والنابغة الذبياني والخنساء وغيرهم ، وفيهم الاسلاميون (المخضرمون وصدر الاسلام) كحسان بن ثابت وابن الزبعرى وعبدالله ابن رواحة وكعب بن زهير وكعب بن مالك وغيرهم ، وفيهم الامويون كالاخطل والكميت والفرزدق وجرير وذي الرّمة والراعي النميري وكثير وابن قيس الرقيات وغيرهم • ولم يستشهد للعباسيين مطلقاً كأنه ممن لا يحتج بلغتهم في الشعر ، ولكنه مع ذلك يعتبر من المتوسعين في الاستشهاد والمتساهلين فيه باستشهاده بشعر الفرزدق وجرير والاخطل وغيرهم من شعراء العصر الاموي الذين أسقطهم غيره من اللغويين والنحاة ـ البصريين خاصة ـ من دائرة الاحتجاج بلغتهم والاستشهاد بشعرهم •

ولكننا نأخذ عليه عدم الدقة في المنهج في أحايين كثيرة ، اذ ليست كل استطراداته في التعليق والاستشهاد موفقة اذ كثيراً ما يورد شاهداً على أحد المعنيين المتضادين ثم يستطرد في شرح الشاهد وايراد شواهد اخرى على شرحه مبتعداً بها عن صلب الموضوع ، ففي مادة (أخْلَفْتُ) مثلا أتى بعشرة أبيات من الشعر ليس منها سوى بيت واحد على فكرة التضاد[٢٩] ، ومثل هذا الأمر نجده في أكثر من نصف مواد الكتاب • وبما أن « أكثر دراسة ابن الانباري منصبّة على الألفاظ التي جاءت في القرآن واعتبرها السابقون من الأضداد وأخطأوا فيها التأويل ، يمكن أن يقال انه حاول أن يهدم نظرية الأضداد السابقة بتوسّع وافاضة • ويجتهد فيما وقف العلماء حياله صامتين من آيات القرآن ، فيحاول أن ينفذ من الحيّز الضيّق المضروب حول اللفظ القرآني • ويحاول أن يوفق بين اللفظ والسياق دون التحامل على الآية أو على اللفظ ، ويرفض القول بالقلب والتناقض

(٢٩) ابن الانباري ٢٣٣ ـ ٢٣٥ •

والتضاد ، دون مبرر ودون اعمال الفكر »[٣٠] ، وقد سلك في ذلك سبلا عدة من التفسير أشار الى بعضها في مقدمته التي صدّر بها الكتاب •

فقد أرجع الى اختلاف لهجات القبائل كثيراً من الاختلاف في مدلول اللفظ مثل قوله في (المعْصِر) وقد نقله عن قطرب : « فهو في لغة قيس وأسد : التي دنت من الحيض ، وهو في لغة الأزد : التي ولَدَت أو تَعَنَّسَت »[٣١] ، وقوله في (وَثَب) : يقال : وَثَب الرجل اذا نهض وطفر من موضع الى موضع ، وحمير تقول : وثب الرجل اذا قَعَد »[٣٢] ، وقوله في (السُدْفَة) : « فبنو تميم يذهبون الى أنها الظلمة وقيس يذهبون الى أنها الضّوء »[٣٣] ، وهكذا في كثير من ألفاظ الاضداد• كما فسر بعض الاضداد بالتفسير النفسي الاجتماعي ، فأرجعها للتفاؤل مثل قوله في (المَفازَة) نقلا عن الأصمعي وأبي عبيد : « سُمّيت مَفازة على جهة التّفاؤل لمن دخلها بالفوز ، كما قيل للاسود : أبو البيضاء ، وقيل للعَطشان : رَيّان »[٣٤] ، وقوله في (السَّليم) نقلا عن الاصمعي وأبي عبيد أيضاً : « انما سُمي الملدوغ سَليماً على جهة التفاؤل بالسَّلامة ، كما سميت المهلكة مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز »[٣٥] ، وقوله في (النّاهِل) : « يقال للعطشان : ناهِل وللريّان ناهِل • وزعموا ان الاصل فيه للري ، وانّما قيل للعطشان ناهل ، تفاؤلا بالرّي »[٣٦] ، ومثل هذا التفسير في الفاظ كثيرة اخرى • وقد مر في عرضنا لافكار مقدمته انه ذكر

---

(٣٠) اثر القرآن في تطور النقد العربي ١٨٠ بتصرف قليل •
(٣١) ابن الانبارى ٢١٦ •
(٣٢) نفسه ٩١ ـ ٩٢ •
(٣٣) نفسه ١١٤•
(٣٤) نفسه ١٠٥ •
(٣٥) ابن الانبارى ١٠٦ •
(٣٦) نفسه ١١٦ •

ان من التضاد ما نشأ نتيجة التداخل بين المعاني على جهة الاتساع ، وضرب لذلك مثلا (الصَّريم) و (الصّارِخ) ، كما ذكر هناك ان من الاضداد ما يخصص دلالته السياق ، وضرب لذلك مثلا (الجَلَل) و (الظَّن) ، وهنا نذكر مادة (فَوْق) وكيف عالج تضادها بالسياق وما اشترطه في ذلك من الكلام ، فيقول ناقلا عن قطرب : « فوق تكون بمعنى (دون) مع الوصف ، كقول العرب : انه لقليل وفوق القليل ، ولا تكون بمعنى (دون) مع الاسماء ، كقول العرب : هذه نملة وفوق النملة ، وهذا حمار وفوق الحمار ، قال : لا يجوز أن تكون (فوق) في هاتين المسألتين بمعنى (دون) لانه لم يتقدمه وصف ، انما تقدمته النملة والحمار وهما اسمان ، ورد قول المفسرين الذين ذكروا فيه ان (فَوقا) في الآية بمعنى (دون)[37] ».

وذكر ابن الانباري (المقلوب) وأجاز وروده في كلام العرب اذا أُمِنَ اللَّبس ووضح المعنى ، فقال : « ويقال : تَهيَّبْت الطريق وتَهَيَّبَني الطّريق بمعنى ، وهذا من الاضداد ... قال أبو بكر : وهذا عندي مما يقلب ، لأن اللَبس يؤمَن في مثله ، فيقال تَهَيَّبَني الطّريق لانه معلوم ان الطريق لا تَتَهَيَّب أحداً ، فاذا جاء ما يمكن اللبس فيه ، لم يكن الفاعل بتأويل المفعول ، والمفعول بتأويل الفاعل ، ألا ترى أنه لا يسوغ لقائل أن يقول : ضربني عبدالله وهو يريد ضربت عبدالله لأن في هذا أعظم اللبس ، والقلب معروف في كلام العرب عند بيان المعنى »[38] ، فلم يكتف ابن الانباري أن يعالج في كتابه الاضداد دون أن يعرج على المقلوب من الكلام ، وعوارض التصريف التي تصرف (الفاعِل) الى الفاعِل والمفعول ، أو (المَفْعول) للفاعِل والمَفْعول أيضاً ، باحثاً هذه الصيغ الاسمية ومشيراً الى دور التصريف في اختلاف دلالاتها ، وان كان

(٣٧) ابن الانباري ٢٥٠ ـ ٢٥١ .
(٣٨) ابن الانباري ٩٩ ـ ١٠٠ .

قد أدرجها في مواد الأضداد وبثها في كتابه بشكل يشعر انه اعتبر هـــذه الاستعمالات من الاضداد ، سائراً في ذلك على منهج السابقين الذين حذوا بدورهم حذو المؤلف الأول : قطرب ، الذي مر في دراسته انـه عد من الأضداد صيغتي (فاعِل) و (مَفْعول) المنصرفتين كلتيهما الى الفاعـل والمفعول •

وضمّن ابن الانبارى كتابه كذلك ملاحظات وإشارات لغوية وبلاغية مختلفة فقد تعرّض لمسألة تغيّر معنى اللفظ المفرد الى معنى الاثنين ، ثم من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى الخطاب وهكذا ، كما أشار بخفاء الى مسألة تغير مجال الدلالة وانتقال المعنى ، كما في مـادة (الظّعينَــة) فهي « المرأة في الهودج ، والظعينة : الهَوْدج ، وقد يقال للمرأة وهي في بيتها : ظعينة ، والأصل ذاك »[39] ، فعبارته (والأصْلُ ذاك) تشعر أنه يعتبر دلالة اللفظ الاولى وهي (المَرأة في الهَوْدَج) أساس المعنى ، ثم انتقل الى مجـال آخر للعلاقـة السببية والمكانيـة • وعـرض كذلك لأسـلوب الاستفهام وتغيّره عندما تكلّم على اداة الاستفهام (هَلْ) وانصرافاتهـــا المختلفة[40] ، وذكر التشبيه البلاغي عند التعليـق عـلى شـواهـد مـادة (السّاجِد)[41] •

والكتاب كذلك لا يخلو من الاصطناع والتكلف والبعد في التفسير ، بل حفل بطائفة كبيرة من الالفاظ التي ألصقت بالأضداد ، ولا تتوفر فيها فكرة التضاد بوجه من الوجوه ، ممّا يدلّ « على أن الذين تصدوا لجمع الأضداد اندفعوا في هذا السبيل اندفاعاً عجيباً ، فصاروا يتلمسون هذه المادة في ضـروب من التأويل والتفسـير ، والنظـر الصحيح لا يمكن أن يثبت

(٣٩) ابن الانبارى ١٦٤ •

(٤٠) ابن الانبارى ١٩١ •

(٤١) نفسه ٢٩٤ ـ ٢٩٧ •

ذلك » [٤٢] فأي تضاد حقيقي مثلا في (إذْ وإذا) الأولى للماضي والثانية للمستقبل • [٤٣] و (إنْ) للنفي والشرط • [٤٤] و (حايْ حايْ) لزجر الغنم ودعوتها • [٤٥] و (لا) للجحد والاثبات • [٤٦] و (ما) اسماً وحرفاً [٤٧] و (هَلْ) للاستفهام وبمعنى قد • [٤٨] وغير ذلك ممّا لا يتوصل اليه الاّ بالتكلف الشديد والالصاق المتعمد الضعيف • ثم ما وجه القياس في الدلالة اللغوية ، واللغة سماع ونقل ، يقول ابن الانباري في مادة (النّاهِل) : « ويقال : رجلٌ مُنْهِلٌ اذا كانت إبله عطاشاً ، كما يقال : رَجُلٌ مُعْطِشٌ •• ورجلٌ مُنْهِلٌ على القياس اذا كانت إبله رواء » • [٤٩] والظاهر انه بهذا متأثر بالنظرة البصرية للغة ، وقد عرفنا أنه نقل عن البصريين كثيراً من الآراء ووجهات النظر في الكتاب ، والقياس خصيصة من خصائص مدرسة البصرة ، ومع ذلك فلا يقبل من البصريين أنفسهم أن يقيسوا في دلالة الألفاظ وفي مباحث الأضداد ، فضلا عن أن ابن الانباري كوفيّ لا يأخذ بالقياس ويؤمن بالنقل والرواية في اللغة ويدرسها واصفاً مستقرياً لا متكلفاً مفتعلا •

وقد أشرنا الى أن المكاثرة وأسباباً اخرى « دفعت الرواة الأقدمين وعلماء اللغة على الذّهاب بعيداً في هذا السبيل ، فأدخلوا في الموضوع أشياء كثيرة لم تكن تشتمل على طبيعة الأضداد » • [٥٠] ويقول استاذنا

---

(٤٢) التطور اللغوى التاريخي ١٠٠ •
(٤٣) ابن الانبارى ١١٨ •
(٤٤) المصدر نفسه ١٨٩ •
(٤٥) نفسه ٤٠٢ •
(٤٦) نفسه ٢١١ •
(٤٧) ابن الانبارى ١٩٥ •
(٤٨) نفسه ١٩١ •
(٤٩) نفسه ١١٧ •
(٥٠) التطور اللغوى التاريخي ١٠١ •

الدكتور السامرائي أيضاً وقد بحث ظواهر كتاب ابن الانباري : « وقد أحْصَيْتُ من هذا القبيل ما يقرب من مائة وخمسين مادة حفلت بها كتب الأضداد وهي لا تملك الضدية الا بهذه الوجوه البعيدة من التأويل والتفسير » .(٥١)

ومع هذا كله يظل كتاب (الأضداد) لابن الانباري من أجل ما أُلّف في هذا الموضوع ، وأكمل المحاولات الجادة لدراسة هذه الظاهرة ، بما اشتمل عليه من استيعاب واستقراء ودقة في أكثر الأحيان . وكان وما يزال المصدر الرئيس الذي يُرجع اليه في هذا الباب من اللغة ، فقد نقل القدماء عنه كثيراً واستشهدوا بآراء المؤلف فيه في كل مصنفاتهم ومعجماتهم اللغوية ، بدءاً من تلاميذ ابن الانباري نفسه وانتهاءاً بالبغدادي صاحب الخزانة ،(٥٢) كما رجع اليه الباحثون المحدثون في دراساتهم القيمة عن الاضداد ، وعدوه أنضج الدراسات القديمة في هذا الموضوع وأشهرها جميعاً .

كتاب ابن درستويه

المؤلف هو أبو محمد عبدالله بن جعفر بن محمد بن درستويه الفسوي الفارسي النحوي ،(٥٣) ولد سنة ثمان وخمسين ومائتين في ناحية (فسا) من نواحي فارس واليها نسب ، وكان أبوه من كبار المحدثين وأعيانهم . وابن درستويه أحد النحاة المشهورين والادباء المذكورين جيد

---

(٥١) نفسه ١٠١ .

(٥٢) خزانة الادب ٣/٣٥٦ و ٤/٧٦ .

(٥٣) تراجع ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ١٢٧ والفهرست ٩٣ ونزهة الالباء ١٩٧ وتاريخ بغداد ٩/٤٢٨ وانباه الرواة ٢/١١٣ ووفيات الاعيان ٢/٢٤٧ والنجوم الزاهرة ٣/٣٢١ وبغية الوعاة ٢٧٩ والاكمال ٣/٣٢٣ وشذرات الذهب ٢/٣٧٥ وتاريخ بروكلمان ٢/١٨٦ والكنى والالقاب ١/٢٧٣ وهدية العارفين ١/٤٤٦ والاعلام ٤/٢٠٤ وابن درستويه وكتابه تصحيح الفصيح لعبدالله الجبوري .

التصنيف والتأليف . أخذ عن ابن قتيبة والمبرد وثعلب والدارقطني وغيرهم . درس كتاب سيبويه على المبرد وبرع فيه ، وكان برغم أخذه عن ثعلب شديد التعصب للبصريين في النحو واللغة ، وثقه ابن منده وغيره وضعفه هبة الله اللالكائي . أخذ عنه عبيدالله المرزباني وغيره من الأعلام . وكان من تعصبه للبصريين أن وضع كتاباً في الرد على المفضل بن سلمة في كتابه (نقض كتاب العين) لاعتباره الخليل بصرياً يجب الدفاع عنه .

ألف ابن درستويه كثيراً من الكتب التي عُدّت غاية في الجودة والاتقان ، منها : تفسير كتاب الجرمي ، الارشاد في النحو ، الهجاء ، تصحيح الفصيح وهو شرح فصيح ثعلب ، المذكّر والمؤنّث ، مناظرة سيبويه ، ابطال القلب ، الأضداد أو كما سمّاه (ابطال الأضداد) ، وغيرها . توفي سنة سبع وأربعين وثلثمائة ببغداد .

فعنوان كتابه في الحقيقة هو : (ابطال الأضداد) ، وقد ذكره ابن درستويه نفسه أكثر من مرة في كتابه (تصحيح الفصيح) وأرجع اليه تفصيل ما يوجزه في هذا الأخير من مسائل الأضداد . والظاهر أن فقده قديم ، ذلك أننا لم نعثر في كتاب من الكتب المعنية بالأضداد خاصة وباللّغة عامة اشارة الى مادته أو نقلاً عن آرائه ، أوارجاعاً اليه أو ما يشبه ذلك ، فقد سكتت كل كتب الأضداد حتى المعاصرة نسبياً ككتابي ابن الانباري (٣٢٨هـ) وأبي الطيب اللّغوي (٣٥١هـ) عن ذكره أو الاشارة اليه ، وممّا يؤكد قدم فقدانه ان السيوطي عندما وجد ذكر ابن درستويه لكتابه (ابطال الأضداد) في شرح الفصيح ، قال : « فاستفدنا من هذا أن ابن درستويه ممن ذهب الى إنكار الأضداد وأن له في ذلك تأليفاً » .[٥٤] نفهم من هذا أنه لولا اخبار ابن درستويه بأن له كتاباً في (ابطال الأضداد)

---

(٥٤) المزهر ١/٣٩٦ .

أثناء الكلام في كتابه (تصحيح الفصيح) لما عَدَّت المصادر بعده هذا الكتاب في جملة كتبه ولما عرفنا منها ان له تأليفاً في هذا الموضوع •

والكتاب كما يوحي به العنوان قائم على انكار الأضداد وهدم فكرة التضاد وابطالها ، وهذا المذهب أخذ به جماعة في تلك الحقبة وروّجوا له ، وعرفنا عن طريق (المخصص) أن بعض شيوخ ابن سيده قد نادوا به أيضاً ، [٥٥] الى جانب ابن درستويه الذي ألف في ذلك كتاباً • ويبدو أن ابن درستويه كان مغرماً بابطال الظّواهر اللغوية ؟ بحيث ان ولعه في هذا تعدى (إبطال الأضداد) الى (إبطال القلب) كما توضّح من قائمة مؤلفاته • ولا أدري فيما اذا كان مدفوعاً حقاً الى ذلك بدافع الحرص على اللغة من الابتذال والتعسف حين وجد أن الأمر تجاوز كونه جمعاً واحصاءاً الى كونه مكاثرة وتمحلاً شديداً لا جدوى منه ، أم بدافع غيرته على العربية لكيلا تكون مجالا للطعن والازراء من قبل الشعوبيين أم انه رأى فعلاً ما يمكن أن تفسر به الأضداد من التفسيرات الكثيرة التي وجدنا بعضها عند غيره من الاضداديين كابن الانباري ؟ لا نستطيع أن نقطع بشيء في ذلك ما دمنا نجهل عمله في الكتاب والمنهج الذي سار عليه والنتائج التي وصل اليها في هذه السبيل • وكل الذي نملكه بخصوص (ابطال الأضداد) ما أشار اليه مؤلفه في كتابه تصحيح الفصيح : « قال ابن درستويه : النَّوْء : وهو الارتفاع بمشقة وثقل ، وقد قيل للكوكب قد ناء اذا طلع فهو ينوء • وقد قيل للجارية المتلئة اللَّحيمة اذا نهضت قد ناءت •• وقد زعم قوم من اللغويين : أن النَّوء السقوط أيضاً وأنه من الأضداد • وقد أوضحنا الحجّة عليهم في ذلك في كتابنا : في إبطال الأضداد ، وليس هذا موضع

---

(٥٥) المخصّص ١٣/٢٥٩ •

ذكره » .[٥٦] وعندما عرض لتفسير أبي عبيد لقول حضرمي بن عامر :

أَفْرحُ أَنْ أُرْزَأَ الكرامَ وأَنْ ... أُورث ذَوْداً شَصَائصاً نَبَلا

« قال ابن درستويه : وقد بينا من تفسير هذا الشعر وغيره في كتاب : ابطال الأضداد ، وما لا يصلح ذكره هاهنا »[٥٧] فكل ما استطعنا عرفانه من المواد التي أبطل تضادّها في الكتاب المفقود هما مادتي : (ناء) و (النّبل) اللتين بحثتهما كتب الأضداد بالتفصيل ذاهبة في (نــاء) الى الارتفاع والسقوط ، وفي (النّبل) الى الصغار والكبار من الحجارة . ولابدّ أن يكون ابن درستويه قد أنكر تضاد هاتين المادتين في كتابه (ابطال الأضداد) بصورة من الصور .

وقد مرّ علينا في دراستنا للمشترك اللفظي في تمهيد هذه الرسالة ، أن ابن درستويه كان من منكريه والرّادين على سيبويه في اعتباره لفظة (وَجَد) من المشترك ، حين قسّم سيبويه كلام العرب الى أقسامه الثلاثة المشهورة ، ونص على أن منه : اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ممثلا لذلك بلفظة (وَجَد) فيقال وَجَد الشيء وِجْداناً ووَجَد عليه مَوْجِدَةً ووجد به وَجْداً[٥٨] ، وهكذا ، مشيراً بذلك الى المشترك ، فقال ابن درستويه في ردّه :« هذه اللفظة من أقوى حجج من يزعم أن من كلام العرب ما يتفق لفظه ويختلف معناه ، لأن سيبويه ذكره في أوّل كتابه ، وجعله من الاصول المتقدمة . فظنّ من لم يتأمل المعاني ولم يتحقق الحقائق أن هذا لفظ واحد قد جاء لمعانٍ مختلفة ، وانما هذه المعاني كلها شيء واحد ، وهو اصابة الشيء خيراً كان أو شرّاً ، ولكن فرّقوا بين المصادر لأن المفعولات كانت مختلفة ، فجعل الفرق في المصادر بأنها أيضاً مفعولة ،

---

(٥٦) تصحيح الفصيح ق ٨ب ، ونقله المزهر ١/٣٩٦ .
(٥٧) تصحيح الفصيح ق ٢٥٦ أ .
(٥٨) كتاب سيبويه ١/٧ .

والمصادر كثيرة التصاريف جدا ، وأمثلتها كثيرة مختلفة وقياسها غامض ، وعللها خفيّة ، والمفتشون عنها قليلون ، والصبر عليها معدوم • فلذلك توهّم أهل اللغة أنها تأتي على غير قياس ، لأنهم لم يضبطوا قياسها ، ولم يقفوا على غورها »(٥٩) • يعطينا هذا النص فكرة أولية عن طريقة ابن درستويه في ردّ المعاني وارجاعها الى أصل دلالي واحد • وما يصدق على المشترك هنا يصدق على الأضداد لتشابه الظاهرتين في كون اللفظة منهما منصرفة الى أكثر من معنى ، يكون في المشترك متعدداً من غير تضاد ، وفي الأضداد ثنائيا متضادا • فاسلوبه في تخريج (وَجَدَ) يكوّن صورة عن اسلوبه في تخريج ألفاظ الاضداد التي بحثها في كتابه (ابطال الاضداد) ، ثم يشرح ابن درستويه هذه الفكرة فيقول : «ومن هاهنا يجب أن يُتَعرّف ذلك • وان قول ثعلب : وَقَفتُ الدّابةَ ووَقَفْتُ أَنا وَوقَفْتُ وَقْفاً للمساكين ، لا يجوز أن يكون الفعل اللازم من هذا النحو والمجاوز ، على لفظ واحد في النظر والقياس ، لما في ذلك من الالباس ، وليس ادخال الالباس في الكلام من الحكمة والصواب ، وواضع اللغة عز وجل حكيم عليم • وانما اللغة موضوعة للابانة عن المعاني ، فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد الآخر ، لما كان ذلك إبانةً بل تعميةً وتغطية »(٦٠) ، فهو بهذا ينكر أساسا أن يكون وجود المشترك أو الأضداد من الحكمة في اللغة ، لما يورثه ذلكما الشيئان من التعمية والالباس في الكلام •

الا اننا لو سلمنا لابن درستويه بأن الاغلب الاعم من حروف الاضداد يجوز فيه التفسير والانكار والتخريج ، فلا يمكننا ان ننكر ـ ولا هو أيضا ـ كل ما ورد من الاضداد ، لان شيئا قليلا ونادرا حفلت به هذه اللغة • لهذا

(٥٩) المزهر ١/٣٨٤ •
(٦٠) المزهر ١/٣٨٥ •

اضطر ابن درستويه الى الاعتراف بمجيء هذا القليل النادر فقال : « ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل ، كما يجيء فَعَلَ وأَفْعَلَ ، فيتوهم من لا يعرف العلل انهما لمعنيين مختلفين وان اتفق اللفظان ، والسماع في ذلك صحيح عن العرب ، فالتأويل عليهم خطأ »[٦١] ، فالسماع الصحيح عن العرب يؤيد مجيء النادر من الاضداد الذي لا يحتمل التأويل، لان التأويل في هذه الحالة خطأ . وكان يؤمن ابن درستويه في هذا الصدد بأن « يجيء ذلك في لغتين متباينتين أو لحذف واختصار وقع في الكلام حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك على السامع وتأوّل فيه الخطأ »[٦٢] .

وعلى كل فربما أعطتنا هذه الآراء والنظرات المنقولة عن ابن درستويه ملامح من منهج الكتاب وطريقته في معالجة الاضداد واسلوبه في انكارها وما الى ذلك من الظواهر العامة التي اشتمل عليها الكتاب . وسواء كانت ألفاظ الاضداد بالكثرة التي سجلها ونقلها المؤيدون المكثرون كابن الانباري وأبي الطيب اللغوي ، أم بالقلة التي اعترف بها المنكرون كابن درستويه ، فان النتيجة تبقى واحدة ، وهي ان الاضداد ظاهرة لغوية موجودة في عربيتنا القديمة ، وما هذا الاختلاف في وجهات النظر عند القدماء من علماء اللغة ، الا صورة من صور معاناتهم لهذه المشكلة اللغوية ، حيث وجدوها متجسدة أمامهم بهذا الوضوح ، وقد مر أن هذا التطرف في انكار الاضداد الذي حمل لواءه ابن درستويه ، قد دفع العلماء المعنيين بهذه الجوانب اللغوية الى الوقوف بالموقف المضاد تماما ، كالذي فعل ابن فارس مثلا في تجريده كتابا مستقلا يدافع به عن الاضداد ويؤيد ورودها في اللغة بشكل واسع وكبير .

---

(٦١) المزهر ١/٣٨٥ .
(٦٢) المزهر ١/٣٨٥ .

كتاب أبي الطيّب

المؤلف هو ابو الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي(٦٣) ، من مشاهير اللغويين والمصنفين ، ولد في عسكر (مكرم) وفيها نشـأ ، وعلى كتاتيبها تلقى علومه الاولى • وعندما قدم بغداد هو وأبوه لقي أبا عمر الزاهد ومحمداً بن يحيى الصولي وأخذ عنهما اكثر ما أخذ ، وان كان قد أفاد من غيرهما أشياء • رحل الى حلب بعد أن أقام في بغداد زمانا • وحلب آنذاك تحت حكم سيف الدولة ، فانضم الى مجلسه وكان ينافسه فيه ابن خالويه الذي ثبت مركزه في هذا المجلس •

والظاهر أنه كان يميل الى مذهب الكوفيين لان اكثر نقله في اللغة عنهم وان كان لا يهمل الرواية عن البصريين ، وهذا ظاهر في تعظيمـه للكوفيين في طبقاته الكبير ، لان استاذه الزاهد هو تلميذ شيخ الكوفيين ثعلب فعلمه موصول الحلقات بعلم الكوفيين • ولابي الطيب مؤلفات كثيرة منها : الابدال ، الاتباع ، شجر الدر ، الفرق ، المثنى ، الأضداد في كلام العرب ، طبقات الشعراء ، مراتب النحويين ، وغيرها • وظل مقيما بحلب الى ان قتله الدمستق فيمن قتل عندما دخل حلب سنة احدى وخمسين وثلاثمائة بعد الهجرة •

أما كتابه (الأضداد في كلام العرب) الذي حققه الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٣ ، فهو اضخم كتب الأضداد على الاطلاق ، ما سبق منها أبا الطيب وما ألف بعده ، من حيث سعة المادة المبحوثة وكثافة الشروح والتعليقات وكثرة الشواهد والاستطرادات • وقد وضح أبو الطيب في مقدمته القصيرة التي صدر بها الكتاب منهجه العام فقال : « هـذا كتـاب

---

(٦٣) تراجع ترجمته في : بغية الوعاة ٣١٧ وتاريخ بروكلمان ٢/٢٤٢ والاعلام ٤/٣٢٥ ومقدمة كتاب الابدال ٤٤ وابو الطيب اللغوى وآثاره في اللغة ١٧ ـ ٣٤ •

الأضداد في كلام العرب ، تحرينا في تأليفه بعد ما سبق من كتب السلف في معناه ، احكام تصنيفه ، واحسان ترصيفه ، والزيادة على ما ذكر منه ، والغاء ما خلط من غيره فيه لتقوى مُنَّة القائلين به ، ويضعف قول النافين له »[٦٤] ، وبهذا حدد لنفسه الطريق ورسم لكتابه المنهج الذي يسير عليه ، وكان كما قال ، والتزم بما أخذ على نفسه ، وسنرى كيف طبق هذه النقاط في الكتاب حتى اكسبته روح الدقة والتنظيم وأشاعت فيه الطابع العلمي المميز •

وبين المؤلف أيضا في هذه المقدمة معنى الاضداد ، وحدد فكرة التضاد وفرق بينها وبين فكرة الاختلاف فقال : « والاضداد جمع ضدّ ، وضدّ كل شيء ما نافاه ، نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل ، والشجاعة والجبن • وليس كل ما خالف الشيء ضدا له • ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان وليسا ضدين ، وانما ضدّ القوة الضعف ، وضد الجهل العلم • فالاختلاف أعم من التضاد ، اذ كان كل متضادين مختلفين ، وليس كل مختلفين ضدين »[٦٥] • فكأنه يريد أن يوضح ما شاع في كتب غيره من الخلط بين الاضداد وغيرها من الالفاظ التي تكون معانيها مختلفة غير متضادة كأن تكون من المشترك مثلا • وسنرى انه الحق بآخر كتابه فصولا لانواع هذه الالفاظ التي عدها سواه من الاضداد وهي عنده ليست منها : « ونرى من سبقنا الى هذا الكتاب قد أدخل فيه ما ليس فيه ، مما نحن ذاكرو صدر منه في آخره ، بعد الفراغ من المقصد منه »[٦٦] •

وختم مقدمته بذكره انه رتب الكتاب على حروف المعجم ، وذلك بأن يذكر في كل باب من أبواب الحروف كل الالفاظ التي تندرج تحته ، فقال :

---

(٦٤) ابو الطيب ١/١ •
(٦٥) نفسه ١/١ •
(٦٦) نفسه ٢/١ •

« وقد رأينا ان نبوبه على حروف المعجم ، اذ كانت همم أهل زماننا مقصورة عليه وقلوبهم مائلة اليه »[٦٧] . وهو بهذا أول كتب الاضداد يجيء مرتبا على حروف المعجم ، وذلك الترتيب يكون على الحرف الاول من اللفظة ، ألا أن ألفاظ الحرف الواحد ليست مرتبة ترتيبا معجميا ، اذ لم يلاحظ الحروف الثواني والثوالث وغيرها . هذا عدا الابواب الاربعة الاخيرة ، فهي مرتبة ترتيبا معجميا دقيقا . وربما كان سبب هذا التغير في الدقة من عمل النساخ ، كأن يكون احدهم راغبا في ترتيب الابواب الاربعة الاخيرة دون غيرها ، والعكس بعيد في أن يغير هذا الناسخ في كل ابواب الكتاب ترتيبها المعجمي الدقيق ، وربما كان من عمل أبي الطيب نفسه ، لان هذه الابواب تختلف عن سائر ابواب الكتاب في طبيعة موادها وهي ليست من المتن اللغوي فيه . ومهما يكن فانه كان يرجع الى مجرد اللفظة حين يريد نسبتها الى الحرف ، فلفظة (الأهِنْاف) في باب الهاء[٦٨] ، ولفظة (التَّيَمُّن) في باب الياء[٦٩] ، وهكذا جميع المواد .

قلنا انه اوسع الكتب من حيث المادة فقد بلغ مجموع الفاظ الاضداد فيه (٣٦٩) ضدا بما في ذلك الالفاظ التي عقد لها الفصول الاربعة الاخيرة والتي هي بمثابة ذيل لكتابه ، في حين كانت عند ابن الانباري ـ كما مر في دراسته ـ لا تجاوز (٣٥٧) ضدا والتي كانت تمثل أوسع كتب الاضداد الى ذلك الحين . واذا كان مناط الامر أن يكون الكتاب التالي أوسع من السابق واكثر عدد ألفاظ ، فلابد ان يكون الصّغاني مثلا (ت ٦٥٠ هـ) أكثر الفاظا من سابقيه الا أنه مع ذلك ظلت أضداده أقل عددا من أضداد أبي الطيب ، اذ هي عنده (٣٣٧) ضدا فقط .

---

(٦٧) ابو الطيب ٢/١ .
(٦٨) نفسه ٦٨٣/٢ .
(٦٩) نفسه ٦٨٨/٢ .

وطريقة أبي الطيب في معالجة اللفظة أن يذكرها ويذكر معنييها المتضادين مستشهدا على كلا المعنيين بالشواهد المختلفة ناصا على المعاني الاخرى التي تنصرف اليها اللفظة شارحا الغريب منها ومعلقا على الشواهد ومستطردا الى ذكر كل ما يتعلق بالموضوع من بعيد حتى يخرج أحيانا الى بحث أمور لا تمت الى صلب الموضوع بصلة ، ومن أمثلة ذلك : التّلعَة(٧٠) ، والثّلة(٧١) ، والخَشيب(٧٢) ، والسَّدَف(٧٣) ، وغيرها من الأضداد . لهذا كانت شواهده من التنوع والكثرة بشكل عجيب ، وهي شبيهة بتنوع شواهد ابن الانباري وكثرتها ـ وقد قلنا في موضع سابق من هذا الباب انها خصيصة كوفية تعبر عن الاهتمام بالنقل والرواية واستقراء لغة العرب ـ الا اننا نعتقد بأن أبا الطيب لم ير كتاب ابن الانباري ، ولم يقع اليه ، ذلك انه لم يذكره في كتابه ولم ينقل عنه شيئا ، وبعيد جدا أن يكون ذلك لقرب العصرين وبعد المصرين .

فشواهد ابي الطيب تتوزع الشعر والقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب والامثال وما الى ذلك ، يضاف اليها اقوال المفسرين والفقهاء كابن عباس ومجاهد وغيرهما في انصراف الآيات والاحاديث الى معانيها التشريعية ، وآراء اللغويين والرّواة في أساليب العرب في نظمها ونثرها ، مناقشا كل ذلك بالتأييد مرة وبالرد والتفنيد مرة ذاكراً خلافات الاضداديين فيما ينقل من مسائل . فمن القرآن استشهد بـ (١٧٦) آية ، ومن الاحاديث بـ (٥٩) حديثا ، ومن الشعر بـ (٧٢٩) بيتا ورجزا ، ومن كلام العرب المأثور بـ (٢٤) قولا ، ومن الامثال بـ (١٣) مثلا ، وبشيء غير

---

(٧٠) ابو الطيب ١/١٠٣ .
(٧١) نفسه ١/١٣٩ .
(٧٢) نفسه ١/٢٥٥ .
(٧٣) نفسه ١/٣٤٦ .

قليل من القصص والاخبار والحكايات • دالا بذلك على وفرة حفظه ومخزونه ، وسعة اطلاعه وبحثه ، وتقصيه الدائب لمصنفات العلماء ومؤلفاتهم وأمالي الرواة ونوادرهم ومجاميع الشعراء ودواوينهم ، ومن مصاديق ذلك توزع الشعراء مثلا مختلف العصور ، فقد استشهد للجاهليين امثال : النابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى وطرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة وامرىء القيس وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعلقمة الفحل وعنترة بن شداد وعروة بن الورد وغيرهم ، واستشهد للاسلاميين (المخضرمين وصدر الاسلام) امثال : حسان بن ثابت والحطيئة وأبي ذؤيب الهذلي وكعب بن زهير ودريد بن الصمة والشماخ والخنساء وغيرهم ، واستشهد للامويين (العصر الاموي) امثال : جرير وذى الرمة والاخطل والفرزدق وجميل بن معمر وقيس بن ذريح والطرماح بن حكيم وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم ، وكان من توسعه في الاستشهاد بالشعر أن استشهد لابن ميّادة وهو من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، ولمحمد بن ذؤيب الهشلي العماني وهو من شعراء الرشيد ، وكلاهما من المتأخرين عن عصر الاستشهاد • وأبو الطيب بهذا يختلف عن ابن الانباري الذي وقف عند حدود شعراء العصر الاموي لم يتعداهم ، وهو موقف كثير من العلماء قبله ، لشكهم في صحة لغة هؤلاء بعد تفشي المولّد وازدياد الاختلاط بالاعاجم ، غير أن أبا الطيب كان أقرب الى طبيعة الاستقراء وروحه ، لان الاقرار بصحة الاساليب العربية في كل العصور أمر وارد لان المتكلمين هم العرب ، وفي البيئة العربية •

أما مصادره فمتنوعة أيضا ، فيها الكوفي وفيها البصري ، وعندي أنه كوفي الاتجاه بالرغم من الاكثار من الرواية عن البصريين ، ذلك أنه وقف مع الكوفيين وخطّأ بعض البصريين وردّ على آخرين ، بالاضافة الى كونه تلمذ لغلام ثعلب أبي عمر الزاهد ، فهو موصول المادة والرواية بالكوفيين ،

فقد ذكر منهم في كتابه : الكسائي والفراء وابن الاعرابي وأبا عمــرو الشيباني وأبا عبيد القاسم بن سلاّم وغيرهم ، وقد ذكرهم مرات عديدة وفي مواضع مختلفة وأيدهم في آراء كثيرة . صحيح أنه روى عن البصريين في الكتاب أكثر مما روى عن الكوفيين ومواضع ذكرهم في الكتاب أكثر عددا من اولئك ، الا ان الكثرة وحدها لا تعني الوجهة والمنهج والموقف ، خصوصا انه اكثر من الرجوع الى من ألّف في الاضداد منهم كقطرب وأبي عبيدة والأصمعي والتوزي وأبي حاتم ، لان كتبهم مصادر كل من يتصدى للتأليف في هذا الموضوع وان كان كوفيا يبغي الرد والتفنيد . بل كان أبو الطيب يستعين في تغليط البصرى ببصرى آخر ، كأن يذكر ردّ أبي حاتم على التوزى مؤيدا هذا الرد ، يقول في مادة (بَيْضَةَ البَلَدَ) : « وأنشد التوّزي في المدح :

كانَتْ قريشٌ بيضةً فتَفلّقَتْ
فالمُحُ خالصُه لعَبْدِ منافِ

قال أبو حاتم : ليس هذا من هذا الباب . قال أبو الطيب : وهو كما قال[74] » فكأنه بتأييده لردّ أبي حاتم قد ردّ التوزي نفسه . ومثل هذا في مادة (برّد) وأنشد :

شكَتِ البَرْدَ في المِياه فقُلْنا
بَرّدِيه تُوافِقِيه سَخينا

« قال قطرب : معنى بَرّديه في هذا البيت سَخّنيه . وقال أبو حاتم : هذا خطأ ، انمّا هو بَرّديه من الوُرود ، ولكنّه أدغم اللّام في الرّاء ، كما يقرأ (كَلّاَ بَل رانَ على قُلوبِهم) ، قال أبو الطيب : وهذا الصحيح

(74) أبو الطيب ١/٥٥ .

وبه يستقيم معنى البيت »[٧٥] ، فكأنه بهذا خطأ قطربا كما خطّأه أبو حاتم •
وبالمقابل كان يذكر آراء الكوفيين ورواياتهم محتجاً بها على ما يذهب اليه وما يريد أن يصله من نتائج ، وهذا واضح في المواضع التي ذكر بها الفرّاء خاصة • فهو على هذا كوفي المنهج والدّرس بقدر ما تستدعي الدراسة المعجميّة من هذين الجانبين لأنها ـ كما أشرنا قبلا ـ تختلف عن الدراسة النحويّة في شدة التعصب للمذهب ، وليس أبو الطيب بصريّ الاتجاه كما توهّم أحد دارسيه[٧٦] ، ذاهباً الى هذا بسبب كثرة الرواية التي ذكرناها عن البصريين ، والتي وجد الكتاب مملوءاً بها ، ناسياً أن كتبهم في الأضداد ـ بحكم سبقها ـ هي مما يجب الرجوع اليه من قبل الدارس الجديد •

وقد يسأل سائل فيقول : انك قلت ان أبا الطيب تلمذ لأبي عمر الزاهد غلام ثعلب ،فلماذا لم يذكر استاذه أبا عمر ولا ثعلباً في الكتاب ، وهما أقرب اللغويين الكوفيين اليه ، علماً بأن أبا عمر الزاهد روى كتاب الأضداد لثعلب[٧٧] ؟• وهو سؤال وارد ، أميل في الاجابة عليه الى تعليل أتظنّاه تظنّياً ، مدفوعاً اليه بشكّي في أمانة أبي الطيب ووثاقته • ذلك أنه لم يتنكر لاستاذه أبي عمر في هذا الكتاب وحده ، وانما تنكر له في كل مصنفاته اللغوية ، خصوصا تلك التي كان أبو عمر قد سبقه الى التأليف في بابها ، وعلى رأسها كتاب أبي الطيب (شَجَر الدّر) الذي وضعه على غرار (المداخل) لأبي عمر أول من ألف في هذا الفنّ ، ولا يحتاج الموضوع الى تعليق في أن أبا الطيب قد تعلم من أبي عمر هذا النوع من التأليف وأنه حذا في كتابه حذو ذلك الكتاب • ولكنّه لم يشر ولا مرّة لاستاذه

(٧٥)أبو الطيب ٨٦/١ •
(٧٦) عادل أحمد زيدان : ابو الطيب اللغوى وآثاره في اللغة ١٠٩ •
(٧٧) فهرسة ابن خير ٣٨١ •

أبي عمر ، ولكي يكمل هذا الانكار ويخفي حقيقة المسألة جرّد الكتاب من أسماء الرواة واللغويين ، وشبيه بهذا ما فعله في (الابدال) اذ قصر ذكر الاسماء على مواضع قليلة جدا لو قورنت بكمية المادة المنقولة • وهذا كتاب (الأضداد) يحاول فيه أبو الطيب بابعاده اسمي أبي عمر الزاهد وثعلب أن يخفي ما حفل به الكتاب من آراء ثعلب ونظراته في الأضداد التي أخذها أبو الطيب عن أبي عمر راوى كتاب (الأضداد) لثعلب • ولعلّ كل ما ينسبه أبو الطيب لنفسه من رأي وحُجةٍ في الكتاب هو لثعلب ، وخوفاً من ألا يبقى له شيء في الكتاب حاول طمس هذين العلمين وانكار فضلهما في تلقينه مادة الأضداد • سالكاً من أجل ذلك ـ ونقولها بموضوعية قاسية ـ سبيل الكذب والتدليس ، اذ ينسب لبعض الأضداديين ما ليس لهم وهو لغيرهم • فقد نسب لقطرب في مادة (حالِق)[78] ومادة (الشّرى)[79] ما لم يقله وينشده في أضداده ، كما نسب لأبي حاتم السجستاني في مادة (برّدْتُ)[80] ومادة (التّبيع)[81] ومادة (الأَجْرَد)[82] نصوصا ليست موجودة في كتابه (الأضداد) • ولا يمكن أن نقول انه لم يرجع الى كتابي قطرب وأبي حاتم ، لأن كل النصوص التي نقلها عنهما تؤيد هذا الرجوع الى الكتابين ، فهي موجودة في أضداد قطرب وأضداد أبي حاتم أما بالحرف الواحد أو بالفكرة العامة للكلام •

أما هذه المواضع التي نقل فيها عن قطرب وأبي حاتم ما ليس في كتابيهما ، فلا نعتقد كما اعتقد غيرنا بأنها بسبب اختلاف نسخ الكتابين ، اذ

(٧٨) ابو الطيب ١/٢٠٩ •
(٧٩) نفسه ١/٣٩٣ •
(٨٠) نفسه ١/٨٦ •
(٨١) نفسه ١/١٠١ •
(٨٢) نفسه ١/١٦١ •

تكون نسخة أبي الطيب من كليهما تختلف بعض الشيء عن النسخ الاخرى التي وصلتنا[٨٣] • ولكننا نميل الى الاعتقاد بأن هذا الكلام المنسوب لقطرب وأبي حاتم ليس لهما أصلا لا في نسخة أبي الطيب ولا في النسخة التي وصلتنا بل هو لغيرهما ، وقد تعمد أبو الطيب التدليس في ذلك جرياً على ما وضحناه من سلوكه العلمي • وخير دليل على ما نقول أن أبا الطيب نسب لقطرب أنه قال : « الشِّرى بمعنى البيع في لغة غاضرة حي من بني أسد ، وأنشد للمسيب بن علس :

يُعْطى بها ثَمَناً فَيَمْنَعها ويقول صاحبُه أَلا تَشْرى»[٨٤]

وقد علّق محقق الكتاب على هذا البيت في الهامش بقوله : « ان البيت من قصيدة تروى للمسيب بن علس ، وتروى للأعشى الكبير ميمون راوية المسيّب ••• ولم ترد القصيدة في ديوان الأعشى المطبوع • وقال العلامة عبدالعزيز الميمني الراجكوتي في حاشية خزانة الأدب ٣/٢١٦ : القصيدة وجدتها في نسخة ديوان الأعشى ببلدرامبور (الهند) غير منقوطة في ٥٢ بيتاً ، وليست في طبعة الديوان ، لانها رواية ثعلب »[٨٥] • اذن فالبيت الذي ادعى أبو الطيب ان قطربا قد انشده شاهدا في مادة (الشرى) ولم نجده مع الكلام في أضداده ، هو لمنشده الحقيقي ثعلب الذي روى القصيدة كاملة في ديوان الاعشى الذى عمله • كما نسب أبو الطيب لأبي حاتم أنه خطأ قطرباً في جعل (بَرِّديه) بمعنى سخّنيه في البيت :

شكَتِ البَرْدَ في المياهِ فَقُلْنا بَرّديه تُوافقيه سَخينا

فقال : « وقال أبو حاتم : هذا خطأ ، انما هو بَرّديه من الوُرود ، ولكنه

---

(٨٣) ابو الطيب اللغوى وآثاره في اللغة ١١٠ •

(٨٤) ابو الطيب ١/٣٩٣ •

(٨٥) نفسه ١/٣٩٣ ـ ٣٩٤ •

أدغم اللام في الرّاء كما يقرأ (كلاّ بَل ران على قُلوبِهم) •• »[86] ،
ولما لم يكن هذا الكلام موجودا في أضداد أبي حاتم ، فلابد أن يكون لغيره
كما افترضنا ذلك • فلو رجعنا الى دراستنا لأضداد ثعلب لوجدنا هذا الكلام
بنصه لثعلب ، سقناه هناك لبيان تنبه ثعلب لما يمكن أن يوهم به الادغام من
التضاد ، فنقلنا بعد ايرادنا الشاهد قول أبي بكر بن الانباري :
« وحكى لي بعض أصحابنا عن أبي العباس أنه كان يقول في
تفسير هذا البيت : بَلْ رِديه من الورُود ،فأدغم اللاَم في الراء ••»[87] ،
فالقول اذن لثعلب أيضاً • وفي هذين الاكتشافين الصغيرين بصيص يهدينا
للاعتقاد بأن سائر هذه الاقوال والشواهد المنسوبة لقطرب وأبي حاتم وهي
ليست لهما ، ما هي الآ من هذا النوع ، اذا كنا استطعنا أن نقبض على
حقيقتين منها ، فنحن نفترض في الباقيات عين الحقيقة •

نعود الآن لظواهر الكتاب الاخرى، فنذكرمنها اهتمامه الكبير باللغات أو
ما نسميه في الدرس اللغوي الحديث باللهجات ، وقد أكثر من النص عليها
في طائفة من الاضداد مرجعا اليها المعاني المتضادة التي تنصرف اليها اللفظة ،
كارجاعه معنى البَيْع في (الشِّرى) الى لغة غاضرة ، حي من بني أسد[88]،
و « القَلْتُ النّقرة الصغيرة في السهل أو الجبل وفي الصخرة ونحوها ،
لغة قيس وتميم وأسد »[89] • و « هي حجازية في كنانة وخزاعة ونصر
وهذيل ، يقولون : لَمْ أَرْجُ أي لم ابالِ »[90] • و « السّامِدُ
الحزين في كلام طيء ، واللاّهي في كلام سائر أهل اليمن »[91] ، وشبيه

(٨٦) ابو الطيب ٨٦/١ •
(٨٧) ابن الانبارى ٦٤ •
(٨٨) ابو الطيب ٥٨٧/٢ •
(٨٩) نفسه ٣٠٠/١ •
(٩٠) نفسه ٣٧٢/١ •
(٩١) ابو الطيب ٣٧٢/١ •

بهذا في كثير من المواضع ، حتى انه ذكر ما يقرب من تسعين من لغـات القبائل والبطون والافخاذ والارهاط والجماعات والابناء ، وما الى ذلك مما انتشر واسعا أو انحسر ضيقا من اللهجات العربية القديمة .

قلنا قبلا ان أبا الطيب قد الحق بكتابه أربعة أبواب أشار الى فكرتها في مقدمة الكتاب ، ضمنها الألفـاظ التي اعتبرهـا الاضداديـون قبلـه من الاضداد ، ولكنها لم تصح أن تكون منها عنده ، وفي انتهائه من الكلام على ما صح عنده من الاضداد قال : « هذا آخر الأضداد على الحقيقة . وقد أدخل علماؤنا المتقدمون فيها أشياء ليست منهـا ، نحن نذكرهـا أبوابا ، لئلا يظنّ ظانّ أنّا غفلنا عنها »[٩٢] وأول هذه الابواب باب (يستوي فيه لفظ الفاعل والمفعول) ، ويشرح المقصود بهذا العنوان فيقول : « وهو ما جاء على (مُفْتَعِـل) و (مُفْتَعَـل) مما عينه منقلبة عن ياء أو واو . فليس يبين فيه كسر العين وفتحها لسكون الألف »[٩٣] ، فهذا الباب قائم على ذكر الألفـاظ التي مثل « المُبْتَـاع : المُشْتَرِي شيئا من الاشيـاء . والمُبْتَـاع أيضـاً : الشـيء الـذى تَشْـتَريـه »[٩٤] . ومثلـه : (المُجْتَاب)[٩٥] و (المُجْتَاح)[٩٦] و (المُخْتَال)[٩٧] وهكذا في ٢٠ لفظة . يأتي بعده باب (يستوي فيه لفظ الفاعل والمفعول به لادغـام عينه في لامه) ، ومواد هذا الباب مثل قوله : « غزا فـلان في بني فـلان فابْتَضَّهم ، أي استَأْصَلَهُم ، فهو مُبْتَضّ وهم مُبْتَضّون»[٩٨] .

---

(٩٢) ابو الطيب ٢/٦٨٨ .
(٩٣) نفسه ٢/٦٩١ .
(٩٤) نفسه ٢/٦٩١ .
(٩٥) نفسه ٢/٦٩٢ .
(٩٦) نفسه ٢/٦٩٣ .
(٩٧) نفسه ٢/٦٩٥ .
(٩٨) نفسه ٢/٧٠٥ .

وقوله : « اخْتَصَصْتُ فلاناً بكذا وكذا أَخْتَصُّه اخْتِصاصاً ، فأنا مُخْتَصّ وهو مختص أيضاً»[99]، والحقيقة ان هذا الباب يعتبر من الباب الاول، لان مدار الامر واحد ، وهو استواء الفاعل والمفعول بالصيغة ، الا أن الفرق اليسير الذى سوّغ لأبي الطيب افراد مواد هذا الباب عن مواد الباب الاول ، هو كون مواد الباب الأوّل عينها منقلبة عن ياء أو واو ، لذا كانت هذه العين حرف مّدٍ صائت وهو الألف ، اما مواد الباب الثاني فعينها مدغمة في لامها ، وكلا الحرفين العين واللام من الحروف الصامتة أى التي ليست بأحرف مّدٍ ، حتى انه قال في آخر هذا الباب وقد ذكر فيه (١٩) لفظة : « وسبيل هذا الباب سبيل الأول في الاعراب ، لايبين في غير الفعل منه ، لأن الحرف اذا أدغم في غيره سكن ، فكل مافيه بمعنى (الفاعـل) فوزنه مُفْتَعِل بكسر العين ، وما كان بمعنى (المفعول) فوزنه مُفْتَعَل بفتح العين »[100] .

وعقد الباب الثالث لـ (ماجاء مسمّى باسم غيره ، لما كان من سببه ، فأدخله من كان قبلنا في الأضداد) ، ويقصد أبو الطيب فيه الى موضوع انتقال مجال الدلالة للعلاقة السببية ، وشمولية المدلول الأول ، ومن أمثلة هذا النوع انه قال : « ناقةٌ عُشَراء ، وهي التي بلغت عشرة أشهر من حملها . وبعضهم يقول : هي التي دخلت في الشّهر الذى فيه نتاجها ، فاذا نُتِجَتْ بقي عليها اسمُ العُشَراء أيّاماً»[1] ، وقوله : « وكذلك الوَجُور : الدّواء الذى يوُجَر به الانسان ، وقد أوْجَرْتُه اياّه أُوجِرُه ايجاراً . ثم قالوا أَوْجَرَهُ الرّمح اذا طَعَنه في فِيه »[2] .

---

(٩٩) ابو الطيب ٢/٧٠٧
(١٠٠) نفسه ٢/٧١٠ .
(١) نفسه ٢/٧١١ .
(٢) نفسه ٢/٧١٥ .

وواضح ان المعنى الثاني في (عُشَرَاء) كان بسبب شمولية المدلول الاول • والمعنى الثاني في (الوَجُور) كان بسبب انتقال مجال الدلالة للعلاقة السببيّة بين الدواء ومكان الطعنة • وهكذا في (١٦) لفظة •

أما الباب الرابع فكان لما (تكلمت به العرب مقلوب المعنى ، مزالا عن جهته ، فخلط بالأضداد وليس منها) ، ومن مواد المقلوب في هذا الباب : « ناءَ بَي الحِمْلُ يَنوء نَوْءاً ، وانّما أنتَ تَنوءُ به ، أي تَنْهَضُ متثاقلاً »[٣] ، ومنها أيضا : « ياخَيْلَ اللّه اركَبي ، والخيلُ في الحقيقة تُركَب ولا تَركَب »[٤] • ومن المزال عن جهته : « قول الشاعر :

أتَجْزَعُ انْ نفسٌ أَتاها حِمامُها
فهلاّ التي عَنْ بَينَ جَنْبَيك تَدْفَعُ

يريد : فهلاّ عن التي بَين جَنْبيك تَدفع ، وقال الآخر :

أسْلَموها في دِمشْقَ كما
أسْلَمت وَحْشيةٌ وَهَقا

يريد : كما أسْلَمَ الوهقُ وحْشيّةً »[٥] ، وهكذا في (١٦) مادة من المقلوب والمزال عن جهته •

الحق ان فكرة هذه الأبواب الأربعة تدعو للاعجاب بأبي الطيب وتقدير فهمه لمسألة التضاد ، فهو بجعله مواد هذه الابواب خارجة عن مواد الأضداد ينكر على السابقين اعتبارهم لها أنها من الأضداد ، حيث كانت جميع هذه المواد والاستعمالات حتى عهد قريب جدا من أبي الطيب تعتبر من الاضداد ، فهذا ابن الانبارى قد خلطها بمواد كتابه فكانت منها ، وكذلك فعل من سبق ابن الانبارى في التأليف في الأضداد، غير ان ابا الطيب قد تنبه الى العلل التصريفية والدّلالية التي خلقت من هذا أضدادا ، فنصّ على العلّة في

(٣) ابو الطيب ٢/ ٧٢٠ •
(٤) نفسه ٢/ ٧٢١ •
(٥) نفسه ٢/ ٧٢٦ ـ ٧٢٧ •

أوّل كل باب وأدرج المواد شارحا دور هذه العلل في انصراف اللفظة الواحدة الى المعنيين المتضادين فانصرافها الى الفاعل والمفعول هو بسبب التصريف ، اذ تكون عين الفعل منقلبة عن واو أو ياء ، او ان تكون هذه العين مدغمة بالّلام • كما ان هناك الفاظا تنصرف الى المعنى وما يلتصق به من معنى آخر بسبب العلاقة السببية او المكانية ، او تنصرف الى كلا المعنيين بسبب عمومية المدلول الأصلي وشموليته ، كما أنّ من أساليب العرب ما يقلب فيه المعنى اذا أمن اللبس ، ومنها مايزال عن جهته اذا كان المعنى مفهوما ، فلا يجوز أن يعتبر كل ما كان بسبب واحد من هذه الاسباب أضدادا ، وانما يجب ان يرجع به الى علّته لالغائه من معجم الاضداد التي ينبغي ان تتوفر فيها فكرة التضاد بوضوح •

ومع هذا فقد كان في المواد التي اعتبرها ابو الطيب من الاضداد ما يحمل العلل نفسها وقد فاته ان يتنبّه لها فيخرجها من الأضداد • فمنها ما كانت الضدّية فيه بسبب شمولية المدلـول القديـم مثـل المَاْتَم[٦] ، الخَلْط[٧] ، البَيْع[٨] ، الجَوْن[٩] ، الشَّرى[١٠] ، القَلْت[١١] ، التَّسْيان[١٢] ، فزع[١٣] ، هاجَ[١٤] ، الأخْضَر[١٥] ، الأصْفَر[١٦] ، وغيرها • ومنها ماكان اختلاف الصيغ والتصريف هو العلة كالتي على زِنَة

(٦) ابو الطيب ١/١٨ •
(٧) نفسه ١/٢٦٣ •
(٨) ١/٤٠ •
(٩) ١/١٥١ •
(١٠) ١/٣٩٣ •
(١١) ٢/٥٨٧ •
(١٢) ٢/٦٤٨ •
(١٣) ٢/٥٤٠ •
(١٤) ٢/٦٨٢ •
(١٥) ١/٢٢٩ •
(١٦) ١/٤٢٤ •

(فَعَلَ وأَفْعَلَ) مثل : ثَبِتْ وأَثْبَتَ[17] ، والافعال التي تتعدى للمفعول أو بحرف الجر مثل : راغَ وراغ عَن[18] ، ضاع[19] ، اللّفْء[20] ، وغيرها • ومنها ماكان التصحيف هو سبب تضادّها مثل : بَرَدَ[21] ، بَلَجَ[22] ، ومنها ماكانت طبيعة الصيغة هي سبب انصراف اللفظة الى المعنيين المتضادين مثل صيغة (فَعول) التي منها : الأَكُولة[23]، ذَعور[24] ، رَكوب[25]، رَغوث[26] ، الزَّعوم[27] ، الزَّجور[28]، وكثير غيرها مما وجدنا أمثالها عند الاضداديين قبله ، وصيغة (فَعيل) التي منها : الأَكيل[29] ، السَّميع[30] ، الصَّريخ[31] ، القَنيص[32] ، وهكذا حيث تدل هاتان الصّيغتان على الفاعل والمفعول على السّواء بسبب العوارض التصريفية ومثلهما صيغة (فاعل) التي تنصرف للفاعل والمفعول وهو اسلوب عربي واسع مثل ، الخائِف[33] ، العارِف[34] ، العاصِم[35] ، وغيرها •

---

(١٧) ١/١٢٤ •
(١٨) ١/٣٢٨ •
(١٩) ١/٤٥٢ •
(٢٠) ٢/٦١٦ •
(٢١) أبو الطيب ١/٨٦ •
(٢٢) نفسه ١/٨٦ •
(٢٣) ١/٢٤ •
(٢٤) ١/٢٨٠ •
(٢٥) ١/٣٠٦ •
(٢٦) ١/٣٠٨ •
(٢٧) ١/٣٣٦ •
(٢٨) ١/٣٣٢ •
(٢٩) ١/٣٠ •
(٣٠) ١/٣٦٦ •
(٣١) ١/٤٢٩ •
(٣٢) ٢/٦٠٣ •
(٣٣) ١/٢٣٧ •
(٣٤) ٢/٥٠٤ •
(٣٥) ٢/٥٠٦ •

يضاف الى ذلك مافي الكتاب من السهو والخطأ ، فقد نسب أبو الطيب شطرا من بيت الى رُؤبَة في حين هو للعجّاج [٣٦] ، وقد أشار الى ذلك محقق الكتاب ، كما نسب بيتا للهُذَلي في حين هو للبيد [٣٧] ، كما نسب للقرآن آية ليست فيه هي : (وانْ أردتم أنْ تَنْكحوا أزْواجكم)[٣٨] وقد علّق المحقق عليها بقوله : انها ليست من التنزيل وما نراها الا سهواً أو سبق قلم من شيخنا أبي الطيّب [٣٩] .

وبالرغم من كل ذلك فتبقى للكتاب قيمته اللغوية الكبيرة وفضله في خدمة العربية ، جنبا الى جنب مع كتب الأضداد الاخرى التي سبقته في الظهور ، ولكنه فاقها في المنهج والدقة والتبويب والاستقراء الواسع ، وعزل الألفاظ التي ألصقت بالاضداد وليست منها ، وذلك بعملية تصفية جيدة تنم عن فهم للفكرة وادراك للغرض .

كتاب الآمدي

المؤلف هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى الاصل ، البصرى المنشا [٤٠] ، من أئمة الادب واللغة . يقول عنه ابن النديم «مليح التصنيف، متعاطي مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب» . أخذ عن الأخفش والزجاج والحامض وابن السرّاج وابن دريد ونفطويه وغيرهم . واشتغل في الكتابة

---

(٣٦) ١/٣١٧ .
(٣٧) ١/١٥٥ .
(٣٨) ٢/٧١٢ .
(٣٩) وقد تنبّه لجميع هذه الأوهام السيد عادل أحمد زيدان في كتابه : أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة ص ١٠٦ .
(٤٠) تراجع ترجمته في : الفهرست ٢٢١ وانباه الرواة ١/٢٨٥ ومعجم الادباء ٨/٧٥ وبغية الوعاة ٢١٨ وروضات الجنات ٣/٧٥ وهدية العارفين ١/٢٧١ وتاريخ بروكلمان ٢/١٧٦ والكنى والالقاب ٢/٥ والاعلام ٢/١٩٩ .

في البصرة واشتغل بها في بغداد بعد قدومه اليها ، ففي البصرة كتب للقضاة من بني عبد الواحد ، وفي بغداد كتب لأبي جعفر هارون بن محمد الضبي خليفة أحمد بن هلال صاحب عمان بحضرة المقتدر بالله • يقول القفطي: «له شعر حسن ، واتساع تام في علم الشعر ومعانيه رواية ودراية وحفظا وصنّف كتبا في ذلك حسانا » • وانتهت رواية الشعر القديم والاخبار في آخر عمره بالبصرة اليه • وله من الكتب : المختلف والمؤتلف ، الموازنة بين الطائيين ، فعلت وأفعلت ، نثر المنظوم ، معاني شعر البحترى ، الأضداد، ديوان شعره ، وغير ذلك • وقد توفي في البصرة سنة سبعين وثلاثمائة بعد الهجرة •

أما كتابه (الأضداد) فاسمه الحقيقي كما ذكرته المصادر هو (الحروف من الأصول في الأضداد) قال ياقوت الحموى بعد أن ذكره بهذا الاسم : « رأيته بخطه في نحو مائة ورقة »[(٤١)] • وهذا يعني أن الكتاب ليس بالصغير اذ تكون المائة ورقة مائتي صفحة ، وهذا يعني ايضا ان الكتاب كان يحوى مادة غزيرة واسعة ، غير أننا ـ والكتاب مفقود ـ لا نستطيع أن نتبيّن منهج الآمدى فيه وطريقة معالجته للموضوع ، الا اذا توفرت في المصادر المعنيّة بهذا الجانب من اللغة نُقول كافية ونصوص كثيرة من الكتاب عند ذاك يمكن أن ينكشف لنا شيء من ذلك المنهج ، كالذى فعلناه في درس الكتب السابقة التي لم تصل • ولكن المصادر بخلت هذه المرة ، فلا نملك فيها نقلاً من الكتاب أو رأيا للآمدى في الأضداد والسبب في ذلك ان كتب الاضداد التي عُنيت بنقل آراء العلماء وبسط وجهات نظرهم قد سبقته في الظهور، اذ يكون أقربها اليه زمنا كتاب أبي الطيب (ت٣٥١هـ) وبين المؤلفَيْن ما يقرب من عشرين سنة قد يكون الآمدى قد ألف أضداده خلالها • أما

(٤١) معجم الادباء ٨/٨٦ •

الكتب المتأخرة عنه فمنها الذى لم يصل ككتابي ابن فارس وابي البركات الانبارى ، ومنها الذى وصل ولم يعن بذكر رأى أو شاهد أو تعليق وانما اكتفى بذكر ألفاظ الاضداد مرتبة على حروف المعجم ككتابي ابن الدهان والصغاني ، لهذا لايمكن أن نعثر له على ما يفيد في كتب الاضداد ، وكل ما استطعنا الحصول عليه كلام طويل في كتابه (الموازنة) فيه تعرض لضدّية (دُون) و (فَوْق) وفيه استشهاد بالقرآن لمعاني اللفظتين • ننقله هنا ليكون نموذجا يوضح اسلوبه في معالجة الأضداد ، ومدى استيعابه لفكرة التضاد ، وبالتالى نتصور منهجه وطريقته في كتابه الضائع • فبعد أن ذكر بيت أبي تمام:

الودُّ للقُرْبى ولكنْ عُرفُه   للأبْعَدِ الأوْطانِ دوُنَ الأقْرَبِ

قال : « قال : فقد تأتي (دوُن) بمعنى فَوْق ، كما تأتي (فَوْق) بمعنى دون ، في قول الله عزّ وجلّ : (انَّ اللّه لايَسْتَحي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعوضَةً فما فَوقَها) ذكر أن معناه فما دونها ، لأن (فَوْق) قد تكون دون عند ماهو فَوْقَها ، و (دُون) قد تكون فَوْق عندما هو دونَها ، فيجوز أن يكون أراد الشاعر بقوله (دُون الأقْربِ) أي: فوقَ الأقربِ، بمعنى زيادة على ما أعطاه الأقرب ، أو تكون (دون) ههنا بمعنى امام لأن بعض اهل اللغة جعلها من الاضداد ، وانها تأتي بمعنى خلف وبمعنى أمام مثل وراء ، فيكون معنى قوله (دُون الأقْربِ) أى : امامَ عُرفه في الأقْرب ، اى : قبله • قلت له : أما ماقيل في قوله عزّ وجل (فَما فَوقَها) أن معناه فما دونها ، فان أهل العربية على خلاف ذلك ، وليس لهذه اللفظة عندهم الاّ وجهان ، أحدهما : أن يكون فما فوقها بمعنى فما هو أكبر منها ، لأن البعوضة نهاية في الصغر ، فيكون المعنى أنه تعالى لايستحي أن يضرب مثلاً مّا بين هذا الشيء الذى هو غاية الصّغر الى ماهو فوقه ، أى : مازاد عليه وتجاوزه • والوجه الآخر : أن يكون فما فوقها بمعنى فما فوقها في الصغر ، وهذا قول أبي العباس محمد بن يزيد المبّرد وأبي اسحاق الزجّاج

والكسائي من قبلهما وأبي عبيدة ، وما أظن غير هؤلاء من النحويين يقول الا مثل ذلك » [٤٢] . ويستمر في بيان المعاني الأخرى التي يمكن ان تنصرف اليها لفظة (دُون) مناقشاً ضديتها ومفندا القول في ذلك راجعا الى المعنى العام ، يقول « وأما ماذكرته من أنَّ (دُون) تأتي بمعنى خلف وأنها عند أهل العربية من الاضداد مثل (وَراء) ، فقد أخبرتك أن معناها عند اهل اللغة والعربية التقصير عن الغاية ، واذا كان الشيء وراء الشيء أو أمامه أو يمنة منه أو شأمة ، صلح في ذلك كله أن تقول : هو دونه ألا ترى أنك اذا قلت : (بيوتُ بني فُلان دونَ الحَرَّة) صلح أن تكون دونها الى مهب الشمال ، أو الى مهب الجنوب أو الى غيرهما من الجهات ، فلا يعلم المخاطب أي الجهات التي تعني ، فليس هذا من الأضداد في شيء ، وانما جعلها قوم من الأضداد لمّا رأوها تستعمل في هذه الوجوه لما فيها من الابهام ، وكذلك (وَراء) انما هي من المُواراة والاسْتِتار ، فما استتر عنك فهو وَراء ، خَلفَك كان أو قُدّامك ، هذا اذا لم تره أو تشاهده ، فأما اذا رأيته فلا يكون أمامك وراء ، وانما قال لبيد :

أَلَيسَ وَرائي انْ تَراخَتْ مَنِيَّتي
لزومُ العَصا تحنى عَليها الأصابعُ

بمعنى أليس أمامي ، لأنه قال بلك قبل أن يرى ويشاهد نفسه وقد لزم العصا . وكذلك قول الله تعالى (وكانَ وَراءَهُم مَلِكٌ يَأخُذُ كلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) قالو : انه كان أمامهم ، وصلح ذلك لأنهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه . فقد وضح لك الآن معنى (دُون) وانها لاتخرج عن بابها الذى وضعت له ، الا ترى أنك تقول : (نَزَلْتُ القَرْيَةَ دون النَّخلِ) ، فيجوز أن تكون القرية أمام النخل وخلفه ، ويكون المعنى أنك أفردت القرية بنزولك ، ولم

---

(٤٢) الموازنة ١/١٧٢ .

تعرج على النخل ، وكذلك (لَقيتُ زيداً دون عَمْروٍ) و (أكَلْتُ السَّمكَ دونَ اللّبن) أخرجت عمرا من لقائك واللّبن من أكلك • فكذلك قول الطائي (دونَ الأقربِ) قد أخرجهم من العرف ، وهذا لاشيء أوضح منه » [٤٣] • من هذا كله نخلص الى ملاحظات عدّة ، منها :

١ ـ انه من القائلين بانكار التضاد اذا وضح السبب الذى يوهم بهذا التضاد ، وهذا ظاهر في قوله « فليس هذا من الأضداد في شيء ، وانما جعلها قوم من الاضداد لما رأوها تستعمل في هذه الوجوه لما فيها من الابهام » ، والانكار خصيصة بصريّة تبلورت عند ابن درستويه في كتابه (ابطال الأضداد) •

٢ ـ ان الاعلام الذين استشهد برأيهم على صحة رأيه هم من البصريين سوى الكسائي ، فذكره المبرد والزجاج وأبا عبيدة يوحي بميله الى منهجهم ومدرستهم اكثر من ميله الى الجانب الكوفي • والسبب في الرجوع الى الكسائي الى جانب البصريين هو أنه تلمذ لمن خلط المذهبين ـ على حد تعبير كتب التراجم ـ امثال الاخفش الاصغر وأبي موسى الحامض وابن السراج وغيرهم ممن درس على اساتذة المدرستين وعلى الأخص المبرد وثعلب ، فلابدّ أن ينزع الآمدى في مذهبه الى المدرستين ، الا انه ـ كما يظهر ـ الى البصريين أميل ، والى منهجهم أقرب •

٣ ـ ان اسلوبه لايخلو من نزعة عقلية جدلية ، هي من خصائص الاسلوب البصرى المتأثر بالفلسفة والمحاكمات العقلية والجنوح للقياس والعامل ، فهو هنا يستعين بفكرة التناسب والنسبية العقلية مثل قوله :« لأنَّ فَوْقَ قد تكون دونَ عِندَ ماهو فَوقها ، ودون قَدْ تكون فَوْقَ عِنْدما هو دُونَها •• » • وقد يفسر لنا هذا المنزع تسميته لكتابه (الحروف

---

(٤٣) الموازنة ١/١٧٣ •

من الاصول في الاضداد) لأن في هذا العنوان مايوحي بذلك •

٤ ـ تنبهه الى عوامل خلق الأضداد التي يمكن أن يفسّر تضاد الألفاظ بها ، منها النسبية التي أشرنا اليها قبل قليل ، ومنها ارجاعه المعاني الى معنى أصلي عام ، كالذى فعله في (ورَاء) التي قالوا انها تعني خلف وقدام ، فقال : « انمّا هي من الموُاراةِ والاسْتِتار ، فما اسْتَتَر عنك فهو ورَاء ، خَلفك كان أو قُدّامك ، هذا اذا لم تره أو تشاهده ، فأما اذا رأيته فلا يكون أمامَك ورَاء » وهذا ماسميناه شمولية المدلول الأول ، ومثل هذا التفسير قاله في (دون) حين أرجع المعاني كلها الى معنى أصلي واحد هو (التّقْصير عَن الغايَة) ، وربما كان هذا البحث عن الأصل المعنوى من اسباب ذكر (الأصول) في عنوان كتابه اذ يكون عمله فيه على هذا الاساس •

٥ ـ انه لم يغفل عن الاستشهاد بالرغم من كون المادة المبحوثة قد جاءت عرضا اثناء شرحه لبيت من أبيات أبي تمّام ، فقد استشهد في (فوق) بالقرآن ، كما استشهد به في (وراء) • كما استشهد ببيت شعرى للبيد في (وراء) • وأكثر من الامثلة التي صنعها من كلامه لتوضيح الفكرة وتقريب المعنى الذى يقصد اليه •

ومهما يكن من أمر فلا يمكن أن يقطع بشيء مادام الكتاب مفقودا ، ولاتكتمل دراسته مادمنا بهذا الفقر أمام النصوص • فليس من الطبيعي أن يكون نص من النصوص لانملك غيره صورة عن كتاب مفقود ، الاّ أننا قلنا ان هذا النص يبصّرنا بطريقة المعالجة ويضع أيدينا على خط عريض واسع ، ربما استطعنا منه ان نفترض بعض الملامح الجزئية والمسالك الثانوية الاخرى •

كتاب ابن فارس

المؤلف هو أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا بن حبيب القزويني

الهمذاني الرازى (٤٤) ، ولد بقزوين ونشأ وأقام بهمذان • اخذ عن أبي بكر احمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب ، وابي الحسن علي بن ابراهيم القطان وأبي عبدالله احمد بن طاهر بن المنجم • ولما بدأ التدريس بهمذان كان بديع الزمان من ملازمي حلقته • يقول القفطي : « كان واسع الادب متبحرا في اللغة العربية فقيها شافعيا وكان يناظر في الفقه ، وطريقته في النحو طريقة الكوفيين » • وتلمذ له الصاحب بن عباد وقال في حقه : « شيخنا ممن رزق حسن التصنيف » ، اذ صنف ابن فارس كتبا كثيرة نالت شهرة واسعة، منها : مقاييس اللغة ، متخير الألفاظ ، الصاحبي في فقه اللغة ، المجمل ، فتيافقيه العرب ، غريب اعراب القرآن ، الاضداد ، وغيرها • توفي بالرى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ودفن مقابل مشهد القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني •

أما كتابه في (الاضداد) فمن العجيب أن لانجد ذكره الا على لسان مؤلفه ابن فارس في كتابه (الصاحبي) اذ يقول : « ومن سنن العرب في الاسماء ان يسموا المتضادين باسم واحد • نحو (الجون) للاسود ، و (الجون) للأبيض • وأنكر ناس هذا المذهب ، وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده • وهذا ليس بشيء ، وذلك ان الذين رووا أن العرب تسمي السيف مهندا ، والفرس طرفا ، هم الذين رووا أن العرب تسمّي المتضادين باسم واحد وقد جرّدنا في هذا كتابا ذكرنا فيه ما احتجوا به ، وذكرنا ردّ

---

(٤٤) تراجع ترجمته في : يتيمة الدهر ٣/٣٦٥ ونزهة الالباء ٢١٩ ووفيات الاعيان ١/١٠٠ ومعجم الادباء ٤/٨٠ وانباه الرواة ١/٩٢ والفلاكة والمفلوكون ١٤١ والنجوم الزاهرة ٤/٢١٢ وبغية الوعاة ١٥٣ وشذرات الذهب ٣/١٣٢ وروضات الجنات ١/٢٣٢ وتاريخ بروكلمان ٢/٢٦٥ والكنى والالقاب ١/٣٦٠ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/٣٠٩ ومعجم المؤلفين ٢/٤٠ والاعلام ١/١٨٤ والعلامة اللغوي ابن فارس الرازي ٣٣ـ٧٣ •

ذلك ونقضه ، فلذلك لم نكرره »[٤٥] • ونستشف من هذا النّص أن ابن فارس كان من مؤيدى فكرة الاضداد والمتحمسين لها ، لدرجة انه يجرد كتابا في رد المنكرين ونقض حججهم ، والظاهر أن على رأس هؤلاء المنكرين الذين عناهم ابن فارس بالرد ابن درستويه بكتابه (ابطال الأضداد) فقد سبق هذا الاخير ابن فارس بحوالي خمسين سنة ، ويبدو من عبارة ابن فارس (وأنكر ناس) أن المنكرين كثيرون فقد كان لابن درستويه جماعة ساروا على نهجه مرّ علينا منهم الآمدى • واذا كان انكار الاضداد موقف بصرى تجلى واضحا عند ابن درستويه والآمدى وغيرهما ، فتأييد الاضداد والدفاع عنها والاكثار من روايتها موقف كوفي تجلّى عند ابن الانبارى وابي الطيب وعند ابن فارس الآن اذ هو كوفي الدرس والمصادر كصاحبيه •

واعتبر ابن فارس أن تسمية المتضادين باسم واحد هو من سنن العرب ،وهذا يشعر بكثرة هذه الألفاظ • وان انكار هذه السّنة ليس بشيء ولا وجه له ، لأنه اذا جاز أن نقرّ ورود المترادف لأن روايته عن العرب صحيحة فلماذا لانقرّ ورود الأضداد وقد صحّت روايتها عن العرب، والرواة هم أنفسهم الذين رووا ذلك وهذا • وهو بهذا يرسّخ مذهبه اللغوى القائم على الرواية والنقل والاعتماد عليهما اعتمادا كليا ، اذ اللّغة عنده توقيف من الله ، فكل ماورد منها على لسان العرب لابدّ أن يكون لحكمة وعلّة أرادها الموقّف الأول ، فلا يمكن على هذا انكار الأضداد بعد أن رويت عن العرب حتى ساغ أن يسميها من سننهم •

وابن فارس بقوله : (فلذلك لم نكرّره) قد سدّ علينا كل طريق يمكن أن يصل بنا الى الكتاب ، لأنه بالتزامه بعدم تكرار ماذكره في ذلك الكتاب ، قد جعلنا في منأى عن مادته ومحتواه ومايتصل بذلك من ذكر

---

(٤٥) الصاحبي ٦٦ •

حجج المنكرين وطريقته في ردّ هذه الحجج ونقضها ، لهذا فسوف لانفيد من نّص واحد في الصاحبي وآخر في المجمل وثالث في المقاييس شيئا يكون صورة عن الكتاب أو نموذجا منه ، بسبب ماذكرناه من عدم تكرار مـادة الكتاب من جهة ، ولأن هذه النصوص لاتعالج ما جعله سبب وضع الكتاب وهو ذكر ما احتج به المنكرون وذكر ردّ ذلك ونقضه •

والظاهر أن الدراسات اللغوية عند ابن فارس قد اختلطت بالعقيـدة وتأثرت بالمذهب الديني ، ابتداءا بأخذه بفكرة التوقيف في نشأة اللغـة وانتهاءا بالأضداد ، فها هو يقول في (القروء) التي هي للحيض والأطهـار : « قال أبو الحسين : وهذا ابن داود ، قد أنكر على الشافعي ، مقالته في القروء أنها الأطهار ، واستشهاده بقريت الماء في الحوض • ولو علم ابن داود مغزى الشافعي ، لعرف مكان الشافعي من اللغة »[٤٦] • فمن الواضح أنه مال الى رأي الشافعي في المسألة لكونه شافعيّ المذهب ، محتجا على ابن داود أنه لـم يعلم مغزى الشافعي ، ومتى كانت اللغة مغزى ليكون أخذها على أسـاس المغازي • وانمّا هي استعمال ، قد تختلف البيئات العربية في طريقته لسبب من الأسباب ، كما اختلفت بيئتا العـراق والحجـاز في معنى (القُـروء) فعند احداهما الحيض وعند الاخرى الأطهار ، وبما أن اللفظة قد وردت في التنزيل فيترتب على تحديد معناها الحكم الشرعي الخاص ، لذلك اختلف فقهاء البيئتين بدورهم في هذا التحديد الـذي ليس وراءه (مَغْزى) من أي نوع •

ونصّ ابن فارس أحيانا على اللّهجات أو اللغات في ذكر المعاني المتضادّة كقوله في مادة (وَثَب) : « ومن الاختلاف اختلاف التّضاد ، وذلك قول حِمْيَر للقائم : ثِبْ أى أقْعُدْ ••• والوِثاب : الفِراش بلغة حمْيَر•

(٤٦) فتيا فقيه العرب ١٩ـ٢٠ •

قال : وهم يسمّون الملك اذا كان لا يغزو (مَوْثَبان) يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو . ويقولون للرّجل (ثِبْ) أي اجلس »[٤٧]. كما تفرّد أُحياناً بذكر معنى مضاد للمعنى الشائع للفظة ، فخلق منها ضدا مثل : « النُّكْد بالضمْ : الغزيرات اللبن من الابل ، والتي لا لبن لها ، ضدّ . وهذه عن ابن فارس صاحب (المجمل) ، قال ناقة نكْداء : لا لبن لها . قال الصّاغاني : تفرّد بها ابن فارس وقد خالفه الناس »[٤٨] ، وذكر من رواة الاضداد أبا زيد الانصاري ناقلا روايته عن أبي حاتم ، قال : « قال أبو حاتم : قال أبو زيد : أمَمٌ أي صَغير وعَظيم . من الاضداد »[٤٩] .

اريد أن اخلص من هذا الى افتراض وجود مثل هذه الظواهر التي استطعنا لمّها من كتبه الأخرى في كتابه المفقود في الاضداد لأننا حين لا نستطيع الحصول على شيء من مادة الكتاب مبثوثا في مصنفاته اللغوية والمصنفات التي يحتمل أن تكون قد نقلت عنه شيئاً ، فلا أقلّ من تصوّر بعض الظواهر العامة لمنهجه في التأليف ، حسب ما تسعف به المصادر المختلفة وان كانت قليلة لا تغني من الرجوع الى الكتاب نفسه للتثبت منها .

كتاب ابن الدهان

المؤلف هو سعيد بن المبارك بن علي بن عبدالله بن سعيد البغدادي المعروف بابن الدّهان[٥٠] . ولد سنة أربع وتسعين وأربعمائة بنهر طابق ،

(٤٧) الصاحبي ٢٢ .
(٤٨) تاج العروس ٩/٢٣٧ (نكد) .
(٤٩) مقاييس اللغة ١/٣٠ .
(٥٠) تراجع ترجمته في : نزهة الالباء ٢٤٧ ووفيات الاعيان ٢/١٢٤ وانباه الرواة ٢/٤٧ ومعجم الادباء ١١/٢١٩ ونكت الهميان ١٥٨ والفلاكة والمفلوكون ١٦٤ والنجوم الزاهرة ٦/٧٢ وبغية الوعاة ٢٥٦ والعدة في الرجال ١٧٨ وهدية العارفين ٣٩١ والكنى والالقاب ١/٢٧٥ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٠ والأعلام ٣/١٥٣ .

كان من أعيان النحاة المشهورين بالفضل ومعرفة العربيّة ، حتى لقب بسيبويه عصره . أخذ عن علي بن عيسى الرّماني وأبي القاسم هبة الله محمد بن الحصين وأبي غالب أحمد بن البناء وجماعة . رحل الى أصبهان وسمع بها واستفاد من خزائن وقوفها ، وكتب الكثير من كتب الأدب بخطه، وعاد الى بغداد واستوطنها زمانا . وخرج من بغداد قاصدا دمشق واجتاز الموصل ،فتلقاه فيها الوزير جمال‌الدين الاصبهاني المعروف بالجواد وأحسن اليه وأكرمه وبلغه أن الغرق استولى على بغداد فسيّر من يحضر كتبه ان كانت سالمة ، فوجدها قد غرقت فيما غرق .

وكان يقال في زمانه : النحويون ببغداد أربعة ، ابن الجواليقي وابن الشجري وابن الخشاب وابن الدهان ، وكان الناس يرجحون ابن الدهان على الجماعة المذكورين مع ان كل واحد منهم امام . أخذ عنه أبو زكريا الخطيب التبريزي وغيره من الأعلام . له مصنفات كثيرة منها : شرح الايضاح لأبي علي الفارسي في أربعين مجلّدة ، وقد أخذه عنه الناس في بغداد ، والفصول الكبرى ، الفصول الصغرى ، شرح كتاب اللّمع لابن جني ، العقود في المقصور والممدود ، الأضداد ، وغيرها . توفي بالموصل سنة تسع وستين وخمسمائة بعد الهجرة .

أما كتابه (الأضداد في اللغة)(٥١) فهو شيء يختلف تماما عن كتب الأضداد السابقة ، فاذا صحّ أن ننسب الى الكتب السابقة صفة الأدب بسبب كثرة الشواهد الشعرية والنثرية والتعليقات المختلفة بجانب بحثها اللغوي ، فلا يصحّ هذا بالنسبة لكتاب ابن الدهان ، فهو الى الترتيب المعجمي الجاف أقرب ، اذ خلا من الشواهد والتعليقات خلوّا تاما ، فقد

---

(٥١) حققه الشيخ محمد حسن آل ياسين ضمن المجموعة الاولى من نفائس المخطوطات ـ الطبعة الثانية : بغداد ١٩٦٣م .

اكتفى بايراد الضدّ وذكر معنييه المتضادين معريا كتابه من كل ما دون هذا • بل جعل تبرير هذا الاختصار هو كثرة شواهد وتعليقات الكتب السابقة ، بحيث أغنته عن ذكرها ، فأرجع اليها القارىء للاطلاع على هذه الشواهد والوقوف فيها على ما لم يذكره هنا ، وهو يشرح ذلك مبينا سبب التأليف بقوله في صدر مقدمته : « فانه لما كثرت تصانيف العلماء فيما ورد من الالفاظ المتضادة المعاني من العرب ، ورأيت في بعض كتبهم أشياء لا يجب ذكرها ، وفي بعضها اختلالا فيما يجب ذكره ، ورأيت بعضها مشحونة بالاستشهادات بأمثلة وأبيات • أحببت أن أجمع ما ورد فيها مختصرا معرى من الاستشهادات ، وذكرت بعض ما كتبت راضيا عنه لأنه مذكور في كتبهم ، الا أني ذكرت في الفصل (وفيه نظر) علامة لما يجب أن أذكر ، وأحلت شواهد ما ذكرته على كتب الكبار من العلماء ، كالاصمعي والفراء وأبي علي قطرب وابن السكيت وأبي العباس ثعلب وأبي حاتم السجستاني وأبي بكر بن الانباري ، فمن شك فيما ذكرته فليقصد هذه الكتب فانه يجده فيها والعهدة له وعليه »(٥٢) • فعندما يذكر اللفظة ومعنييها المتضادين ويذيّل ذلك بعبارة (وفيه نظر) فمعنى هذا أنه يرجع القارىء الى كتب الاضداد السابقة التي ذكر مؤلفيها للاطلاع على الشواهد الشعرية والقرآنية الخاصة بها ، ومن أمثلة هذه المواد في كتابه : المَأْتَم ، إذْ ، رَجُل مؤْدٍ(٥٣) ، بَعْد ، البُحْتُر(٥٤) ، حايْ حايْ ، خانَ النَّعيم(٥٥) ، سَمِع ، ما أَسَرَّني(٥٦) ،

---

(٥٢) ابن الدهان ٩١ •

(٥٣) نفسه ٩٣ •

(٥٤) نفسه ٩٤ •

(٥٥) نفسه ٩٦ •

(٥٦) نفسه ٩٩ •

أشدَّه'[٥٧] ، وهكذا في (٢٢) لفظة مذيّلة بهذه العبارة • ويستوحي من ارجاعه الى الشواهد الخاصة بهذه الطائفة من الألفاظ ، انه مزعزع الايمان بضدّيتها وشاك في اصالة هذه الضديّة ، والاّ فلماذا خص هذه المجموعة من الاضداد بعبارة (وفيه نَظَر) ليرجع الى شواهدها في كتب الأضداد ، في حين ذكرت كتب الاضداد من الشواهد لكل الاضداد التي ذكرها في كتابه ، ما يدعوه للارجاع اليها لو كان الأمر مجرّد ارجاع ، ولكنه لم يقتنع بصحة ذهاب هذه الكتب الى ضديتها ، فأحال القارىء اليها ليحكم بنفسه على ذلك بعد اطلاعه على الشواهد • أضف الى ذلك انه كان محقا في عدم قناعته وايمانه بضدية هذه الالفاظ ، فنظرة فاحصة للمواد : إذْ ، إذا ، بَعْد ، حايْ ، يَكون ، لا ، وغيرها تكفي لتأييده في شكه وتغني عن التثبت من ضديتها دون الرجوع الى الشواهد •

وبالرغم من ذلك فقد فاته التنبيه على كثير من الألفاظ التي يخرجها النظر السليم من قائمة الأضداد ، منها ما كانت طريقة الاستعمال سببا في اعتبارها من الاضداد كالفعل (كانَ)[٥٨] الذي قال عنه أنه للماضي والمستقبل ، ومنها ما كان لهمزة السّلب الدور الواضح في لمح التضاد فيها مثل (أشكَيْتُه)[٥٩] التي ذكر ان احد معنييها : أزلتُ شكْواه ، ومنها ما كان خلاف فقهي أو غير فقهي السبب في اختلاف معنييها مثل (أَشُدَّه)[٦٠] التي قال انها تعني ثماني عشرة سنة وأربعين سنة ، ومنها ما كانت الصيغة الصرفية مما يستوى فيها الفاعل والمفعول مثل (الغَرِيم)[٦١] للدائن والمدين وغير ذلك مما كان يجب أن يلحق بالذي

---

(٥٧) ابن الدهان ١٠٠

(٥٨) ابن الدهان ١٠٥ •

(٥٩) نفسه ١٠١ •

(٦٠) نفسه ١٠٠ •

(٦١) نفسه ١٠٣ •

قال عنه (وفيه نَظَر) •

وابن الدهان من مؤيدي فكرة الاضداد المدافعين عنها ، وهو هنا يقف الى جانب ابن الانباري وابي الطيب وابن فارس ، فيكون • موقفه على هذا موقف الكوفيين من الأضداد ، بالرغم من كون دراسته النحوية على طريقة البصريين كما يظهر ذلك من شجرة اساتذته ، الا أن الظاهر أنه فصل بين الامرين حين وجد أن مسألة الانكار على العربية هذا الفن قد استغلها أعداؤها من الشعوبيين ، فلابدّ من الدفاع اذن • ونظرة مقارنة بين كتابه وكتاب ابن الانباري تظهر أنه لم يزد شيئا ولم ينقص في مواد الاضداد ، فقد حذا حذو ابن الانباري ونقل منه ، فكأنه بهذا الاعتبار قد اختصر كتاب ابن الانباري واسقط منه كل الشروح والتعليقات مكتفيا بايراد الضد ومعنيه ايرادا معجميا مجردا • ومع ذلك فقد صبغت دراسته البصرية الكتاب بصبغة تشعر بذهابه هذا المذهب ، وأول مظاهر هذه الصبغة النفور من الاستشهاد ورواية الاخبار والاحاديث ونقل التعليقات وما يتصل بذلك ـ كما اشرنا قبل قليل ـ مما وجدناه بأجلى صوره في كتب الكوفيين قبله ، ولندعه يقول : « وقد طعن قوم في هذا الفن وقالوا : ليس من الحكمة أن تقع الكلمة على الشيء وضدّه ، لما فيه من اللّبس على السامع ، والحكمة تقتضي غير ذلك • وأجابوا عن ذلك بأشياء ليس هذا المختصر محلّها ، وأقرب ما قال : ان العرب شعوب وقبائل ، وبطون وأفخاذ ، وعماير تتنوع ، والعربية انما هي مواضعة ، فوضع بعضهم (الجَلَل) للشيء الحقير ، ووضع بعضهم (الجَلَل) للشيء العظيم ، ونقلت النقلة ذلك عنهم ، لأن العربي وضع (الجَلَل) للشيء الحقير والعظيم وحده ، وفيه غير ذلك »[٦٢] • فتفسيره للاضداد يعتمد أوّل ما يعتمد على اللهجات العربية ولغاتها ، فاختلاف القبائل بلهجاتها ولّد تضاد

(٦٢) ابن الدهان ٩٢ •

معاني اللفظة الواحدة ، وذلك بعد أن جمعت اللغة ودوّنت موحّـدة • ونفهم من المثل الذي ساقه في (الجَلَل) أنه يعتبر أن العربية الأم كانت تتصرف ألفاظها الى الضدّين على أنهما معنى واحد ، فاختصت القبائل بعدئذ باستعمالها بان تنصرف اللفظة عند واحدة منها الى احد المعنيين وعند الاخرى الى المعنى الآخر ، فصار للفظة معنيان متضادان وهما في الواقع معنى واحد ، وهذا معنى قوله : « لأن العربي وضع (الجلل) للشيء الحقير والعظيم وحده » • غير ان ابن الدهان برغم ذلك لم يشر في متن كتابه الى القبائل واختصاص كل منها بمعنى من المعاني ولا بشكل عابر ، كأن ينص مثلا في (السُّدْفَة) انها تعني الظلمة عند قيس ، وتعني الضوء عند تميم وانما اكتفى بذكر المعنيين دون ذكر اللهجتين[٦٣] ، فليس للكتاب ـ على هذا ـ قيمة تذكر من الناحية اللغوية التاريخية ، كالتي لمسناها في كتب الاضداد السابقة •

والكتاب بعد مرتب المواد على حروف المعجم ، أخذا بالحرف الاول للمجرّد ، الذي هو الأصل المشتق منه ، فمادة (ما أسَرَّني) في باب السين[٦٤] ، لانها من (سَرَّ) ، ومادة (أَشُدَّه) في باب الشين[٦٥] ، لأنها من (شَدَّ) • ومادة (المَأْتَم) في باب الهمزة[٦٦] ، لانها من (أَتَمَ) وهكذا • ولكن ابن الدهان ترك هذا الترتيب في الاحرف الثواني والثوالث للالفاظ ، فلم يعر لغير الحرف الاول شيئاً من الاهتمام ، والظاهر أنه كان آخذا بهذا الترتيب في جملة من مصنفاته اللغوية اذ يقول في مقدمة هذا الكتاب : « فالتقطت هذه الالفاظ ، وبوبتها على حرف (أ)

---

(٦٣) ابن الدهان ٩٩
(٦٤) ابن الدهان ٩٩ •
(٦٥) نفسه ١٠٠ •
(٦٦) نفسه ٩٣ •

(با) (تا) (ثا) ، وبدأت منهـا الكلمـة واطرحت الزائد ، كمـا فعلت ذلك في كتاب (الضاد والظـاء) ، وكتاب (الغـين والـراء) ، وكتـاب (المقصور والممدود) ... »[٦٧] . يضاف الى هذا أنه خلط بين الكلمات خلطاً عشوائياً ، فمثلا يذكر اسماً من الاضداد وبعده يذكر حرفاً ثم فعلاً أو بالعكس دون تصنيف في ذلك ومن غير فصل بين هذه الاقسام ، وهذا ما اشتركت فيه كل معجمات الأضداد دون استثناء ، سوى المفقود منهـا الذي لا نستطيع الجزم فيه بشيء قاطع في هـذا المجـال . هـذا عدا أننـا لا نجد في الكتاب باب (الطاء) بالرغم من وجود كثير من ألفاظ الاضداد من هذا الباب حفلت بها كتب الأضداد السابقة كمـادة (طَواه) التي ذكرهـا ثعلب[٦٨] ، ومـادة (أطْلَبَ) التي ذكرتهـا أغلب كتب الاضداد[٦٩] ، والتفت محقق الكتاب الى عدم وجود هـذا الباب ورأى أنه ساقط من قلم الناسخ ، وهو عندنا التفسير الوجيه .

ومن الممكن تسجيل بعض الملاحظات التي تعنّ لدارس الكتاب ، منها أن المؤلف أخطأ في معاني ألفاظ لغوية ليست بالقليلة ، منها مثـلا (النَّبَل) فذكر أنها تعني الجِلَّة من المال وللصّغار منه[٧٠] ، في حـين أنها تعني الحجارة كبيرة وصغيرة ، ولا علاقة للمال في ذلك . كما قصر (المَولى) على المُعْتِق والمُعْتَق دون غيرهما من المعاني ، وكنا قد درسناها عند الاقدمين انها منصرفة الى عشرة معان مختلفات اخر كالصاحب والصديق والسيّد وابن العم والصهر وغير ذلك مما جعلنا نعتبر اللفظة من المشترك وليست من الاضداد . ولا يخلو العمل في الكتاب من التقعر

---

(٦٧) ابن الدهان ٩٢ .
(٦٨) مجالس ثعلب ٢/٤٢٥ .
(٦٩) انظر : الصغاني ٢٣٧ مثلا .
(٧٠) ابن الدهان ١٠٦ .

مثل اعتباره (لَمْ أضْرِبْ عَبْدَ الله ولَمْ يَضْربْني) مادة من مواد الاضداد قال فيها : « يحتمل عدم الفعلين ووجودهما »[٧١] . وفي هـذا اسراف كبير اذ يجب أن تكون الأضداد الفاظا مفردة ، لا عبـارات أو أقوالاً أو أساليب تصطنع فيها الضدية اصطناعاً على هذا الشكل البعيد عن روح العمل الدقيق ، وقريب من هـذا (أفْلَتَ الرَّجُل الرَّجُل) : اذا تخلص منه فلم يطقه ، واذا أعانه وخلّصه[٧٢] ، وواضح ان الدور في هذا للهمزة التي تكون مرّة أصيلة في الرباعي ومرّة داخلة على الثلاثي للتعدية أو يكون لتقديم المفعول على الفاعل ، وقد عرضنا لهذا النوع سابقاً ، وغير ذلك كثير لو غربل الدارس مواد الكتاب جميعها .

وعلى كل فالكتاب متأخر في طرقه الموضوع ، فقد سبق بتآليف كثيرة في ميدان الأضداد كانت على جانب كبير من التوسع والافاضة ، وابن الدهان بالرّغم من اختصاره المخلّ في الكتاب ، لم يستطع أن يأتي بجديد يضاف الى هذه الدراسات الأضدادية ، بل يستشعر الدارس أنه انمـا ألّف هـذا الكتاب لأن عرفـاً قد جرى أخـيراً بين اللغويين أن يؤلف في الاضداد مثل هذه المختصرات التعليمية الضعيفة ، كما فعل بعده الصغاني مثلا من تأليفه كتاباً في الأضداد على هذا النسق ؛ وفي هذا التقليد منتهى ذوبان الشخصية والروح العلمية اللتين يجب أن تظـلا قائمتين تشعران بوجودهما في كل كتاب .

كتاب أبي البركات الانبـاري

المؤلف هو أبو البركـات عبدالرحمن بن أبي الوفـاء محمـد بن عبيدالله بن أبي سعيد الانباري الملقب بكمال‌الدين[٧٣] ، اللغوي النحوي

---

(٧١) ابن الدهان ١٠٢ .

(٧٢) نفسه ١٠٣ .

(٧٣) تراجع ترجمته في : انباه الرواة ٢/١٦٩ ووفيات الاعيان ٢/٣٢٠ =

المعروف . سكن بغداد من صباه الى أن توفي بها ، تفقه على مذهب الشافعي على ابن الرزّاز بالمدرسة النظامية ، وأعاد بها الدرس بمدرسها . وقرأ النحو على النقيب أبي السعادات ابن الشجري ، حتى برع وصار من المشار اليهم في النحو . وسمع بالانبار من أبيه وببغداد من عبدالوهاب الأنماطي . ودرس اللغة على الشيخ أبي منصور موهوب بن الخضر الجواليقي . وتفنن بالأدب حتى صار شيخ وقته .

كان اماماً ثقة صدوقاً فقيهاً مناظراً غزير العلم ورعاً زاهداً لا يقبل من أحد شيئاً ، خشن العيش خشن الملبس لم يتلبّس من الدنيا بشيء . وكان مقيماً برباط له بشرقي بغداد ، لا يخرج الا يوم الجمعة ، فقد كانت حياته جداً محضاً ، منقطعاً فيها للتدريس والتأليف ، وذكر أن له مائة وثلاثين مصنفاً في اللغة والاصول والزهد وأكثرها في فنون العربيّة . منها : أسرار العربية ، الانصاف في مسائل الخلاف ، نزهة الالباء في طبقات الادباء ، الاغراب في جدل الاعراب ، حواشي الايضاح ، حلية العربية ، الاضداد ، وغيرها . توفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبي اسحاق الشيرازي .

أما كتابه (الاضداد) فأول من ذكره الصفدي في (الوافي بالوفيات) ١٧١/٢ وعنه نقل السيوطي في المزهر ٣٩٧/١ والبغية ٣٠١ ، وغريب أن نجد بعد هذا كتب التراجم التي سبقت الوافي مغفلة ذكر الكتاب ضمن كتبه التي ذكرت له ، وعلى رأس هذه المصادر انباه الرواة ووفيات الاعيان ، وكلاهما من مصادر التراجم المعنية بذكر المصنفات والمؤلفات ،

= وفوات الوفيات ٥٤٧/١ والوافي بالوفيات ١٧١/٢ والفلاكة والمفلوكون ١٥٢ والنجوم الزاهرة ٩٠/٦ وبغية الوعاة ٣٠١ وشذرات الذهب ٢٥٨/٤ وتاريخ آداب اللغة العربية ٤١/٣ والكنى والالقاب ٢١٠/١ ومقدمة محقق نزهة الالباء ج وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٨/٤ وابن الشجري ومنهجه في النحو ٣٠٧ وما بعدها .

وخصوصا الاول منهما اذ يجهد القفطي فيه ان يحصي مؤلفات المترجم فلا يبقي شيئا ما أمكن ذلك • فلماذا لم يذكر كتاب (الاضـــداد) لابي البركات الانبارى ؟ الراجح أن في المسألة وهما وقع فيه الصفدي ، وقد احتمل هذا الوهم وأشار اليه الدكتور ابراهيم السامرائي محقق كتاب (نزهة الالباء في طبقات الادباء) ، اذ قال معلقا على كتاب (الاضداد) الذى عده في مؤلفات أبي البركات : « ذكره الصفدى في الوافي ، وربما كان كتاب (الاضداد في اللغة) لمحمد بن القاسم بن محمد بن بشار الانباري وهو كتاب مطبوع »[٧٤] • الظاهر أنه كذلك ونحن نميل اليه ، اذ من الممكن أن يقع هذا اللبس بعد تشابه اللقبين واشتهار ابن الانباري بتأليفه كتاب (الاضداد) ، حتى اذا ترجم الصفدي لابي البركات الانباري سها وذكر له كتاب (الاضداد) لابي بكر بن الانباري •

يضاف الى ذلك اننا لا نعرف ابا البركات من المعنيين بالاضداد عناية واضحة ـ بما يمكن ان تقدمه مؤلفاته التي بين ايدينا من هذه المعرفة ـ فهو لم يبحث هذه الظاهرة في واحد من مصنفاته ولم يتعرض لها تعرضا يطمئننا الى عنايته بهذا الجانب من اللغة ، وكل ما حصلنا عليه مما يمكن ان يحسب على ملاك الاضداد نصان اثنان في كتابه (زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء) يقول في الاول : « الظَّنّ ضد اليَقين • قال الله تعالى : (ما لَهُم به مِنْ عِلم الا اتّباع الظَنّ) [٧٥] • وقد تكون بمعنى اليقين • قال الله تعالى : (وظَنّ داودُ أنَّما فَتَنّاه) •• »[٧٦] • ويقول في الثاني : « والمَظْلومَة : الأرض التي حُفِرت ، ولم تُحْفَر قَط •• وانشد :

---

(٧٤) مقدمة نزهة الالباء ص : هـ •
(٧٥) النساء ١٥٧ •
(٧٦) زينة الفضلاء ٧٩ •

الا أُواريّ لأْياً ما أُبَيّنُها
والنُّؤى كالحَوضِ بالمَظْلومَةِ الجَلَدِ »[٧٧]

وصحيح ان المادتين من مواد الاضداد التي ذكرتها وعالجتها كتب الاضداد ، الا ان هذا لا يعني نصرا للصفدي في نسبة كتاب في الاضداد اليه ، اذ بلغ بعد أبي البركات عن الاضداد أنه لم ينصّ حتى في هذين الموضعين أن المادتين من الاضداد ، كما لم يذكر من كتب الاضداد في كتابه (نزهة الالباء) سوى كتاب قطرب[٧٨] ، علما بانه ترجم لكل مؤلفي كتب الاضداد السابقين ، فلا يعقل انه ألف كتابا في الاضداد ولا يعرف من كتب الاضداد الا واحدا ، واذا كان يعرفها فلا أقل من أن يستحضرها في ذهنه عند الكلام على أحد مؤلفيها • فالنتيجة التي نريد أن نخلص اليها من هذا كله هي نفي أن يكون لابي البركات الانباري كتاب في (الاضداد) ، وانما نسبه اليه الصفدى سهوا نتيجة تشابه اسم ابي بكر بن الانباري في اللقب مع ابي البركات الانباري ، وهو أمر ممكن الوقوع في مثل هذه الحالة •

كتاب الصغّاني

المؤلف هو رضي الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن القرشي العدوى العمري[٧٩] ، ولد بمدينة (لاهور) سنة سبع وسبعين وخمسمائة أيام خسرو ملك الغزنوي ، ونشأ بغزنة ودخل بغداد سنة خمس عشرة وستمائة وذهب منها بالرياسة الشريفة ـ كما يقول

---

(٧٧) زينة الفضلاء ٨٨ •

(٧٨) نزهة الالباء ٦١ •

(٧٩) تراجع ترجمته في : فوات الوفيات ١ / ٢٦١ والجواهر المضيّة ١/٢٠٢ والنجوم الزاهرة ٢٦/٧ وتاريخ ثغر عدن ٥٤/٢ ولب اللباب ١٦٠ وبغية الوعاة ٢٢٧ وشذرات الذهب ٢٥٠/٥ وروضات الجنات ٩٤/٣ والكنى والالقاب ٣٧٨/٢ وتاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ والاعلام ٢٣٢/٢ ومجلة المجمع العلمي العربي المجلد ٣٩ الجزء ١ص٤٨ •

السيوطي – الى صاحب الهند فبقي مدة ، ثم عاد الى بغداد وسمع من النظام المرغيناني • ودرس في مكة على أبي الفلوح نصر بن أبي الفرج الحصري، وفي اليمن قرأ معالم السنن للخطّابي وكان يعجب بهذا الكتاب ومصنفه •

أخذ عنه الشريف الدمياطي الذى قال : « كان شيخنا صالحا صموتا عن فضول الكلام ، صدوقا في الحديث اماما في اللغة والفقه والحديث ، قرأت عليه وحضرت دفنه بداره بالحريم الظاهرى » • ولقب في مكة بالمتجي الى حرم الله تعالى ، وله تصانيف كثيرة منها : مجمع البحرين في اللغة ، التكملة والذيل والصلة ، الشوارد في اللغات ، توشيح الدريدية ، العباب ، فعال وفعلان ، اسماء الغادة ، الاضداد ، وغيرها • وكانت وفاته سنة خمسين وستمائة •

أما كتابه (الاضداد)[٨٠] فهو أشبه ما يكون بكتاب ابن الدهان من حيث الاختصار واطراح الشواهد والتعليقات، فقد ألفه الصغاني بعد الاطلاع على كتب الاضداد السابقة ، وأخذ ما رآه جديرا بالاخذ منها وترك ما نبا الطبع عنه لبعده عن حدّ الاضداد ، مشيرا في المقدمة الى الكتب المؤلفة في الرد على من قال بالاضداد وهي كتب المنكرين ، مصرحا أنه قد تحرّى الاختصار الذى لولاه لذكر جميع الشواهد الشعرية الخاصة بالاضداد ، يقول في هذه المقدمة القصيرة : « هذا كتاب جمعت فيه ما تفرّق في الكتب المصنفة في الاضداد من عهد قطرب محمد بن المستنير الى زمان امام أئمة الهدى وعلم التقى أبي جعفر المنصور المستنصر بالله ••• مرتبا على حروف المعجم بعد الاطلاع على الكتب المصنفة والفوائد المؤلفة في الردّ على من قال بالاضداد وما ينبو الطبع عنه لبعده عن حد الاضداد ، اقتفي فيه آثار من جمع فيها لئلا يخلو الكتاب مما ذكروه مع القدرة على اطراحه واحاطة العلم به ، فان القادر على اثبات شيء اقدر منه على الغائه فليمهد

(٨٠) حققه الدكتور اوغست هفنر ضمن (ثلاثة كتب في الأضداد) بيروت ١٩١٢ •

الناظر فيه العذر ان شاء ، مثل قولهم : البائِتَة وما عِنْدَه بائِتَةٌ لَيلَةٍ ، أي مَبيتُ لَيلَةٍ ، ولولا تحري الاختصار لذكرت شواهدها من الاشعار ... »[٨١] ، فاستفدنا من هذا الكلام ان قطربا أول من ألف في الاضداد فعلا ، ليس بسبب تقدم تاريخ وفاته وانما بنص الصغاني على ذلك ، وان الصغاني ألف كتابه هذا في خلافة المستنصر بالله أي بين سنتي ٦٢٣ — ٦٤٠ ، بمعنى انه ألفه في الربع الاخير من حياته اذ توفي سنة ٦٥٠هـ واستفدنا كذلك أنه وقف من الاضداد موقفا وسطا ليس فيه اندفاع للمكاثرة ولا مغالاة في الانكار ، وانما جمع ما صح عنده من كتب المؤيدين للفكرة واطرح ما لم يصحّ بعد اطلاعه على كتب الردّ على اولئك المؤيدين ، وضرب مثلا بلفظة (البائِتَة) التي تكلفوا فيها التضاد ، ولولا رغبته في الاختصار لذكر ما يجب ذكره من الشواهد .

ورتب الصغاني مواد كتابه على حروف المعجم ، على طريقة ابن الدهان بالرجوع الى الحرف الاول للمجرّد الذى تشتق منه اللفظة ، الا انه يختلف عن ابن الدهان في انه أخذ الاحرف الثواني والثوالث بنظر الاعتبار في هذا الترتيب بالوقت الذى أهملها ابن الدهان ، ففي باب الهمزة مثلا جعل الصغاني (الأَبْض) قبل (الأَبْل)[٨٢] ، و (الأَزْر) قبل (أَسِدَ)[٨٣] ، ملاحظة للحرف الثاني والثالث ، وهو بهذه الدقة يتلافى ما أغفله ابن الدهان ، لانه تمرّس بالعمل المعجمي في (التكملة) و (مجمع البحرين) و (العباب) وغيرها من معجماته اللغوية . ولكنه لم يتلاف بعثرة الكلمات واختلاط الاسم والفعل والحرف ، بل جعلها متداخلة شأن كل كتب الاضداد ، مكتفيا بترتيبها جميعا على حروف المعجم فقط فمثلا نجد (البِطانَة) و (بَعْد) و (بَعْض) و (بَعْل) مسلسلة هكذا في باب

(٨١) الصغاني ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٨٢) الصغاني ٢٢٢ .
(٨٣) نفسه ٢٢٣ .

الباء حتى يصل الى (بِعْتُ) و (البَيْن)[٨٤] . أما ما عدا ذلك فهو يكتفي ــ كابن الدهان ــ بذكر اللفظة متبعاً اياها بمعنييها المتضادين دون اضافة أي شيء آخر ، كقوله : « الجَوْن : الأسْود والأبْيض »[٨٥] . و « الاخْفاء : الاظْهار والكِتمان »[٨٦] .

أما المواضع التي نقل فيها الزبيدي في التاج آراء الصغاني في الاضداد وتعليقاته على هذه الالفاظ ، فليست عن كتاب (الاضداد) كما يبدو لاول وهلة لان الكتاب كما قلنا ليس فيه أكثر من ذكر اللفظة ومعنييها المتضادين، وانما نقل الزبيدي ذلك عن معجمه (التكملة والذيل والصّلة) ، ففي (أَفِدَ) ذكر الزبيدي المعنيين المتضادين أسْرَعَ وأبْطأَ وقال : « قال الصغاني : وكأنه من الاضداد »[٨٧] . وقول الصغاني بنصه مع ذكر المعنيين المتضادين ومشتقاتهما في التكملة في الكلام على المادّة نفسها[٨٨] . وكذلك في مادة (قَعَد) ، فقد ذكر الزبيدي انها بمعنى قام وجلس واستشهد لكلا المعنيين وذكر مشتقاتهما الاخرى وقال : « فهو ضدّ ، صرّح به ابن القطّاع في كتابه ، والصاغاني وغيره »[٨٩] . والمادة وجميع الشواهد التي ساقها الزبيدي فيها والمعاني المختلفة التي تتفرع عن مشتقاتها والتصريح بضدّيتها ، كل ذلك في التكملة أيضا[٩٠] . وعلى هذا فالصغاني قد اختصر في كتابه (الاضداد) ما وسعه وأفاض فيه وشرحه في معجمه (التكملة) ، وكأنه لم يرد أن يكرر كلاما قاله قبل تأليف أضداده في كتاب موسع كالتكملة .

---

(٨٤) الصغاني ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .
(٨٥) نفسه ٢٢٧ .
(٨٦) نفسه ٢٢٨ .
(٨٧) تاج العروس ٧/٣٩٠ .
(٨٨) التكملة والذيل والصّلة ٢/١٩١ .
(٨٩) تاج العروس ٩/٤٨ .
(٩٠) التكملة والذيل والصلة ٢/٣٢١ .

فمثلا مادة (السّاجِد) لم يزد في الاضداد على ذكر : المنحني والمنتصب[٩١] ، دون أن يشير الى أن احد المعنيين هو لغة قبيلة ، في حين أنه في التكملة قد أشار الى ذلك ، فبعد أن تكلم على هذه المادة واستشهد لمعانيها وذكر النخلة الساجدة وهي التي امالها حملها ، وذكر قوله تعالى : (وادْخُلوا البابَ سُجّدا)[٩٢] أي رُكّعا ، حتى قال : « السّاجِدُ : المنتصب في لُغَة طيء ، وهو من الاضداد »[٩٣] . ومثل ذلك مادة (المُعَبَّد) التي قال في الاضداد : البعير المُذَلَّل والمُكرم[٩٤] ، غير أنه أسهب في التكملة في الكلام على هذه المادة فذكر معنييها واستشهد لكل واحد منهما بالشعر والأمثال ونصّ في آخر هذا الحديث الطويل على أن اللفظة من الاضداد[٩٥] . وشبيه بهاتين المادتين كثير من المواد التي يجدها الدارس مفصلة مستشهدا عليها بالشعر والقرآن والحديث والامثال عند رجوعه الى (التكملة) في حين هي بهذا الايجاز غير النافع في (الاضداد).

وفي الكتاب شيء لافت للنظر ، فبعد أن التزم الصغاني أن يعرّي كتابه من الاستشهاد والتفسير والتعليق وذكر الرواة والعلماء ، نجد أنه ذكر ابن الاعرابي في مادتين والاصمعي في مادة واحدة ، قال : « ابن الاعرابي : الزَّعَميّ : الكاذب والصادق »[٩٦] . وقال : « ابن الاعرابي : الوَرَقَةُ الكريم من الرجال والخَسيس منهم »[٩٧] . وقال : « ثَوْبٌ يَدِيٌّ للواسع وللضيّق ، عن الاصمعي »[٩٨] فلماذا فعل ذلك ، وهو

(٩١) الصغاني ٢٣٢ .
(٩٢) البقرة ٥٨ .
(٩٣) التكملة والذيل والصلة ٢/٢٤٧ .
(٩٤) الصغاني ٢٣٨ .
(٩٥) التكملة والذيل والصلة ٢/٢٧٨ .
(٩٦) الصغاني ٢٣١ .
(٩٧) نفسه ٢٤٧ .
(٩٨) نفسه ٢٤٨ .

لم يسمع من ابن الاعرابي ، ولا الاصمعي ، فاذا كان قد نقل هذه المواد عمن سمع ابن الاعرابي او الاصمعي فلماذا لم ينص في المواد الأخرى على مصدرها الذى رواها اول مرة ، كأن يذكر قطربا والفراء وابا عبيدة وثعلبا وغيرهم ممن ملأت اسماؤهم كتب الاضداد التي اطلع عليها الصغاني ونقل عنها ، خصوصا كتاب ابي بكر بن الانباري الذى نص الصغاني في آخر كتابه على الرجوع اليه واقتفاء اثره اذ يقول : « آخر كتاب الاضداد ولله الحمد والمنة ، وفيه كلمات ليست هي عندي من الاضداد ، ولكني قفوت فيها آثار من سبقني الى جمعها مثل ابن الانباري وغيره ، حذار ان يقال اهمل شيئا مما اثبتوه »(٩٩) • فاذا كان الامر كذلك فلماذا لم ينقل عن ابن الاعرابي في سائر الفاظه التي ذكرها له ابن الانباري واكتفى بذكره في لفظتين ، وكذلك الاصمعي • فالذى يبدو أن هذا الامر حدث بأحد سببين الاول أن يكون سبق قلم من الصغاني نفسه ، اذ نسى في هـذه الالفاظ الثلاث أنه لا يذكر علما وسها عن هذا الالتزام • والثاني أن يكون من فعل الناسخ ، بأن أضاف من عنده هذه الاشياء ، وكثيرا ما يحدث مثل هذه الاضافات من النساخ في المخطوطات القديمة • واني أنسب الى فعل الناسخ أيضا تكرار مادة (الطّاعِم الكاسِي) في هذا الكتاب ، فقد ذكرت في مكانين منه(١٠٠) •

أما المذهب المدرسي فلا يمكن أن يكون واضحا في مثل هذا الكتاب المعرّى من المصادر والشواهد والرواة ، كما أن مقدمته لا تشعر بأكثر من كونه وسطا في نظرته للاضداد ، الا أنه الى طبيعة المدرسة البصرية أقرب باشارته مثلا الى أنه أفاد من كتب المنكرين في اطراح كثير من الاضداد ، وهي الكتب التي عبر عنها أنها ردّت على القائلين بالاضداد • يؤيد ذلك

(٩٩) الصغاني ٢٤٨ •

(١٠٠) الصغاني ٢٣٧ ، ٢٤٣ •

أنه ذكر في آخر كتابه أنه جمع فيه ألفاظا قفا فيها ابن الانبارى ولكنها ليست عنده من الاضداد • عدا هذا الاختصار الذى يوحي بالنفور من رواية الشعر ونقل لغة العرب واستعمالاتهم ، التي كان الاهتمام بها والاكثار منها من خصائص كتب الكوفيين في الاضداد ، وعكس ذلك من خصائص كتب البصريين • ومع ذلك فلا يمكن ان نتكلف هذه الحقيقة تكلفا ، لانه حتى لو كان الكتاب حاويا جميع هذه الامور التي اعتبرناها من خصائص المنهج الكوفي ، فان هذه المدرسيّة التي نبحث عنها غير واضحة في مصنفات عصر الصنعاني وضوحها في مصنفات السابقين ، لان العهد قد قدم بالصغاني المتوفى سنة ٦٥٠هـ ، وضعفت الملامح في زمانه ، ولم يعد الطابع المدرسي يصبغ مصنفات اللغويين كما كان ابان الصراع المدرسي في القرن الثاني والثالث والرابع •

وكنا نتوقع ألا نجد كثيرا من الالفاظ التي احتواها الكتاب لبعدها عن الاضداد ، ولان الصنعاني اطرح « ما ينبو الطبع عنه لبعده عن حد الاضداد »[١] غير أننا عثرنا على جملة من هذه ، كقولـه : « انْ قامَ عبدُالله أي ما قامَ وقَدْ قام »[٢] والتكلف في هذا واضح لان (انْ) هذه مرة تأتي نافية ومرة مخففة من الثقيلة ، والاستعمال كفيل بصرفها الى أحد السياقين • ومثلها : « يَقُوم هذا أَوْ هذا ، على الشك وعلى العطف ، أي وهذا »[٣] • ونقل عن السابقين « بَرَّد : اذا بَرَّد واذا أسْخَنَ »[٤] • ومرّ علينا أن شاهدهم الوحيد على المعنى الثاني قول الشاعر (بَر دِيه) وتنبّه ثعلب الى أنه ادغام والاصل (بَلْ رِدِيه)

(١) الصغاني ٢٢٢ •

(٢) نفسه ٢٢٣ •

(٣) نفسه ٢٢٣ •

(٤) نفسه ٢٢٤ •

ونقل هذا التنبّه ابن الانباري[٥] ، وصاحبنا الصغاني مطّلع على كتاب ابن الانباري باعترافه • وقال : «يقال في زَجْرِ الغَنَم وطَردها حاءِ حاىِ وحاءٍ حايِ وحاءِ حاءٍ وفي دعائها »[٦]، وهي أصوات تصدر عن الراعي لا معنى لها ، يستخدمها في رعيه الغنم وتوجيهها ، ولا معنى لتضاد هـذه الاصوات المبهمة • وقال : « سُمْتُه بعيري اذا عرضته ليشتريه ، وسُمْتُه بعيره اذا أَرَدْتُ اشْتِراءه منه »[٧] ، وواضح أنه لولا ذكر بعيرى أو بعيره بعد الفعل لما انصرف هذا الانصراف المتضاد ، اذ لا يحمل الفعل اكثر من معنى التقديم والعرض ، وانما كان هذا الاختلاف من سياق الكلام الذى يوجّه معنى الفعل • وقال : « الصَّلاة : مسجد المسلمين وكنيسة اليهود »[٨] ، وغريب أن يغفل وهو اللغوى المطلّع عن أن معنى الصلاة في اللغة هو الدعاء ، وفي مسجد المسلمين دعاء وفي كنيسة اليهود دعاء • وقال : « لَمْ أضْرِبْ عبدَالله ولَمْ يَضْرِبْني زَيْد : يكون جَحْـداً واثْباتاً ، أي لم أضْرِبْ عَبدالله حتّى ضَرَبني زيدٌ ، فوقع ضربي بعبدالله لما وقع بي ضَربُ زيد »[٩] ، أبعد هذا الكلام ولا ينبو الطبع عنه لبعده عن حدّ الاضداد ؟ فليس من المستساغ أن يكون مثل هـذا من الاضداد ، فالدراسة اللغوية بعيدة عن هذه الصنعة الفلسفية المتكلفة ، التي تحتاج الى اعادة قراءة العبارة ليتوصل الى موطن التضاد فيها • وكل هذا الذى ذكرناه هو عدا الالفاظ التي يفسّر تضادها بالتصريف مثـل : أطْلَبَه[١٠] ، المُتَظَلِّم[١١] ، الغَريم[١٢] ، والتي على صيغة (فَعول)

---

(٥) ابن الانباري ٦٤ •

(٦) الصغاني ٢٢٨ •

(٧) نفسه ٢٣٣ •

(٨) نفسه ٢٣٦ •

(٩) الصغاني ٢٣٦ • (١٠) نفسه ٢٣٧ •

(١١) نفسه ٢٣٨ • (١٢) نفسه ٢٤٠ •

المنصرفة الى الفاعل والمفعول مثل : الذّعور[١٣] ، الرّكوب[١٤] ، زَعوم[١٥] ، والتي على صيغة (فاعِل) المنصرفة للفاعل والمفعول مثل : البائِتة[١٦] ، الحازِم[١٧] ، الحالِقة[١٨] ، ومن الألفاظ ما يفسّر بشمولية المدلول الاول مثل : الصّارِخ[١٩] ، الصّريم[٢٠] ، ومنها ما يفسر بانتقال مجال الدلالة مثل : الظّعينَة[٢١] ، عَزَرتُه[٢٢] ، الكأس[٢٣] ، ومنها ما يفسر باختلاف اللهجات مثل : السّاجِد[٢٤] ، السُّدْفة[٢٥] ، المُعْصِر[٢٦] . وغير ذلك من الالفاظ التي كان من الطبيعي استبعادها عن الكتاب .

وقد استدرك السيد نورالدين الجزائرى (ت ١١٥٨ هـ) في كتابه (فروق اللغات) كثيرا من ألفاظ الاضداد على كتاب (الاضداد) للصغاني، فقد عقد فصلا في كتابه بدأه بقوله : « فصل في الاضداد ، ذكرها أبو الحسن الصغاني ولكنه أهمل منها كثيرا ، ونحن نذكر ما ذكر وأهمل على ترتيب حروف التهجّي »[٢٧] ، وينهج نهج الصغاني في عدم الاستشهاد

(١٣) نفسه ٢٣٠ .
(١٤) نفسه ٢٣١ .
(١٥) نفسه ٢٣١ .
(١٦) نفسه ٢٢٤ .
(١٧) نفسه ٢٢٧ .
(١٨) نفسه ٢٢٨ .
(١٩) نفسه ٢٣٥ .
(٢٠) نفسه ٢٣٥ .
(٢١) نفسه ٢٣٧ .
(٢٢) نفسه ٢٣٩ .
(٢٣) نفسه ٢٤٣ .
(٢٤) نفسه ٢٣٢ .
(٢٥) نفسه ٢٣٢ .
(٢٦) نفسه ٢٣٩ .
(٢٧) فروق اللغات ١٩٠ ـ ١٩١ .

والتعليق ، والظاهر أنه استعان بكتاب ابن الانباري في هذه المهمة ، لان أكثر الالفاظ التي استدركها على الصغاني هي في كتاب ابن الانباري وبعضها من التي تفردّ بها ابن الانباري • ومع ذلك فليس استدراك الجزائرى مما يزيد من قيمة كتاب الصغاني ، اذ يبقى كتابا تعليميا مختصرا لا يقدّم مادة جديدة ولا يوضح معالم تاريخية من حياة اللغة ، ولا يبتكر اسلوبا في بحث الاضداد لم يسبق اليه ، وربما كان الذوق السائد في تلك الفترة يميل الى مثل هذه المختصرات التعليمية ، والعرف قد جرى على التأليف في علوم العربية وفنون اللغة على هذه الشاكلة ، فكان كتاب الصغاني صدى لذلك كما كان كتاب ابن الدهّان من قبله •

كتاب العتائقي

المؤلف هو كمال‌الدين عبدالرحمن بن محمد بن ابراهيم العتائقي[(٢٨)] ، من علماء الحلة ولد فيها وتعلم ، كان يعاصر الشيخ الشهيد وبعض تلاميذ العلامة الحلي • مال في تصنيفه ودرسه الى الفلسفة والتاريخ والتصوف • سافر الى فارس وأقام في أصفهان مدة عشرين سنة ، عاد بعدها الى النجف ، والعتائق من قرى الحلة واليها نسب • له مصنفات كثيرة بعضها ما يزال موجودا في خزائن المخطوطات في النجف ، يقول القمي في الكنى والالقاب : « رأيت جملة منها في الخزانة المباركة الغروية ، ولعلّ بعضها كانت بخطه » • من مصنفاته : الاعمار ، التصريح في شرح التلويح ، الشهدة في شرح معرّب الزبدة ، شرح ديوان المتنبي ، شرح صفوة المعارف ، الاضداد ، شرح نهج البلاغة الذي اختاره من أربعة شروح هي شرح ابن ميثم وشرح قطب كيدرى ، وشرح القاضي عبدالجبار

---

(٢٨) تراجع ترجمته في : الذريعة ٢/٢١٤ والكنى والألقاب ١/٣٤٢ والفوائد الرضوية ١/٢٢٧ ومعجم المؤلفين ٥/١٦٧ والاعلام ٤/١٠٦، وذكر الزركلي : سفينة البحار ٢/١٥٧ ومجلة العرفان ١١/٣٧٩ •

وشرح ابن أبي الحديد وغيرها . وذهب الزركلي في الاعلام الى أن سنة تسعين وسبعمائة هي تاريخ وفاته ، دون أن يؤيد ذلك مصدر قديم ، ولعل هذا التاريخ صحيح ، لاننا نعرف أنه فرغ من كتابه (شرح نهج البلاغة) سنة ثمانين وسبعمائة ، ومن كتابه (الشهدة في شرح معرّب الزبدة) سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

أما كتابه (الاضداد) فمفقود ، والذريعة هو المصدر الوحيد الذى ذكر الكتاب ، اذ قال الشيخ آغا بزرك الطهراني : « الاضداد في اللغة للشيخ كمال‌الدين عبدالرحمن بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن يوسف المعروف بابن العتايقي الحلي الذى فرغ من الشهدة في شرح معرّب الزبدة سنة ٧٨٨ قاله في الرياض . ثم احتمل اتحاده مع كتابه الاعمار الذى نسبه اليه الكفعمي في حواشي البلد الامين »[٢٩] ولا نملك في ما عدا هذا أية اشارة للكتاب او نقل عنه او ذكر لمادته نستطيع بوساطته تبين الكتاب ومنهجه في دراسة الاضداد ، ولعله على غرار كتابي ابن الدهان والصغاني ، ولولا نص الشيخ الطهراني على انه (الاضداد في اللغة) لاحتملنا ان يكون كتابا في الاضداد المنطقية ، التي بحثها المناطقة في كتبهم ، والعتايقي من المعنيين بدراسة الفلسفة ومن المصنفين فيها كما ذكرنا في ترجمته ، الا اننا استبعدنا هذا الاحتمال للنص على أنه في اللغة ، ومهما يكن فهو كتاب متأخر بالنسبة لكتب هذا الميدان .

كتاب المدني

المؤلف هو شمس‌الدين محمد بن أحمد بن شرف‌الدين المدني الشافعي[٣٠] ، من العلماء الفضلاء ، له من الكتب : عمدة الادباء لدفع الطاعون والوباء ، الاضداد وغيرهما توفي بعد سنة أربع وتسعمائة هجرية .

---

(٢٩) الذريعة الى تصانيف الشيعة ٢/٢١٤ .

(٣٠) تراجع ترجمته في : معجم المؤلفين ٨/٢٦٩ وهدية العارفين ٢/٢٢٢ ومجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ (١٧٩٢م) .

أما كتابه (الاضداد) فمخطوط بمكتبة السليمانية بالاستانة رقمه (١٠٤١) لغة ، ولم نوفق في الحصول على صورة بالمايكروفلم عنه ، لصعوبة عملية امتلاك مثل هذه الصورة بسبب تشدد نظام المكتبة التركية بمسألة التصوير والابراد • وهو على كل حال كتاب يبعد أن نجد فيه ما يستحق كبير اهتمام ، لتأخره زمنا من جهة ، ولعدم معرفتنا بحقيقة مؤلفه العلمية من جهة اخرى •

كتابا التميمي وابنه ملا حسن

الاول هو تقي‌الدين عبدالقادر التميمي المصري الحنفي[٣١] ، نحوي معروف في زمانه ، ولي القضاء مدة ، له من الآثار : حاشية على ألفية ابن مالك في النحو ، الاضداد ، وغيرهما ، توفي سنة خمس وألف هجرية •

والثاني هو ملاّ حسن بن تقي‌الدين عبدالقادر التميمي المصري[٣٢]، له من الآثار : الاضداد • وتاريخ وفاته مجهول •

أما كتاب (الاضداد) للتميمي فهو (مختصر كتاب الاضداد لابن الانباري) ، وليست لدينا اية فكرة عن طبيعة هذا الاختصار ، هل كان مقصورا على الشواهد والامثلة ، أم على التعليقات الكثيرة والاستطرادات المتشعبة ، أم أنه شمل مواد الكتاب فحذف منها أشياء لم ير ضرورة لذكرها في الاضداد ؟ لا يمكن البت بذلك ما دام الكتاب مفقودا ، الا أن من المختصرات ما هو مفيد ينم عن معرفة واطلاع لما فيه من حذف الزائد المحشو واطراح المشكوك فيه واضافة اشياء قليلة جديرة بالاضافة ، واستدراك مهم على متن الكتاب الاصلي ، حتى يغدو الواحد منها كتابا

---

(٣١) تراجع ترجمته في : كشف الظنون ١/١١٦ وهدية العارفين ١/٥٩٩ ومعجم المؤلفين ٥/٢٨٥ •

(٣٢) تراجع ترجمته في : كشف الظنون ١/١١٦ ومجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ •

جليل القدر لا يقل أهمية عمّا لو ألّف في نفس الموضوع ، ومن أمثلة هذا النوع من المختصرات (مختصر العين) للزبيدي الذى يعتبر الآن من الكتب اللّغوية المهمة على أنه اختصار لعين الخليل •

وأما كتاب (الاضداد) لملاّ حسن بن عبدالقادر التميمي فهو في الحقيقة ليس تأليفاً ولا اختصاراً ، وانما ترتيبٌ للمختصر السابق على حروف الهجاء ، لان الظاهر أن التميمي اختصر كتاب ابن الانباري على ترتيبه الاصلي الذى لم يلتزم فيه ابن الانباري أن يكون على حروف المعجم ، فجاء ملاّ حسن فرتبه على الحروف ، فكأن الأب والابن قد تعاونا على المختصر ، فبعد أن وضعه الأب رتّبه الابن • وليس في عمل الولد ما يدل على علم او معرفة ، لان ما قام به يعتبر عملا الى الفهرسة أقرب من كونه عملا علميا يقوم على الدرس أو اختصارا يعتمد جودة الانتقاء ودقة الاطراح • وهذا المرتب هو الآخر مفقود ، الا أنه يظهر من ذكر حاجي خليفة له أنه رآه ، لانه يقول : وأول هذا المرتب : حمدا لمن بحكمته الباهرة ••• الخ[٣٣] • وخلاصة القول في الكتابين ـ الذين يجب أن يعدّا كتابا واحدا ـ أنهما لم يأتيا بجديد في موضوع الاضداد لا من حيث المادة ولا من حيث المنهج •

كتابا الابياري وكتاب الخليجي

المؤلف الاول هو الشيخ عبدالهادي نجا بن رضوان نجا المصري الأبيارى الشافعي الأزهري[٣٤] ، ولد في أبيار من اعمال الغربية بمصر سنة ١٨٢١م ، ونشأ في حجر أبيه وأخذ عنه مبادىء العلوم ، ثم جاور

---

(٣٣) كشف الظنون ١/١١٦ •

(٣٤) تراجع ترجمته في : معجم المطبوعات العربية ٣٥٨ ومعجم المؤلفين ٦/٢٠٣ وتاريخ آداب اللغة العربية ٤/٢٢٦ وايضاح المكنون ١/١٦١ والاعلام ٤/٣٢٢ وفهرس دار الكتب المصرية ٧/٧ •

في الأزهر وجدّ في طلب العلوم الاسلامية واللغوية فادرك منها شأوا بعيدا ، وتحدث القوم بعلمه وفضله ، وكان قد سمع على الشيخ البيجوري والدمنهوري وغيرهما • فاستدعاه الخديوى اسماعيل لتعليم ابنائه ومن جملتهم توفيق باشا • وجعله الخديوى اماما للمعية ومفتيها وما زال في هذا المنصب حتى توفي ، وقام بما عهد اليه خير قيام مع مواظبته على التدريس في الجامع الازهر • أخذ عنه رجال اشتهروا بالعلم والفضل منهم الشيخ حسن الطويل وغيره • وكان الأبياري شاعرا اضافة الى كونه اديبا ولغويا ثقة يرجع اليه في حلّ المشكلات، وله مراسلات مع معاصريه من الشعراء والادباء في سائر العالم العربي كالشيخ أحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ ابراهيم الأحدب وغيرهم • له كتب كثيرة في مختلف الفنون ، منها : سحر العيون ، الكلام على الصوفية ، العرائس الواضحة الغرر ، ترويح النفوس على حواشي القاموس ، صحيح المعاني في شرح منظومة البلياني ، وكتابان في الاضداد ، وغيرها • توفي سنة خمس وثلاثمائة وألف هجرية •

والمؤلف الثاني هو الشيخ شهابالدين أحمد بن أحمد بن اسماعيل الحلواني الخليجي الشافعي المصري[٣٥] ، والخليجي نسبة الى رأس الخليج قرب دمياط ، من العلماء المعروفين والادباء المشهورين ، شاعر لغوي ، له من المؤلفات : الاشارة الآصفية في البلاغة ، فصل القضيّة ، شذا العطر في زكاة الفطر في الفقه الشافعي ، صفوة البشرى في الاسرى ، الاضداد ، وغيرها كثير • توفي يوم عرفة سنة ثمان وثلاثمائة وألف هجرية •

---

(٣٥) تراجع ترجمته في : معجم المطبوعات العربية ٧٩١ ومعجم المؤلفين ١/١٤٦ وهدية العارفين ١/١٩٢ وايضاح المكنون ١/٨٤ وفهرس دار الكتب المصرية ٧/١٢ وفهرس المخطوطات المصورة ١/٣٦٤ •

أما أوّل كتابَيْ الأبياري فهو المسمّى (دورق الأنداد في أسماء الاضداد) مصور بدار الكتب المصرية ضمن مجموع رقمه (٨٤٤) لغة ٠ والكتاب عبارة عن منظومة شعرية ضمّنها الابيارى - الذى انتهى من وضعها سنة ١٢٩٧هـ تقريبا - ما استطاع من ألفاظ الاضداد وذلك على ما يبدو تسهيلا لحفظها شأن القصائد والاراجيز التي تنظم مضمنة علوما ومعارف مختلفة كالفقه والنحو والبلاغة وغير ذلك مما تدعوه بالشعر التعليمي ، واقرب مثال الى ذلك ألفية ابن مالك التي ضمّنها قواعد النحو والصرف ، وأول منظومة الابيارى قوله :

قالَ ابنُ رَضْوانَ الابْيـاريُّ مُلْتَمِساً
من رَبّه العَفْوَ مَعْ حُسْنِ الرّضا كَرَما[٣٦]

ومحاولته هذه أوّل المحاولات من نوعها في الدراسات الاضدادية ، اذ لم يسبق الى نظم الفاظ الاضداد ، وربما كان دافعه اليها مع نزعته التعليمية هو رغبته أن يكون له جديد في مضمار بحوث الاضداد ، ان لم يكن هذا الجديد في المضمون فلا أقل من ان يكون في الشكل ٠ اضافة لما صرّح به في ابياتها من أن هذه الالفاظ تعين الاديب على تأنيق كلامه وتزويق لفظه بما يمكن استخدامه منها في التجنيس والتورية ، اذ يقول :

أَسْماءُ الأَضداد أسْمى ما يُعينُ أَديـ
ـباً رامَ تَأنيقَ أو تَرنيقَ ما نَظَمـا
بهـا يُحَلـى بتَجْنيسٍ وتَوريَـة
نَظْماً ونَثْراً ، ويُجْلي الهَمَّ والغُمَما

أما كتابه الآخر فيالاضداد فهو (الرونق على الدورق) شرح فيه منظومته السابقة (دورق الانداد في أسماء الاضداد) وهذا الكتاب

---

(٣٦) فهرس دار الكتب المصرية ٧/٧ ٠

عقود[٣٧] . والظاهر أن المنظومة كانت صعبة الاسلوب متداخلة الالفاظ . اذ لا يخفى أن طبيعة الشعر وموازينه تفرض لغة خاصة يتكلفها الناظم خصوصا في مثل هذه المواضيع العلمية ، لذلك نجد أن المنظومات التعليمية غالبا ما تتكاثر شروحها من قبل الدارسين توضيحا لغموضها وافاضة في مادتها لتكون الفائدة منها أعمّ للدارسين المتتبعين ، ونعود الى مثالنا السابق لندلّ الى كثرة شروح ألفية ابن مالك ، وفي هذه المرة يكون الناظم هو أوّل الشارحين ، ونحن نفترض في هذا الشرح أن يكون مملوءا بالشواهد والأمثلة والتعليقات ونقل آراء الأضداديين وما الى ذلك مما يتطلبه كتاب قائم على شرح وتفصيل ما أوجزته منظومة ليس فيها اكثر من ألفاظ الاضداد مجردة من كل شيء .

وأما كتاب الخليجي في الاضداد المسمى (الكأس المروّق على الدورق في الاضداد) المحفوظه صورته في دار الكتب المصرية ضمن المجموع السابق وبالرقم نفسه ، فهو الآخر شرح لمنظومة الابيارى نفسها (دورق الانداد) وقد فرغ من كتابة مسودته المحفوظة في الدار سنة ١٣٠٢هـ ، وعلى هامشها تقييدات كثيرة للمؤلف وهي في ٢٣٦ لوحة ذات شطرين في حجم الربع وبها طيارات كثيرة ، أول الكتاب : الحمد لله المنزّه عن الضد ... الخ[٣٨] .

ويبدو من عدد لوحات المخطوطة أنه كتاب ضخم ، فيه شرح موسع للالفاظ وتعليق كثير واستشهاد مستوعب ومحاولات لتفسير التضاد ، ونعتقد أنه برغم تأخره في الزمن ومعاصرته وافتقاره الاكيد للدراسات اللغوية الحديثة في المدلول والاصوات واللهجات ، لا يخلو من فوائد كثيرة

---

(٣٧) مجلة اللسان العربي ١٠٥/٩ .

(٣٨) فهرس دار الكتب المصرية ١٢/٧ وينظر فهرس المخطوطات المصورة ٣٦٤/١ .

ومعلومات طريفة . وحاولنا محاولات جادّة عديدة في الحصول على صورة منه للوقوف عليه وقوفا كاملا ، الا اننا لم نوفق الى ذلك ، وكان معهد المخطوطات يخبر باضطراب التنسيق بينه وبين دار الكتب في مجال تصوير المخطوطات .

كتاب التنكابني

المؤلف هو الميرزا محمد بن سليمان بن محمد رفيع بن عبدالمطلب التنكابني[39] ، وكان يلقب بالشيّعي ، من الوعاظ والمفسرين ، فقيه أصولي معروف ، مشارك في بعض العلوم . له مؤلفات كثيرة ، منها : قصص العلماء ، موارد الاصول ، أسرار المصائب في وقائع أهل البيت ، توشيح التفسير ، بدائع الاحكام في شرح شرائع الاسلام ، الاضداد ، وغيرها . توفي قبل سنة عشرين وثلاثمائة وألف هجرية .

أما كتابه (الاضداد) فالذريعة مرة أخرى هو المصدر الوحيد الذى ذكره ، نقلا عن ذكر المؤلف له في أحد كتبه ، يقول الطهراني : « الاضداد لميرزا محمد بن سليمان التنكابني المعاصر ، المتوفى قبل سنة ١٣٢٠هـ ، عدّه من تصانيفه في كتابه قصص العلماء »[40] . والكتاب مفقود ، وبالرغم من معاصرة الشيخ آغا بزرك الطهراني لمؤلفه وعنايته الفائقة بالمخطوطات واطلاعه على خزائنها ومكتباتها ، فانه لم ير الكتاب ولم يقع في يده ، لاننا نستشعر من كلام الطهراني أنه علم بالكتاب بعد أن وجد ذكره على لسان مؤلفه في كتابه (قصص العلماء) ، اذ لولا اشارة المؤلف هذه لما أمكن معرفته أو العثور عليه . وليست لدينا الآن اية فكرة عن الكتاب حجمه ومنهجه وطريقة تناوله الاضداد واسلوب معالجته للمشكلة وما الى ذلك ،

---

(٣٩) تراجع ترجمته في : هدية العارفين ٢/٣٩٢ والذريعة ٢/٢١٤ وايضاح المكنون ١/١٦ ومعجم المؤلفين ١٠/٥٤ .

(٤٠) الذريعة ٢/٢١٤ .

على حين يوحي تأخره الزمني ـ لحاظا لتاريخ وفاة المؤلف ـ أنه ليس ذا قيمة كبيرة ، اذ لابد أن يكون قائما على التقليد والمحاكاة لكتب الاضداد القديمة .

كتابان لمجهولين

الكتاب الاول لعبدالله بن محمد وهو مجهول الحياة والوفاة ، والكتاب حديث كما يبدو من نسخته الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقمها (٢٤١) مجاميع باسم (رسالة في بعض الالفاظ المستعملة في الضدّين الموجودة في القاموس)[٤١] ، ومن هذا العنوان الطويل للكتاب يتبين عمل المؤلف فيه ، اذ هو جمع لبعض ألفاظ الاضداد التي نصّ على ضديتها الفيروزابادى في (القاموس المحيط) ، او بعبارة اوضح فهرسة لاضداد القاموس ، وليس في هذا ما يدعو لاعجاب أو اهتمام ، فليس في ذلك من الجهد سوى النسخ ، وقد مرّ في دراستنا لكتابي ابن قتيبة والثعالبي المزعومين ما هو شبيه بذلك ، ولم نسمّ ناقل فصليهما مؤلفا في الاضداد ، وانما سميناه ناسخا . وعلى كل فلابد أن يكون الكتاب على شكل كتابي ابن الدهان والصغاني من حيث الاختصار والترتيب .

أما الكتاب الثاني فمجهول اسم المؤلف ولكنه حديث ايضا ، ونسخته الخطية محفوظة مع الاول بدار الكتب المصرية رقمها **٣٢٩** لغة ، باسم (منبّه الرقاد في ذكر جملة من الاضداد)[٤٢] . ولعله لمؤلف الكتاب السابق لتشابه العمل في الكتابين كما يظهر من العنوان ، اذ لا يتعدى العمل في هذا الكتاب أن يكون جمعا لجملة من ألفاظ الاضداد ، قد تكون مرتبة على حروف المعجم وقد لا تكون ، ولكنها على طريقة ابن الدهان والصغاني . وهذا الكتاب هو الآخر لا ينمّ عن باع كبير أو ذهنية علمية بقدر ما ينم

(٤١) مجلة اللسان العربي ٩/١٠٥ .
(٤٢) المرجع نفسه والصفحة .

عن الرغبة في المشاركة كيفما تكون وعلى أي صورة ، فما قيمة أن يأتي من يجمع ألفاظ الاضداد ويحصيها ويبوبها بعد أن قام السلف الدؤوب المتتبع بهذه المهمة قبله بقرون عدة ، وانما القيمة في الدراسة القائمة على الرأي والمناقشة وتفنيد وجهات النظر الخاطئة وكشف الحقائق الغامضة وغير ذلك مما يتطلبه الدرس الحديث المستفيد من جهود الاقدمين في هذا الباب •

كتاب (أضداد آي القرآن)

نشرت مجلة المورد مقالا بعنوان (ذخائر التراث العربي في مكتبة جستر بيتي ــ دبلن)[٤٣] ، ترجم فيه كاتبه ما اختاره من أسماء المخطوطات العربية التي احتواها الفهرس الذى وضعه الدكتور آربرى باللغة الانكليزية لمحتويات المكتبة •متنقلا في اختياره بين كتب الفقه والتاريخ والتفسير واللغة ، ومن جملة ما ذكره من مجاميع اللغة ، مجموع من القرن السابع الهجرى رقمه (٣١٦٥) فيه أربعة كتب قرآنية لغوية ، رابعها (أضداد آي القرآن) لمؤلف مجهول ونسخته فريدة[٤٤] • وبحكم قدم الكتاب وطرافة موضوعه وارتباطه بدراسة هذه الرسالة ، أرسلت أطلب من مكتبة جستر بيتي تصويره لي ، وفي اثناء ذلك قمت بجرد كل ما تيسّر من كتب التراجم والطبقات وفهارس الكتب القديمة والحديثة محاولة للعثور على ذكر للكتاب يكشف لنا عن مؤلفه المجهول ، ولكنني لم أجد في كل ما رجعت اليه ذكرا له • حتى اذا وصل الكتاب ظهر أنه ليس (أضداد آي القرآن) كما ذكر مترجم الفهرس ، وانما هو كتاب (عدد آي القرآن) مجهول اسم المؤلف فعلا ، وأرجح أن يكون لابي عبيد القاسم بن سلام الذى ذكر له كتاب بهذا الاسم[٤٥] ، وهو الكتاب الوحيد الذى

---

(٤٣) كوركيس عواد : مجلة المورد العدد المزدوج ١ ، ٢/١٥٣ •
(٤٤) المرجع السابق ١٥٧ •
(٤٥) الفهرست (طهران) ٧٨ ، وانباه الرواة ٣/٢٢ •

يحمل هذا العنوان في الفهرست وانباه الرواة ، فتكاد تكون نسبته لابي عبيد محصورة فيه .

المهم أنه كتاب آخر غير الذى كنا نريد ، وعندى أن الخطأ حاصل بسبب سهو في الترجمة ، اذ من الواضح أن المترجم قـرأ (**Adad**) التي هي لفظة (عدد) قرأها مشدّدة (أدّاد) فكانت في مقالته أضداد . في حين يجب ان تكتب الكلمة بدالين تحت الاول منهما نقطـة (**Addad**) لتلفظ أضداد ومثل هذا السهو كثيرا ما يقع في الترجمـة فيسبب أوهاما كثيرة، خاصة في ترجمة الالفاظ العربية المكتوبة بالحروف اللاتينية ، لان هذه الحروف قاصرة عن احتواء جميع الاصوات العربية وملابسات التشديد والادغام فيها ، لذلك يلجأ الى اصطلاح علامات ونقاط وخطوط توضع على الحروف أو بينها أو تحتها ، ويكرر الحرف اذا أريد التشديد ، كل ذلك ليتوصل الى أقرب ما يمكن من سلامة النطق ، ومن هنا تقوم ضرورة ملاحظة هذه الامور بدقة لئلا تقع مثل هـذه الهفـوات غير اليسيرة والتي نحـن في غنى عنها .

الفصل الثالث

محاكمة الشواهد والنصوص القديمة

دأبت كتب الاضداد منذ كتاب قطرب ـ كما مرّ تفصيل ذلك ـ على ان تؤيد ما تزعمه من تضاد لفظة من الالفاظ بايراد الشواهد المختلفة على كلا المعنيين ، هذا هو الغالب ، فربما استشهدت لاحد المعنيين دون الآخر ، وربما تركت المعنيين من غير استشهاد ، بل ربما اكتفى بعضها بشواهد البعض الآخر فترك الاستشهاد البتة كابن الدهان والصغاني . ولكن الاصل في المسألة ان يدعم المعنى الذى يزعم ان اللفظة منصرفة اليه استعمال العرب له في أقوالهم ، ولعل ابن الانبارى كان أحرص الاضداديين على الشاهد ، فمثلا يقول : « قال بعض الناس : الحَميم من الاضداد يقال : الحَميم للحار ، والحَميم للبارد . ولم يذكر لذلك شاهدا ، والاشهر في الحميم الحار »[1] ، فعدم ذكر الشاهد في رأي ابن الانبارى يجعل من المسألة زعما لا دليل عليه ، وأعلن في موضع آخر ان الشاهد هو الدليل على صحة التضاد فقال : « قال بعض أهل اللغة : الضِد يقع على معنيين متضادين ، ومجراه مجرى النِدّ ، يقال فلان ضِدّي : أي خِلافي ، وهو ضِدي : أي مِثْلي . قال أبو بكر : وهذا عندي قول شاذ لا يُعوّل عليه ، لان المعروف من كلام العرب العقل ضد الحمق ، والايمان ضد الكفر . والذى ادعى من موافقة الضد للمثل لم يقم عليه دليلا تصح به حجته »[2] والظاهر ان ابن الانبارى كان يأخذ في (الحَميم) على أبي حاتم ، وفي (الضِدّ) على قطرب ، لانهما عندما ذكرا ذلك في كتابيهما لم يقيما دليلاً على التضاد بذكر الشاهد .

والحقيقة ان الاضداديين ـ كما قلنا ـ أهملوا كثيرا من الاضداد فلم يستشهدوا لها بأي شاهد ، او استشهدوا للمعنى الشائع وتركوا غير الشائع

(١) ابن الانباري ١٣٨ وانظر : أبا الطيب ٢٠٨/١ .
(٢) ابن الانباري ٢٧ .

خلوا من الاستشهاد ، مثال ذلك عند قطرب : (دَهُور) و (زَجُور) و (نَهُوز)[٣] و (بُحْتُر)[٤] ، وعنه نقلت كتب الاضداد الاخرى هذه المواد غير مكترثة لشواهدها أيضا ككتاب ابن الانبارى[٥] وكتاب أبي الطيب[٦] . كما نجد اهمال الشاهد عند الاصمعي[٧] ، وابي حاتم[٨] ، وابن السكيت[٩] ، في مواد اخرى كثيرة . الا انه يجب ألا يغيب عن البال ان القدماء لم يتفقوا جميعاً على وجوب ايراد الشاهد على كل ما يروون ويذكرون من معاني الالفاظ ، خصوصا اذا لم يكونوا قد سمعوا هذا المعنى مستعملا في نص من النصوص ، وكثيرا ما تخففوا من الشواهد التي كانت بين ايديهم فعلا ، كما فعل ابو حاتم عندما تخفف من الشواهد التي ذكرها الاصمعي في بعض المواد مثل (شَوْهاء) و (مُعَبَّد) و (مُغَلَّب)[١٠] . ويبدو من استقراء الاضداد التي ذكرت عارية من الشاهد انها كانت معروفة عند العرب بمعنى واحد فقط ، أما المعنى الآخر فلم يرد الا ادعاء لا دليل عليه ، وعلى ذلك فاللفظة ليست بحاجة الى شاهد يثبت شيوعها بذلك المعنى ، ما دام هو المعنى الوحيد الذى تنصرف اليه دون غيره ، مثال ذلك ما نقله ابو حاتم فقال : « قال أبو زيد : تصدّق الرّجل اذا أعطى صَدَقَتَه ، وبعض العرب يقول : تَصَدَّق سأَل ، والجيّد تصدّق أعطى ، وأما قول العامّة فلان يُصَدِّق علينا وصَدَّقوا

(٣) قطرب ٢٤٨-٢٤٩ .
(٤) قطرب ٢٥٢ .
(٥) ابن الانباري ٣٥٧ - ٣٦١ .
(٦) أبو الطيب ١/٢٧٣ ، ٣٣٢ ، ٨٥ ، ٢/٦٥٠ .
(٧) الاصمعي ١٨ (وَجَه) ، ٢٤ (قَنِيص) و (كَرِيّ) و (غَرِيم) .
(٨) أبو حاتم ١٢١ (آدم) ، ١٢٩ (أسد) ، ١٢٢ (مود) ، ١٣١ (أضَبّ) ، ١٢٢ (أفلتَ) ، ١٣٤ (أمْعَن) .
(٩) ابن السكيت ١٩٦ (خل) ، ١٩٩ (غاضِيَة) و (إرَة) و (ثِنيّ) .
(١٠) أبو حاتم ١٣٧ ، ١٤٥ .

علينا فَخَطأ »[١١] ، فأحد المعنيين هو المشهور عن العرب ، والثاني مولّد وهو من استعمال العامة فلا يعول عليه ، وكذلك علق ابن الانبارى على هذه المادة[١٢] ؛ والى مثل ذلك ذهب أبو الطيب أيضا[١٣] . ويتكرر هذا الموقف من اشباه هذه اللفظة في كتب ابي حاتم وابن الانبارى وابي الطيب خاصة ، مشعرين بشكهم في صحة انصراف اللفظة الى المعنى الثاني .

نريد من هذه المقدمة أن نخلص الى دراسة شواهد الاضداد ، او بعبارة أوضح دراسة الاضداد من خلال الشواهد التي سيقت عليها ، لنتبين من محاكمتنا اياها مقدار ما يمكن أن تؤيد استعمال الضد بكل من معنييه في لغة العرب ، لان الشواهد عند الاضداديين هي المعول عليه ، وهي السبيل الوحيد لاثبات التضاد في لفظة من الالفاظ ، فاذا استطعنا أن نناقش الشواهد من جوانب متعددة ، فربما استطعنا ايضا ان نردّ الزعم بتضاد الالفاظ المستعملة فيها ، على ألا يغرب عن البال ان اللفظة الواحدة من الاضداد لم تستعمل في الشاهد الواحد منصرفة الى المعنيين المتضادين ، ولم يزعم أحد من الاضداديين ذلك أبدا وانما كانت تعني معنى في شاهد ، ومعنى مضادا في شاهد آخر ، وهي تؤيد ذهاب ابن الانبارى الى ان السياق يخصص أحد المعنيين دون الآخر . وعلى ان هذه النظرة كافية لنفي ضدية اللفظة اساسا ، الا أننا نريد أن نعالج الشواهد من زوايا اخرى ، ربما كانت عاملا مساعدا في الكشف عن حقائق اخرى تتصل بفهم الاضداديين لفكرة النص وموقفهم من نسبة هذا النص الى قائله .

وأهم انواع الشواهد عندهم الشعر والقرآن ، وعلى ان الشاهد القرآني اقوى من الشاهد الشعرى لسلامته مما يحتمل ان يدخل الشعر من وضع وانتحال وتصحيف وتحريف ، الا ان الشعر مع ذلك لا يقل

---

(١١) أبو حاتم ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(١٢) ابن الانباري ١٧٩ .
(١٣) أبو الطيب ١/٤٣٧ .

أهمية عن القرآن ، وذلك لان الشعر الجاهلي على وجه الخصوص اقدم من القرآن ، فهو قد يفصح عن استعمالات سبقت القرآن أو خلا منها القرآن ، كما قد يفيد الشعر باشياء عن اختلاف اللهجات اذا عرف القائل ، في حين لا يتيسر مثل ذلك في القرآن الا ما نصّ على أنه لغة خاصة ، ونحن نخالف ولفنسون في قوله : « ان القصائد والاساليب الشعرية المنسوبة للجاهليين لم توضع على الورق بالمداد الا في نهاية القرن الاول للهجرة على أقل تقدير ، في حين أن صحف القرآن الكريم ، كانت قد دوّنت قبل ذلك، لذلك يجب على الباحث أن يبدأ ببحثها والنظر فيها »(١٤) ، فليس المعوّل في القدم هو التدوين فقط كما ذهب الى ذلك ، صحيح ان تدوين الشعر الجاهلي قد تأخر عن تدوين القرآن ، الا ان ذلك لا يعني تأخر قوله على القرآن ، وصحيح أيضا ان الشعر الجاهلي دخله الوضع والتحريف الا ان ذلك لا يعني ان ما صح منه ـ وهو كثير ـ كذلك . فلستُ أفهم أن يؤخر درس المعلقات الجاهلية مثلا وقد صحت روايتها ونسبها على درس القرآن لانها تأخرت عليه في التدوين ، فهي كانت محفوظة في الصدور حفظا دقيقا يفوق حفظها في الصحف التي لعب الاعجام المتأخر دوره الكبير في دخول التصحيف والخطأ اليها .

أما ما عدا الشعر والقرآن من الشواهد فهو أقل قيمة منهما . وذلك لقلته قلة واضحة لو قيس بهذين النوعين ، من جهة ، ولان بعضه ما لم يُروَ بلفظه كالحديث الشريف مثلا ، حيث تفقده روايته بالمعنى ، قيمته اللغوية التاريخية ، من جهة أُخرى . ولذا فقد استبعدنا دراسته هنا لضآلة جدواها في مثل هذه الرسالة .

ـ الشعر ـ

يجب أن ينظر الباحث في الشواهد الشعرية الى عدة اعتبارات أساسية

---

(١٤) تاريخ اللغات السامية ٢٠٦ .

مسبقة قبل القطع بنتيجة معينة ، منها :

١ ـ ان صَرامة قَواعد العَروض ، وخضوع اللغة لحكم التَّفْعيلَة والقافِية ، يؤدى حتما الى التَّساهل في الاستعمال وتغيير ما يجوز وما لا يجوز تغييره من الالفاظ والتراكيب •

٢ ـ ان التَّصحيف والتَّحريف كان لهما أثر واضح في كثير مما روى من الشواهد الشعرية ، فكان النقل من مدونات الاوائل مصحوبا بكثير من الخلط والخطأ الذين أضاعا كثيرا من الحقائق ، كما ولّدا كثيرا من المظاهر الجديدة في اللغة •

٣ ـ ان مما استشهد به من الشعر في كتب الاضداد كان مصنوعا مكذوبا ، وقد أشار الفرّاء الى بعضه ونص عليه[١٥] ، وخصوصا ما كان من أشعار الجاهليين ، واننا نعرف ان الانتحال والوضع دخلاها لاسباب كثيرة أهمها المفاخرة والكسب ، وقد نقلت لنا المصادر اقرار بعض الرواة بوضعهم على لسان الجاهليين ما لم يقولوه •

٤ ـ ان كثيرا من الشواهد الشعرية التي أوردتها كتب الاضداد غير منسوب الى قائله ، وربما استطعنا معرفةالقائل في قسم منها ، وقد لا نستطيع ذلك ابدا في القسم الآخر • وعدم النسبة الى القائل تفتح باب الشك وتثير التساؤل ، ولذلك فعدم التعويل على مثل هذه الشواهد اليتيمة اسلم وانجع في البحث في ظاهرة لغوية كالاضداد •

٥ ـ ان الشواهد المنسوبة الى قائليها تمكننا من الوقوف على اختلاف اللهجات ، وذلك بعد معرفة القبيلة التي ينتسب اليها الشاعر ، فعندما نجد ان اللفظة قد استعملها أوس بن حجر مثلا في بيت من ابياته

---

(١٥) ابن الانباري ٣٣ •

بمعنى ، واستعملها ابو ذؤيب في بيت له بمعنى مضاد ، يكون معلوما بعد ذلك ان هذه اللفظة اختلفت دلالتها لاختلاف البيئة اللغوية ، فهي قد وردت في شاهد على لسان تميمي وفي شاهد آخر على لسان هذلي .

٦ ـ ان الشواهد الشعرية تبصرنا بالتطور الدلالي الذى حصل للفظة على مر العصور ، فهي في اشعار الجاهليين مثلا لا تعني ما تعنيه في اشعار الاسلاميين ، وتوفر ذلك لا يشترط فيه اختلاف البيئات اللغوية ، فقد يحصل هذا التطور في ألسن القبيلة الواحدة ، بأن يستعمل علقمة ابن عَبَدَة اللفظة بمعنى ويستعملها الفرزدق بمعنى مضاد وكلاهما تميميان ولكن الاول جاهلي والثاني اسلامي .

ان الاخذ بهذه الامور في النظر الى الشعر الذى استشهد به على تضاد الالفاظ من شأنه ان يكسب البحث دقة وتحديدا ، ويصل به الى نتائج سليمة من الفوضى والمبالغة وتجاهل الحقائق ،ولنحاول دراسة امثلة من الاضداد المستشهد عليها بالشعر في ضوء الملاحظات السابقة .

ولنأخذ مادة (الجَوْن) التي هي بمعنى الاسود والابيض ، فقد جاءوا لكلا المعنيين بشواهد شعرية كثيرة ، بعضها منسوب الى قائله وبعضها الآخر غير منسوب ، ومنها ما أخطأوا في نسبته ، فما كان منها على معنى الاسود قول أبي ذُؤَيْب :

الدَّهْرُ لا يَبقى على حَدَثانِه
جَوْنُ السَّراةِ له جَدائِدُ أرْبَعُ (١٦)

---

(١٦) ابن الانباري ١١٢ وأبو الطيب ١/١٥١ وأبو حاتم ٩١ وديوان الهذليين ١/٤ .

وقول الخَنْساء :

فَلَنْ أُصالِح قــوماً كنتُ حربَهُم
حتّى يعودَ بياضــاً جونةُ القـــارِ[17]

وقول لَبيد :

جَوْن دَجوجيٌّ وخرقٌ معسفُ
يَرمي بها البَيْداءَ وَهْمٌ مُسْــدِفُ[18]

وقول عمرو بن مَعْد يكرِب :

تقــولُ خَليلتــي لمّــا رأَتْــهُ
ســرائحَ بيْنَ مُبْيَضٍّ وجَــوْنِ[19]

وقول عَمْرو بن شأْس :

وانّ عِراراً انْ يكنْ غيرَ واضــحٍ
فاني أحبُّ الجَونَ ذا المَنكبِ العَمَمْ[20]

وقول ابن مُقْبل :

واطأْتُه بالسّرى حتّى تَركتُ بِــهِ
ليلَ التمامِ تُرى أعلامُــه جُــونا[21]

وقول ذي الرمّة :

يُعاوِرْنَهُ في كلّ قاعٍ هَبَطْنَــهُ
جَهامةَ جَوْنٍ يَتْبعُ الرّيحَ ساطِعِ[22]

---

(١٧) ابن الانباري ١١٢ وأبو الطيب ١/١٥٢ وأبو حاتم ٩١ وديوان الخنساء ٣٣ .
(١٨) أبو الطيب ١/١٥٢ وديوان لبيد ٣٥١ وفي الاول غير منسوب .
(١٩) أبو الطيب ١/١٥٣ ولسان العرب (جَوَنَ) وفي الأول غيرمنسوب .
(٢٠) أبو الطيب ١/١٥٣ .
(٢١) الاصمعي ٣٧ وابن السكيت ١٩٠ وأبو الطيب ١/١٦٠ وديوان ابن مقبل ٣١٥ وما بعدها ، ورواه ابن الانباري ١١٣ (أسدافه جونا) .
(٢٢) ابن الانباري ١١٣ وديوان ذي الرمة ٣٦٥ .

وما كان منها على معنى الابيض قول الهُذَلي :

جونٌ بصارةَ أقْفَرَتَ لِمَراده
وخَلا لَهُ السُّوبانُ فالبُرعومُ[23]

وقول الراجز :

غيَّر يا بِنْتَ الحُلَيسِ لَوْني
مرُّ اللّيالي واختلافُ الجَوْنِ[24]

وقول الخَطيم الضّبابي :

يُبادرُ الآثارَ أنْ تؤوبا
وحاجِبَ الجَونَةِ أنْ يَغيبا[25]

وقول الفرزدق :

وجونٍ عليه الجَصُّ فيه مريضةٌ
تَطَلَّعُ منه النَّفسُ والموتُ حاضِرُه[26]

وقول ربيعة بن مقروم :

ظَلَّ وظَلَّتْ حَولَهُ صُيَّماً
يُراقبُ الجَونَةَ كالأحْوَلِ[27]

وقالوا قد يأتي الجَوْنُ بمعنى الأحمر واستشهدوا لذلك بقول الشاعر :

---

(23) أبو الطيب ١٥٥/١ وقد أخطأ في نسبته فهو للبيد في ديوانه ١١٨ وما بعدها ·

(24) الاصمعي ٣٦ وابن السكيت ١٩٠ وأبو حاتم ٩٢ وابن الانباري ١١٣ وأبو الطيب ١٥٥/١ ·

(25) الاصمعي ٣٦ وابن السكيت ١٩٠ وابن الانباري ١١٣ وأبو الطيب ١٥٦/١ وسمط اللآلي ٤١/١ وفي كلها غير منسوب والنسبة من اللسان ٢٥٦/٦ ·

(26) الاصمعي ٣٧ وابن السكيت ١٩٠ وأبو حاتم ٩٢ وابن الانباري ١١٢ وأبو الطيب ١٥٧/١ وديوان الفرزدق ٢٥٨ ولحن العوام للزبيدي ١٤٥ ·

(27) ابن الانباري ١١٢ ·

تَأْوي الى دَنٍّ غـدَفْلٍ قَرْقارْ
في جَونَـــةٍ كَقَفَدانِ العَطّـــارْ(٢٨)

كما يأتي بمعنى الأخضر وشاهده قول جبيهاء الاشجعي :

لجاءَتْ كأنَّ القَسوَرَ الجَونَ بَجَّها
عسـاليجَه والثّـامرُ المُتَناوِحُ(٢٩)

هذه هي مجموعة الشواهد الشعرية التي ذكرت في مادة (الجون) فاذا عدنا ننظر فيها في ضوء الملاحظات السابقة ، برزت امامنا جملة امور ، أهمها ان اغلب الشواهد التي استعملت فيها لفظة (الجون) بمعنى الاسود هي شواهد جاهلية فأبو ذؤيب والخنساء ولبيد وعمرو بن معد يكرب وعمرو بن شأس وابن مقبل شعراء جاهليون وبعضهم ادرك الاسلام ولكن شطر حياته الاكبر كان جاهليا ، غير ان ذا الرمة يخرق هذا الاجماع حين عد مستعملا الجون بمعنى الأسود ، فهو شاعر اسلامي ، ولعلنا نخالف ابن الانبارى الذى فسّر الجون في بيته بمعنى الغبار الاسود ، فذو الرمة يصف حماراً وأُتنا ، يقول:«اذا أثار غباراً أثرن مثله•والجَهامةُ السَّحابَةَ»(٣٠)، فلا يمكن ان يفسر الجون بالغبار الاسود تشبيها له بالسحاب ، لأنه وصفه بأنه (ساطِع) ولا يوصف الاسود بالساطع وانما الابيض البراق ، وعليه فتفسير الجون بالابيض في بيت ذي الرمة أولى من تفسيره بالاسود ، واذا كان كذلك فنحن نستطيع اخراج ذى الرمة من بين الجاهليين الذين استعملوا اللفظة بمعنى الاسود ، ونلحقه بالاسلاميين الذين استعمل أغلبهم الجون بمعنى الأبيض ، وهذا الاستعمال المختلف بين الجاهليين والاسلاميين يوقفنا على لون من ألوان التطور الذي حصل للفظة الجون على مر الزمن اذ هي

---

(٢٨) أبو الطيب ١/١٥٨ .
(٢٩) أبو الطيب ١/١٥٩ وابداله ١/٣٢٤ وامالي القالي ٢/١٧٤ .
(٣٠) ابن الانباري ١١٣ – ١١٤ .

لم تكن من الاضداد في وقت واحد •

ومن الغريب أن يكون أبو ذؤيب الهذلي مستعملا الجون بالمعنيين في شاهدين ، وفي كلا الموضعين يعني به الحمار الوحشي كما تنص على ذلك كتب الاضداد • وقد تنبه محقق أضداد ابي الطيب الى خطأ نسبة البيت الثاني الى أبي ذؤيب • وذكر أنّ صواب نسبته الى لبيد كما هو في ديوانه والجمهرة واللسان ، وحين يزول بذلك الإشكال السابق يبرز اشكال آخر قريب من الاول ومشابه له ، لاننا رأينا لبيداً قد استعمل الجون بمعنى الأسود في المجموعة الاولى فكيف يستعمله بمعنى الابيض هذه المرة ؟ ولتفسير ذلك نحتمل عدة احتمالات الاولى : ان لبيدا وصف في الأول جملا أسود وفي الثانية حماراً وحشياً ـ كما تنص كتب الاضداد ـ فلا مانع من اختلافهما في اللون ، والثانية : انه يمكن تفسير المعنى الثاني بالاسود ، فلا دليل يقطع بأنه أراد الأبيض خصوصاً واننا نرى أن العرف جرى على اعتبار الحمار الوحشي أسود اللون ، والثالثة : انه قد يؤدي اختلاف البيئة الى اختلاف اطلاق اللفظة ، فحين أطلق ابو ذؤيب الجون في قوله (جَوْن السَّراة) على الحمار الوحشي الاسود ، كان لبيد يريد به الحمار الوحشي الابيض ، لان الاول من هذيل والثاني من عامر(٣١) • فاذا امكن بعد هذا اخراج لبيد من بين الاسلاميين الذين استعملوا الجون بمعنى الابيض يكون اعتبار اللفظة مختصة بالسواد في الجاهلية وبالبياض في الاسلام •

ويمكن ان يعمم اختلاف البيئة اللغوية هذا على جميع شعراء الشواهد المارة اذ يكون من الجائز ان اللفظة تغير انصرافها للمعنى تبعا لتغير القائل ، فأبو ذُؤَيب هُذلي والخَنْساء من سُلَيْم وعَمْرو بن معد يكرب من اليمن ولبيد من عامر ، وهكذا ، وربما يكشف لنا تقصي هذه الناحية حقائق

---

(٣١) انظر : شرح المعلقات السبع للزوزني ١٩٨ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٩٤ ، ٢/٥٤٧ والادب العربي ٩٥ •

اخرى ، ذلك ان ذا الرمة الذى فسر استعماله للجون بالاسود هو من بني عديّ بن عبد مناة الذين كانوا ينزلون بادية اليمامة قرب تميم[٣٢] ، فبيئته اللغوية تميمية ، وهذا يقوى ما ذهبنا اليه من انه استعمل الجون بمعنى الابيض لا الاسود ، وذلك حملا على استعمال الفرزدق لهذا المعنى ، وهو معاصر له في الزمن ومشابه له في البيئة اللغوية ، حيث يكون في استطاعتنا ان نقرر أن تميما استعملت الجون بمعنى الابيض في هذه الفترة من تاريخها اللغوى ، وذلك على ألسنة جميع بطونها وأفخاذها ، بعد ان استعملته في الفترة السابقة بالمعنى المضاد وهو الاسود . ويجدر بنا ان نذكر ان تميما ومعها هذيل وطيء ، كانت اشهر القبائل العربية في رواية لهجاتها ، والى هذه القبائل نسبت الفصاحة واجادة القول ، وعنها أخذ في تدوين اللغة ، وقد مرّ في دراسة اللهجات شيء يؤيد هذا الا ان الملاحظ ان هذه القبائل الثلاث كانت أقل القبائل العربية نصيبا من الشعراء الجاهليين ، فلم يسعف الحظ واحدة منها ان يكون لها شاعر من الطبقة الاولى ، وانما كان شعراؤها مقلّين في الغالب ، لم يرو عنهم كثير من الشعر الجاهلي[٣٣] ، وربما كان أشهر شعراء تميم في الجاهلية علقمة الفحل ، واشهر شعراء هذيل ابو ذؤيب واشهر شعراء طي الطرماح بن حكيم .

وشيء آخر تجدر ملاحظته هو الاضطرار الذى أشرنا اليه ، فلو كان الشاعر متحدثا مسترسلا فربما لم يقل : (مَرُّ اللّيالي واخْتلافُ الجَوْنِ) ولقال : واختلاف النهار ، ولكن القافية النونية أجبرته على أن يأتي بما يشير الى المعنى الذى يريده ولو كان بعيدا بعض الشيء ، اذ لا يصدق على كل نهار أن يكون أبيض ، والتقابل الذى يقصد اليه في مثل

---

(٣٢) انظر : الشعر والشعراء ٢/٤٣٧ والتطور والتجديد في الشعر الاموي ٢٤٣ .

(٣٣) انظر : في اللهجات العربية ١٥٢ .

هذه الصياغة يقتضي أن يكون النهار لا البياض ، لذكره الليالي قبل الجون. ومثلها قول الشاعر (وحاجبَ الجَونَةِ أنْ يَغيبا) ، فقيد التفعيلة هو الذى دعاه الى ذكر الجونة كناية عن الشمس ، اذ لا يتأتى له أن يقول (وحاجبَ الشَّمس) فجاء بما يشير الى نور الشمس وبريقه وان لم يكن المقصود هو البياض المحض • لان (النَّهار) و (الشَّمس) واشباههما هي معان اخرى تنصرف اليها لفظة الجون غير السواد والبياض ، فقد يضطر الشاعر احيانا الى الكناية عن المعنى بما هو قريب منه ومشير اليه عندما لا يستطيع أن يأتي باللفظة الاصلية ، فتحمل هذه الكنايات او المعاني القريبة على المعنى الاصلي حملا غير أصيل •

ومثال مادة (الجَوْن) مواد اخرى كثيرة ، تهدى دراسة شواهدها الشعرية التي ذكرتها كتب الاضداد الى اكتشاف حقائق مهمة في سبيل الاستعمال وتاريخه وبيئته اللغوية • فمثلا نجد كتب الأضداد تستشهد عادة في مادة (الجَلل) التي هي بمعنى العظيم والحقير ، ببيت لبيد على معنى الحقير :

كلُّ شيءٍ ما خلا المَوْت جَلَلْ
والفتى يَسْعى ويُلْهيهِ الأمَلْ (٣٤)

وقول امرىء القيس على المعنى نفسه :

لِقَتْلِ بَني أسَدٍ رَبَّهُمْ
ألا كلّ شيءٍ سِواهُ جَلَلْ (٣٥)

ويقول الحارث بن وعلة على معنى العظيم :

---

(٣٤) الاصمعي ٩ وابن السكيت ١٦٧ وابن الانباري ٢ وأبو الطيب ١/١٥٠ وديوان لبيد ١٩٩ •
(٣٥) ابن الانباري ٩٠ وديوان امرىء القيس ٢٦١ ومغني اللبيب ١/١٢٠•

فَلَئِن عَفَوْتُ لأعْفُونْ جَلَـلاً
وَلَئِن سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي (٣٦)

وعلق ابن الانبارى على البيت الأخير بقوله : « فدل الكلام على أنه أراد : فلئِن عَفَوْتُ لأعفون عفوا عظيما ، لان الانسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير يسير » (٣٧) . ولكن أحد الباحثين ذهب الى أننا : « حين تتأمل الظرف الذى قيل فيه هذان البيتان وما اكتنف قولهما من ملابسات ، نرى أن الشاعر يريد أن يعتبر العفو عن قتل أخيه أمرا بسيطا اذا قيس بما سيترتب على وقوع الشحناء بين قومه ، من حرب أهلية توهنهم جميعا وتذهب بقوتهم » (٣٨) . وهو تفسير صحيح تؤيده فكرة القصيدة كاملة ، ويدعمه استقراء الشواهد الشعرية الاخرى التي ذكرت في هذه المادة حيث توقفنا هذه الشواهد على الحقيقة السالفة عينها من ان شواهد معنى (الحقير) اغلبها جاهلي بعكس شواهد معنى (العظيم) التي كان معظمها اسلامي .

وفي مادة (عَسْعَسَ) التي هي أقبل وأدبر ، نسبوا معنى الاقبال الى قول امرىء القيس :

عَسْعَسَ حتّى لو يَشاءُ ادَّنى
كانَ لهُ مِن نارِه مَقْبِسُ (٣٩)

ومعنى الادبار الى قول علقة بن قرط التيميّ :

حتّى اذا الصبحُ لها تَنَفَّسا
وانْجابَ عَنْها ليلُها وعَسْعَسا (٤٠)

---

(٣٦) الاصمعي ١٠ وابن السكيت ١٦٨ وأبو حاتم ٨٤ وابن الانباري ٩٠ وأبو الطيب ١/١٤٦ ومغني اللبيب ١/١٢٠ .
(٣٧) ابن الانباري ٣ .
(٣٨) ابراهيم أنيس : في اللهجات العربية ٢٠٧ .
(٣٩) ابن الانباري ٣٣ .
(٤٠) الاصمعي ٨ وابن السكيت ١٦٧ وابن الانباري ٣٣ وأبو الطيب ٢/٤٩١ .

ولكن ابن الانبارى علق على البيت الاول بقوله : « قال الفراء : وكانوا يرون ان هذا البيت مصنوع »(٤١) ، وكنا قد أشرنا في ملاحظاتنا الى ان قسما من الشواهد دخلها الوضع والكذب ، وعليه يكون المعنى (أدْبَرَ) لا غير ، وهو المعنى الذى تؤيده الشواهد الشعرية الاخرى ، ويدعمه الاستعمال القرآني لهذه اللفظة(٤٢) .

وفي (النِدّ) التي ذكروا انها بمعنى المثل والضد ، لا يؤيد الشعر ان تكون من الاضداد ، اذ لم يستعملها لبيد الا بمعنى المثل :

أحمدُ اللهَ فلا نِدَّ لهُ
بيَديه الخَير ما شاءَ فَعَل(٤٣)

وبهذا المعنى ايضا استعملها حسان بن ثابت في قوله :

أتَهْجُوهُ ولستَ لهُ بنِدٍّ
فشرُّكما لخَيركما الفِداءُ(٤٤)

وكذلك هي في سائر ما أوردته كتب الاضداد من شعر ، ولعل ضديتها متأتية كما رجحنا في موضع سابق من هذه الرسالة ، من تفسيرهم لقوله تعالى (ولا تَجْعَلوا لله أنْداداً) اذ يحتمل أن يكون المعنى اضدادا . ومع ذلك فأقوى المعنيين في الآية الامثال لا الاضداد(٤٥) .

أما (المُعَبّد) فقالوا انها بمعنى المذلل والمكرّم ، واغلب شواهدهم

---

(٤١) ابن الانباري ٣٣ .
(٤٢) انظر : في اللهجات العربية ٢٠٤ .
(٤٣) أبو حاتم ٧٣ وابن الانباري ٢٤ وأبو الطيب ٢/٦٥١ وديوان لبيد ١٧٤ .
(٤٤) أبو حاتم ٧٤ وابن الانباري ٢٤ وأبو الطيب ٢/٦٥٣ وديوان حسان ٨ وما جاء على وزن أفعل من الامثال ق ١٦٦ ومشكل اعراب القرآن ٣٩٥ .
(٤٥) انظر : اللهجات العربية ٢٠٥ .

الشعرية هي للمعنى الاول مثل قول طرفة :

الى أن تَحامَتْني العَشيرةُ كُلُّها
وأُفْرِدْتُ افْرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ[46]

الا انهم دخروا للمعنى الثاني شاهدا واحدا لم يذكروا غيره ، وهو قول حاتم الطائي :

تَقولُ ألا أَمْسِكْ عَليكَ فانَّني
أرى المالَ عندَ الباخِلينَ مُعَبَّدا[47]

والنظر في هذا البيت يهدي الى الاعتقاد بأن تصحيفاً طرأ عليه ، ذلك ان (الباخلين) لابد انها كانت (الباذِلين) ، وما أقرب الرسمين من بعضهما، فبمجرّد أن يلتصق أحد رأسي الذال في اللام تكون خاء ، وفكرة البيت فوق هذا تقتضي ان تكون اللفظة كذلك ، فزوج الشاعر تلومه على اسرافه وترى مستنكرةً ان المال عنده وعند الباذلين من أمثاله مذلل لا قيمة له . وعلى ذلك يكون المعنى واحدا في جميع الشواهد .

وذهبوا الى ان (الخِنْذيذ) من الاضداد ، يعني الفحل والخَصيّ من الخيل ولم تسعفهم الشواهد الشعرية بذلك ، لان النابغة قال :

وبَراذينَ كابياتٍ وأتْناً
وخَناذِيذ خِصيةً وفُحولا[48]

فبين ان الخنذيذ يعني الفائق الجيد سواء كان فحلا أم خصيا ، والى

---

(46) ابن الانباري ٣٥ وشرح المعلقات السبع للزوزني ١٥٦ واشتقاق ابن دريد ١٠ ولسان العرب ٣/٢٧٤ .

(47) ابن السكيت ٢٠٩ وابن الانباري ٣٥ وأبو الطيب ٢/٤٩٥ وديوان حاتم ١٠٩ واشتقاق ابن دريد ١٠ ولسان العرب ٣/٢٧٤ .

(48) أبو حاتم ٨٧ وابن الانباري ٥٩ وأبو الطيب ١/٢٣٣ وديوان النابغة ٨٩ .

ذلك ذهب ابو حاتم في رده على ابي عبيدة الذى زعم ضدية (الخنذيذ) مستشهدا بهذا البيت ، بل جعل ابو حاتم الخنذيذ هو الفائق من كل شيء يقال : خطيب خِنْذيذ وشاعر خِنْذيذ[49] ، واستشهد بقول بشر بن أبي خازم :

وخِنْـــذيذٍ تَرى الغُــرمولَ منــه
كَطيِّ الــزِّقِ علَّقَــهُ التّجـــار[50]

ويؤيد ما ذهب اليه أبو حاتم من أن الخنذيذ هو الفائق من كل شيء حتى من الانسان قول النابغة :

يصــدُّ الفــارسُ الخِنْــذيذُ عَنّي
صُدودَ البِكر عن قَــرمٍ هجــانِ[51]

الا انه يظهر ان الخنذيذ من الخيل كان اكثر ما يعني الخصيّ ، كما ذهب ثعلب الى تفسير الخناذيذ بالخصيان من الخيل دون غيرها[52] ، يقابل ذلك ان الخنذيذ من الناس شاعرا كان او خطيبا كان يرتبط معناه بالفحل وهي صفة اطلقت على الفائق من الشعراء والخطباء ، فربما كان هــــذا الانصراف غير المتكافيء الى الخصي من الخيل والفحل من الرجال هو الذى اوهم التضاد .

نخلص من استعراض هذه الامثلة المختلفة من الاضداد ومن دراسة شواهدها الشعرية ، الى ان هذه الشواهد لم تستعمل هذه الالفاظ اضدادا وانما استعملتها منصرفة الى معنى واحد في وقت واحد وفي بيئة لغوية واحدة، وقد أشارت هذه الشواهد الى حقيقة التطور الذى يصيب اللفظة في البيئـة

---

(٤٩) أبو حاتم ٨٧ وانظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي ١٦٤ .
(٥٠) ابن الانباري ٥٩ وأبو الطيب ١/٢٣٣ وديوان بشر ٦١ .
(٥١) ابن الانباري ٥٩ وأبو الطيب ١/٢٣٤ وديوان النابغة ١٠٩ .
(٥٢) مجالس ثعلب ٢/٤٣٤ .

الواحدة فهي تعني في الجاهلية غير ما تعنيه بعد الاسلام • كما أشارت هذه الشواهد الى تغير المعنى بتغير البيئة التي ينتمي اليها الشاعر ، والى دورالوضع والانتحال في خلق معان جديدة ، كما اقنعتنا هذه الشواهد بضرورة فهم الفكرة التي يرمي اليها الشاعر فهما كاملا يستدعي الرجوع الى القصيدة او المقطوعة تامة غير منقوصة ، لان بتر البيت قد يعكس جانبا غير الجانب الذى يريده الشاعر ، وهكذا تكون دراسة الشواهد الشعرية مفتاحا لكثير من الحقائق العلمية ، ومصباحا ينير لنا درب التطور التاريخي الذى مرت به هذه اللغة بعيدا عن الزعم والمبالغة والتعسف •

القـــرآن

لو استعرضنا مواد الاضداد التي جاء بها الاقدمون لوجدنا ان قسما كبيرا منها هو مما استعمل في القرآن ، اذ يصح ان نسميه ــ في مقابل الالفاظ الشعرية ــ الفاظا قرآنية ، وعلى ان الاستشهاد بالشعر عند هؤلاء الاضداديين اقترن باستشهادهم بالآيات القرآنية على تضاد الالفاظ ، الا اننا نستطيع فصل دراسة نوعي الشواهد لاختلاف طبيعة كل منها عن الآخر من حيث الاستعمال ونظر العلماء فيه ، وقد قدمنا ان في الشعر قيدا واضطرارا لا يتوفران في القرآن وهو كلام مرسل ، كما أشرنا الى إمكان دخول التصحيف في الشعر ، وتغير المناسبة من شاهد الى شاهد وما الى ذلك مما لم يكن في القرآن • ذلك ان العلماء حين شغلوا بدراسة اسلوب القرآن اعترضتهم الفاظ قد يفهم من تكرارها في مناسبات مختلفة في الكتاب المقدس انها متضادة او ما يشبه المتضادة ، وذلك بالقياس الى الشاهد الشعرى الذى لم يراعوا فيه الاحتمالات المختلفة التي اشرنا اليها ، فوقعوا من جراء ذلك في اوهام كثيرة •

فينبغي ان ينظر الى الشواهد القرآنية في ضوء الملاحظات التالية :ــ

١ ــ ان هناك قراءات قرآنية معتبرة ، اشهرها القراءات السبع المعروفة ،

فاختلاف قراءتين في لفظة لا يجعل منها ضدا ، لانها ليست كذلك في كل قراءة على حدة •

٣ ـ اذا كانت هذه القراءات لا تمثل اختلاف اللهجات تمثيلا كاملا ، فلا يجب ان يغفل دور هذا الاختلاف في قراءة القرآن ومعاني ألفاظه ، وقد مرت الاشارة الى ان القرآن حوى كثيرا من لغات القبائل •

٣ ـ ان يقاس استعمال القرآن للفظة من الالفاظ على استعمالاته الاخرى للفظة نفسها في مواضع اخرى منه ، لا على الاستعمال الشعرى ، لان اسلوب القرآن اسلوب خاص متميز ، وبعض صياغاته غير مألوف •

٤ ـ ان مفسرى القرآن اختلفوا ـ بدافع من عقيدتهم الدينية الخاصة او بدوافع تفسيرية محضة ـ في تفسير معاني الآيات والالفاظ الـواردة فيها ، فلا ينبغي ان يستفاد من هذا الخلاف الذى يكون من نتائجـه احيانا ان يبدو في الآية او اللفظة لون من فكرة التضاد ، لا ينبغي ان يستفاد من ذلك تضادا حقيقيا •

٥ ـ ان سياق الآية وتركيب العبارة وفهم الفكرة التي يرمي اليها الكلام يحدد تحديدا اكيدا المعنى الخاص الذى تنصرف اليه اللفظة والذى لا يمكن ان تنصرف الى غيره في هذا الموضع ، بعيدا عن روح المجاملة غير المجدية التي تقسر اللفظة على أن تعني غير ما سيقت له ، لان هذا المعنى المفترض اولى بالقرآن ان يقصد اليه •

وعلى هدى هذه الملاحظات يجب ان ينظر الى الشواهد القرآنية التي ادعي انها ضمت اضدادا تشبه تلك التي ضمتها الشواهد الشعرية ، ولنحاول الاستفادة من هذه الملاحظات في دراسة امثلة من شواهد الاضداد القرآنية •

ولنأخذ مادة (بَيْن) التي قالوا انها تعني الفراق وتعني الوصل ، فأما الاول فهو المعروف الشائع من بان يبين بينا ، واما الثاني فمن الآية : (لَقَدْ

تَقَطَّع بَيْنُكُم)[٥٣] في قراءة من قرأ بضم النون ، اذ لا يمكن ان يكون المعنى تقطع فراقكم ، فلابد ان يكون المعنى وصلكم[٥٤] • وهذه هي قراءة حمزة ومجاهد وآخرين[٥٥] ، وهي اضعف القراءتين ، حيث قرأ الكسائي وحفص بالنصب[٥٦] ، وقرأ عبدالله (لقد تَقَطَّع ما بَينكم) ، والنصب هو المشهور والاكثر في قراءة هذه الآية ، وقد علق الفراء على قراءة عبدالله بقوله : « وهو وجه الكلام »[٥٧] • وعليه فلا تحتمل اللفظة تضادا من أي نوع ، ذلك ان قراءة (بَيْن) بالرفع ـ على ضعفها ـ اخرجت اللفظة من الظرفية الى الاسمية ، وقياس احداهما على الاخرى غير وارد لاختلاف اللفظتين ، فليس في (بَيْن) اسماً الا معنى الفراق ، وظرفاً الا معنى الظرفية المعروف •

وكذلك الفعل (أَخْفى) قالوا انه يعني اظهر ويعني ستر ، وذلك لاختلافهم في قراءة قوله تعالى (أكاد أُخْفيها)[٥٨] فقد قرأ الحسن وسعيد بن جبير وابو الدرداء بفتح الهمزة[٥٩] ، وقرأ أُبَيّ وسائر القراء بالضم[٦٠] ، فالفتح من (خَفى) بمعنى أَظْهَرَ ، والضم من (أَخْفى) بمعنى ستر على السلب أي أزالَ الاظهار[٦١] • والظاهر ان الذي قرأ بالفتح افترض ان يكون المعنى الاظهار لان ما قبل هذه العبارة في

---

(٥٣) الانعـــام ٩٤ •
(٥٤) مجالس ثعلب ١/٢٦٣ •
(٥٥) معاني القرآن ١/٣٤٥ ومجمع البيان ٣/٣٣٦ والنشر في القراءات العشر ٢/٢٦٠ •
(٥٦) مجمع البيان ٣/٣٣٦ والنشر ٢/٢٦٠ •
(٥٧) معاني القرآن ١/٣٤٥ •
(٥٨) طه ١٥ •
(٥٩) معاني القرآن ٢/١٧٦ ومختصر فيشواذ القرآن٨٧ ومجمع البيان ٧/٣•
(٦٠) معاني القرآن ٢/١٧٦ ومختصر في شواذ القرآن ٨٧ •
(٦١) مجمع البيان ٧/٤ •

الآية (انّ السّاعةَ آتيةٌ أكاد أُخْفيها) فلابد ان يكون اراد اظهرها لانها آتية ، ولكن سياق العبارة بعد ذلك يوضح ان القصد هو الاخفاء ذلك ان تمام الآية (انّ السّاعةَ آتيةٌ أكاد أُخْفيها لتُجْزى كلُّ نَفسٍ بما تَسْعى) فلا يمكن ان يكون المعنى أكاد اظهرها لان الجزاء لا يتم الا بعد الاظهار ، ولو اراد الاظهار لم يقل أكاد ، فاستعماله للفعل أكاد يشعر انه اراد ان الساعة آتية وهي قريبة من الظهور ولكني أكاد اخفيها واسترها ، يقوى هذا المعنى استعماله الفعل (تَسْعى) ، فلو كان معناها أكاد اظهرها لكان المعنى يتطلب ان يكون تمام الآية (لتُجْزى كلّ نفسٍ بما سَعَت) ولكنه استعمل صيغة الحاضر ، ليفسر سبب اخفائهـا الآن ، لان النفس ما تزال تسعى •

أما الفعل (أسَرَّ) فقد قالوا انه يعني كتم واعلن ، وهو على هذين المعنيين في قوله تعالى : (وأسَرّو النّدامَةَ لمّا رأو العَذاب)[٦٢] ، غير ان استقراء هذا الفعل في القرآن يهدى الى انه مستعمل في جميع مواضعـه بمعنى الكتمان ، مثل : (فأَسَرَّها يوسُف في نفسِه)[٦٣] و (سواء منكم من أسَرَّ القولَ ومن جَهَرَ به)[٦٤] و (ثُم اني أعْلنتُ لهم وأسْرَرْتُ لهم اسْرارا)[٦٥] و (ويعلم السِرّ)[٦٦] و (الله يعلم ما تُسِرّونَ وما تُعْلِنون)[٦٧] و (أسَرّوا النّجوى الذين ظلموا)[٦٨] ، وفي كلها لا يعني الفعل الا الاخفاء ، وهو المعنى الذى ذهب

---

(٦٢) يونس ٥٤ •
(٦٣) يوسف ٧٧ •
(٦٤) الرعـد ١٠ •
(٦٥) نـوح ٩ •
(٦٦) طه ٧ •
(٦٧) النحـل ١٩ •
(٦٨) الانبياء ٣ •

اليه الفراء في تفسير الآية المختلف فيها[٦٩] ، ومثله الطبري[٧٠] . اما الذين قالوا بضدية الفعل من المفسرين كأبي عبيدة والجبائي[٧١] والزمخشري[٧٢] والفخر الرازي[٧٣] ، فانهم افادوا معنى الاظهار من اعتبار خارجي لا يمت للفعل بصلة وانما يتعلق بمفهوم الآية ، فالفخر الرازي مثلا يشير بقوله : « انما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لاجل حفظ الرياسة ، وفي القيامة بطل هذا الفرض فوجب الاظهار »[٧٤] . يشير بذلك الى ان اعلان الندامة من قبل الكفار انما كان فلان ظروفهم التي تغيرت من الدنيا الى القيامة تفرض ذلك ، ويبقى الفعل في القرآن محتفظا بمعناه الاول وهو الاخفاء ، الا ان الطبرسي ينقل لنا في تفسيره عن الازهري انه قال : « وهذا غلط لان ما يكون بمعنى الاظهار يكون بالشين المنقطة من فوق »[٧٥] . وهذا قد يشير الى أن في المسألة ابدالا عرض للفعل (أشَرَّ) الذي لا يعني الا الاظهار ، فجاء بالسين وتوهم الاضداديون فيه معنى من معاني الضدية .

وذهب القدماء الى ضدية الفعل (قَسَطَ) وانه يعني في القرآن عدل وجار . واستقراء هذا الفعل في القرآن يهدى الى انه في جميع الآيات وعددها قريب من ثلاثين آية يعني العدل ، سواء ما كان الفعل مستعملا فيها ، او ما كانت صيغه الاخرى المزيدة ومشتقاته ومصادره هي المستعملة ، الا آية واحدة استعمل فيها اسم الفاعل من هذا الفعل وهو يعني الجور وذلك قوله :

---

(٦٩) معاني القرآن ١/٤٦٩ .
(٧٠) تفسير الطبري ١١/٨٦ .
(٧١) مجمع البيان ٥/١١٦ .
(٧٢) الكشاف ٢/٥٣٢ .
(٧٣) تفسير الفخر الرازي ٥/٣ .
(٧٤) تفسير الفخر الرازي ٥/٣ .
(٧٥) مجمع البيان ٥/١١٦ .

(وأنا منّا المُسْلمون ومنا القاسِطون فمن أسْلَمَ فاولئك تَحَرّوا رشدا ، وأما القاسِطون فكانوا لجَهنّمَ حَطَبا)[76] ، ولا نستطيع ان نفرق بين المعنيين المتضادين بأن ننسب للثلاثي معنى وللرباعي المعنى الآخـــر ، لان استعمال القرآن اخضع الثلاثي والرباعي لمعنى العدل . وقد ذهب احـــد الباحثين الى تفسير ذلك بأنه : « ليس الا تأدبا في الخطاب أمام الله ، وتحاشيا لذكر كلمة الظلم امامه سبحانه وتعالى »[77] ، وهذا التفسير لا يدعمـــه اسلوب القرآن العام اذ هو غير مطرد في آياته الكريمات . وعندي انه لغة قوم احتضنها القرآن فيما احتضن من اللغات ، كانت تذهب الى معنى الجور في الثلاثي ومشتقاته ، ولعدم شيوعها كان اثرها ضئيلا في الاستعمال .

وعد الاضداديون (الرّجاء) من الاضداد وانه يعني ايضا الخوف ، وذلك اعتمادا على شواهد من القرآن ، كقوله تعـــالى : (لا يَرجُـــون لقاءنا)[78] و (ما لكُم لا تَرْجون لله وَقارا)[79] و (قُلْ للذيـن آمنوا يَغْفِروا للذين لا يَرْجون أيّـام الله)[80] ، وفي كلهـــا المعنى يخافون ، ولكن ذلك ليس مطردا في الاستعمال ، اذ هو مقيد بالنفي وهو لغة ، يقول الفراء في تفسير هذه الآيات : « وهي لغة تهامية : يضعون الرجاء في موضع الخوف اذا كان معه جحد »[81] . وقال ايضا في تفسير قوله : (وتَرْجون من الله ما لا يَرْجون)[82] : « قال بعض المفسرين : معنى تَرْجون : تَخافون . ولم نجد معنى الخوف يكون رجاء الا ومعه جحد ».

---

(٧٦) الجن ١٤ ــ ١٥ .
(٧٧) ابراهيم أنيس : في اللهجات العربية ٢٠٦ ــ ٢٠٧ .
(٧٨) الفرقـان ٢١ .
(٧٩) نـوح ١٣ .
(٨٠) الجاثية ١٤ .
(٨١) معاني القرآن ٢/٢٦٥ .
(٨٢) النســاء ١٠٤ .

ولا يجوز : رَجَوْتُكَ وانت تريد : خِفْتُكَ »[٨٣] • وعليه فان استعمال الفعل في القرآن بمعنى الخوف ما هو الا تأثر بلهجة عربية ، وهو مقيد بالجحد فقط ، فلا يمكن ان يعمم هذا المعنى فيه على جميع لغات العربية وفي الاثبات ايضا •

الا أنهم فسروا الفعل نفسه في مواطن اخرى من القرآن تفسيرات اخرى ، ففي قوله تعالى : (وانْذِرْ بِهِ الذين يَخافون أن يُحْشَروا الى رَبِّهم)[٨٤] المعنى : يعلمون[٨٥] • وفي قوله : (واللاّتي تَخافون نُشوزَهُنَّ)[٨٦] المعنى أيضا : تعلمون وهو كالظَن.[٨٧] وفي قوله : (الاّ أن يَخافا ألا يُقيما حدودَ الله)[٨٨] المعنى : أن يظنّا ، والآية في قراءة أبيَ (الاّ أن يَظُنّا ••)[٨٩] وفي قوله : (فان خِفْتُم الاّ تَعدِلوا)[٩٠] المعنى : أيْقَنْتُم[٩١] • والحقيقة ان هذه المعاني المذكورة للفعل هي معان مفترضة فيه من قبل المفسرين المسلمين ، وليست مما ينصرف اليها الفعل انصرافا حقيقيا ، وكنا قد أشرنا في ملاحظاتنا في الشواهد القرآنية الى هذه المسألة وقلنا ان كثيرا من المعاني الصقت بألفاظ القرآن على هذه الطريقة من الافتراض ، وذلك حين يحس الدارس ان هذا المعنى هو أولى باللفظة من المعنى الشائع المعروف ، فاذا ثبت هذا المعنى المفترض للفظة وشاعت فيه صارت بعدئذ من الالفاظ التي تنصرف انصرافين متضادين •

---

(٨٣) معاني القرآن ١/٢٨٦ •
(٨٤) الانعام ٥١ •
(٨٥) معاني القرآن ١/٣٣٦ •
(٨٦) النساء ٣٤ •
(٨٧) معاني القرآن ١/٢٦٥ •
(٨٨) البقرة ٢٢٩ •
(٨٩) معاني القرآن ١/١٤٦ •
(٩٠) النساء ٣ •
(٩١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١/١١٦ •

والنظر الى هذه الآيات يهدي الى الاعتقاد بمجيء الفعل بمعناه الاصيل ، اذ لا ضرورة معنوية تدفع الى افتراض غيره •

ومثل الرّجاء (الظّن) الذي ذهب الاضداديون الى القول بضديته في مواضع عديدة من القرآن ، كقوله تعالى : (فظَنّوا أنّهم مُواقعوها)[٩٢] أي علموا[٩٣] ، وقوله : (وظَنّ داود أنّما فتَنّاه)[٩٤] أي علم[٩٥] ، وقوله : (قال الذين يظُنّون أنّهم مُلاقو الله)[٩٦] أي يتَيقّنون[٩٧] • وهم حين ينسبون للظن معنى اليقين فليثبتوا ان ضدية الفعل جاءت من تضاد الشك واليقين ، والواقع لا يؤيد ما يذهبون اليه ، لان هذه الآيات لا تثبت الضدية للفعل ، وان الذى أوهمهم بمعنى التضاد شيء يتصل بفكرة الآية لا بالفعل نفسه ، لان ابن الانباري مثلا يعلل معنى اليقين في الآية الثالثة بأنه لم يذهب وهم عاقل الى ان الله عز وجل يمدح قوما بالشك في لقائه ، فلولا هذا الافتراض التعبدى لم يكن للفعل معنى اليقين ، ولولا الايمان بحقيقة لقاء المؤمنين بربّهم لم يكن للظن هذه الدلالة • والدليل على ان التضاد مستفاد من فكرة الآية لا من الفعل ان الطبرسي في تفسيره جعل لمعنى الفعل ثلاثة أوجه ، أحدها انه بمعنى يستيقنون ، والثاني انه بمعنى يحدثون نفوسهم ، والثالث انه بمعنى يظنون أنهم ملاقوا الله بالقتل[٩٨] • فتقليب الفعل على جميع الاوجه المحتملة في المعنى المراد في الآية ، ليس الا محاولة للوصول الى اقرب الافكار التي ترمي اليها الآية ، ولعل المعنى الاخير الذى ذكره

---

(٩٢) الكهف ٥٣ •
(٩٣) معاني القرآن ٢/١٤٧ •
(٩٤) ص ٢٤ •
(٩٥) معاني القرآن ٢/٤٠٤ •
(٩٦) البقرة ٢٤٩ •
(٩٧) ابن الانباري ٣ •
(٩٨) مجمع البيان في تفسير القرآن ٢/٣٥٥ •

الطبرسي هو المتفق مع المعنى الاصيل للفعل وهو أولى التفسيرات بالاخذ ، لان الآية تبحث فكرة الجهاد في سبيل الله ، وفيها بعد قوله ملاقو الله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) ، فالمجاهدون يظنون انهم مقتولون في هذه الساعة ، والله يشجعهم ويبث فيهم العزم ويصبّرهم على الجهاد ، فمعنى (ظَنَّ) هو هو لم يتغير .

أضف الى ذلك ان القدماء استفادوا من الفعل (ظَنَّ) في القرآن معاني أخر لا صلة لها بالمعنيين المتضادين ، فهم حين عرضوا لقوله تعالى حاكياً عن يونس : (وذا النّون اذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لَنْ نَقدِرَ عَليه)[٩٩] لم يستطيعوا ان ينسبوا للفعل معنى الشك ولا معنى اليقين ، قال ابن الانباري : (أراد : رجا ذلك وطمع فيه ، ولا يقول مسلم ان يونس تيقن ان الله لا يقدر عليه)[١٠٠] ، فابن الانباري يحاول أن يجد مخرجا للفعل (ظَنَّ) ينسجم مع الايمان بنبوة يونس وعدم شكه بقدرة الله ، في حين نجد الطبرسي يقر بمعنى الشك في (ظَنَّ) ولكنه يبحث عن المخرج في غيره من الآية اذ يقول : « فظن أن لن نقدر عليه : أي لن نضيق عليه عن عطاء وجماعة من المفسرين ، وقيل : ظن أن لن نقضي عليه ما قضيناه ، والقدر بمعنى القضاء عن مجاهد وقتادة والكلبي والجبائي ، قال الجبائي : ضيق الله عليه الطريق حتى ألجأه الى ركوب البحر ثم قذف فيه فابتلعته السمكة »[١] . فالتوجيه عند الطبرسي انصب على (لن نَقدِرَ عَليه) ولم يشمل (ظن) ، لانه كما يظهر غير قائل بتغير معنى الفعل في هذه الآية ، ومهما يكن من أمر فان جميع المعاني التي الصقت بالفعل مستفادة من خارج مادته الاصلية ، اذ هي تدور مع فكرة النص وتغير مفهومه لدى المفسرين والعلماء .

---

(٩٩) الانبياء ٨٧ .

(١٠٠) ابن الانباري ٣ .

(١) مجمع البيان ٧/ ٦٠ .

وكذلك (وَراء) التي قالوا انها تأتي بمعنى خلف وأمام ، اما الاول فهو المعروف ، واما الثاني ففي قوله : (مِن وَرائِه جَهَنَّم)[2] أي قدامه وامامه[3] ، وقوله : (وَراءَهم يوماً ثَقيلا)[4] أي قدامهم[5] ، وقوله : (وكانَ وَراءَهم مَلِك)[6] أي امامهم ملك[7] . ومع ذلك فقد اختلفوا في بعضها ، فلم يقل الفرّاء في الآية الاولى انها بمعنى أمام ، وانما قال : « مِن وَرائِه جَهَنَّم : أي بين يديه »[8] ، وهذا المعنى عند الفراء غير مطرد في (وَراء) وانما هو مشروط في المواقيت ، اذ يقول : « ولا يجوز أن تقول لرجل وَراءك : هو بين يديك ، ولا لرجل بين يديك : هو وَراءك ، انما يجوز ذلك في المواقيت من الايام والليالي والدهر ، ان تقول : وَراءك برد شديد وبين يديك برد شديد ، لانك انت وراءه ، فجاز لانه شيء يأتي ، فكأنه اذا لحقك صار من ورائك ، وكأنك اذا بلغته صار بين يديك . فلذلك جاز الوجهان »[9] ولعل هذا الخلاف في تحديد معنى (وراء) في الآيات الكريمات يؤيد ما ذهبنا اليه سابقاً من أن اللفظة تعني في الاساس (المواراة والاستتار) وهو معنى يصدق على الخلف والأمام وغيرهما مما كان متوارياً ومستوراً ، ونقلنا عن الآمدي أنه شرط ذلك في الاشياء التي لا يقع عليها النظر دون غيرها ، والا فوراء بمعنى خلف لا غير ، ونفى الزجاج على هذا الاساس ضدية (وَراء) وقال : « وراء : يكون

---

(2) ابراهيم ١٦ .

(3) مجاز أبي عبيدة ١/٣٣٧ .

(4) الانسان ٢٧ .

(5) مجاز أبي عبيدة ٢/٢٨٠ .

(6) الكهف ٧٩ .

(7) معاني القرآن ٢/١٥٧ .

(8) معاني القرآن ٢/١٥٧ .

(9) معاني القرآن ٢/١٥٧ .

للخلف ولقدام ، ومعناها ما توارى عنك أي ما استتر عنك . قال : وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة »[١٠] ولو رجعنا الى الآيات التي قيل ان (وراء) فيها تعني (امام) أو (بين يديه) لوجدنا ان الاشياء التي تشير اليها هي مما لا يعاين ولا يقع عليها البصر ، فالاستعمال القرآني جارٍ على المعاني الاصلية للفظة ، والاّ فلماذا لم يقولوا ان في قوله تعالى : (فَبَشَّرناها بِإسْحاق ومِن وَراءِ إسْحاق يَعْقوب)[١١] ، وقوله : (واذا سألْتُموهُنَّ مَتاعاً فاسْألوهُنَّ مِن وَراءِ حِجاب)[١٢] وقوله : (إنّ الذين يُنادونَكَ مِن وَراء الحُجُراتِ أكثرُهم لا يَعْقِلون)[١٣] ، وغير ذلك كثير من آيات القرآن ، لماذا لم يقولوا ان وراء فيها بمعنى أمام ؟ لانها استعملت فيما يعاين من الاشياء فتخصص معناها بالخلف أضف الى ذلك ان معنى (وَراء) في الآيات التي قيل انها بمعنى أمام ، هو الخلف أيضاً ، ذلك أنه حين يقول (من وَرائِه جَهَنَّم) فهو يعني أنه بعد انقضاء حياته ووقوع الموت ثم الحساب يكون جزاؤه جهنم ، فهي (خَلْفَ) هذه الامور في التسلسل وكذلك (.. وراءَهم يوماً ثَقيلا) أي يَعْقب أيّامهم هذه يوم ثقيل فهو خَلْفَها أيضاً ، ومثلها (وكانَ وراءَهم ملكٌ يأخُذُ كلَّ سَفينةٍ غَصْبا) أي يتتبعهم ويقتفي أثرهم فهو خَلْفَهم . ويبدو أنهم فهموا هذه الاشياء فهما غير مرتبط بالزمن ، فكان تصورهم لها وكأنهم يستقبلونها فكانت بهذا التفسير (أمامَهم) .

ومن هذه المواد القرآنية التي اختلفوا في تفسيرها في المصحف ، فاكتسبت الضدية عن هذا الطريق : (يَهيج)[١٤] و (الحِين)[١٥]

---

(١٠) لسان العرب ١/١٩٣ .
(١١) هود ٧١ .
(١٢) الاحزاب ٥٣ .
(١٣) الحجرات ٤ .
(١٤) غريب القرآن لابي بكر السجستاني ٥٦ .
(١٥) النخل لابي حاتم (مخطوط) ٢ .

و (أنْداد)[١٦] و (بَعْض)[١٧] و (شَرَوْا)[١٨] و (عَسى)[١٩] وغيرها كثير ، مما كانت نظرة القدماء المثالية للنص القرآني وراء قولهم بتضادها .

نخلص من هذا الى ان القرآن لم يستعمل هذه الالفاظ على أنها أضداد كما يزعم الأضداديون ، وانما أوهمهم بذلك اغفالهم لاختلاف القراءات في القرآن ، وآثار اللهجات فيه ، وقياسهم الاستعمال القرآني على الشاهد الشعري دون محاولة استقراء اللفظة التي هم في صدد معالجتها ، في جميع مواضعها في القرآن ، وتمسكهم بالنقل في تحديد المعنى متجاهلين ما يوضحه السياق من تخصيص الدلالة وتعيينها ، بعيدين عن ملاحظة ما يتقدم الآية وما يتأخر عنها من آيات تشرح فكرتها وتبين غامضها ، مدفوعين في ذلك الى ما يرون أنه هو المعنى المفترض في كلام الله وان خالف عربية القرآن نفسه ، وكنا قد أشرنا الى شيء من هذا في الفصل الذي عقدناه لتفسير التضاد ، وعرضنا له عند الكلام على كتب الاضداد ، وبيّنا مبلغ التعسف الذي انجرّ اليه الأقدمون من هذه الناحية ومقدار الغلو الذي وقعوا فيه .

المعجمات اللغوية

لا نريد أن ندرس هنا تاريخ وضع المعجمات أو نعرض الى مناهجها في التصنيف والجمع ، وانما نريد أن نستقري مادتها فيما يخص موضوعنا (الاضداد) لعلها توقفنا على شيء من تاريخ اللغة وتطوّر دلالة مفرداتها المختلفة ، ذلك ان كثيرا من الاختلافات اللفظية والمعنوية كان ناجماً عن بقاء العربيّة أمدا طويلا تسير بالمشافهة ، ويجب ألاّ يغرب عن بالنا أن كثيرا

---

(١٦) مجاز أبي عبيدة ١/٣٤ .
(١٧) أبو عبيدة ٢/٢٠٥ وانظر الرد في الطبري ٢٥/٥٠ .
(١٨) أبو عبيدة ١/٤٨ ومعاني الفراء ١/٣٠ ، ١/٥٦ .
(١٩) أبو عبيدة ١/١٣٤ ومعاني الفراء ٢/٣٠٩ .

من هذه الاختلافات أيضا كان من اصطناع الرواة أنفسهم نسيانا منهم أو رغبة في اظهار المعرفة ، ومصنفاتهم اللغوية مليئة بالروايات التي تثبت هذا . أضف الى ذلك ان هؤلاء الرواة كانوا يأخذون اللغة عن فصحاء أعراب البادية ، ولم يكونوا منزهين عن الخطأ أو النسيان أيضاً في وقت كانت اللغة تعرف فيه بالحفظ والمشافهة دونما نصوص مكتوبة يرجع اليها فيها .

ثم ان وضاع المعجمات وعلماء اللغة كثيرا ما نقلوا عن مدونات الاعراب والرواة زيادة على السماع منهم . ولما كان من هذه المدونات ما ينقصه الدقة ، كان هناك مجال للتصحيف ، وزاد ذلك ما يمكن أن يكون قد وقع فيه الوراقون من أخطاء وهم ينسخون المعجمات والكتب اللغوية ، وقد أشار القدماء الى كثير من هذه الأوهام ونبهوا اليها وصححوا قسما منها ووضعوا مصنفاتهم يقومون بها هذه الاخطاء ، كالذي فعله علي بن حمزة مثلا في كتابه (التنبيهات) والحريري في كتابه (درة الغواص) .

واستقراء المعجم اللغوي ـ كما قلنا ـ يوقفنا على أشياء كثيرة تتصل بتاريخ اللغة ، كاختلاف اللهجات مثلا ، على أن المعجمات لم تلتزم النص على جميع استعمالات القبائل ، ولم تقيد كل خلافاتها اللغوية ، وانما كانت تشير الى طرف من ذلك ، هذا عدا أنها كانت تلصق كثيرا من الاستعمالات الغريبة بقبائل معينة منزوية لا تعداها ، والمعجمات كذلك باعتبارها كتباً أحصت أكثر معاني اللفظة وانصرافاتها المختلفة ، تبصرنا بالتطور الدلالي الذي رافق اللفظة في مسيرتها الطويلة ، ومن أجل ذلك فنحن نستطيع أن نرجع الى هذا التطور كثيرا مما يشم فيه التضاد ، ومن المعجمات ما ينص على المعاني المجازية للفظة الى جانب معناها الحقيقي كأساس البلاغة . ومنها ما أضاف الى كل ذلك عرض اختلافات العلماء والفقهاء والمفسرين في تحديد معنى لفظة وردت في الشعر أو القرآن كلسان العرب وتاج العروس .

ومن هنا كانت دراسة الاضداد في المعجمات اللغوية ضرورية لاستكشاف ما يمكن استكشافه من حقائق تتصل بدلالة اللفظة وتفسير تضادها ، بالاستعانة بمقارنة المعاني فيما بينها وتحديد سبيل تطورها ، مع أخذ جميع الملاحظات السابقة بعين الاعتبار ، للوصول الى أسلم النتائج في دراسة أمثلة مختلفة من الأضداد :

ولنأخذ مادة (الخَشِيب) التي ذكرت لها المعجمات اللغوية معنيين متضادين وصرحت بضديتها ، يقال : سيفٌ خَشيبٌ للصّقيل ، وسيفٌ خَشيبٌ للذي لم يُصقل وهو الخَشِن[٢٠] ، والمعجمات غير متفقة على تضاد اللفظة ، فالاساس لم يذكر الا المعنى الثاني ، وعلّلَهُ الزمخشري بقوله : « وهو من الخَشَب »[٢١] اذن فهناك ما يدعو الى التثبت من صحة نسبة المعنى الآخر للفظة • وبالرجوع الى مادة (قَشَبَ) في هذه المعجمات ، نجد انها نسبت للقَشيب من السيوف المعنيين عينهما دون تغيير[٢٢] • فباستطاعتنا في هذه الحالة ان نرجح امكان الابدال الذي عرض لهاتين المادتين فألصق بكل واحدة من الصورتين معنى الاخرى الى جانب معناها الاصلي ، اذ تكون (خَشيب) للذي لم يصقل واشتقاقها من الخشب واضح كما صرح الزمخشري ، وتكون (قَشيب) للصقيل وللجديد وهو معناها الشائع ، الا ان أجيال المتكلمين ابدلت الصوت الاول في كل واحدة منهما فعلقت بها الضدية بهذه الصورة ، ونقلتها المعجمات على انهما ضدان ، وعلى ذلك كتب الاضداد أيضاً[٢٣] • ومثلها :

---

(٢٠) لسان العرب ١/٣٥٢ وتاج العروس ٢/٣٥٤ والقاموس المحيط ١/٦١ ، وانظر : التكملة والذيل والصلة ١/١١٦ •

(٢١) أساس البلاغة ١١١ •

(٢٢) لسان العرب ١/٦٧٤ وتاج العروس ٤/٣٦ وأساس البلاغة ٣٦٦ والتكملة والذيل ١/٢٤٠ والقاموس المحيط ١/١٦١ •

(٢٣) انظر : ابن السكيت ١٩٨ وابن الانباري ٣٢٧ ، ٣٦٣ •

(رَقَأَ ورَفَأَ[٢٤]) و (لَمَقَ ونَمَقَ)[٢٥] و (ذَبَر وزَبَر)[٢٦] و (أَسَرَّ وأشَرَّ)[٢٧] و (السَّبْح والسَّبْخ[٢٨]) و (أنْجَبَ وأنْخَبَ)[٢٩] و (لَفَأَ ولَكَأَ)[٣٠] وغيرها مما يمكن ان يرد الى هذا الابدال الذى يعرض للاصوات المتقاربة المخارج ، على اننا نذهب الى تفسير بعضها بالتصحيف الذى اشرنا اليه ، لعدم توفر هذا القرب بين مخرجي الصوتين كالذى بين رَقَأَ و رَفَأَ وبين أنْجَبَ وأَنْخَبَ مثلا ، وكنا قد عرضنا الى هذه المواد عند مناقشتنا للاضداد وتفسيرها في اللغة وادرجناها في الطائفة التي ارجعنا نشأة التضاد فيها الى التطور الصوتي أو التصحيف أو الخطأ في السمع • ويمكن أن يلحق بهذا النوع من الاضداد التي ذكرتها المعجمات مادة (بَرَّد) التي قالوا انها تأتي بمعنى سخّن أيضا استنادا الى قول الشاعر (بَرِّدِيه) وهو (بَلْوِدِيه)[٣١] ، وكذلك مادة (المُعَبَّد) استنادا الى قول الشاعر (أرى المالَ عِنْدَ الباخِلين مُعَبَّدا)[٣٢] وكنا قد رجحنا انها (الباذِلين) نسخت خطأ ، ومر الكلام عليهما في مواضع سابقة من هذه الرسالة فلا نكرره •

فاذا انتقلنا الى مادة (صَرَدَ) نجد ان المعجم ينص على ضديـــة

---

(٢٤) اللسان ١/٨٨ والقاموس ١/١٦ والتاج ١/٢٥١ •

(٢٥) الاساس ٤١٥ واللسان ١٠/٣٣٢ والقاموس ٣/٢٨١ ، ٢٨٦ •

(٢٦) اللسان ٤/٣٠١ والتكملة ٢/٥٢٣ والقاموس ٢/٣٤ ، ٣٧ •

(٢٧) اللسان ٤/٣٥٧ والقاموس ٢/٤٧ ، ٥٧ •

(٢٨) التكملة ٢/٣٩ ، ١٤٩ والاساس ٢٠٠ والقاموس ١/٢٢٦ ، ٢٦١ والتاج ٦/٤٥١ •

(٢٩) التكملة ١/٢٧٣ والتاج ٤/٢٤١ ، ٢٤٩ والقاموس ١/٣٠ •

(٣٠) التكملة ١/٤٨ والاساس ٤١١ والقاموس ١/٢٧ •

(٣١) اللسان ٣/٨٢ والتاج ٧/٤٢٨ •

(٣٢) القاموس ١/٣١٢ والتاج ٨/٣٤٠ والتكملة ٢/٢٧٨ ولم يـذكـر الاساس ٢٩١ الا معنى المذلل •

(مِصْراد) المشتقة منها ، فهي للرجل الذى يشتد عليه البرد ولا يطيقه وللرجل القوى على البرد[٣٣] • الا ان المعجم نفسه يوقفنا على حقيقـــة تاريخية في هذه المادة ، وهي ان جذرها (صَرَدَ) ليس عربيا وانما هـو فارسيّ معرب كما صرّح بذلك الجوهري ، فالصَّرْدُ يعني بالفارســية البَرْد[٣٤] • فاذا كان كذلك فاللفظة المشتقة لا تحمل التضاد في وضعهـا الاول لان أصلها دخيل ، وهي حين شاعت في العربية توسع في استعمالهـا بحيث اطلقت على كل ما يتصل بالبرد من معان ، ولم يقتصر في (المِصْراد) على المعنيين المتضادين فهي : الرجل الذى لا يصبر على البرد ، والذى يشتد عليه البرد ، والذى يقل تحمله له ، والذى يجد البرد سريعا •• الخ[٣٥] ، فهي معان تدور ـ في صفة الرجل ـ مع البَرْد واشتداده وشعور الانسان به • وقالوا أيضا : جيشٌ صَرِدٌ أي جامد ، والصّـــرْد أبرد مكان في الجبال ، والصَّريدَة هي النعجة التي أنحلها البرد ، والعَنْزُ الصّرِدَةُ المُقْشَعِرّة ، وصَرِدَ السَّقاء صرداً اذا خرج زبده متقطعا فيداوى بالماء الحار[٣٦] • وغير ذلك من المعاني التي يتضح منها التوسع في اطلاق مشتقات الاصل الاول ، وفي كلها يبرز المعنى الفارسي جامعا مشتركا بين هــــذه المعـــاني •

وتكشف لنا مادة (سَجَدَ) عن طرف آخر من تاريخ اللغة ، الا وهو اللهجات واختلافها في معاني الالفاظ ، فقد ذكرت المعجمات انها تعني وضع جبهته على الارض وتعني انتصب[٣٧] ، على خلاف في ذلك اذ لم يذكـــر

(٣٣) لسان العرب ٣/٢٤٨ •
(٣٤) اللسان ٣/٢٤٨ •
(٣٥) نفسه ٣/٢٤٨ •
(٣٦) التكملة ٢/٢٦٤ ـ ٢٦٥ •
(٣٧) التكملة ٢/٢٤٧ واللســان ٣/٢٠٤ والتــاج ٨/١٧٢ والقــاموس ١/٣٠٠ •

الاساس الا معنى الميل والتطـــامن[٣٨] ، ذلك ان المعجمات التي صرحت بضديتها نسبت معنى الانتصاب الى لغة طيء من قبائل العرب ، وقائل هـذه النسبة هو الخليل ، لان المعجمات نقلت عن الازهري الذي صرح بأن ذلك لا يحفظ لغير الليث ، ولم ينقل عن الليث (أي الخليل) أنه صرح بضدية اللفظة ، وانما هم استفادوا من تخصيصه لمعنى الانتصاب في لهجة طيء تضاد هذه اللفظة ، فكان الخليل أبعد من هؤلاء نظرا للمسألة فكأنه حين وجد أن البيئات العربية اختلفت في معنى اللفظة أدرك أن التضاد ليس أصيلا فيهـا ، وانما هو حادث بعد توحد لغات هذه البيئات ، وقد مرّ بحث هذه الناحيـة بالتفصيل في دراسة عوامل نشأة التضاد ، حيث نضيف الى المادة السابقـة مادة (قَنَعَ) التي مرت في دراستنا على أنها تعني : رَضِيَ بما هو فيـه وتعني سَأَلَ ، وعلى ذلكما المعنيين كتب الاضداد ومعجمات اللغة دون اشارة منها جميعا الى لغة فيها ، غير ان الخليل ذكر في (القُنُوع) معنيين متضادين آخرين فقال : « والقُنوعُ بمنزلةِ الهُبوطِ ـ بلغة هذيل ـ من سفحِ الجَبلِ ، وهو الارتفاع أيضا »[٣٩] • ولعل ذلك يشير الى أن في المسألة تطورا حصل لهذه اللفظة في بيئة لغوية ، اذ ارتبط معنى القنوع الذي قلنا سابقا انه مبدل من الكنوع الذي يعني الخُضـوع ، ارتبط هـــذا بمعنى الهُبوط ، اذ الهُبوط نوع من الخضوع والقنوع في الاحساس الانساني ، وبالمقابل ارتبطت القناعة التي تعني الرّضا بالقسم بمعنى الارتفـــاع ، لان القناعة شيء محبّب ومما تفخر به النفس فترتفع المشاعر ، ولهذا فان الخليل لم يصرح بضدية (قَنَعَ) لانه ارجع معنى الرضا الى القناعة ، ومعنى السؤال الى القنوع فالفعلان مختلفان في الاصل ، كما لم يصرح بضدية القُنُوع لانه ارجع أحد المعنيين الى لغة هذيل • ومثل هذه الحقيقة في اختلاف البيئـــات

---

(٣٨) أساس البلاغة ٢٠٢ •
(٣٩) العـين ١٩٣ •

اللغوية ما نجده في مادة (وَثَبَ) التي تعني طفر عند عامة العرب وتعني قعد بلغة حِمْيَر[٤٠] ، وغيرها كثير مما مرّ في دراستنا سابقا •

وتشير المعجمات الى التطور الذي يحصل للمعاني عن طريق المجاز فتكون اللفظة في نهاية المطاف من الاضداد ، فمثلا مادة (جَعْد) التي ذُكر أنها من الاضداد تعني البخيل والكريم[٤١]، وتقصي هذه المادة في معجمات اللغة يوضح لنا الطريق التي سلكتها الى التضاد ، فأول ما وصف بالجعد هو الشّعر لتجمعه وتقبضه ، ثم قيل : رجلٌ جَعْدُ الاصابع وجَعْدُ البَنان كنايةً عن بُخْلِه ، كأنه تتجمع أصابعه على ما في يده فلا يعطي ، واطلقت هذه الصفة على الذئب لبخله ، فكانت (جَعْد) بهذا المجاز تعني البخيل ، ثم رجع الى جعودة الشَّعْر فرأوا أنها صفة العربي وهي الغالبة على شعره ، تقابلها سبوطة الشعر التي هي الغالبة على شعور العجم والروم ، ولما كان العرب هم المعروفون من بين جميع الاقوام بالكرم ، كان اطلاق صفة الجعودة على أي عربي كافيا للاشارة الى صفة الكرم فيه ، ولهذا انصرفت لفظة (الجَعْد) هذا الانصراف الذى يضاد الاول ، فكانت من الاضداد • والظاهر ان معنى الكرم تأخر عن الاول بدليل أن الخليل لم يذكره في معاني هذه اللفظة[٤٢] ، ولان الاصمعي قال : « زعموا ان الجَعْد السخيّ قال : ولا أعرف ذلك ، والجَعْد البَخيل وهو معروف »[٤٣] • ومثل هذه المادة : (المَفازَة)[٤٤] و (الكَأس)[٤٥] و (النّاهِل)[٤٦] وغيرها •

---

(٤٠) التكملة ٢٨٢/١ واللسان ٧٩٢/١ والقاموس ١٣٥/١ •
(٤١) الاساس ٦٠ واللسان ١٢٢/٣ والتاج ٥٠٢/٧ •
(٤٢) العين ٢٤٩ •
(٤٣) التاج ٥٠٣/٧ •
(٤٤) الاساس ٣٤٩ واللسان ٣٩٢/٥ •
(٤٥) اللسان ١٨٩/٦ •
(٤٦) نفسه ٦٨١/١١ •

وقد توسع الزمخشري في تتبع هذه المسألة في مواد اللغة ، فأوقفنا على الاستعمالات المجازية في ألفاظ الاضداد ، ففي (قَعَدَ) مثلا يقول : « ومن المجاز : قَعَدَ عن الامر : تركه • وقَعَدَ له : اهتمَّ به • وقَعَدَ يشْتِمني : أقْبَل •• »[٤٧] ، ومرّ ان الاضداديين فسّروا (قَعَدَ يَشْتِمني) بأن معناه (قام) وعليه فقعد من الاضداد، والزمخشري يبين أنها استعمال مجازى تطورت اليه اللفظة وليس معنى القيام أصيلا في اللفظة • ومثلها : (بَسْل)[٤٨] و (سَجَر)[٤٩] •

ويهيء لنا استقراؤنا للاضداد في المعجمات اللغوية الوقوف على المدلول القديم الشامل للفظة ، ذلك الذى يتطور بحكم شموليته الى مدلولين متضادين يرجعان اليه ، وهو الذى سماه القدماء (الأصْل) ، فمثلا نجد في مادة (طَرِبَ) انها من الاضداد تعني الفرح وتعني الحزن ، ولكننا نعثر في تضاعيف كلامهم على هذه المادة انها كانت تعني في الاصل (الحركة أو الخفة) التي تلحق الانسان في حال فرحه أو حزنه[٥٠] • وكذلك (القُرْء) للحيض والطهر فانه يرجع الى معنى (الوَقْت)[٥١] • و (الخِنْذيذ) للفحل والخصي فانه يرجع الى معنى (الفائق) من كل شيء[٥٢] • و (الجَعْفَر) للنهر الصغير والنهر الكبير وكلاهما يرجعان الى معنى (النَّهْر) مطلقا[٥٣] • و (البَيْع والشِّراء) كل منهما بمعنى الآخر

---

(٤٧) الاساس ٣٧٢ •
(٤٨) الاساس ٢٢ وانظر : اللسان ١١/٥٥ •
(٤٩) الاساس ٢٠٣ وانظر : اللسان ٤/٣٤٥ •
(٥٠) الاساس ٢٧٧ والتكملة ١/١٩٣ واللسان ١/٥٥٧ والقاموس ١/٩٧ والتاج ٣/٢٦٨ •
(٥١) الاساس ٣٦٠ واللسان ١/١٣٠ والتاج ١/٣٦٦ •
(٥٢) اللسان ٣/٤٨٩ والتاج ٩/٤٠٤ •
(٥٣) اللسان ٤/١٤٢ والتاج ١٠/٤٤٥ •

وكلاهما يرجعان الى معنى (المُبادَلَة)[٥٤] ، و (القَلْت) للحفرة الصغيرة وللحفرة الكبيرة والاصل فيهما (الحُفْرَة) مطلقا[٥٥] ، و (الوَراء) للخلف والقدام والاصل (المُواراة)[٥٦] وهكذا في مواد اخرى كثيرة يتضح فيها هذا اللون من التطور التاريخي للاصل المعنوى القديم على جهة تخصيصه في المتضادين في الاستعمال ، وهذه الحقيقة ـ كما مرّ درسها قبلا ـ تؤكد عدم توفر الضدية الاصيلة في هذه الالفاظ ، وتشير الى السبيل التي سلكها كل منها حتى وصل الى التضاد .

ونقف في المادة المعجمية على التطور الدلالي العام للالفاظ ، ففي مادة (الشَّعْب) مثلا نجد الى جانب معنييها المتضادين معاني اخرى توضح درجات التطور ومراحله ، فقد ذكروا انها تعني الجمع والتفريق ، ولكننا نجد كذلك : الشُّعَبُ الاصابع ، والشَّعْب القبيلة العظيمة ، والجبل ، وموصل قبائل الرأس ، وبكسر الشين : مسيل الماء في بطن الارض ، وما انفرج بين الجبلين ، والشَّعَبُ بالتحريك : ما بين المنكبين وما بين القرنين ، والشُّعبة الطائفة من الشيء ، وطرف الغصن ، وما عظم من سواقي الاودية ، ومن المجاز : التأم شَعْبُ بني فلان اذا تجمعوا بعد تفرق ، وشتّ شَعْبُهم اذا تفرقوا بعد اجتماع ، والشَّعْب الحي الذى يَتَشَعَّب من القبيلة ... الخ[٥٧] . فنحن نجد بعد ملاحظة هذه المعاني ان الاصل فيها هو القبيلة مطلقا ، ثم القبيلة العظيمة لان عظمها يهيؤها للانشطار ، ثم الحيّ الذي يتشعَّب من هذه القبيلة لانه صائر الى أن يكون قبيلة وشَعْباً ويعظم وينشطر كما حدث لتلك ، ثم صارت القبائل المتفرعة جميعا شُعوب واحدها

---

(٥٤) اللسان ٨/٢٣ .
(٥٥) اللسان ٢/٧٢ .
(٥٦) التاج ١/٤٨٦ .
(٥٧) العين ٣٠٦ والاساس ٢٣٦ والتكملة ١/١٧١ واللسان ١/٤٩٧ والقاموس ١/٨٨ والتاج ٣/١٣٣ .

شَعْب ، وبقي لموصل قبائل الرأس لفظ الشَّعب ، فصار لكل شيء ذى اطراف متفرعة عنه يقال شُعَب ومنه قيل لاصابع اليد الواحدة شُعَب واحدتها شُعْبَة وهي الطائفة من الشيء ، وهكذا حتى اطلق على كل انشطار شعب ، وعلى كل تجمع شعب ، ولذا قيل : التأم شَعْبُهم تجمعوا وشَتَّ شَعْبُهم تفرقوا ، فاجتمع في اللفظة معنيا التجمع والتفرق فكانت من الاضداد ، ولكن ضديتها غير اصيلة كما رأينا وانما تمت بفعل هذا التطور المستمر في دلالتها حتى تداخلت المعاني فيما بينها واستقرت بعدئذ على التضاد ، ولا يخفى ان ما ذكر لهذه اللفظة من معنى الاصلاح والافساد انما هو متصل بمفهوم التجمع والتفرق ، لان في التجمع اصلاح وفي التفرق افساد ، ثم صار المعنى يطلق على كل اصلاح حتى اصلاح الاناء المنشعب وبعكسه الافساد • ومثل هذه المادة : (عَسْعَس)(٥٨) و (نَشَد)(٥٩) و (الرَّهْو)(٦٠) وغيرها مما يمكن لحظ التطور الدلالي فيه وتتبع آثاره في مسالكه المتعددة •

ونلمح في المعجم اللغوى أيضا اشارات الى دور التصريف واختلاف الصيغ في تغيير المعنى بل في قلب المعنى الى ضده ، وهي اشارات قديمة تشعرنا بحدوث مثل ذلك في المراحل المتقدمة من تاريخ اللغة ، فمثلا في مادة (هَجَدَ) التي قالوا انها تعني نام وتعني سهر ، نجد انهم كثيرا ما أرجعوا معنى النوم الى الفعل المجرد ، ومعنى السّهر الى المزيد بالتاء وتضعيف العين(٦١) ، حيث يكون الفعل مصوغا لسلب المعنى ، لان صيغة (تَفَعَّل) تفيد معنى السَّلب ، يقول الازهري : « والمعروف في كلام العرب أن الهاجد

---

(٥٨) العين ٨٥ والاساس ٣٠١ واللسان ٦/١٣٩ •

(٥٩) الاساس ٤٥٦ واللسان ٣/٤٢١ والتاج ٩/٢٢٠ والعين (المخطوط) : مادة نشد •

(٦٠) اللسان ١٤/٣٤٣ •

(٦١) الاساس ٤٧٩ واللسان ٣/٤٣١ والتاج ٩/٣٣٤ •

هو النائم ، وهَجَدَ هُجوداً اذا نام ، وأما المُتَهجِّد فهو القائم الى الصلاة من النوم ، وكأنه قيل له مُتَهجِّد لالقائه الهُجود عن نفسه ، كما يقال للعابد مُتَحَنِّث لالقائه الحِنْث عن نفسه »(٦٢) • ومثل هذه المـــادة : (مُغَلَّب)(٦٣) و (أَضْعَفَ)(٦٤) و (عَــرَّبَ) (٦٥) و (أَطْلَبَ)(٦٦) و (تَأَثَّم)(٦٧) و (جَفَا)(٦٨) و (الصَّارِخ)(٦٩) وغيرها مما نستشعر فيها جميعا انها اكتسبت الضدية بهذه الطريقة من تلاقح صيغتين مختلفتين ونشأة معنيين متضادين يلصقان بالمادة الاصلية بعد أن يُنْسى الدور القديم الذى لعبه اختلاف الصيغ وتغيّر التصريف ، ومر تفصيل ذلك في البـــاب الاول •

واخيرا فنحن واجدون في هذه المعجمات شيئا من مناقشات اصحابهـــا لما بين أيديهم من المعاني وكأنهم لمسوا فيها ما يدعو الى التأمل والتنبه فأحبوا تسجيل ملاحظاتهم بين خضم هذه المواد المجمعة ، فمثلا ينقلون لنا عن ابن الاعرابي انه قال : التَّغْريبُ أن يأتي ببنين بِيض وبنين سُود ، فهو اذن من الاضداد(٧٠) ، قال صاحب التاج : « قال شيخنا : هذا تعقبوه ، وقالوا : لا ضدية فيه فان التَّغْريب هو الاتيان بالنوعين جميعا ، والاتيان بكل واحد من النوعين على انفراده لا يسمى تغريبا حتى يكون من الاضداد » (٧١) •

---

(٦٢) التاج ٩/٣٣٤ •
(٦٣) الاساس ٣٢٦ واللسان ١/٦٥١ •
(٦٤) العين ٣٢٨ ـ ٣٢٩ •
(٦٥) الاساس ٢٩٦ •
(٦٦) اللسان ١/٥٦٠ •
(٦٧) اللسان ١٢/٥ •
(٦٨) التاج ١/١٧٨ •
(٦٩) الاساس ٢٥٢ واللسان ٣/٣٣ والتاج ٧/٢٩٠ •
(٧٠) اللسان ١/٦٤٠ والتاج ٣/٤٧٦ •
(٧١) التاج ٣/٤٧٦ •

وذكر الفيروزابادى أن أَسادَ وأَسْوَدَ بمعنى واحد وهو : ولد غلاماً سيداً أو غلاماً أسود ، ضد[٧٢] . قال صاحب التاج : « قال شيخنا نقلا عن بعض أئمة التحقيق : انه لا تضاد بينهما الا بتكلّف بعيد . وهو أن السَيّد في الغالب أبيض ، والعبد في الغالب أسوَد ، وبين السَّوادِ والبياضِ تضاد كما بين السيد والعبد ، فتأمَّل »[٧٣] ، والزمخشري لم يذكر في هذه المادة الا المعنى الثاني « أسْوَدَتْ فُلانة : وَلَدتْ سُودا »[٧٤] .

وذكروا أن (النُكْد) بالضم : الغزيرات اللبن من الابل ، والتي لا لبن لها ، ضد[٧٥] . وزعم الصغاني ان المعنى الثاني تفرد به ابن فارس وقد خالفه الناس ونقل هذا عن الصغاني صاحب التاج[٧٦] . ويبدو أن المادة وصلت لابن فارس مصحفة ، ذلك اننا نجد في مادة (مكَد) انهم يقولون : المكُود : الناقة الدائمة الغزر ، والناقة القليلة اللبن ، ضد[٧٧] . ونسبوا المعنى الثاني للخليل الذى انشد له :

قَدْ حَارَدَ الخُــور ومـا تُحَـارِدُ
حتّــى الجِــلاد دَرُّهــنَّ ماكِــدُ

أي ناقص ، وقد ردّ الازهري ـ دون وجه حق ـ على الخليل وغلطه ، فقال : « وانما اعتبر الليث قول الشاعر (حتّى الجِلاد درّهُنّ ماكِدُ) فظن أنه بمعنى الناقص ، وهو غلط ، والمعنى : حتى الجلاد اللواتي درهنّ ماكِد أي دائم قد حارَدْنَ أيضا ... ومثل هذا التفسير المحال الذى فسّره اللّيث في مكدت الناقة مما يجب على ذوى المعرفة تنبيه طلبة هـذا

(٧٢) القاموس ١/٣٠٤ .
(٧٣) التاج ٨/٢٢٥ .
(٧٤) الاساس ٢٢٣ .
(٧٥) التاج ٩/٢٣٧ والتكملة ٢/٣٥٣ .
(٧٦) المصدران السابقان وانظر : مقاييس اللغة ٥/٤٧٦ .
(٧٧) التاج ٩/١٨٦ .

الباب من علم اللغة عليه ، لئلا يتعثر فيه من لا يحفظ اللغة تقليداً لليث ، قال : والصحيح أن يقال المكداء والمكود ، هي الدائمة الغزر الكثيرته ، والجمع مُكْد وابل مكائد »(٧٨) • والذى نفيده من هذا أن (المُكْد) التي تعني القليلة اللبن كما قال الخليل ، قد وصلت الى ابن فارس بالنون خطأ فصرح بمعناها الذى نقلناه عنه ، والظاهر ان الزمخشري نقل عن ابن فارس هذا المعنى في (النُكْد) في معجمه(٧٩) • ولعل الازهري في المقابل توهم في (المُكْد) التي تعني اصلا القلة ، معنى (النُكْد) التي تعني اصلا الكثرة ، فغلّط الخليل جهلا منه بالاصلين ، ذلك ان تفسيره لمعنى (ماكِد) في البيت يدل على عدم فهمه له كما فهمه الخليل ، والمعنى واضح ، اذ يريد الشاعر ان النياق قد قل لبنها حتى الجلاد منها وهي أدسم الابل لبنا ، فالقلة هي المقصود معناها في البيت • ومهما يكن من أمر فان هذه الآراء والمناقشات والردود ، تكشف لنا هي الاخرى عن قدم الفوضى في الجمع والتدوين ، وعن عدم التثبت الذى وقعت فيه مصنفات الاوائل مما أشرنا في أول الحديث اليه ،وعن تمكن الخطأ والتصحيف من مدونات اولئك ، كما تشير تنبهاتهم الى تفسير المعاني المتضادّة الى تحسّسهم بمشكلة التضاد في اللغة وضرورة تأمل ما ورد من هذه المعاني •

نخلص من ذلك الى أن معجمات اللغة القديمة تقدم لنا شيئاً مهماً من تاريخ اللغة ومراحل تطورها خلال عصورها الطويلة ، فاستقراؤنا لمواد الاضداد فيها أوقفنا على ألوان مختلفة وصور متنوعة من آثار تلك المراحل التاريخية ، من ذلك ما يتصل بالتطور الصوتي والابدال ، ومنها ما يتصل بالمواد الدخيلة المعرّبة ، ومنها ما يتعلق باختلاف اللهجات ، وما يتعلق

---

(٧٨) التاج ١٨٦/٩ •
(٧٩) الاساس ٤٧٢ •

بالتطور الدلالي الخاص بالاصل القديم الشامل ، والتطور الدلالي العام الذى يشمل جميع مواد اللغة ومنها الاضداد اما عن طريق المجاز او انتقال مجال الدلالة للعلاقة السببية بين المجالين ، ومن ذلك ايضا ما يتصل باختلاف الصيغ والعوارض الصرفية التي أضاعت بمرور الزمن الفوارق المعنوية بين الالفاظ، الى آخر ما هنالك من ملامح مهمة نستنير بها في استكشاف مجاهيل هـــذه العَرَبيّة العَريقة •



الخاتمة

خلاصة البحث ونتائجه والجديد فيه

الخـلاصـــة

العربية التي استقرت في نصوص القرن السادس الميلادى شعرا ونثرا ، عربيّة متطورة مكتملة ، حيث تفصح اشعار الجاهليين وخطبهم وأمثالهم عن مقدرة هذه اللغة في احتواء الفكر العالي والمفاهيم الناضجة وهي على هذا ليست العربية التي اكتشفت نصوصها في النقوش القديمة التي عثرت عليها ايدى المنقبين في جنوب الجزيرة ووسطها وشماليّها ، فبين العربيتين بـون واسع ، غمض علينا سير العربية خلاله وما قطعته من أشواط طويلة حتى سمعناها من أفواه الجاهليين قبل الاسلام بأكثر من قرن على الاقل ، وقـد وصلتنا هذه العربية نامية متسعة ، غنية بالمعاني والمفردات كثيرة الصـــور والاساليب ، ولم يكن ذلك شأنها ابتداءا وانما اكتسبته بفعل عوامل معينـة وطرائق خاصة ، فكان لها في سننها في القلب والابدال والاشتقاق والنحت والمجاز والتعريب والتوليد والاتباع والترادف والاشتراك ، ما فسح لها طرق التوسع والنماء والزيادة ، مما لم يكن مطردا في غير العربية من اللغات القريبة والبعيدة اطراده في العربيّة ،

* * *

واذا كانت اللغة بصورة عامة قائمة على مبنى ومعنى هما اللفظـــة ودلالتها ، فان مشكلات العربية المتعلقة بالدلالة أكبر وأعقد بكثـير مـن مشكلاتها المتعلقة باللفظة ، ذلك ان الدلالة تتعرض للتغير والتبدل والتطور اكثر من تعرض الاصوات لذلك ، لان الشكل ارسخ من المضمون وأبقى في الاستعمال ، واذا كانت الالفاظ محددة في نموها وزيادتها بعوامل خاصة تتصل بالاشتقاق والنحت والقلب والابدال ، فان المعاني لا تخضع لمثـل هذا التحديد ، لان تطور وسائل الحضارة ونمو العقلية البشرية يستدعي نموا مستمرا وسريعا في المعاني ، قد لا تستطيع الالفاظ ملاحقته ومواكبته ، لان

الالفاظ محدودة والمعاني غير محدودة ، فتنشأ من جراء ذلك مشكلات عديدة كالاشتراك والتضاد وأشباههما ، لان المتكلم يضطر حين تدفعه الحاجة الى اطلاق لفظ على معنى جديد لا يملك ان يوجد له لفظا جديدا ، أن يستخدم في هذا المعنى الجديد لفظا قديما سبق ان اطلقه على معنى قديم ، فيكون لهذا اللفظ معنيان سابق ولاحق ، فاذا كان هذان المعنيان مختلفين أصبحت اللفظة من المشترك اللفظي ، واذا كانا متضـادين أصبحت من الاضداد •

على أن استعارة لفظ قديم لمعنى جديد لا تحدث اعتباطا ، وعلى غير أساس من صلة بين الاثنين قريبة أو بعيدة ، انما تتم هذه الاستعارة وفقـا لقوانين لا شعورية في ذهن الانسان كالتعميم والتخصيص وقرب المجـال والسببية والمجاز المقبول والمعاكسة وما الى ذلك مما يسوغ أن يكون اللفظ القديم لهذا المعنى الجديد ، كالذى رأيناه في مادتي (اللَّحْن) و (المَوْلى) وأشباههما • ومن هنا كان لاصوات اللفظة مدخلية كبيرة في انصرافها الى معنى من المعاني ، لان المتكلم في أحايين كثيرة ، يحاكي أصوات المعـاني والاشياء في وضعه مسمياتها ، وبمرور الزمن اختصت بعض أصوات اللغـة بمعان خاصة ، اذا توفرت هذه المعاني توفرت في ألفاظها تلك الاصوات ، والعلماء ـ الاّ من شذّ منهم ـ مجمعون على وجود هذه الصلة بين الصوت والمعنى ، وقد ذهب الى القول بذلك اليونانيون والهنود من الاعاجم ، والخليل ومقلدوه من العرب • ومنذ أن وقف الدارسون على مشكلة الدلالة في العربية ، وهم في نشاط في البحث فيها وكشف أسرارها ، محاولة منهم لفهم هذه المشكلة ورغبة في الاحاطة بها ، فظهرت كتب كثيرة تتناول مسألـة الدلالة من زوايا مختلفة ، منها كتب (المثلث) التي بدأ التأليف فيهـا قطرب ، وكتب (المشترك) التي كان أبرزها كتاب أبي العميثل ، وكتب (الملاحن) وعلى رأسها كتاب ابن دريد ، وكلها تدور حول دلالة اللفظ

وما يتصل بذلك من شواهد وتعليقات وشروح وأمثلة •

★ ★ ★

ولعل أبرز ما وقفوا عنده من مسائل الدلالة وأهم ما عالجوه فيها هو ظاهرة التضاد ، اذ شغلتهم هذه الالفاظ التي تنصرف الى معنيين متضادين، فراحوا يدرسونها ويجمعون مادتها ، ويحددون مكانها من اللغة ، فوضعها سيبويه ـ في تقسيمه المعروف لالفاظ اللغة ـ ضمن المجموعة التي تتفق في اللفظ وتختلف في المعنى ، وهي ألفاظ المشترك اللفظي ، وعنه أخذ كثيرون هذا التقسيم ذاهبين الى ان الاضداد نوع من المشترك ، الا ان قطربا جعلها نوعا متميزا من المشترك ، وجعل ابو حاتم التضاد نوعا من الاختلاف ، أما ابن الانبارى وأبو الطيب فكانا دقيقين في تحديدهما لمعنى التضاد ، وتفريقهما العلمي بينه وبين الاختلاف • ولكنهما مع ذلك لم يقصرا ما دوّناه من الالفاظ على هذا المفهوم الدقيق للفكرة ، وانما توسّعا ـ كما توسَّع غيرهما ـ كثيرا في تلمس الضدية ولو في أبعد الوجوه • على ان هذا المفهوم لفكرة التضاد اختلف النظر اليه والوقوف عنده بين اللغويين من جهة وبين الاصوليين والمتكلمين والمناطقة من جهة ثانية ، فهو عند الاخيرين مسألة عقلية غير خاضعة للاستقراء والاستشهاد والرواية ، ومن هنا كانت تناولاتهم لفكرة التضاد المنطقية تناولات جافة بعيدة عن روح الدرس اللغوى •

ولما كانت الاضداد تعبّر بطبيعتها عن آثار المراحل اللغوية التي مرّت بها العربية ، والتي ولدت بشكل من الاشكال الفاظا تحمل في ظاهرها فكرة الضدية ، وذلك انطلاقا من الايمان بعدم اصالة ضدية اللفظة عندما وضعها الواضع الاول ، لمنافاة ذلك لطبيعة اللغة التي تقوم على الوفاء بحاجات المتكلم التي يقف على رأسها التفاهم مع الآخرين ، ذلك التفاهم الذى لا يتم بوجود أضداد أصيلة الضدية ، أقول : لما كان الواقع كذلك ، فلابد من دراسة الظروف التاريخية وغير التاريخية لتفسير وجود الاضداد في اللغة ،

وهذا ما فعلناه اذ وجدنا أن لاختلاف اللهجات العربية واختلاف الاصول السامية وغيرها من اللغات المجاورة ،وللتطور المستمر في دلالة الالفاظ ، وللتطور الصوتي وما يتصل به من احتمال التصحيف والخطأ ، ولمشاعر التفاؤل والتطير والتهكم ، ولطبيعة تصاحب المعاني المتضادة بالذهن ، ولاختلاف الصيغ والعوارض الصرفية ، ولاختلاف الاصول الثنائية المتحدة ، وللمجاز ومايتعلق به من استعمالات بلاغية في قلب التركيب والمقابلة والتقديم والتأخير ، ولطريقة الاستعمال الخاصة ، وللاختلاف في تفسير مؤدى اللفظة في السياق أو مؤدى العبارة كاملة ، وللتعسف في تكثير المادة واخضاعها للتضاد ، وأخيرا لقانون وحدة وصراع المتضادات • كان لكل واحد من هذه الاسباب والعوامل دور كبير في نشأة الاضداد واكتساب الالفاظ صفة الضدية ، حيث عملت هذه الظروف الطبيعية وغير الطبيعية على أن توجد في اللغة أربعمائة لفظة يشتم فيها هذا اللون من الدلالة ، وأخذ هذه الظروف جميعا بنظر الاعتبار من شأنه ان يلغي أصالة الضدية وينفي عنها قدم التضاد ، وهو ان لم يفسر نشأة جميع الاضداد ، فانه على الاقل يفسر أغلبها الاعم ، بحيث لا يبقى منها الا الفاظ معدودة قد تكون ضديتها سحيقة القدم ، بحيث يعسر علينا الوقوف على الظرف الخاص الذى نشأت فيه ، ولانعدم أن نجد مثلها في غير العربية من اللغات الحية •

★ ★ ★

واختلفت مواقف الدارسين من الأضداد وتباينت مناهجهم في تناولها ، فانقسموا الى مدافعين ومنكرين ، وتشعبت الطرق لكل من الطائفتين في في تأييد موقفها من الفكرة ، فكان من المدافعين من اعتمد الرواية والنقل في اثبات صحة ورود الأضداد عن العرب كابن فارس ، ومنهم من لجأ الى المحاكمة المنطقية في اثبات ذلك كابن سيده ، ومنهم من ذهب الى تفسير

نشأتها مدللا على عدم اصالة الضدية فيها الا انها أضداد الآن كابن الانباري•
أما المنكرون فمنهم من عاب على العربية احتواءها للأضداد لأن ذلك دليل عدم الابانة في هذه اللغة وهم الشعوبيون وكانت نيتهم سيّئة • ومنهم من أنكر الأضداد وأرجع كل معنيين متضادين الى أصل واحد كابن درستويه والآمدي وآخرين وكانت نياتهم حسنة ـ وقد بحثنا ذلك أيضا في الكلام على كتبهم ـ ، ومنهم من ذهب الى تفسير الأضداد ودراسة عوامل نشأتها المختلفة ، وذلك لنفي اصالة الضدية وتبرئة العربية من العيب الذي وصمت به من عدم الابانة والغموض الاصليين وهم المحدثون من المستشرقين والعرب• فبعضهم أرجع ذلك الى عامل واحد كآبل ولجوست والأب مرمرجي ، ومنهم من أرجعها الى عدة عوامل كرد سلوب وجيز وعبدالفتاح بدوي ومنصور فهمي وابراهيم السامرائي وغيرهم • كما أنهم جميعا ـ قدماء ومحدثين ـ اختلفوا في عدد الأضداد ، فمنهم من أنكرها كلها ، ومنهم من أنكر أكثرها ومنهم من أنكر ما يقرب من نصفها ، كما أن المدافعين لم يتفقوا على عدد الأضداد فمنهم من لم تتجاوز أضداده المائة كالأصمعي ، ومنهم من وصلت عنده الاربعمائة تقريبا كأبي الطيب ، الا أنهم جميعا متفقون على قلتها وطرافتها في كلام العرب ، ومتفقون أيضا على استبعاد قسم منها ، وتشترك أغلب تفسيراتهم في الاهتمام بـ (الأصل) الذي يرجع اليه المعنيان المتضادان •

* * *

وقد حفظ لنا العلماء الأوائل موادّ اللغة ومفرداتها بالتدوين المبكر لها ، فظهرت كتبهم ومعجماتهم زاخرة بهذه المواد مملوءة بالمفردات ، ابتداء من أواخر القرن الثاني الهجري ، اذ شمل هذا التدوين مختلف جوانب اللغة وبمختلف المناهج والطرق ، فمن المصنفات ما عني بجمع الألفاظ وتصنيفها تصنيفا معجميا على الحروف كالعين والجمهرة والبارع

والتهذيب والمحيط وغيرها ، ومنها ما عني بالموضوعات التي تندرج تحتها جمهرة من ألفاظ العربية كموضوع خلق الانسان ، والخيل والسلاح ، والنخل ، والدّارات ، وغيرها ، ومنها ما عني بالمعاني وذلك بجمع وتصنيف الألفاظ المنصرفة الى الدلالات المختلفة ، ومن أمثلتها كتب المشترك والمترادف والأضداد ، لما وجده علماء اللغة في هذه المواد من طرافة وغرابة ومشكلة لغوية تركها لهم تاريخ العربية .

فتوالت كتب الأضداد تجمع مواد هذا النوع من الألفاظ مشيرة الى غرابته في اللغة وطرافته في اللسان العربي معتمدة في ذلك أول الأمر على الرواية والنقل عن العرب ، فكان نتيجة ذلك ما يقرب من ثلاثين كتابا في الأضداد ، بدأت بكتاب قطرب (ت ٢٠٦هـ) وانتهت بالكتب الحديثة المعاصرة ، وجدير بالذكر أن الرواية عن العرب في الأضداد قد توقفت بعد صدور مؤلفات الجيل الأول في هذا الموضوع ، اذ كان هؤلاء هم الرواة المشافهون أو أنهم الذين سمعوا من الرواة مادتهم المروية كقطرب والفراء وأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم ، لأن الذين جاءوا بعدهم اعتمدوا كتبهم في تصنيفهم في الأضداد ، ناقلين عن هذه الكتب ما شاءوا من مادة وشاهد وتعليق ، متأثرين بمنهج شيوخهم آخذين برواياتهم في ذلك ، فظهرت في كتبهم الملامح المذهبية متفاوتة الوضوح الا أن منها ما كانت المصادر قد وجّهته الوجهة المدرسية بشكل بيّن ككتابي ابن الانباري وأبي الطيب من الكوفيين وكتابي ابن درستويه والآمدي من البصريين .

* * *

وليس من الغريب أن نجد أن الرغبة في خدمة القرآن كانت الدافع الاساس عند أوائل الاضداديين لوضع كتبهم ، عندما وجدوا أن من ألفاظ القرآن الكريم ما يفسّر بأكثر من معنى يوهم بتضادها ، لذلك حفلت كتبهم بآيات الكتاب المقدس يستشهدون على بعضها بالبعض الآخر ، واقفين من

معانيها موقف الحذر والتقديس والاحترام ، دون أن يجرأوا على البوح بالمعنى الذي تنصرف اليه اللفظة القرآنية ، لأنه يخالف ما ينبغي أن يكون عليه هذا المعنى في القرآن لأنه منزه عنه ، غافلين عن أن الاساليب العربية لم تكن قد استقرّت بعدُ حين نزول القرآن ، فكان القرآن صدى لعدم الاستقرار اللغوي هذا بما احتواه من استعمالات تلاشت بعدئذ من الأساليب العربية ، ودارس لغة القرآن يلمس هذا بوضوح في مسألة التذكير والتأنيث مثلا وفي التصريف والاستعمالات القرشية الخاصة والتقديم والتأخير والحذف والاختصار وما الى ذلك مما كان من بقايا اللهجات التي وحّدها القرآن وزادت في توحيدها الدراسات اللغوية والنحوية في القرنين الاول والثاني • فاذا قرأ الدارس المسلم (ظَنّ) في آية من القرآن ، الاولى فيها أن تكون يقيناً ، حرصا على المعنى المقدّس ، قال انها تأتي شكاً ويقيناً فهي من الأضداد ، غير عابيء بأن يكون القرآن قد أراد معنى قريباً من اليقين ولم يرد اليقين الكامل ، لأن في الظن مقدار كبير من العلم • ومثلها (عَسى) فهي الاخرى تأتي شكاً ويقينا على نفس المنطلق ، وكذلك (أَسَرّ) و (فَوْق) و (بَيْن) و (عَسْعَسَ) و (القرء) و (أَخْفى) و (القِسْط) وغير ذلك كثير من الألفاظ التي بحثت في كتب الأضداد من عهد قطرب الى الصغاني وتضادّها مزعوم بسبب هذه النظرة المثالية للغة القرآن•

لذلك كانت كتب الرعيل الاول مختصرة نوعا ما قليلة المادة ، لان الجهود منصبّة على خدمة لغة القرآن بالدرجة الاولى ، مشيرة أحيانا لتضاد ألفاظ واردة في شعر أو نثر ، ولكن حتى هذه الألفاظ متصلة بشيء من علاقة بألفاظ القرآن الكريم ، ولكن الرغبة في الاحصاء والاستيعاب والزيادة بدأت تنمو مع ظهور دراسات الأضداد ، حتى دفعت هذه الامور كثيرا من الأضداديين الى تكلف التضاد واصطناعه في ألفاظ بعيدة جدا عن الأضداد

ولا تتوفر فيها فكرة التضاد الا بالتفسيرات البعيدة المتمحلة مستعينين في ذلك بالقراءات القرآنية ولهجات القبائل العربية وأساليب اللغة في المجاز والاستعارة وسعة المدلول وتداخل التصريف ، ليصلوا بهذه الطريق الى الكثرة المنشودة ، فكانت كتب التوزي وابن السكيت والسجستاني وابن فارس وغيرهم مصداق هذا الاندفاع ، وصحيح أن كتب ثعلب وابن الانباري وأبي الطيب فيها شيء من هذا ، الا انه يجب أن لا يغيب عن البال أنهم – بحكم منهجهم المدرسي – آخذون بالرواية والنقل أخذاً أساسياً ومبدئياً ، لذلك فانهم اعتمدوهما اعتماداً كبيراً فتضخمت كتبهم على هذا الشكل ، يضاف الى ذلك أن ابن الانباري مثلا صرّح بأن من أسباب وضعه الكتاب هو الردّ على الشعوبيين الطاعنين في حكمة اللغة المنتقصين منها دقتها ، فلابدّ أن يكون الردّ موسعاً مستفيضاً ليفي بغرضه ويسدّ الحاجة اليه •

ومن جانب آخر ولّد هذا التوسع غير المدروس ردود فعل كثيرة لدى الدارسين ، فانبرى بعض البصريين المغالين – مع ما وجدوه في أنفسهم من دوافع التعصب المدرسي – يردّون على هؤلاء المتكثرين من رواية الأضداد ، ويناقشون الألفاظ ويبطلون دعوى المؤيدين لتضادها ، مسرفين في انكارهم اياها اسراف اولئك بقولهم بها ، وعلى رأس هؤلاء ابن درستويه في كتابه (ابطال الأضداد) الذي نهج نهجه في هذا الموقف الآمدي في كتابه (الحروف من الأصول في الأضداد) ، والحقيقة أن كلا الفريقين أخطأ الطريق وزاغ عنه ؛ باعتراف اولئك على لسان ابن الانباري بأن هناك أسبابا كثيرة خلقت الأضداد ، ذكر منها اختلاف اللهجات ، والسياق ، وشمولية المدلول الأوّل ، وباعتراف هؤلاء على لسان ابن درستويه بوجود القليل النادر من الأضداد في اللغة ، الذي لا يمكن جحده وتجاهله بعد أن صحّت روايته عن العرب •

ونتيجة لكثرة الكتب المؤلفة في الأضداد ، وصعوبة الاحاطة بها من قبل المتعلّم الجديد ، أخذ جماعة من اللغوين على عاتقهم تأليف مختصرات نافعة في الأضداد ، لايزيدون فيها على ذكر اللفظة ومعنييها المتضادّين دون الخوض في ذكر الشواهد أو التعليق عليها أو الاستطراد في الكلام ، كالذى فعله ابن الدهان والصغاني في كتابيهما ، ليسهل على من يريد الوقوف على ألفاظ الأضداد الرجوع اليها وحفظها ان شاء ذلك ، ونهجت نهجهما كتب محدثة ككتابي (رسالة في بعض الألفاظ المستعملة في الضدّين الموجودة في القاموس) و (منبه الرقاد في ذكر جملة من الاضداد) ، الاّ ان التأليف في الاضداد بعد الصغاني سار على طريق رغبة المؤلف في المشاركة ، التي تقوده الى أشياء لاجدوى منها ولا نفع ، بسبب ضرورة تقليد السابقين وترسّم خطاهم في التأليف ، دون أن يضاف الى بحوث الأضداد شيء جديد يكون مثار اهتمام ، الاّ من ناحية الشكل كمنظومة (دورق الانداد) للابيارى ، أو (مختصر أضداد ابن الانبارى) للتميمي وغيرهما . اما كتب العتائقي والمدني وملاّ حسن والخليجي والتنكابني ، فهي من كتب المشاركة الضعيفة والمحاكاة الجافة ، لعدم احتوائها كما يبدو الاّ على أشياء من المادة القديمة الموجودة في كتب الأضداد .

* * *

وكانت كتب الأضداد قد أولت الشاهد عناية كبيرة ، واعتمدت عليه فيما تذكره من أضداد ، حتى صرح بعضها باستبعاد مالم يذكر له شاهد ، على أن بعضها الآخر أهمل ماتوفر من شواهد بعض الالفاظ ، وطائفة ثالثة تركت الاستشهاد البتة ، ولعل هذا التباين في الموقف من الشاهد كان صدى للمدرسة التي ينتمي اليها هذا الدارس أو ذاك . والبحث في هذه الشواهد ــ التي كان على رأسها الشعر والقرآن ــ يوقف على أن الاضداديين لم يلتفتوا الى مايجب أن يلتفت اليه في الشاهد ، ففي الشعر أهملوا النظر الى قيده العروضي والى احتمال التصحيف والوضع فيه ، والى الجهل بالقائل ،

والبيئة اللغوية التي ينتسب اليها هذا القائل ، والى التطور الدلالي الذى يمكن أن يستجلى في شعر البيئة الواحدة ، وغير ذلك • وفي القرآن كذلك أهملوا الالتفات الى اختلاف القراءات في الآية ، ولغات القبائل فيه ، وقاسوا الاستعمال القرآني على الشعر ولم يقيسوه على القرآن نفسه واستفادوا من اختلافهم في تفسير الآية معنى التضاد في اللفظة ، وأهملوا في جميع ذلك النظر الى السياق العام للبيت أو الآية ، الذى يحدد معنى اللفظة تحديدا دقيقا ، فكان من جراء ذلك ما وجدناه من ألفاظ زعموا توفر الضدية فيها وهي وليدة هذه الاسباب والعوامل التي لم يدققوا النظر فيها عند تناولهم للاضداد •

والمعجمات اللغوية هي الاخرى تهدى دراستها واستقراء مادتها الى الوقوف على أشياء من تاريخ اللغة الطويل ، فهي وان كانت كتبا ضخمة تحصي مفردات اللغة ، الا أنها تقدّم خلال ذلك أشياء تتصل باستعمالات اللهجات المختلفة ، وبالمفردات المعرّبة ، وبالمعاني المجازية ، وبتطور دلالة الألفاظ ، وما الى ذلك مما يلقي الضوء الكاشف لتبيّن المراحل التاريخية التي تركت آثارها في العربية ، وبالتالي الاستفادة من ذلك في تفسير الظواهر اللغوية ، ومنها ظاهرة (الأضداد) •

النتائج العامة والخاصة

نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة النتائج العامة التالية :

١ ـ غموض المراحل التأريخية القديمة للعربية ، اذ أن أقدم ما وصلنا من نصوص اللغة لايمكن أن يعبّر عن بداية العربية • فيمكن ارجاع كثير من الظواهر والاساليب والصور التي لاتنسجم مع طبيعة اللغة واطرادها في الصوت والدلالة والتركيب الى آثار تلك المراحل القديمة •

٢ ـ خضوع مفردات اللغة لسنة التطور والتغير ، حيث شملت هذه

السنّة أغلب ألفاظ اللغة وعملت على الابتعاد بها شيئاً فشيئاً عن مجالها الدلالي الاول ، فعلقت بهذه الألفاظ معان جديدة ، فكان من نتائجها وجود ألفاظ تضادت معانيها فسميت بـ (الأضداد) .

٣ ـ قلة عدد الاضداد في اللغة ، ونمو هذه القلة بمرور الزمن وبتضخم الدراسات اللغوية ، اذ لم يردنا عن الرواة الأوائل الا شذور منها ، أخذت في الازدياد حتى أحصى الأضداديون المتأخرون المئين منها في كتبهم .

٤ ـ الاستظراف وخدمة القرآن هما الدافعان الاساسيان لوضع الاوائل كتبهم في الاضداد ، فالأول دافع خاص بالأضداد لا نعهد مثله دفع اللغويين لوضع مؤلفاتهم الاخرى ، وقد صرح به قطرب وابن الانبارى ، ذلك ان توفّر الضدّية في اللفظة مما يدعو الى التأمل فيها والاستغراب منها وبالتالي استظراف وجودها في اللغة . أما الثاني فهو دافع عام يشمل كل ما صنّفه المسلمون الأوائل في مواضيع اللغة وظواهرها ودراسة أساليبها ومفرداتها واستعمالاتها المختلفة خدمة للغة القرآن ومحاولة للوقوف على معانيه ومؤدى آياته الكريمات ، لأن تحديد ذلك متوقف عليه تحديد الحكم الشرعي . وحين توهموا الضدّية في بعض ألفاظ القرآن راحوا يدرسون هذه الألفاظ تحديدا لمعانيها بهذا الدافع الذي لأجله وضعت كتب الأضداد الأولى ، وقد صرح به أبو حاتم . الا ان توالي الدراسات على الموضوع الواحد من شأنه أن يضعف الدافع الأصلي الذى دفع المؤلف الاول للتأليف في هذا الموضوع ، لذا نجد ضمور هذه الرغبة في خدمة القرآن واضحا في مؤلفات الجيل الثالث والرابع الذى لم يعنه من موضوع الأضداد الا انها مفردات ينبغي ان تجمع في مؤلف صغير خالية من الاستشهاد والتعليق ككتابي ابن الدهان والصغاني .

٥ ـ وضوح التعسف في حمل الأغلب الأعم من الاضداد المذكورة في الكتب الكبيرة على التضاد ، وتجاهل هذه الكتب للظروف التاريخية الفاعلة في نشأة الأضداد • مما دفع العلماء الى اعادة النظر في هذه المواد والوقوف منها موقف الانكار الذى لم يفهم حقيقته الدارسون فظنوا فيه النيل من اللغة ووصمها بالعيب والنقصان • وهو في واقعه تعبير عن السخرية بهذه المكاثرة والمفاخرة اللتين حملتا الاضداديين على اندفاع في هذه السبيل •

٦ ـ اهتمام القدماء بالأضداد اهتماما لانجد مثله في سائر الظواهر اللغوية الاخرى ، اذ لم نقف في الترادف أو الاشتراك أو النحت أو القلب أو الابدال أو الاتباع على نيف وعشرين كتابا تتناول كلا من الظواهر السابقة تأييدا وانكارا كالذى وقفنا عليه في الاضداد • وهذا يوحي الينا انهم تحسسوا في الاضداد مشكلة اعمق من مشكلات سواها من مفردات اللغة ، ومثل هذا مانقوله في دراسات المحدثين • ولعل في اهتمام القدماء بالأضداد سبباً آخر ، ذلك اننا نجد أن قسماً مهماً من كتب الأضداد قد تم تأليفه على ايدى غير العرب من الدارسين الذين عاشوا في ظل اللغة العربية ، وهي حقيقة تشير الى رغبة العناصر الاجنبية التي اعتنقت الاسلام في تعلم لغة دينها الجديد وكتابها المقدس ، ليكون لها في المجتمع العربي مقاعد آمنة وحياة مستقرة ومكانة مرموقة •

٧ ـ جلاء المنهجين المدرسيين البصرى والكوفي في كتب الأضداد • حيث نجد ان كتب الاضداديين البصريين يغلب عليها طابع الدرس البصرى الى حد ما ، ذلك انها تقلل من الاستشهاد بل تهمله أحيانا في بعض الالفاظ بالرغم من توفر شواهدها كما مرّ بنا في صنيع أبي حاتم • وقد ألغت الكتب البصرية المتأخرة الاستشهاد أساسا واكتفت بالسرد المعجمي للالفاظ ككتابي ابن الدهان والصغاني ثم ان هذه الكتب قللت من الاهتمام بالقراءات

والاستشهاد بآراء المفسرين والفقهاء وبالحديث النبوى ، ولم تتعرض الى اختــلاف الروايات في الشاهد الواحد ، ولم تكثر من النقــل عن الرّواة والاعراب وما الى ذلك مما كان يخالف المنهج الكوفي الذى يقوم على الاهتمام بهذه الامور جميعا وعلى رأسها الاتساع في الراوية والنقل والأخذ بالشواهد أخذا شديدا يصل الى درجة الاعتماد على الشاهد اليتيم لاثبات ضدية لفظة • ومن هنا كانت كتب اولئك مختصرة قليلة المادة ، وكتب هؤلاء واسعة متضخمة •

٨ ـ اختصاص البصريين بانكار الأضداد كما مرّ ذلك في عمل ابن درستويه والآمدى ، واختصاص الكوفيين بالدفاع عنها كما توّضح لدى ابن الانبارى وابن فارس • وهو صدى آخر من أصداء المدرسة التي ينتمي اليها كل منهم ، اذ يدفع الاهتمام بالرواية لدى الكوفيين الى الدفاع عن النصوص العربية المروية التي نطقت الفاظها بالتضاد ، وبعكسهم البصريون الذين لم يجدوا حرجا في الطعن بهذه المرويات •

٩ ـ تخلي أغلب الشواهد التي ذكرتها كتب الأضداد عن تأييدها لما تريده منها هذه الكتب • حيث أهمل الأضداديون النظر الى عدة اعتبارات اساسية في هذه الشواهد ، فلم يعنهم منها الاّ انها كلام نطق به العرب أو نطق به على اساليب العرب ، ولم يهمهم بعد ذلك ماتفصح عنه هذه النصوص من اختلاف اللهجات والتطور الذى يحصل في البيئة اللغوية الواحدة ، واحتمال الخطأ والتصحيف والوضع ، واختلاف قراءات الشاهد القرآني ، وقياسه على الشاهد الشعرى ، وتخصيص السياق للمعنى • وتغيّر مؤدى اللفظة بتغيّر التفسير وما الى ذلك مما كان يجب التنبّه اليه في الاستشهاد •

هذه هي أهم النتائج العامة التي أسفرت عنها دراسة (الاضداد في اللغة) وهناك في المقابل نتائج خاصة ينتهي اليها البحث ، وقد أشرت اليها في تضاعيف الرسالة ، وهي تشكل الهدف من هذه الدراسة وخطها البياني

المشترك ، وهي :

١ ـ الايمان بقلة الأضداد الحقيقية وبعدم أصالة الضدية فيها عند وضعها الأول •

٢ ـ ضرورة البحث بدقة عن الألفاظ التي قيل انها من الأضداد ، والتأكد من عددها في اللغة ومن صحة ورودها عن العرب •

٣ ـ وجوب تخصيص كل ضد من الأضداد الحقيقية بأشهر معنييه في الاستعمال الحديث •

٤ ـ تنقية اللغة باطراح الالفاظ التي جرى التعسف في عدّها من الاضداد ، وارجاع كل منها الى معناه الأصلي في اللغة بعد التثبت والتمحيص •

٥ ـ الاطمئنان الى انقراض كل الأضداد التي هجرها الاستعمال وزوالها من معجم الاضداد ، وهو مصير لقيته اكثر الأضداد التي ذكرتها الكتب القديمة •

الجديد في هذه الرسالة

لعل أهم جديد في هذه الرسالة أنها أول دراسة جامعية تبحث ظاهرة الاضداد بحثا مستوعبا ، مستقصية علل وجود هذه الالفاظ في اللغة وأسباب نشوئها متعرضة لآراء الأقدمين والمحدثين فيها ومواقفهم منها ومناهجهم في درسها ، واقفة على الكتب المؤلفة فيها وقفة درس وتتبع ، مناقشة ماجاءت به من مواد وشواهد • يحدوها في كل ذلك الاستقلال في البحث والموضوعية في الدرس وعدم التحيز في الرأى • فكانت بمجموعها مصداق قول كوتولد فايل : « وان رسالة تجمع الأضداد وتتميز بالاستقلال في البحث ، مع العناية باللهجات المختلفة واللغات المتقاربة ، لتمدنا بمعلومات هامّة تعيننا في فهم تاريخ الحضارة [دائرة المعارف الاسلامية ٢/ ٢٩٥] » أما المفردات المنهجية

الجديدة في هذه الرسالة فأهمها :

١ ـ العناية باللهجات العربية وتحديد بيئاتها اللغوية ، ومقارنة استعمالاتها القديمة باستعمالات اللغات الساميّة واليمنية والفارسية المتاخمة التي تأثرت ببعضها العربية الى حدّ بعيد ، والتي اتحدت مع بعضها الآخر في الأصل اللغوي القديم • مستعينين في ذلك بالجغرافية التاريخية لهذه المجموعة من اللغات •

٢ ـ استيعاب أسباب نشأة الأضداد وتزايدها ، ودراسة علل وجودها في اللغة ، والنصّ على أغلب الأضداد التي تفسرّ نشأتها بهذا العامل أو ذاك، للوصول الى النتيجة المطلوبة من تحديد عددها الحقيقي في اللغة •

٣ ـ المشاركة في تفسير الأضداد بتطبيق نظرية (صلة الاصوات بالمعنى) القديمة ، واستيحاء دلالة الضد بوساطتها • وبتطبيق قانون (وحدة وصراع المتضادات) الحديث ، للوقوف على مدى شموله لنشأة الأضداد وتفسيرها به •

٤ ـ دراسة كتب الاضداد واستقصاء آراء العلماء والباحثين في موادها وتبيّن مواقفهم منها وتحديد اتجاهاتهم ومناهجهم ومصادرهم في تناولها ، وتتبع الآثار المدرسية ـ البصرية والكوفية ـ في تواليفهم وبحوثهم ، سواء منها ماكان دفاعا أو انكارا •

٥ ـ جمع آراء من ضاع كتابه في الأضداد واقتفاؤها في كل المصادر المتوفرة ،ومحاولة العثور من خلالها على منهجه الخاص وعلى مقدار تأثره بغيره وتأثيره فيه ، لاننا نبحث هذه الآراء على أنها صورة قريبة لكتابه الضائع •

٦ ـ القول بنسبة كتاب في الأضداد للفراء وآخر لثعلب خلافا لمن نفى ذلك ، وتأكيد نسبة كتاب الاصمعي له خلافا لمن جعله نسخة اخرى

من كتاب ابن السكيت ، والقول بسرقة التوزى وابي حاتم كتابيهما من كتاب أبي عبيدة ، واثبات الوهم في نسبة كتاب في الأضداد لابن قتيبة وآخـــر للثعالبي ، والبرهنة على خطأ نسبة كتاب الأضداد لأبي عبيد القاسم بن سلام ومثله لابي البركات الانبارى خلافا لمن ذهب الى ذلك ، وكشف الوهم في ذكر كتاب أضداد آى القرآن والصواب ان يكون عدد آى القرآن .

٧ ـ محاكمة الشواهد الشعرية والقرآنية التي اعتمدتها كتب الأضداد والنظر الى ظروفها اللغوية والمعنوية ، واستقراء مواد الاضداد في المعجمات اللغوية . والخروج من ذلك كله بعدة حقائق تاريخية تعيننا في فهم المراحل اللغوية التي مرّت بها العربية ، وما تركته فيها من آثار واضحة في الشعر والقرآن وكلام العرب .

هذا أهم الجديد الذى احتضنته الرسالة ، وهناك أيضا ما هو أقــل أهمية مما ذكرنا ، تركناه للقارىء يرجع اليه ويقف عليه .

وانه جهدنا الذى نقدمه للمكتبة اللغوية ، نتوخى به خدمة العربيــة ، والله ولي التوفيق .

فهرس المصادر والمراجع

المخطوطـــة :

١ - ابن درستويه وكتابه تصحيح الفصيح : عبدالله الجبوري - رسالة ماجستير - بغداد ١٩٧٢ .

٢ - ابن الشجري ومنهجه في النحو : عبدالمنعم احمد صالـــح التكريتي - رسالة ماجستير - بغداد ١٩٧٢ .

٣ - اسماء الاضداد : المنسوب لابن قتيبة - مخطوطة مكتبة آل كاشـف الغطاء العامة في النجف .

٤ - اسماء الأضداد : المنسوب للثعالبي - مخطوطة مكتبة آل كاشـــف الغطاء في النجف .

٥ - الأضداد : د. حسين نصار - مقالة مطبوعة بالرونيو لطلبة الدراسات العليا في القاهرة .

٦ - أمالي الزجاجي : مصورة مكتبة الحكيم العامة في النجف .

٧ - البارع لأبي علي القالي : تحقيق هاشم الطعان - رسالة ماجستير - بغداد ١٩٧٢ .

٨ - تصحيح الفصيح لابن درستويه - مصورة عبدالله الجبوري .

٩ - الحلل في اصلاح الخلل لابن السيد البطليوسي : تحقيق ســـعيد عبدالكريم - رسالة ماجستير - بغداد ١٩٧٢ .

١٠- ديوان الأدب للفارابي - مصورة مكتبة الاوقاف العامة ببغداد .

١١- شرح السبع الطوال لابن كيسان - مصورة علوان مزهر الياسري .

١٢- عدد آى القرآن لابي عبيد القاسم بن سلام - مصورتي الخاصة عن نسخة جستر بيتي بدبلن .

١٣- العدة في الرجال للسيد محسن الأعرجي - مخطوطة مكتبة آل الاعرجي العامة في الكاظمية .

١٤- العين للخليل بن احمد - مخطوطة مكتبة المتحف العراقي .

١٥- الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام - مخطوطة مكتبة المتحف العراقي .

١٦ـ كليات مختلفة لغوية لمؤلف مجهول ـ مخطوطة مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ٠

١٧ـ ماجاء على وزن أفعل من الأمثال لحمزة الاصفهاني ـ مصورة مكتبة الدراسات العليا ٠

١٨ـ محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية ـ مدونتي الخاصة ٠

١٩ـ المحيط في اللغة للصاحب بن عباد ـ مصورة الشيخ محمد حسن آل ياسين ٠

٢٠ـ مشكل اعراب القرآن لمكي بن أبي طالب : تحقيق حاتم صالح الضامن ـ رسالة ماجستير ـ بغداد ١٩٧٣ ٠

٢١ـ معاني القرآن للأخفش ـ مصورة عبدالأمير الورد ٠

٢٢ـ النخل لأبي حاتم السجستاني ـ مصورةالدكتور ابراهيم السامرائي ٠

المطبوعـــة :

٢٣ـ الابدال لأبي الطيب : تحقيق عزالدين التنوخي ـ دمشق ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م ٠

٢٤ـ الابل للاصمعي : تحقيق د ٠ اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٠٣ م ٠

٢٥ـ ابن السكيت اللغوى : محيي الدين توفيق ابراهيم ـ مطبعـــة دار الجاحظ ـ بغداد ١٩٦٩ م ٠

٢٦ـ أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة : د ٠ أحمد مكي الانصاري ـ القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م ٠

٢٧ـ الاتباع لأبي الطيب : تحقيق عزالدين التنوخي ـ نشر المجمع العلمي بدمشق ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م ٠

٢٨ـ الاتباع والمزاوجة لاحمد بن فارس : تحقيق كمال مصطفى ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م ٠

٢٩ـ أثر القرآن في تطور النقد العربي : د ٠ محمد زغلول سلام ـ دار المعارف بمصر ١٩٦١ م ٠

٣٠ـ اخبار النحويين البصريين للسيرافي : تحقيق الزيني وخفاجي ـ مصطفى البابي بالقاهرة ١٩٥٥ م ٠

٣١ـ الادب العربي : د ٠ عناد غزوان اسماعيل وجماعة ـ وزارة التربية ببغداد ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ٠

٣٢ـ ادب الكاتب لابن قتيبة : تحقيق محب الدين الخطيب ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ ٠

٣٣ـ اساس البلاغة للزمخشري : تحقيق عبدالرحيم محمود ـ مطبعة أولاد اورثاند ـ القاهرة ١٩٥٣ م ٠

٣٤ـ أسرار العربية : أحمد تيمور باشا ـ مطابع دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م ٠

٣٥ـ الاشباه والنظائر للسيوطي : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٥٩ هـ ٠

٣٦ـ الاشتقاق لابن دريد : تحقيق عبدالسلام هارون ـ مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م ٠

٣٧ـ اصلاح المنطق لابن السكيت : تحقيق شاكر وهارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م ٠

٣٨ـ الاصمعي حياته وآثاره : د ٠ عبدالجبار الجومرد ـمطابع دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٥ م ٠

٣٩ـ الاصوات اللغوية : د ٠ ابراهيم أنيس ـ مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة ١٩٦١ م ٠

٤٠ـ اصوات واشارات : أ ٠ كوندراتوف ـ ترجمة أدور يوحنا ـ مطبعة الجمهورية بغداد ١٩٧١ م ٠

٤١ـ الاضداد لقطرب : تحقيق هانس كوفلر ـ مجلة اسلاميكا المجلد الخامس ١٩٣١ م ٠

٤٢ـ الاضداد للاصمعي : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ م ٠

٤٣ـ الاضداد لابن السكيت : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ م ٠

٤٤ـ الاضداد لابن الانبارى : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ الكويت ١٩٦٠م ٠

٤٥ـ الاضداد لابي حاتم : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ م ٠

٤٦ـ الاضداد للصغاني : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ م ٠

٤٧ـ الاضداد في كلام العرب لأبي الطيب : تحقيق د ٠ عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٣ م ٠

٤٨ـ الاضداد في اللغة لابن الدهان : تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ مطبعة دار التضامن ـ بغداد ١٩٦٣ م ٠

٤٩ـ أطلس التاريخ الاسلامي : هارى و ٠ هازارد وجماعة ـ تعريب حسن العروسي ـ مكتبة النهضة المصرية د ٠ ت ٠

٥٠ـ الأطلس التاريخي : عدى يوسف مخلص ـ بغداد ١٩٧١ ٠

٥١ـ الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي : د ٠ عبدالمنعم ماجد وعلى البنا ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة ١٩٦٠ م ٠

٥٢ـ اعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه : دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٤١ م ٠

٥٣ـ الأعلام : خير الدين الزركلي ـ بيروت ١٩٦٩ م ٠

٥٤ـ الافصاح في فقه اللغة : حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدى ـ مطبعة المدني ـ القاهرة د٠ت٠

٥٥ـ الافعال لابن القوطية : مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٩٤ م ٠

٥٦ـ الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي : تصحيح عبدالرحمن بن يحيى وجماعة ـ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ٠

٥٧ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي : تحقيق عبدالله البستاني ـ المطبعة الأدبية ـ بيروت ١٩٠١ م ٠

٥٨ـ اقليد الخزانة : عبدالعزيز الميمني الراجكوتي ـ جامعة بنجاب ـ لاهور ١٩٢٧ م ٠

٥٩ـ الاكمال لابن ماكولا : تحقيق عبدالرحمن المعلمي اليماني ـ وزارة المعارف الهندية ـ حيدر آباد الدكن ١٩٦٢ م ٠

٦٠ـ الالفاظ الفارسية المعربة : أدّى شير ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٠٨م ٠

٦١ـ الالفاظ الكتابية للهمذاني : تحقيق لويس شيخو اليسوعي ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩١٣ م ٠

٦٢ـ أمالي القالي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٦ م ٠

٦٣ـ الامثال لمؤرج السدوسي : تحقيق د ٠ رمضان عبدالتواب ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ١٩٧١ م ٠

٦٤ـ انباه الرواة على انباه النحاة للقفطي : تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠ م ٠

٦٥ـ الانساب للسمعاني : تحقيق عبدالرحمن المعلمي اليماني ـ وزارة المعارف الهندية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٨٢ـ١٩٦٢ م ٠

٦٦ـ ايضاح المكنون لاسماعيل البغدادى : تحقيق يالتقايا وبيلكة ـ وكالة المعارف ـ استنبول ١٩٤٥ م ٠

٦٧ـ البئر لابن الاعرابي : تحقيق د ٠ رمضان عبدالتواب ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠ م ٠

٦٨ـ البحث اللغوى عند الهنود : د ٠ أحمد مختار عمر ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٢ م ٠

٦٩ـ بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى : تحقيق محمد علي النجارـالقاهرة ١٩٦٥ م ٠

٧٠ـ بغية الوعاة للسيوطي : تصحيح محمد امين الخانجيـمطبعة السعادةـ القاهرة ١٣٢٦ هـ ٠

٧١ـ البلغة في شذور اللغة : تحقيق د٠ اوغست هفنر والاب لويس شيخو اليسوعي ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٤ ـ انظر : شرح مثلثات قطرب ٠

٧٢ـ تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة : هاشم الطعان ـمطبعة الارشادـ بغداد ١٩٦٨ م ٠

٧٣ـ تاج العروس للزبيدى : وزارة الارشاد والانباء ـ مطبعة حكومة الكويت ٩٦٥ـ١٩٧١ م ٠

٧٤ـ تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م ٠

٧٥ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ـ مطبعة الهلال ـ القاهرة ١٩٣٦ م ٠

٧٦ـ تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ـ تعريب د ٠ عبدالحليم النجار ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦١ م ٠

٧٧ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى : دار الكتاب العربي (طبعة بالاوفست) بيروت ٠

٧٨ـ تاريخ ثغر عدن لابن أحمد بامخرمة : مطبعة بريل ـ ليدن /هولاندة ١٩٣٦ م ٠

٧٩ـ تاريخ اللغات السامية : د ٠ اسرائيل ولفنسون ـ مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٩٢٩ ٠

٨٠ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : تحقيق السيد احمد صقر ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٤ م ٠

٨١ـ التطور اللغوى التاريخي : د ٠ ابراهيم السامرائي ـ دار الرائد للطباعة ـ القاهرة ١٩٦٦ م ٠

٨٢ـ التطور والتجديد في الشعر الاموى : د ٠ شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٥ م ٠

٨٣ـ التفسير الكبير للفخر الرازى : المطبعة البهية بمصر د ٠ ت ٠

٨٤ـ التكملة والذيل والصلة للصغاني : تحقيق عبدالعليم الطحاوى وجماعة ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧٠ م ٠

٨٥ـ التنبيهات لعلي بن حمزة : تحقيق عبدالعزيز الميمني الراجكوتي ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م ٠

٨٦ـ التنبيه على اوهام ابي علي في أماليه للبكرى : تحقيق الاب انطون صالحاني اليسوعي ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م ٠

٨٧ـ التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الاصفهاني : تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٧ م ٠

٨٨ـ تهذيب اللغة للازهرى ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار القومية العربية للطباعة ـ القاهرة ١٩٦٤ م ٠

٨٩ـ ثلاثة كتب في الاضداد : تحقيق د ٠ اوغست هفنر ـ انظر : كتب الاضداد للاصمعي وابي حاتم وابن السكيت والصغاني ٠

٩٠ـ جامع البيان في تفسير القرآن للطبرى : مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤ م ٠

٩١ـ الجامع لاحكام القرآن للقرطبي (تفسيره) : الطبعة الثالثة ١٩٦٧م ٠

٩٢ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء : طبع حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٣٢ هـ ٠

٩٣- الحروف لابن السكيت : تحقيق د · رمضان عبد التواب - مطبعة جامعة عين شمس - القاهرة ١٩٦٩ م ·

٩٤- خزانة الادب للبغدادى : طبعة بالاوفست عن طبعة بولاق - مكتبة المثنى ببغداد ·

٩٥- الخصائص لابن جني : تحقيق محمد علي النجار - دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م ·

٩٦- دائرة المعارف الاسلامية : دار انتشارات جهان -طهران بوذر جمهرى·

٩٧- دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدى - مطبعة دائرة معارف القرن العشرين - القاهرة ١٩٣٧ م ·

٩٨- دراسات في فقه اللغة : د · صبحي الصالح - دار العلم للملايين - بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ·

٩٩- الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشرى : د · فاضل صالح السامرائي - دار النذير للطباعة ١٩٧٠ م ·

١٠٠-درّة الغواص في أوهام الخواص للحريرى : طبعة بالاوفست عن طبعة لايبزك - مكتبة المثنى ببغداد ·

١٠١-دروس اللغة العبرية : ربحي كمال - مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦ م ·

١٠٢-دلالة الألفاظ : د · ابراهيم أنيس - مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة ١٩٦٣ م ·

١٠٣-دلالة الألفاظ العربية وتطوّرها : د · مراد كامل - معهد الدراسات العربية العالي - القاهرة ١٩٦٣م ·

١٠٤-ديوان ابن مقبل : تحقيق د · عزة حسن - وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق ١٩٦٢ ·

١٠٥-ديوان امرىء القيس : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٨ م ·

١٠٦-ديوان بشر بن أبي خازم : تحقيق د · عزة حسن - دمشق ١٩٦٠م·

١٠٧-ديوان حاتم الطائي : طبع لندن ١٨٧٢ م ·

١٠٨-ديوان حسان بن ثابت : المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ ·

١٠٩-ديوان الخنساء (انيس الجلساء) : المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٨٨٨ ·

١١٠ـديوان الفرزدق : مطبعة الصاوى ـ القاهرة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٦ م ٠

١١١ـديوان لبيد : تحقيق احسان عباس ـ الكويت ١٩٦٢ م ٠

١١٢ـديوان النابغة : تحقيق شكرى فيصل ـ بيروت ١٩٦٨ م ٠

١١٣ـ ديوان الهذليين : دار الكتب المصرية ـ القسم الادبي ـ القاهرة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م ٠

١١٤ـالذريعة الى تصانيف الشيعة : آغا بزرك الطهراني ـ مطبعة الغرى في النجف ١٣٥٦ هـ ٠

١١٥ـرواية اللغة : د ٠عبدالحميد الشلقاني ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١ م٠

١١٦ـروضات الجنات في احوال العلماء والسادات: محمدباقر الخوانسارى ـ المطبعة الحيدرية ـ طهران ١٣٩٠ هـ ٠

١١٧ـزينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والضاء لابي البركات الانبارى : تحقيق د ٠ رمضان عبدالتواب ـ دار الامانة ومؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ٠

١١٨ـسر صناعة الاعراب لابن جني : تحقيق مصطفى السقا وجماعة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٤ م ٠

١١٩ـسر الليال في القلب والابدال : احمد فارس الشدياق ـ استانبول ١٢٨٤ هـ ٠

١٢٠ـسمط اللآلي لابي عبيد البكرى : تحقيق عبدالعزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٦م ٠

١٢١ـشذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي : مكتبة القدسي ـ مطبعة الصدوق الخيرية ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ ٠

١٢٢ـشرح ادب الكاتب لابي منصور الجواليقي : مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ ٠

١٢٣ـشرح درة الغواص للخفاجي : نشر نظارة المعارف ـ مطبعة الجوائب ـ قسطنطينية ١٢٩٩ هـ ٠

١٢٤ـشرح الرضي على شافية ابن الحاجب : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ القاهرة د ٠ت ٠

١٢٥ـشرح مثلثات قطرب للسنهورى : تحقيق هفنر وشيخو ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٤ م ٠

١٢٦ـشرح المعلقات السبع للزوزني : تحقيق محمد علي حمدالله ـ المطبعة التعاونية دمشق ١٩٦٣ م ٠

١٢٧ـشرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزى : نشر المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ـ دمشق ١٩٦١ م ٠

١٢٨ـالشعر والشعراء لابن قتيبة : نشر دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٤ م ٠

١٢٩ـشمس العلوم لنشوان الحميرى : تحقيق ك٠و ٠ سترستين ـ مطبعة بريل ـ ليدن ١٩٥٣ م ٠

١٣٠ـالصاحبي لابن فارس : نشر المكتبة السلفية ـ مطبعة المؤيد ـالقاهرة ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠ م ٠

١٣١ـالصحاح للجوهرى : تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ـ مطابع دارالكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٥٦ م ٠

١٣٢ـطبقات اعلام الشيعة لآغابزرك الطهراني : تحقيق علي تقي منزوى ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧١ م ٠

١٣٢ ـ طبقات أعلام الشيعة لآغا بزرك الطهراني : تحقيق علي نقي منزوى مصر د ٠ ت ٠

١٣٤ـطبقات النحويين واللغويين للزبيدى : تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة ١٩٥٤ م ٠

١٣٥ـطرق تنمية الالفاظ في اللغة : د ٠ ابراهيم أنيس ـ مطبعة النهضة الجديدة ـ القاهرة ١٩٦٦ م٠

١٣٦ـعبقرى من البصرة : د ٠ مهدى المخزومي ـ وزارة الاعلام ـ بغداد ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ٠

١٣٧ـعجالة المبتدي وفضالة المنتهى في النسب لابي بكر الحازمي : تحقيق عبدالله كنون ـ القاهرة ١٩٦٥ م ٠

١٣٨ـالعربية : يوهان فك ـ تعريب د ٠ عبدالحليم النجار ـ مطبعة دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٥١ م ٠

١٣٩ـعرض موجز للمادية الديالكتيكية : بودوستنيك وياخوت ـ دار التقدم ـ موسكو ١٩٧٢ م ٠

١٤٠ـالعلامة اللغوي ابن فارس الرازي : د ٠ محمد مصطفى رضوان ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٩ م ٠

١٤١_علم اللغة : د · علي عبدالواحد وافي _ دار نهضة مصر للطبع والنشر _ القاهرة ١٣٨٧ هـ _ ١٩٦٧ م ·

١٤٢_علم اللغة : محمود السعران _ دار المعارف _ القاهرة ١٩٦٢ م ·

١٤٣_العمدة لابن رشيق القيرواني : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد _ مطبعة السعادة بمصر _ القاهرة ١٩٥٥ م ·

١٤٤_العين للخليل بن أحمد : تحقيق د · عبدالله درويش _ مطبعة العاني_ بغداد ١٩٦٧ م ·

١٤٥_غريب القرآن لابي بكر السجستاني : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده _ القاهرة ١٩٦٣ م ·

١٤٦_الفائق في غريب الحديث للزمخشري : دار احياء الكتب العربية _ القاهرة ١٣٦٤ هـ _ ١٩٤٥ م ·

١٤٧_الفاضل للمبرد : تحقيق عبدالعزيز الميمني _ دار الكتب المصرية _ القاهرة ١٣٧٥ هـ _ ١٩٥٦ م ·

١٤٨_فتيافقيه العرب لابن فارس : تحقيق د · حسين علي محفوظ _ المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٨ م ·

١٤٩_فروق اللغات للسيد نور الدين الجزائري : تحقيق أسد الله الاسماعيليان _ مطبعة النجف _ النجف ١٣٨٠ هـ ·

١٥٠_الفعل زمانه وأبنيته : د · ابراهيم السامرائي _ مطبعة العاني _بغداد ١٩٦٦ م ·

١٥١_فقه اللغة : د · علي عبدالواحد وافي _ دار نهضة مصر للطبع والنشر_ القاهرة د · ت ·

١٥٢_فقه اللغة وخصائص العربية : محمد المبارك _ دار الفكر _ بيروت ١٩٦٨م ·

١٥٣_فقه اللغة وسر العربية للثعالبي : نشر المكتبة التجارية الكبرى _مطبعة مصطفى محمد _ القاهرة ١٩٣٨ م ·

١٥٤_الفلاكة والمفلوكون لشهاب الدين الدلجي : نشر مكتبة الاندلس ببغداد _ مطبعة الآداب _ النجف ١٣٨٥هـ ·

١٥٥_الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية : جرجي زيدان _ مطابع دار الهلال_ القاهرة د · ت ·

١٥٦ــالفهرست لابن النديم : طبعة المطبعة الرحمانية بمصر د ٠ ت ٠ وطبعة فلوجل ٠ وطبعة دانشكاه طهران ــ تحقيق رضا تجدد ــ طهــران ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١ م ٠

١٥٧ــفهرس دار الكتب المصرية : مطبعة دار الكتاب ــ القاهرة ١٣٥٧هـ ــ ١٩٣٨ م (الجزء ٧) ٠

١٥٨ــفهرس المخطوطات المصورة : تصنيف فؤاد سيّد ــ دار الرياض للطبع والنشر ــ القاهرة ١٩٥٤ م ٠

١٥٩ــفهرسة ابن خير الاشبيلي : تحقيق زيدين وطرغوه ــ نشر المكتب التجارى ومكتبة المثنى ــ ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٣ م ٠

١٦٠ــفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي : تحقيق : محمد محيي الديــن عبدالحميد ــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥١ م ٠

١٦١ــالفوائد الرضوية للقمي : نشر كتابخانة مركزى ــ طهران ١٣٢٧ هـ ٠

١٦٢ــفي التناقض : ماوتسي تونغ ــ دار النشر باللغات الاجنبية ــ بكين ١٩٦٨ م ٠

١٦٣ــفي اللهجات العربية : د ٠ ابراهيم انيس ــ المطبعة الفنية الحديثة ــ القاهرة ١٩٦٥ م ٠

١٦٤ــالقاموس العبرى العملي : رضوان عبده رضوان ــ مكتبة النهضــة المصرية ــ القاهرة د ٠ ت ٠

١٦٥ــالقرآن الكريم ٠

١٦٦ــالقرطين لابن مطرف الكناني (مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة) : نشر مكتبة الخانجي ــ القاهرة ١٣٥٥ هـ ٠

١٦٧ــالقلب والابدال لابن السكيت : تحقيق اوغست هفنر (الكنز اللغوى) المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٣ م ٠

١٦٨ــالقول المقتضب لابن أبي السرور : تحقيق ابراهيم سالم ــ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة ــ القاهرة ١٩٦٢م ٠

١٦٩ــالكامل للمبرّد : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم والسيد شحاتــه ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة د ٠ ت ٠

١٧٠ــالكتاب لسيبويه : المطبعة الكبرى الاميرية ــ بولاق ١٣١٦ هـ ٠

١٧١ــالكشّاف للزمخشرى : مطبعة الاستقامة ــ القاهرة ١٣٦٥ هـ ٠

١٧٢ــكشف الظنون لحاجي خليفة : تحقيق يالتقايا والكليسي ــ وكالــة المعارف ــ استنبول ١٩٤١ م٠

١٧٣ــالكنز اللغوى في اللسن العربي : تحقيق اوغست هفنر ــ المطبعــة الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٠٣ م ٠ انظر : الابل للاصمعي والقلــب والابدال لابن السكيت ٠

١٧٤ــالكنى والألقاب : عباس بن محمد رضا القمي ــ مطبعة العرفان ــصيدا ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م ٠

١٧٥ــلب اللباب في تحرير الانساب للسيوطي : طبعة بالاوفست ــ مكتبة المثنى ببغداد ٠

١٧٦ــلحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : د ٠ عبدالعزيــز مطر ــ دار الكاتب العربي ــ القاهرة ١٩٦٧ م ٠

١٧٧ــلحن العامة والتطور اللغوى : د ٠ رمضان عبدالتواب ــ دار المعارف بمصر ــ القاهرة ١٩٦٧ م ٠

١٧٨ــلحن العوام لأبي بكر الزبيدي : تحقيق د ٠ رمضانعبدالتواب ــالمطبعة الكمالية ــ القاهرة ١٩٦٤ م ٠

١٧٩ــلسان العرب لابن منظور : نشر دار صادر ودار بيروت ــ بيروت ١٩٥٥م ٠

١٨٠ــلطائف اللغة : الشيخ أحمد بن مصطفى اللبابيدى ــ دار الطباعــة العامرة ٠ د ٠ ت ٠

١٨١ــاللغات السامية : تيودور نولدكة ــ تعريب د ٠ رمضان عبدالتوابــ المطبعة الكمالية القاهرة ١٩٦٣ م ٠

١٨٢ــاللغة : فوندريس ــ ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ــ مكتبة الانجلو المصرية ــ القاهرة ١٩٥٠ م ٠

١٨٣ــ ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد : تحقيق عبدالعزيز الميمنــي ــ المطبعة السلفية ــ القاهرة ١٣٥٠ هـ ٠

١٨٤ــالمأثور لأبي العميثل الاعرابي : تحقيق فريتز كرنكوــ لندن ١٩٢٥ م٠

١٨٥ــالمادية الديالكتيكية : جماعة من الاساتذة السوفييت ــ تعريب فؤاد مرعي وجماعة ــدار الجماهير ــ دمشق ٠

١٨٦ــالمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية : ستالين ــ دار دمشق للطباعة والنشر د ٠ ت ٠

١٨٧ـ المباحث اللغوية في العراق : د ٠ مصطفى جواد ـ مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة ١٩٥٥ م ٠

١٨٨ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة : تحقيق د ٠ فؤاد سزكين ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ م ٠

١٨٩ـ مجالس ثعلب : تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٤٨ م ٠

١٩٠ـ مجالس العلماء للزجاجي : تحقيق عبدالسلام هارون ـ وزارة الارشاد والانباء ـ الكويت ١٩٦٢ م ٠

١٩١ـ مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي : نشر أحمد عارف الزين ـ مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٣٣هـ ٠

١٩٢ ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة : د٠ محمد حميدالله ـ دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م ٠

١٩٣ ـ مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه : تحقيق ج برجستراسر ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٤م ٠

١٩٤ ـ المخصص لابن سيده : طبعة بالاوفست ـ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت ٠

١٩٥ ـ المخصص لابن سيده (دراسة ـ دليل) : محمد الطالبي ـ المطبعة العصرية ـ تونس ١٩٥٦م ٠

١٩٦ ـ المدارس النحوية : د٠ شوقي ضيف ـ دارالمعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٨م ٠

١٩٧ ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : د٠ مهدي المخزومي ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٨ م ٠

١٩٨ ـ مراتب النحويين لابي الطيب : تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٥ م ٠

١٩٩ ـ المرشد الى آيات القرآن الكريم وكلماته : محمد فارس بركات ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٥٧ م ٠

٢٠٠ ـ المرصّع لابن الاثير : تحقيق د٠ ابراهيم السامرائي ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ٠

٢٠١ ـ مروج الذهب للمسعودي : تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ مطبعة دار الرجاء ـ القاهرة ١٩٣٨م .

٢٠٢ ـ المزهر للسيوطي : تحقيق محمد احمد جاد المولى وجماعة ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة د. ت.

٢٠٣ ـ المسائل والاجوبة لابن قتيبة : نشر مكتبة القدسي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٤٩هـ .

٢٠٤ ـ المصباح المنير للفيومي : تحقيق حمزة فتح الله ـ المطبعة الاميرية ـ القاهرة ١٩٢٦م .

٢٠٥ ـ معاني الشعر للاشناندانى : تحقيق عزالدين التنوخي ـ وزارة الثقافة والسياحة ـ دمشق ١٩٦٩ .

٢٠٦ ـ معاني القرآن للفراء : تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية ١٩٥٥م (الجزء الاول) والدار المصرية للتأليف والترجمة ـ مطبعة سجل العرب ـ القاهرة د.ت (الجزء الثاني) .

٢٠٧ ـ معجم الادباء لياقوت الحموي : نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي ـ وزارة المعارف العمومية ـ القاهرة ١٩٣٦م .

٢٠٨ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم : مجمع اللغة العربية في القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .

٢٠٩ ـ معجم المطبوعات العربية والمعرّبة : يوسف اليان سركيس ـ مطبعة سركيس ـ القاهرة ١٩٢٨م .

٢١٠ ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٦٤هـ .

٢١١ ـ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ـ نشر المكتبة العربية ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٥٧م .

٢١٢ ـ المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنية الساميّة : الأب مرمرجي الدومنيكي ـ مطبعة الآباء الفرنسيسيين ـ القدس ١٩٣٧م.

٢١٣ ـ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ مطبعة المدني ـ القاهرة د.ت.

٢١٤ ـ مقاييس اللغة لابن فارس : تحقيق عبدالسلام هارون ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٣٦٦هـ .

٢١٥ ـ مقدمة ابن خلدون : نشر ورثة الشيخ محمـد عبدالخالق المهدي ـ المطبعة الازهرية ـ القاهرة ١٩٣٠م ٠

٢١٦ ـ مقدمـة في الاصـول اللغويـة المشتركـة بين العربيـة والعبرية : محمد حسين آل ياسين ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٧١م ٠

٢١٧ ـ مقدمة لدرس لغة العرب : عبدالله العلايلي ـ المطبعة العصرية بمصر د٠ت٠

٢١٨ ـ المقلوب لفظه في كلام العرب والمزال عن جهته والاضداد لابي حاتم السجستاني : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ ٠ انظر : الاضداد لأبي حاتم ٠

٢١٩ ـ الملاحن لابن دريد : تحقيق ابراهيم اطفيّش الجزائري ـ المطبعـة السلفية ـ القاهرة ١٣٤٧هـ ٠

٢٢٠ ـ من أسرار اللغة : د٠ ابراهيم أنيس ـ المطبعـة الفنيـة الحديثـة ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٦٦م ٠

٢٢١ ـ المنطق : الشيخ محمدرضا المظفر ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة النعمان ـ النجف ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ٠

٢٢٢ ـ المنقوص والممدود للفراء : تحقيق عبدالعزيز الميمني ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٧م ٠

٢٢٣ ـ الموازنة للآمدي : تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ٠

٢٢٤ ـ النثر الفني في القرن الرابع : د٠ زكي مبارك ـ دار الكتب المصريـة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤م ٠

٢٢٥ ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى الأتابكي : طبعة بالاوفست عن طبعة دار الكتب ـ القاهرة ٠

٢٢٦ ـ نزهة الالباء في طبقات الادبـاء لابي البركات الانبـاري : تحقيق د٠ ابراهيم السامرائي ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٩م ٠

٢٢٧ ـ نشأة اللغة عند الانسان والطفل : د ٠ علي عبدالواحد وافي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٤٧م ٠

٢٢٨ ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري : تحقيق علي محمد الضبّـاع ـ مطبعة مصطفى محمد ـ القاهرة د٠ت ٠

٢٢٩ ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها : الاب انستاس ماري الكرملي ـ المطبعة العصرية ـ القاهرة ١٩٣٨م ٠

٢٣٠ ـ نظام الغريب للربعي : تحقيق بولس برونله ـ مطبعة هندية بالموسكي ـ القاهرة د٠ت٠

٢٣١ ـ النظرية الفلسفية العامة لتطور الكون والمجتمع : ستالين ـ تعريب خالد بكداش ـ مطبعة القاعدة ـ بغداد ١٩٥٢م ٠

٢٣٢ ـ النظرية المادية في المعرفة : روجيه غارودى ـ تعريب ابراهيم قريط ـ دار دمشق للطباعة والنشر د٠ت٠

٢٣٣ ـ نفائس المخطوطات (المجموعة الاولى) : تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٣م ٠ انظر : الاضداد في اللغة لابن الدهان ٠

٢٣٤ ـ نكت الهميان في نكت العميان للصفدي : وقف على طبعه أحمد زكي ـ مطبعة الجمالية ـ القاهرة ١٩١١م ٠

٢٣٥ ـ النوادر في اللغة لابي زيد الانصاري : تحقيق سعيد الخوري الشرتوني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧م ٠

٢٣٦ ـ نور القبس لليغموري : تحقيق رودلف زلهايم ـ نشر فرانتس شتاينر ـ فسبادن ١٩٦٤م ٠

٢٣٧ ـ هدية العارفين : اسماعيل البغدادي ـ نشر وكالة المعارف ـ استانبول ١٩٥١م ٠

٢٣٨ ـ هل العربية منطقية : الاب مرمرجي الدومنيكي ـ مطبعة المرسلين اللبنانيين ـ جونية لبنان ١٩٤٧م ٠

٢٣٩ ـ الوافي بالوفيات للصفدي : تحقيق هلموت ريتر ـ نشر فرانز شتاينر ـ فسبادن ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م ٠

٢٤٠ ـ الوضع : محمد تقي الحكيم ـ مطبعة العاني ـ بغداد ١٣٨٥هـ ٠

٢٤١ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٤٨م ٠

٢٤٢ ـ يتيمة الدهر للثعالبي : طبع بنفقة علي محمد عبداللطيف ـ مطبعة الصاوي ـ القاهرة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤م ٠

الاجنبيــــة :

٢٤٣ ـ

CHAIM RABIN: ANCIENT WEST-ARABIAN, LONDON 1951.

٢٤٤ ـ

DJAMBATAN: HISTORICAL ATLAS OF THE MUSLIM PEOPLES, AMSTERDAM 1957.

المجـــلات :

٢٤٥ ـ اسـلاميكا Islamica : تصدر في المانيا ـ المجلد الخامس ١٩٣١م ٠

٢٤٦ ـ الاقـلام : تصدرها وزارة الاعلام في بغداد ـ الجزء الرابع ـ السنة الاولى ١٩٦٤م ٠

٢٤٧ ـ الشريعة : تصدرها كلية الشريعة في جامعة بغداد ـ العـدد الرابع ١٩٦٨م ٠

٢٤٨ ـ اللسان العربي : تصدر في المغرب ـ المجلدان الثامن والتاسع ١٩٧٢م ٠

٢٤٩ ـ المجمع العلمي العربي : تصدر في دمشق ـ المجلدات ٣٩ و ٤٠ و ٤٧ ـ ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٢م ٠

٢٥٠ ـ مجمع اللغة العربية الملكي : تصدر في القاهرة ـ الجزء الثاني السنة الاولى ١٩٣٥م ٠

٢٥١ ـ المكتبة : تصدرها مكتبة المثنى ببغداد ـ العدد (٥٥) السنة السابعة ١٩٦٦م ٠

٢٥٢ ـ المورد : تصدرها وزارة الاعلام في بغداد ـ المجلد الأول ـ العددان الاول والثاني ١٩٧١م ٠

Summary of This Research

The first scientists kept for us language materiale and its words by early writings. Their books and dictionaries have shown to be full of these materials and words, beginning from the last decades of 2nd Hegra Century. Such writings covered various aspects of language in different way. Some book concerned with collecting words and theis classification like dictionaries as to alphabetical method like Al-'Ain, Jamhara, Barie, Tahthib and Al-Muhit etc. Some concerned with subjects which include many of Arabic words like creation of man, horses, weapons, Palnts & so on. Some concerned with meaning by collecting and classification of words showing different data of these, books of common, similarity and opposites. This was because language experts have found in these surprising and strange anathers and linguistic problems left by Arabic language history.

Books of apposites continued collecting these sorts of words referring to their strange in the language and its surprising look in Arabic depending in that to story and extracts from Arabs. This resulted in writing about 30 books in apposites, starting at "Kotrob" 206 H. and ended at contemporary modern books. It is worth mentioning that story by Arabs on apposites has stopped after issuing of first generation books on this subject, because these story-tellers were those who heard from narrators their told material like Kortob, Al fara 'Abu obaida, 'Asmaie and others, Because who came after them depended on theis books when writing in these subjects quoting from them whatever they wanted. Their books shown different sects of which some were school directed in a clear sort like Ibn Anbari & Abu Al-Tayeb from Kufa and Ibn Darastawayh & Amedi from Basrah.

It is no surprise to see the wish in serving Qoran was the basic incentive of oppositists for writing their books, when they saw that some of Qoran words can be interepreted at more than one meaing vaguing at opposite. There fore, their books were filled with texts

of holy book artifying to their simxilarity and having respect, caution to their meanings without interpreting their exact meanings of the Qoran words because it may differentiate from that intended in the Qoran which is sacred, ignoring that Arab methods had not yet been settled after a while of Qoran inspiration. Therefore, the Qoran was an echo for non-settlement of language because of its content of usages which vanished afterwards from Arab methods. Reader of Qoran language feels this clearly in the matter of male and female in grammar and special Quraishi usages and in advancing and later adjectives and cancelling. etc. Which was of remnant dialects unified by Qoran and increased their unfication grammar and linguistic studies in the first and second centuries. If the Moslem student sead "Dhanna" in a Qoran text, the first will be belief, as keen on its solemnity, be would say it is doubtful and belief; therefore, it is of opposites, without thinking that Qoran wanted it a meaning near to belief, though not fully, because in "thinking" a large part of Knowledge. Like it "Asa" which comes also as doubt and belief as the former. Also "Asarr", "Foq", "Bein", "Asas", "Al-Qor", "Akhfa", "Qist" etc. of words which discussed apposites in such books from "Qotrob" to "Al-Saghani" and its opposity is socalled because of such ideal look to Qoran tonque.

Therefore, the books of first fatch summarized and of little material because the efforts were concentrated to serve Qoran language in the first place, referring to the apposites in prose or poetry, but eventhese words had some relation at Qoran words. And the wish in statistics and increment began growing after opposites studies which pushed some of writers to undertake a difficult task in words for from apposites and had no idea in opposites unless by remote interpretations assisted by Qoran readings and Arab tribes dialects and language methods in fugirative clauses to reach to the cherished majority. Withnesses for such push were the books of Al-Tuzi, Ibn Sekkit, Sajustani, Ibn Faris & others. It is true that books of Tha'xlab, Ibn Anbarie & Abu Tayeb, included much of this, yet it is to be recalled that as their scholastic programme, have considered story and quotation basically and principally; therefore they depended

it fully and their books were enlarged to such shape. Further, Ibn Anbari, for instance stated that some reasons for writing his book was to replay to strangers who criticized the wisdom of language and its clarity. Therefore, the reply should have been detailed to meet the need.

On the other hand, this un studied expansion, resulted in reactions with some students. Some jealous Basrawis, with some fanaticsm, replied to those who wrote much on opposites, delated the words and stopped those who confirmed their case. Of these was Ibn Darastawayh in his book (Ceasing the apposites) which was followed by Al-Amedi in his book (Latters from origins in Opposites). In fact both has mistaken and deviated the way by their admittance as Ibn Anbari said, there are many reasons which created the opposites of which he mentioned differentiation of dialects, methods and clearity of data who were only few whose were admitted by Ibn Dartawayh. These, however, cannot be denied follwing their true stories of Arabs.

As a result of so many books written on opposites and the difficulty of knowing them all by a newly educated man, a group of linguistts have undertaken to write short and useful book in apposites in which they only mention the word and its meanings without giving withnesses or commenting on them as done by Ibn-Dahhan and Al-Saghani in their books in order to be easy for those who want to comment on opposite words and keep them by heart. Their method was followed by modern books like "A Booklet in some words used in opposites found in Al-qamoos" and "Munabbih Al-Ruqqad in mentioning some of opposites". Yet writing in opposites after Al-Saghani went on as wish of the writer in partnership which lead him to useless things because of traditional follow-up of formers' steps in writing without adding to their researches new things unless from the aspect of shape as "Dauraq Al-Andad" by Al-Abiary, or "Short in opposites of Ibn Anbari" by Al-Timimi and others. As to the writings of Al--Ataiqi, Al-Madani, Mulla Hassan, Al-Khaliji and Tankabini, these are of weak partnership and rough similarity because of not their containing, as it is clear, except some things of old material existing in opposite books.

فهرس مواد الكتاب

التمهيـــد

العربيـــة وطرائق نموهـــا

١٣ ـ ٥١

الباب الأول

٥٣ ـ ٢٩٩

الفصل الاول

الدلالة وتطورها في اللفظ والصوت

٥٣ ـ ٩٦

الفصل الثاني

فكرة الأضداد وتفسيرها في اللغة

٩٧ ـ ٢٤٢

الفصل الثالث

مواقف الدارسين من الاضداد ومناهجهم في دراساتها

٢٤٣ ـ ٢٩٩





تنبيه للقاريء الكريم

وقــع سهو طباعي في ص ٢٢ اِذ وضعت الكلمات العبرية مقلوبة ٠ ومثل هذا السهو وقع في ص ٢٦٩ اِذ وضعت الكلمتان العبريتان الواحدة مكان الاخرى ٠ وقد وجب التنبيه الى ذلك ٠ كما ان هناك أغلاطاً طباعيــة اخرى أقل أهمية من هاتين آثرنا عدم النص عليها لعدم خفائها على القاريء المدقق ٠